

أ. ب. كلـوت بك

لمحة عامة إلى مصر

ترجمة وتحرير محمد مسعـود

تقديم أ. د. أحمد زكريا الشّلق

هذا الكتاب

من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر» فقد أشار إلى تقديره وإكباره «لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة» ، وكان يرى كذلك أن أحدا لايستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة «منجن» الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها «نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولاتنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر» .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعايشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

تصميم الغلاف: محمد عماد

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

أ.ب. كلــوت بك

لمحة عامة إلى مصر



أ.ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر

ترجمة وتحرير

محمد مسعود

تقديم

أ.د. أحمد زكريا الشِّلق



الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

كلوت بك، أنطونى برتلمى، ١٧٩٣ - ١٨٦٨.
لمحة عامة إلى مصر/ أ. ب. كلوت بك؛ ترجمة وتحرير محمد مسعود. . القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ، 2011-
٦٥٤ ص؛ 24 سم.
تدمك 2 - 0790 - 18 - 977 - 978
١ - مصر . تاريخ
٢ - مصر . الأحوال السياسية
٣ - مصر . الأحوال الاقتصادية
٤ - مصر . الأحوال الاجتماعية
أ - مسعود، محمد (مترجم ومحرر)
ب - العنوان

٩٦٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٤٢٤٠

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0790 - 2

تقديم

كان للفرنسيين ، وربما لايزال ، شغف خاص بمصر ، وقد قدم العديد من المفكرين ورجال السياسة والدبلوماسية مشروعات ـ تغرى الحكومات الملكية فى فرنسا باحتلال مصر ، بل إن العديد من القناصل والتجار والرحالة والمغامرين ورجال الدين الفرنسيين ، صاروا يحبذون الفكرة لدى حكومتهم مدفوعين بفكرة تفكك الدولة العثمانية . والرغبة فى توطيد مركز فرنسا التجارى فى مصر وفى الشرق عموما ، غير أن إرهاصات الثورة الفرنسية صرفتها مؤقتا عن الغزو والاستعمار .

لقد كان هؤلاء يرون أن مصر هى أخصب بقاع الأرض قاطبة ، تنمو بها المحاصيل دون مشقة ، كما أنها بلد صحى المناخ ، ولايبعد عن شواطئ فرنسا الجنوبية كثيرًا ، ولاتستطيع دولة أوربية أن تنازع فرنسا فى احتلالها . . . وعندما قامت الثورة فى فرنسا وأعلنت الجمهورية ، أقدمت على غزو مصر بإرسال حملة بونابرت الشهيرة (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) التى احتلت مصر نحو ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، لم يتهيأ للفرنسيين خلالها الاستقرار اللازم لتحقيق استراتجيتيهم ، للأسباب المعروفة التى أدت إلى فشل الحملة ، وعلى رأس هذه الأسباب المقاومة العنيدة من الشعب المصرى . ومن المهم التأكيد على أننا لاينبغى أن نبالغ فى الإشادة بأهمية الاحتلال الفرنسى للمصر من حيث اتصالها بالمدنية الحديثة أو نعتبر أن هذه الغزوة بمثابة نقلة حضارية لمصر من عالم العصور الوسطى إلى عالم الحضارة الحديثة ، فلا ننسى أن هذا الاتصال جاء قسراو فى إطار حملة عسكرية غازية وأنها ووجهت بمقاومة مستمرة ، كما أن المصريين أبدوا تحفظا خاصا تجاه الحداثة التى قدمها الغزاة على ظهور المدافع ، ويجب التأكيد على أن أعظم ماحققه الفرنسيون هو تقديم مصر للغرب ، أكثر من تقديم حضارة الغرب لمصر أو التأثير فى المصريين .

وفى المقابل ينبغى الإشارة الى أن الاحتلال الفرنسى لمصر قد أفادها بقدر ما ، ودون قصد ، ذلك أن وجه الحملة الحضارى لم يكن مقصوداً به تحديث مصر ، لكن انتفاع المصريين بالظروف التى أوجدتها الحملة كان بمثابة النفع الذى يأتى من الضرر ، أو التنبُّه الذى أثاره التحدى . . . كما أن الاطلاع على ما فى يد المحتلين من أدوات القوة والحضارة الحديثة ، كان قمينا بإثارة نوازع الفضول الذى يفضى إلى تشكيل وعى جديد . قد يتحول إلى حركة نحو التقدم .

وهذا التقدم هو الذى دفع محمد على باشا (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) إلى أن يتجه نحو أوربا ونهضتها ليفيد منها ، عندما أراد أن يبنى فى مصر دولة حديثة ، وهو الذى دعاه لإنشاء ادارة حديثة وجيش عصرى واقتصاد جديد ، ومن هنا أقام مع أوربا ونهضتها جسورا واضحة أهمها استقدام الخبراء والمعلمين والفنيين للتدريس والتدريب فى مدارسه ومصانعه وجيشه ، وإرسال البعثات التعليمية للنبهاء من تلاميذ المدارس إلى مختلف دول أوربا للتعلم والاستفاده من منجزاتها ، ثم إقامة حركة ترجمة واسعة ونشطة لمختلف العلوم والفنون الأوربية إلى اللغة العربية . ومن الثابت أن مجىء كلوت بك إلى مصر عام ١٨٢٥ كان جزءا من سياسة محمد على « الذى سعى إلى أن يجلب إلى مصر التمدن والمعارف والصنائع الأورباوية ، فعندما رأى عظم ثمرة الارسالية الفرنسية فى هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا» ورأى أن يأتى بأطباء فرنسيين للمحافظة على صحة جيشه ، ومن هنا جاء كلوت بك لتولى وظيفة «جراح باشى» مشترطا أن يكون حرًا فى العمل ، وأن يظل على ديانته المسيحية ، وألا يجبر على السير فى ركاب الجيش .

***

ذلك هو كلوت بك (نوفمبر ١٧٩٣ ـ أغسطس ١٨٦٨) مؤلف هذا الكتاب والذى يحمل اسم انطوان بارتلى ، وقد ولد لأسرة فقيرة فى جرينوبل بفرنسا وتعلم فى مدرسة خيرية بمرسيليا ، وبدأ فى ممارسة الطب والجراحة عمليا مساعدا لطبيب كان صديقا لوالده يدعى الدكتور «سابيه» ، حتى نبغ فى الجراحة ، والتحق بمدرسة الطب فى مونبليه ، والتى حصل منها على الدكتوراه فيما بعد (عام ١٨٣٠) . وقد عرض عليه أحد التجار الفرنسيين أن يقبل وظيفة جراح باشى فقبلها وجاء إلى مصر عام ١٨٢٥ وبلغ شهرة كبيرة بها حتى صار جراح محمد على الأول بين عامى ١٨٢٨ و ١٨٣٨ ، كما أن الباشا استعان به لتنظيم الخدمة الصحية ، فأسس مدرسة للطب فى مصر فى أبى زعبل فى فبراير ١٨٢٧ والتى نقلت إلى مكانها الحالى بقصر العينى فى أوائل عام ١٨٣٧ . وقد أتاحت لها إدارته المتصلة مدى اثنين وعشرين عاما حظا كبيرا من الاستقرار والتقدم ، وكان قوى الشخصية فتخرج على يديه جميع الأطباء فى مصر ممن درسوا فى القصر العينى ، كما بذل جهودا كبيرة فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الاجنبية إلى اللغة العربية . وقد استطاع كلوت بك هو وطاقم من زملائه من الأوربيين تدريب الكثير من الاتراك والمصريين فى القاهرة ليصبحوا جراحين فى الجيش ، كما صحب عام ١٨٣٢ عددا من خيرة تلاميذه المصريين إلى باريس للدراسة المتخصصة والتدريب .

وقد أذن له محمد على بالسفر إلى فرنسا عام ١٨٣٩ بعد زواجه ، وهناك أعد كتابه « لمحة عامة إلى مصر» الذى نشره فى باريس عام ١٨٤٠ ، ليعود فى نفس العام إلى مصر ويظل يمارس عمله حتى وفاة محمد على .

وما كاد عباس باشا (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤)يتولى مقاليد الحكم حتى كان أول أعماله إلغاء أكثر المدارس التى أسسها محمد على ورأى إبعاد الموظفين

الأوروبيين وفى مقدمتهم كلوت بك ، الذى بادر بتقديم استقالته فى ابريل عام ١٨٤٩ وقد قدرت الحكومة المصرية خدماته مدى خمسة وعشرين عاما للصحة والطب فى مصر ، فقررت أن يصرف له نصف مرتبه السنوى مدى حياته ، وبعد رحيله فقدت مدرسة الطب أهميتها حتى انتهى حكم عباس . وعندما تولى محمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) عاد كلوت بك إلى مصر مرة أخرى وتولى إدارة مدرسة الطب وتحمل مسئولية تنظيم الادارة الصحية والطبية فى البلاد وأعاد الحياة الى مدرستى الطب والولادة . وصار المفتش العام للصحة فى مصر ، ومما يذكر له أنه وضع لائحة لتأسيس مدرسة جديدة للطب تكون ملحقة بمستشفى قصر العينى ، افتتحت فى سبتمبر ١٨٥٦ وفى خطبة افتتاحها دافع كلوت بك عن رأيه فى وجوب إدخال الدراسات العلمية فى مصر بواسطة لغة البلاد وعن طريق المدارس الوطنية ، هذا مع عدم اغفال تدريس اللغة الفرنسية للطلبة حتى يستطيعوا قراءة المراجع الفرنسية . والمعروف أن الرجل أثار غيرة منافسيه الألمان وغيرهم فكثرت دسائسهم ضده ، مع تقدم سنه وضعف صحته ، مما حال دون مواصلته النضال فى سبيل المحافظة على نظام المدرسة التى ارتبط تاريخها باسمه ، فاضطر إلى اعتزال العمل والعودة إلى وطنه عام ١٨٥٨ ، فقدر سعيد باشا جهوده وأمر بمنحه كامل مرتبه طوال حياته .

***

من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر» فقد أشار إلى تقديره وإكباره «لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة» ، وكان يرى كذلك أن أحدا

لايستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة «منجن» الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها «نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولاتنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر» .

لقد كان كلوت بك من المؤمنين بعظمة محمد على باشا ، وربط بين جهود الحملة الفرنسية وجهوده ، وذكر أن محمد على « وضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين ، فكان بجلائل فعاله خير تعزية لمجدنا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل . . ففى عصره نهضت مصر من كبوتها وهبت من سباتها . .»

لقد رأى كلوت بك أن له الحق ، وقد أقام بمصر خمسة عشر عاما ، تقصّى فيها أحوال أهلها وعاداتهم ، وفتش عن استعداداتهم وعبقريتهم ، وشهد أثناءها ـ كمتفرج أو ممثل – كل ما أدخل فيها من مستحدثات . ومن هنا كان يرى أن له الحق فى أن يدلى بشهادته ورؤيته .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعايشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

وقد قدم المؤلف فى البابين الأول والثانى لمحة عن طبيعة مصر الجغرافية . فكتب عن شكل الأرض وطبيعة الطقس والمناخ ونهر النيل والبحيرات ،

والمعادن والنباتات والحيوانات والطيور والأسماك ، والسكان وأعراقهم . أما الباب الثالث فقد خصصه للحديث عن السكان وتوزيعهم الديموجرافى . وكتب عن وسائل زيادة السكان وموانع الاصلاحات التى قام بها محمد على . والتى رأى أن من أهمها «وجود جيش كبير ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاولة الزراعة .»

أما الباب الرابع فقد اختص بالحديث عن الديانات والمذاهب ، فكتب عن الإسلام وقواعده وآدابه والعبادات . كما كتب عن اليهود والأقباط ، ثم تناول فى الباب الخامس التشريعات والقوانين ونظم العقوبات ، والنظام القضائى بشكل عام . واستمر فى الباب السادس يدرس أوضاع المسلمين وعاداتهم وطبقاتهم الاجتماعية ، ووضع الأسرة ، والرق والملابس ، والزواج والأثاث والرياضة والموسيقى والاخلاق . وقد بدا فى هذا الباب وكأنه يحذو حذو إدوارد وليم لين فى الحديث عن عادات المصريين وتقاليدهم وطبيعة حياتهم . ولم يغفل المؤلف أن يوضح أوضاع العناصر الأخرى من السكان كالعربان ، والأتراك ، والأرمن واليونانيين والسوريين ، ونشاط القناصل والتجار الفرنجة .

وفيما يتعلق بالحكومة والأنظمة السياسية فقد عالجه المؤلف فى الباب الثامن الذى تناول فيه وضع الحكومة وطبيعة الوظائف والموارد المالية وتكوين الجيش . وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة تناول كلوت بك الأوضاع الاقتصادية ووضع التعليم ، مركزا على نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على . فضلاً عن الشئون الصحية والأمراض الشائعة ، وهى الأمراض التى جاء كلوت بك إلى مصر لعلاجها .

وتكمن أهمية هذا الكتاب ليس فقط فيما قدمه من معلومات مهمة ، وإنما فى نظرة المؤلف المعاصرة لما رآه وشاهده بنفسه ، فضلاً عن ضرورة رؤية المجتمع

المصرى فى مرآة الآخرين ، وهى بطبيعة الحال تختلف عن رؤيتنا لأنفسنا . ونود أن نشير فى النهاية إلى أن كلوت بك له كتاب آخر عن تاريخ محمد على نشره فى مرسيليا عام ١٨٦١ ، فضلا عن كتاباته الطبية الخاصة بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، والتى نشرها عام ١٨٣٢ . وإذ نشيد بإقدام دار الكتب المصرية لإعادة طبع هذا الكتاب المهم ، بمبادرة كريمة من رئيسها المؤرخ الكبير أد .محمد صابر عرب ، فإننا نتمنى أن يفيد منه الباحثون وعامة المثقفين .

والله ولى التوفيق

أد . أحمد زكريا الشّلق

مارس ٢٠١١

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب		
م	الموضوع	الصفحة

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

تمهيـــد:

لقد عم الاهتمام بمصر وشئونها فى هذه الأيام بلدان العالم جميعا. إن هذا القطر الـذى كان فيما سلف مـن الزمان مهد الحضـارة والعرفان قـد خيمت عليه منذ زمـن طويل عناكـب النسيان فظل خامـل الذكر حتى أواخـر القرن الأخير حيث جـاءت الحملة الفرنسيـة فمزقـت ذلك الحجاب ووجهـت نحوه أنظـار العالم مـن أقصاه إلى أقصـاه. ذلك لأنـه بعد أن فشلـت هذه الحملـة وانتهت بما هـو معلوم من النتائج التعسـة والعواقب السيئة ظهـر فى الميدان رجل ذو عبقـرية عاليـة فوضع يـده على ماتـركت فرنسـا بمصر من التراث الثمين فكـان بجلائل فعـاله خير تعـزيـة لمجدنـا العسكرى وأجمل سلـوان لعلمائنا الفطاحل على ما ختمت مساعيهـم به من الخيبة والفشل. أجال ذلك الرجل نظره فيما أودعناه أرض الفراعنة مـن بذور الحضارة ورويناه به من دمائنـا فتعهده بعناية حتـى طلع نبته وأثمـر. بهمته السامية. عـادت الآفاق فـرددت أصوات الأبـواق الفرنسيـة فى سهول الأهـرام وأبى قير وعكـا وعين شمس، كأنما ودت أن ترضـى أبطالنا فى أجداثهم الذين لقوا الحتوف فى هذه الميادين. فلقد عهـد إلى لفيف من الفرنسيين تعليم الجيوش الإسـلامية فنون القتال وتدريبها على طرائقنا العسكرية وأساليبنا الحربية ونشر عبقرية الأمة الفرنسية. فى الآن الـذى لاح فيه طالع السعـد الميمون بأفق الشرق. منـذ هذا العهـد نهضـت مصر من كبـوتها وهبـت مـن سبـاتها وحيت حيـاة طيبـة فأصبحـت من أقـوى العوامـل فى أهم مسـألة تضـاربت بشـأنها صوالـح السيـاسة واختلفـت بسببها المذاهـب فى العـالم القديـم. إن مصر بجهودهـا

الذاتية ومـركزها بالنسبة لـلأمم الأخرى أصبحت من خطـر الشأن ورفعة القدر بحيث ظهر أن البلدان الجديرة مثلها بالتوسع فى بيان أحوالها والإحاطة بأطراف عاداتها أندر من الكبريت الأحمر.

وإنى لأعلم يقينا أن الاهتمام بمصر لم يكن وليـد اليوم، وأن طائفة كبيرة من المصنفـات النفيسة قـد وضعت عنها غـابرا وحـاضرا باحثـة فى أحوالها ومستوعبـة أخبارها وحـوادثها بل أن منهـا مؤلفا جليـلا يسمو عليها سموا عظيما حتى أن الكاتب الذى تستفزه الرغبة إلى الكتابة عن مصر قلما يستطيع الإقبال على عمله قبـل أن يؤدى إلى هذا المصنف مفروض الإتـاوة من الإكبار والإجلال.

أريد به مجمـوعة المذكرات التى دونها المجمع العلمـى المصرى، وهى أثر علمى جليل . بل موسوعات نافعة تستتشف من خلال أسطرها عبقرية الرجل العظيم الذى رسـم أسلوبها وخطط برنامجها واستطاع بمن استجمعهم حوله من ذوى الكفاءات العالية الوصول بها الى الغاية التى رسمها لها.

وفى الوســع أن نذكر بعـد هذا المصنـف العظيم الذى ليـس هو الأول ولا الأخير من أعمالنا الجليلة الموجبة للفخر مصنفات أخرى لا عداد لها، جديرة ـ والحق يقال ـ بـالإطراء والحمد، نذكـر مما نشر منها قبل الحملـة الفرنسية مصنف العـلامة (سفرى) ورحلـة (فولنى) التـى برزت حقائق العلـم ودقة الملاحظة منهـا فى ثوب قشيب من الإنشـاء الذى تتفجر منه ينـابيع الحماس والقـوة، وكذا مصنـف (سـونينـى) الجدير بـالاعتبـار لأسبـاب شتى. أمـا المصنفات الحديثـة فنورد منهـا كتاب الـرحلات للـدوق (دى راجوز) فـإن القسم المخصص منه لمصر يحتوى كثيرا مـن البيانات المفيدة والآراء العلمية الصـائبة، وكتـاب «رسـائل فى الشرق» من إنشـاء مـؤلـف تاريـخ الحروب الصليبيـة وصديقـه العـلامة (بـوجـولا) وكتـاب «رحلة دى كـدالفين ودى بروفرى» وكتاب العلامة (و. لان) فى مجلـدين عن أحوال المصريين وعاداتهم وأخيرا مصنفات العـلامة (منجـن) التى تحتـوى سيرة محمد على وتـاريخ حكمه مبنيا على بيانات وتفاصيل امتازت بالدقة والصدق.

وثمة مصنفـات لاعداد لها أقل من تلـك أهمية من حيث تحقيقهـا شئون مصر وتمحيصهـا وأطـوار أهلها وعـاداتهم، وإنما بـالـرغـم مما تـوافـر فى المصنفات التى نشرت حتى اليوم من المزايـا والفوائد لايزال فى كل منها نقص

أو عيب. إما لأن البعض منها قد أصبح عتيقا لاتنطبق أخباره على حقيقة الواقع فى عهدنا لما يكون قد طرأ عليه من التبديل والتغيير، وإما لأن البعض الآخر لايتناول من أحوال مصر سوى الحوادث الطارئة والأحوال العارضة التى تزول بزوال أسبابها، وإما لأن هذه المصنفات لم تكن وقفا على مصر بل كل ما ورد عنها فيها عبارة عن موجز لايتناول إلا المهم من أحوالها، وهو مايؤخذ منه أنه لم يكتب عن مصر مصنف جامع لشتات أحوالها ملم بأطراف عاداتها وأننى لذلك تصديت لتأليف هذا الكتاب الذى أقدمه إلى جمهور القارئين سدا لما ذكر من الخلل وإتماما لما تقدم من النقص.

وقد أكون بما تخيلته فى نفسى من القوة والكفاءة عندما أخذت بتأليف هذا الكتاب مخدوعا بالأمانى. فسواء أخطأت فى هذا الحدس أم أصبت فلى، وقد أقمت بمصر خمسة عشر عاما تقصيت فيها أحوال أهلها وعاداتهم وفتشت طويلا عن استعدادهم وعبقريتهم وشهدت أثناءها كمتفرج أو ممثل كل ما أدخل فيها من المستحدثات ، كل الحق فى أن أباشر بنفسى السير على الخطة الموضوعة للوصول إلى الغاية التى جعلتها مطمح جهدى ومرمى عملى.

على أنه لم يتح لى أن أبدأ بمزاولة هذا العمل إلا منذ أشهر قلائل. وأول ما انصرف إليه خاطرى بادىء الأمر استهلال البحث الذى كنت أكتبه عن الطاعون بلمحة إلى مصر من الوجهتين الطبيعية والطبية. إلا أننى ما انتهيت من استجماع المواد اللازمة لذلك حتى ألفيتها — لإتساعها وكثرة عددها — متجاوزة الحد الذى رسمته لعملى. فآثرت حينئذ أن اتخذ منها أساسا لمصنف خاص آليت على نفسى إتمامه، لأن الاسئلة التى كانت توجه إلى عن مصر كلما رحلت إلى أوروبا باعثة على الدهش = الدهشة = والعجب. فلقد التقيت بكثيرين ممن اشتهروا بوفرة العلم وسعة الإطلاع وفرط الذكاء فاستخلصت من الأسئلة التى كانوا يوجهونها إلى عن مصر أن معلوماتهم عنها مبتورة مغلوطة غريبة فى ذاتها. بل إنها من الغرابة بحيث استقر فى خلدى أننى إذ قمت بتصنيف كتاب صغير الحجم ألم فيه بأحوال مصر إلماما عاما أكون قد قمت بعمل نافع مفيد.

ولست أنكر على القارىء أنه كان من أشهى الأمور إلى نفسى أن تتاح لى الفرصة لإطالة النظر فى هذا العمل وقتله بحثا وفحصا قبل الشروع فى تدوينه. لأنه بالحالة التى أقدمه بها إلى القراء مابرح بادى النقص جم العيوب. ولكن لما كان الوقت الحاضر من أوفق الفرص وأنسبها لنشره لأن

البحث فى حياة مصر ومستقبلها قد لاكته الألسنة كثيرا فى هذه الأيام وأصبح موضوع الجدل والمناقشة بين أرباب الصحف وأقطاب السياسة فى الأقطار الأوروبية قاطبة فقد سارعت إلى تقديم هذا المستند ضمن مستندات القضية المصرية التى أضحى الحكم فيها من أولئك الأقطاب قاب قوسين أو أدنى. ذاك هو الباعث الذى حملنى على التعجل بتحرير هذا المصنف. ورجائى من القراء وقد قدمته إليهم مبتورا منقوصا، أن يسحبوا عليه ذيل الإغضاء متجاوزين عن السقطات التى زالت فيها البراعة عند تحريره. وإذا كانت هذه أول مرة عهدت فيها إلى الطباعين مصنفا طويلا كان رائدى فيه العجلة فى إنجازه فما أحرانى بصفحهم وأشد حاجتى إلى تجاوزهم وعفوهم.

ولست بمتكلم عن التقسيم الذى راعيته فى هذا المصنف، وغاية ما فى وسعى أن أقوله أننى اتبعت فيه ما خلته أكثر انطباقا على وجوه الصواب من غير، وهو ما سيقتنع القراء به متى مروا بنظرهم على فهارس مواده. وأكرر القول بأن الغرض الذى أرمى إليه هو الكلام على جميع مايرتبط بمصر بأوفى ما يستطاع من البيان، مع رعاية الاختصار لضيق المجال الذى حددته بنفسى لنفسى فارضا عليها ملازمته وعدم تخطيه إلى ما بعده ومن ثم يبدو للناظر أثر عنايتى بترتيب المواد وتنسيقها فى مواضعها اللائقة بها.

ومما لاشك فيه أننى تصديت للبحث فى كثير من المسائل الخارجة عن دائرة اختصاصى. فلتحريرها وتدوين حقائقها قد استعنت بالمصنفات الجليلة التى قصدت للبحث فى كل منها مع رجوعى إلى الأخصائيين المعروفين من أصدقائى الذين آزرونى بآرائهم ونصائحهم فاستحقوا منى لذلك جزيل شكرى بعنايتهم.

وهنالك مسائل أخرى ، ولاسيما المسائل الحديثة، كان من غير المستطاع أن يتناولها بالبحث سوى الواقف على أسرار الأحوال الحاضرة للبلاد المصرية. ورجائى أنه إذا أضيفت هذه المسائل إلى ماسبق يتكون مجموع لايخلو من النفع والفائدة.

أما المسائل الجديدة التى سبقت الإشارة إليها فلا يسبقن إلى وهم القارىء أننى اتخذتها منوالا أنسج عليه المدائح فى إنسان أو شىء أيا كان. كلا فإن هذا المصنف لم يوص بتصنيفه أحد، ولم يهيمن على تدوينه أحد، فإذا عثر القارىء فيه بمدح اقتضاه الإنصاف والعدل فى حق الرجل العظيم الذى لايسعنى إلا الإعجاب به والشكر له فليثق بأننى لم أطاوع فيه هوى

النفس ولا مجرد المجاملة أو الأدب نحو الأشخاص. وإنني فيما كتبت قد احتفظت بحريتي كاملة فى الإعراب عن أفكارى بما اخترت لها من الألفاظ والعبارات.

وإذا كان الكمال لله وحده، وكان من الواجب التجرد عن الغرض واجتناب التحيز فى الكلام على الخير والشر والنفع والضر فقد توخيت فى إبداء ملاحظاتى على ما تبينته من النقص أو الفساد فى أمر ما الاستقلال المجرد فى الرأى وتحرى الصواب جهد الإمكان.

على أنه لايغرب على = يغيب عن = العاقل أن الوصول إلى الإصلاح لايكون أبداً من طريق التنديد والتبكيت ولا بوسائل الطعن الحاد والتشهير المعيب. فإنه من المعلوم حق العلم أن من يجعل حسن النية رائده فى طلب إصلاح العيوب التى يستكشفها. يمهد الطريق إلى هذه الغاية الشريفة ويوفر لها أسباب النجاح والفلاح بما يبديه من الآراء الصائبة والنصائح الصادقة المنبعثة من قلب سليم.

وقد أصبح حقا على بعد ذلك أن أعلن شكرى لمن تفضلوا فمنحونى عضدهم ومؤازرتهم بما وافونى به من النصائح والإرشادات النافعة أو قدموه إلى من المستندات النفيسة والبيانات المفيدة. وأخص بشكرى وثنائى العلامة (جومار) الذى بصفته أقدم أعضاء المجمع العلمى المصرى، وقف وقفة الحارس الأمين على التقاليد التى تربط فرنسا بهذا القطر برباطها الوثيق، والوسيط المخلص الذى استعانت به مصر الحديثة على الاستنارة بضوء الحضارة والعمران المنبعث من الديار الفرنسية.

ولقد تفضل ذلك العلامة فأشرف على تحرير القسم الجغرافى من هذا المصنف فضلا عن اننى من جهة أخرى مدين للعلامة (فيجرى) أستاذ النباتات بمدرسة القاهرة الممتلىء حماسا وعلما بشطر كبير من المواد المتعلقة بهذا العلم، وإن أنس لا أنسى المساعدة الجليلة التى وافانى بها العلامة (رجيس) مدرس التاريخ الطبيعى وأمين المتحف الخاص بهذا العلم فى مدرسة الطب أثناء تحريرى القسم المتعلق بالحيوانات من كتابى، ولا البيانات التى قدمها إلى العلامة (بونفور) ملاحظ أملاك صاحب السمو إبراهيم باشا عن النباتات التى أدخلت حديثا فى مصر. ومما أنا مدين به إلى العلامة (منجن) المعلومات القيمة التى أوردتها فى القسم التاريخى

والإحصائى مقتبسة من مؤلفاته التـى لامحيص لكل من يتصدى للكتابة على مصر عـن الاعتماد عليهـا والاغتراف مـن موردهـا العـذب السلسبيـل. وإن صدرى لينشرح لإنصـافه بهذا القـول ولاسيما وأن كتابـا كثيرين ارتضـوا لأنفسـهم نقل عباراته برمتها غير منسوبة إليه.

أما المهندس الحاذق (لينان) الملم تمام الإلمام بايدروغرافية = بجغرافية= مصر وتاريخها، والذى نيط به إنشاء القناطر الخيرية فقد كان لى خير معوان على إيراد البيـانات المتعلقة بهذه المســائل مشفوعـة بالأرقام والإحصــائيات الدقيقة.

أما (سريزى بـك) الذى سيبقى اسمه مخلدا فى مصر بما تـولى إنجازه من الأعمال الجليلة فإليه يرجع الفضل فيما أوردتـه من البيانات المستفاضة عن دار الصناعـة «الترسانـة» ومابنـى فيها مـن الجوارى المنشآت، ونقلتـه من المذكرات، والرسوم التى إليها رجعت فى إتمام هذا القسم من مصنفى.

أما العلامة (روزللينى) الذى تعرفت عليه بمصر ثم حظيت بلقائه فى (بيز) «بيشه» فهو الـذى أفاض على من سجل معـارفه الأثرية المعلـومات النفيسة التى أتممتها بالاقتباس من مؤلفات (شمبوليون).

وأما الآثار العربية فإن مايراه القـراء عنها فى هذا المصنف قطرة من غيث البيانـات التى وافانـى بها الماهر (ب . كوســت) من أوائل المهندسين الـذين انتظموا فى سلك خدمة والى مصر، ولقد قام فيها بأعمال هندسية جليلة وألف كتابا مفيدا فى الهندسة العربية.

ولقد ذكـرت أن السرعة كانـت رائدنا فى تحريـر هذا المؤلف وطبعــه، فمن البدهــى أن يتأثر القالـب الإنشائى الذى صنعناه فيــه بها، وأن تتسرب إليه الأغلاط عند مباشرة التصحيح المطبعى.

تمهيد تاريخي

العصر الفرعوني

العصور الجغرافية- العصور التاريخية- جدول بأسماء الأسر المصرية التى تعاقبت على مصر- من الأسرة الأولى فتح الملوك الرعاة – غارة الرعاة- الأسرة الثامنة عشرة – سيزوستريس- شوكة مصر فى الخارج على عهد سيزوستريس- الإدارة الداخلية – التجارة- غارة الأثيوبين – الحبشان- الأسرة السادسة والعشرون – الفتح الفارسي.

١- العصور الجغرافية

لاشك اننى أتجاوز الغرض المقصود من هذا الملخص الوجيز إذا أردت الإيغال فى تيه توقيعات الحوادث التى يضطر الباحث فى تاريخ مصر إلى تعيينها عند شروعه فى عمله. ومعلوم أن الكهنة المصريين أفسحو المجال للزمن فجعلوا وجود أمتهم فى الأعصر السابقة على التاريخ. إذ حددوا له عشرات الألوف من السنين زاعمين أنها كانت فى خلالها محكومة بالآلهة أو أنصاف الآلهة ـ أى الأبطال. فقالوا إن مدة حكم الفريق الأولى بلغت ٤٢٠٠٠ سنة منها ١٢٠٠٠ سنة كان الحاكم فيها الإله فتاح و٣٠٠٠٠ سنة كانت الشمس هى المدبرة لشئونها، وتلت هذه المدة الأولى مدة تسلط أنصاف الآلهة الذين اتخذ اليونانيون منهم آلهتهم الاثنى عشر الكبار، وهم زحل والمشترى الخ. وإنى لأترك إلى غيرى العناية بإيضاح هذا المعمى وحل هذا اللغز، وإلى غيرهم مهمة البحث فى مطابقة تواريخ تلك الحوادث بتواريخ حوادثنا المستمدة من سفر التكوين.

٢- العصور التاريخية

إن أول حقبة تاريخية لمصر كشف عنها البحث والتمحيص هى التى تضمنها جدول الكاهن مانيتون المصرى لحصر الأسر المصرية المالكة.

فإن هذا المؤرخ كان الكاهن الأعظم لعين شمس وقد عاش قبل الميلاد المسيحى بثلاثمائة عام فناط به أحد الملوك البطالسة تدوين تاريخ لمصر القديمة. على أن يستخرجه من الأوراق المقدسة التى كانت موكولة إلى عهدته. ومن المعلوم أنه لم يخلص إلينا من عمله المفيد سوى الجداول الزمنية المبينة لمدد حكم تلك الأسر على يد بعض المؤرخين الأقدمين، ومع أن فى هذه الجداول بالحالة التى هى عليها بين أيدينا شيئا من التباين والخلل والنقص فإنها تحدد على سبيل التأكيد أو التخمين النقط الأساسية لتاريخ تلك العصور المتراجعة فى القدم إلى أبعد مدى.

على أن العلم الحديث قد توصل إلى انتزاع أسرار الحقائق من الكتابة الهيروغليفية، إذ عثر فى هذه النقوش التى جللت بها الآثار المصرية على مايؤيد غالب البيانات التى دونها الكاهن مانيتون، وأحيانا على الوسيلة التى يستطيع بمقتضاها تصحيح الأغلاط التى فرطت من المؤلفين الذين أخذنا عنهم تلك الجداول أثناء نقلهم إياها.

وها أنا ذا أقدم إلى القراء جدولا مختصرا للأسرات المصرية طبقا لما يؤخذ من القائمة المانيتونية والاستكشافات الحديثة العصرية. وإنى لمقتصر فيه على بيان تاريخ جلوس كل أسرة منها وعدد من تعاقب على الحكم من ملوكها ومدة حكم كل فريق منهم على حدة، وسأورد بعد ذلك أهم الحوادث التاريخية للملوك الذين اشتهروا بجلائل الأعمال، أو بما كان لهم من الشوكة والاقتدار أو الحكمة والدراية أو غير ذلك من المزايا التى تنطق بها الآثار التى شادوها ولاتزال أطلالها خير شاهد على فضلهم ونبالتهم ورفعة قدرهم.

٣- جدول الأسر المصرية [1]

الأسرة	التاريخ	عدد الملوك	المدة
الأسرة الأولى الطينية الطيبية	٥٨٦٧	٨ ملوك	٢٥٢ سنة
الأسرة الثانية الطينية الطيبية	٥٦١٥	٩ ملوك	٢٩٧سنة
الأسرة الثالثة المنفيسية	٥٣١٨	٨ ملوك	١٩٧ سنة
الأسرة الرابعة المنفيسية	٥١٢١	١٧ ملكا	٤٤٨ سنة
الأسرة الخامسة الألفنتينية	٤٦٧٣	٩ ملوك	٢٤٨ سنة
الأسرة السادسة المنفيسية	٤٤٢٥	٦ ملوك	٢٠٣ سنة
الأسرة السابعة المنفيسية	٤٢٢٢	٥ ملوك	٧٥ سنة
الأسرة الثامنة المنفيسية	٤١٤٧	٥ ملوك	١٠٠ سنة
الأسرة التاسعة الهرقليوبوليتية	٤٠٤٧	٤ ملوك	١٠٠ سنة
الأسرة العاشرة الهرقليوبوليتية	١٩٤٧	١٩ ملكا	١٨٥ سنة
الأسرة الثانية عشرة الطيبية	٣٧٠٣	٧ ملوك	١٦٠ سنة
الأسرة الثالثة عشرة الطيبية	٣٤١٧	٦٠ ملكا	٤٥٣ سنة
الأسرة الرابعة عشرة الأكزوتية	٣٠٠٤	٧٦ ملكا	٤٨٤ سنة
الأسرة الخامسة عشرة الطيبية	٢٥٢٠	ـــ	٢٥٠ سنة
الأسرة السادسة عشرة الطيبية	٢٢٧٠	ـــ	١٩٠ سنة
الأسرة السابعة عشرة ملوك الرعاة			
الأسرة الحادية عشرة الطيبية	٣٧٦٢	١٧ ملكا	٥٩ سنة
	٢٠٨٢	٦ ملوك	سنة [2]
الأسرة الثامنة عشرة الطيبية	١٨٢٢	١٧ ملكا	٣٤٨ سنة
الأسرة التاسعة عشرة الطيبية	١٤٧٣	٦ ملوك	١٩٤ سنة
الأسرة العشرون الطيبية	١٢٧٩	١٠ ملوك	١٧٨ سنة
الأسرة الحادية والعشرون الصانية	١١٠١	٧ ملوك	١٣٠ سنة
الأسرة الثانية والعشرون البوبسطية	٩٢١	٧ ملوك	٢٠ سنة
الأسرة الثالثة والعشرون الصانية	٨٥١	٤ ملوك	٨٩ سنة
الأسرة الرابعة والعشرون الصائلة	٧٦٢	١ ملك	٤٤ سنة
الأسرة الخامسة والعشرون الأثيوبية	٧١٨	٦ ملوك	٤٤ سنة.
الأسرة السادسة والعشرون الصائية	٦٧٤	٩ ملوك	١٥٠ [3]

(١) نقلت هذا الجدول من كتاب العلامة شامبوليون الذى ألفه عن مصر القديمة ونشرته «مجلة العالم العجيب» فعلى من يرغبون استقصاء تاريخ مصر القديم الرجوع إلى هذا المصنف الذى تناول هذا البحث بالإسهاب وشرحه شرحا مبنيا على الاستكشافات الأخيرة التى قام بها لأول مرة العلامة شامبوليون فيجاك

(٢) حكم مصر ستة من الفراعنة الطيبيين بالوجه القبلى، ولبث حكمهم مثل هذه المدة - أى ١٦٠ سنة

(٣) هذه الأسرة هى التى أخنى عليها الفرس فى سنة ٥٤٢

٤- من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة

أول ملوك هذه الأسرة هو (مينثى) الذى يسميه مؤرخو اليونان «مينيس» وهو الذى بـدل الحكومة الاستبدادية الـدينية بالسلطة الملـوكية والمأثور أن الدلتا فى عهده كانت عبارة عن مستنقع وأنه شق للنيل مجرى آخر غير مجراه وأسس مدينـة منفيس التى عثر البـاحثون على أطلالها فى قرى منـف وميت رهينة وأم خنان. وقد خلف (مينثى) على عـرش الملك ملوك كثيرون مابرحت اسماؤهـم وأعمالهم مجهـولـة حتـى الآن ولم تترك أسراتهم للتـاريـخ مـن الذكريـات المجيدة سوى ماشـاده ملوكها من الآثـار العظمى التى مابـرحت موضع إعجـاب السياح والعلماء وأرباب الصناعات والفنـانين. وتبتدىء من الأسرة الثالثة منهـا تواريخ إنشاء أقـدم الآثار فى العالم وهى أهـرام دهشور وسقارة أمـا أهرام الجيزة الثـلاثة فما هى إلا قبـور الملوك الثلاثـة الأول من الأسرة الرابعـة. وإنشاء (لبـاريس) أحد ملـوك الأسرة الثانيـة عشرة فى إقليم أرسنوة (الفيوم) التيه الشـهير فى الأزمان القديمة، وهو الأثر الذى كان إحدى العجائب السبع على ظهر المسكونة. والظاهـر ان الغرض من إنشاء هذا التيه كان من أجل الأغراض وأشرفها . ألا وهو جعله دارا للندوة يجتمع فيها نواب الأقاليـم المصرية كلما دعاهـا الى ذلك حـادث خطيرى أو ضيق شديـد لإبداء آرائهم فيما ينبغى ان تتخذه الحكومة من الوسائل لاتقائهما أو دفعهما . وهذا الأثر الجليل لم تبق منه اليوم سوى أطلال دارسة وآثار بالية.

٥- غارة عرب الرعاة

كان المصريـون يطلقون لفظ (هكسـوس) أى الرعاة على عـرب الصـحراء الرحـل الذيـن ندعـوهم اليوم بـاسم البـدو أو العربـان فإن هـؤلاء الأقوام البـاسلين = البواسـل = الـذيـن اعتادوا اقتحـام أخطـار الحروب واحتمال المشاق وصنوف الحرمان بما جبلوا عليه من التقشف فى المعيشة والتنقل من مكان إلى مكـان تدفقوا على مصر مـن ناحيـة برزخ السويـس فى عهد الأسرة السادسـة عشرة فاستولـوا على إقليم الدلتا ، وتنـاوب الحكم عليها ستـة من كبار زعمائهم وظلـوا قابضـين على أزمتها ٢٦٠ سنة أبتـدأت من سنة ٢٠٨٢ قبل الميلاد المسيحى. وفى عهـد الرابع من أولئك الملوك الأجانـب تقلد يوسف منصب الـوزارة ودعا إلى مصر أسرة أبيـه يعقوب الـذى تناسلـت منه الأمـة اليهودية.

٦- الأسرة الثامنة عشرة

فتـح ملـوك الرعـاة على المصريين أبـواب الظلـم وساروا فيهـم بـالجور والغشم. فكانوا إذا أطـاعوهم يطيعونهم مكرهين غير ناظـرين فيهم إلا أنهم قوم مـن البرابرة المتوحشين أعملـوا أيدى التخـريب والتدمير حتـى أتوا على ماشيد من الآثار الضخمة والأعمال النـافعة فى عهد الأسر السابقة ولم يطق الأبناء من خلائف الملوك الأقدمين الذيـن خلعهم الرعاة صبرا على هذا الضيم فانسحبوا فى أقاليـم الدلتا وتمكن أحدهم وهو (أمينـوف الأول) من إجلائهم عنها فلما استتب له الأمر فى ديار مصر ورسـت قواعد سلطته بها على الأسس الوطيـدة أسس الأسرة الثامنة عشرة التـى سطع نجمها وعلت كلمتهـا وأمتد رواق نفوذها على أرجاء مصر بحدودها القديمة.

ولقـد تفـرغ الأربعـة الأول مـن ملـوكهـا وهـم (أمينـوف الأول) و(تموتموزيـس الأول) و(تموتموزيس الثـانى) و(تمو تموزيـس الثالـث) لانتشال الأمـة من وهدة الظلـم التى أوقعها الرعـاة فيه وكان هـؤلاء فى مدة تسلطهم على مصر قـد بثوا فى البلاد الفساد وأطلقـوا أيديهم فيها بالتخـريب والتدمير. فلما انبرى أولئك الملوك الأربعة لتجديـد ماتخرب وإصلاح مافسد كان أول مانهضـوا به من الأعمال أن أعادوا إلى الـدين رونقه القديـم وحفوا طقوسـه بشارات التعظيم والتكـريم وقووا أركانـه بدعائم السلطـة والنفوذ. وكانت القوانين القديمة قد سقط اعتبارها وزالت من بين الناس أسبابها فكان مما انصرفت إليه عنايتهم إعادتهم إياهـا إلى مقامها الأسمى ومرتبتها العليا. وكانـت الترع والقنوات والجداول قد طمت بـالتراب فحفروها من جـديد كما أعادوا بنـاء المدائن التى دمرت والآثـار التى عفى عليهـا . وما أغلب المبـانى الشاهقة والآثار الباذخة التى ترى فى (الكـرنك) و(مدينة آبو) إلا مظهرا من مظاهـر تلك الهمـة العاليـة والغيرة الدافقـة للاحتفـاظ بمجد الأمـة وعظمة البـلاد.

وقد امتاز الملك (تموتموزيس الثالث) المشهور باسم (موريس) على غيره بـأنـه الذى أنشـأ فيما عـدا المبـانـى المنجـدة والهياكـل المعظمـة المسلتين المعـروفتين بمسلتـى الإسكنـدرية وأطلـق اسمـه (مـوريـس) على البحيرة المعروفة الآن ببركـة قارون التى تروى بميـاهها أراضـى إقليم الفيـوم، وهـى التى كان ماء فيضان النيل فى الزمن القديم يخزن فيها لتروى به الأرض أيام التحاريق، فكان ذلك سببا لخصب الشطر الأكبر من أراضـى مصر الوسطى.

٧- سيزوستريس

بعد أن أرست الأسرة الثامنة عشرة قواعد النظام والسعادة فى الداخل رفعت لواء شوكة مصر فى الخارج وأيدت سيادتها على الأقطار المجاورة لها كافة. وأشهر ملوكها الذين امتازوا بفتوحاتهم وأعلاهم همة وأبعدهم صيتا هو (رمسيس الثالث)، ولعله الثانى المعروف بـ (سيزوستريس) فقد استأنف هذا الملك الفتوحات التى بدأ بها اسلافه، ووسع نطاقها حتى ترامت أطرافها إلى باطن الأقطار الهندية واستعان بما استفاده من الغنائم العظيمة على أثر انتصاراته الباهرة التى فدح فيها الأمم المغلوبة بالإتاوات البالغة والكلف الباهظة على إنجاز كثير من جلائل الأعمال العامة الفائدة وهو الذى تعزى إليه فكرة توصيل النيل بالبحر الأحمر، وشاد من جليل الآثار مايتحلى الآن به جيد الديار المصرية كآثار أبو سمبل والدر ووادى الأسبعة فى النوبة والقرنة والمدينة . أى مدينة آبو بالقرب من القرنة وجزء من هيكل الأقصر والبهو الكبير ذى العمد فى قصر الكرنك. قال (شامبوليون) الشاب: «إن هذا الأثر الأخير لأفخم بناية شادتها يد الإنسان».

ففى عهد سيزوستريس بلغت مصر إلى أوج السعادة والهناء داخليا والشوكة والهيبة والاقتدار خارجياً.

٨- شوكة مصر فى عهد سيزوستريس

نذكر فيما يلى الممالك والأقطار التى كانت تعترف بسيادة فرعون عليها أو بحكمه فيها وهى: بلاد النوبة والحبشة وسنار، وكثير من أقطار جنوب افريقية والأقوام الرحالة النزالة = النازلة = فى صحارى شرق النيل وغربه وبلاد الشام والعرب ومملكتا بابل ونينوى، وشطر كبير من آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وبعض جزر الأرخبيل اليونانى والأقاليم التى تتألف منها الآن المملكة الفارسية.

٩- غارة الأثيوبيين الحبشان

بلغت هذه الحقبة قصارها = أقصاها = من العظمة والمجد والشوكة على عهد الأسرة الثامنة عشرة كما ذكرنا . إلا أن الأحباش بقيادة (سبكون) قائدهم أخنوا على هذه العظمة وجعلوا الصرح الشامخ الذى رفع ذراه الملك (سيزوستريس) أطلالا دارسة وأثرا بعد عين، ولكن لم يلبث الأثيوبيون أن طردوا من مصر على يد (استيفيناتى) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

١٠ الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس

لو أن مصر استطاعت ان تقى نفسها شر الاتصال بالأجانب، أو لو كانت طبيعة وجه أرضها وشكل سطحها من الوجهة الحربية بحيث يصدان عنها الغارات الأجنبية لما بقى شك فى قدرتها على صيانة وجودها وإطالة أمد حياتها بما كان مسنونا لها من الأنظمة العالية والقوانين الحكيمة لتدبير مرافقها ومصالحها من كل نوع. ولكن مصر لاتملك من وسائط الدفاع الطبيعية عن كيانها مايكترث به أو يعتمد عليه. فقد قال الحكيم (فولتير) فى ذلك «إنه كان يكفى من يحب أخذها أن يهم بالغارة عليها لتطيب له». فهى بهذا الوصف فريسة سهلة ولقمة سائغة جذبت إليها من جميع النواحى عظماء الفاتحين الذين طالما طمحت أنظارهم إلى خيراتها الزراعية وموقعها الجميل بين ثلاث من قارات العالم، وحيث لايفصل بين بحرين من بحار الأرض سوى برزخ لايتجاوز طوله بعض الفراسخ، فافتقارها إلى الوسائل الطبيعية للدفاع عن كيانها كان على الدوام موضع الضعف منها.

ولقد أدرك واضعو قوانينها القديمة هذه الحقيقة من بادىء الأمر وحسبوا لعواقبها الحساب فحرموا على الأمة المصرية باسم الدين كل إتصال بالأجانب أو اختلاط بهم خشية أن يستفز هذا الاختلاط هؤلاء إلى محاولة الوقوف على أسرارها والعلم بمواطن ضعفها فينشطوا إلى فتحها وامتلاكها . وطالما لبث فريق الكهنوت عزيز الجانب رهيب المقام بكثرة عدده وامتداد نفوذه واستقرار صولته. فإنه كان يحول دون كل إتصال بالأجانب فأمنت البلاد شرهم ووقت نفسها عاقبة أطماعهم ولكن ملوك الأسرة السادسة والعشرين رأوا أن يلقوا عن عاتقهم نير النفوذ الكهنوتى ويستبدوا بالأمر فمهدوا السبل لذلك الإتصال الذى كانت عاقبته شرا ووبالا على مصر إذ بلغ بأحدهم وهو الملك (أبساميتيك الأول) أن إتخذ لنفسه جندا من الإغريق والكاريين واليونانيين المجمكين فأغضب طائفة الجند المصرى الذين انحاز سوادهم الأعظم عن هذا الملك ومنحوه أكتافهم = وولوا عنه = قاصدين إلى بلاد الحبشة فحرمت مصر بذلك من حماتها الطبيعيين.

وحدث أن الملك (وافريه) من خلائف (أبسامتيك) اقتدى به إذ اتخذ جندا من الأجانب فساءت سمعته وقبح ذكره بين أمته ثم أخطأ خطأ غليظا إذ أغضب (نبوخذ نصر) ملك آشور بمهاجمته إياه فى دياره أخذا بناصر اليهود وتأييده لهم عليه. فلما غلبه (نبوخذ نصر) أغار على مصر وأيد فيها

(أمازيس) الذى كان قد ثار على الملك (وافريه) واغتصب منه صولجان الحكم.

وبقى (أمازيس) قابضا على زمام البلاد زمنا طويلا نشرت السعادة والهناء فيه أجنحتهما عليها. فقد روى المؤرخون أن عدد المدن الآهلة بالسكان بلغ فى عهده إلى عشرين ألف مدينة. وزار مصر وقتئذ الحاسب الشهير (فيثاغورس) [1] والحكيم المقنن (سولون) غير أن (أمازيس) لم يرافقه اليمن والتوفيق حتى النهاية. لأنه رأى بعينيه قبل وفاته هبوب العاصفة التى تحيفت بلاده وأخنت على استقلاله. فإنه أغضب زعيم الإغريق الذين كانوا فى خدمته فلم يكن منه إلا أن استفز (قمبيز) ملك الفرس إلى مهاجمة مصر والاستيلاء عليها فعمل (قمبيز) برأيه. إذ رحل من فوره إلى مصر. ولكن (أمازيس) لقى حتفه قبل وصوله بزمن يسير فلم تنشب سوى معركة واحدة فاز الفرس فيها على المصريين عند (بيلوز) ففتح لهم هذا الفوز أبواب مصر فولجوا فيها واستبدوا بحكمها بعد أن استبعدوا ملكها البسامنيتى وأهلكوا ولده. وأصبحوا منذ سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أصحاب القول النافذ والكلمة المسموعة المطاعة فى أرجائها.

(٢)
ديانة قدماء المصريين

مبدأ التوحيد- الثالوث- الأعلى- الآلهة المختلفة- أوزريس و إيزيس وهوروس- تيفون إله الشر- تقمص الأرواح- عبادة الحيوانات- المدن المخصصة لهذه العبادة- التقسيمات الدينية لمصر.

١١- لم تكن ديانة المصريين كما وقع فى وهم الكثيرين بناء على روايات مؤرخى الإغريق والرومان فظة غليظة تستدعى الاحتقار لسقوط منزلتها وخساسة قدرها بقيامها على عبادة بعض الحيوانات والنباتات. فإن تلك الديانة التى قامت قواعدها على أسمى مبادىء علم ما وراء الطبيعة وأشرفها جوهرا كانت تمثل الطبقة العامة بالحركات الرمزية التى كان الكهان وحدهم يملكون أسرارها، وما كان للشعب أو الأجانب أن تشرئب أعناقهم إلى استكناهها.

وكان مبدأ التوحيد قوام العلم الإلهى وعماده عندهم وبمقتضى قواعد هذا العلم كان (آمون رع) الكائن الأعلى الذى يشتق منه كل شىء فى الوجود فكان يمثل مبدأ التذكير بذاته ويمتزج به مبدأ التثليث من طريق الاتصال والاختلاط بالآلهة (موث) وقد تولد من هذا وذاك الإله (خونس) الذى تم بوجوده الثالوث الأعلى.

وهذا الثالوث الإلهى هو الذى توالدت منه آلهة مصر الذين مثلوا فى بادىء الأمر بجميع أرجاء الكون مظاهر الربوبية التى لاحد لها ولا غاية وكان ترتيب درجات الآلهة يتناول تقسيمها إلى فرق ثلاثية أى جماعات تتألف كل جماعة منها من مبدأ مذكر وآخر مؤنث وثمرة اتحاد المبدأين واجتماعهما.

وكان يلى (آمون رع) الذى طالما عبده العابدون باسم (خنوفيش) جملة آلهة انتحلها الإغريق لأنفسهم بعد أن بدلوا من أسمائها بأسماء جديدة نذكر منها (بوتو) إلهة الليل التى كان لها عند المصريين نفس الصفات التى وصف الإغريق بها آلهة الليل عندهم . و(نيث) إلهة الحكمة التى كانت عبادتها قائمة الشعائر فى (صائيس) بالوجه البحرى. و(فتاح) إله الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم وكان يشغل فى ترتيب درجات الآلهة المصرية المرتبة الثالثة من

مراتب الـربوبية و(خنوفيس) الـذى كن يمثل وفى فيه بيضة بـارزة هى التى نتجـت عن الإلـه (فتـاح)، إشـارة الى معنى الخلـق والإبـداع والمادة الأولى. والمفهوم من عقائد قدماء المصريين أن هذا الإله كان أول ملوكهم، وأن مدينة منفيس الملوكية كانت معهد عبادته. وكانت حفلات تكريس الملوك وتتويجهم تقام بالهيكل الفخـم الذى شيد بتلك المدينة إجلالا له. و(هاتـور) وكانت عند قدماء المصريين بمنزلة الزهرة عند الإغريق وكانت مدينة منفيس مقر عبادتها أيضا. (فريه) إلـه الشمس، وكان عند قدماء المصريين بمثـابة (هليوس) عند الإغريق ،وكـانت شعائر عبادته تقـام بمدينة هليوبوليـس، و(توت) وكان فى مصر بمثابة (هرمـس) فى بلاد اليونان فإنه هو أول مـن كشف النقاب لبنى الإنسان عـن أسرار المبادىء الأولى للعلوم والفنون والتجـارة وكانت مـدينة (هرمـوبوليـس) مقر عبادتـه ومهبط وحيه، وكـان البجع طـائره. و(بشت) وكانت تعبد فى (بوباستيس) أى تل بسطة وكان القط حيوانها المقدس.

وكـان الثالـوث الـذى ينتهى إليـه تدبير الأرض مـؤلفـا من (أوزريـس) و(إيزيـس) و (هوروس) وهو الـذى على أثر قيامـه بتدبير شئونها تـم خلق الإنسان، ومـا القسم الأول من حوادث مصر فى العهـد القديم سوى تـاريخ المدة التى استوى هذا الثالوث فيها على العرش متصرفا فى أحوال العباد وإذا سلمنا بأقوال (بلوطرخس) كـان (أوزريس) العنصر الفعال فى خلق الكائنات وتوالدها و(ايزيس) المادة الأولى المفعولة لسائر الكائنات الخاصة.

ومن اتحاد (أوزريس) بـإيزيس أى من اتحاد العنصر المنتـج بالمادة نشأ العالم أو الكون واستقـر نظام كل شـىء فالعـالم هو الابن الواحد لـلألوهية وقد أطلقـوا عليه اسم (هوروس) وإنما كـان إلى جانب مبدأ النظـام والالتئام الذى يمثله (أوزريـس) (إيزيس) و(هوروس) مبدأ الشر والفسـاد الذى كان يمثله (تيفون) أخو (أوزريس) وخصمه اللدود.

وكان المصريـون يعتقدون أن (أوزريـس) بعد أن أفـاض على مصر نعمة المدنية والحضـارة وأنشأ مـدينة طيبـة ذات المائة باب أحـب أن يغدق هـذه النعمة بالسـواء على أقطار الأرض جميعا فزار الشعوب التى رفعـت الهياكل لعبادته بـأسماء مختلفة. فلما عاد من رحلتـه الطويلة تدلهت(نفتـى) زوجة أوزريس وأخته فى حبه وأوهمته أنها (إيزيس) زوجتـه فرزق منها بأنوبيس فلما رأى تيفون أنه تدنس بعار هـذه المخزاة أراد أن يغسله عن نفسه فنصب لأوزريس المكايد يريد بها اغيتاله، وقـد بلغ من ذلك إربه إذ سلبه الحياة كما

سلبها من هوروس وألقى بأشلاء جسمه فى الفرع الصانى من نهر النيل ويقال إن هذا الحادث سبب كراهة قدماء المصريين لهذا الفرع، ولقد كانوا يعتقدون أنه لما ألقيت تلك الأشلاء فيه بثت فى مياهه مزايا الخصب والبركة.

وكان أوزريس قد عاد من جهنم وتسمى بعد بعثه باسم (سرابيس) فرد إلى ابنه (هوروس) الروح وجهزه بالسلاح لقتال (تيفون) الذى لم يلبث أن قهره (هوروس) وتغلب عليه وكاد يفتك به لولا أن (إيزيس) أنجته من الهلاك وظل مختبئا فى الكون منذ هذا الحين يبث فيه الفساد فيضطرب حبل نظامه وتنزل صنوف المحن والمصائب.

وكانوا يصورون (أوزريس) فى الهياكل بأشكال مختلفة سنتكلم عليها فى الفصل الخاص بالآثار القديمة، ولكنهم كانوا يعبدونه غالبا فى صورة ثور أسود، ومن هنا اشتقت عبادة العجل (أبيس) الذى كانوا يعرفونه بسمات خاصة هى الشامة المربعة البيضاء وسط الجبهة وازدواج شعر الذنب والتواء أسفل اللسان بشكل العقدة.

وكان المصريون يعتقدون بتناسخ الأرواح ويرجعون إلى هذا الاعتقاد فى القول بخلود النفس وانتقال الروح بعد فناء الجسم إلى حيوان آخر يوشك أن يولد وعودتها بعد ثلاثة آلاف عام لتنبت من جديد فى الهيئة البشرية وتستأنف الحياة لمدة أخرى.

وبالرغم من استقرار قواعد الديانة المصرية على الأسس الوطيدة فإن العلماء الباحثين لم يتبينوا من أسرارها الكامنة إلا النزر اليسير. لأن الكهان والمكرسين استأثروا بمعرفتها دون عامة الشعب. فلم تلبث العقيدة الدينية أن انحرفت عن جادتها وتحولت فى نفوسهم إلى عقيدة غليظة دعامتها التسليم بتعدد الآلهة إلى ما لاحد له من العدد ، فمن معتقداتهم الباطلة الكثيرة التى جرت فى مصر مجرى الحقائق ماكانوا يبذلونه من مظاهر الإجلال والتعظيم للحيوانات التى كان أحراها = أجدرها = فى نظرهم بالتبجيل والتكريم السنانير والاخنمون والكلاب والبجع والذئاب والتماسيح. وكانوا لهذا السبب يتعهدونها بالعناية التامة ويقومون على تغذيتها فى الهياكل وينفقون فى سبيل ذلك الأموال الطائلة.

وكانوا إذا نفق أحدها ينفقون عن سعة فى تنظيم جنازته وتشييعها ويحملون من أجله شارات الحداد. ويعاقبون بالإعدام من يتعمد قتلها ويطبقون هذه العقوبة على من يقتل خطأ سنورا أو بجعة.

وذكر ديودورس الصقلى أن أحد الرومان فى عهد البطالسة قتل سنورا غير عامد ولامتربص فلم يستطع أحد أن ينقذه من أيدى الشعب الحانق الهائج، بالرغم مما كان لدولة الرومان فى ذلك الزمان من الصولة والهيبة وامتداد النفوذ والسلطان. وكانت المدن الكثيرة مخصصة لعبادة الحيوانات. فالعجل (أبيس) كان يعبد بمدينة (منفيس) والعجل (مينفيس) فى عين شمس والجدى فى (منديس) والسبع فى (ليونتوبوليس) وتمساح بحيرة (موريس) فى مدينة مسماة باسمه، والذئب فى (ليكوبوليس) إلخ. وكان سبب تكريم الحيوانات هذا التكريم الدينى معروفا. إلا أن الكهان كانوا يسرونه ويحرصون على مواراته حتى لقد ذهب رحالة الإغريق المذاهب البعيدة من الحدس والتخمين فى تأويله فكانوا يرجعون به تارة إلى ما تؤديه تلك الحيوانات من الأعمال النافعة وطورا إلى مايتوافر فيها من الصفات المختلفة لتكوين الرموز والعلامات المومأ إليها.

ويؤخذ من أقوال القديس (كليمنتس) الإسكندرى أن أماكن العبادة من الهياكل المصرية كانت خالية من التماثيل وان رمز الربوبية فيها كان عبارة عن حيوان مقدس يوضع فى مكان بعيد عن الهياكل ويسدل عليه حجاب حتى لاتدركه الأبصار.

وكانت مصر مقسمة إلى مناطق دينية لكل منطقة عبادة خاصة بها تتناول إلها واحدا أو ثالوثا إلهياً. وعلل (ديودورس) الصقلى هذا التقسيم بأن أحد الفراعنة السابقين أراد أن يمهد لنفسه سبيل الحكم على القطر المصرى كله فابتكر لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض حيلة ترمى إلى تفريق شمل الأمة وتصديع ألفتها ليمنعها من الاتحاد والعمل على تقويض سلطته ألا وهى تقسيم مصر إلى مراكز خص كلا منها بعبادة مغايرة لعبادة المراكز الأخرى وحرم عليها بعض الأغذية وعمل على تطبيق المثل المشهور «فرق تسد» فنال مبتغاه من التحكم فى شئونها وذكر (ديودورس) الصقلى ان هذه الحيلة جاءت بالمراد إذ استحكم الشقاق بسببها بين أهل المراكز المتجاورة لتعييرهم بعضهم البعض بالتقصير فى القيام بالفروض نحو معبوداتهم. على أن الهياكل كانت بالرغم من ذلك التخصيص تحتوى مع الرمز الربانى الخاص بعبادتها رمزا آخر يمثل (آمون رع) الإله الأكبر لمصر بأسرها.

وإذ لم يكن من قصدى الإسهام فى الكلام على ديانة قدماء المصريين لانفساح مجاله وتشعب أطرافه فإنى أحيل القارىء الراغب فى استقصاء هذا الموضوع على المصنفات المطولة التى ألفت فيه، ولاسيما المصنف الجليل الذى ألفه شمبوليون.

(٣)
حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم

الطبقات الاجتماعية- طبقة الكهان- طبقة الجند- طبقة العامة- الملك- الحكومة- القوانين.

١٢- الطبقات

كان عدد سكان مصر أيام عزها فى عهد الفراعنة يتراوح بين خمسة الملايين وسبعة الملايين من النسمات. وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبيرة، وهى طبقة الكهان وطبقة الجند وطبقة العامة. وكانت العامة منقسمة إلى فريقين، فريق الفلاحين وفريق التجار. وكان القانون يقضى على الأبناء ان يزاولوا صناعات أبائهم ويمارسون مهنهم. فكان هذا من أعظم بواعث استقرار الأقسام الكبرى للهيئة الاجتماعية على وتيرة واحدة.

١٣- الكهان

كان زمام حكومة مصر فى مبتدأ الأمر بيد رجال الدين، ثم تحول منهم إلى قبضة الجند، إلا أن رجال الدين ظلوا مع هذا محتفظين بكثير مما كان لهم من الامتيازات قبل هذا الانتقال. ففى عهد الفراعنة وكان لهم من الهيبة ورفعة المكان فى نفوس العامة مايرجع تعليله إلى أمور شتى منها سعة الثروةوبسطة الجاه ومنعة الجانب. وكانت ثروتهم تتألف من الأراضى الواسعة والاتاوات التى يؤديها إليهم الأتقياء والمتدينون أصنافا من الحاصلات لانقدا كريما وكان أفراد الأمة بأسرها على تفاوت درجاتهم فى سلم الاجتماع من أكبر كبير حتى الملك نفسه إلى أصغر صغير.. لايعفى أحدهم من تلك الأتاوات. ولم يقتصر الكهان على جباية الفرض والضرائب من الأحياء وحاصلات الأرض بل كانوا يفرضونها على الموتى ويجبونها من أهليهم. لأنه لما كانت المقابر ملكا لهم لاينازعهم عليها منازع فإن الجثث المحنطة (المومياء) كانت لاتغيب فيها إلا بإذن منهم، وكانوا يحصلون عليها رسما معينا فى كل عام.

وكان لطبقة الكهان مشاركة فى الإشراف على شئون الوطن وتداخل فى مرافقه ومصالحه. فما أشهرت حرب أو أبرم صلح أو اتخذ تدبير بشأن الزراعة أو الإدارة الداخلية أو المنافع العامة أو تقررت خطة فى شأن خطير إلا ورجع فيها إلى مشورتهم. فإذا أبدوا فيه رأياً مسددا فلا يسع الحكومة إلا أن تتخذه دستورا لها لن تحيد عنه قيد أنملة.

وكان الملـك إذا أفضى إليه بصولجان الحكـم لا يعترفون به إلا إذا تـولوا بأنفسـهم إجـلاسه على العرش بعد أن يعقدوا مجالسـهم ويـوافقون فيها على إسناد الكـرسى إليه. وكان الكـاهن الأعظم يلى الملك فى رفعـة المنصب وشرف القدر ونبـاهة الذكـر. وكان الكهان يمارسـون الطب والعلوم الفلكيـة. وكان تحنيط الأجســام من الأعمال الكثيرة الداخلـة فى دائرة اختصـاصهم. وكـانوا بالجملة الظافرين فى مصر دون غيرهم بنعمة التفقه فى العلوم ومدارستها من حساب وهنـدسة وغيرها . وليـس هذا بـالأمر المستنكر. لأن أعمال التـاريخ كانـت فى بلد كمصر يغير الفيضــان فى كل عام شكـل سطح أراضيهـا وينقل حدودها من مكان إلى مكان ويثير ثـائرة المنازعات بين الملاك كانت على مكان مكين من الأهمية فليس بدعا أن تكون لهم عناية تامة بعلم الهندسة يحددون به حصة كل مالك من الأرض بمقتضى قواعده الدقيقة التى تصيب دائما ولا تخيب أبداً.

وكانت طائفة الكهنوت ذات طبقـات مختلفة .فكان يلى كبار الكهان الكتبة المقدســون المنوط بهم إدارة الحاصــلات الكهنوتيـة وموارد إيـراد الهياكـل الدينيـة ثم تتبعهم كبـار الأنبياء فالأنبياء فحـراس الهياكل. فكتبـة القرابين الذين كانوا موكلين بدمغ الحيـوانات المخصصـة للقربان بميسم خاص بهذا الغرض ثم يتلوهـم كهان المدن فالمكلفون بتقديم القرابين الجنـازية. فالمنوط بهم إحـراق البخور أمـام الآلهة فـالمعتمدون لإهـراق الخمـور، فملاحظـو الهيـاكل فـالخدم كـالبوابين والـرســامين والمغنين والحانوتيين على تفـاوت درجاتهم وتباين أعمالهم.

وكان الكهنـة شديدى العنـاية بملابسـهم لاعتبـارهم إياهــا المظهر الأول لكرامة الوظائف المعهودة إليهم وكان أغلب لباسـهم الثياب البيضاء من نسيج الكتان. إذ كـان لايؤذن لهم بحمـل غيرها مـن الثياب. وكـان من الـواجبات المفـروضة عليهـم على ماذكـره (هيرودتس) المؤرخ حلـق رؤوسـهم وإزالـة الشـعر برمته منها ومن سائر منابت الشعر فى الجسم.

١٤- طبقة الجند

وكانت طبقــة الجند الثانية فى تـركيب طبقات الأمة المصريـة، ولكنها حلت المحل الأول والمرتبة العليا بعد أن ثل (مينيس) رئيسـها عرش السلطة الدينية وقوض أركانها. وكـانت ذات أملاك واسعة النطاق بعيدة الأرجـاء لكثرة عدد

أعضائها. فقد كان الجيش المصرى فى وقت الصلح يعد نحو مائتى ألف جندى، وكان وقتما زار هيرودتس القطر المصرى يتجاوز أربعمائة ألف منقسمين إلى شطرين كبيرين تبعا للأقاليم التى وكل إليهم الذود عن حماها يتألف أحدهما وهو قسم (الكاليزيريين) من مائتين وخمسين ألف، والآخر وهو قسم (الهرموتيبيين) من مائة وخمسين ألفاً.

وكان فى الجيش المصرى المشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة والمقاتلة فى مركبات القتال، والمأخوذ من النقوش الأثرية أنه كان خلوا من كتائب الفرسان. وكان سلاح المشاة الرمح والسيف المقوس والبلطة والنبال والدرقة. وكانت المركبات تجرها الخيل، لكل مركبة منها جوادان ويعلوها المقاتلة مسلحين بالبلط ومعهم النبال يرشقون بها العدو. وكان كل جيش منقسما إلى جملة فيالق ولكل فيلق عمله الخاص به. وكان الملك القائد الأكبر للجيش، ولكنه كان ينتدب للقيادة العليا أحد أبنائه أو من يقع عليه اختياره من كبار القواد.

١٥- طبقة الشعب

أما طبقة الشعب فكانت تشمل من لاعمل لهم فى الطبقتين السالفتين، وكان أفرادها كثيرى العدد يعيشون فى اليسر والرخاء مما تخرجه لهم الأرض من ثمراتها أو من مزاولة الصناعات وممارسة التجارة.

والظاهر أن طبقة الشعب كانت فى وقت ما حاصلة على حقوق سياسية مهمة. إذ كان لها أن تشترك فى انتخاب الملوك ومبايعتهم، ولكنها أمسكت شيئا فشيئاً عن التداخل فى هذه الشئون فلم يسمع عنها أحد أنها اهتمت بالمسائل العامة إلا إذا انقرضت أسرة ملكية ومست الحاجة إلى استخلاف أسرة أخرى على عرش الملك بدلا منها فإنه كان يجوز لها وقتئذ أن تنظر فى الأمر وتعنى به. على أن هذه الميزة انتزعت منها فيما بعد فلم يبق لها من الحقوق سوى حق النطق بالأحكام الغريبة فى القضايا التى كانت ترفع إليهم فى موضوع سير الملوك بعد وفاتهم.

١٦- الملك

كان الملك الذى يخلص له الملك بالوراثة تبعا لقاعدة أحقية الأكبر فالأكبر من الأبناء الذكور يبايع ملكا عند توليته، ويوافق الكهان فى الاجتماع الذى يعقدونه لهذا الغرض بمدينة (منفيس) على الإفضاء بزمام الملك إليه. وكان

زعيم السلطة التنفيذية هو المنوط به أثناء السلم أمر المحافظة على القوانين وأثناء الحرب الدفاع عن الوطن والذود عن حياضه. وكان يشترط فى توليته أن يقسم بالطاعة التامة للقوانين المعينة لكل ساعة من ساعات نهاره عملا من الأعمال المعهودة إليه. وكان عند ابتداء السنة الزراعية يثير الأرض بيده فى حفلة علنية فيمسك بالمحراث ويحرث به على ملأ من رعيته أول خط من خطوط الزراعة. وكان فى أثناء الحرب يقود بنفسه إحدى المركبات يحارب العدو فيها وسط جيشه.

وكان الشعب المصرى وثيق الارتباط بملوكه . شديد الكلف بهم. فإذا مات ملك لبس أثواب الحداد اثنين وسبعين يوما وأغلقت أبواب الهياكل أثناء هذه المدة وعكف الأهلون على الصلاة والدعاء إلى الآلهة. وعلى أثر انقضائها يعرض تابوت الملك على ملأ من قومه عند مدخل قبره ليوجه إليه كل منهم مايعن له من التهم بدون أن يكون هذا الحق المخول لجميع أفراد الأمة على السواء مانعا أحد الكهان من الوقوف إلى جانبه ليخطب فى الناس ذاكرا محامده مثنيا وشاكرا ومثوبا ، فإذا تلقى الجموع المحتشدة كلامه بالموافقة والاستحسان كان حقا للملك الميت أن يفوز بنعمة الدفن فى قبره، أو بالإعراض والاستياء حرم منها.

ومما ينهض دليلا على قوة تأثير هذه العادة واستقرارها فى النفوس مايلاحظ حتى الآن من أن أسماء بغض الملوك المنقوشة على ماشادوه من الآثار الضخمة قد محيت محوا تاما إشارة إلى عدم الرضى عنهم. وقد زعموا أن التهيب من الأحكام الجنازية التى كان جمهور الشعب يصدرها على الملوك كان وازعا لهم عن الإفراط والتفريط ، ورادعا عن مجاوزة حد الاعتدال فى سيرهم بين الرعية. ولكننى أرانى مع هذا عاجزا عن تعيين الحد الكفيل بأن يتهيب حكم الأعقاب أناس لم يكترثوا قط بمسلك معاصريهم نحوهم ازدراء بهم وتنقيصامن أقدارهم.

١٧- الحكومة

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات يرأس كلامنها رئيس عهدت إليه شئونها الإدارية والدينية والمدنية والعسكرية والمالية. قال العلامة (شامبوليون فيجاك) فى مصنفه البديع «مصر القديمة» إن الجمعيات السياسية كانت تعقد علنا بأمر الملك أو بمقتضى القانون. إما لحادث طرأ أو فى شأن خارق للعادة وإما لتقدير أموال الجباية وتعيين أنواعها ، وإما لتحويل أزمَّة الملك

والسلطان من قبضة ملك إلى ملـك آخر، ولاسيما حوزة أسرة إلى أسرة أخرى. فكان كل إقليم مـن تلك الأقاليم يبعث بمن ينوبون عنـه فى الجمعية العمومية مـن النواب والـوكـلاء، وكان قصر التيـه (الـلابيرانـت) مكان اجتماعـاتهم للأغراض المتقدمة.

١٨- القوانين

ليس مـا نعلمه عـن التشريع عنـد قدمـاء المصريين موثـوقا بصحتـه ولا مقطوعا بمطابقته حقيقة الواقع. وغاية ما انكشف لنا من أمره أنه عدل وحور مـرارا على أثرالغـارات المختلفة التـى منيت بها البـلاد المصرية. على أن هـذا لايمنعنـا مـن ذكـر بعـض الأحكـام القـانـونيـة نقـلا عـن (هيرودتـس) و(ديودورس) الصقلى فقد ذكـرا أن المصريين كانوا يعاقبـون الحانث يمينه بالإعدام، وكانت الشريعة المصرية تسلم باليمين الحاسمة فى كثير من الأحوال الخطير،ة وتفرض على كـل مصرى الاحتياط لـدرأ الجرائم والمطالبـة بعقابْ مرتكبيها فالذى يرى أمرءا قد أدركـه الخطر مثلا ثم لا يسعفه بدرئه عنه على قدر طاقته كـان كمن يأثم بقتل نفس عـامدا متعمدا ويعاقب كالقـاتل. وكان فرضـا على المصرى الدفاع عـن نظيره ضد من يعتدى عليـه ويريد بـه السوء وحمايته من غضبه. فإذا استطاع ان يثبت بالدليـل القاطع عجزه عن موافاته بالمســاعدة والإسعاف طـالبه القانـون باستكشــاف المجرم والتعريـف عنه والقيام بمقـاضـاته أمـام المحاكم. فحـق المقاضاة بـاسم العدل كـان إذا من القواعد المقررة عندهم والواجبات المفـروضـة على جميع أبناء الوطن بالسواء. وكان شاهد الجريمة الذى يمتنع عن الشـهادة يعاقب ضربا بالقضبان ويحرم الغذاء ثلاثة أيام وصـالا وكان المدعى مـوجه التهمة إلى أحد، إذا ثبت أنه قصد بها الوشاية يجازى بالعقوبة المقـررة للمتهم إذا ثبتت هذه التهمة قبله. وكان المذنب الذى لاتدركه التهمة فى حياته لايستطيع الفرار منها عند مماته إذ كان يكفى أن ينبعث صـوت صـادق بتوجيه التهمة إليه لتحرم جثته الدفن فى القبر الذى أعد له.

وكان القصـاص العقوبة الشـائعة لمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق. فن يقتل أباه جزاؤه الإحراق بالنار.أما الوالدون الذين يقتلون أبناءهم فكان عقابهم أن يعانقوا جثتهم ثلاثة أيام بلياليها. وكان جزاء منتهك العرض التمثيل به وعقاب الزانية جدع الأنف والزانى الضرب بالقضبان.

ومن أغرب قوانين مصر القديمة ذلك القانون الذى يسوغ السرقة ويجيزها إلى حد استتبع الاعتراف باللصوص كطائفة ذات زعماء ورؤساء يديرون شئونها ويدبرون أمورها. وكانت الطريقة المتبعة عندهم أن يتلقى هؤلاء من اللصوص مايسرقونه من المال والمتاع ثم يردونه إلى أصحابه مقابل التنازل لهم عن ربع ثمنه، ومتى حصلوا على هذه الحصة جعلوها قسمة بينهم. وقد أجاز القانون المصرى عقب استيلاء الإغريق على الديار المصرية زواج الأخ بأخته.

١٩- العلوم

اختص الكهان أنفسهم بمدارسة العلوم والبحث فيها . ولقد ذكرت العلوم التى أخذوا منها بالقسط الأوفى. لذا أدع الإسهاب جانباً فى الكلام عليها. وماأستطيع ذكره فى هذا الموضوع أن المصريين كانت لهم الباع الطولى فى العلوم الطبيعية والرياضية وفيما اتقنوا صنعه من مناطق فلك البروج دليل على إلمامهم بأهم الحوادث الفلكية. ولقد أنشأوا للكهان فى عين شمس وبعض أمهات المدائن مدارس خاصة كانوا يعكفون فيها على رصد الكواكب ودرس = ودراسة= أحوالها. وأشار المؤرخ سترابون إلى هذا الموضوع فقال إن المصريين كانوا أول من قام بترتيب الزمن وتقسيمه بحسب دورة الشمس لا القمر . إذ حسبوا للسنة إثنى عشر شهرا ولكل شهر ثلاثين يوما ثم ضموا إليها خمسة أيام وهى أيام النسىء التى سموها الأيام السماوية، وكانت السنوات عندهم نوعين نوعا يسمى بالسنوات الشمسية المؤلفة من ٣٦٥ يوما وربعا ونوعا يسمى بالسنوات المدنية أو المبهمة المؤلفة من ٣٦٥ يوما فقط. وكان تقهقر هذه السنة أو المبهمة فى التى قبلها يؤدى إلى فرق شهر واحد فى كل مائة وعشرين سنة وفرق سنة ذات ٣٦٥ يوما فى كل ١٤٦٠ سنة، وكانت تعرف هذه المدة الطويلة عندهم بالسوتيقية. وقد توصل المصريون قبل غيرهم إلى تحديد السنة الشمسية بالدقة والضبط على أثر رصدهم شروق هالة الشعرى اليمانية. وكانوا لايقسمون السنة إلى أربعة فصول كما هى الآن. بل إلى ثلاثة فقط كل فصل منها ١٢٠ يوماً.

٢٠- الزراعة والصناعة والفنون والتجارة

كانت الزراعة قوام حياة مصر وملاك وجودها الذاتى ولم تكن أعمالها كثيرة المشاق إذ كانوا يبدأون بها عقب انصراف مياه الفيضان. ذكر

هيرودتس:أن الفلاحين كانوا ينثرون البذور عندئذ على الأرض ثم يطلقون مواشيهم لتطأها بأقدامها فتدفن البذور وينتظرون بعد ذلك أوان الحصاد لمباشرته. والمصريون القاطنون فيما يلى (منفيس) جنوبا كانوا يحصلون من مزارعهم على أوفر الثمرات بأقل مجهود فى العمل، لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى إثارة الأرض أو شقها بالمحاريث أو قلبها بالفؤوس . كانت زراعة الحبوب أهم مايعنون به من صنوف الزراعة لأن أرضهم كانت تجود بالمحصول الوافر منها.

أما الفنون والصناعات فقد ارتفعت عندهم إلى الأوج الأعلى من الاتقان والإحسان . ولست بذاكر شيئا هنا عن المبانى الضخمة والآثار المنجدة التى شادوها فى كل بقعة من بقاع مصر، لأننى سأفرد لها بحثا خاصا متى حان وقت الكلام عن الآثار المصرية القديمة . إلا أننى لا أجد مندوحة منذ الآن عن تذكير القارئ بما كان للمصريين من البراعة والحذق فى صناعة المعادن على الطرق والأساليب الكيميائية وانهم بلغوا من الإتقان فى التمويه بالمينا وصناعة الخزف والزجاج البسيط والملون وغيرهما الشأو الأبعد، وأنهم شادوا المصانع الكبيرة لعمل السلاح والآنية على اختلافها، وأن أكثر حذقهم كان فى صناعة المصوغات والجواهر على تباين أشكالها وعمل الآثاث المنزلية والمنسوجات المشهورة بالمتانة والجودة. ولما كانت مصر غنية بحاصلاتها الطبيعية والصناعية فلابد أن تكون من البلاد البارعة فى ممارسة التجارة وترويجها.

٢١ ـ قمبيز

قمبيز – خلفاؤه – الأسرات الملوكية الوطنية الأخيرة

اقترن فتح الفرس للبلاد المصرية بالغلظة والقسوة فى معاملة الأهلين وإطلاق يد التدمير والتخريب فى الآثار الباذخة. فإنهم ماحترموا العادات المرعية ولا صانوا المعالم الدينية بل أخنوا على المعابد وسلبوا مافيها. وكان لاهم لملكهم (قمبيز) سوى اضطهاد الشعب وإيذائه فيما يحرص عليه من العقيدة الدينية. إذ ذبح بيده العجل (أبيس) كى يقيم الدليل للمصريين على أنه لم يكن إلها، وأنه لو كان كذلك لدفع عن نفسه ماحاق به. ولم يكتف بفتحه ديار مصر بل عداها إلى بلاد الحبشة وأنفذ فى الصحراء جيشا ضخما لإخضاع سكان واحة (آمون) ولكنه فشل فى الأمرين لأن الجيش الذى وجهه الى الأمونيين هلك فى رمال الصحراء ومات هو غما وكمدا بعد هلاكه بقليل.

٢٢- خلفاء قمبيز

فى عهد داريوس بــن هستاسب أحد خلفاء قمبيــز بمصر أحس المصريون بانفراج الكربة وعــاد إليهم مافقدوه من الطمأنينة فى عهد هــذا الفاتح الظالم الغاشــم فشيدت الهياكــل الدينية لآلهة مصر تحت رعــاية ذلك الملــك الجليل ولايزال أحـدها وطيد الدعــائم شديد المقــاوم فى الواحة الخارجة. وكــان مما صرف داريوس إليه همته تمهيد طــرق المواصلات بين النيل والبحر الأحمر، على أن المصريين لم يلبثوا أن نقمــوا عليه فى آخر أيــام حكمه وهبــوا إلى الثورة فأخضعهم (أركــزرسيس) خلفه وألزمهم مــلازمة الطاعة له ولكنهــم ثابوا = رجعوا = إلى الثورة ثانيا فى أيام ابنه فأرهقهــم من المظالم والمغارم بأكثر مما فعــل أســلافه انتقــامــا منهــم وتنكيلا بهم. على أن المصريين لم يثنهــم عــن عزيمتهــم فشلهم المتوالى فى تحقيق مــرادهم. إذ تمكن زعيمهم (أميرتــه) عام ٤٠٤ قبل الميلاد من رد استقلالهم المسلوب إليهــم . فيكون الفرس قد تملكوا مصر فى هذه المرة مائة وعشرين عاما.

٢٣- الأسرات الوطنية الأخيرة

كانت الأسرة الثامنــة والعشرون وهى الأخيرة من الأسر المصرية مقتصرة على الزعيــم (أميرته) السابــق الذكر ولم تتجــاوز مدة حكمها ستــة أعوام إذ خلفتهــا أسرة منديسيــة الأصــل هى الأسرة التــاسعــة والعشرون المعروفــة بالمنديسية، وقد بلغ عدد ملوكهــا خمسة لم تتعد مدة حكمهم إحدى وعشرين سنة ، ثــم خلفتها الأسرة الثلاثون المعــروفة بالسبينيــة، وكانت مؤلفــة من ثلاثة أمراء بلغت مدة حكمهم ثمانية وثلاثين عاما. وفى عهد الأخير منهم وهو الملك نقطنبــو (الثانى) أى سنــة ٣٣٨ قبل الميــلاد استولى الفرس ثــانيا على مصر. وكان حكمهم فى هــذه المرة قصيرا جداً لم يتجاوز سبع سنــوات أختى على دولتهم فى ختامها الإسكندر الأكبر باستيلائه على مصر فى السنة التالية ـ أى فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد.

٧- البطالسة

الإسكندر الأكبر- اللاغيون- حضارة البطالسة- الاحتلال الرومانى

حرر الإسكندر الأكبر مصر وخلصها باستيلائه عليها من ربقة العبودية. فان المقدونيين لم ينتهوا من فتحها فى سنة ٣٣١ من الميلاد حتى طرح هذا الفتح عليها شعاعا جديدا من نبراس الحضارة والعرفان أكسبها بهجة وبهاء ولقد أفاض عليها ذلك البطل نعمة من أجل النعم بتخطيطه فيها مدينة تجارية فى موقع أحسن اختياره لها بما خصه الله به من صواب الرأى وسلامة الذوق، ولم تلبث هذه المدينة عقب إنشائها أن صارت درة فى تاج مدائن العالم وثغوره، وبعد وفاته التى أعقبتها تجزئة فتوحاته وتقسيمها بين قواده آلت مصر إلى واحد من هؤلاء فاستلم زمامها واستوى على عرشها باسم (بطليموس سوطر) فبطليموس هذا هو أول ملوك الأسرة الثانية والثلاثين من الأسر الملوكية المصرية ، وتعرف باللاغيين وقد بلغ عدد ملوكها إثنى عشر ملكا وملكة واحدة ظل حكمهم قائما على أوثق القواعد وأحكمها مائتى عام وأربعة وتسعين عاما، وهاك أسماء هؤلاء الملوك الذين تعاقبوا الحكم على البلاد من تلك الأسرة.

بطليموس سوطر	المتوفى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد
بطليموس فيلادلف	المتوفى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطه	المتوفى سنة ٢٢٤ قبل الميلاد
بطليموس فيلوباطور	المتوفى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد
بطليموس ابيفان	المتوفى سنة ١٨٠ قبل الميلاد
بطليموس فيلوميطور	المتوفى سنة ١٤٥ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة (الثانى)	المتوفى سنة ١١٦ قبل الميلاد
إسكندر الأول	المتوفى سنة ٨٨ قبل الميلاد
بطليموس سوطر الثانى	المتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
إسكندر الثانى	والمتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
بطليموس أوليت	المتوفى سنة ٥٢ قبل الميلاد
بطليموس دنيس	المتوفى سنة ٣١ قبل الميلاد

ولم يكن حكم البطالسة وتسلطهم أثناء هذه المدد إلا نسيجا من حوادث متضاربة ومكائد عائلية وفتن داخلية لهذا كانت ولايتهم خالية من الفوائد التاريخية.

على أن مصر بلغت فى عهد البعض منهم شأوا بعيدا من الرفعة والتقدم والرفاهية. فلقد انفتحت أبواب الرواج لتجارتها وأصبحت الممر الوحيد لحاصلات الهند الى بلدان البحر المتوسط، وسطعت أنوار العلوم بسناء يخطف الأبصار. وكان تقدمها وإتساع نطاقها فى الإسكندرية مما يذكر مقترنا بالدهشة والإعجاب، فعلوم الفلك والطب والفلسفة سما بها الإسكندريون إلى الأوج الأعلى سموا لاتزال ذكراه مدونة بحروف لاتمحى فى تاريخ تقدم العقل البشرى.

ولقد رأت مصر فى ذلك العصر كيف اندمجت فيها مدنيات جملة من الشعوب بانفتاح أبوابها لليونان واليهود والأشوريين والرومان وامتزاج أخلاق هذه الشعوب وأفكارهم ودياناتهم وعقائدهم الامتزاج الذى تولدت منه مدرسة اشتهرت بالعلوم الفلسفية، وانطوت تحت لوائها العقيدة المصرية المبنية على تعدد الآلهة بعد أن حورت تحويرا خفيفاً مكنها من الحيلولة دون انتشار الديانة المسيحية التى كانت وقتئذ قريبة العهد بالظهور.

ولكن لم تلبث أسرة البطالسة أن سطت عليها أيدى الفساد وترتب على احتدام نار الفتن الأهلية فى أيام الأخيرين من ملوكها أن تطلع الرومان إليها وتداخلوا فى شئونها وكان (قيصر) قد تغلب وقتئذ على (بومبيوس) فمر بالإسكندرية حيث عاون (كليوباترة) على استلام زمام الملك. وكانت هذه الملكة قد اقترنت أثناء الحرب الأهلية بانطوان ثم ماتت معه فى معركة (أكتيوم) فأصبحت مصر عقب ذلك على عهد الامبراطور أغستوس إقليما تابعا للدولة الرومانية.

الحكم الرومانى

السياسة الرومانية - الديانة المسيحية فى مصر - المنازعات الدينية - الأقباط يدعون العرب إلى الإغارة على مصر.

٢٥- كانت سياسة الإمبراطور اغتوس نحو مصر قائمة على أساس الحزم والتبصر. وهى مما يساق دليلا على معرفة هذا الملك الحاذق بأحوال البلاد وإلمامه بدخائلها . فهى من هذا الوجه جديرة بالتدبر وإمعان النظر فيها حتى فى هذه الأيام. وذلك لأنه كان يوجد فى عهد الرومان كما يوجد فى زمننا مسألة شرقية فى الغاية القصوى من الأهمية، وكان لابد من طرح هذه المسألة على بساط البحث والتمحيص وإعداد الحل العملى لها طبقا لما ذكره (تاسيتوس) فى عبارته الفخمة باللغة اللاطيلية وهى :

كان الإمبراطور (اغستوس) يرى فى امتلاكه مصر مصلحة حيوية لدولته. لأنها فضلا عن أهمية موقعها الجغرافى كانت وفيرة الخيرات الزراعية فاتخذها هذا الامبراطور مستودعا للحبوب اللازمة لرومية = لروما = وجعل عليها حاكما أوكل إليه مهمة موافاة العاصمة الرومانية - وهى عاصمة العالم وقتئذ بما يكفى من الحبوب لتموين سكانها قبل انقضاء شهر أغسطس من كل عام وفرض عليه جعل أملاكه الخاصة ضمانة للقيام بتلك المهمة على أحسن وجه وأتمه فكان إذا بدا منه تقصير أو عجز صودرت أملاكه وضمت إلى أموال الحكومة.

ومن هذا نرى أنه كان لامندوحة للدولة الرومانية من العناية باتخاذ الوسائل الكفيلة باستدامة امتلاك إقليم بلغ ذلك المبلغ من الأهمية وخطورة الشأن.

ولقد استحدث الامبراطور أوغستوس لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض سابقة لم يلبث خلفاؤه أن اقتدوا به فيها وهى أن لا يعهد بالإدارة العليا لمصر إلى أحد ما من سلالة الأعضاء فى مجلس الشيوخ. لاسيما إذا كان من ذوى الجاه والنفوذ ، فعهدها إلى فارس بسيط من الفرسان الرومانيين يأتمر بأمره حكام الأقاليم والمديريات المختلفة وثلاثة جيوش منبثة فى أرجاء القطر إلى حدوده الجنوبية . وكان والى مصر كثيرا ما يبدل بغيره خشية أن يصبح له من القوة والسلطان مايمهد له السبيل لاغتصاب الحقوق التى جاء ليمثل الإمبراطور فيها.

ومن جهة أخرى فإن الامبراطور أغستوس لم يمنح الأمة المصرية حقا ولا حرية مما اعتاد الرومانيون منحه الشعوب المغلوبة على أمرها. نعم إنه احترم عاداتهم المدنية والدينية ولكنه ضن عليهم بما يمهد لهم الحصول على حريتهم السياسية، وهناك أمران عاليان من الأوامر التى أصدرها يشهدان صراحة بما كان يخالجه من النيات فى هذا الصدد. إذ قضى فى أحدهما بحرمان أشراف المصريين من التوجه إلى رومية للانتظام فى سلك مجلس الشيوخ ، وحتم فى الثانى على أعضاء هذا المجلس وعلى الفرسان الرومانيين ألا يهبطوا مصر إلا بإذن من الإمبراطور.

وكان يهم الدولة الرومانية إسعاد مصر بتنمية ثروتها لعلمها بما تجنيه من الثمار وتستفيده من المزايا بذلك. فلا عجب إذا عنيت بإصلاح ترعها القديمة وحفر ترع جديدة غيرها . واتسع نطاق التجارة البحرية وبلغت الإسكندرية من رفعة الشأن وسعة الثروة ماجعلها الى عهد إنشاء مدينة القسطنطنية المدينة الثانية على وجه المعمورة.

ولقد ظلت مصر أيام تسلط الرومان عليها مسرحا للفتن الداخلية والمشاغبات الأهلية ومحطا لأنظار الطامعين حتى لقد سارعت بفتحها زنوبيا، ملكة (تدمر) وسرعان ماردها بعد ذلك الامبراطور (أورليانس) إلى حظيرة السيادة الرومانية، ودخلت إليها الديانة المسيحية فى عهد الإمبراطور (دومسيانوس) وانتشرت فيها انتشارا عظيما بالرغم من اضطهاد الرومان لها بما اتخذوه من الذرائع القاسية لأخذ المسالك عليها، ولقد كان هذا الحادث الدينى سببا لإعطاء مصر مسحة جديدة من الشهرة فإن أقليم (طيبائيد) أصبح آهلا بالرهبان، وقضى الإيمان الدينى بتقديس صحاريها المترامية الأطراف، وأختصت مدينة الإسكندرية بشطر كبير من الحركة الدينية فى القرون الأولى من التاريخ الميلادى. وكان (آريوس) قسا لهذا الثغر والقديس (أطناسيوس) خصمه اللدود الذى لايمل مناصبته العداوة، ثم صار بطريقاً لها فنشأ عن المنازعات الدينية فى مصر مانشأ عنها بالشرق المسيحى لذلك العهد من المعارك التى سالت فيها الدماء وفاضت الأرواح.

ولما قسم قسطنطين المملكة إلى قسمين كبيرين جعلت مصر فى القسم الذى اتخذته القسطنطينية عاصمة له، ولكن الدولة الأخيرة المعروفة بالدولة السفلى كانت قد أفسدتها الفتن الداخلية ونال منها الضعف واشرأبت نحوها أعناق المطامع من كل جانب. فلم تستطع أن تحفظ فى قبضتها ذلك الإقليم

ولا أن تدفع عنه عادية العدوان على أن الفتن الدينية والانقسامات المذهبية قد عجلت بخسارته قبل الأوان الذى كان يتوقع حدوثها فيه.

وكان سواد الشعب المصرى قد انضم إلى فرقة اليعقوبيين، وانفصل بهذا الانضمام عن الكنيسة البيزنطية. فتولدت لهذا السبب فى نفوس المصريين اليعقوبيين (الأقباط) الضغائن على الحكام الأورام القابضين على أزمة أمورهم . وبالغوا فى نفث ما فى صدورهم من كامن الأحقاد عليهم إلى حد أنساهم ماتتطلبه ديانتهم من العناية بمصالحها. فإن بنيامين بطريرك الأقباط وبعض ذوى الجاه والنفوذ من المصريين لم يترددوا فى استدعاء المسلمين أعداء الديانة المسيحية إلى مصر. وكان هؤلاء قد استولوا وقتئذ على قسم من بلاد الشام مفضلين الرضوخ لحكم المسلمين على البقاء تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينية ، وقد تلقى المسلمون إلتماسهم با لمسارعة إلى قبوله والمبادرة بتنفيذه. إذ استولوا على الديار المصرية عام ٦٤٠ من الميلاد ـ أى فى أيام الإمبراطور هرقل أو هيرقليوس.

(٩)
حكم الخلفاء والسلاطين من المماليك

٢٦– استولى العرب بقيادة عمرو بن العاص على مصر، وكان الأهلون يشدون أزرهم ويمدونهم بما يلزمهم فى زحفهم من المؤن. فلم تلبث الإسكندرية أن وقعت فى حوزتهم. أما نهبهم هذه المدينة وإحراقهم مئات الألوف من المصنفات التى احتوتها مكتبتها الثمينة فإن شهرته تغنى عن ذكره– أما سبب الإحراق فراجع إلى أن عمرو بن العاص استشار الخليفة فى شأن هذه الكتب وتنقيلها = ونقلها = للمسلمين فأجابه: «إنه إن يكن مافيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، وفى الحالتين ينبغى إحراقها» فأحرقها عمرو تنفيذا لهذا الأمر وتلاشت بذلك دار كتب اللاغيين وحرمت العلوم والآداب دررها الثمينة[1] ولكن عمرا إذا سلك بهذه المناسبة المسلك الذى تستدعيه الشدة فى التعصب للإسلام فقد سلك مسلك الكرم والتسامح حيال المسائل الأخرى. فلقد أفاد البلاد المفتوحة مزايا لاحصر لها نذكر منها إنشاؤه مدينة الفسطاط واتخاذه إياها عاصمة لمصر وحفره الترعة المعروفة بترعة أمير المؤمنين للإيصال بين النيل والبحر الأحمر.

على أن الولاة بعده لم يستنوا بسنته ولم ينهجوا فى هذا الصدد سبيله. فإنه بعد أن تملك الأمويون فالعباسيون مصر استقل بالأمر فيها أحمد بن طولون رأس الدولة الطولونية التى لبثت عهدا قصيرا قابضة على زمام الأحكام . ومن أعمال هذا الأمير الحصون التى أقامها حول الإسكندرية ولاتزال آثارها باقية حتى الآن.

وخلف الطولونيين فى الأخذ بزمام الحكم الدولة الإخشيدية التى قامت

---

(١) كان الوهم السائد بأوروبا فى القرن التاسع عشر أن عمرو بن العاص هو الذى أحرق دار كتب الإسكندرية بناء على أمر من الخليفة عمر بن الخطاب، وبلغ من شيوع ذلك الوهم فيها أن الكتب المدرسية كمعجم (لاروس) الصغير مثلا فى مفردات اللغة الفرنسية كانت تعتبر كلمة (عمر) مرادفة لكلمة (الجهل) ولكنها عدلت عن هذا التعريف المبنى على الجهل والتعصب منذ أقام علماء أوربا الدليل القاطع على عدم وجود مكتبة ما فى الاسكندرية وقت استيلاء عمرو بن العاص عليها فإن هذه المكتبة احرقت للمرة الثانية فى سنة ٣٨٩ من الميلاد –أى قبل فتح الإسكندرية على أيدى المسلمين بأكثر من مائتى وخمسين عاما وكان احراقها بفعل المسيحيين أنفسهم يوم هاجموا هيكل السرابيوم (رواق الحكومة أو مدرسة الاسكندرية) الذى كان عمود السوارى قائما وسط صحنه وقتلوا أهله من الكهان المصريين الذين أبوا التدين بالنصرانية ثم احرقوه وقد عثر مجلس الاسكندرية البلدى منذ سنوات على أثر الدخان بجدران ذلك الهيكل أثناء قيامه بالحفر لاستكشافها . هذا وقد زار الرحالة المؤرخ يوسيفوس الإسكندرية فى خلال القرن الخامس من الميلاد ـ أى بعد احتراق مكتبتها للمرة الثانية وقبل ظهور الإسلام فلم يشر بكلمة فيما ذكره من معاهد تلك المدينة عن دار كتبها العظيمة.

بأعباء الأمر ردحا قصيرا من الزمن وليت الأحكام بعدها الدولة الفاطمية (سنة ٨٨٢ ميلادية) وهي التي رتعت مصر خلال حكم الخلفاء الأولين منها في بحبوحة النعيم والهناء، وتأيدت شوكتها وامتنع جانبها وأنشئت مدينة القاهرة التي ما عتمت أن أصبحت عاصمة الملك ونبع العلوم والعرفان. وأصل مؤسسي هذه الدولة ورافعي صرحها وناشري لوائها من ضاحية فاس با لمغرب الأقصى هرعوا إلى مصر منها حاملين من آثار الحضارة العربية التي سطعت أنوارها على آفاق الأندلس إلى ذلك العهد ما كان سببا لفيوض أنوار العلوم والفنون في أنحاء الأقاليم المصرية . غير أن المتأخرين من خلفائها انتابهم الفساد وتحيفهم الضعف فزالت دولتهم وثل عرشهم وثل صولجان الملك من يدهم إلى عهدة الأيوبيين (سنة ١١٧١ من الميلاد).

ولقد سطع نجم الأيوبيين على أفق الصعود، وعلا حتى بلغ إلى الأوج في عهد الأول من سلاطينهم، وانتشر ذكرهم في الخافقين مقرونا بهيبة الجند وشدة البأس، وكان الصليبيون قد تغلبوا على المسلمين في ربوع الشام فآل أمرهم إلى الضعف والتدابر والتخاذل حتى كادوا في الوقت الذي ظهر فيه صلاح الدين أول السلاطين الأيوبيين يردون موارد الفناء والتلاشي فرفع من شأن الإسلام، وجدد مايلي من قوته وهيبته بما أتيح له من الفوز وعقد لوائه به من الانتصار.

وفي عهد أسرة هذا السلطان سمت مصر إلى الأوج الأعلى من العلم والعرفان واتسع نطاق تجارتها حتى عادت إلى ماكانت عليه في عهد البطالسة من الرواج ونفاق السوق وتوثقت الروابط التجارية بينها والهند من جهة وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

وكان من حظ الأيوبيين أن تمت لهم الغلبة على الصليبيين. إذ فازوا عليهم في حروبهم كافة. وعلى عهد الأخير من سلاطينهم نزل القديس لويس (الملك لويس التاسع) إلى بر مصر فأسر في معركة فارسكور التي دحر الصليبيون فيها وقد طالبت فرنسا المماليك بحساب هذه المعركة بعد ستة قرون من الزمان.

وقد آل تراث الأيوبيين ـ إذ تأذن الله بانقراض الملك منهم ـ إلى المماليك البحرية (سنة ١٢٥٠) وكانت الدولة العباسية ببغداد قد أشرفت على الفناء ثم ثل عرشها في أوائل حكمهم فلجأ إلى مصر من بقي على قيد الحياة من أسرة

الخلافة فيها فاعترف المماليك بسلطتهم الدينية وصارت القاهرة مقر الديانة الإسلامية ومهبـط وحى الخلافة، وحلت فى ذلـك محل بغداد إلى أن تغلب على مصر سلاطين آل عثمان فانتـزعوا من آخر الخلفـاء العباسيين بمصر السلطة الدينية ليعززوا بها سلطتهم السياسية.

وخلف المماليك البرجية المماليك البحرية (سنة ١٣٨٢) فلم يؤثر عنهم من الأعمال إلا ما سنوه فى مدة تسلطهم من الأنظمة التى بنوا عليها صرح نفوذهم وأقاموا دعائم شوكتهم فإن التاريـخ لم يذكر مثالا للطبقة الارستقراطية التى تألفت منهم بفعل أحد السلاطين الأيوبيين مـن سلالة صلاح الدين، فإن هذا السلطان أراد أن يذهـب مذاهب الملك فى جلال المظهـر مع الحرص على الذات فأساء مـن حيث أراد أن يحسـن وأخطأ مـن حيث ظن أنه يصيـب. وذلك انه اشترى إثنى عشر ألف مملـوك من الجراكسة والأباظية والمنجـريلية وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربيـة ألف منهم جندا لم يلبث أن صار أشـد الجنود الآسيـوية الأصـل بأسا وأقـواهم بطشـا. وكانـت سلطة مواليهم قد آلت على توالى الأيام إلى حـوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا فى أحوال الدولة على ماشاءت أهواؤهم، ثـم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشـهم واختاروا السلاطين لهم مـن بينهم وأخذوا يؤلفـون برسـم أنفسهم فـرقا من المماليك على الوجـه الذى ألفته بمقتضاه فـرقهم فتضاعف عـددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على من سواهم.

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهـم فى مقتبل العمر يباعون فى أسواق النخاسة بيـع الأرقاء ثم ينقلون إلى ذلك القطر الـذى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه بدون أن تربطهم به صلة وطن ولا آصرة قرابة.

ولم يكن عجبا أن يعاملـوه وأهله معاملة البلدان المفتوحـة والأمم المغلوبة على أمرهـا إذ لم يكن يعنيهم مـن شأنـه وشأن أهله سـوى التفنن فى ضروب ابتزاز الأمـوال واستدرار الخيرات، فتطوروا بطور الحضـارة والترف، وألفوا النعيم ونضارة العيـش، وبلغوا فى ذلك الغاية حتى أصبـح حكمهم القائم على أساس التوحـش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفـوضى والاحتلال والمكايـد المراد بها تعزيز الأطماع الذاتيـة وتفشى وسائل العنـف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء وإفاضة الأرواح لتحقيقها.

(١٠)

حكم الأتراك والمماليك

حكومة مصر فى عهد الأتراك — على بك – السيادة الخيالية للباب العالى على مصر – الاستقلال الحقيقى للمماليك.

صارت مصر فى سنة ١٥١٧ - أى أيام السلطان سليم الأول إقليما تابعا للدولة العثمانية . ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعد مصر من مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها.. وكان من جهة أخرى فى حاجة إلى مداراة المماليك واستمالتهم إليه ليأمن من جانبهم فابتكر لإدارة شئون البلاد أسلوبا أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمناه من ذلك. فإنه جزء السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفا على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوزان والتعادل بين قوى تلك الأجزاء.

أما شئون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضاؤه من كبار المماليك وزعمائهم ، وأما الإدارة المحلية فقد نيطت بأربعة وعشرين بيكا منهم هم رؤساء تلك الفرق والطوائف وزعماؤها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا الفرض والضرائب الجزئية، فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها إلى الباب العالى. وكان للسلطان فى البلاد وال برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الإعتداء الخارجى ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرها.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والأسباهية بقيادة رؤساء يسمون بالوجاقلية لتأييد الباشا والذود عن حقوقه واختصاصاته. ولكنهم بالنظر لاعتيادهم فى مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر فى الترف والنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التى جعلت انكشارية القسطنطينية من أولى البأس والشدة، ونجم عن هذا وذاك أن

احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئا من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان فى قدرتهم العمل لإقعاده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على توالى الأيام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.

وفى سنة ١٧٦٦ رفع على بك أحد البكوات المماليك على الدولة العثمانية لواء العصيان وأحجم عن دفع الجزية وطرد الباشا المعين من قبلها ، وضرب النقود باسمه ودحر الجيش العثمانى فى جميع المعارك التى اشتبك معه فيها. وبايعه شريف مكة سلطانا على مصر، ولكن بعض حاشيته كادوا له ففشلت ثورته وأخفق سعيه. على أنه لم يكن هناك شك فى أن السلطة العثمانية بمصر كان قد انصدعت من جراء هذه الثورة صرحها المشيد وتزعزعت أركانها فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال فقد سهل على المماليك منذ هذا الحين إقعاد الباشوات ونفيهم بلا معارض ولامشاق، وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحى عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا ممانعة ولا محاولة مقاومة، وخلف من بعد على بك خلف تفوقوا عليه فى الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فإنهم بالرغم من إتصافهم مثله بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام اتقوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية البعيدة التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها. لاسيما وانهم يعتقدون أن ما هم فيه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الاسمى. بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها.

وكانوا فيما عدا ماتقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصّونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحيانا بهم إلى التوقف عن دفعها بالمرة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد المدعيات. وماكان فى وسع الباب العالى تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجر ذيل الإغضاء عليه علما منه بما يعقب

التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له. ومن ثم اتجهت سياسته إلى غاية واحدة هى إلقاء بذور التدابر والانقسام بين المماليك مع إتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوى الغالب من تأييد شوكته وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة ويتوافر النظام. وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التى كانت تسوء أحوالهاعلى الدوام ويضطرب حبل شئونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أسس وطيدة من الهمة والهيبة والنظام.

الحملة الفرنساوية

الغرض من هذه الحملة- النزول في ثغر الإسكندرية- واقعة الأهرام هزيمة أبي قير- نتائجها- كليبر - الانتصار في هليوبوليس (عين شمس)- منو - الجلاء- نتائج القمع الفرنسي.

١٢- لما وصل بونابرتة إلى مصر ووطئت قدماه ثراها في أول يوليو، سنة ١٧٩٨ كان يتصرف في شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها إثنان من البكوات المصريين أي المماليك.

أما العلة التي لأجلها ألفت حكومة الدركتوار الحملة التي عهدت رئاستها إلى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها إلى ضفاف النيل لاحتلاله. فهي أن المماليك كانوا يتصدرون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت أصواتهم بالشكوى والاستصراخ. غير أنه كان هناك سبب أشرف مغزى من قصر إنزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش في المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الإفريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا. فلم يسعهم إلا أن يطاوعوا هذه القوة القاهرة. فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر أن ينفذ اقتراحاً رفعه إليه الوزير (لبنتز) للاستيلاء على مصر، وطرحت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة في وزارة (الدوق دي شوازول) فلما عاد بونابرتة من إيطاليا حبذ فكرة (لبنتز) وصفق لها استحسانا معتقدا أنها من الأغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها. وبلغ من تحمسه لتلك الفكرة أنه قال ذات يوم في حديث له: «إن الشهرة لاتكتسب إلا في الشرق» ولقد أيقن بصواب هذا الرأي يوم قال له كليبر في أبي قير: «أيها القائد: إنك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطيء حينما أقبل على بلاد الأهرام يلتمس منها المجد والفخر ــ أي الطلسم الذي يربط بالنوع البشري كله حظوظ القطاحل والعبقريين.

على أن نابليون شرح في جمل قصيرة الغرض السياسي الذي كان يرمي إليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز فى الشرق الأوسط. إذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال فى الهند. وكان لابد فى إصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و(الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا. وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر. إلى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية فى أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى مرافىء إيطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والإسكندرية صار البحر الأبيض المتوسط لامحالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق ـ ويا للأسف ـ قط!

وإذا كنت لا أقصد فى هذا المقام إلى إيراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإنى أقتصر على القول بأن الإسكندرية وقعت فى قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم إلى البر، ولم يقم بونابرته فى هذا الثغر إلا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة، وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش: الفرنسى بصارمه البتار كما تشطر البطيخة بالسكين. يقول بونابرته : فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل مراد بك بفرسانه المصريين فلم تلبث شدة حملاته أن تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعة فلما رأى المماليك ماحل بهم من الفشل والعجز أخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم إلى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب. ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والأهرام يتربصون بنا السوء، وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأفول نجمنا ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن واقعة الأهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بإمبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل أشفى على الهلاك والتلف إذ انجلت المعركة عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا فى ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت إلينا بزمام مدينة القاهرة وبالتالى القطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدوننمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا إليها قال نابليون فى مذكراته (المجلد الثانى) «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر. بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها بل لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار إلى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا. أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحى رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخسر جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وأنقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر إلى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب».

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم، وانصرف خاطرها إلى ماوقع بها من النكبات والمحن فى إيطاليا وألمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت إليه إلا أن يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وأن يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابرته بالأتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحى به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته إلى فرنسا. فقد عقد كليبر مع الأتراك فى العريش إتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم إلى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا ، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الأميرال (كيث) إلى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه أن انكلترا لاتقبل من الجيش الفرنسى التسليم إلا إذا ألقى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والأمتعة. فكان جواب كليبر على هذا البلاغ أن نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب إليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها إلا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية أن ينازل جيشا مؤلفا من سبعين ألف عثمانى وأن يدحره ويشتت شمله. وهو ماقام به

التسعة آلالاف مـن الفرنسيين فى واقعة عين شمـس الخالدة الذكـرى. ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطـارد فلول الجيش العثمانى فى الشـام كان سكان مدينـة القاهرة قد ثـابوا = هبوا = إلى الثورة وأخـذوا يفتكون بالفرنجـة من أهلها ويحصرون فى أحد القصـور مائة وثمانين فرنسيا نيطـت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قـاوموا يومين متتـابعين الحملات الموجهة إليهـم من جموع الأهلين الذيـن كان يؤيدهـم نحو الألف من الجنـد وأشرف أولئك من عندهـم لولا أن فصيلة من جيشنـا الظافر جاءت فى أنسب الأوقات لنجـدتهم وتخليصـهم من حرج موقفهم . على أن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئـوا = يرجعوا = إلى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم إلا بعـد أن أحرقت أحياء برمتها مـن المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر لـلأسباب المتقـدمة أن يحتفظ بـالديـار المصرية صرف همته إلى توثيق أركان شوكته وإقامـة معالم نفوذه وسلطته. ومهد له السبيل إلى هذه الغـاية فـوزه على الأتراك فى عين شمـس وتخلصه منهـم فضلا عـن ائتمانه جانب الانكليز الذين روعهـم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجوا) فانصرفـوا عن الاهتمام بمصر إلى الاشتغـال بشئون أوروبـا. وتحالف كليبر على الاثر مـع مراد بك فـآلت إليه بمقتضـى هذا التحـالف السلطة فى أقـاليم الوجه القبلى. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الأمر له ثانيا أن اعتدت عليه يد أثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الـوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لأنه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضـائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة، ولم يـوجد بين من عهدت إليهم أزمة الأمـور فى مصر من هو أهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القـائد ممتازا من الوجهـة العسكرية بشىء مـن الاستحقاق والفضل، كما لم يكن له من الوجهة الإداريـة نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه أغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية وأجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه. دع إنه من

جهة أخرى لم يرض الأهالى الوطنيين إذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغريبة. وكانت إجراءاته العسكرية تستدعى لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى أن سواد الجيش كثيرا ما استهجنها وأغفل القيام بها، فكان بديهيا أن تضيع مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقة هذه الحال فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبى قير فى قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السيباى) إلى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الأتراك فألزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد «منو» الغبى الغافل بتسليم الإسكندرية إليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة إلى الديار الفرنسية.

وأنه لمن الأعمال النافعة تقييد حوادث الفتح الفرنسى لمصر وتدوين النتائج التى أفضى إليها ولكن أرانى فى هذا المقام مضطراً إلى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول هذه النتائج أن انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش المماليك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق أفقهم. فلاح لهم شبح أوربا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسى قد خلب بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات [1] فإن ما أبداه من الحكمة فى تسامحه والمهارة فى احترامه ديانه الأمة المغلوبة وعاداتها بث فى نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد

(١) سيشغل نابليون أو السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزا ساميا فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيرا ماسمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والإعجاب وحدث أننى سافرت سنة ١٨٣٤ إلى السويس فى مهمة فنزلت فى بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه أقل تغيير حتى الفراش الذى قام فيه فلم اشأ ان يؤتى إلى بفراش غيره. وكان صاحب البيت وقت نزولى به صاحبه على عهد ذلك القائد العظيم وكان يخيل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل أن نضرة الشباب تعاوده كلما أخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسى. ومن قوله: «لم يكن بونابرتة عدوا للمسلمين إذ كان فى استطاعته لو أراد أن يقلب جميع المساجد بسن الإبرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمه كبيرا بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: «ولقد أكدوا لنا أنه فى ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التى تمكن إثنى عشر ملكا من ملوك النصارى من إرساله اليها وتكبله بالإغلال فيها بعد أن سقوه شرابا منوما رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترح فى أمان وسلام » وقد نقل إبراهيم باشا إلى اللغة التركية تاريخا مختصرا لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير «امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة أسرار حكام أوربا» أى كنز أسرار ملوك أوربا.

بينها وأوربا، والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس = لتقتبس =منها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان فى الوسع إجراء هذا الإصلاح لو بقى احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها. فإن بونابرته كان قد وضع بالفعل أساسه وأنشأ = وأخذ = يرفع أركانه بقصدة إيقاظ القومية العربية المصرية من سباتها، وبذل فى هذا السبيل ماتيسر له من الجهود التى كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين فى المدائن الكبرى وأمهات القرى، وهى عبارة عن المجالس البلدية التى ألفت من كبار الشيوخ والأعيان لترجع الحكومة إليها فى معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لايبرم أمرا حقيرا أو خطيرا إلا بعد إطلاعها عليه وإبدائها رأيها فيه. وكان كل مجلس منها يبعث إلى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما ولاقى الفرنسيون نحو هذا الإصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة وأحاطوها من جهتى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون.

١٢- حكومة محمد على

حالة مصر بعد رحيل الفرنسيين - الباشا والمماليك والألبانيون والإنكليز- تغلب المماليك- انقسامهم وتخاذلهم- الألبانيون تحت قيادة محمد على يطردونهم من القاهرة- محمد على - شهرته- مبايعة الشيوخ له واليا على مصر ومصادقة الباب العالى - مساعى وتدابير الإنكليز والمماليك ضده- نزول الانكليز فى الوجه البحرى وفشلهم- الحرب ضد الوهابيين- إبادة المماليك - دسائس الباب العالى- فشل هذه الدسائس- ترتيب الجيوش النظامية- فتح بلاد العرب وكردفان وسنار- ثروة مصر وشوكتها- حرب موره- دسائس الباب العالى الجديدة ضد محمد على - الانتصارات فى حمص وبيلان وقونيا- تداخل الدول بين الباب العالى ومحمد على- اتفاقية كوتاهية آخر مساعى السلطان محمود- الانتصار فى نصيبين- الحالة الحاضرة - مقصد محمد على- جعل حكمه ولاية وراثية.

٢٩–لما أكرهت غلطـات الجنرال منو جيش الحملة الفـرنسية على التنحى عن فتوحات (بونابرته) و(ديزه) و(كليبر) ووقعت مصر ثانيا فى قبضـة الباب العالى فاحتلتها جيوشه التى كان أساسـهـا فرقة مؤلفة من أربعة آلاف ألبانى والجيوش الإنكليزيـة التى أنزلها إلى البر الأميرال (كيث) وجماعـات المماليك. وكان مما تطاولت إلى معرفته الخواطـر عقب رحيل الفرنسيين: أى فريق من هؤلاء ستخلـص مصر له فى النهـاية هـل هم أولئـك الولاة الـذين تبعـث بهم الأستـانة ليمثلـوها فى مصر ؟ أم المماليـك سـادة البلاد مـن قبل وأصحـاب المصالح الكثيرة فيها؟

أما المماليـك فقد عـانوا فى حـروبهم مع الفـرنسيين ما حملهـم الخسائر الفادحــة فى الأنفس وجعلهم يعجـزون عن تعويضـهـا خصوصاً وقـد أصدر الباب العـالى الأوامر بمنع تصـدير الأرقاء مـن الجركس كيلا يتمكـن أولئك المماليك من سد ثلم تلك الخسائر، وليتيسر له الخلاص من عسفهم وتحكمهم فى أمـور البلاد. هـذا فضـلا عن أن التعليمات للـولايـة على مصر بعد رحيـل الفرنسيين كـانت قـاضية بإبـادة بقية المماليك والتعفيـة على آثارهـم حتى لاتقوم لهم فيما بعد قائمة .

وكان هذا الـوالى المسمى محمد خسرو باشا يشغل فى الحكـومة العثمانية منصب الصدر الأعظـم وكثيرا مالفت إلى شـخصه وهو فى هذا المركـز السامى أنظار الدول الأوربيـةبما جهر به من العـداء لمحمد على. ولقد بدأ هـذا الوزير بتنفيذ الأوامـر التى زودتــه بها حكومته ولكنـه لم يقم دليـلا فى تطبيقها على شىء من الحصـافة والمهارة المنتظرة مــن مثله. لأنه عجل بمحـاربة المماليك الذين كان، زعيماهم الكبيران عثمان البرديسـى ومحمد الألفى يتنافسان على الاستئثار بالحكم والسلطة . فلم تلبث الجيوش التى سيرها لقتالهم أن عادت من ميدان القتال بالفشل والخذلان.

وكان محمد على الذى سيرى القارىء فيما بعد أنه سيقوم بدور خطير على مسرح هذه الحوادث قائدا لفرقة الألبانيين فى ذلك الجيش التعس. فلم يستطع لبعده يومئـذ عن ميدان القتال الاشتراك فيـه وذلك لأن الرئيس الـذى عهدت إليه، رياسـة الحملة كان ناقما عليه. فـاتهمه لدى خسرو باشـا بسوء النية، وأنه قصد بتخلفه إلقاء مسئولية الهزيمة عليه، ولم يكن هذا الوزير من الذكاء

وحضور الذهن بحيث يستطيع سر هذه الوشاية فأقسم أن ينكل بالزعيم الألبانى ويورده شر الموارد. وكان مما بعث به على اعتزام الكيد له غير ماتقدم أنه بدأ يخشى جانبه، إلا أن محمد على استطاع بذكائه وفرط احتياطه أن يوقى نفسه شر ما ينصبه له أعداؤه من المكايد. فلقد استدعاه خسرو باشا ذات ليلة فلم يجبه إلى دعوته هذه لعلمه بأنه إذا أجابه إليها فإن الموت ملاقيه لامحالة عنده. ثم اغتنم فرصة استياء عساكره وغيرهم من الألبانيين بسبب التسويف فى دفع مرتباتهم فانضم معهم إلى المماليك وفتح لهم بمحالفته إياهم الطريق إلى القاهرة، والتحق بعد ذلك بعثمان البرديسى للزحف على خسرو باشا ، وقد ظل يطارده حتى ضيق عليه الخناق فى دمياط وأسره فيها بعد استيلائه عليها واستاقه إلى القاهرة حيث تولى إبراهيم بك مراقبته فى أسره (سنة ١٨٠٢).

ولما انتهت أنباء هذه الحوادث إلى علم الباب العالى بادر بإرسال على باشا الجزائرلى إلى مصر ليخلف خسرو باشا فى منصبه ويعاقب الذين خلعوه من كرسى الولاية غير أن الجزائرلى لم يكن أسعد طالعا ولا أوفر حظا من سلفه فإنه لما استشعر فى نفسه العجز عن إخضاع المماليك والألبانيين بالعنف والقهر لجأ إلى الحيلة والخدعة والدسيسة فلم يفلح، وانتهى الأمر به إلى الوقوع فى أيديهم وكان مما أسخطهم عليه التجاؤه إلى هذه الذرائع الخسيسة فى مغالبتهم فقتلوه شر قتلة بأمر رؤسائهم.

على أن المماليك لم يلبثوا بعد ذلك أن دب بينهم دبيب الانقسام واختاروا الشتات بدل الألفة. فذهبت مزايا فوزهم أثناء اتحادهم بددا. وكان محمد الألفى قد ذهب إلى انكلترا ليسأل حكومتها التدخل فى شئون مصر دفاعا عن مصالح البكوات المصرلية ثم عاد منها عقب قتل الجزائرلى باشا بقليل، ونزل فى أبى قير فداخل عثمان البرديسى الخوف من أن يرى هذا الخصم الذى ينافسه على النفوذ والكلمة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى فيما ينتظر أن يهم به من اغتصاب زمام السلطة من يده بعد أن تكبد فى سبيل الحصول عليه صنوف المشقة والعناء.

وكان محمد على يذكى فى نفسه نار الحقد والبغضاء على محمد الألفى منذ حالفه على التنكيل بخسرو باشا، ولم يكن انتهاجه هذه الخطة عن غير علة.

فإنه لما ذهب محمد الألفى إلى انكلترا ليدعوها إلى مد ظل حمايتها عليه ضد خصومه لم ينل منها الوعد بهذه المؤازرة إلا بعهود عاهدها على القيام بها من شأنها أن تعرض حياة مصر الاستقلالية فى المستقبل الى خطر مؤكد كبير. وقد حاول البرديسى التخلص من خصمه بما نصب له من المكائد وبث من المصائد. ولكنه لم يفلح فى مناوأته والكيد له. لأن الألفى كان قد تمكن من الفرار إلى الوجه القبلى حيث بذل الهمة فى تكوين حزبه وتأليف القلوب حوله من جديد.

وقد انشق المماليك لهذا السبب على أنفسهم فانقسموا إلى حزبين متعاديين لكل حزب منهم زعيم وكان خليقا بهما الاقتداء بمراد بك وإبراهيم بك فيما فعلاه قبل وصول الحملة الفرنسية من اقتسام البلاد بينهما حتى لاينازع أحدهما الآخر ويعمل على التنكيل به والكيد له ولكنهما بدلا من ذلك أخذا يتقاتلان ويفنيان - فى معارك لا فائدة تجنى من ورائها — ما بقى من القوة العسكرية المملوكية فكانت نتيجة فعلهما أن ازداد الألبانيون جرأة وقحة وصلابة.

وكان عثمان البرديسى حتى هذا الوقت مطمئنا إليهم وواثقا بهم، وكان لهم من المتأخر مايربو على مرتبات ثمانية أشهر فأخذوا يصيحون ويصخبون مطالبين بحقوقهم، وتهددوا البيك بالثورة عليه إذا لم يوافهم بها على الفور فأنشأ البرديسى يسترضيهم إذ فرض الفرض الفادحة على أهل القاهرة ليسد بها تلك الثغرة فكان سوء طريقته فى ذلك باعثا على تذمرهم واستيائهم وتجردهم وتحفزهم للثورة. وجاء الألبانيون بقيادة زعيمهم محمد على لحصار قصره وقصور غيره من الأمراء المصرية. فلم يتمكن عثمان بك من تسكين ثائرتهم ودفع غائلتهم. ولم يسلم من أيديهم إلا بفضل بسالته الذاتية إذ إنه برح القاهرة فى سنة ١٨٠٤ ولم يعد إليها إلى أن وافته منيته.

ولقد دبر محمد على هذه الثورة الفجائية بلباقته وحذقه واكتسب بها عطف العلماء ومودتهم فتمكن من استمالة الأهلين إليه والفوز بثقتهم فيه واعتمادهم عليه فى الملمات والقبض على ناصية السلطة.

وأول خطوة خطاها بعد استتباب الأمر أنه أراد إعادة خسرو باشا الذى كان لايزال أسيرا إلى منصة الولاية على مصر. غير أن بقية الزعماء من

الألبانيين لم يشاطروه هذه الفكرة . فوجهوا خسرو باشا إلى رشيد وأنزلوه منها فى سفينة سافرت به إلى الآستانة. فلم يعارضهم محمد على فى فعلهم، ولكنه أصر على رغبته فى جعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك، ولذا عمل على تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية واليا على الديار المصرية فتألب الشيوخ وزعماء الجنود وأجمعت آراؤهم على تعيينه فى منصب القائمقامية للوالى وصادق الباب العالى فى سنة ١٨٠٤ على تقليدهما هذين المنصبين.

ومنذ هذا التاريخ ظهر تأثير محمد على ظهورا بينا فى شئون مصر، وعلت كلمته فى إدارة أحوالها ولهذا كان مما لا يخلو من الفائدة إيراد الظروف التى أفضت به فى المستقبل إلى العظمة ورفعة الشأن.

ولد محمد على سنة ١٧٦٩ بقولة من الثغور الصغيرة فى الروملى، وقد توفى عنه والده وهو صغير السن فكفله أحد الأغوات من سكان تلك البلدة وبدا له فيه من مخايل البسالة والذكاء ما حمله على إحاطته بعطفه ورعايته. إذ زوجه من قريبة له ذات ثروة وخصب من العيش فتفرغ للتجارة وبرع فيها وربح من المال ماشرف به قدره وعظم خطره ورمى من أجله بالأبصار فلما أغار الفرنسيون على مصر وهم الباب العالى بالتعبئة وتسيير الجيوش لدفع عادية هؤلاء المغيرين عنها صدر الأمر إليها بأن تقدم بلدة قولة من أهلها فصيلة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل فاندرج محمد على فى سلكها وعين بكباشيا عليها. وحضر واقعة أبى قير فامتاز فيها بالبسالة والإقدام، وكوفىء على ذلك بتعيينه سارى جشمه (أى قائدا للألف) وكان لايزال بهذه الرتبة وقتما ناط به خسرو باشا الزحف لتعقب المماليك وقتالهم عقب جلاء الفرنسيين عن مصر. وفيما سبق إيراده شهدنا كيف حاول هذا الباشا بعدئذ الإيقاع به وكيف ان محمد على، وقد أصبح بحيث ينبغى له الحرص على كيان ذاته استطاع فى زمن قليل وبفضل الظروف التى عرف كيف يستثمرها وينتفع بها الحاكم المتسلط على مصر والمتصرف فى أمورها.

وكان مركز خورشيد باشا بعد تنصيبه فى الولاية محفوفا بالخطر والحرج. فقد كان عليه أن يحارب المماليك من جهة ويتقى شر طغيان عساكره من جهة أخرى. ولم تكن هذه المهمة العسيرة تتفق مع ضعف قدرته

وعجز حيلته ونقص الوسائل بين يديه . فلقد كان الألبانيون الهائجون لايكفون عن تعقبه بمطالبهم ملحين محلفين. خصوصا ما تعلق منها بالمتأخر من مرتباتهم وأعطياتهم حتى اضطر إلى الشدة والعنف بإثقال كواهل الناس بصنوف المغارم والفرض سدا لتلك الخلة. فساءت من جراء هذا الفعل سيرته وتلوثت سمعته – وانبثت فى الأفئدة كراهته. بينما كانت القلوب تجتمع على محبة محمد على وتتعطر الأندية بذكره. لأنه كان من جهة فى قتال متواصل مع المماليك يدفع عن الأهلين عاديتهم ويرد مظالمهم وكان من جهة أخرى يقف موقف الوسيط المسكن لثائرة الفتن العسكرية التى كثيرا ما ارتاع من أهوالها سكان العاصمة وأصابهم من جرائها النكال والخسائر.

وكان خورشيد باشا شديد الخوف من الزعماء الألبانيين، فسعى لدى الباب العالى سعيه للخلاص منهم باستصدار أمره إليهم بالعودة إلى أوطانهم فكان محمد على أول من جهر بعصيان هذا الأمر، ثم لم يلبث أن تظاهر أمام أعيان المدينة. وشيوخها بالرغبة فى الرحيل عنها ومغادرة الديار إلى الأبد. وإذ كانوا يعتقدون أنه الوحيد الذى يذب عن حماهم ويزود عن حقوقهم ـ فقد أسرعوا بالسعى لديه ليقنعوه بالعدول عن عزمه. فلما استشف بهذه الحيلة حقيقة شعورهم نحوه وأيقن أنه منبعث = صادر = عن ميل صحيح إليه وثقة عمياء به ربض فى مكانه مترقبا سنوح الفرصة لاستثمار هذه الحالة النفسية فى مصلحته فما هو إلاأن لاحت له الفرصة المتمناة. إذ حدث أن فريقا من عساكر– خورشيد باشا عاثوا فى العاصمة بالنهب والهدم والتحريق وضروا على الأهالى ضراء الأسد على فريسته حتى عمت الشكوى وعلا الصراخ وأدت هذا الحال بالشيوخ إلى عقد اجتماع قرروا فيه عزل الباشا بعد أن بدا لهم من عجزه عن حفظ الأمن فى البلد ماعانوا مشقته وحاق بهم ضرره وبايعوا محمد على واليا عليهم بدلا منه ــ بالرغم من صدور الأمر السلطانى بإسناد ولاية جدة إليه ــ رغبة من الحكومة العثمانية فى إقصائه عن مصر على كل حال، فرفض محمد على فى بادىء الأمر ما عرضه عليه الأهلون من تقلد الولاية ولكنه لم يسعه إلا إجابة رجائهم بالقبول نظرا إلى إلحاحهم وشدة رجائهم. وفى يوم ٩ يوليو سنة ١٩٠٥ ورد من الباب العالى الأمر المؤذن بهذا التعيين والموافقة عليه.

أغرى الشيـوخ محمد على بتقلـد زمام الأحكـام وهم بما لهم مـن النفوذ الدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبـداهة نواب الأمة ووكلاءها . فلا عجب إذا رسخت قدماه فيها من مبتدأ الأمر.

على أنه فوق ذلك كان من صدق النظر وحسن التدبير وتمام الدراية بحيث استطاع وقاية سفينته من الارتطام بصخـور المصاعب المالية التى اعترضت أسـلافه. وغير خـاف أن الحاجـة إلى المال كان يـذكى نـارهـا جشع الجنـد وشراهتهم. وكان محمد على فـوق هذا وذاك مؤيد الجانب من الأمـة منذ رأته رأى العين يطوف بأرجاء القـاهرة ويجوس خلال الديار لتوطيـد دعائم الأمن فيها ملقيا القبض على المعتدين والناهبين من عساكره تارة وطورا معاقبا لهم بيده العقاب الصارم.

وكان حجم الاحترام والتوقير للشيوخ مبالغـا فيهما إلى حد عدم المسارعة بمكاشفته إيـاهم بما يراه من صعـوبة الحالة وحرج الموقـف. فكان يضعهم بذلك فى مركز يرون من الواجب عليهـم فيه المبادرة بتدبير الوسائل لدرء تلك الحاجة. وكانت مصلحتهم وقتئذ مماثلة لمصلحته ومندمجة فيها لأنه لما كانت قوته مستمدة من مؤازرتهم له فلا عجب إذا تطوعوا لجباية مايضطر كرها إلى فرضه على الأهلين من الفـرض التى لو باشر جبايتها بنفسـه قبل أن يحصل على موافقتهم واستحسانهم لكانت سببـا فى تسوئة = تشويه = سمعته وبث كراهته فى نفس الجمهور.

وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها. فـإنه ماكاد يسقط خورشيد باشا من منصـة الولاية حتى عرض محمد الألفى عليه، وكـان قد أعاد تنظيم حزبـه وأهبه = وجهزه = بما يلـزم من عـدد القتال ، الانضمام إليه لمكـافحة الوالى الجديد. دع أنه أوفـد رسلا من عنده إلى قبطان باشا الـذى كانت سفنه راسية فى مياه الإسكندريـة ليعاهدوه بالنيابة عنـه على الخضوع للباب العالى إذا عاونهم على إخـراج محمد على مـن مصر. وكان معتمـدو انكلترا يؤيـدون جانـب الألفى فى هذه المفاوضـة وبلغ من أمرهـم فى الانتصار له وتعزيـزهم مبدأه أن تهددوا الأميرال العثمانى بـالإغارة على مصر إذا ظلت هذه الـولاية فى قبضة الألبـانيين ومحمد على. ووصفوا هؤلاء يـومئذ بما شاءوا مـن أوصاف

التحقير التى تحط من قدرهم وتزرى بشرفهم ، ولكن المسيو (دروفتى) قنصل فرنسا بالإسكندرية وقف لدى قبطان باشا وقفة المدافع عن محمد على، فكان عمله هذا فاتحة السياسة الحاذقة التى لم تكف حكومتنا عن انتهاج سبيلها حيال محمد على.

ومع أن مساعى محمد الألفى وأعوانه من الإنجليز قد انتهت بما ذكرناه من الفشل فإنهم أصروا على متابعتها حتى النهاية وكان الألفى قد وعدهم بتسليم ثغور مصر إليهم إذا نجحت مشاريعه بمساعدتهم وبنت الحكومة البريطانية على هذا الوعد ماشاءت من القصور والعلالى فسألت = فطلبت = من الباب العالى على لسان سفيرها بالآستانة إعادة زمام الأحكام إلى المماليك على شرط أن يكون الألفى زعيمهم الأول. ولم تقف تلك الحكومة عند هذا الحد بل تهورت فى مناصرته إلى حد الرضى بضمانة مال الجزية التى تعهد بأدائها فى كل عام إلى الخزينة السلطانية، فوافقت الحكومة العثمانية على هذه الاقتراحات والمطالب وأنفذت إلى مصر أسطولا بقيادة أميرال آخر نيطت به مهمة العمل على إعادة المماليك إلى دست الحكم وتسليم محمد على فرمان تعيينه فى ولاية سلانيك فتظاهر محمد على فى إبان الأمر بالانقياد للدولة ولكن الشيوخ والعساكر منعوه من مغادرة الديار.

وكان البكوات المحاربون لعثمان البرديسى — وهم الذين ظلوا متمسكين بسياسة مراد بك - أى بالبقاء على الولاء لفرنسا لايستطيعون طبعا أن يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه مافاز به خصمهم الألفى من تأييد الانكليز وعضدهم . وقد رأوا أن الخطر الذى يتهدد محمد على أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى فاستشعروا بالحاجة إلى التقرب منه. وكان قنصل فرنسا يوالى محمد على بنصائحه ويؤيده بمشورته ويعمل على نصرته فانتزع من جيش لوائه وكتب إلى سفير فرنسا فى الآستانة أن يؤيد محمد على لدى الباب العالى ويدافع عنه وينصره على شانئيه = كارهيه =.

أما قبطان باشا فإنه ما وقف على حقيقة الأحوال فى مصر حتى أيقن أن الخصومات التى قسمت المماليك أحزابا متعادية أصبحت حائلا منيعا دون إعادتهم إلى ما كانوا عليه من الصولة ورفعة الشأن فكان ذلك من البواعث القوية التى حملت قبطان باشا على السعى لتحوير سياسة حكومته نحو

محمد على ولقد ظهر أثر هذا السعي حينما أرسل الباب العالى إليه فرمانا بتثبيته فى ولاية مصر على شرط أن يوافى الخزينة السلطانية بأربعة آلاف كيس من المال - أى بثلاثمائة ألف من الجنيهات.

خرج محمد على سالما من هذه الأزمة. فرأى أن سلطته تزداد فى كل يوم رسوخا واستقرارا وحدث أن عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفى توفيا فى وقت واحد تقريبا إذ كانت وفاة الأول فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ووفاة الآخر فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧ فتركا له المجال خاليا والميدان بلا منافس ولا مناظر. وفى السنة نفسها أى سنة ١٨٠٧ عز على الإنجليز أن يروا الباب العالى يصالح محمد على ويتفق معه وأن تستقيم الأحوال فى مصر. ذلك لأنه كان من مصلحتهم أن تستمر فوضى المماليك فيها ليصطادوا فى مائها العكر. فأنزلوا فى الإسكندرية جيشا ما برح التاريخ حافظا ذكرى فشله وخذلانه فإنهم ماكادوا يستولون على هذا الثغر فى ١٣ مارس سنة ١٨٠٧ حتى هزموا شر هريمة بمدينة رشيد فى الحادى والعشرين منه، وفى بلدة حماد فى الثلاثين منه وسبب هذا الانحدار المتعاقب أن المماليك الذين كان الانكليز قد وضعوا فيهم ثقتهم تخلفوا عن تأييدهم وضنوا عليهم بعونهم إذ أخذ بعضهم يفاوض الوالى للصلح معه بينما كان البعض الآخر يطاردهم الجنود فى الوجه القبلى عقب خذلانهم المتكرر فى معارك متتالية ، ولقد لبثت الجنود البريطانية محتلة الإسكندرية ستة أشهر ثم اضطروا إلى الجلاء عنها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧.

وكان الموسيو دورفتي قنصل فرنسا خير معوان لمحمد على على تذليل هذه المصاعب بما كان يقدمه إليه من الآراء السديدة والنصائح النافعة وهو الذى يرجع إليه الفضل فى رسم خطة الدفاع التى جاءت بتلك الثمرات الطيبة ولقد أضاف محمد على ما أحرزه باجتهاده وحسن توفيقه من الفخر العظيم فخرا آخر أحرزه بكرمه وتسامحه . فإنه رد إلى الانجليز جميع الأسرى من جنودهم بدون أن يطالب بفديتهم كما جرت العادات.

ولم يكن من سياسة الباب العالى أن يترك لوالى مصر فرصة للعمل فى ظل الأمن والطمأنينة بالسلطة المخولة له التى أحرزها بهمته وأمرته الدولة مرارا بحشد الجيوش وتسييرها لمحاربة الوهابيين، وهؤلاء الوهابيون خوارج

مبتدعون فى الإسـلام يريدون على حد قـولهم الرجوع بهذا الديـن إلى حالته الأولى من السـذاجة والتقشف، وقـد ظهروا بـدعوتهم هذه فى أواسـط القرن الثامـن عشر فاستولـوا بعد زمن قليـل على بلاد العـرب- كافة وأخضعـوها لمذهبهم . وكانت المدينة ومكة، وهما الحرمان الشريفان فى الإسلام، قد سقطتا فى قبضتهم فنهبوا مافيهما من وافر الأموال ونفيـس الأعلاق. وكانت القوافل التى تذهب بالحجاج إليهما لأداء مناسك الحج تخشى أن يسوقها الوهابيون بعصا التنكيـل إلى مايـراد منها بـل كثيرا ما كـانت تقصر بهم الـوسائل عـن الوصول إلى الغرض المقصود من رحلتهم فكـان العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه فى اكتئاب وانـزعاج وحرج لهذا السبب، وكان فى قـدرة الوهابيين لما لمسوه فى نفـوسهم من العزة وبـالكثرة والعصبية لمذهبهم المستحـدث إرهاب السلاطين والأمراء أصحـاب السطوة والنفوذ فيما يلى حدود جـزيرة العرب. ومن هـذا انهم كانـوا يتهددون ولايـة بغداد بـأن تطأ جنـودهم قـاصيتها = أرضهـا = وتنكـل بأهلهـا حينما وصلـت الأوامـر السلطانيـة إلى محمـد على بالمبادرة إلى محاربتهم ورد الأمور إلى معاهدها = ما كانت عليه = فى الجزيرة العربية.

وبدهـى أن هذه الحرب كـان لابد أن تخلى مصر من حـاميتها العسكـرية وتكشف جوانبها لأخطار الغارة عليها من الأعداء المتربصـين بها السوء، فكان من وجـوه الحكمة وأصالة الـرأى وأحوال الدهـاء أن يحتاط لدرئها بـإرساء شوكتـه على أوطد القواعـد . وقد اتفـق فى هذا الحين أن عاد المماليـك إلى تقلد السـلاح وبرزت حشـودهم لقتـال محمد على (سنـة ١٨٠٨) فدرأ بحكمتـه بلاءهم وعاجلهم بقوته الساحقة فأباد فريقا منهم ووقع بالفريق الآخر أنكأ العقوبة وعرض عليـه زعماء بيت الألفى مؤازرتهم على أعدائهم ولكنـه ماكان لمثله أن يحفل بوعودهم أو يستنيم إلى عهودهم. بدليل أنهم ما كادوا يتأكدون الأنباء المتعلقـة بالحملة الـوهابية ويـوقنون أن البـلاد ستصبح خاليـة من جنودهـا حتى تآمروا على خيـانته والكيد لـه ومداهمته . ولقد عللـوا أنفسـهم بالظهور عليه متى حرم معاونة رجاله وأوليائه وأهل طاعته. ولكنه سرعان ما استكشف سر مؤامرتهم فوقر فى نفسه أن المسـألة بينه وبينهم مسألة حياة أو موت. فلجأ إلى حق من حقوقه الشرعيـة والطبيعية. ألا وهو حق الدفاع عن

النفس والحرص على الحياة.

رأى أنه مهدد الجانب منهم فعول على اتخاذ الوسائل لدرء هذا الخطر عنه وقرر أن يكون اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ يوم الفتك واستئصال شأفتهم . فدعا المماليك إلى القلعة ليشهدوا حفلة تولية ابنه طوسون باشا قيادة الحملة على الوهابيين فأجابوه إلى دعوته وأدى المطاف بموكبهم إلى مضيق لم يستطيعوا فيه الحركة فإذا به المأزق الذى زجوا إليه بلطف الحيلة للافتراس بهم . وفى الواقع فإنهم ما كادوا يتوسطونه حتى أخذهم الألبانيون برصاص بنادقهم من غير شفقة ولا رحمة. ولقد فشا خبر هذه المجزرة بالقاهرة حتى عم انحاءها فتلقاه أهلها واجمين ولم تنقض أيام بعد ذلك حتى تناول الفتك سوادهم الأعظم فى مديريات هذا القطر.

وقد بقيت منهم بقية صغيرة لجأت إلى بلاد الحبشة (لعلها النوبة) فلما باد سواهم صدر أمر الوالى بالإمساك عن مطاردة الذين فروا منهم أو ل وهلة. وعلل ذلك بأنه يريد محاربة الجماعة لا أفرادها.

ولقد نظم فى سلك خدمته بعض الذين بقوا منهم على قيد الحياة وأباح لهم التمتع بما كانوا يملكونه من الثروة الثابتة والمنقولة. بل بالغ فأجرى على نساء القتلى وأولادهم الأرزاق والأعطيات التى تجعلهم فى نجوة عن = تغنييهم = ذل السؤال. وعليه فقد أصاب محمد على فى يوم واحد الغرض الذى طا لما اشرأبت إليه منذ أكثر من قرنين أعناق السواس فى الدولة العثمانية بدون أن يصيبوا منه هدفا.

طال أمد الحرب مع الوهابيين وتعددت مصاعبها وتعاقب فيها الانتصار والانكسار . فلما انقضت ست سنوات من معاناتها ضعفت شوكة الوهابيين واصطلم أمرهم. على أن إبراهيم باشا لم يكن قد استسلم الوهابيون إليه أو عفروا له خدودهم فاضطر محمد على أن يتولى بنفسه حملة جديدة ضدهم ولكنه بينما كان مشتغلا بالزود عن حرمة الإسلام وحرمة الإيمان كان الباب العالى يبغيه الغوائل ويحفر له الحفائر. إذا اعتنم فرصة غيبته فقلد لطيف باشا ولاية مصر بمقتضى فرمان أصدره السلطان سرا وأمر قهارمة دولته بتكتم خبره.

أما لطيـف باشا فصنيعــة من صنائع محمد على وعبـد من عبيد إحســانه ونعمته. فلما اتصل بهذا الجاحد لأنعم مولاه منطـوق الإرادة الشاهانية عمل فى الخفاء على استمالــة الأفئدة إليه وتكويــن حزب له. غير أن محمد بـك الذى كان قائما بـإدارة شئون الحرب فى حكومة الوالى قـد فطن لذلك. فـاستدرجه بحسن الحيلة إلى إعلان نيته والجهر بعـزيمته على ملأ من الناس، ولما لم يبق شك بعد اعترافه فى اقترافه رمى عنقه فى ديسمبر سنة ١٨١٢.

ومما لا مراء فيه أن الحروب فى جزيرة العـرب كلفت الوالى الكلف الفادحة من المال والرجال، ولكنها عادت عليه ولاشـك بمزايا جزيلة وفوائد لايستهان بها فـإن أنباء ظفـره بالـوهـابيين نشرت بين الناس فى أنحـاء الإمبراطوريـة العثمانية سيرته مقرونـة بحسن الذكر وطيب الأحدوثـة، ومهدت له السبيل فيما بعد لتأليف جيشه النظامى الذى بنى عليه دعامة صولته وشهرته.

ومنـذ أن جـاءت الـولاية على مصر إلى محمـد على منقـادة وأفضـت إليـه بمقاليـدها لم تغب عنـه لحظة واحدة أهميـة النظام العسكرى وفـن التدابير الحربية عنـد الأوروبيين. فكان أول ماقـرطس فيـه سهام همته ونشـاطه أن تفرغ فى سنـة ١٨١٥ لتشكيل الجيـوش النظاميـة. إلا أن هذا السعـى لم يلق النجاح المرجو. وحدث أثناء ذلك من الهرج والنزوع إلى الانتقاض بين الجنود الأتراك والألبانيين ماكاد يقضى على صرح شوكته بالانهيار لما استشعروا به من كراهية تنسيقهـم بحسب النظام الجديد فاضطر الى تـأجيل هذا المشروع مع اتخاذ ما يقوم من الوسائط مقامه، ثم لم يلبث بلطف حيلته أن تخلص من العصابات الثائرة بإنفاذ رجالها لفتح بـلاد العرب وسنار وكردفان فاستفاد بهذا التدبيرفائدتين جليلتين أحداهما إتقاء شر تمردها والثانية التذرع بها إلى فتح بلدان جديدة وضمها إلى مصر.

وقد تم إخضـاع سنار وكـرفادن لمصر وإلحاقهما بها خلال سنة ١٨٢٠– وفقد محمـد على فى سنار ابنه إسماعيـل باشا بمـوتة شنعاء على أثـر مكيدة دبرها له زعيـم من أهالى ذلك الإقليم وقد أخذ الدفتردار بـك صهر الوالى بثأر الفقيد إذ نكـل بالأهالى أشـد تنكيل. ولما امتـدت فتوحات محمـد على إلى أبعد الآفاق وتناولت الأطراف القصية من الارض انكب على تنمية ما احتوته أملاكه الواسعـة من موارد الثـروة وينابيع الخير فوحـد نظام الملكية وأدخـل زراعة

القطن وعضدها وأصلح أساليب فلاحة الأراضى المصرية واستثمارها ووسع نطاق التجارة فنمت موارد ايراده بسرعة لذلك السبب. وكان قد حان الوقت بعد ذلك لتنظيم الجيش فأنشأ فى أسوان ميدانا للتعليم درب فيه جملة من الجيوش على مقتضى النظام الأوربى ونجح فى ذلك نجاحا لا مطمح بعده لمستزيد بفضل مثابرته وحسن إدارة المسيو سيف (سليمان باشا).

وقد استدعى إليه من فرنسا القواد والضباط والأطباء وأنشأ المدارس والمستشفيات والمصانع، وكان ملما بأسرار سياسة الباب العالى عالما بمقاصدها ومراميها فلم يستنم فى وقت من الأوقات إليه ولم يعتمد فى جلائل الأمور علىه ولم يعمل قط لتعزيز مصالحه ليقينه أنه مهما بذل من النفس والنفيس فى خدمته فإنه لن يحترمه أو يخشى جانبه إلا بمقدار ما يأنس من قوته. وأنه إذا ضعفت يوما قواعد سلطته وانحلت عرى دولته ولم يعد من اشتداد القوة بحيث يخشى بأسه ويرهب جانبه فإن الديوان السلطانى يقف تجاهه بين أمرين. إما أن يصرفه عن منصة الولاية بشىء من مظاهر التكريم والتعظيم وإما أن يبادر بإرسال خلف له فتعزيزه جانب نفسه بمظاهر القوة والبأس كان فى أسبابه ألصق بالمطامع السياسية منه بالضرورات الحيوية.

وفى الواقع فإنه لم يمض زمن حتى انبرى لتعيين مركزه حيال الدولة العثمانية بأن وقف أمامها وقفة الشبيه بالمستقل وتصرفاته.

وهذه الوقفة كان الباعث عليهاقوة الشعور الفطرى بحفظ الذات لا الميل إلى الاستزادة من البسطة فى الامتلاك والتوسع فى التسلط كما زعم البعض ومعلوم أن الرجل العبقرى ذا النية السلية = الحسنة = والسريرة الطيبة كان لا يسعه أن يسلك من الباب العالى إلا الخطة التى سار محمد على عليها وبلغ أقصى المدى.

ولقد أخذت العلائق بين مصر وأوربا بعد ذلك تقوى وشائجها حتى لقد أصبح الغرب مطمع أنظار محمد على لايكاد يصرف عنه لفتاته وآماله فى النهوض ببلاده، وسما به حسن الظن فيه ورغبة الاعتماد عليه فى تحقيق هذه الأمنية إلى أن ينوط به وضع أحكم النماذج لإمضاء الإصلاح فى مملكته وإرسال القوَمة على تنفيذها من أبنائه. ولم يقف ذلك المصلح الثابت الجأش الوطيد الإيمان الذكى الفؤاد عند هذا الحد من الشوق الشديد إلى السمو بهذا

القطر نحو شرائف = أشرف = الرتب بين أمم العالم بل أخذ يرسل إلى باريس برسم التعلم فى مدارسها الشبان المسلمين. على أن ينقلبوا بعد تلقيهم العلم إلى أوطانهم لبث ما اقتبسوه منه بين مواطنيهم فى أرجاء الديار المصرية.

ولقد كان مكبا بكل همته على العمل لإنجاح هذه المشاريع الشريفة حينما وكل السلطان إلى عهدته قمع الثورة اليونانية فى حرب كادت تذهب فى أوروبا برونق سمعته، ولكنه كان لا يسعه إلا الانقياد لأوامر أمير المؤمنين فأنفذ فى بادىء الأمر مددا صغيرا إلى ساحات القتال حتى إذا لاحت لوائح الخطر على الدولة العثمانية من جراء تلك الثورة الهائلة اضطر إلى مضاعفة هذا المدد بتعبئة الجيوش الكثيفة وتهيئة عدد القتال حتى اجتمع لديه وقتئذ عشرون ألفا من الجنود النظامية، ولو أنه امتنع عن تسيير هذه القوة كلها أو بعضها ضد اليونان لجر إلى نفسه مقت المسلمين جميعا واستنزل عليها سخطهم. وفى السادس عشر من يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك الأسطول المصرى مؤلفا من ٦٣ سفينة شراعية ومائة نقالة تنشر مختلف أعلام الأمم الأوروبية إلا الأمة الفرنسية قاصدا على شبه جزيرة مورة مقلا ستة عشر ألف رجل من المشاة النظامية وسبعمائة جواد وأربع فرق من رجال الهندسة وهذا غير مدافع الحصار والميدان.

وعهدت قيادة هذه الحملة إلى إبراهيم باشا فكان أول ما نهض به من الأعمال تقليم أظافر الثورة فى جزيرة قنديا وقمع الخوارج فيها. وكان فى معاركه بموره موفقا للنصر المبين كثير الرفق بأهلها من اليونان بارا بالإنسانية. وهذه حقيقة لاريب فيها رغم ما أذيع من نقيضها تشويها لسيرة ذلك القائد فإنه لم يخالف قط فى قتالهم القوانين المرسومة للحرب عند الأمم المتمدينة. على أن الحرب فى بلاد اليونان ختمت بشر خاتمة للدولة العلية إذ أفضت الى تدمير الدوننمة المصرية فى واقعة (نافارين) وزوال رسم الدوننمة العثمانية على بكرة أبيها.

ولا يسع المتصدى إلى الكلام على الثورة اليونانية أن يفضل إلا الإشارة إلى ما عومل اليونانيون به من التسامح والكرم أثناء قتال المصريين لهم.. لأنه بينما كان ولاة المملكة العثمانية ما عدا محمد على يفحشون فى سوء معاملتهم ويسومونهم خطة خسف إجابة لداعى التعصب فقد كان والى مصر يحوطهم

بعنايته ويحفهم برعايته.

خذ مثلا على قبح سيرة أولئك الولاة ما ارتكبه والى عكا من تدميره لكنيسة جبل الكرمل وأخذه نصارى الشام بوسائل الشدة والعنف وماجناه والى قبرص من ملاحقته المصريين من أهلها على الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية بالقتل والاضطهاد والزج فى السجون حتى لقد سالت من جراء ذلك فى جميع أرجاء المملكة دماء الأبرياء، ثم قارن بما كان حاصلا فى مصر فإنك لاتلقى صعوبة ما فى استنتاج الحقيقة الآتية: هى أن اليونانيين ظلوا متمتعين برعاية محمد على بل بلغ من الأمر أن اخذت أسر المنكوبين منهم بتلك الاضطهادات فى بلاد الدولة العلية تفد على مصر زرافات وشتى فتجد فيها الحرز الحريز والملجأ الأمين والمقام الطيب للعيش فى ظل الهناء والنعيم.

على أن كارثة نافارين لم تفت فى عضد محمد على ولم تكسر من شكيمته . كلا بل أنها كانت له خير معوان على الاستفادة وتقدير قوته وصلابته وبسالته بالنسبة لغيره من الجيوش. لهذا سارع إلى سد ما ما أحدثته الخسائر الفادحة فيه من الثغرات العديدة وأخذ العدة للحوادث المستقبلة بإنشائه بالإسكندرية فى وقت قصيرجداً دوننمة جديدة جاءت أعظم وأفخم من التى دمرت فى واقعة نافارين .

وفى بداية حروب محمد على فى شبه جزيرة موره كان االباب العالى قد وعده بالشام جزاء ما يقدمه من الوزر = العتاد = له. إلا أن الحكومة العثمانية لم تف بهذا الوعد مقتصرة على إعطائه جزيرة قنديا. وكان محمد عى ينفس من جهة أخرى على عبدالله باشا والى عكا وأكبر ولاة الشام بعض الأمور، ومما هو جدير بالذكر عن هذا الوالى أن السلطان غضب عليه فى سنة ١٨٢٢ ثم عفا عنه برجاء من محمد على. فبدلا من أن يعرف له هذه اليد لجَّ فى إظهار العداء له وانتهز لذلك كل نهزة = فرصة = فمن ذلك أنه كان يمنح عضده = مساعدته = للمهربين على حدود مصر ويدلى إلى سكان الشرقية بالمال لجر المنافع بواسطتهم إليه، واستدرج ستة آلاف منهم إلى هجرة مواطنهم للسكنى فى ولاية عكا فكتب محمد على إليه ملحا فى ردهم إلى أوطانهم فكان جوابه أنهم لما كانوا من رعايا السلطان فسواء عليهم أقاموا بمصر أو بالشام. فرأى محمد على فى هذه اللهجة ما أثار كامن سخطه وأوجب تذمره فكتب يقول له

بأنه إذا لم يوجه بهم إليه حضر بنفسه لأخذهم جميعا زائدا عليهم واحدا . وكان يعلم من جهة أخرى ما اعتزمه الباب العالى من مهاجمته وقتاله فاغتنم فرصة الحادث المتقدم ليتقى شر هذه النية حتى لا يكون تنفيذها على غرة منه.

وفى الثانى من نوفمبر سنة ١٨٣١ تحرك نحو الشام جيش مؤلف من ٢٤٠٠٠ جندى من المشاة وأربع أورط من الفرسان وأربعين مدفعا من مدافع الميدان وأكثر منها عددا من مدافع الحصار وعقدت لإبراهيم باشا القيادة العامة على هذا الجيش. فما هى إلا أيام حتى وقعت مدائن غزة ويافا وحيفا فى حوزته. أما عكا وهى التى لم يوفق نابوليون لأخذها أثناء حملته على الشام فقد قاومت إبراهيم باشا ستة أشهر وصالا. إذ استولى عليها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣١ وكان الرأى العام فى الآستانة قد بدأ يوقن أن من المستحيل أخذ ذلك الثغر فلما انتهى إليه خبر ذلك الفوز أعلن فى الأوامر الشاهانية اعتبار محمد على عاصيا على الدولة وخارجا على الملة. وكان قد بدىء بتسيير جيش كبير لقتال ابنه إبراهى. ففى ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ مزق إبراهيم فى حمص فيلقا كبيرا من فيالقه وألحق به الهزيمة . وكانت واقعة حمص هذه المعركة الأولى من المعارك التى التحمت فيها جيوش شرقية مدربة على الطراز الاوربى. وقد بلغت خسارة الأتراك فيها ألفى قتيل وألفين وخمسمائة أسير ولم تتجاوز خسارة المصريين مائة قتيل وقتيلين وأقل من مائتى جريح. وبهذه المناسبة كتب إبراهيم وقد أخذته نشوة التحمس إلى والده ما يأتى: «ولا أتردد فى القول بأن مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف من أشباه هذه الجنود لن يكترث بهم ولن يخفق لنا فؤاد بالخوف منهم».

ولم يمض زمن طويل بعد واقعة حمص حتى هزم إبراهيم فى بضع ساعات الجيوش العظيمة التى سيقت لقتاله فى مضائق بيلان تحت قيادة الصدر الأعظم حسين باشا فاستولى على هذه المضائق التى فتحت له أبواب جبال طوروس. وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢ فتك فى قونيا بالجيش العثمانى الجديد المؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة رشيد باشا فى حين أن جيشه كان أقل من ثلاثين ألفا وأسر هذا القائد.

وقد فتح إبراهيم فى قونيا له طريق الآستانة. فلما رأت الأمم الإسلامية هذا

الأمر أجمعت على دعوة محمد على إلى الأخذ بزمام الدولة فلو أنه أراد إسقاط الأسرة العثمانية من علوة عرشها لفعل لوعرض فى هذا السبيل عارض، ولكنه كان معتدلا فى مطالبه. إذ لم يطلب بعد هذه الانتصارات المتوالية إلا ماطلبه قبلها من إعطائه ولاية الشام. وكان ابراهيم باشا قد بلغ إلى كوتاهية أى أنه صار على مسافة خمسين فرسخا من دار الخلافة فارتاع السلطان لهذا النبأ وانهدَّ ركنه وفقد صوابه وتولاه اليأس فلم يجد سوى أن يلقى بنفسه فى أحضان روسيا ملتمسا منها الذود عن حياضه فانفذت هذه الدولة إلى الآستانة جيشا مؤلفا من عشرين ألف مقاتل لوقايتها من عادية المصريين فكان من ثمار هذا التداخل عقد معاهدة (انكيار أسكله سى).

وكانت الأزمة خطيرة والمسألة آخذة فى التحول من الصيغة الشرقية المحضة إلى صيغة أوروبية - أى دولية . فإن الدول الأوروبية وفى مقدمتها فرنسا التى كان المسيو (ميمو) وكيلها فى الإسكندرية يؤيد محمد على تداخلن فعلا بين هذا الوالى والسلطان محمود. فكانت نتيجة تداخلهن أن تنازلت الدولة العليا لمحمد على بضمانتهن عن بلاد الشام وإقليم آطنه مقابل اعترافه بالتبعية إليها وتعهده بدفع جزية سنوية إلى خزينتها تعادل الجزية التى كان يدفعها ولاة الشام السابقون . وكان تحرير الاتفاقية بذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٣٣.

ولقد كان إلحاق سوريا بمصر من الأمور الضرورية لتأمين الأملاك التابعة لوالى مصر، وإذا كان من الحقائق التى لامراء فيها ماينجم من الفوائد والمزايا للمدينة بوجه عام من جعل مصر مقر دولة مستقلة . فمن البديهى ان لايستطاع الوصول إلى هده الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . وأن نظرة واحدة فى طبوغرافية القطر المصرى من الوجهة الحربية لتنهض دليلا على أن الأمن والسلامة من غارة المغيرين عليه كان من المتعذر إذا لم يكن من المستحيل توافرهما خصوصا من ناحية برزخ السويس مالم يكن ذلك الانضمام أمرا واقعيا. وليس فى هذا القول أثر من المبالغة ولا التهريف. فإن جميع المغيرين الذين أغاروا على مصر (ماخلا عرب الغرب من الفاطميين ورجال الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت) مثل قمبيز ملك الفرس والإسكندر والعرب فى صدر الإسلام والأيوبيين والأتراك. إنما طغوا عليها من ناحية الديار السورية

فلم يكن بمستطاع مع هذه الحالة صيانة القوة الحيوية لمصر المستقلة من عادية المغيرين إلا إذا تناولت حدودها حدود سوريا، وتم الإجماع على أن حدود مصر الحقيقية لم تنته ببرزخ السويس بل بجبال (طوروس).

يؤخذ مما سلف أن محمد على أراد بالحرب التى أضرم نارها فى سنة ١٨٣١ أن يخطط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة وكان يتبقى له ليكسب العمل الجليل الذى قام به صفة الدوام والاستمرار ــ اللذين هما فى السياسة قوام جلائل الأعمال وملاكها أن يعمل لتوثيق أركان الأسرة التى ستحظى بالقبض على زمام هذه الدولة الفتية المترامية الأطراف الى أقصى مدى.

أما السلطان محمود فكان لما دب فى نفسه من الحنق على والى مصر لايفكر إلا فى أمر واحد. ألا وهو العمل لإسقاطه من علوة مجده وأوج شوكته وكان لايكف تحقيقا لهذه الأمنية عن بث الفتن فى البلاد السورية ونسج الدسائس التى قضى إبراهيم باشا فى تلافى خطبها سنوات متعاقبة، فقد كان ذلك السلطان يصدم مصالح محمد على بمصالح الدول بمنحهن من المعاهدات التجارية ما كان يرجو من وراء تطبيقه فى مصر إثارة مصاعب وخلق مشاكل من شأنها أن تحرج مركز ذلك الوالى أيما إحراج . وبعد انقضاء خمس سنوات فى صراع خفى بين التابع والمتبوع كان الثانى منهما فى أثنائها قد تمكن من إعادة تنسيق جيشه وتجديد أسطوله قديرا على سرعة . ولم يتوان. فقد سير فى بداية سنة ١٨٣٩ إلى الشام السر عسكر حافظ باشا الذى لم تلبث جيوشه أن تحطمت عند أول ارتطام لها بصخرة الجيش المصرى فى واقعة نصيبين الشهيرة الخالدة الذكر.

ومنذ عام طرأت فى الشرق حوادث لم تكن منتظرة، وكلها من الأسباب التى جعلت تحقيق أحلام محمد على وإصابته الغرض الذى كان يرمى إليه أمرا محتوما . نذكر منها وفاة السلطان محمود فى الوقت الذى تمزق جيشه فيه كل ممزق، وانحياز الدوننمة العثمانية إلى محمد على واضطراب السياسة الأوروبية لهذا الحادث المفاجىء والكوارث التى نزلت بالدولة العثمانية لاستمرار الحالة فيها على وتيرة واحدة، ومانشأ عن ذلك كله من الشك فى استقرار السلام العام على قاعدة ثابتة.

ومن المسائل المسلم بها لبداهتها أن محمد على. وهو ذلك الرجل العظيم أنقذ مصر من شر الفوضى ولقحها بلقاح الحضارة العصرية ووثق أركانها بقوة عسكرية هائلة يرجع إليها فضل استقلالها، واستكمل الشروط الجغرافية لهذا الاستقلال بفتحه الديار السورية ومده أفق مصر إلى القاصية من حدود هذه الديار . فماذا كان ينقص الدولة المصرية الحديثة التى هى ابتكار فكره وصنع يده وثمار الغرس الذى كان قد غرسه ..؟ كان ينقصها أمر واحد ألا وهو ضمانة الاستقرار والاستمرار والأمن فى المستقبل لها . ثم كان يعوزها من جهة أخرى جعل حياتها قيد ضمانة المعاهدات المصدق عليها من الدول، وأن يفضى بالسلطة العليا المحدثة من العدل إلى محمد على وحصرها فى سلالته للاحتفاظ بها وصيانتها من الضياع . ذاك هو ماطلبه محمد على وذاك مايقتضيه العدل، وتستدعيه الحضارة. بل ذاك ماستخوله إياه قوة الشيء الواقع وهو ما يسمو الأمل إلى اقامة الدليل عليه فى أكثر من موضع من هذا الكتاب.

محمد علي وأسرته

أرى من اللائق أن أعَرف القراء بالأسرة المجيدة التى أصبح حظ مصر مرتبطا بها إرتباطا لافكاك له.

ذكرت فيما سبق أن محمد على ولد فى سنة ١٧٦٩ ببلدة قوله. فهو يبلغ من العمر الآن الحادية والسبعين.

وهو ربع القامة لايتجاوز ارتفاع قامته خمسة أقدام وبوصتين بدين الجسم دموى المزاج عصبيه الى الدرجة القصوى. كان شعر رأسه ولحيته فى إبان شبابه على شىء من الصهوبة. مكشوف الجبهة بارزها وفى حاجبيه نتوء ظاهر. أما عيناه فكستينائيتا اللون فى صفاء ووضوح وغائرتان فى الحاجبين. متوسط حجم الأنف فى سعة وانتفاخ عند المنخرين. صغير الفم. ملتوى الشاربين فى طرفيهما أبيض شعر اللحية فى غير كثافة ويتألف من مجموعة هذه الملامح فيه سحنة محبوبة جذابة للدرجة القصوى، ووجه تبدو فيه نضرة الحياة وعلائم الحركة والقوة، وله عينان نفاذتان شيمتهما البحث والتنقيب، وفى منظره العام مايدل على دقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول.

ولمحمد على يد صغيرة جميلة مفتولة الأصابع، وقدم صغيرة كذلك وهو حسن الخلقة تنم مشيته على الوثوق بالنفس وتدل على مايطلب فى الجندى من الضبط والنظام العسكريين. إذا سار دفع إلى الأمام طرف القدمين محترزا عن تحريك جسمه إلا بمقدار ماتقضى الضرورة به فى نطاق ضيق تكاد تتلامس جوانبه، وإذا وقف وقف مستقيما واضعا إحدى يديه فى الأخرى وراء ظهره ومما يحسن بنا فى هذا المقام ذكره لأنه غير امألوف عند الأتراك ميله الى الرياضة والفسحةبداخل حجرته. وهو إذا وضع عمامته على رأسه جعلها منحرفة قليلا إلى الجانب الأيسر منه، ومع أنه يكره التحلى بعلامات الشرف والرتب ويرغب عن لبس الثياب المزركشة بأسلاك الذهب على العادة الشائعة عند العثمانيين فهو شديد الحرص على نظام ملابسه وهندامها. وبالجملة فإنه فى أحواله وأطواره وسلوكه ومعاملته يتوخى السهولة

والبساطة فى رفعة قدر وعزة نفس، وهو مسلك العظماء والكرماء.

ومحمد على سريع الخاطر حاضر الذهن شديد الإنفعال لايستطيع أن يكتم ما تتــأثر به نفسه مــن الشعور = المشاعــر = المختلفة، ومن ثم كــان مطلق الحرية فى القــول. حريصــا عى الصــدق فيه بعيــدا عن التكتــم بقصد المكـر والخديعة غيورا على كل ما له مساس بالكرامة . صادق الوعد بعيدا عن مظان الغدر. طلق اليــدين يدفعه حــب البذل أحيانا الى السرف. وهــو لطيف المعشر حلو الحديــث بلا تكلــف.. شديــد الرفـق بأبنــائه. يعيش معهــم فى داره على البساطة والتقشف كأنه أحد أفراد الطبقة الوسطى. أما رقة الإحساس فبالغة من نفسه إلى الدرجة القصوى، ولولا أننى شاهد عيان لفضائلة العالية لتعذر على أن أقدم إلى ذهن القارىء فكرة ماعنها أو عما انطوى عليه قلبه من العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين.

لايصرف العزاء عن فؤاده ـ مهما حسن ـ أثر الحزن على فقد ولد له. وقد كان هــذا شأنــه كلما اتصل بــه نعى قريــن له فى الحروب. فــإن عينيه كــانتا تهميان بالدموع لسماع هذه الأنباء. شــديد العطف على مستخدميه وكل من ارتبطوا معه بــرابطة التعارف يبالــغ فى عطفه عليهم إلى حد الحنــان الأبوى، وقلما يقر القرار الأخير على إنزال العقوبة بأحد لأخذه بالعفو فى أغلب الاحوال الهفوات والهنات إلى ما عظم منها فى زوايا النسيان.

شغف بالمجـد والفخار فلم يشغله من أمـر نفسه حسن الذكـر فى حياته فقط . بل أيضا بعــد وفاته. ومن عادته حب الإطــلاع على ما يكتب فى الصحف فتراه يشدد على المترجمين بالعناية فى نقلها إليــه ليلم بما تتضمنه من مختلف الآراء والانباء وكثيرا ما يقرأها بنفسه. وهــو لا يعبأ بما يذاع عنه من الترهات والأباطيل .لأنــه يرى همته فوق الأقــوال والتخرصات.. ومن شيمــه مواصلة العمل طوال النهار. فإذا عمد إلى فراشه لينام لاتغمض جفناه منه إلا قليلا إذا أن نومه مضطــرب تتخلله اليقظة من حين إلى آخــر. وفى الساعة الرابعــة بعد نصف الليل يغادر سريره ويلبس ثيابه ويتهيأ لمباشرة الأعمال فأول ما يتلقى منها التقارير العديدة التى تصل إليه من رجال الحكومة فيملى على النواميس مايعــن له مــن الأجوبــة عليها، ثــم يتفرغ لعــرض الجيوش فــزيارة الــورش والمعامــل والمعاهد المختلفــة فيتفقد فيهــا الأعمال الجليلة التى جعلهــا أسس الرقى لبلاده وأمته.

ومما يؤثر عنه من الفضائل والمحامد صدق التميز وسلامة الذوق فى الأعمال واستقامة الحكم وصواب الرأى وسرعة الخاطر فى المناقشات المعضلة والمسائل المختلفة. حتى التى لم يسبق له أن يطرقها ببحث أو تمحيص. ومتى انتهت المناقشة تبين أن الصواب كل الصواب فى رأيه . وفى تاريخ حياته السياسية الطويلة البراهين الكثيرة على ذلك.

وهو بارع فى الحساب مع أنه لم يسبق له أن درس العلوم الرياضية ، ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة إلا فى الخامسة والأربعين من عمره. وهذا بلاشك أجمل ما يذكر من تاريخ حياته. على أنه لم ينفق فى الحصول على غرضه من التعليم وقتا طويلا ولا عناء كثيرا. وما كاد يضرب بسهم فى القراءة والكتابة حتى تفرغ لدرس التاريخ، وكان أهم ماشغله منه تاريخ الإسكندر ونابليون بونابرته. ومع أنه غير ملم بلغة أجنبية ما فقد بلغ من حدة ذكائه وثقابة فكره أن يستطلع بمجرد النظر فى عيون محدثيه من الأوروبيين مضمر رغباتهم قبل أن يتم المترجمون نقلها إليه، ومن أبعث الأمور على سروره التحدث مع الأوربيين والمتعلمين والمتنورين وهو يعالج معهم أرقى المسائل وأعضلها فيدرك حقائقها بدقة تشهد له بالبراعة.وطول الباع.

وهو شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولاتنطع، ولقد أظهر دواما من التسامح نحو الأديان جميعا ماهو مشاهد بالعيان، واتخذ من الوسائل ما كفل للمسيحيين الاحترام والتوقير وأولى البعض منهم مودته ووضع فيهم ثقته ورفعهم إلى شرائف الرتب وسلمهم مقاليد الحكم والقيادة وأنعم عليهم برتبة البيكوية ولكى يتغلب على ما تحكم من التقاليد الباطلة فى نفوس حاشيته وشعبه الذين كانوا ينفسون عليه عطفه على الأجانب تدرع بالشجاعة والإقدام لمكافحة تلك النزعة فيهم.

ومحمد على سهل الأخلاق يتحرى البساطة ـ كما قلت ـ داخل بيته فتراه فيه يقطع فراغ وقته بلعب الشطرنج أو الدامة، وهما اللعبتان اللتان برع فيهما وفاق على النظراء والمنافسين.. وكثيرا ما كان يلعب متواضعا مع الضباط ذوى الرتب الصغيرة وأحيانا مع الجنود. ولقد فزت بشرف اللعب معه بلعبة الورق. فما وجدت منه إلا الإيناس والعطف والمجاملة. ومن أحب الملاهى إليه ركوب الخيل. فإذا ركبها أحسن الاستواء عليها وأظهر الخفة والرشاقة فى الركض بها.

ولم أطرق حتى الآن باب الكلام على مزايا محمد على وفضائله فى الحروب. والذى أجمله فى هذا الموضوع إن فى تاريخ حياته الذى علمنا منه كيف خرج من صفوف الجيش ووصل ببسالته وفضله واستحقاقه إلى أسنى المراتب وأعلاها مايغنينى عن الإفاضة فيه. على أنه فى وسعى أن أثبت هنا أن من أبلغ تلك الفضائل التى تحلى بها وفاق على عظماء الرجال البسالة التى كثيرا ما كانت تدفع به الى الاستهتار بالنفس فى اقتحام الأخطار سواء فى ميادين الحروب أو فى أحوال المعيشة اليومية.

وغنى عن الذكر جهله معنى الخوف. فإنه فى بدء حياته العملية كثيرا ما اقتحم الأهوال وغامر بحياته، ولقد شهدته العام الأخير متأهباً، مع تقدمه فى السن ، للرحلة الى جهة فازوغلى بالسودان - أى لقطع مسافة لاتقل عن ستمائة فرسخ بينها وعاصمته متخللا شعاب النيل التى أرتطمت بها سفينته فألقى بنفسه فى الماء وسبح فيه حتى إذا بلغ إلى البر سالما امتطى إحدى النياق وقطع بها أجواز الفلوات تحف به الأخطار والمصاعب الكبار من كل جانب.

ومما أكبر شأن محمد على ورفع مكانته الأزمة السياسية الحالية التى لفتت نظر أوروبا إلى الشرق فإنه لم يمر وقت من حياة هذا البطل حفت به فيه أشباه هذه الحوادث الخطيرة . ولاريب أن نفوذه الذى أخذ يمتد أفقه شيئاً فشيئا قد ترامى إلى الأطراف البعيدة بحيث شمل الأقطار الأوروبية بأسرها فهو الآن كالرومانى فى أيام شوكة رومية يحمل الحرب أو السلم فى إحدى ثنيات ثوبه، فيه الآن قد نيط التوازن الدولى بالبلاد الأوربية. ولقد تمكن من خلال هذه الحوادث الجليلة من أن يرفع نفسه - بحذقه العملى وحسن تدبيره وكرم تسامحه واعتداله - إلى مستوى فحول رجال أوروبا وأوسعهم خبرة وأشدهم عارضة . ولقد أقام الدليل ــ بما امتاز به كل سياسى صحيح الرأى فى العهد الذى نعيش فيه الآن - والذى خففت فيه رايات السلام من العقل والرصانة . على أن صدق رويته وبعد نظره فى العواقب لم يكونا فى شيء من الحياء والاستكانة، وإنه بما وهب من سعة الحيلة قد أيد بثاقب فكره المستمد من حسن فطرته ذلك المثل القديم الذى جاء فيه «إن ترد السلم فتجهز للحرب» فهو وحده يرسل نظره القصى فيدرك به مغبات الأمور وهو وحده

الذى إذا عنت حاجة انبرى لقضائها. ولا يخطرن ببال أنه يجد فى أحد وزرائه عضدا أو سندا . نعم إن جملة منهم لا يختلف اثنان فى كفاءتهم وقدرتهم على إمداده بالنصـائح الرشيدة والمنشورات الصائبـة ولكنهم إذا رأوا أنفسـهم فى مـوقف محفـوف بمثـل الصعـوبات والمشـاكـل الحافـة بالموقـف الحاضر لايجرأون على تحمل مسئوليـة رأى قاطع أو الإقرار على عمـل جازم . فمحمد على لايجد خير العون والوزر إلا فى نفسـه، ولايتلقى الـوحى إلا من حدة ذكائه وطيب سريرته.

ولسنا بمبـالغين إذا أكدنا أن محمد على مـن فحول الرجال وأنـه أكبر من أنجبهم الشرق وامتازوا بالعبقرية العالية.

إبراهيـم باشـــا

إبراهيم، باشـا هو بكر أبناء محمد على. فمن الافتراء المحـض ما أشيع من أنه ابنـه من طريـق التبنى. وكان ميلاده ببلـدة قوله فى سنـة ١٧٨٩ أى بعد زواج والده من والدته بعامين.

فإبراهيم بـاشا يناهز من العمر الآن الحادية والخمسين وهـو ربع القامة طول قامته خمسة أقدام وبوصتـان. متين البنية. جيد الفصوص. شيبته قبل الأوان متاعب الحروب ومشاقها بعد أن كان شعر رأسه ولحيته أشقر جمريا ، مستطيل الوجه طويل الأنف مستدق أزرق العينين فى وجهه أثر الجدرى.

مزاجه دمـوى صفراوى، ومن ثم جاء ميلـه إلى الجد بالرغم مـن تفرغه فى بعض الأحيـان إلى شىء مـن المطايبـة وحب الضحـك. جهورى الصـوت لم تتوافر فيه لهذا السبب ماتوافر فى والـده من السماحة والهشاشة حتى أنه إذا أقبل عليـه أحد شعر بما يسقطـه فى نفسه ولو لم يلـق فى استقباله شيئـا من الجفوة والصلابة والمكروه.

تلقى إبراهيم التربية التى كانت تعطى فى زمنه إلى الأمراء من أبناء المشرق. فهو ملم باللغات التركية والفارسيـة والعربية يتكلم ويقرأ ويكتب بها من غير عناء. دع إحاطته بتاريخ أمم المشرق واضطلاعه به الاضطلاع التام.

وما ناهز السادسة عشرة من عمـره حتى عهدت إليه قيادة الجنود وإدارة بعض الأقاليم . فإذا زج ـ وهو فى مقتبل العمر ـ إلى ميدان العمل فمن السهل

الحكم بأن مزاولـة الأعمال الحربية والإدارية كانت عنده مـن الأمور المألوفة وانه بما اكتسبه من الخبرة قد أحاط بتفاصيل أعمال الحكومة فى مصر وعنّت له فيها آراء كثيرة تنطبق على الحقيقة والعمل.

وفى سنة ١٨١٦ سلم إليه زمام الحملة على الوهابيين فقام بها قياما حسنا بانتصـاراته المتعاقبـة عليهم. وقد قـوبل بـالقاهرة فى عـودته بما يقابـل به الظافرون والفاتحون. ولما شرع والده فى إدخـال النظام الأوربى على الجيش كـان هو أول المقبلين على تعلـم قـواعده والعمـل بمقتضيـاته. فكـان يحضر التمرينات والمناورات العسكرية التى أكسبته من البراعة ما جعله جديرا بتقلد القيادة العليا للجيش، وقـد أحاطه علمه بكل شىء مـن ذلك لافرق بين أصغر الجزئيات وتحريك السلاح وحركات الجيش الشديدة الصعوبة.

وكان حينما عين قائدا عامـا للحملة ضد بلاد موره قد بـرع فى ذلك براعة تامـة . وفى خلال هذه الحملـة أضلت الصحـف سواء السبيل فى الحكـم عليه وإبداء آرائها بشـأنه لغيرته الدافقة على قضيـة تحرير الأمة اليونـانية فإنها مثلته لقرائها فى جلد الضوارى المفترسة السافكـة الدماء . مع أنه يصعب جداً إيراد حادث واحد حقيقـى يمكن الاستناد عليه فى توجيه التهمـة إليه بارتكاب الشدة والقسوة ضد أحد . ثم إن الميل إلى الفظـائع لايتفق أبداً مع ماعرف عن إبراهيم باشا من البسالة المقرونة بالتؤدة والكرم.

ولقد كانت حملة موره له بمثابةمـدرسة تلقى فيها الدروس النافعة. فإنه زج بها فى أحـرج المراكز. ولما كـان النصر فى المعارك السـالفـة حليفا لـه على الدوام، وكان يعتقد أنه القابض على ناصية الفوز يتصرف فيه كيف يشاء فقد تولد فى نفســه لهذه الأسباب شىء من الصلف والخيلاء لم يلبـث أن تلاشى بتأثير تلـك الدروس التى زادتـه حنكة وتجربـة بتصويره الحرب لنـاظره فى أوضاع وأشكال لم تكـن معلومة له مـن قبل. ولقد سره كل السرور مـا شـهده من الجنـود الفرنسية إذ قد أتـاحت له الفـرصة التعرف بالجنـرال (ميزون) والجنرال (سبسيـانى) وكثيرين مـن الضباط الفـرنسيين الذين أيقنـوا عقب الاختلاط بـه بكفاءته العـالية ودرايته بالشئـون العسكرية على أنـه أستفاد الفوائد الجليلة مما لقيه فى طريقه من المعاثر والعقبات. وكان الاعتقاد الشائع فى الشرق وقتئذ أن فـرسان الأتـراك أحكم نظـاما وأرفـع شأنـا من فـرسان

الأوربيين. فما عتم إبراهيم أن تحقق بنفسه فساد هذا الرأى، واعتقد أن الفرسان إذا نزلوا فى ميادين القتال صفوفا وألفوا من صفوفهم فرقا زحفوا للقتال جماعات متكاثفة بمقتضى تدبير حربى دقيق فإنهم يحصلون فى تلك الميادين على نفس المزايا والفوائد التى يحصل عليها المشاة العاملون بمقتضى الحركات المبنية على العلم والدقة. لهذا لم يلبث عقب عودته إلى مصر أن صرف همته إلى تنظيم الفرسان ورغب فى أن تكون تحت يده الأسلحة الأساسية فكانت نتيجة عمله تشكيل فرق المشاة والرماحة وفرسان الدراغون والفرسان المدرعين.

وبعد عودته من اليونان بقليل بدأت الحملة على سوريا وغنى عن البيان أن فتحه لهذه البلاد وانتصاراته التى فاز بها لما يرفع شأنه ويؤيد ما اشتهر عنه من البسالة وسعة المعلومات العسكرية.

ولما أتم الفتى بالسلاح بدأ بفتح آخر لم يكن بأقل من الأول سهولة ولا أدعى إلى الشرف والفخر. وأريد به تنظيم البلاد المفتوحة . فإنه لكى يصل إلى هذا الغرض قرر القيام بأعمال ذات مساس بالسياسة العالية إذ وحد أنظمة الحكومة وراعى أصول المركزية لإدارتها فتنقت = فتخلصت = بذلك من صغار الزعماء والرؤساء الالتزاميين الذين كانوا يسيرون بين الناس بالجور ويذكون، فى تلك الولاية الواسعة الكثيرة الخير والبركة نار الاحتلال والفوضى. وجرد جميع القبائل من السلاح عندما أيقن أنهم لا يستخدمون سلاحهم هذا إلا فى قتل بعضهم بعضا وتهديد الأمن والنظام العموميين. فبهذه الأعمال وبما قرن تنفيذها به من الحزم والثبات نشر ألوية الأمن على ربوع الشام بعد أن حرم منه أهلوه أحقابا طويلة فبفضل محمد على وثبات حكومته تمتعت بهذه النعمة جميع البلدان التى مد عليها رواق حكمه.

ولقد عرض لإبراهيم باشا أن يقمع فى بلاد الشام جملة من الفتن والثورات، ولاسيما ماشب ضرامه منها بمدينة نابلس وجبل الدروز. وكانت فتنة هؤلاء على أشد ما تكون من الهولة والفداحة، وشهدنا بالعيان قمعها فاستطعنا أن نرى عن كثب ما أيد حسن ظننا فى إبراهيم ورفقه با لمغلوبين. وليس فى وسع أحد أن ينحى عليه باللوم بحجة أنه ارتكب أمرا يخالف مقتضيات الإنسانية فإنه لم يعمل قط ما يستهدفه للوم اللائمين.

وكان جم الرحمة بالرغم مما أذاعه المفترون والقائلون عنه ووجهوه إليه من تهم دل على فسادها أن أربابها لم يجسروا على الإعلان عن أنفسهم. فإنه غير خفى ولا بمكنون اهتمامه المتواصل بإنشاء المستشفيات وغيرها من المعاهد المقصود بها محض البر والإحسان. ومن فضائله التى عرف بها تعلقه بمن يأنس فيهم الخير من الناس وصدق وفائه فى مودته إلى الحد الذى تسقط معه الكلفة، وبغضه الشديد لمن يتقرب إليه من حاشيته بالتملق والمداهنة. وإذا أطريت صفة من صفاته النفيسة فإنما أطرى ما عهدته فيه بنفسى من الدأب الغريب على العمل وحدة الذهن والشغف المطلق بالترتيب والاقتصاد والنظام. وإنك تراه لما عالجه من صنوف المتاعب وعاناه من أنواع المشاق لايحفل بوسائل الوقاية لنفسه أو العناية بها حتى استمكنت منه الآلام الروماتيزمية بمعيشته كمعيشة الجندى البسيط فى المعسكر ونومه على الأرض بالرغم من الصقيع والمطر والبرد. وما من جندى فى جيشه إلا وهو يحبه حبا مفرطا ويخلص له حتى لكأنه يؤثر فى عساكره تأثيرا يجذبهم إليه بقوة سحرية لادافع لها.

وفيما عدا تلك الصفات العسكرية امتاز إبراهيم بفضيلة لايستهان بها فى أمير سيقبض يوما على صولجان الحكومة المصرية ألا وهو حبه للزراعة . فإنه ما التمس الراحة من فراغ وقته أثناء الحروب التى عهدت إليه قيادة الجيوش فيها حتى كان همه الوحيد الاشتغال بالزراعة دون غيرها وتشجيعه من يهتمون بشأنها.

وآخر واقعة فاز إبراهيم فيها بالنصر المبين كانت واقعة نصيبين. وقد استقرت بهذه المعركة الولاية العامة على مصر والشام لمحمد على وذريته من بعده، ومما لاريب فيه أن إبراهيم سيقوم بأعبائها خير قيام متى دعاه الحظ أن يخلف فيها والده العظيم.

أمراء الأسرة المحمدية العلوية

إن ثانى أبناء محمد على هو طوسون باشا المولود فى (قوله). اشتهر هذا الأمير بالكرم والبذل اللذين ذهب فيهما مذهب الإسراف. والكرم عند الشرقيين من الفضائل الرئيسية، فليس بغريب أن يكون طوسون باشا محبوبا عند الناس . ولقد توفى عن ابن له هو عباس باشا المولود فى سنة ١٨١٣ وهو الآن

حاكم القاهرة ومحافظها.

ورزق محمد على وهو فى (قوله) من زوجته والدة إبراهيم وطوسون ابنا ثالثا هو اسماعيل باشا الذى مات فى حرب (سنار) بلا عقب ،ورزق منها أيضا ابنة تبلغ من العمر الآن أربعين سنة يقال إنها تشبه والدها كثيرا فى صفاته الجثمانية والنفسية ،وهى الآن أرملة عن زوجها محمد الدفتردار بك. وكانت كثيرة التعلق به فلم تتزوج بعد وفاته تكريما لذكراه وإعرابا عن أسفها لفراقه. وهى تقضى الآن حياتها فى عمل المبرات التى هى أجمل حلية للنساء وتستميل الناس إلى محبتها بفيض إحساناتها وعميم خيراتها.

ورزق محمد على فى مصر عددا كبيرا من الأبناء أكبر من بقى منهم على قيد الحياة سعادة سعيد بك المولود فى سنة ١٨٢٢. وقد امتاز هذا الأمير بمحاسن الخصال وكرائم الشيم وهو جميل الخلقة لولا أن فى عينيه آثارا من مرض أصابهما شائع فى مصر بين الأطفال . وقد اعتنى بتربيته والده على أقوم المبادىء وتنشئته التنشئة الحسنة فإنه بعد أن تلقى اللغات الشرقية تفرغ لدراسة الرياضيات والرسم والسباحة، وتعلم كل ما يطلب تعلمه من ضباط البحرية.

وقد تدرج فى مراقى هذا السلاح بعد الامتحان والاختبار. يجيد التكلم بلغتنا = بالفرنسية = كما يجيدها أحد أبنائنا ويبدو منه كثيرا ماهو معروف عن شمائل الفرنسيين، والمنظور له أن يكون فى يوم ما على رأس البحرية المصرية كوزير لها أو قائد عام لأسطولها (أمير البحر).

أما الباقون من أبناء محمد على فهم بنت ولدت فى سنة ١٨٢٤ وحسين بك المولود فى سنة ١٨٢٥ وحليم بك المولود فى سنة ١٨٢٦ ومحمد على بك المولود فى سنة ١٨٣٣.

وهؤلاء الأمراء جميعا على شيء كثير من حسن الخلقة وجمال الصورة واتقاد الذهن وحدة الذكاء. وليس من المستطاع لأحد غيرى ـ بالنظر لمخالطتى إياهم الزمن الطويل واختبارى أخلاقهم ـ الحكم على ماتوافر فيهم من حلاوة الشمائل ورقة العواطف ومحامد الخصال التى يتحلى بها الأطفال.

ولإبراهيم باشا ثلاثة أبناء البكرى منهم أحمد بك المولود فى سنة ١٨٢٥

وهو شديد الشبه بوالده ولكنه سيكون أقل منه بدانة جسم. وقد تعلم تعلما راقيا متينا وفيه من سلامة الذوق وصواب الرأى مالايتوافر عادة فى أمثاله سنا ، وقد عنى إبراهيم باشا بتنشئته حتى أنه كثيرا ماكان يصطحبه فى رحلاته، ومن أبنائه الآخرين إسماعيل بك المولود سنة ١٨٣٠ ومصطفى بك المولود سنة ١٨٣٢ وهما طفلان تبدو عليهما مخايل الذكاء والنجابة على أن صغر سنهما يحول دون النطق بحكم صحيح فى شأنهما.

أما عباس باشا بن طوسون وهو الذى سبقت الإشارة إليه الآن فقد أخذ عن والده كثيرا من طرائقه وخلاله، وهو شديد الشبه به وقد مزج هذا الأمير منذ نعومة أظفاره بالأعمال العامة. إذ عين مفتشا عاما لأحد الأقاليم. أما الوظيفة التى يشغلها الآن وهى محافظ القاهرة فمن أهم الوظائف وأعلى المساند العظيمة، وهو يقوم بأعبائها على مايستوجب الارتياح من تصرفاته. ومن الخطأ قول القائلين أنه يخاصم ابراهيم باشا على مسألة الوراثة فى دست الملك، إذ المعلوم بعكس تلك التخرصات أنه شديد التعلق بعمه هذا الذى لايتوقع أحد أن ينافسه منافس بطريقة جدية على تولى الأحكام واستلام زمام الأمور فى مصر فإن حق الولادة يؤهله بالطبيعة لذلك. فضلا عن أن الجيش والرأى العام بقوته العظيمة وصيته الذائع وسيرته الطيبة بانتصاراته المتتابعة لمن خير الذرائع وأشدها فعلا لإسناد ذلك المنصب إليه.

وإنى لأقتصر فى الختام على المرور ببقية أعضاء الأسرة المحمدية العلوية العديدين مرا سريعا إذ لايتوقع أن يكون لهم نصيب فى استلام مقاليد الحكم وهم جميعا أبناء أخ محمد على مثل أحمد باشا حاكم مكة البالغ من العمر أربعين عاما وإبراهيم باشا من قواد الجيش وإسماعيل باشا حاكم حلب البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، وحسين بك البالغ اثنتين وأربعين سنة وهو لايقوم بوظيفة ما وهناك إثنان من أبناء إخوته لايزالان فى غضارة الشباب ومقتبل العمر.

الباب الأول

لمحة طبيعية
الوضع والشكل والحدود
والأقسام الجغرافية

١- الوضع والشكل والحدود

أول مايتبادر إلى الذهن عند إلقاء النظر على أحد المصورات الجغرافية العادية لمصر أن ما يطلق عليه هذا الاسم يشمل كل القسم الشمالى من أفريقية بين الشلال الأول للنيل جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا وصحراء ليبية غربا والبحر الأحمر شرقا. وهذا وهم فاسد. لأن مصر لم تكن فى الواقع سوى الوادى الضيق الذى ينزل النيل منه منزلة الشريان من أحد أعضاء الجسم.فإنها تتبع تعرجات هذا النهر وتنفسح انفساحا يتمادى فى الانفراج بعد تفرع النهر ويظل كذلك إلى أن تختلط مياه فرعية بمياه البحر المالح.

تلك هى حدود مصر الصحيحة، وهى تنحصر فيما بين الدرجتين ٢٤ و٣٢ من العرض الشمالى ودرجتى ٢٨ و٣١ من الطول الشرقى ويحدها جنوبا بلاد النوبة - التى يفصلها عنها الشلال الأول وشمالا البحر الأبيض المتوسط الذى تصافيه سواحلها على مدى سبعين فرسخا تبتدىء من (تابوزيرس) «برج العرب» إلى النهاية الشرقية من بحيرة المنزلة حيث أطلال (الفرمة).

وبعض الجغرافيين يزجون بحدود مصر إلى أبعد من هذه الجهة بعشرين فرسخا - أى إلى العريش ثم إلى سلسلة جبال ليبية فى الغرب وسلسلة جبال العرب فى الشرقى السلسلتين. وفيما بين هاتين حيث تكفان عن التوازى بانصراف أحداهما إلى الشمال الشرق وتنحصر مصر فى امتدادها الطويل كله حتى القاهرة والأخرى إلى الشمال الغربى فالتى إلى الشمال الغربى تنتهى إلى سواحل البحر الابيض المتوسط والتى إلى الشمال الشرقى تندمج بجبال بلاد العرب ثم بسلسلة الجبال السورية.

٢- الأقسام الجغرافية

اشتهرت الديار المصرية عند الشرقيين باسم مصر، واستمد اليونان اسمها من كلمة كانت تطلق فى غابر الأزمان على النيل. وقد أصابوا فى هذا الاختيار لأن مصر لم تكن فى الواقع إلا مجرى هذا النهر الذى يخترقها بعد أن أوجدها من العدم.

وجزء وادى النيل الذى تتكون منه مصر يبلغ طول امتداده أكثر من مائتى فرسخ. وقد اتفق الجغرافيون على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: أعلى وأوسط وأدنى. فالأعلى ويسمى الصعيد والأوسط ويسمى مصر الوسطانية هما أراضى شفتى = ضفتى = النهر التى تحف بها من الجانبين سلسلتا الجبال اللتان سبق الكلام عليهما، وتبتدىء مصر العليا عند الشلال الأول وتنتهى مصر الوسطانية عند القاهرة. وهما تؤلفان بتعاقبهما واتصالهما شريطا متعرجاً يختلف عرضه بين فرسخ واحد وأربعة فراسخ إلا فى الجزء الأوسط فإنه يتعلق به جزء آخر من الأرض اهليلجى الشكل قابل للزراعة ومنحصر فى سلسلة جبال ليبية وهو الذى يتكون منه إقليم الفيوم المعروف الغنى بزروعاته . أما مصر السفلى التى سماها العرب بالبحيرة أو الوجه البحرى فعبارة عن سهل منبسط مثلث الشكل رأسه دُوَيْن القاهرة عند الجهة المعروفة ببطن البقرة أى المكان الذى يتفرع ماء النيل فيه إلى فرعين، وإحدى زاويتى قاعدته عند برزخ السويس والأخرى عند برج العرب وضلعاه محدودان شرقا وغربا بالصحراء، ويمتدان بمؤازرة فرعى النيل اللذين تتكون بينهما تلك المنطقة التى طبقت شهرة خصوبتها الخافقين وسماها اليونان بسبب شكلها الدالى باسم الدلتا.

٣- المسطح

يقدرون مسطح القطر المصرى بنحو ألف وستمائة فرسخ مربع منها مائتان وخمسة وأربعون فرسخا فى مصر العليا ومائتان وخمسة وخمسون فى مصر الوسطى والبقية فى مصر السفلى. والمسطح الكلى ينقسم بالتفصيل على المثال الآتى:

أرض قابلة للزراعة	١٠٠ فرسخ مربع
أرض غير قابلة للزراعة أو غير مزروعة	٢٠٠ فرسخ مربع
النهر والترع	٣٦٧ فرسخا مربعا
الأراضى الرملية	٦٨ فرسخا مربعا
الجزر الموجودة فى النهر	١١ فرسخا مربعا

(٢)

شكل الأرض وتكوينها الجيولوجى

الأرض القابلة للزراعة- شكلها- التكوين الجيولوجى للأرض القابلة للزراعة- الطمى- أشكال الأرض القابلة للزراعة- الجبال- شكلها وارتفاعها وانحدارها العام- تكوينها الجيولوجى- الصحارى- تكوينها- الواحات- شكل الصحراء.

٤- الأرض القابلة للزراعة وشكلها

لم تكن مصر الأصلية إلا ذلك الوادى الذى يخترقه النيل كما أسلفنا فى ملاحظاتنا السابقة ولكنها ذات صفات خاصة تميزها عن الأودية المعتادة.. فإن الأودية التى تجرى فى وسطها الأنهار الكبرى ممهدة تلتمس المياه فيه مجرى تنحدر عليه إلى الأمام ولكن الحالة فى مصر من هذا الوجه على النقيض من ذلك فإن شواطئها أكثر ارتفاعا من بقية الأرض التى تنحدر منها انحدارا يزداد كلما ابتعدت عن مجرى النيل فنتج من تكون الأرض على هذا الشكل أن ماء النهر إذا ارتفع فوق ضفتيه طغى على الأراضى الممتدة منهما وانتشر فيهما وربما غمر المنطقة المزروعة.

٥- تكوين الأراضى القابلة للزراعة

إنه لانحدار أرض القطر المصرى انحدارا خفيفا نحو الشمال تندفع مياه النيل فى مجراه حاملة معها عناصر الطمى الذى جعل المصريون يروون للرحالين اليونانيين أن مصر كانت فى عهد (مينيس) وهو الملك الأول من ملوكها حتى بحيرة (موريس) عبارة عن مستنقع كبير جداً. وقد ثبت بالعلم

الصحيح مايؤيد هذه الرواية. لأن الأراضى القابلة للزراعة فى مصر تكونت برسوب طمى النيل وتراكمه بعضه على بعض بتوالى الأعوام.

وما الطبقات السفلى منها إلا حيوانات بحرية متحجرة وأحجار خفاقة وحصى مستديرة وحمم وصخور بركانية متكاثفة وأحجار يشبية ومواد بركانية أخرى كانت على الراجح تغطى مياه البحر زمنا ثم أخذت تسوقها المواد الطميية الواردة مع مياه النيل شيئاً فشيئا.

على أن توارد هذه الرواسب النيلية وانتشارها أمران تؤيدهما الحقائق العلمية المتفق على صحتها. ومن الأمثال فى هذا الموضوع أن مدينتى رشيد ودمياط كانتا فى عصور غير بعيدة مغمورتين بمياه البحر الأبيض المتوسط فأصبحتا الآن مفصولتين عنه ببضعة فراسخ وكذا فإن الأراضى أكثر ارتفاعا عند ضفتى النهر منها عند سفوح الجبال. وما ذلك إلا لأن مياه الفيضان بتعاقبها على مر الأعوام تترك من المواد الرسوبية فى الجهات المجاورة للنهر أكثر مما تترك فى الأماكن البعيدةو منه. ومما يؤيد صحة هذا الحادث الجيولوجى ببرهان أسطع وحجة أقطع انطمار أساس المبانى القديمة حتى أصبحت الآن مغطاة بالأراضى الزراعية. ومع أنه من المتعذر تحديد نسبة النمو التدريجى الدورى لارتفاع الأرض بطريقة مؤكدة فقد أدت الأبحاث الدقيقة للعلماء الجيولوجيين فى الحملة الفرنسية إلى تقدير تلك النسبة بأنها - على وجه التقريب - مائة وستة وعشرون ملليمترا فى كل قرن من الزمان.

ثم أن طبقات الأرض الزراعية لم تكن متساوية الأعماق فى كل الجهات لأن زيغ النيل زيغاً مستمرا عن مجراه وسرعة سيلان مياهه فيه من البواعث الحقيقية لذلك فحيث تجرى هذه المياه بسرعة عظيمة تندفع المواد الطينية معها ولاتجد من الوقت مايكفى لرسوبها فى مكانها وحيث تركد يكون رسوبها عظيما.

٦- طمى النيل

الطمى الصرف الذى تتكون منه الأرض الزراعية فى مصر يتألف بحسب التحليل الذى قامت به اللجنة الفرنسية مما يأتى:

أولاً: الألومين الذى يدخل فيه بنسبة ثلاثة أخماس.

ثانيا: كربونات الجير بنسبة تزيد فيه على الخمس قليلا.

ثالثا: كربونات الجير بنسبة العشر.

رابعاً: خمسة أجزاء الى ستة فى المائة من أوكسيد الحديد الذى يكسب الماء لونه الأحمر المعروف أيام الفيضان.

خامسا: جزءان إلى ثلاثة أجزاء فى المائة من كوبات المانيزيا.

سادسا: بعض ذرات حجرية متناهية فى الصغر والانقسام الى حد أنها تبقى معلقة فى الماء.

ومما يجىء به النيل أثناء الفيضان مقدار عظيم من الرمال القاقية (من ملح القاق أو دب الملح المسمى عند الإفرنج بالكوارتز) فالغليظ منها يهبط إلى قاع النهر فيسبب ارتفاعه وغير الغليظ ينتشر بغير انتظام على الأراضى المجاورة ومايتبقى بعد هذا وذاك يندفع بقوة جريان الماء إلى البحرفيساعد بتراكمه وتراكبه بعضه على بعض على امتداد الدلتا وتقدمها شيئاً فشيئاً فى البحر الملح.

٧- أشكال الأرض الزراعية

الأرض الزراعية فى مصر يتغير شكلها تغيرا دوريا محسوسا فى كل سنة ولقد وصف عمرو بن العاص فاتح مصر هذا التغيير وصفا دقيقا فى كتاب كتبه إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين حيث قال:

«مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر. يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر. له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها. حتى إذا عج عجاجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب. فإذا تكاملت تلك كذلك نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته.

فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه. يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرق سقاه من فوقه الندى وغذاه

من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه. فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زبــرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء».

وفى الواقع فإنــا نرى الأرض فى بادىء الأمر ولا شية = علامــة = فيها من الزرع إلا ما كان مــن جهات متفرقة هنا وهناك تروى بالحيلــة بل قد صارت ماحلة قاحلة = جرداء = وتشققت أخاديــد يختلف عرض كل أخدود منها من ستة إبهامــات إلى قدم وعمقه من خمســة أقدام إلى ستة وتجف شيئــاً فشيئاً بحيث يصعب على الناظر أن يقتنع بــأن الثمار اليانعة والمحصولات الوفيرة. ذلــك هو أول طــور مــن هــذا الجفاف يعقــب فى كــل سنــة تلك المزروعــات السندسية ذات الأطوار التى تتقلب فيها أرض الزراعة فى مصر.

أما الطور الثانى فهو طور الفيضان الذى يجعل الوادى كله بمثابة بحيرة جسيمة قد انتثرت على سطحها القرى والآكــام والأشجار حتى يخيل للرائى أنها أرخبيل انثرت جزره فى البحر انتثارا يقضى بالعجب.

أما الدور الثالث فأقصر مــن الدورين السابقين لأن الماء لا ينحسر فيه عن وجه الأرض حتــى تمتص حــرارة الشمس مــاتشبع بــه بطنها مــن الرطــوبة فيسارع الفلاح إلى انتثــرت البذور عليها وتعليل النفس بعــد ذلك بمحصــول وافر فى الموسم المقبل.

أما الــدور الرابع فيتبــع الأدوار السابقــة بغتة بحيث لايكــاد يشعر المرء بوقــوفه، ذلــك هو دور الإنبــات الذى يكســو وجه القطــر بحلة مــن سندس أخضر.

وأما الــدور الخامس وهو الأخير فهــو تحمل النبــاتات بالأزهــار وامتلاء الحقول بــالسنابل وهذه التغييرات والأدوار لاتقــع فى وقت واحد بكــل جهات القطر على السواء. فــإن الجهات الأكثر قربا من المدار هــى أسرعها إلى إهداء تلك المناظر لأعين الناظرين.

٨- الجبال وأشكالها

يبدو للمتأمل أول وهلة أن الطبيعــة وضعت الجبال حفاف القطر المصرى لوقايته مــن رمال الصحراء وهى قاحلة ماحلة جــرداء. إذ لاسبيل لمياه النيل

المخصبة إليها. كما أنه من النادر أن ترويها مياه الأمطار. على أن الأمطار إذا نزلت مرة فإنها لاتكفى للإنبات، وتلك الجبال تبدو للناظر من جانبى النهر متصلة الأجزاء وتزيد فى عرضها كثيرا على ارتفاعها والتى منها إلى شرق النيل أقرب إليه من التى إلى غربه بل كثيرا مايتكون منها الشاطىء. أما الجبال الغربية المعروفة بسلسلة جبال ليبية فأكثر بعدا من ضفة النهر بل تكون من البعد أحيانا بحيث تغيب عن نظر الناظر الواقف على ضفة النيل. والجبال الأولى ــ أى التى إلى الشرق تطل برؤوسها على النيل بينما ترى الجزء الأوسط منها عموديا والجزء الذى عند القاعدة متراجعاً إلى الوراء بشكل قوس مقعر وترى فى إتجاهها الطولى آثار خطوط يخيل للرائى معها أول وهلة أنها رسمت أو حفرت فى أزمان سابقة بقوة التيارات المائية التى يكون ذلك التقتعر والحالة هذه نتيجة من نتائجها.

٩ -ارتفاعها وانحدارها العام

يبلغ ارتفاع سلسلة الجبال العربية فى الجهة التى يتكون فيها جبل المقطم مائتى متر تقريبا . ولكن ارتفاعها يزداد بالتدريج كلما تقدمت إلى الجنوب . ففى إقليم أسيوط مثلا، وهذا الإقليم على مسافة ستين فرسخا من القاهرة، يبلغ أربعة الأخماس من أعظم ارتفاع لها وهو ستمائة إلى سبعمائة متر. وهى تبلغ هذا الحد الأقصى من الارتفاع فيما يلى مدينة طيبة (الأقصر) بقليل وتستمر مرتفعة بقدره الى أمد ثم تنحدر بالتوالى حتى الشلال الأول حيث تصير عبارة عن أكام صغيرة تعود بعد مسافة طويلة إلى ماكانت عليه من الارتفاع فى مصر الوسطى.

والمسلم به بوجه عام أن سلسلة جبال ليبية أخفض ارتفاعا من سلسلة الجبال العربية، وإنما يمكن التأكيد بأنها تعادلها فى متوسط ارتفاعها ، والذى جعل الناس يذهبون إلى الحكم بانخفاضها تأثير المنظر فقط فإنها لفرط بعدها عن النيل يخيل للرائى أنها أبخرة متكاثفة لاتميزها العين المجردة وأنها لأفق مصر من ناحية الغرب كأحد جوانب الإطار الذى يحيط بالصورة.

أما الجبال التى تتجه من شرق المقطم نحو البحر الأحمر وبرزخ السويس فتذهب على الدوام صاعدة مرتفعة. وهذا بخلاف مايشاهد فى سلسلة الجبال

الليبية فإنها تذهب منحدرة بلا انقطاع من موقعها تجاه القاهرة. فمن هذه البيانات يستطيع القارىء أن يتخيل ماهو الانحدار العام للجبال التى شق فى وسطها وادى النيل ويعلم أنه عبارة عن ميلين يتجه أحدهما من الجنوب إلى الشمال تبعا لمجرى النهر والآخر من الشرق الى الغرب وبامتزاجهما ببعضهما ينشأ الميل الاكبر الذى يتجه خطه من الجنوب الشرقى الى الشمالى الغربى ثم ينعطف قليلا نحو الغرب.

١٠- التكوين الجيولوجى

المحتمل أن شلالات النيل لم تكن إلا الدرجات الأخيرة لانحدار السلسلة الجبلية الأولى التى انساق النهر فيها ولاختراقها وجعلت مجراه متعرجا بما ينطبق على اتجاه السلسلة الأولى نفسها وهذه السلسلة التى يمكن اعتبارها ممتدة من الشلال الأول فى اتجاه الخليج الشرقى للبحر الأحمر تتوافر فيها صفات الأرض الناشئة عن التكوين الأول فإنك تجد فى شمالها الرخام السماقى وفى الجنوب الصخور الصوانية. أما حجر الشطف فيشغل المواقع التى بين هذين الطرفين وفيما بين الشمال وفى هذه الأجزاء الوسطى توجد صخور مختلفة تتألف بوجه عام من الاسباث الصفيحى.

وتفضى الأرض الأصلية أو الأولى إلى الأرض الثانوية فى اتجاه يوازى على وجه التقريب الاتجاه الذى وصفناه للسلسلة الأصلية وتكوين الأرض فى شمال الخط غربى النهر حتى قرب شواطىء البحر الأبيض المتوسط كتكوين الأرض الثانوية. لأن المادة الحجرية غالبة فيها بما يتخللها من حجر القاق والبودنج اللذين يشاهدان دواما بين الأحجار الثانوية والأحجار الأولية.

وفى تلك الجبال الجانبية الجرداء التى سبق الكلام عليها الآن قطاعات طولية وحلوق تفتح للمسافرين والتجار منافذ الصحراء يصلون منها . إما إلى البحر الأحمر شرقا وإما إلى الواحات غرباً.

١١- الصحارى وتكوينها

تتكون صحارى مصر من الأراضى الرملية القاحلة الممتدة فيما يلى سلسلتى الجبال اللتين ذكرناهما قبلا.

ويحتوى وجه الصحارى رمالا غليظة مختلطة بالحصى الرفيع المستدير

والرمل. أما الرمل فيتكون من حبوب قاقية فقط غير مختلطة بمادة أخرى، والظاهر أنها كانت فى العصور الماضية مغطاه بالماء. وهى تتجمع فى بعض النقاط على شكل كثبان مختلفة الهيئات. والنواة الأولى التى تتراكم الرمال عليها هى النباتات والأجسام الصلبة وأغلب الجبال الصغيرة تتكون على هذا المثال إلا جبالا تغيرت أوضاعها بفعل الرياح التى تدفعها بلا انقطاع فى اتجاه هبوبها. فإذا وجد من الجبال مابقى فى مكانه فإن الأشكال التى تتشكل بها بفعل تيارات الرياح المختلفة تتشابه بحيث لايمكن تمييزها عن القمم المستديرة التى تتألف منها.

١٢-الواحات

الشطر الأعظم من الصحارى فى الدرجة القصوى من القحولة، فإذا وجد بها أثر لنبت فإنما هو أثر الأدغال والأعشاب أو مياه الأمطار النادرة وتترك شيئاً من الماء فى ثنيات الأرض وينمو فى الأماكن الواطئة التى تجتمع فيها هذه الرطوبة بعض النباتات وتظهر بعض الحشائش والأعشاب ولكن أثر هذه الخضرة لايلبث أن يزول بدنو، الصيف.

وهناك جهات أخرى قليلة العدد أراضيها قابلة للزراعة على مدار السنة بسبب ماتحتويه من الينابيع المائية وتسمى تلك الجهات بالواحات. والواحة كلمة مصرية قديمة معناها المكان أو البيت ولقد شبهوها بالجزر الخصيبة متناثرة فى بحار واسعة من الرمل ، وخمس من تلك الواحات تابعة لمصر وهى كلها فى صحراء ليبية الأولى. منها الهابط من الجنوب إلى الشمال الواحة الخارجة الموجودة فى منطقة طيبة ويفصلها عن القطر المصرى مسافة أربعين فرسخا وتمتد بمؤازرة = بمحاذاة = النيل على طول خمسة وعشرين فرسخا تقريبا وكان القدماء يسمونها صحراء (مانيا) وعلى مسافة عشرين فرسخا منها توجد الواحة الداخلة التى يقرب طولها من اثنى عشر فرسخا وعرضها من عشرة فراسخ.

وإذا استمر الهابط فى هبوطه إلى البحر الأبيض المتوسط التقى فى طريقه بواحة فرافرة الصغيرة الواقعة على مسافة خمسة وسبعين فرسخا من أرض مصر. فواحة برية (بارفا) على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا من مصر الوسطى ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها خمسة . ثم واحة سيوه

المعروفة فى قديم الزمان باسم واحة (زفس آمون) والمشهورة برحلة إسكندر الأكبر إليها لزيارة هيكل هذا المعبود بها. وهى كائنة مع الفيوم على خط واحد من خطوط العرض تقريبا وتفصلها عن مصر مسافة مائتى فرسخ وطولها خمسة فراسخ فى عرض أربعة . وتحتوى الواحات بوجه عام أراضى فى الغاية القصوى من الخصوبة وفيها يزرع قصب السكر والبن والقرمز والنيلة.

١٣- منظر الصحراء

تحدث الصحراء فى نفس من يشهدها أول مرة تأثيرا شديدا ظاهرا فإنها تستفز النفس لتخيل الخواطر السامية والأفكار الكبار. ولا عجب إذا اختار المسيحيون فى القرون الأولى، للانقطاع عن الناس وطلب الزهد فى الدنيا، تلك الأرجاء البعيدة التى يتيسر للمتعبد فيها أن يكون على اتصال روحانى مع معبوده وأن يتفرغ للتأمل العميق فيما هو منبسط تحت نظره من عظمة الكون الذى لاحد له.

وكل ما ابتكرته قرائح الشعراء وسطرته أقلام الكتاب المفكرين فى اتساع الأوقيانوس انفساح أرجائه وترامى أطرافه الى أبعد مدى ينطبق على الصحراء فإن مايستشعر به المرء فى عزلته وسط الصحراء يسمو على مايستشعر به منه وهو على متن الماء. لأن المنقطع عن المخلوقات فى الصحراء يظل دواما تحت تأثير من السكون الشامل لايقدر أحد غيره ممن لم يتأثر به أن يوضح ماهيته ويستطلع كنهه، ذلك لأن سكون الصحراء صمت لايتخلله همس ولايذهب بجلاله صوت لجّات الماء فى الاقيانوس. فإن أول مايستشعر المرء به وهو فى وسط السهول التى لاغاية لأفقها والبيداء التى تشبه بألوانها البيضاء المزدوجة بوهج ذكاء مدى فسيحا من الأرض جاله البرد، إنما هو الشعور بالاستقلال والتمتع بحرية لايجاريها فى بعد المدى غير تلك الآفاق التى لاتدركها الأبصار هناك يتمثل للمفكر حال الإنسان الأول بعد الخليقة فيشعر بأنه مثله سيد الكون وأنه الملك المتسلط عليه، وأنه يستنشق نسيم الصحراء بما لا يحيط به الوصف من السعادة والهناء فتنشرح باستنشاقها الصدور التى اعتادت ثقل الجو ورداءة الهواء فى الأماكن الآهلة بالسكان.

(٣)
الطقس والآثــــار الجويــة

الفصول – درجة الحرارة –السراب– الـرياح– الخماسين– النسيم– الضباب– السحــاب– الندى– النقطة– الـرطوبــة– العثير– الإعصار– المطر– الثلج– البرد– الأرصاد الجوية.

١٤– الفصول

لم يكن ابتداء الحر والبرد وغيرهما ومدة بقائها ومواعيد انتهائها فى القطر المصرى مماثلة لها فى أقاليمنا (الفرنسيــة) المعتدلة. فإن البرد فى مصر يكاد يكون عديم الأثـر . خصوصا فى الجهات المجاورة للمدار. وليـس بين الربيع والخريف فرق لشدة تشابههما . فهما فى الحقيقة فصل واحد تبلغ مدته ستة أشهـر وإنما ينقسم إلى قسمين بفصــل الصيف الـذى تتسلط فيـه الحرارة الشديدة.

١٥– درجة الحرارة

إن ما يذكـر بوجه عام عن الحرارة فى مصر مبالــغ فيه كثيرا على أن درجة الحرارة فى الأقاليم التى يتألف منها هذا القطر لم تكن متماثلة إذ منها ماتزيد هذه الـدرجة فيـه عليها فى جملة مــن الجهات والأصقــاع الأوربية الجنـوبية كأسبـانيا وإيطــاليا مثــلا. وهناك بيــان لمتوســط درجة الحرارة فى المنــاطق المختلفة.

فى الدلتا، تبلـغ درجة الحرارة عادة فى ثلاثة أشهــر الشتاء من ١٢ إلى ١٤ فوق الصفـر ، وفى أشهر الربيــع من ١٦ إلى ٢٤ وفى الصيــف من ٢٤ إلى ٢٦ وأحيــانــا إلى ٢٨ و٢٩ وفى الخريف مــن ٢٤ إلى ٢٨ فــإذا أضفنــا درجتين إلى درجة الفصول المتقـدمة وقفنا بالتقريب على متـوسط درجة الحرارة فى مصر الوسطـى. ويرى الصاعـد فى الوجــه القبلى أن الحرارة تزداد بالتـدريج كلما أوغل فيه صعــودا. ففى أسيوط الواقعة فى الـوسط تقريبا مــن إقليم الصعيد يرتفع ميــزان الحرارة إلى ٣٤ درجة، وفى أسوان وهو الحد بين مصر والنـوبة إلى ٣٦ وأحيانا إلى ٣٨.

ومن مميـزات درجة الحرارة فى القطر المصرى الاختـلاف الذى تتأثـر به أثناء الانتقـال من النهار إلى الليـل. فإنه لايـوجد بلـد على ما أعهد بلغـت فيه مفاجـأة ذلك الانتقال مثل هـذا المبلغ، والسبب فى ذلك أن ريـح الشمال التى يلطف هبوبها حرارة الجو تلطيفا عظيما تهب عادة عند الغروب فتلطف الجو الذى لايلبـث أن تنحط درجـة حرارته إلى أقـل مما كـانت عليـه فى النهار بما يتراوح بين ثمانى درجات واثنتى عشرة درجة. وإلى هذا السبب يرجع الفضل فى أن الإنسـان إذا تنفس هـواء الليل لا يعترضه ذلك الاختنـاق الذى يغشاه فى غير مصر من البلدان. ثم إن السماء فى تلك الليالى تبـدو صافية الأديم ساطعة النجوم لصفـاء الجو وخلوه من الشـوائب فيحلو استنشاق نسيمـه المنعش والتمتع بمزاياه التى نظم شعراء الحب فيها قصائد المدح والتمجيد.

١٦- الســـراب

سبب الظاهرة الغريبة المعروفـة بالسراب أن حرارة الجو تؤثر فى حدوثه. وبيان هذا التأثير أن الارض إذا سخنتها الشمس تسخينـا كافيا خلال النهار ظهرت من بعد فرسخ تقريبا كأنها محدودة بما يشبه الفيضان العام. وتبدو القـرى الواقعـة فيما يلى هذه المسـافـة كأنها جـزر فى وسط بحيرة عظيمـة يفصلها عن الـرائى متسع من الماء صغير أو كبير. وهذا الماء الخيـالى يعكس صور المرئيات الواقعة فى أفقـه كما تعكسها البحيرة الحقيقية. ولكن كلما دنا المرء من إحدى القرى التى تظهر فى وسط الماء ابتعدت حافة البحيرة الوهمية وظهر لـه أن الماء الذى يحول بينـه والغرض الذى يسعـى إليه يضيـق شيئاً فشيئاً حتى إذا بلـغ من الضيق قصاره تـلاشى بالمرة وتولـد فى الحال بجهة أخرى بالنسبـة لمجموعة جديـدة من المسـاكن بعيـدة عن الأولى أو لأى شىء موضوع وضعـا بارزاً فى المسافة المقصـودة. ولم يغب عن الذاكـرة ماسببته هذه الظـاهرة مـن الخيبة واليأس لعســاكرنا أثنـاء سيرهم بـالصحراء بين الإسكنـدرية والقـاهـرة إذ أصابتهـم من العطـش بما كـاد يؤدى بحيـاتهم أجمعين.

١٧- الريـــــاح

أفاض (فـولنى) فى الكـلام على الرياح وهبـوبها بمصر إفاضـة لايسعنى معها إلا إيـراد بعض مـاقالـه فى هذا الموضـوع: «حينما تقرب الشمـس من

مناطقنا تتجه بمصر الرياح التى كانت فى قسم الشرق إلى الشمال وتثبت فيه فإذا كان شهر يونيو هبت باستمرار نحو الشمال والشمال الغربى. وفى يوليو تستمر على الهبوب نحو الشمال باختلاف فى اليمين واليسار بين الشمال الغربى والشمال الشرقى. ومن آخر يوليو حتى أواسط سبتمبر تعود الرياح إلى الشرق وتهب منه بدون أن تستقر فيه أكثر مما تهب فى أى إتجاه آخر إلا الشمال. وكلما مرت الشمس من مدار إلى مدار اشتد اختلاف الرياح واقترن هبوبها بصوت شديد. ويستمر هذا الهبوب من الشمال والشمال الغربى والغرب وتلبث على هذه الحال أشهر ديسمبر ويناير وفبراير التى يتألف منها فى مصر كما فى بلادنا فصل الشتاء وعندئذ تدنوأبخرة البحر الأبيض المتوسط المتراكمة المتثاقلة بفعل برودة الهواء من البر فيتكون منها الضباب والمطر.

«وفى أواخر فبراير ومارس - أى عندما تعود الشمس نحو خط الاستواء يكون هبوب الرياح من الجنوب أكثر منه فى أى وقت آخر وفى الشهر الثانى منهما وشهر أبريل تكون الرياح جنوبية بحتة وجنوبية شرقية وجنوبية غربية. وقد تختلط بالرياح الغربية والبحرية والشرقية والأخيرة من هذه تتحكم فى آخريات أبريل. وفى مايو تتسلط مع الريح الشمالية على مملكة البحار».

الخماسين

تهب رياح الخماسين حوالى الاعتدال الربيعى وهى شديدة ويكون هبوبها من الجنوب واسمها مشتق من عدد (خمسين) لأنها تلبث نحو الخمسين يوما وأطلق العرب عليها أيضا اسم السموم.

وأفاض فولنى وغيره من الرحالين فى الكلام عليها بما يغنينى عن الإسهاب فيها وكل ما ذكره بشأنها أن السماء تصطبغ، متى هبت بلون ضارب إلى الحمرة وأن الجو لايلبث أن يصبح كأنه قد امتلأ بضباب من العثير = التراب الناعم = وأن الحرارة الشديدة تجفف العرق المنفرز من البشرة وأن ميزان ريومور للحرارة يرتفع أحيانا إلى عشر درجات وأنه يتعذر التنفس على الإنسان حتى يشعر بألم عام فى جسمه وضعف يتناول أعضاءه وأن هذه الأعراض كثيرا ما تستتبع الرمد الصديدى والصداع والسكتة المخية

والدوسنتاريا الحادة.

وبتأثير تلك الرياح المشئومة تزداد أحوال المرضى خطرا وشدة . وإذا كان هناك وباء فاشيا فنسبة الموتى به تزداد إزديادا عظيما. وكثيرا ما تبلغ الخماسين من الشدة والخطر مايحمل المرء على التصديق بما يروى من إخنائها = فضائها = فى الصحراء على قوافل برمتها وجيوش بعددها . وعدتها غير أنه لمن حسن حظ الإنسان أن الخماسين لاتهب بشدة وخطورة إلا خمس مرات أو ستا فى الخمسين يوما التى تلبث أثناءها. ونادرا ما تتجاوز مدة هبوبها فى كل مرة أربعا وعشرين ساعة أو ثمانى وأربعين. ولقد فوجئت مرارا بهبوب الخماسين فكانت تثير من حولى إعصارا من التراب والحصى لولا الحيطة للفرار منها فى الوقت المناسب لألحقت بى الأذى من غير ريب.

والشائع بين الجمهور فى مصر أن الخماسين تهب على وتيرة واحدة فى اليوم الثانى من عيد الفصح كل عام، وهو اعتقاد مبنى على الخطأ المحض والظن الفاسد فإن عيد الفصح لايقع فى تاريخ معين من كل سنة . فى حين أن للخماسين بداية دورية لاشك فيها، وهى وإن وقعت فى مواعيد متفاوتة قليلا يحوم وقوعها دواما حول موعد الاعتدال الربيعى.

١٩- النسيم

فى ليلة اليوم الذى ينتظر فيه هبوب الخماسين يبرح الأهلون من مسلمين ويهود ومسحيين دائرة المدينة لاستنشاق النسيم فى ضاحيتها، وهم يعتقدون أنهم يتقون بهذه الوسيلة شرور الرياح الخماسينية التى تهب من الجنوب.

٢٠ الضباب

يتكون الضباب فى فصل الشتاء وفى أوقات نادرة غير معينة، ويبلغ من الكثافة أحيانا مبلغا يتعذر معه تمييز الأشياء على بعد بضع خطوات . ويخيل للمرء فى هذه الحالة أنه أصبح تحت سماء باريس أو لندرة ذات الضباب. إلا أن هذه الظاهرة الجوية قليلة المكث قصيرة العمر لتحلل الضباب سريعا بتأثير حرارة الشمس الشديدة فى مصر.

٢١- السحب

وفى ذلك الفصـل تتلبد السماء بـالسحب التـى لاتلبث أن تتبـدد وتختفى غالبـا قبيل الفجر. وهـى تمر عـادة من الشمال إلى الجنوب ويتقدم ظهـورها أحيانا البرق والرعد اللذين كثيرا ما ينزعج المصرى منهما لما وقر فى نفسه من سوء الاعتقاد فيها، ويحدث أحيانا أن يعترى الأجنبـى مثل هذا الانفعال برغم إرادته فيحن إلى وطنه ويأسف عليه.

٢٢- الندى

نادرا ما يتساقط الندى فى الشتاء ولكنه يكثر فى الصيف، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى أثنـاء هبوب الرياح من الغرب والشمال متحملـة بالأبخرة، المتصـاعدة مـن مياه البحـر الابيض المتـوسط . ولكنهـا لا تلبث أن تختفـى بهبوب الرياح .لأن هذه الرياح لاتلتقى فى مرورها إلا بالصحارى القاحلة.

٢٣- النقطة

يطلق المصريون اسم «النقطة» على الندى الذى ينزل فى ليلة ١٨ يونيو من كل عـام، وهم يستبشرون بها وينسبـون إليها خـاصية تنقيـة الهواء ومنع الأمراض وخصوصا الطاعون.

وبدهى أن نزول النقطة لاتأثير له معينا فى ذلـك الوباء وغاية ماهنالك أن نزولها يتفـق مع اشتداد الحرارة التى إليهـا وحدها ينبغى أن ينسـب التأثير الذى نسـب خطأ إلى النقطة، وقـد أشار قـدماء المؤلفين إلى عادة تـم نسيانها اليوم. وهى استطـلاعهم نتيجة الفيضان من خير عميم أو عكسـه بوضعهم قطعة من الطين المجفف تحت تاثير النقطة وفعلهـا فتدل درجة ابتلالها بالماء على ماسيكون من درجة الخير المنتظر من وراء زرع الأرض.

٢٤- الرطوبة

الرطوبة فى الوجه البحرى شائعة بـاستمرار، وهى بلا شك حاصلة من مجاورة البحر وطبيعة الأرض بسبب انخفاضهـا وامتلائها بالمستنقعات أو أيضا بسبب غـزارة الندى الذى يتساقـط عليها. وهى تأكـل المعادن جميعا، وعلى الخصوص الحديد. إذ سرعان مايعلـق الصدأ بها وبسببها يتعذر جلاء الأسلحة والأدوات الفنية التى لاتلبث أن تفسد فى زمـن قصير مع مايضارعها من الأمتعـة الفضية والثياب المزركشة بـأسلاك الذهب والفضـة إذا لم تتخذ

الوسائل لوقايتها من فعلها الضار. وهى تقل كلما تقدم المرء نحو المدار وتبلغ أقصى شدتها أيام فيضان النيل - أى فى الأيام التى يزداد سقوط الندى خلالها.

٢٥-العثير

بمجرد انقطاع الرطوبة الحادثة عن الفيضان والندى تجف الأرض ويتفتت سطحها ويتحلل الى عثير يكفى هبوب النسيم أو الريح اللطيفة لاستثارته فى كل ناحية. وهو من النعومة والدقة بحيث ينفذ فى الأماكن كلها حتى المحكمة الغلق. والمصريون يصفون سهولة نفوذ العثير فى كل مكان بقولهم من طريق المبالغة «أنه ينفذ حتى من قشرة البيض» ومن السهل الوقوف على فعله الضار بالنباتات التى يتراكم عليها ويجففها وبالحيوانات وعلى الخصوص الإنسان. فإنه يمنع خروج العرق من بشرته لانسداد مسامها، ويتعب تنفسه بتسربه إلى الرئتين ويفسد الآلات الدقيقة وغيرها حتى الآلات المستعملة لغزل القطن ونسج المنسوجات الحريرية والكتانية.

٢٦-الإعصار

قليل من البلاد يثور العثير فيه كما يثور فى مصر على شكل إعصار تحركه الرياح، فإن هذا الإعصار الرملى يتكون كأساطين عظيمة تدور حول نفسها وترتفع فى الجو عموديا حتى تبلغ السحاب وتظل أحيانا واقفة فى مكانها ولكن تسير فى العادة بسرعة شديدة مدة بضع دقائق حتى تلتقى بشجرة أو جدار أو بيت أو مرتفع من الأرض فتنكسر قوتها وتهبط متساقطة فى نفسها.

٢٧-المطر

من الأوهام الشائعة أن السماء لاتمطر فى مصر أبداً ، وهو وهم أذاعه بعض المتأخرين الذين لم يزوروا القطر المصرى إلا زمن الجفاف التام والواقع أن السماء تمطر كثيرا فى الوجه البحرى، وتبتدىء هذه الأمطار عادة فى شهر أكتوبر وتستمر فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولاتنتهى إلا فى شهر مارس.

وفى هذه المدة يندر أن تنقضى أسابيع من غير مطر. بل غالبا ما يشاهد المطر متماديا أياما متعاقبة، وفى كل عام تبلغ مرات المطر من خمس وعشرين

إلى ثلاثين. أما فى القاهرة فلا تزيد تلك المرات عن نصف العدد المتقدم مع قلة الأمطار .وفى سنة ١٨٢٥ أمطرت السماء بالقاهرة ثمانية أيام وصالا مطرا أفضت شدته إلى سقوط منازل عديدة ووقوع أضرار مختلفة. أما فى الوجه القبلى فالأمطار نادرة جداً ، وهى لاتظهر فيه إلا بعد أزمان مديدة. على أنه قد شوهد بين القاهرة وقنا نزول مطر شديد مسبوق بالبرق والرعد. وفيما يلى قنا يعد نزول الأمطار من الحوادث الخارقة للعادة. على أنهم يذكرون أن المطر نزل هاميا فى مدينة اسوان. ويذهب بعضهم إلى أن المزارع العديدة التى أنشأتها عناية الوالى قد أثرت فى طقس القطر المصرى. فسببت تواتر الامطار السنوية وطول مكثها . وليس لهذا الرأى فيما نرى أساس من الصحة يمكن الاعتماد عليه. إذ بمقارنة جداول الحوادث الجوية التى عملت خلال الثلاث سنوات التى أقامتها الحملة الفرنسية بمصر بالجداول التى يجدها القارىء فى نهاية هذا الفصل يستنتج أنه لم يحدث فى طقس مصر تغير محسوس أو انقلاب ظاهر خلال الأربعين سنة الماضية. فإذا عدد أيام المطر التى سجلت أثناء الحملة الفرنسية بلغ متوسطها فى كل سنة من ١٥ إلى ١٦ يوما بينما أنها لم تبلغ فى خلال الخمس سنوات الأخيرة من ١٢ إلى ١٣ يوما.

٢٨– الثلج

إذا كان الثلج نادر السقوط فى الوجه البحرى فسقوطه أندر فى الوجه القبلى. على ان الفرنسيين الذين كانوا بمدينة قنا فى السنة الثامنة للجمهورية شهدوا سقوط ثلج غزير فيها ، وقالوا أن حبوبه كانت تعدل فى حجمها مالايقل عن حجم البندق الكبير. وحدث بعد ذلك أن سقط الثلج مرارا فى أزمان متفاوتة متباعدة، وكان من الكثرة سنة ١٨٢٨ بحيث استطعنا أن نملأ به فى أبى زعبل بعض الآنية. بل قد شهدنا سقوط ثلج بحجم صغار الجوز وعلمنا أنه ألحق بالناس فى الأرياف ضررا بليغا إذ جرح الكثيرين منهم وقتل بعض الحيوانات.

٢٩– البرد

أما البرد فى مصر فاثر جوى أندر وقوعا من الثلج. هذا فضلا عن أنه لم ير إلا فى شطوط البحر أو فى نقط تبعد عنها بفراسخ قليلة. ونزل البرد فى سنة

١٨٢٣ بثغرى الإسكندرية ورشيد، وامتد إلى جهة العطف فأخذ الطاعنون فى السن مـن أهل هـذه الجهات ينقبون فى ذاكـرتهم عن حـادث من هـذا القبيل حصل فى ماضى حياتهم فذهبت جهـودهم فى هذا السبيل سدى واتفقوا رأيا على أنهم لم تقع أعينهم قط على شىء من هذا النوع.

٣٠ ـ وأظننى أحسن صنعا إلى الذين يودون التحقق بالدقة من أمر درجة الحرارة فى القطـر المصرى بإيـراد الأرصـاد الجويـة التى قـام بها الموسيـو (ديتوش) الصيدلى المفتش فى خدمة سمـو الوالى أثناء خمس سنوات متتابعة. فإذا قورنـت هذا الأرصاد بالتى قـامت بها فى القاهرة اللجنـة العلمية للحملة الفرنسيـة يتبين أن الطقس فى مصر لم يطرأ عليـه تغيير محسوس منـذ نحو أكثر من أربعين عامًا.

وهناك على طريـق المثل الأرصاد الترمومتريـة التى قامت بها تلـك اللجنة محولة إلى درجات سنتغرادية فإنها تبين أن درجة الحرارة:

فى يناير قد بلغت إلى	١٣,٣
وفى فبراير قد بلغت إلى	١٤
وفى مارس قد بلغت إلى	١٧,٥
وفى أبريل قد بلغت إلى	٢٢,٢
وفى مايو قد بلغت إلى	٢٤,٣
وفى يونية قد بلغت إلى	٢٨,٦
وفى يولية قد بلغت إلى	٣٠,٢
وفى أغسطس قد بلغت إلى	٢٩
وفى سبتمبر قد بلغت إلى	٢٨,٣

وفى الجداول الآتية مقنع بأن متوسط ما كـان يعطيه الترموتر من الأرقام عن تلك المواقيت يقرب من الأرقام التى دل عليها فيما تقدم.

ومن السهل الحكم بطـريق الاستنتاج ـ طبقا للمعلومـات المتقدمة ـ على شـدة الحرارة فى الأمـاكـن المعرضـة للشمـس. ففـى أسـوان أى فى الحدود القصـوى للصعيد يـرتفع ميـزان سنتغـراد من ٦٠ درجـة إلى ٧٠ فى الرمـل

والشمس، وفى القاهرة إلى ٤٥ درجة فى الأولى و٥٠ فى الثانية.

مذكرة ـ الأرقام التى فى الأعمدة المحصورة بين عنوانى (الرياح) و(حالة الجو) تدل على مقدار الاختلافات الجوية التى وقعت خلال كل شهر ويستدل من هذه الأرقام على سرعة تغير الآثار الجوية لطقس القطر المصرى.

٣٢ ـ ينابيع النيل

قام بعض الملوك فى الأزمان القديمة وفى مقدمتهم (سيزوستريس) و(قمبيز) و(الإسكندر الأكبر) و(البطالسة) و(قيصر) و(نيرون) بأبحاث كثيرة عن ينابيع النيل لاستكشافها إلا أن جهودهم فى هذا السبيل ذهبت ضياعا، وإلى فشل مسعاهم ضرب الأقدمون مثلا على المشروعات التى لا تؤدى إلى نتيجة بقولهم: «بحث عن ينابيع النيل».

ولقد كان هذا الفشل نصيب الرحالين المتأخرين فإنهم رغم ما بذلوا من الجهود لاستكشاف ينابيع النيل لم يوفقوا حتى الآن إلى تكذيب ذلك المثل. والرأى المسلم به والمجمع عليه أن ينابيع النيل فى جبال القمر وأنه بابتعاده عن هذه الينابيع المعينة له على سبيل الحدس والتخمين يتكون منه ما يسمى بالبحر الأبيض ثم يلتقى به شرقا بإقليم سنار على مسافة مائة وثمانين فرسخا من أسوان البحر الأزرق الذى ظن بعض الرحالة أنه النيل نفسه فالنهر المعروف باسم (تانار) و(أرقابوراس) هو الأخير من روافده. وفيما بين هذا النهر والدلتا ـ أى على مسافة أربعمائة وخمسين فرسخا لا يتلقى النيل ماء ما من أى رافد آخر. قال همبولدت: «إن هذا هو المثال الوحيد لنهر فى التاريخ الهيدروغرافى للكرة (الأرضية).

٣٣ ـ الشلالات

اشتهرت شلالات النيل عهدا طويلا شهرة ملأت الخافقين وفاقها فى الشهرة منها الشلال الأول فإن (شيشرون) و(سنكة) لم يترددا فى ذكر ما يفهم منه أن هذا الشلال قد بلغ من العظم بحيث كان يصل خريره إلى مسامع جميع السكان الذين يجاورونه فيصم آذانهم. وقد ذهبت الآراء فى بيان أهمية ذلك الشلال إلى مثل هذا المذهب فى المبالغة فى عهد قريب منا.

والشلال الأول، وهو الوحيد الذى نتصدى للكلام عليه ـــ بالنظر إلى أن

الشلالات الأخرى غير موجودة بالقطر المصرى ـ مكون من جبل كان يعترض النيل فتمكن النيل من قطعه فى جهات متعددة منه يلتمس لمائة منفذا إلى الأمام، وفى الواقع فإنك ترى مجرى النهر على مسافة نحو فرسخين منه تعترضه أهداف = صخور = كبيرة من الجرانيت يرتفع بعضها عموديا إلى علو شاهق ويتكون من البعض الآخر جزر كبيرة أو صخور مبعثرة هنا وهناك ولكثرة هذه العوائق تندفع مياه النهر وتتمزق بشدة عند مرورها عليها فتتألف منها شلالات تتساقط مياهها من مرتفع إلى منخفض ومن هذا إلى غيره. ويسمع من بعيد صوت المياه متكسرة على الصخور أو متساقطة فى الهُوِىّ أو مرتفعة كالاعصارات الرملية. والمرور من ذلك الشلال شديد الخطر على القارب. ولهذا السبب اتخذ لها ممر على الضفة اليسرى لوقايتها من العطب. وفى أثناء الفيضان تغمر المياه تلك الصخور بأسرها ، ولكن السفن تستطيع فى أيام التحاريق الصعود فيه جذبا بالحبال كما تستطيع النزول مدفوعة بقوة التيار.

٣٤ـ مجرى النهر

يجرى النيل من الشلال الأول إلى الشمال على مسافة مائتين وستة عشر فرسخا حتى إذا بلغت المسافة بينه والقاهرة فيما يليها شمالا تفرع إلى فرعين يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى والآخر نحو الشمال الغربى ويظل مواصلا السير على هذين الاتجاهين إلى البحر الأبيض المتوسط فيتكون من أحدهما فرع دمياط ومن الآخر فرع رشيد مارين بهاتين المدينتين بعد أن يقطع كلاهما نحو خمسين فرسخا من نقطة تفرعهما.

ويتكون مجرى النيل كله من الرمل والطين. وعرضه وعمقه يختلفان بحسب الأماكن التى يمر بها فتراه تارة ضيقا عميقا وطورا يتسع حتى يبلغ من العرض ربع فرسخ، ويمكن فى هذه الحالة عبوره خوضا على امتداد عرضه.

٣٥ـ ضفاف النيل

كلما تقدم الإنسان نحو الشلال الأول ارتفعت ضفتا النيل، وصار ارتفاعهما فوق منسوب مياهه محسوسا. ويبلغ هذا الارتفاع أيام التحاريق بمصر العليا ٣٥ إلى ٤٠ قدما. وبالقرب من القاهرة ٢٥ إلى ٢٠ ثم يذهب

منخفضا بالتدريج إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث يتلاشى بالمرة فى شواطئه. غير أن مياه النيل أثناء إرتفاعها تذهب بكل أثر لدرجات هذا الارتفاع. إذ كثيرا ما تسمو حتى تبلغ إلى المسطحات العظيمة الارتفاع وتغمرها. ولما كانت ضفاف النيل خاضعة فى كيانها لطبيعة الأرض وشدة التيار وكيفية اصطدام المياه بها فإنها تبدو تارة مقطوعة قطعا عموديا وطورا منحدرة كثيرا أو قليلا. وليست تلك الضفاف كضفاف أنهار أوربا مرصعة بالأشجار والنباتات المائية. كلا! فإنك ترى عليها على أبعاد متفاوتة أشجار النخل واللبخ والتوت فيسر النظر بمرآها. وأكثر ما يكون وجودها فى المسالك الموصلة إلى المساكن أو حول السواقى حيث تقى بظلها الوارف من حر الهجير الرجال والحيوانات العاملة على رفع المياه من النهر المبارك لرى الأرضين بها.

ويمر النيل بجميع مدن القطر المصرى تقريبا وأمهات قرى الوجه القبلى وجزء من مصر السفلى وتقوم على ضفافه الكفور والعزب المشيدة فى نقط متقاربة بعضها من بعض، وهو ما يجعل للبلاد منظرا يستهوى النظر ويمهد للمسافر سبيل الحصول منها على الحاجيات اللازمة لمعيشته اليومية.

٣٦ - أمطار النهر

النيل كغيره من الأنهار المحصورة بين المدارين تزداد مياهه سنويا عقب الانقلاب الصيفى. وقد اتجهت الخواطر إلى استطلاع أسباب هذا الحادث السنوى المنتظم الباعث على الخصب. لأن ما انتحلوه من الأسباب له ولايزال مستقرا فى الاخلاد ليس من الصواب فى شىء. فقد كانوا يذهبون إلى أن السحب التى تجتاز جو مصر مسوقة بقوة الرياح الشمالية تتجه نحو جبال السلسلة الأثيوبية حيث تتراكم ثم تستحيل إلى مطر يفضى باجتماع مياهه بعد سيلها من السفوح والمنحدرات المختلفة إلى ارتفاع مستوى النيل الارتفاع السنوى المعهود.

وذهب هذا الاعتقاد بالقوم إلى حد الزعم بأن رياح الشمال بغض النظر عما تسوقه من السحب تسبب أيضا ارتفاع النيل ويستند أرباب هذا الرأى على أن تلك الرياح تدفع بمياه النيل نحو الجنوب أعلى إلى اتجاه مضاد لمجراها فيؤدى هذا الدفع الذى يصدها عن سبيلها إلى بلوغها من الارتفاع حدا يؤدى

إلى فيضانها على الأرضين التى حولها. وهو مذهب بيِّن الفساد بدليل أن رياح الشمال لاتهب إلا فى الوقت الذى يبدأ مستوى النيل فيه بالارتفاع فى مصر ذاتها - أعنى فى شهر يوليو. أما فى الخرطوم - أى المكان الذى تكون فيه من إنضمام النهر الأزرق والأبيض فإن ارتفاعه يبتدىء منذ شهر أبريل. فليس من الممكن القول بأن رياح الشمال تأتى إلى بلاد الحبشة وسلسلة الجبال الأثيوبية حيث تنبثق مياه روافد النيل جميعا بالأبخرة التى يعزى إليها ازدياد مياه هذا النهر. على أن هناك رأيا يكاد يكون حاسما فى الموضوع لموافقته الصواب وهو أنه لا سحاب من السحب الخفيفة التى تشاهد بمصر مارة فى اتجاه الشمال إلى الجنوب يصل إلى النوبة فضلا عن الحبشة، ذلك لأن السحب تتبدد قبل أن تبلغ إلى دنقلة. فمن الواجب إذا تعليل ارتفاع مياه النيل من غير هذا السبيل.

وفى سنار تجىء أشهر أبريل ومايو ويونيو بأمطار لا انقطاع لها والريح تهب بتلك المنطقة فى اتجاه الجنوب الشرقى. فإن السحب تتراكم يوميا قبيل الظهر فى هذه الجهة من الأفق فينقضى المساء كله والليل حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل والطقس مزعج غير محتمل وتكون للرياح زمجرة هائلة وللرعد قصف يصم الآذان وللمطر هطول شديد لاينقطع، ويستمر هذا الطقس فى سنار إلى آخر يونيو، ولا تنتشر الأمطار فيها إلا إذا عم الفيضان. ولكن لوحظ أن هذه الأمطار لا تسبب ارتفاع المياه بل تساعد على تغذيتها فقط وتنمية ايرادها مدة ما من الزمن (١) وليس فى هذا أيضا ما يصح أن يكون تعليلا لذلك الحادث.

أما الرأى الراجح المسلم به لانطباقه على الصواب فهو أن ارتفاع الماء فى النيل ناشىء من السحب المتكونة من أبخرة الاقيانوس الهندى والمندفعة بقوة الرياح الجنوبية الشرقية إلى ناحية الحبشة حيث تحجزها الجبال المرتفعة من السلسلة الأثيوبية فلا تلبث أن تستحيل إلى مطر ينصب عليها.

والمياه الأولى التى ترفع نهر النيل تمر بالخرطوم فى أوائل أبريل - كما ذكرت آنفا - ولا تظهر الزيادة فى حجم مياه النهر بالقاهرة إلا فى النصف

(١) ما ء الفيضان فى سنار لاينسكب على الأراضى كما فى مصر بل يظل فى مجراه.

الأخير من يونيو، وهو ما يؤخذ منه أنها تقضى نحو ثلاثة أشهر تقريبا فى قطع طريق طوله أربعمائة وثمانون فرسخا وهو طريق تقطعه فى شهر واحد وكسور إذا كان التيار سريعا، وسبب بطء المياه الأولى للفيضان فى الوصول إلى القاهرة استنفادها فى الطريق قبل وصولها إلى مصر العليا ومصر الوسطى وانصراف بعضها إلى جهات مختلفة كثيرة وارتشاح البعض الآخر فيحرم النهر بهذا وذاك من مياهه الأولى قبل أن يبلغ فى سيره إلى الصعيد ومصر الوسطى.

ثم أن مياه النيل لا تزداد زيادة مطردة التدريج والانتظام أبدا ، فإنها غالبا ماتزداد بغتة ازديادا عظيما ثم تقف فتنقص أو تزداد من جديد ويتفق أحيانا أن يكون تدرجها فى الزيادة سريعا، وفى مصر الوسطى والوجه البحرى تبتدىء المياه بالارتفاع فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو لتبلغ الحد الأقصى من ارتفاعها فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ثم تهبط منخفضة أثناء التحاريق فى مارس وأبريل ومايو.

٣٧ ـ الفيضان

يظن من لا يعرف القطر المصرى إلا بالاسم أن النيل يفيض على الأرض فيغمرها كما غمرتها مياه الطوفان. والحقيقة أن الفيضان يعم الأرضين فى كل مكان بترع الرى والقنوات المشتقة منها وهى التى بواسطتها يذهب الماء إلى الأراضى البعيدة. على أن الفيضان قلما يكون عاما لأن المياه تتوزع على مسطحات من الأراضى يختلف ذرعها = مساحتها = كبرا أو صغرا وتحيط بها الجسور التى يندفع الماء من بعض جهاتها ليرويها. والأراضى التى تروى بغمر المياه لها قليلة . لأن الفلاح المصرى لا يكل إلى النهر شئون رى أراضيه على ما يقتضيه الجزاف.

٣٨ ـ قطع الخليج

إذا بلغ النيل من الارتفاع إلى الحد المناسب لرى الأرض بمياهه وهو ما يحدث بين ١٥ و٢٠ أغسطس احتفل فى القاهرة احتفالا باهرا بفتح الخليج الذى يختزنها من جانب إلى الجانب الآخر، وانطلقت فيه المياه وسرت فى الفروع المشتقة لتروى قسما عظيما من الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط. وفى ليلة يوم ذلك الاحتفال العظيم تضىء الأنوار كل ناحية

وتطلق فى كبد الجو الأسهم النارية بأشكال ورموز مختلفة، ويسمع دوى المدافع وعزف الموسيقى وأنغام المغنيين، وترى بجوار الخليج مئات الزوارق مزينة بالأعلام ومضاءة بالمصابيح وهى تروح وتغدو متقابلة متدابرة على وجه الماء. فإذا كان نهار اليوم التالى للمياه هدفا للمدافع وألقى فى النيل قربان على مثال البشر فلا يلبث الجسر أن يتهدم بتأثير المقذوفات فتنطلق المياه فى الخليج بدوى عظيم(١).

٣٩ - تيار ماء النيل

لم يكن انحدار الأرض التى يجرى النيل عليها بين أسوان والبحر عظيما فإن ارتفاع هذا الانحدار فى النقطة التى تبعد عن مصب النهر بنحو مائتين وخمسين فرسخا وعن مدينة أسوان شمالا بنحو خمسة فراسخ يبلغ ٤٥٣ قدما فوق مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ فى طيبة (الأقصر) الواقعة على نحو مائة وثمانين فرسخا من مصب النهر ٣٥٧ قدما وفى أسيوط على مسافة مائة وخمسة وعشرين فرسخا ٢٨٧ قدما، وفى القاهرة حيث يبعد عن ذلك المصب بنحو خمسين فرسخا فقط ٤٠ قدما أثناء الفيضان من جهة الشرق. وتبلغ سرعة جريان ماء النيل ثلاثة أميال فى الساعة وقت الفيضان وميلين فى وقت التحاريق. على أن هذه السرعة تقل بسبب ما تصادفه المياه فى طريقها من العوائق المختلفة كمنعطفات النهر أو ضيق عرضه أو اتساعه أو

---

(١) زعم بعض المؤلفين المتقدمين أن المصريين كانوا فى العصور السابقة يقدمون فى مثل هذا الاحتفال قربانا للنيل فتى وفتاة حليا بالأزهار. ولكن هذا الزعم قوبل بالتكذيب من المحققين الذين ينكرون شيوع مثل هذه العادة الوحشية فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية ما بلغته الأمة المصرية. وهم يذهبون إلى أن المؤرخين الذين اتهموا الأمة المصرية بمثل هذه التهمة الشنعاء (وهل أشنع من تضحية النفوس البشرية) قد جرهم إلى السقوط فى هذا الخطأ شيوع عادة تماثل العادة الشائعة الآن وهى إلقاؤهم فى النهر قبل فتح الخليج مثالا من البشر مكللا بالازهار على أنه مع ثبوت أن عادة إلقاء القرابين البشرية فى النيل لم تعمل الأمة المصرية بها فى عهد اليونان والرومان على الأقل. فقد روى العلامة ابن عبدالحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاءت إليه الأقباط وقالوا: «إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها وهى إذا كان الثانى عشر من بؤونة عمدنا إلى بكر مليحة نأخذها من أبويها غصبا ونزينها ثم نلقيها فى النيل فى مكان معلوم عندنا» فقال عمرو: «هذا لما يكون فى الإسلام أبدا» فمكث النيل من بؤونة لغاية سبعة عشر توت لم يزد فيها. فهم أهل مصر بالجلاء عنها، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستشيره فى الامر فكتب أمير المؤمنين بطاقة وأرسلها إليه وفيها وافق على الخطة التى سلكها عمرو بن العاص والثبات الذى أظهره حيال المصريين فيما جروا عليه من تلك العادة. وقال ان دين الإسلام جاء ليقضى عليها وعلى أشباهها من العادات الوثنية ثم أمره متى قرأ هذه البطاقة بأن يلقى فى النيل الورقة المرفقة بها وهى رسالة منه إلى هذا النهر كتب فيها ماياتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله. من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر المبارك».

«أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك».

فالقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد الذى هو سابع عشر توت فأجرى الله تعالى النيل من ليلته ففرح أهل مصر بإبطال هذه العادة السيئة.

غير ذلك مما يكون سببا لازدياد سرعته حينا وانخفاضها حينا آخر.

٤٠- حجم المـــاء

سواء فى زمن الفيضـان أو فى وقت التحاريق يـذهب قسم عظيم مـن مياه النيل ضياعا فى البحر الأبيض المتـوسط، ويتعذر رى متسعات كبيرة متفرعة من الأرض لهذا السبب ولبعد قاع النهر وعدم توافـر الوسائل الصناعية لرفع مياهـه إلى الضفتين والاستفادة بها فى الزراعة. وفى الحسـابات الدقيقـة التى قام بها المهندس (لينان) بيان أحجام الميـاه التى يسوقها النيل فى مجراه كل أربع وعشرين ساعة من أيام الفيضان أو التحاريق.

	متر مكعب
أيام التحاريـــق	
حجم المياه التى تجرى فى فرع رشيد	٧٩٥٣٢٥٥١٧٢٨
حجم المياه التى تجرى فى فرع دمياط	٧١٠٣٣٨٤٠٦٤٠
	١٥٠٥٦٦٣٩٢٣٦٨
أيام الفيضـــان	
حجم المياه تجرى فى فرع رشيد	٤٧٨٣١٧٨٣٨٩٦٠
حجم المياه التى تجرى فى فرع دمياط	٢٢٧١٩٦٨٢٨٤٨٠
	٧٠٠٥٥١٤٦٦٧٤٤٠

ومـن المناسـب إلى حد مـا فى هذا المقـام التكلـم على سد النيـل (القناطـر الخيرية) ولكننـى آثرت. ارجـاء الكلام عليـه فى الفصل الـذى عقدتـه لذكـر الأشغال العمومية الحالية ، ولهذا أحول نظر القارىء إليه.

٤١- المقياس

لما كـان فيضان النيـل السنوى مـن الشئـون الحيويـة لمصر فقد شعـر المصريون فى كل عصر بالحاجة إلى قياس ارتفـاعه . فقدماء المصريين أنشأوا المقاييس العديـدة فى نقط مختلفة من مجراه ليعلموا مقدمـا من قياس ارتفاع مياهه إذا كانت نهاية هذا الارتفـاع صالحة للزراعة أو غير صالحة لها، وكان أحد تلك المقاييـس فى مدينة (منفيس) والثانى فى (فيلـة) بأسوان(١) ولاتزال آثاره بـاقية حتـى الآن. أما الآن فـالمقياس الـوحيد مـن هذا النـوع فى القطر المصرى هو الموضـوع فى الزاوية الجنـوبية مـن جزيرة الـروضة تجاه مصر

(١) الصواب فى جزيرة الفنتين تجاه أسوان.

العتيقة، وقد أطلق العرب كلمة المقياس عليه، وهو عبارة عن عمود من المرمر الأبيض قائم وسط بئر مربعة تتصل بالنيل بفتحة فى قاعها الذى ينزل إليه بسلم مثبت الدرج فى جدرانها ، والعمود ذو ثمانية أوجه ومقسم ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع، والذراع المصرية تنقسم إلى ستة أشبار. قياس كل منها أربعة أصابع، وعليه فهى تعدل بتقدير علماء الحملة الفرنسية ٠,٤٥٠ ملليمترا.

وبنسبة حركة النيل ارتفاعا وهبوطا إلى هذا التقسيم يعلم أن هذا النهر الذى لا ينخفض أبدا إلى أقل من الذراع الثالثة فى المقياس يصعد بمقدار ٢٤ إلى ٣٠ إصبعا فوق الذراع السادسة عشرة أعنى أنه يغطى أعلى العمود فيدل بذلك على بلوغه من الارتفاع إلى النصاب الذى يرجى منه الخصب والخير العميم.. الذراع أى ثلاثة وعشرين قدما. وأثناء ارتفاع مياه النهر يطوف ويحصل وفاء النيل ببلوغه إلى ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة أرباع، ويقوم المنادون فى القاهرة لتبشير الأهلين بأنباء هذا الارتفاع فى المقياس(١).

ومقياس الروضة بالقاهرة أنشىء فى أيام سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموى سنة ٩٧هـ وجدده فى سنة ١٩٠هـ المأمون الخليفة العباسى ونقش فى عمودها، يشير إلى ذلك وأمر بترميمه بعدهما المستنصر بالله الخليفة العباسى، وضرب عليه قبة فوق عمد عليها المماليك أيام الحملة الفرنسية إلا أن مهندسينا قاموا بترميمها وجعلوا البناية المقياس بابا خارجيا نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلي هذا الإصلاح

٤٢ - انحسار الماء

تبذر الأرض فى مصر بعد انحسار مياه النيل عنها . إما بالوسائل الصناعية أو الوسائل الطبيعية. ولا تلبث البذور بعد نثرها بأيام أن تنبت وتنمو وتكسو الأرض ثوبا زاهى الألوان. لأن الأرض وإن لم تكن صالحة بذاتها للزراعة تتأثر بمياه النيل التى تحمل فى غضونها عناصر الخصب

---

(١) ترجع عادة النداء تبشيرا بالنيل وبلوغه من الارتفاع الحد الذى يتوقف عليه أمل الأمة المصرية أو يأسها إلى الأعصر الواغلة فى القدم. ولقد هم العرب بإبطالها إبان الفتح، لأنه كان كثيرا ما يحدث أن لم يبلغ الفيضان إلى الحد الذى يتم به رى الأرض ويرجى معه المحصول الوفير والغلة الكثيرة أن يستسلم أن الأهلون إلى اليأس والقنوط على وجه يضطرب معه حبل التجارة ويختل ميزان الأعمال ولم يجرؤ العرب مع سداد رأيهم على استعمال القوة لمكافحة تلك العادة ومعارضة الرأى العام فيها لما كان المصريون يولونه للمقياس من الاحترام يكاد يكون فى نظرهم فرضا من فروض الدين.

والخير والبركة. وفى سنى الفيضان العالى تبلغ المياه أحيانا إلى حدود الصحراء والجهات التى لا تصلح تربتها للإنبات فإذا بالإقحال وقد تحول إلى خصوبة وبالنباتات وقد أتت أكلها كل حين.

٤٣. مياه الرشح

لا تخصب الأرض فى مصر بتأثير فيضان النيل وحده. إذ لو صح عكس ذلك لما أمكن زرعها إلا مرة واحدة ولتعذر على النباتات بلوغ الحد الأقصى من نموها. فإن المياه الراشحة لمن أهم عوامل الإنبات ورشحها يحدث بمرورها فى باطن الأرض خلال الطبقات الخفيفة المجاورة للطبقة الصالحة للزراعة.

وسبب ارتشاح هذه المياه التى تسمى أيضا بمياه النشع ضغط ماء النيل على ضفتيه وانحدار الأرض وتخلخل موادها. ويختلف تأثير هذا الضغط تبعا لمقدار حجم ماء النيل قلة وكثرة، وبمجرد حصوله عقب ارتفاع الماء يحدث على الشاطئين تياران يتبعان فى سيرهما اتجاهين متضادين فينفذ الماء من الشاطئين شيئا فشيئا، ويتغلغل فى باطن الأرض حتى يبلغ إلى قواعد الجبال الحافة بالقطر المصرى شرقا وغربا فتصده عن النفوذ منها موادها الصخرية الصلبة.

هذا وليس لسطح النيل مستوى تقف عنده مياهه إلا إذا بلغ الارتشاح إلى منتهاه، ولم يعد للماء قدرة على السريان فى باطن الأرض إلى أبعد مما وصل إليه. وأثناء التحاريق تسرى المياه الراشحة مسرى معاكسا لمسراها الأول أى أن المياه التى تشبعت الشواطىء بها وتشربتها أثناء الفيضان تعود من الأماكن التى وصلت إليها لتنسكب فى النيل عند هبوطه بسبب التحاريق، وبذا تكون الأراضى التى بلغت إليها المياه الراشحة بعد غيرها من الأراضى آخر ما ينحسر الماء عنه، أو بعبارة أخرى آخر ما يجف.

أما المياه التى تملأ الترع أيام الفيضان وتبقى محجوزة فيها بالسدود بعد أن يقل حجم مياه النيل فإن ارتشاحها فى الأراضى المجاورة لها يبقى مستمرا حتى بعد أن يكف النهر عن إمدادها بمياهه. ويستفيد الفلاحون بالمياه الراشحة فى الزراعة باستعمال السواقى فى رفعها ورى الأرض بها. والسواقى كثيرة فى الأراضى الزراعية، وسيأتى الكلام عليها بالإفاضة فى

القسم الخاص بالزراعة.

٤٤ ـ أنواع مياه النيل

يكدر ماء النيل فى وقت الفيضان، ثم ترسب المواد الطينية التى يحتويها فيصفو شيئا فشيئا، وهو مقبول فى الذوق ولا يعطل وظائف الهضم وبالنظر إلى خفته يمكن الشرب منه إلى حد الشبع من غير أن يصيب الشارب ضرر. وينفرز من الجسم بسهولة عن طريق المسام عرقا ومن أحد السبيلين بولا. وقد أيد التحليل الكيمى = الكيميائى= الرأى القائل بنقاوته العظيمة وخلوه من الشوائب وصلوحه التام لتهيئة الأطعمة والفنون الكيمية. وفيه غنى عن مياه الأمطار والماء المقطر الذى يتعذر الحصول على المقادير الوفيرة منه حيث يندر الوقود لتقطيره.

ولم يقتصر القدماء على تكريم النيل لطيب مائه فقط بل لما أسندوه إليه من الخصيات = الخصائص = والمزايا الكثيرة. فقد ذكر (بليناس) من فضائله إزالة العقم فى النساء، ولعل هذا هو ما بعث (بطليموس فيلادلفوس) على موافاة ابنته (برينيس) زوجة (أنطيوخوس) ملك الشام بماء النيل لتشربه دون غيره. ولايزال الناس إلى هذا العهد يكرمون هذا الماء إكرام القدماء له، والمعروف أن سلاطين القسطنطينية كانوا يعنون على الدوام بادخار ماء النيل فى قصورهم برسمهم وأفراد أسراتهم لتفضيلهم إياه على غيره من أنواع المياه.

بحيرات مصر

ترتيبها ـ بحيرة مريوط ـ بحيرة المعدية ـ بحيرة ادكو ـ بحيرة البرلس ـ بحيرة المنزلة ـ بركة البلح ـ سبخة بردويل ـ بحيرة عامر ـ بحيرات النطرون ـ بركة القارون أو القرن ـ وادى بحر بلا ماء.

٤٥ ـ يعدون فى مصر عشر بحيرات منها تتصل بالبحر الأبيض المتوسط هى:

١ ـ بحيرة مريوط أو (مريوطيس) القديمة.

٢ ـ بحيرة المعدية أو بحيرة أبوقير.

٣ ـ بحيرة البرلس.

٤ ـ بحيرة المنزلة.

٥ ـ بحيرة البلح.

٧ ـ سبخة (بروديل) أو بحيرة (سيربون) القديمة. أما الثلاث بحيرات التى لا تتصل بالبحر فهى:

٨ ـ بحيرة عامر.

٩ ـ بحيرات النطرون.

١٠ ـ بركة القارون أو بحيرة (مريس) القديمة.

٤٦ ـ بحيرة مريوطيس أو مريوط

بحيرة مريوطيس أو مريوط وهى أولى البحيرات الواقعة على قاعدة الدلتا بترتيب الوضع من الغرب إلى الشرق. ممتدة بين برج العرب والإسكندرية. وكانت أراضى ضاحية هذا الثغر تستمد منها الخصب. لأن ماءها كان إلى القرن السادس عشر عذبا فراتا تسوقه إليها الترع المشتقة من النيل. وحدث على أثر إهمال حكومة المماليك العناية بالشئون العامة أن جف ماؤها. وكانت حينما هبط الفرنسيون مصر سهلا فسيحا من الرمل تجتمع فى جزئه المنخفض الأمطار وتستقر فيه شطرا كبيرا من الشتاء، ولكن الجيش البريطانى العثمانى قطع فى ٤ ابريل ١٨٠١ جسور ترعة الإسكندرية من الطرف الغربى لبحيرة المعدية فانتشرت مياه البحيرة، وهى كمياه البحر الملح فى شدة الملوحة، فى بحيرة مريوط من ثلاث فتحات أو أربع، وكانت جافة وقتئذ كما ذكرنا، واستغرق امتلاؤها بها ستة وستين يوما، وكان من نتائج هذه الفعلة الشنعاء أن غرقت أربعون قرية وعم الماء الأراضى الزراعية المحيطة بها(١).

٤٧ ـ بحيرة المعدية

أطلق عليها هذا الاسم انتحالا من الممر الواقع فى الطريق بين الإسكندرية ورشيد، وكان يوصل هذه البحيرة بالبحر الملح. وهى واقعة بين أبى قير وبحيرة أدكو. تكونت من عهد حديث وماؤها ملح أجاج. ويشغل قناة الماء

---

(١) أمر محمد على بسد الفتحة التى تصل بحيرة مريوط بالبحر فلم تعد هذه البحيرة تلقى سوى مياه الامطار وما يفيض من ماء ترعة المحمودية. وهذه المياه تغطى سطحها فى زمن الشتاء ولكنها تتبخر فى الصيف. وبالنظر لتشبع قاع البحيرة طويلا بمياه البحر ترى عليه طبقة ملحية سميكة يخيل للناظر أنها طبقة من الجليد، والملح الذى يتبلور بهذه الطريقة ينتج به، وقد فكر الوالى فى الاستفادة من أرض مريوط بجعلها صالحة للزراعة.

التى بينها والبحر الملح مكان مصب فرع كانوب القديم تقريبا ولايزال يوجد على اللسان الرملى الفاصل بين ذلك المضيق والبحر الأبيض المتوسط آثار جسر طوله ثلاثة آلاف متر قطعه هذا البحر فى سنة ١٧١٥ فكان ذلك سببا فى طغيان مياهه على بحيرة المعدية التى يبلغ مسطحها ١٤٠٠٠ هكتار.

٤٨ ـ بحيرة ادكو

سميت كذلك باسم قرية على سواحلها. وهى واقعة بين بحيرة المعدية وفرع رشيد ويمدها النيل بمياهه. كانت فى عهد الحملة الفرنسية جافة تقريبا لأن جسور الترع التى تمتلىء بمياهها لم تكن قد فتحت منذ زمن طويل. ولقد انكسر أحد هذه الجسور فى سنة ١٨٠٠ ولكن طغيان الماء كان من الشدة بحيث ارتفع مستواه فيها فوق مستوى سطح البحر الملح بنحو ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمترا. إذ فتحت فى ذلك الجسر فوهة بلغ عرضها نحو ٥٠ مترًا ومسطح هذه البحيرة أقل من ٣٢٠٠٠ هكتار بقليل.

٤٩ ـ بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس قاعدة الدلتا ، وتمتد بين نهايتى فرع النيل. وهى قليلة العمق تتلقى المياه من الترع المختلفة وتتصل بالبحر بفتحة. ويبلغ طولها ٢٥ فرسخا تقريبا وسطحها ١١٢٠٠٠ هكتار.

٥٠ ـ بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة بين دمياط وأطلال (بيلوز) وأعظم امتداد لها يقرب من ٨٤٠٠٠ متر وأقله ٢٢٠٠٠ متر ومسطحها ١٨٤٠٠٠ هكتار. وتتصل بالبحر المالح بفتحتين إحداهما تسمى (الديبة) والأخرى أم (سراج) وقد تبين أن هاتين الفتحتين كانتا مصبى فرعى (منديس) و(تنيس) فى الأزمان القديمة. وطعم مائها لاتتقزز النفس منه كما تتقزز من طعم ماء البحر. ولذا فإنه فى أيام فيضان النيل يكون صالحا للشرب بسبب إنصباب ماء النيل فيه وامتزاجه به عن طريق ترعة بحر مويس.

٥١ ـ بركة البلح

يطلق هذا الاسم على المستنقعات التى تكونها مياه بحيرة المنزلة فى الجزء الجنوبى منها ، وهى تشغل من الأرض ما مسطحه ١٣٠٠٠ هكتار تقريبا.

٥٢- سبخة بردويل

سميت بحيرة (سيربون) الواقعة شرقى أطلال (بيلوز) وفى جوار العريش بسبخة (بردويل) ولايزال وصف (استرابون) و(ديودورس الصقلى) لها منطبقا على حالتها الحاضرة فقد قال ديودورس أن فيالق برمتها من الجيوش هلكت لجهلها بحقيقة هذه المستنقعات العميقة التى تغطيها الرياح بما تسفيه عليها من الرمال فيختفى فى الظاهر ما تحتها من الهاويات العميقة إلى أن قال: «وهذا الرمل الطينى تسوخ الأقدام فيه بثقل الأجسام شيئا فشيئا. فكأنه يغرر بالمسافرين. إذ يستدرجهم إلى السير عليه فإذا أوغلوا فيه وشعروا بخطئهم تعذر عليهم إنقاذ أنفسهم مما تورطوا فيه عن جهل واغترار. وكان كل جهد يبذلونه فى هذا السبيل جاذبا للرمل إلى الجهات المجاورة فينتهى الأمر بأولئك المسافرين التعساء إلى الاختفاء فى غياهب تلك المهاوى. ومن ثم جاءت تسمية ذلك السهل الطينى باسم (باراتروم) الذى معناه باللغة اللاتينية «المهواة».

٥٣- بحيرة عامر

هذه البحيرة قريبة من منتصف برزخ السويس والظاهر أن مياه البحر الأحمر كانت فى الأزمان السالفة ممتدة إلى موقعها وكانت الترع القديمة توصل بينها والنيل.

٥٤- بحيرات النطرون

على مسيرة اثنتى عشرة ساعة غربى بلدة (الطرانة) فى الوجه البحرى واد يحتوى الجزء الواطىء منه أغوارا أطلق عليها اسم بحيرات النطرون. والنطرون مادة ملحية حجرية تتكون فيه. وعدد هذه البحيرات عشر تنتهى حافاتها بخلجان صغيرة يرتشح الماء منها فتتكون منه عيون يتسرب الماء منها جداول صغيرة تنصب فى قاع تلك الأحواض وحافاتها مغطاة بطبقة من النطرون.

ولامشاحة فى أن قاع هذه البحيرات أوطأ من مجرى النيل. بل من مستوى البحر الأبيض المتوسط، والرأى الراجح يعلل وجود المياه فيها بمياه النهر الراشحة من الأرض على مسافة عشرة فراسخ تقريبا، وهى المسافة التى

تفصلها عـن واديها. والمحقق أن الارتفاع فى البحيرات متعـادل، وأنه يطـابق بنسبـة عكسية ارتفـاع الماء فى النيل. إذ مـن الثـابت المحقـق أن مياه النهـر الـراشحـة ترفـع ميـاه البحيرات إلى أعلى منسـوب لها خلال فصـل الشتـاء والأشهر الثلاثة التى يفعل الارتشاح فيها فعله.

والأملاح المختلفة التى تحتويها تلك البحيرات هى الموريات (الكلوريدات) والكربـونات وسلفـات الصودا . فـإن هذه المواد التـى تنشأ عـن تبخر الماء تتجمد فتصبح صالحة للانتفاع بها فى التجارة.

ومياه اثنتين من تلك البحيرات لونها ضارب إلى الحمرة بتأثير مادة نباتية حيوانية فإذا تباخرت بالصناعة فإن الملح البحرى أول ما يتبلور يحجز ذلك اللون الأحمر ، ويكتســب رائحة عطريــة مقبولــة فى الشم لقربها مـن رائحة الورد.

وبالقرب من بحيرات النطرون أديرة قبطية عديدة.

٥٥ـ بحيرة مريس أو بركة قارون

بحيرة قـارون أحرى مـن بحيرات مصر بالالتفـاف والبحث مـن العلماء المحققين. ذلك لأن شهـرتها منذ قـديم الزمـان وما أحرزتـه مصر من مـزايا وجودها يجعلهـا فى مقدمة ما امتاز هـذا القطر به من الميـزات الجديرة بلفت الأنظار.

تشغل بحيرة مريس قاع واد عظيم مستدير الشكل يتكون كما قلنا سابقا من سلسلة جبال ليبية بمؤازاة = بمحاذاة = مصر الوسطى وهذا الوادى هو الذى كان معـروفا بإقليم أرسنـوة عند قدماء المصريين ويعـرف الآن بإقليم الفيوم. أطلـق العرب عليه هـذا الاسم اشتقاقا مـن كلمة (بيوم) أو (فـايوم) ومعناهما فى اللغـة المصرية القـديمة (المكان ذو المستنقعـات) وما تبقـى من البحيرة القديمة يسمى فى أيامنا ببركـة أو بحيرة قارون أو القارون. فإلى هذا الحوض العظيم ترجع القصة الخرافية المعروفة فى علم (الميثولوجيا) وهـى أن (قارونا) هذا كان دليل الموتى على نـهر (ستكس) يوصل ظلالهم إلى الجحيم. وقد كان قدمـاء المصريين فى الحقيقة يجتـازون جزءا مـن البحيرة ليودعـوا إحدى المقابـر هناك توابيت موتاهـم. فكانت هذه العادة سببـا لاستنباط تلك

الخرافة الـوهمية التـى كانت ذات شـأن فى مذهب تعـدد الآلهة عند اليـونان والـرومان. ولقـد فسر الأقدمـون وفى مقدمتهـم المؤرخ (هيرودتس) أصـل بحيرة مريـس تفسيرا مبنيا على الخطـأ وكثيرا ما خدع المتـأخريـن من علماء الجغرافيا. وما بـرح هذا التفسير عالقا بأذهان العامـة ومستقرا فى أخلادهم. ولكن العلم الحديث مجمـع على رفضه وعدم الاعتداد به. إذ يؤخـذ من رواية ذلك المؤرخ اليـونانى أن الملـك (مريس) حفر بحيرة الفيـوم ليتخذها خـزانا يخزن فيه ما يفيـض من مياه النيل فى أثناء الفيضـان ليرده فيما بعد إليه إذا ظهر أن فيضانـه لم يكن كافيا لرى الأراضـى الزراعية. ولكن البداهـة تأبى التسلم بإمكان حفـر تلك البحيرة باليد العاملة لأنه لـو تيسر هذا العمل فعلا لاستدعـى نقل أحد عشر مليـار متر مكعب من التراب والحجـارة والصخور. وأيد (هيرودتس) قوله بأن هـرمين عظيمين جدا نصب على قمة أحدهما صنم عظيم كانا مـرتفعين فوق سطح الماء. ومما يرجح هذا القـول أن الملك مريس انتهز فرصة الوضع الطبيعى لوادى الفيوم وانخفاض قاعه بكثير عن قاع نهر النيل ليوصل إليه ماء هذا النهر، وأنه أنشأ الهرمين قبل الشروع فى هذا العمل الجليل. وميسور أيضـا افتراض أن هذين الهرمين كانـا موجودين قبـل عهد الملك (مريس).

ولم يكن مسطح بحيرة (مريس) التى لا تشغـل بركة (قارون) منها الآن سوى القاع العميق أقـل من ستين فرسخا مربعا. وكانت ميـاه النيل ترد إليه بترعة تعـرف الآن بالبحـر اليوسفـى وقد اتخذ لها منفـذا فى سلسلة جبـال العـرب. وكانـت ذات فـروع وجداول تتشعـب فى أراضـى الفيوم الصـالحة للزراعـة حتى إذا أخصبتها بـالرى انطلقـت نحو تلك البحيرة فسكبـت فيها الفائض من مائها. ولم يتفق البـاحثون على كيفية استفادة مصر بما كان يرد إلى هذا المستودع العظيم من مياه النيـل. وزعم (هيرودتس) فى هذا الصدد أن البحر اليوسفـى الذى كان يجلب إليه مـاء النيل خلال ستة أشهـر من السنة كان يردها إليها فى أثناء الستة أشهر الباقية منها. والأقرب إلى البداهة أن ذلك الماء كان ينصرف مـن بحيرة (قارون) بواسطة الترعـة المعروفة اليوم بـاسم بحر بلا ماء(١).

(١) نحيل القارىء إلى المذكـرة التى نشرها العلامـة جومار عن بركـة القارون فى المصنف العظيم الـذى ألفه عن القطر المصرى. فإنه قد بحث فى المسائل المتعلقة ببحيرة مريس بحثا مدققا يعززه ما عرف عن هذا الباحث المتضلع من الكفاءة والاقتدار.

٥٦ـ البحـر بـلا مـاء

إن البحر بلا ماء المتصل بالطرف الغربى من بحيرة (مريس) يتقدم نحو الشمال فى وسط الصحراء بمجاذاة مجرى النيـل فيمر من بحيرات النطرون على مسيرة ساعـة ونصف منها. وكانـت تقضـى بعد ذلك إلى بحيرة مـريوط. ومجرى البحر بـلا ماء الذى أطلـق عليه الآن الاسم بـالنظر إلى جفافـه تدل الدلائل على أن جزءا منه حفـر بيد الإنسان فإنه كان فى الحقيقـة تابعا لبحيرة (مريس) أو بعبارة أخرى بحيرة تالية لبحيرة مقدمة. فإذا كانت قوة الإنسان تستحق الإعجـاب والثناء لعمل أنجـزته فإنما هـو هذا العمل. ويبلـغ إتساع الوادى المعروف بـالبحر بلا ماء ثلاثـة فراسخ من إحـدى ضفتيه إلى الضفة الأخـرى. وهـو الآن لا يحتوى أثـرا مـا مـن الينـابيع وإنما فيـه الكثير مـن الأخشاب والحيوانات المتحجرة.

الباب الثانى

التاريخ الطبيعى
(المواليد الثلاثية)

(١)
المعــــادن

التكون المعدنى والجيولوجى للجبـال - الأحجار الجصية - الأحجار الكلسية - الجرانيت أو الصوان - المواد المجلوبة بالتيارات - الليديين أو الحجر الأسود اليشى - الحجر الأبرشــى - السليسى بالعقيق، الحصى - الأبـرش الأخضر المصرى - مناجـم الرخام - حجـر الزمرد — الخشب المتحجر - التحجرات الحيوانية - الأحجار المختلفة - المعادن - الكبريت - زيت البترول - الجبس - الفحم الحجرى - النطرون النتر - الشب.

١ ـ يمكن تقسيم المعادن فى مصر إلى قسمين عظيمين. يشمل أحدهما المعادن المتعلقة بالتكون الأصلى للأرض ، والثانى المعادن التى أولدتها الحوادث والآثار الطبيعية التى ينسب إليها تكون الشطر الأكبر من أرض مصر.

٢ ـ التكون الجيولوجى والمعدنى للجبال

يتألف أول هذين القسمين من المعادن التى تحتويها سلسلتا جبال العرب وليبية. وفى هذه الجبال ما هو جدير باستقصاء علماء المعادن من أنواع الأحجار الجصية والكلسية والصوانية.

٣ ـ الجرانيت أو الصوان

توجد بضواحى أسوان تلك الأنواع المختلفة من الجرانيت الذى طبقت شهرته الآفاق فى العصور القديمة، حيث كان يعرف باسم (سيينيت) وفى تلك الجبال المعدنية أنواع مختلفة منه نذكر منها السيينيت الوردى، والسيينيت الرخامى الوردى والأصفر، والسيينيت الرمادى والأبيض والأسود، والسيينيت الرمادى الوردى، والسيينيت المعرق والأسود، والصخور الورقية الرخامية

(نييس) وأصناف الجرانيت الأبيض والقاقى. وما أغلب الكتل الكبيرة الصوانية التى تركها المصريون لنا كالمسلات والتماثيل العظيمة إلا أنواعا من السيينيت الأحمر. وهناك تماثيل كثيرة وآثار رمزية أصغر من تلك حجما، وهى مصنوعة من السيينيت الأسود أو الرمادى. وتنوع ألوان هذه المواد التى كان يستعملها المصريون فى شئونهم الهندسية القديمة لما يسترعى النظر بحسن التوفيق بينها فيؤثر فى نفس الناظر أجمل تأثير وأحسنه.

٤ـ الأحجار الجصية

تتألف منها الجبال التى بين أسوان وجنوب مدينة إسنا ببضع الفراسخ ـ أى على مسافة يبلغ طولها نحو العشرين فرسخا تقريبا. وترسو طبقات تلك الأحجار على سائر الطبقات متصلة من ناحية الجنوب بالجرانيت ومن ناحية الشمال بالجبال الحجرية. ويفصلها عن الجرانيت كتل بودنج غليظة. وهذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله – كما هو مذكور فى مذكرات المجمع العلمى الفرنسى بمصر – بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء ببعض جهات فرنسا، وإنما يختلف عنها بأن حبوبه أغلظ من حبوب هذه وأكثر ضلوعا واحتواء على جزيئات الميكا. وألوانه المميزة له إما رمادية أو ضاربة للصفرة. والطبقات الجصية فى المحاجر الكبرى بجبل السلسلة عند الجهة الوسطى من سلسلة هذا الجبل الحجر الجصى فيها جيد الصنف، ويتألف من طبقات سميكة متراكبة بعضها على بعض. أما الجهة الشمالية من الجبل والجهات العليا منه فإن طبقات الجص فيها أقل سمكا من تلك وأضعف اتصالا بعضها ببعض. على أن تطابقها يمتاز بخصية = بخاصية = المؤازرة أو ما يقرب منها. والأحجار الجصية اختارها قدماء المصريين لإقامة مبانيهم العظيمة لسهولة استخراجها ولأن نقلها ميسور لا كلفة فيه لقرب المسافة بين مناجمها والنيل وهذا فضلا عن سرعة فعل أدوات النحت فيها. فهذه الأسباب هى التى جعلتهم يؤثرونها على ما عداها من الأحجار.

٥ـ الأحجار الكلسية

إن الجبال فيما يلى الأراضى الجصية شمالا وشمالا بشرق كلسية برمتها. وأهرام الجيزة وسقارة شيدت بالأنواع المختلفة من الأحجار المستخرجة منها.

٦ـ المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر

تتضمن الأودية والحلوق العرضية التى تقطع خطوط الجبال الحافة بمصر عند اتصالها بالوادى الأصلى أراضى تكونت فيها بتأثير التيارات. والباحث فى مادة الأراضى يجد أنها عبارة تارة عن مواد هشة لاتلاحم بينها وطورا عن طبقات من البودنج أو البساميت السريع التفتت. وبعض تلك الأراضى قاقى المادة والآخر مؤلف من مواد أجنبية ويوجد بينها حجر الليديين أى الحجر اليشى الذى منه الفاتنة المعروفة منذ قديم الزمان باسم البازانيت وأحجار البازلت الأخضر والأسود ذات الأهمية العظمى فى بناء الآثار العجيبة.

ولاتزال توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى. وعلى الخصوص فى الأراضى الرملية بودنجات يشبيه الشكل ونوع اليشب المعروف بالزلط المصرى. أما الأبرش الرملى الشبيه بالعقيق الذى يوجد بأسوان فهو من الأحجار الجديرة بالالتفات والعناية. فتمثال (ممنون) الذى بلغ من الشهرة قديما أبعد مبلغ انما نحتت أحجاره من هذا الأبرش الذى ترجع إلى تركيبه الخصية العجيبة التى امتاز بها وهى ترجيع الأنغام عند شروق الشمس[١].

٧ـ الأبرش المصرى الأخضر

هذا الأبرش أجمل الأحجار الموجودة على وجه الأرض، ويوجد بالوادى الذى بين الصعيد والبحر الأحمر، ويسمى باسم المدينة التى يفضى هذا الوادى إليها وهى القصير، وهو نوع من البودنج متكون من قطع مستديرة من الجرانيت والرخام وصخر أخضر اللون يشبه كثيرا التروسيلكس ويمتاز بصلابته وبهاء ألوانه المختلفة. ولم يكن الأبرش وافر المقادير فى القطر المصرى. بل يمكن القول بأنه أصبح الآن غير موجود بالمرة، وقد صنعت به فى إيطاليا جملة قطع فنية وهو معروف فيها عند الصناع الإيطاليين باسم: Beccia Verde d'Egitto وإنما نحت تابوت الإسكندرية الشهير فى قطعة من هذا الحجر الصخرى.

---

(١) إن الحادث الغريب الذى جعل لتمثال ممنون تلك الشهرة العظيمة فى الأعصر السابقة أيدته شهادات عديدة من اناس جديرين بالثقة والاحترام. فهى إذن مما لا يعروه الشك ولا تتناوله الريبة وقد حاول بعضهم تأويله على أوجه شتى اقربها إلى الاحتمال التأويل الذى قدمه المسيو دى روزبير فى مذكرته عن التكوين الطبيعى لمصر. وقد لاحظ فيه أن الجرانيت والأبرش غالبا ما يحدثان صوتا عند شروق الشمس. أما تمثال طيبة فقد قال المسيو روزبير إن أشعة الشمس كانت إذا أصابت هذا التمثال العظيم جففت الرطوبة الحادثة عن الندى المتساقط أثناء الليل على سطحه وبددت أيضا معها الرطوبات المتجمعة فى ثنايا ذلك السطح غير الصقيل فينجم عن استمرارهذا العمل أن حبات أو صحائف الأبرش السالف الذكر تتأثر بفعل الأشعة الشمسية فتنفجر فى الوقت.

٨ـ محاجر الرخــام

كان للرخام المصرى منذ قديم الزمان شهرة ذائعة فى الآفاق، وقد استخرجه الاقدمون من محجر واقع بين البحر الأحمر والنيل فى منطقة المنيا على مسافة أربعين فرسخا من النهر و١٥ فرسخا من البحر. وكانوا قد شادوا بالقرب منه مدينة سموها مدينة (البستروبوليس) أى مدينة الرخام وذاك المحجر هو الذى استخرج منه الرخام الذى صنعت به أجمل الآنية القديمة التى لاتزال نعجب بها حتى اليوم.

وهناك محجر آخر للرخام على مسيرة ثمانى ساعات من بنى سويف فى مصر الوسطى، وقد استكشف منذ سنوات وهو عظيم الاتساع، والرخام المستخرج منه من النوع الجيد وله على غيره ميزة جليلة وهو امكان نقل الكتل التى تقطع منه بأقل كلفة بالنظر إلى قربه. وقد بدأ الوالى باستخراج الرخام منه لينتفع به فى المسجد الذى يشتغل بتشييده بقلعة القاهرة.

وهذا الأثر الدينى الجليل قائم على أعمدة عديدة من الرخام كل عمود منها قطعة واحدة كما أن جدران المسجد مكسوة كلها بالواح من هذا الرخام النفيس.

٩ـ أحجار الزمـــرد

كان الأقدمون يعنون عناية تامة بالبحث عن الزمرد المصرى، ويطرون مزاياه ويفضلونه على الأحجار الكريمة، وإن لم يشغل قط المرتبة الأولى بينها. وهم إذا مالوا إليه فإنما هو لصفاء لونه. قال بليناس: «إن البصر إذا اعتراه التعب وجد الراحة بالنظر إلى الزمرد، ولا شىء غير هذا الحجر يريح العين بلطف لونه وصفاء مادته» فلا عجب إذا انصرف الأقدمون إلى التختم بالزمرد ليتمكنوا من النظر إليه كل حين إراحة لبصرهم وشرحا لصدورهم.

ومناجم الزمرد بضواحى مدينة (بيرينيس) وهى ثغر بحرى على شواطىء البحر الأحمر أسسه الملك (بطليموس فيلادلف) على نفس خط العرض الذى عليه مدينة أسوان. وتلك المناجم فى الجبل المعروف الآن باسم (زبارة) وقد عثر عليها حديثا الموسيو (كايو) وكان الزمرد معدن آخر على الضفة الغربية للنيل بالقرب من طهطا إحدى مدائن الصعيد.

١٠ـ الخشب المتحجر

فى الصحارى المجاورة لوادى النيل كثير من الأخشاب المتحجرة متفرقة هنا وهناك ، وهى تلفت النظر بما تحفظه من أشكالها وألوانها الأصلية. وعلى مسافة فرسخين ونصف خلف جبل المقطم واد رملى يحتوى ـ فى متسع من الأرض مساحته فرسخ مربع تقريبا ـ نباتات متحجرة أصلها غابة تحجرت فى هذا المكان ويؤخذ من شكلها أن الأشجار الغالبة فيها كانت النخل والجميز والغاب الهندى ومنها ما يبلغ الثمانين قدما طولا، وأنها احترقت فى الأزمان القديمة فتحولت إلى الحالة التى تشاهد الآن عليها.

ويحتوى وادى بحر بلا ماء أخشابا متحجرة أيضا، وكذا وادى التيه الذى يخترق الصحراء العربية من ضاحية القاهرة إلى سواحل البحر الأحمر على مسافة ٢٥ فرسخا فوق ثغر السويس.

١١ـ الحيوانات المتحجرة

تحتوى الأحجار الكلسية والجصية كافة تقريبا كميات عظيمة من الأصداف والأسماك الحفرية، وكثيرا ما تكون هذه الحفريات مندمجة بالبودنج. غير أن قلة تماسك الأسمنت الذى يضم عناصر هذه الأجزاء يعرضها أحيانا للانفصال والتبدد، وهذا هو علة وجود تلك الأصداف الحفرية مبعثرة عند سفوح الجبال وفى وادى القبور الواقع تجاه مدينة طيبة (الأقصر). وفى الصحراء المجاورة للأهرام أصداف كثيرة من هذا النوع يسميها الأهلون «قرون آمون».

وإذا حفرت الطبقات العميقة من أراضى القطر المصرى، ولاسيما فى الوجه البحرى ظهرت كتل كبيرة من الأصداف والحيوانات البحرية الحفرية. وظهورها البرهان الساطع على أن البحر كان إلى عهد غير بعيد يغمر تلك الجهات الواسعة من أراضى القطر المصرى. وفى وادى التيه أصداف تشبه قطع النقد وبعضها لايزيد حجمه على حجم العدسة.

١٢ـ الأحجار المختلفة

ومما يحتويه وادى التيه أيضا الحجر الصالح لطحن الحبوب (حجر الطاحون) وحجر اليهود الذى يشبه الزيتون شكلا وحجما. وفى جبل البرام الواقع شرقى أسوان باتجاه إلى الشمال منها نوع حجر تصنع منه الأوعية

التى يهيأ فيها الطعام وتعرف هناك بالبرام. وهذا هو السبب فى إطلاق اسمها على ذلك الجبل.

١٣ـ المعادن

أرض مصر لا معادن فيها .فإذا وجد فيها شيء منها فإنما هو آثار معادن لا تصلح ولاتفيد. وليس للحديد أثر بالمرة فيها، وغاية ما يعلم عن أمره أن النيل تحمل مياهه بعض ذرات منه، وأن بالقرب من أسوان نوع من الأحجار الجصية يدخل الحديد فى تركيبها. وقد عثر على النحاس فى جبل البرام استكشفه الموسيو (كايو) الذى استكشف أيضاً معدنا للرصاص بالقرب من منجم الزمرد فى جبل (زبارة).

١٤ـ الكبريت وزيت البترول والجبس

مفروض من باب الحدس والتخمين أن براكين منطفئة ومناجم للكبريت موجودة فى الجزء الواقع من سواحل البحر الأحمر تجاه أسوان، فقد عثر الموسيو كايو فعلا على معدن للكبريت قريب من الأماكن التى كان الزمرد يستخرج منها قديما فى الجبل المشهور باسم جبل الكبريت، وعلى سواحل البحر الأحمر عند الدرجة الثامنة والعشرين من العرض الشمالى جبل الزيت وبأسفله عين لزيت البترول. وفيما عدا هذا وذاك توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى مناجم للجبس عديدة وغنية بهذا الحجر، ولكن الجبس الذى يؤخذ منها من الصنف العادى الشديد الكثافة ولونه ضارب إلى الرمادى.

١٥ـ الفحم الحجرى

لو أن مناجم الفحم الحجرى موجودة فى مصر لعادت عليها بالفوائد الجليلة والمنافع الجمة بالنظر إلى قلة الاخشاب فيها، وليس ثم ما يدل على أن الأقدمين وقفوا على مناجم للفحم فى مصر واستخرجوه منها. وقد بذل علماء الحملة المصرية جهودا كثيرة لاستكشافها ، ولكنها ذهبت ضياعا كالجهود التى بذلت فى سبيل ما أمر به محمد على من البحث عن مناجم الفحم.

والذى يصح استنتاجه من الشكل الجيولوجى للأراضى فى القطر المصرى أن جميع الأبحاث التى ستعمل فى المستقبل لاستكشاف الفحم الحجرى لن تؤدى إلى نتيجة يحسن الوقوف عليها كالتى قام بها الباحثون المدققون حتى

الآن للوصول إلى هذا الغرض.

١٦ـ النطرون

سبق لنا الكلام على النطرون المستخرج من البحيرات الشهيرة «بحيرات النطرون». وكان الراسخ فى الأذهان إلى وقت وصول الحملة الفرنسية إلى مصر أن مناجم النطرون خاصة بهذه البحيرات لا تتعداها إلى غيرها. وهو وهم بيِّن الفساد فلقد استكشف النطرون فى جهات كثيرة من القطر المصرى منها الوادى الواقع فى الوجه القبلى على مسافة خمسة فراسخ من إسنا فإن النطرون يستخرج منه كما يستخرج من تلك البحيرات ومنها سواحل بحيرة (مريس) وبعض ضاحية الإسكندرية بالقرب من بحيرة مريوط وبرزخ السويس، وهذا فضلا عما تجلبه قوافل طرابلس الغرب ودارفور معها من تلك المادة.

١٧ـ النتر

تعتبر المواد الملحية التى تحتويها أراضى القطر المصرى بمقادير وافرة من الخواص البارزة التى تميز هذا القطر على غيره من الأقطار. ففى الحقيقة توجد مناجم عديدة للملح الحفرى. ومنها ما يوجد فى الأراضى الحجرية التى يتكون منها قاع بركة قارون. فإن سطح هذه الأراضى يحتوى مقدارا من العناصر الملحية عظيما إلى حد لا يندر معه مشاهدة الجدران بعد الأمطار وقد اكتست بالمواد النترية. إلا أن هذا لا يشاهد غالبا إلا فى الاطلال المتراكمة حول المدن حيث يوجد النتر بمقادير وافرة.

واستخراج النتر صناعة واسعة النطاق، ويكون على البارد بتأثير الشمس وحدها فى حين أن استخراجه فى أوربا يستدعى استخدام النار.

وطريقة استخراجه على ذلك الوجه يكون بإلقاء ما يجمع من أنقاض المبانى القديمة فى أحواض عريضة قليلة العمق فيتحلل النتر بواسطة الغسل بالماء. فإذا تمت هذه العملية سيق الماء إلى أحواض أخرى أقل عمقا من السابقة فيتباخر بتأثير حرارة الشمس فى درجة ٤٠ إلى ٥٠ ويبقى النتر متبلورا. وقد أنشئت بالقاهرة أحواض متسعة للنتر. وأنشأ لمحمد على فيما بعد السنيور (رافى) الكيمى = الكيمائى = الإيطالى هذه الطريقة فى سنة ١٨٢١ أحواضا مثلها فى الجيزة وسقارة ودندرة وكوم أمبو حيث تكثر أطلال المبانى وأنقاضها.

١٨ـ الشـــب

منذ قبض محمد على على زمام الديار المصرية استكشفت مناجم للشب بلغ هذا الحجر فيها كثرة تجاوزت حاجة الاستنفاد المحلى تجاوزا استدعى تصدير ما يفيض منه إلى الخارج.

١٩ ـ وليس فى مصر شىء من المعادن الأصلية. ذلك لأنها بلد زراعى قبل كل شىء، فإنه يبدو واضحا للناظر أن الطبيعة أرادت حرمانها مزاولة الصناعة لكى تنقطع إلى الزراعة فلم تجمع فيها الأسباب لمزاولة الصناعة كالفحم الحجرى والحديد والنحاس، وهى مقومات الآلات الصناعية ومدارها التى تدور عليه.

(٢)
النباتـــــات

مقدمة ــ عموميات ـ نباتات الصحراء ـ النباتات الصالحة للزراعة فى القطر المصرى ـ حدائق شبرى والروضة ـ حدائق الشرق ـ الغابات ـ تبليد نباتات أوروبا الجنوبية ـ النباتات الأجنبية التى ادخلت حديثا فى حدائق أصحاب الأشجار الأهلية ـ الأشجار الأجنبية ـ الأشجار الأهلية الفاكهة ـ الأشجار الفاكهية والنباتات التى أدخلت حديثا ــ النباتات الحبوبية والنجيلية ــ الحبوب غير النجيلية ـ الخضر والنباتات البقلية ـ النباتات الليفية النسيجية ــ نباتات الصباغة ـ النباتات ذات البذور الزيتية ـ النباتات الكلأية ـ النباتات الأخرى النافعة ـ أزهار الزينة ونباتاتها ـ المراعى فى الصحراء والواحات ـ النباتات الطبية.

٢٠ ـ مقدمــــة

لم يوف مؤلفو الأزمان القديمة والعصور الوسطى (١) الكلام على نباتات مصر. وأول من حصر نباتاتها وضبطها هو العلامة النباتى الشهير (دوليل) الذى كان مرافقا للحملة الفرنسية ، ولم يكن عمله الخطير جامعا لشتات النباتات المصرية ولا مستقصيا وصفها، ولكن لما تمكن محمد على من تقرير قواعد الأمن والنظام فى القطر المصرى والصحارى المجاورة له، وفيما بين

(١) فى الأزمان القديمة هيرودتس وسترابون وديودورس الصقلى وبليناس وفى القرون الوسطى بروسبيرالبان والعرب، وبعد ذلك ليبى وفورسكال وغيرهما.

مصبات النيل والنوبة العليا استطاع علماء المواليد الثلاثة الجوس خلال هذه الأرجاء بلا خوف على حياتهم لإتمام العمل الذى بدأ به العلامة (دوليل). وهم إذا عجزوا عن حصر النباتات كلها واستقصائها بأبحاثهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم مغبة الإيغال فى الصحراء فجاء عملهم لهذا السبب ناقصا مبتورا.

ولما أنشئت مدرسة الطب فى أبى زعبل عهد تعليم علم النبات إلى أحد تلاميذ الأستاذ العلامة السنيور (فيفانى) الجنوى، ألا وهو السنيور (فيجارى) الذى كان فوق إحاطته بأطراف العلوم يميل كل الميل إلى علم النباتات أحد فروع علم المواليد الثلاثة، ولهذا نراه منذ اثنى عشر عاما دائبا مواصلة الجد فى البحث والتحقيق والاستقصاء فى أرجاء مصر المختلفة. وقد وصفت وصفا مستفاضا فى كتاب العلامة فيفانى. كما استكشف ما لا عداد له من النباتات الذائعة فى الأقاليم المختلفة. وقد قام العلامة فيجارى بأبحاث مهمة وتجارب خطيرة فى الزراعة ، وإليه معظم الفضل فيما التقطناه من المعلومات التى زينا بها حواشى هذا الفصل الموجز. على أننا لم نكتف بهذا الإيجاز. بل توسعنا فى جملة من موضوعاته فى الفصل المعقود خصيصا للزراعة المصرية.

٢١ ـ عموميات

النباتات الخاصة بأرض مصر محصورة العدد، فنباتات جهات الأهرام مثلا تتفق مع نباتات الأطلانطيق = الأطلنطى = التى ذكرها فيفيانى. أما نباتات الجهات المقابلة لتلك أى جهات شرق وادى النيل فتتفق مع نباتات بلاد العرب التى ذكرها العلامة (فورسكال) وأصلها من الصحراء. ثم اختلطت بنباتات الجهات المجاورة لضفة النيل.

وإذا اتجهنا نحو الشمال الغربى فى جزء الصحراء الممتد على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط فإنا لانلبث أن نجد فيها النباتات الخاصة بحوض هذا البحر.

وإذا واصلنا السير فى الصحراء إلى الحدود المتاخمة لبلاد الشام فإننا نجد فيها النباتات الخاصة بمنطقة فلسطين، وقد اجتازت تلك الحدود لتدخل مصر وتستقر فيها.

ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الموضوع أن النباتات الشائعة فى ضواحى غزة والعريش وبلبيس هى عين النباتات التى وصفها العلامة (أوليفييه) ضمن النباتات السورية الأصل. ومفهوم أننا فيما سبق من القول نقصد النباتات الحشيشية السنوية ونصف السنوية لاغيرها.

وإذا اتجهنا فى وادى النيل جنوبا حتى نبلغ إلى الدرجة السادسة والعشرين من العرض الشمالى فإننا نرى النباتات وقد اتخذت شكلا خاصا غير شكلها فى الجهات الأخرى، لأن أصلها من النباتات النوبية الطارئة على القطر المصرى.

٢٢ـ نباتات الصحــــراء

أنواع النباتات الخاصة بمصر توجد منعزلة بالصحارى القاحلة وقليل منها يوجد فى الأودية التى تتخلل سلسلة جبال المقطم وأنواعها الخاصة المجاورة لضفاف النيل والترع والبحيرات والمستنقعات بالوجه القبلى قليلة محصورة العدد أيضاً.

وليس لنباتات الحقول من الوجهة العلمية شأن خاص يستدعى الاهتمام بها لأننا إذا ضاهيناها بمقابلها من نباتات أوربا ألفينا الأنواع التى تتألف منها قليلة بخلاف نباتات الصحراء والأودية المتغلغلة فى سلاسل جبال العرب وليبية. فإنها حرية = جديرة = بعناية علماء النبات وتوفرهم على البحث فيها. على أن فيها من الخصائص ما يجعلها بنباتات جبال الألب أشبه منها بالنباتات المصرية البحتة.

والأنواع النابتة فى الرمال تكاد تكون كلها سنوية أو نصف سنوية. أما التى تبقى قائمة على سوقها أكثر من هاتين المدتين فنادرة جدا، ويذكرون من هذا النوع صنفين من السنط الشوكى.

ونباتات الصحراء ترى فى الأصقاع المنعزلة المنخفضة أرضها انخفاضا محسوسا عن الأرضين = الأراضى = المحيطة بها الشبيهة بأودية أهليلجية الشكل أبعادها طولا وقصرا أو تتجه بوجه عام من الشرق إلى الغرب مع ارتفاع الأرض الحافة بها من الشمال والجنوب.

وتبدو الصحراء لعين العالم النباتى كبسيط أرض انتثرت فى أرجائه جزر

صغيرة غير متناسقة تحتوى مختلف النباتات وتلك الجزر الخصيبة المجللة بالأعشاب الخضراء مراتع الغزلان التى ترتاد المراعى لغذائها.

والنباتات العطرية منتشرة فى الصحراء، ومنها ما هو من صغر الحجم وكدرة اللون بحيث يتعذر على حديد = قوى = البصر تمييزه بعضه عن بعض. على أن فى منظر بعض نباتات الصحراء ما يسبب الاغترار والخطأ فمن ذلك أن السائر فيها كثيرا ما يخيل له من بعيد أنه يرى شجرة باسقة فإذا ما يراه فتاة قد بدت لناظره فى شكل الشجرة. وكثيرا ما يتفق له بسبب السراب أن يرى قمم الأشجار تعلو فوق سطح الماء والحقيقة أن شيئا من ذلك غير كائن ولا بصحيح وإنما هو السراب المغرر الخادع.

والماء باختراقه وجه الأرض فى الشتاء حيث يندر هطول الأمطار يرسم فيها خطوطا كما يفعل الحراث، وتكون فيه ذرات قليلة من الطين وأوكسيد الحديد وبذور مختلفة. فإذا اجتمعت هذه المواد المختلفة فى الجزر الأرضية الصغيرة التى تكون فى العادة أوطأ مما حولها من الأرض وجاء ت الرياح حاملة إليها من الجهات القصية بذورا أخرى فإن هذه البذور وتلك لا تلبث متى حان ميعاد الإنبات فى فبراير غالبا أن تنبت وتنبثق أوراقها وتزهر فى مارس أو أبريل. وفى شهر مايو يقف نمو النبات ، وفى يونيو وبقية الصيف لا تقع العين إلا على سهول قاحلة جرداء.

ولون نباتات الصحراء أخضر ضارب إلى البياض عادة وأنسجته جافة لايجرى فيها من العصارة النباتية إلا النزر اليسير وهى جميعا على وجه التقريب من النبات ذات الفلقتين الوبرية الخشنة الملمس وترتفع على سطح الأرض قليلا ولها جذور عميقة خيطية الشكل تمتد بعيدا فى باطن الأرض.

وأكثر الشجيرات شيوعا فى الصحراء على الحالة الطبيعية شجيرة السيال المعروفة عند العرب بالسيالة، وسماها العلامة دوليل (أكاسياسيال). وهى قليلة الارتفاع تكاد تكون عديمة الورق ذات شوك طويل يشبه فى لونه بياض الفضية[١] أما فروعها فمغطاة ببشرة ـ أى غلاف خشن يشبه ملمسه ملمس قروش السمك، ولونها أحمر غامق، ونادراً ما تزهر وتكون تلك الشجيرة

(١) جاء فى القاموس المحيط للفيروزبادى فى مادة «سال» السيالة كسحابة نبات له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن.

محاطة عادة برمل رفيع جدا يجتمع عند أصلها ثم يرتفع شيئا فشيئا إلى نصف ساقها. ويتفق أحيانا أن يغطيها الرمل فتكون الآكام الصغيرة التى تنشأ منه أصلا للكثبان الرملية الكبيرة.

ونادرا ما يشاهد النخل فى الحالة البرية. عل أنه يصادف أحيانا كذلك فى الصحراء وفى أودية المقطم. وعندئذ يكون قصيرا تحيط به أصول السعف المقطوع أو الذابل منثنية أو متدلية وقد حف بها الشوك، ويرى فى قمتها السعف الأخضر منبثقا باهت اللون خشن الملمس. وهذا الصنف من النخل لا يأتى بزهر أبدا وإذا أزهر بفلتة من فلتات الطبيعة فإن ثمره يكون رديئا، وقد اعتاد الغربان وحشرة شبيهة بالجعل إتخاذ سعف هذا النخل أو كارا لها.

٢٣ـ الأرض الصالحــة للزراعــة فى القطــر المصــرى

اشتهرت مصر فى كل زمان بفرط خصبها وجودة حاصلاتها ووفرة غلاتها. وهذه المزايا ترجع بلا ريب إلى ثلاثة عوامل: الأرض والطقس ومثابرة الفلاح على العمل.

ومن العبث التحدث بنعم أرض مصر وخيراتها العميمة، والقول بأن الفضل فيها يرجع إلى النيل وفيضان مائه. فلقد سبق لى من الكلام فى هذا الموضوع ما يجعلنى فى غنى عن تكراره، وغاية ما يصح لى الإفاضة فى موضوعه الطمى. فإن الطمى لا يكفى وحده لتكوين التربة الصالحة للإنبات إلا إذا مزج بالرمل بواسطة الحرث.

أما الأراضى الكثيرة الرمل فلا تناسب من النبات إلا الخفيف الجذور رفيعها الذى يستطيع النفوذ بلا جهد فى هذا النوع من الأرض. أما الأرض الطينية الطميية التى تتألف منها الأرض القابلة للزراعة فى القطر المصرى فمختلطة فى كل مكان بالمواد الملحية التى تعاون على نمو النباتات الكبيرة.

وطقس مصر يساعد بحرارته فعل مياه النيل وتأثيرها المخصب. فليس بغريب إذن أن نرى الحقول الفسيحة وقد أزينت بالأزهار. ويتم العمل فى الحقول الزراعية بقصارى ما يتصور من السهولة فى أقصر وقت وبأقل ما يمكن من الأيدى العاملة.

وإذا كانت عوامل الطبيعة ومؤثراتها قد جاء ت منقادة إلى ملاك الأطيان فى

مصر لتكون تحت تصرفهم فى خدمة أراضيهم فهم وحدهم المسئولون عن مقدار ما تنتجه هذه الأراضى من الثمار والمنافع قلة وكثرة. ومما لا شك فيه أنهم إذا استحكم فيهم الجهل أو استناموا إلى الدعة والكسل فلم يهبوا من رقادهم ليعملوا على تنمية موارد رزقهم ولم يستخدموا تلك الهبات الطبيعية للبلوغ إلى ذلك الغرض فإنهم يفوتون على نفوسهم المال الكثير والخير الوفير.

أما إذا كانوا على إرث من الذكاء والاجتهاد فإنهم ينتفعون به فى مرافقهم ويرفعون شأنهم بإنماء ثروتهم، وهو ما نشاهده منهم اليوم والحمد لله.

وفى الواقع فإن مصر إذا شوهدت الآن وقد بسقت فيها الأشجار فى كل مكان، وبدا من منظرها بضواحى القاهرة والوجه البحرى ما يشبه الغابات فإنما يرجع هذا الفضل إلى ذلك الرجل العبقرى الواضع يده على زمام أمورها والآخذ بها إلى أسمى المنازل ومعالى الرتب. فلقد غرس هذا الوالى حفظه الله فى سنوات قليلة بالوجه البحرى وحده ستة عشر مليونا من الأشجار وأنفق إبراهيم باشا الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء وادى النيل. فبعنايته المتواصلة ورعايته العالية غرست خمسة ملايين وألف وخمسمائة وأربعة وثلاثون شجرة من خمسة وعشرين نوعا من أنواع أشجار الغابات وخمسمائة واثنان وثمانون ألفا ومائتان وخمس عشرة شجرة من واحد وأربعين نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى سبعمائة وأربعة وثلاثين صنفا مختلفا. وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل بضع سنوات لا يتجاوز اثنى عشر نوعا . كما كان لايوجد بها من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ثمانية عشر نوعا، وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفرقة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقى.

٢٤ـ حدائق شبرى = شبرا = والروضة

مما يساعد على تقدم زراعة النباتات والأزهار قيام الوالى وابنه الكريم إبراهيم بإنشاء الحدائق الفخمة فى بعض جهات القطر. وأهم هذه الحدائق انفساح مدى وحسن تنسيق حديقتى شبرى والروضة. والأولى منهما بقرب النيل على مسافة فرسخ واحد تقريبا من القاهرة شمالا، ويوصل إليها منها طريق واسع مستقيم مظلل بالأشجار الحافة بعطفيه. وتحتوى هذه الحديقة دارا

خلوية أنشأها الوالى على نمط المبانى البيزنطية (الإسلامبولية) وجمع بداخلها من الرياش الجميل والأثاث الثمين مايلفت النظر بحسنه تنسيقا فى الوضع وسلامة ذوق فى الاختيار.

وبطرف الحديقة المقابل لهذا القصر الجميل الجليل أنشأ محمد كشكا ظريفا وهو عبارة عن بناية مربعة ذرع = طول = محيطها ألف قدم، وأقام فيها الأعمدة من الرخام والمرمر الشرقى وجعل بداخلها نافورة جميلة من رخام إيطاليا (كرارى) ينبثق منها الماء المستمد من النيل بواسطة إحدى السواقى فيظل المقيم بجوارها يستشعر بطراوة طويلة يسكن إليها. ويضاء القصر والكشك أثناء الليل بجهاز من الغاز الأيدروجينى يقوم على إدارته وتعهده آلى = عامل = ماهر من الإنجليز.

والطباق متوافر بين جبال الحديقة وجلال المبانى الضخمة التى تحتويها، ففى الحديقة ما لا يعد ولا يحصى من صنوف أشجار الفاكهة الغضة والأشجار المجلوبة من الخارج، وهى ثمينة القيمة بندرتها وعدم وجود ما يضارعها والنباتات العطرية التى يتألف من مجموعها على اختلاف أشكالها وألوانها مايجذب النظر أمثالها بالحدائق الأوربية ويسهل المواصلات بين أطرافها المتنائية.

أما جزيرة الروضة التى ضربت بخصبها الأمثال من قديم الزمان فيرجع فضل تنظيمها وتنسيقها إلى حضرة إبراهيم باشا . فإن هذا الأمير الجليل ما كاد يضع يده على أرضها بالشراء من أربابها حتى جعلها قسمين كل قسم منهما حديقة قائمة بذاتها ، فالحديقة الأولى نسقت بحسب الأسلوب الإنجليزى والأخرى بمقتضى الطريقة الفرنسية ووكل أمر الحديقتين إلى إثنين من مهرة البستانيين وهما تجمعان الآن أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية.

٢٥ـ حدائق الشرق

إن شهرة الحدائق الشرقية غنية عن البيان. وقد أذاعت مفاخرها بيننا قصص ألف ليلة وليلة فإذا تخيلناها على ما وصفت به فى هذه القصص خيل لنا أننا نستنشق رياها = ريحها = العطر. والسبب فى أن العرب خصوا الحدائق بعنايتهم الفائقة راجع إلى كونهم سكان قفار قاحلة تتسلط عليها حرارة الشمس المدارية فلا جرم إذا رأوا فى انبثاق النبت وتكاثف الخضرة

معجزة من المعجزات فحصوها = فعدوها = فى انبثاق النبت وتكاثف الخضرة معجزة من المعجزات فخصوها بالإطناب فيها بشعرهم والإشادة بما تمده من الظلال الوارفة، ويجرى فيها من الماء السلسبيل المنعش بطراوته، بل لاعجب إذا رأوا فيها النعمة السابغة حفهم الله بها من فضله والنعيم الذى لا يدانيه نعيم فى الوجود، بل لا غرابة إذا وضعوا الجنة فى وسط ما طمحت إليه آمالهم واشرأبت إليه أعناقهم من غضارة العيش والسعادة فى ذلك النعيم المقيم.

وليس فى حدائق الشرق ما يجعلها شبيهة بالحدائق فى البلاد الأوربية. إذ إنها خالية من أثر التجانس والتناظر المبنيين على دقائق العلم والفنون الهندسية. ولا شىء يذكر الجالس خلالها بما ازينت به حدائقنا من الأزهار التى نسقت أوضاعها على أحسن مثال، ولا بما امتازت به الحدائق الإنجليزية من لطف التركيب فى الجمع بين أقسامها المنسقة وأنواع نباتاتها المرتبة. إذ غاية ما يشاهد فى تلك الحدائق إنما هو أشجار الفاكهة مزاوجة لأشجار الزينة ومجاورة لها بلا نظام معروف ولا نسق مألوفا فترى أغصان هذه ملتفة بأغصان تلك لم يشذبها مشذب التقليم، ولم تباشرها يد التنميق والتنظيم. وكثيرا ما يحدث لهذا السبب أن تتداخل الأغصان فى الأغصان. وتتشابك الأشجار بالأشجار فتتدلى أغصانها الملتفة إلى الأرض لثقلها فلا يستطيع أحد أن يمر من تحتها إلا إذا أحنى جسمه أو حبا على الأرض حبوا. بل يخيل له أن هذه الأوكار النباتية الطرينة التى يكاد يكون السلوك فيها متعذرا انما جعلت للعزلة وتبادل الأسرار الغرامية.

وفى حدائق مصر ترى أشجار الليمون والبرتقال والتين والجميز والنخل وغيرها متزاحمة متلاحمة، وأزهارها تفرش الأرض ببساط تتضوع منه الروائح العطرية والمياه المتشبعة خلالها منبثقة فى النافورات ومتدفقة الأحواض ثم منسابة بأطراف الحديقة فى جداول تتلوى تلوى الأفعوان فتروى أصول الأشجار، والكشوك = الأكشاك = الجميلة بين هذه الأشجار الباسقة تمتد فوق قبابها أغصان النباتات الغضة مرصعة بالأزهار الزاهية الألوان.

ويميل الأتراك جميعا - ماداموا على شىء من الثروة - إلى إنشاء الحدائق على هذا المثال. وتكون حدائقهم أحيانا بداخل المدن، وفى وسطها الدور لسكنى نسائهم ، ولكنها تنشأ غالبا فى الضواحى والأرياف. وأجمل الحدائق الريفية فى القطر المصرى ما كان منها بالدلتا، ولاسيما بالفيوم.

٢٦ـ الغابات

زعموا أن مصر كانت تحتوى قديما غابات كثيرة. ولو قيل لنا أن هذه الغابات كانت فى الأرض القابلة للزراعة من الخصوبة بحيث لا يفكر أصحابها فى أن يجعلوها كلها أو بعضها - فى حال ما - غابات لايستفيدون من وراء تعهدها إلا الحطب الجاف. ولكن بعض المؤلفين يذهبون إلى أن الجبال الحافة بوادى النيل يمنة ويسرة كانت فيما سلف مجللة = مغطاة = بالأشجار. وهذا الزعم كسلفه فى الخطأ والفساد لأن مجرد نظرة إلى تلك الجبال تكفى للإقناع بأنها لم تكتس فى يوم ما بما لا ينبت عادة إلا فى الأراضى الزراعية، وأنها جبال جرداء لا يستطيع النظر أن يلتقى بقشة واحدة على سطحها القاحل.

فلو فرض وجود تربة فيها كتربة الأرض الخصيبة فإنه ينبغى أن تظل آثارها باقية حتى الآن، إذ لايمكن التسليم بإمكان تجريد الجبال منها. يضاف إلى ما سبق أن هذه الجبال لاتنزل عليها الأمطار ليقال إن مياهها جرفتها وذهبت بها. على أنه بافتراض أنها كانت مغرسا لأشجار الغابات فإن الأمطار التى تهطل عليها لاتكفى لريها وإنباتها فضلا عن أنه كان من الواجب أن يبقى منها بعد اندثارها آثار ماثلة حتى الآن. والمعلوم أن الآثار الغابية التى بقيت على مر الأجيال إنما هى آثار شجر الجميز وأشجار أخرى من التى لا طاقة لها على النمو والبقاء إلا فى الأراضى العميقة التى يوافيها ماء الرى كل حين.

ليس فى القطر المصرى من الغابات الطبيعية سوى ما يتألف من أشجار النخل. والغابات من هذا القبيل كثيرة العدد فى القسم الشرقى من الوجه البحرى - أى فى مديرية الشرقية ثم فى الطريق الموصل من العريش إلى الصالحية من جهة وإلى بلبيس من جهة أخرى. وفى ضواحى القاهرة غابات نخل كثيرة بعضها بالجيزة فى مواقع مدينة (منفيس) القديمة بالقرب من بلدة (أم خنان) وهناك غابات نخل أخرى فى (بركة الحج) بالقرب من (الخانقاه) حيث هزم الصدر الأعظم بانتصار الجنرال كليبر عليه الانتصار المبين فى الواقعة المعروفة بواقعة عين شمس.

٢٧ـ تبليد نباتات أوربا الجنوبية

إن طقس مصر وطبيعة أرضها يتفقان تمام الاتفاق مع تبليد النباتات الجنوبية فى نصفى الكرة الأرضية وتجنيسها بما تقتضيه الطبيعة فى مصر

فمن المستطاع والحالة هذه ـ باتخاذ مصر نقطة وسطى بين هذين الطرفين ـ الوصول إلى تبليد النباتات الهندية فى البلاد الأوربية.

ومن طبيعة النباتات في مصر سرعة النمو، وهو ما يشاهد بنوع خاص فى نباتات أوربا الجنوبية . فلا غرابة إذا عاشت هذه النباتات فى الديار المصرية أقل مما تعيش فى بلادها الأصلية، وهى تأتى بثمار وفيرة ولكن صغيرة الحجم غير لذيذة الطعم. نعم قد تمكن العارفون من تحسين نوعها بعملية التطعيم، ولكن ينتهى الأمر بها دواما إلى التغير والفساد بعد سنوات قليلة.

ومثل هذا يقال عن النباتات البقلية التى أدخلت على الزراعة المصرية. فإن البذور التى تؤخذ منها تكون رديئة بوجه عام.

ومن هذا القبيل أن البطاطس الأوربى إذا زرع فى أرض مصر أتى بمحصول وفير جدا . ولكنه إذا زرع فى السنة التالية من بطاطس هذا المحصول فإن محصوله يكون أقل من هذا كمية وأردأ صنفا . وكذا بذور البنجر الأوربى تعطى فى السنة الأولى محصولا عجيبا . حتى أن البنجرة الواحدة كثيرا ما يبلغ وزنها كيلو جراما وتكون كثيرة المادة السكرية، ولكنها إذا زرعت فى السنة التالية من بذور المحصول الأول أعطت نباتا كثير الورق ولكنه عديم البذور تقريبا وقليل السكر.

ومن المحتمل أنه بمضى الزمن يمكن الوصول إلى أحسن من هذه النتائج باستئناف التجارب وتدوين الملحوظات وتطبيق ما تهدى إليه من وسائل العناية والتعهد.

٢٨ ـ النباتات الأجنبية التى أدخلت فى حدائق أصحاب السمو

من هذه النباتات شجرة (القاقللى) الهندية وهى منتشرة حسنة النمو

وشجرة (ترميناليا) الهندية، ويزرع منها الآن صنفان كبيران.

وشجرة (سرسيس سليكستروم).

وشجرة (الميس) البروفنسية.

وشجرة (التنكا) الهندية.

وشجرة (الصندل) الأبيض.

وشجرة (الاثل).

وشجرة (البن).

ولم تتبلد هذه الشجرة الأخيرة إلا بعد صعوبات جمة. على أن منها الآن بضع شجيرات نمت نموا حسنا . بعضها فى الحدائق الخاصة بابراهيم باشا وقد بلغت من النمو فى الأرض الطلقة من إثنى عشر إلى خمسة عشر قدما، وهى تثمر مقدارا عظيما من حبوب البن. والمرجح أن نجاح زراعته يكون أضمن فى الوجه القبلى منه فى الوجه البحرى لأن هذه الجهة تشبه بموقعها من خطوط العرض وبطبيعة أرضها طبيعة أرض بلاد اليمن.

وشجرة الغاب الهندى، وقد تحسنت بالتبليد تحسنا صارت به على شىء كثير من الحسن، وقد انتشرت فى كل مكان ولاتزال آخذة فى الانتشار.

ثم الشجيرات من الفصيلة الجبهانية.

والفصيلة الآسية ومنها أصناف نادرة المثال.

والفصيلة الغارية، ومنها شجرتا القرفة والكافور وغيرهما .

وفصيلة خانق الكلاب، ومنها الجوز المقىء وأصناف أخرى غيره.

والفصيلة الزاروندية، ومنها شجرة الفانيلا التى تنجح نجاحا تاما كنبات طفيلى ينمو على أشجار التوت الكبيرة.

والفصيلة الشنينية (ومنها نبات تلومبيوم سبيسيوزوم) الذى يزين أحواض الماء هو والبشنين المصرى.

وشجرة (طاليا ديالباتا) وتوجد بين هذين النباتين المائيين.

وقد بعث الاستاذ العلامة (دوليل) هذا النبات الأخير مع نباتات أخرى من حديقة نباتات مونبلييه.

وشجرة (فيلولاكاديوئيكا) وتنمو نموا عظيما ويعظم حجمها وشجرة (كونفولفولوس بتاتا) ومنه بطاطة اليمن التى تنجح زراعتها فى مصر نجاحا باهرا ، وستكون فى عداد بقولها المهمة.

وشجرة (كوبر ستوس سميرفيرنس، لينيه) المعروفة عند العرب بالسرو.

وهى فى مصر كثيرة، وتزرع على حافات المسالك وأعطاف الطرق، وتنمو

بسرعة بالغة . حتى أن ارتفاعها ليبلغ من ست أقدام إلى سبع فى السنة الثانية لغرس بذورها، والشرقيون لا يتخذون هذا الشجر كما يتخذه أهل أوربا رمزا للحزن وزينة خاصة بالمقابر.

وشجرة (بينوس هابنسيس، ميلر) المعروفة عند العرب بالصنوبر والتنوب.

والمهمة مبذولة لتكثيره.

وشجرة (موروس ألبا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت البلدى.

وشجرة (موروس نيجرا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت الشامى.

وقد غرست فى هذه الأيام ثلاثة ملايين شجيرة بالوجه البحرى على مسطح من الأرض مساحته عشرة آلاف فدان. وأشجار التوت تورق فى شهر يناير ويبلغ ورقها حد النمو فى منتصف فبراير والطقس فى مصر موافق لها كل الموافقة . لأنه لا يمضى على غرسها زمن طويل حتى تنمو نموا حسنا.

أما التوت الأسود - أى التوت الشامى فإنه يجنى منها ويباع بالطرقات ويحب الأهلون أكله.

وشجرة (أوليا أوربيا، لينيه) المعروفة بشجرة الزيتون.

والظاهر أن هذه الشجرة وجدت فى مصر منذ الأعصر القديمة، ولايزال إقليم الفيوم المعروف بخصبه يحتوى القدر الوفير منها وقد بلغ بعض هذه الأشجار من النمو مبلغا يخيل للرائى معه أنها غرست قبل الفتح الإسلامى لأن الاعتقاد سائد بأن شجر الزيتون لم تهيأ له المزارع منذ ذلك الوقت حتى الآن.

٢٩ - ومع أن أرض مصر تلائم زراعة شجر الزيتون ملاء مة عجيبة، إذ إنه لا ينقضى على غرسها ثلاث سنوات حتى تأتى بثمارها الوفيرة، فإن هذه الشجرة الثمينة أهملها العرب وطرحوها فى زوايا النسيان. ولم يتعذر على محمد على إدراك ما ينجم من المزايا الجليلة عن زراعة الزيتون فى مصر خصوصا وأن هذه الزراعة تكفيها مؤونة جلب الزيت من الخارج كما تفعل حتى الآن، وتؤدى إلى الشعب المصرى غذاء جديدا فوق ما اعتادوه من الأغذية فتراه لهذه الأسباب باذلا الجهود العظيمة لإعداد مزارع الزيتون وتنمية أشجاره فيها. ولابراهيم باشا فى حدائقه الكثيرة نحو مائة ألف عود من الزيتون. وزيتون مصر مشهور بكبر الحجم وكثرة اللحم.

وشجرة (سلكس سبسراتا، ولدنوف) المعروفة بشجرة الصفصاف.

وشجرة (سلكس بابيلاتيكا، لينيه) وهى نوع آخر من الصفصاف.

وهذان النوعان كثيرا الانتشار، ومنهما تتخذ الحكومة الفحم الذى تستعمله فى صناعة البارود.

وشجـرة (أولموس كميستـريـس) المعـروفـة عنـد العـرب بشجـرة الـدردار أو الغرغاج.

وشجرة (ميرتوس كومونيس) المعروف بالمرسين.

وهى تزرع بالحدائق وتباع أغصانها لليهود لمصلحة لهم فيها أيام أعيادهم.

وشجـرة (تمركـس جليكـا ـ تمركـس أوريننـاليـس، لينيـه) المعـروف بـالأثلـة والطرفة.

وتزرع هذه الشجـرة خصيصا لأجل ظلها. وتـوجد عادة حول السـواقى ومن خشبها يتخـذ الفحم ، ومـن نتوءاتهـا تستخرج الصبغـة السوداء وتستعمـل هذه النتوءات أيضًا فى دبغ الجلود.

٣٠ـ الأشجار الأجنبية

تحتوى الحدائق، ولاسيما حدائق حضرة إبراهيم باشا فى جزيرة الروضة:

شجرة جرافة البراغيث (بتولا ألبا، لينيه).

وشجرة الميس البروفنسى (سلتيس أستراليس، لينيه)

وشجرة اللوز أو البدام (ترمينااليا كتابا، لينيه).

وشجرة الأرخوان، أو شجرة يهوذا (سروى سيليجستروم، لينيه).

وشجرة جوزة الزنج (ستركوليا بلاتانيفوليا).

وشجرة اسفندان الجميز (آسر بسودو بلاتانوس، لينيه).

وشجرة اسفندان الدلب أو الساج أو الجنار (آسر بلاتانوئيد، لينيه).

وشجرة اسفندان الغيطان أو الجرستق (آسر كمبسترا، لينيه).

وشجرة الاسفندان ذات ورق لسان العصفور (آسر نيجوندو، لينيه).

وشجرة فيلاريا ذات الأوراق العريضة (فيلاريا لاتيفوليا، لينيه).

ومن الأشجار التى فى حدائق الوجه البحرى:

شجرة الدلب الشرقى (بلاتانوس أورينتاليس، لينيه) وهى كثيرة الانتشار.

وشجرة لسان العصفور (فراكسينوس أورموس، لينيه).

وشجرة المران (فراكسينوس اكسلسيور، لينيه).

وشجرة (روبينيا بسودو اكاسيا، لينيه).

وشجرة الفول الأمريكانية (جليد ستشياثيا كنتوس، لينيه).

وهناك أصناف اخرى مختلفة أدخلت حديثا ، ومنها تتخذ الزرابى المحيطة بالحظائر.

وشجرة الحور أطلق عليها العلامة لينيه اسم (بوبوليس ثريمولا).

وأنواع مختلفة من شجرة السرو وهى: (دستيكا، بندولا، أوريزونتالس) وهى عديدة.

وشجرة الصنوبر الغابى (ثويا أورينتالس، لينيه) وهذان النوعان منتشران انتشاراً عظيما فى الحدائق.

وشجرة القرو (كركوس) وهى نادرة الوجود.

وهذه الأشجار كلها زراعتها ناجحة ، وتنقل من الحدائق إلى المزارع الواسعة.

ولوحظ أن النباتات الليفية تتبلد بسهولة متى أعتنى بها فى أول الأمر. ووجه العناية بها أن توضع فى أمكنة ملائمة لها ومظللة . على أن تكون الأرض خفيفة رطبة وافرة مواد النماء. فإنه بمراعاة هذه الشروط تنبت البذور وتنمو النباتات ويتيسر بعد مضى ثلاث سنوات وضعها فى الحدائق فتنمو نموا سريعا مطرداً.

ومما يستدعى الدهشة أن الزيزفون وشجر الغاز الكرازى لايوجدان حتى الآن فى مصر، وأن شجرة الشاهبلوط الهندية لا أثر لها فيها بالمرة.

وشجرة البان (مورنجا أولئيفيرا، لينيه) وهى شائعة فى النوبة واليمن وثمرها محمود، وهو على شكل الجوز، لما توافر فيه من الخواص الطبية.

وقد أدخلها إبراهيم باشا منذ نحو خمسة عشر عاما، ومنذ هذا الحين

انتشرت انتشارا عظيما.

٣١ ـ أشجار الفواكه الأهلية

شجرة اللوز (اميجدالوس كومونيس).

الصنفان اللذان يثمران اللوز الحلو واللوز المر يزرعان بمصر، ولكنهما قليلا الانتشار وثمارهما متوسطة النوع.

وشجرة الموز (موزا براد يزياكا).

لا توجد إلا فى الوجه البحرى ومصر الوسطى على أنها لا تستنبت إلا فى الحدائق، وإذا زرعت فى الأرض البراح= الجالية = تعرض جذعها الحامل لأوراقها الكبيرة لصدمات الرياح. والتين الموزى بعيد النوع . إلا أن ثمره لايزال نادرا. وبالتالى مرغوبا به ولذا لا يرى إلا فى موائد الاغنياء.

شجرة البلح أو النخلة (فينكس دكتيليفيرا).

يطلق المصريون على أنثى هذا الشجر «النخلة» وعلى الذكر «الذكر» والنخل منتشر فى جميع أصقاع مصر العليا ومصر الوسطى. وينمو فى الواحات وحدود الصحراء، وقد وجد بمصر فى كل زمان بدليل أن تيجان الأعمدة فى الآثار القديمة محلاة برسوم تمثل سعفه منضما. وهو ينمو بغير تعهد ولا أقل عناية ولا تدبير زراعى سابق غير أنه إذا أريد الحصول منه على الثمار الجيدة الوفيرة فلابد من إرواء أرضه والعناية بتقليمه فى كل عام، وتجتمع أشجار النخل فى الغالب على شكل غابات عظيمة تعد فيها بمئات الألوف. ومنظرها يؤثر فى النفس لما فيه من الهيبة والجلال وإذا جاس الإنسان خلالها خيل له أنه سائر تحت قباب هيكل عظيم مهيب. بل إذا نظر تلك الجذوع العارية السامية إلى ارتفاع ستين أو ثمانين قدما ظن أنه يرى تلك الأعمدة الرشيقة التى أذاعتها هندسة القرون الوسطى فى مبانيها المنظمة وآثارها المتحدة . إذ تجد مجموعات الأوراق العريضة السميكة المتوجة للأعمدة متزاوجة متعانقة. فيتكون منها ما يشبه تقوس القباب وتوافرت به وجوه الشبه على النمط السالف.

ولأشجار النخل أربعة وثمانون صنفا يميزها بعضها عن بعض اللون والشكل والحجم والنوع. ومن حيث اللون يمكن تقسيم تلك الأشجار إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول النخل الذى يثمر البلح الأحمر، والثانى النخل ذو البلح

الأصفر والثالث النخل ذو البلح الضارب إلى البياض.

وإذا كانت النخلة منعزلة لايجاورها نخل آخر بدت للرائي رشيقة الشكل، وانه لما يروق للعين أن ترى وسط السيف = الزعف = المتفرع من رأسها أعذاقا جسيمة من البلح معلقة بأسفل تلك الأوراق، وكثيرا ما يبلغ وزنها بضعة قناطير من البلح. والبلح كما هو معلوم ثمر جيد حلو المذاق وافر مواد التغذية. وأصنافه كثيرة مختلفة وما يرد منها من الصعيد والواحات أحلاها مذاقا وألذها طعما.

ويبتدىء نضجه في الوجه القبلي في أواخر يونيو، وفي الجهات الأخرى بعد ذلك بشهر على وجه التقريب. وهم لا يدعونه ينضج على أمه - أى على شجرته. بل يقطفونه قبل أوان النضج ويحفظونه عندهم مدة من الزمن يبلغ فيها إلى الدرجة الملائمة من النمو ثم يباع بعد ذلك في المدن حيث يتطعم به كل الناس على السواء. وهو غذاء اقتصادى في متناول يد الفقير. فالبلح من هذه الوجهة نعمة من نعم الله أسبغها على سكان أهل مصر . وليس كل البلح يؤكل طازجا بل منه ما يعجن كعجين الخبز ويستنفد على هذا الشكل خلال السنة.

ومن البلح تستخرج ثلاثة أشربة، وهى الشراب المعروف بالعرقى ونوع من الخل والشراب المعروف بالدبس أورب البلح.

ولم يكن النخل من الأشجار المباركة لثماره فقط. بل أيضا لما ينتفع به فى المعيشة من أجزائه التى يتكون منها جميعا. فإنه ما من جزء من أجزائه إلا وتبنى عليه مصلحة وتستمد منه منفعة. فبالأوراق تصنع الحصر للجلوس والقفف للمصالح البيتية، ومذبات = مضارب = طرد الذباب التى كثيرا ما تجلب إلى أوربا كأداة من الأدوات الغريبة وبالأغشية التى تغلف السعف عند عراجينه وتعرف باسم الليف تصنع الحبال اللازمة في مرافق الزراعة ومنافع النقل وغيرهما.. إلخ وبالفروع المتصلة بها أعذاق = سباط = البلح تصنع الحبال الطويلة المتينة وقد يخلط بها ورق السعف فتكون الحبال المصنوعة على هذه الكيفية ملساء ناعمة. وينتفع بالفروع فى وضعها بين الأخشاب التى تسقف بها المنازل فتنزل منها بمنزلة ألواح الخشب ومنها تتخذ الأقفاص للطيور والأسرة والكراسى وغيرها.

والطرف الغليظ من العرجون ينزع من النخلة وهو كثير الألياف فإذا دق بجسم ثقيل تفككت أليافه وصنعت منها المكانس لتنظيف البيوت.

وإذا أدركت النخلة - أى بلغت أوان الإزهار فإن عضو التأنيث يتولد منه نوع من الليف يزيد سمكه على سمك شعر الخيل ، ويصلح فى الحمامات لدلك الجسم به مع الصابون.

وجذوع النخل تستعمل عادة مكان العروق الخشبية فى العمارات وغيرها من الأعمال التى تستدعى استعمالها. وتلك الجذوع تنثنى بسهولة إذا كان خشب النخل الذى اتخذت منه لايزال طريا، ولكنها تجمد شيئا فشيئا فتزداد صلابة ومقاومة على توالى الأيام.

أما نوى البلح فيصلح للوقود عند بعض ويعطيه آخرون للجمال غذاء لها.

ومما تقدم يتيسر للقارىء أن يستنتج أنه قلما يضحى الناس بنخلة. بالنظر إلى توافر تلك المنافع فيها، فإذا قطعت نخلة من أصلها فذلك لأنها لا تحمل ثمرا ومتى قطعت وجد بأعلى جذعها الذى هو متلقى أعذاق البلح مادة صالحة للتغذى بها طولها نحو القدم وتسمى قلب النخلة أو لبها أو الجمار. وهى مؤلفة من طبقات قشرية متراكبة بعضها على بعض بيضاء اللون لينة الجس تشبه فى مقاومتها اللوزة الطرية كما تشبهها فى طعمها. والعرب يحبونها ويشتهونها ويتهادونها وهى ذات قيمة جليلة ومقدار عظيم فى نظر المهدى إليه.

ومعلوم أن النخل لا فروع له إلا السعف الطويل الذى يتفرع منها متقوسا ومنثنيا إلى أسفل من طرف الجذع، وينتظم وضعه حوله على خمسة أو ستة صفوف. وفى كل سنة يقطع الصف الأسفل منها وأثر هذا القطع ظاهر فى محيط جذع النخلة بأصول السعف البارزة والمتجهة من أسفل إلى أعلى، وبواسطة هذه الأصول يمكن تحديد عمر النخلة إذ كل صف منها تتألف منه دائرة حول الجذع يعدل سنة منه وليس ببعيد أن يوجد من بين النخل ما يبلغ عمره بحسب هذه القاعدة عدة أجيال.

ومن السهل - بالتأمل السطحى - معرفة أنه من المتعذر الصعود فى نخلة إلى أعلاها بنفس الطريقة التى يصعد بها فى الأشجار الأخرى. لهذا ترى المصريين يتحيلون على الوصول إلى قمة النخلة بوسيلة خاصة بهم، وهى أنهم يعقدون حول جسمهم وحول جذع النخلة حبلا متينا فى جزء منه بعض العرض

يجعله أشبه شيء بالمقلاع، ثم يستندون جلوسا إلى هذا الجزء ويرتكزون بأرجلهم على أصول السعف الناتئة بسبب قطعه، ويستعينون بهذا الوضع وبواسطة أيديهم أيضا على الصعود على الشجرة برفع الجزء الملامس للجذع من الحبل إلى فوق. وهم يعتمدون على هذه الطريقة في النزول كما صعدوا.

شجرة الدوم أو المقل (كروسيفير اطيبائيكا) وثمرة «البهش».

تختلف عن النخل المعتاد بنعومة جذعها وانقسامها إلى طفيين = فرعين = عظيمين ينقسم كلاهما إلى فروع أخرى. ويختلف ثمر الدوم اختلافا عظيما عن النخل – أي البلح، ولكنه مثله في تعلقه بالأعذاق ويعدل حجمه حجم البرتقالة باستطالة قليلة وعدم تجانس في الشكل. ويحيط بثمر الدوم غلاف ضارب إلى الحمرة توجد من تحته مادة اسفنجية سكرية المذاق ولكنها تافهة الطعم. ويلي هذه المادة في وسط الثمرة نواة غليظة. وشجرة الدوم تأتي أكلها من هذا الثمر مرتين في كل عام، وهي غير معروفة بالمرة في الوجه البحري ولا في مصر الوسطى، ويبتدئ وجودها في الأرض الواقعة على مسافة ٧٠ فرسخا من القاهرة حوالي طهطا، ومن المؤكد أنها أبعد من أن تعدل النخل في منافعه ومزاياه الكثيرة.

شجرة الجميز (فيكوس سيكومووروس) أكبر أشجار القطر المصرى حجما وأغلظها جذعا، ويظهر أنها من أشجار مصر الأصلية. بدليل ما ذكره عنها قدماء المؤرخين، وأن توابيت الموتى (المومياء) مصنوعة بخشبها، وتبلغ من النمو أحيانا ما يجعل محيط جذعها من عشرين إلى ٣٠ قدما. ويكون هذا الجذع قصيرا جدا في الغالب وتمتد فروعه في اتجاه يكاد يكون أفقيا فتلقى على الأرض ظلا وارفا.

أما لون أوراقها فأخضر جميل يظل ثابتا طول السنة .لأن ما يذوى منها لا يسقط من منابته إلا إذا نبت مكانه ورق جديد. فشجرة الجميز على هذا الاعتبار من الأشجار العميمة النفع في بلد حار الطقس كمصر.

أما ثمره فتينى ذو أنواع مختلفة، والغريب في أمره أنه لا يتدلى من الأغصان كثمر الأشجار الأخرى بل يرى ثابتا على الجذع الأصلى والفروع الغليظة ، ولون هذا الثمر أصفر لا يختلف شكله في شيء عن شكل التين العادى، إلا أنه لا يعدله في حلاوته ولذة طعمه، ويبتدئ نضج هذه الثمار في

شهر يوليو ويعجل نضجها بعد بلوغها الحد الطبيعى من النمو بقطع الجزء الأعلى منها فلا تمر أيام حتى ينضج تماما ويجمع فيؤكل.

والمشهور عن خشب الجميز أنه لايعتريه الفساد، ولدينا قطع مشغولة منه منذ العصور القديمة. فإذا بها حافظة لكيانها. ويتخذ من هذا الخشب الآن القواعد التى ترسو المدافع عليها.

وشجرة المشمش (برونوس أرمنيكا).

وشجرة الخوخ أو الإجاص (اميجداليس برسيكا).

يبلغ من الارتفاع حدا لا بأس به. إذ كثيرا ما يصل إلى ٣٦ أو ٤٠ قدما ويجفف الثمر ليمزج ببعض الأطعمة الأخرى فيطيب طعمها. وأشجار الخوخ فى مصر قليلة. ويتم نضج ثمارها حوالى شهر مايو.

وشجرة البرقوق (برونوس دومستيكا) وهى فى مصر على أنواع مختلفة.

وشجرة الكمثرى (بيروس كومونيس).

وشجرة التفاح البلدى (مالوس كومونيس).

وشجرة السفرجل (سيدونيا فولجاريس).

والأشجار التفاحية السالفة الذكر لا تبلغ من النمو فى مصر ما تبلغه منه فى أوربا ولا تكون ثمارها بجودة هذه وطيبها.

وشجرة التين (فيكوس كاريكا).

وهى قليلة الانتشار والموجود منها ثلاثة أنواع التين البرشومى وتين بوليزان والتين البلدى وثمار هذا الأخير جيدة حلوة المذاق.

وشجرة التين الهندى (كاكتوس أوبونتيا) ويسمى بالتين الشوكى.

وهى منتشرة فى مصر، وتزرع لعمل الزرابى حول الحدائق، وتؤكل ثمارها التى يحيط بها قشر مجلل بالأشواك الرفيعة.

وشجرة العناب (زيزيفوس فولجاريس).

وخشبها صلب جدا يصلح فى العمارات ونجارة الآثاث وتنمو أشجار العناب عادة بين الأشجار المغروسة حول السواقى.

وشجرة الخروب أو الخرنوب (سيراتونياسيليكا) وهى نادرة الوجود بالقطر

المصرى ولا ترى إلا فى بعض الحدائق.

شجرة النبق (راموس سيينا كريستى).

شجرة فى شىء من الكبر وضخامة الحجم ذات ثمر صغير يشبه التفاح فى شكله، وحبة العنب الكبيرة فى حجمه وطعمه حريف إذا كان أخضر فجا لذيذة إذا بلغ النضج وصلح للأكل، والمصريون مغرمون بأكله، ولعل هذا لأنه هو الذى كان معروفا فى الأزمان القديمة باللوتس على قول هوميروس الشاعر اليونانى. وأشجار النبق منتشرة فى كل مكان بالقطر المصرى.

وشجرة الرمان (بونيكاجراناتوم).

والموجود منها نوعان: يسمى أحدهما بالرمان فقط ويمتاز بحلاوة ثمره والآخر بالرمان الحجازى وثمره حامض الطعم فى حلاوة.. وقشرة النوع الأول حمراء والثانى حمراء قاتمة.

وهذا الشجر حلية الحدائق وزينتها فى الوجه البحرى ومصر الوسطى. وهو شائع فيهما إلى درجة أن بلادا برمتها لايشتغل أهلها بغير زراعته.

والبرتقال أنواع كثيرة منها نوع لون لحمه فى حمرة الدم وهو نادر الوجود يسمى برتقال الداسين.

شجرة الليمون البلدى (ستروس مديكا):

وثمره كثير صغير ممتلىء بالماء (العصارة) ذو مادة صمغية لزجة. أما الليمون الكبير فقد انتشرت شجراته بالتطعيم. والليمون الحلو محبوب من المصريين ولكنه قليل، ولقلته لا يستطيع الفقراء الحصول عليه.

وشجرة المخيط (كوردياميكا).

وشجرة عالية يبلغ علوها عادة ثلاثين قدما، وتأتى فى شهر مايو بزهر زكى الرائحة أما ثمارها فغير لذيذة الطعم.

وشجرة المخيط الرومى (كورديا كريناتا).

وهى أصغر حجما من السابقة وأقل ارتفاعا ولكن ثمارها أجود وألذ طعما.

وشجر العنب (فيتيس فينيفيرا).

كانت أعناب مصر وأنبذتها ذات شهرة فائقة وصيت ذائع في الأعصر القديمة، وكان الرومان يهتمون بها جد الاهتمام حتى أنهم نقلوا بعض أعوادها إلى إيطاليا لتبليدها فيها. ثم جاء الفاتح الإسلامي بعد ذلك بمبادئه التي تحرم شرب النبيذ تحريما قاطعا. فأثر تأثيرا بالغا في زراعة الكروم وأدى إلى إهمالها وإغفال العناية بها.

على أن الفاتحين سمحوا ببقاء بعض الأشجار في الحدائق للتفكه بثمرها دون اعتصار النبيذ منها. فكان من حظ إقليم الفيوم تصدير الأعناب إلى أسواق القاهرة والإسكندرية.

والعنب البلدي جيد لذيذ الطعم بذوره صغيرة الحجم قليلة العدد إلى حد أنه لا يوجد منها سوى بذرة واحدة في كل حبة . بل إن هناك نوعا من العنب لا بذر بالمرة في حبوبه وهو مشهور عند المصريين باسم العنب البناتي.

ومنذ خلصت مقاليد الأحكام لمحمد على وانتهت أزمتها إلى يده عادت زراعة الكروم إلى شيء من سابق انتشارها وتقدمها .فإن سمو الوالي وحضرة نجله قد أدخلا في مصر زراعة أنواع العنب كافة المعروفة في أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا. وحتى الآن لم يحاول غير الأوربيين استخراج النبيذ منها، ونبيذهم هذا جيد النوع ولكنه كثير الكحول.

وللشرقيين عادة في العنب وهي جمع قطوفه خضراء غير تامة النضج واتخاذ ورقه للطعام يحشونه بالأرز واللحم.

٣٢ـ أشجار الفاكهة والنباتات التي أدخلت حديثا

من هذه الأشجار والنباتات:

الأناناس (بروملیا أناناس).

هذه الشجرة مع انتشار زراعتها لم تفلح في مصر لأنها تأتي فيها بمحصول قليل جدا من الثمر.

وقصب السكر (سكاروم أوفيسناروم) ويسمى أيضا بالقصب الحلو.

ينمو نموا تاما حسنا في القطر المصري، ولكن زراعته لم تزل غير واسعة النطاق ولا موفية بحاجة البلاد من السكر فتضطر إلى استجلابه مكررا من

البلاد الأوربية، ومع هذا فإن بعض السكر المصرى يصدر إلى الحجاز ومكة وبعض جهات بلاد العرب.

وأوسع منطقة لزراعة قصب السكر فى ضواحى الريرمون فى قرى الوجه القبلى.

وأوان نضج القصب حوالى شهرى نوفمبر وديسمبر، ويصل من الارتفاع حينذاك إلى عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ومتى بلغ هذا الحد من النضج قطع وعصر فى المعمل الذى انشأته الحكومة هناك واستخرج منه السكر وشراب الروم.

شجرة الكراز (برونوس سيراسوس)

حاولوا إدخالها وتبليدها فى مصر فنمت فى أرضها نموا حسنا ولكنها لم تأت بأقل ثمر، ومن المحتمل أن يتمكن العاملون من إعطاء مصر أشجار تثمر الكراز إذا اجتهدوا فى تبليد اشجار الكراز المالطية بدلا من أشجاره المستوردة من أوربا الوسطى. لأن شجر الكراز المالطى معتاد على درجة حرارة تقرب كثيرا من درجة الحرارة فى القطر المصرى.

شجيرات الشليك (فراجاريا)

إنه لعدم وجود جبل ما فى مصر يحتوى أشجار الغابات لايوجد فيها من شجر الشليك إلا النوع البرى منه، وقد أصبح الباعة الآن يبيعون فى الطرقات ثمره بعد أن كان مجهولا من الآكلين أو كان على الأقل نادرا جدا على عهد المماليك.

شجرة القشدة أو القشطة (أنوناسكواموزا)

أصل هذه الشجرة من أمريكا وكانت نادرة جدا فيما سبق لاتوجد إلا فى بعض الحدائق. أما الآن فقد أصبحت أكثر انتشارا. وهى متوسطة الارتفاع وثمرها كثير الشبه بتفاحة ثمر الصنوبر . لونها أخضر جميل ولحمها لين جدا يشبه فى شكله وطعمه السكرى ورائحته المحبوبة شكل القشدة وطعمها ورائحتها . ولهذا سميت بذلك الاسم. ويتخذ الفحم من خشبها كما يتخذ من أوراقها مسحوقة بعد تجفيفها لزقة توضع على العين إبان الاصابة بالرمد الصديدى.

شجرة الجوافة (بسيديوم بروميفيروم).

اشتهرت هذه الشجيرة فى مصر حتى أصبحت معروفة من الجميع وهى ذات ثمر وافر كثير.

شجرة الجوز (جوجلانس رجيا).

هذه الشجرة التى هى من أشجار البلاد الباردة فى مصر لم تزرع قبل محمد على وهى تنمو فيها نموا حسنا ولكن ثمرها قليل وإذا أدخلت زراعتها فى هذا القطر فما هو إلا لخشبها دون ثمرها.

شجرة البابابر أو نخلة العجور أو البابار (كاريكا بابايا).

ترتفع هذه الشجرة كثيرا وتضخم وتأتى بثمر جيد وأصلها من أمريكا.

شجرة الفستق (بستاشيافيرا).

هذه الشجرة ذائعة الانتشار وتأتى بثمر جيد جدا.

٣٣ـ النباتات الحبوبية النجيلية

القمح أو الحنطة (تريتيكوم ساتيفوم).

اشتهرت مصر بحبوبها منذ الأعصر القديمة إذ كانت تمون بها بلاد اليونان وايطاليا حتى لقد اسماها الشاعر (ناسيتوس) بخزائن رومية. ومنذ تعددت فيها صنوف الزراعات وشغلت بزراعتها شطرا كبيرا من الأرض ضاق نطاق زراعة الحبوب بالرغم من أن هذه الزراعة ما برحت شاغلة المرتبة الأولى بين صنوف المزروعات المصرية.

وقد غالى الكثيرون فى تقدير محصول القمح المصرى فأبلغه بعضهم إلى ٥٠ أو ٦٠ فى المائة والبعض الآخر إلى ١٠٠ فيها. والحقيقة أن متوسط هذا المحصول لا يتجاوز ١٥ إلى ٢٠ فى المائة. وإذا تجاوز هذه النسبة فى بعض السنين التى تمتاز بوفرة المحصول فى الجهات الملائمة لزراعته فإنه لا يتجاوز ٢٥ وتارة ٣٠ أو أربعين فى المائة.

والقمح المصرى جيد الصنف وأجوده ما كان من الوجه القبلى. وسوقه = أعواده = قلما يزيد ارتفاعها على قدمين أوقدمين ونصف. وهذه السوق غليظة وصلبة تعلوها بوجه عام سنبلة وافرة الحبوب. وأرض مصر لا تنتج سوى

القمح. وغنى عن البيان أن القمح فيها على جملة أنواع تختلف عن بعضها بلون الحبة وشكلها وصلابتها.

القمح العربى (تريتكوم ترجيدوم).

الشعير (هورديوم فولجارى).

بينما تتطلب زراعة القمح الأرض الرطبة الكثيرة مواد الخصب، تكفى الأرض الرملية لزرع الشعير ويختلف متوسط محصوله فى الفدان الواحد من ٥ أرادب إلى ١٢ اردبا.

وتعطى حبوب الشعير بوجه عام غذاء للخيل، ودقيقه إذا مزج بدقيق الحنطة صلح أحيانا لتهيئة الخبز. وفى القاهرة يصنع النشاء مستخرجا من الشعير والقمح والأرز.

الذرة (سور غوم فولجارى).

تزرع بمقادير عظيمة جدا لأنها لا تستلزم عناء الحرث الكثير ولا ميثاق الرى بالماء ويختلف محصولها فى الفدان الواحد من ١٥ إلى أربعين أردبا. ويبلغ ارتفاع ساقها إلى ٨ إلى ١٠ أقدام. وعلى دقيق الذرة المعول فى تغذية الفلاحين إذ به يصنعون خبزهم ويفضلونه على الخبز المصنوع بدقيق الحنطة بالرغم من حموضة طعمه ورداءته. وسوق الذرة بعد جفافها تصلح وقودا لأفران الجير (القماين) كما تصلح لإقامة الحواجز وتغطية سطوح المنازل وبناء الأخصاص والأكواخ الصغيرة.

يسمى المصريون الذرة العادية بالذرة الصيفية لأن بذورها تبذر عادة فى آخر مارس، وهناك صنف آخر من الذرة يزرع فى فصل الخريف ويسمى بالذرة البيضاء (سورغوم سرنوم) والذرة العويجة.

الذرة الشامية (زيامابيس).

أطلق هذا الوصف عليها لورودها من الشام ، وحبوبها صفراء اللون وأكبر حجما من حبوب الذرة البلدية، ويؤخذ منها محصولان فى السنة الواحدة، الأول فى الصيف والثانى فى الشتاء. وقد اعتاد الفلاحون قطع كيزان الذرة طرية قبل تمام النضج والتغذى بها بعد شيها على النار ويتخذ من دقيق هذه الذرة خبزا

أجود من خبز الذرة البلدية السالفة الذكر. ومحصول الفدان الواحد منها يبلغ أحيانا إلى ١٤ أردبا.

الدخن (سورغوم سكاراتوم).

الدخن «نوع آخر» (بانيكوم ملياسيوم).

الدخن «نوع آخر» (برميزتيوم تيفوئيديوم).

الأرز (أوريزاساتيفا).

ذهب بعض المؤلفين إلى أن الأرز كان مجبولا = طبيعيا = من قدماء المصريين، وبحث غيرهم في عكس ما ذهب هؤلاء إليه. والرأى الراجح هو أن الأرز كان لايزرع قديما في مصر. بدليل أنه لا يرى مرسوما على آثارها في حين يرى القمح والشعير مرسومين عليها. والمحقق أن العرب هم الذين أدخلوا زراعته بعد أن جلبوه معهم من بلاد الهند.

وتستلزم زراعة الأرز الأراضى الواطئة الطميية. هذا ما دعا إلى الاقتصار في زراعته على الوجه البحرى. وفي ضواحى دمياط ورشيد يزرع من الأرز أجود أصنافه. ومتى تم حصد الأرز وهيىء للاستنفاد خلط بالملح البحرى الجاف لصيانته من الفساد وحفظه زمنا طويلا.

ومنذ استلم محمد على زمام ولاية مصر أدخل زراعة الأرز في أقليم سنار.

٣٤ ـ الحبوب غير النجيلية

من هذه الحبوب:

الحلبة (تريجونيلا فينوم جريكم).

الحلبة نبات كلأى يحبه المصريون، وهم يتغذون به. إذ يأكلون منه الساق والورق ومنابت الحبوب. وهم يحمصون هذه ويتخذون منها شرابا كقهوة البن ويصنعون منها مستنبته نوعا من الطعام يدخل العسل في تركيبه.

الفول (فاباساتيفا) أو الفول البلدى.

الفول أحد الحاصلات الوفيرة في القطر المصرى، وتبذر بذوره في الحقول والغيطان الفسيحة، وحبوبه فيه أصغر حجما منها في أوربا. ولكنها أجود صنفا وألذ طعما. ويتخذ المصريون منها طعاما يعتبر من أطعمتهم الأساسية

فإذا كانت طرية أكلوهـا بالملح أو جافة كغـذاء للماشية والدواب كـالبقر والجمال والحمير.

وكـان كهان الهيـاكـل فـى الأزمان القـديمـة يعتبرون الفـول غـذاء غيـر طاهـر بسبب مـا كانوا يشـهـدونه في زهـره من البقـع السوداء التى كـانوا يقولـون إنها تشبه شارات الحداد وعلاماته.

الجلبان (لاتيروس ساتيفوس).

البسلة (بيزوم أرفنس).

يزرعان فى الوجه القبلى وتعطى حبوبها للجاموس والجمال.

الحبة السوداء (نجيلا ساتيفا).

العدس (أرفوم لنس).

كان عـدس مصـر مشـهـورا فـى الأزمـان القديمة ، وكـان الرومـانيون يسمـونه «عدس بيلوزه» وهو لايزال منتشر الزراعة غزير المحصول فى مصر ولونه أصفر برتقالى جميل.

الترمس (لوبينوس ترمس).

حبوبه مرة المذاق لا تصلح غذاء إلا للإنسان، وإنما ينبغى قبل أكلها أن تنقع فـى الماء الملـح. وساق الترمـس ليفيـة، ولهذا تتخـذ وقـودا فـى المصالـح البيتيـة وغيرها .

الحمص أو الملانة (سيسر أريكتيوم).

يسمى المصريون هذا النبات بالحمص وهـم يأكلون حبوبه خضـراء ويسمونها عندئذ بـالملانة. أما إذا جفت فيأكلونهـا بعد تحميصها على النار وتعطـى سوقها للمواشى.

اللوبيا (دوليكوس لوبيا).

تزرع اللوبيا فـى الوجه البحرى وسـوقها قصيرة وحبوبها بيضـاء الشكل ذات نقطة سـوداء فى سرتهـا ، ويوجـد بأطراف الصعيـد الأعلى نوع آخـر من اللـوبيا مستدير الحبوب صغير الحجم يعدل حجمـه حجم الفلفل الأسود وقد سماه لينيه باللاتينية (فازيولوس مونجو) ويسميها الأهـالى «الماسح».

٣٥ـ الخضر والنباتات البقلية

الخبيزة (مالفاسافستريس، لينيه).

الخبيزة «نوع آخر» (مالفافرتيسلاتا، لينيه).

الباميا (هيبسكوس اسكولانتوس، لينيه).

الرجله (بورتولاكا أو لراسيا، لينيه).

السبانخ أو الإسفاناخ (سييناسيا أو لراسيا).

السلق (بيتا فولجاريس).

تؤكل هذه الخضر مسلوقة أو مطبوخة باللحم.

الملوخيا أو الملوكية (كوركوروس أو ليتوريوس، لينيه).

أما الخبيزة التى لا تنمو فى أوربا إلا بالحالة البرية فتزرع بمصر فى الحدائق والحقول والأهاون يفضلونها على الاسفاناخ ويستنفدونها أكثر مما يستنفده الأوربيون.

أما الباميا وتعرف عند العامة باسم (الجومبو) وفى أمريكا باسم (كالالو) فمن الخضر اللزجة ، وتستنفذ بكثرة مدة نحو ستة أشهر من كل سنة وهى طعام نافع جدا.

أما الملوخيا فمن البقول التى يحبها المصريون أيضا كما يحبون الباميا وهى شديدة اللزوجة وتافهة الطعم. وتبلغ فى نموها ارتفاع قدم إلى قدمين وزهرها أصفر جميل يسترعى النظر. وتجفف أوراق الملوخيا لتحفظ برسم الطبخ فى فصل الشتاء، وإذا وضعت بعد جفافها فى الماء المغلى لانت وصارت كما لو ألقيت فيه وهى خضراء. وتطبخ الرجلة والاسفاناج والسلق بالطرق المتبعة فى طبخ النباتات المشار إليها.

البصل (الليوم سيبا).

الكراث (آاليوم يورروم).

الثوم المعتاد (آلليوم ساتيفوم).

إن بصل مصر المشهور بالجودة منذ الأعصر القديمة يستحق حتى اليوم

هذه الشهرة. وهو أصغر حجما من بصل أوربا ولكنه ألذ منه طعما. ويستنفد فى مصر بمقادير عظيمة ومحصوله فى الوجه القبلى أوفر منه فى الوجه البحرى.

والكراث ينمو فى مصر نموا عظيما ويؤكل كما هو فى ابانه ولكنه إذا كبر حجمه وغلظ طبخ وأكل كما تؤكل الخضر السالفة الذكر.

وزراعة الثوم غير منتشرة فى مصر.

الكرفس (أبيوم جرافيولانس، لينيه).

البقدونس أو المقدونس (بيوم بتروسيليوم، لينيه).

الهندباء (شيكوريوم انتيبوس، لينيه).

الخس (لكتوكاساتيفا، لينيه).

الرشاد (ليبيديوم ساتيفوم، لينيه).

والكرفس لايزرع إلا فى حدائق الوالى، والمصريون يأكلون جذوره ولكنهم لايأكلون أوراقه.

والمقدونس نادر جدا فى مصر.

والخس يجود فى أرضه وينمو نموا حسنا ويؤكل نيئا ويوجد بالأسواق طول فصل الشتاء.

الجزر (دوكوس كاروتا، لينيه).

اللفت (براسيكا نابوس، لينيه).

القلقاس البلدى (آرون كولوكازيا، لينيه).

البيارون، البشنين، النيلوفر (ننفيا كابروليا رادكس).

الفجل (رافانوس ساتيفوس).

والجزر المصرى صغير جدا شديد الحمرة كثير الأوراق حريف الطعم.

واللفت غير منتشر الزراعة ويؤكل فى مصر بنفس الكيفية التى يستنفد بها فى أوربا إذ يخلل فى الخل.

ويطبخ القلقاس كما يطبخ اللفت.

أما البيارون أو النيلوفر أو البشنين فمعروف منذ القدم. وهو نبات مائى يغطى بعد انقضاء فيضان النيل سطح الترع بأوراقه الكبيرة التى تنبعث من وسطها أزهار بيضاء أو ضاربة إلى الزرقة جميلة الشكل. ويؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أن ثماره كانت أحب الأغذية إلى المصريين وهى لاتزال حتى الآن مرغوبا فيها .

ويستنفد الفجل بمقادير عظيمة جدا، ولأوراقه عروق غليظة يحبها المصريون ويفضلونها على الجذور.

الكرنب (براسيكا أو لراسيا، لينيه).

القرنبيط.

القرنبيط الأسود (بروكوليس).

الخرشوف (سيناراسكوليموس، لينيه).

والكرنب لاتنجح زراعته بمصر نجاحها بأوربا .

والخرشوف يظهر فى أسواقها من شهر فبراير.

الشبت (أنيثوم جرافيولانس، لينيه).

الطماطم، الباذنجان القوطه (سولانوم ليكوبرسيكوم، لينيه).

يأكل المصريون الطماطم نيئا وناضجا وكذا الخضر الأخرى.

القرع الطويل (كوكوربيتا لاجنيابنا، لينيه).

القرع الإسلامبولى (كوكوربيتا بيبو، لينيه).

القرع المغربى أو الأوزى (كوكوربيتابوليمورفا، لينيه).

الخيار (كوكوبيس سانيفوس، لينيه).

الباذنجان (سولانوم مليونجيرا، لينيه).

نباتات الفصيلة القرعية شائعة الاستعمال فى طهى الأطعمة.

وفى القطر المصرى نوعان من الباذنجان أحدهما أبيض ويسمى بالباذنجان الأبيض والآخر بنفسجى اللون ويسمى بالباذنجان الأسود، والمصريون يأكلون الباذنجان نيئا ومطبوخا كما يأكلون الخيار نيئا ويخللون الكبير الحجم منه فى الخل.

الكراويا (كاروم كارفى، لينيه).

الكزبرة (كورياندروم ساتيفوم).

الكمون (كومنيوم سينينوم، لينيه).

الأنيسون (يمبينلا أنيزوم، لينيه).

الفلفل الأحمر (كاسيوم فروتسانس، لينيه).

وأثمار هذه النباتات المختلفة تدخل فى الطعام كتوابل.

ملونا أو القاوون أو الشمام (كوكوميس ميلو، لينيه).

البطيخ (كوكوربيتا سترواللوس).

القاوون فى مصر أصناف عدة ، وقاوون الوجه القبلى أحسنها. أما مايزرع منها فى ضاحية القاهرة فقليل الحلاوة.

أما البطيخ وهو الثمر المرطب للبدن والفاكهة التى تفضلت العناية الإلهية فأسبغت نعمتها على البلاد الحارة فمنتشر الزراعة كثير المحصول فى مصر. وكان معروفا فيها منذ الأعصر القديمة، ولفوائده ومزاياه عنى العرب بزراعته وتعهدوها بالتحسين تعهدا متواصلا. وإن ننس لا ننس ما أفاد البطيخ به جيش الحملة القرنسية فى رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة حينما اشتد على الجنود القيظ وأخذ العطش منهم كل مأخذ، وكان العساكر يسمونه كقدماء المصريين بالبطيخ المقدس تنويها بفوائده ومزاياه.

ومنذ بضع سنوات أدخلت إلى مصر زراعة كل ما يزرع بأنحاء أوربا من صنوف الخضر فلم تلبث أن انتشرت فيها.

والخضر كثيرة وشائعة فى حدائق القاهرة . حيث تبلغ من النمو حدا لا بأس به ، ولكنها مع حسن منظرها شديدة اللزوجة تافهة الطعم غالبا. ونباتات الخضر تذبل أوراقها أحيانا، وهذه الأوراق عريضة السطح ملساء ذات لون أخضر فاتح وهى سريعة النبت والنمو.

٣٦ ـ النباتات النسيجية

التيل أو القنب (كانابيس سانيفا، لينيه).

تيل سيام (أورتيكا نيفيا).

كان التيل قبل عهد محمد على لايزرع إلا فى الوجه القبلى للانتفاع ببذوره فقط ، وكان الناس يتخذون من هذه البذور غذاء أو شرابا مخدرا يسمى بالحشيش ولكن الباب العالى عمم زراعته تعميما عظيما ليتخذ من سوقه الخيوط الضرورية لصنع حبال السفن وقلوعها. أما القماش للباس وغيره فلم يصنع من التيل . لأن أهل مصر يفضلون عليه القماش المصنوع من الكتان.

أما التيل السيامى فقد بعث به أخيرا إلى العلامة (فيجارى) العلامة (دوليل) الأستاذ فى (مونبلييه) ليدخله فى زراعة مصر. وقد نجح العلامة فيجارى فى ذلك نجاحا باهرا يحمل على الاعتقاد بأن زراعته ستنمو وتنتشر انتشارا عظيما.

القطن (جوسيبليوم فيتيفوليوم، لينيه).

زراعة القطن من النعم الجزيلة والموارد الفياضة بالثروة التى أصبحت مصر مدينة بها لمحمد على. ومعلوم أن شجرة القطن كان يزرعها أهل مصر فى حدائقهم باعتبار كونها من شجيرات الزينة وظل هذا شأنها حتى أخرجها محمد على من زاوية النسيان وجعلها فى مقدمة موارد الثروة المصرية. وسأتكلم على هذه الشجيرة ببيان أوفى فى الصفحات التى سأبحث فيها عن الحالة الحاضرة للزراعات فى القطر المصرى.

الكتان (لينوم أوزيتا تسيموم، لينيه).

هذا النبات من أقدم ما زرع فى القطر المصرى إذ كان المصريون القدماء يتخذون منه الأنسجة المشهورة التى كانوا يصدرونها إلى جميع أنحاء العالم. ومنه يصنع المصريون الآن الأقمشة التى يلبسونها.

كتان زيلاندة = نيوزيلانده = الجديدة (فورميوم تيناكس).

لم تبذل حتى الآن الجهود الكافية لتبليد هذا النبات بالقطر المصرى. إذ لم يصل إلى مصر فى الحقيقة منه سوى نبتة واحدة أرسلت من حديقة مونبلييه ولكنها ماتت. وقد يتأتى من زرع هذا النبات نفع جليل لمصر، ولهذا يحسن استئناف التجارب لتبليده مادام هناك من البوادر ما يحمل على الجزم بنجاحه والحصول منه على النتائج المرضية. وفعلا فإن طقس القطر المصرى قريب من طقس زيلاندة الجديدة، وقد دلت التجارب الأخيرة الكثيرة على صلاحية تربته

لإنبات وإنماء ما يجلب إليه من النباتات الجديدة لزرعه فيها.

٣٧ـ نباتات ألوان الصباغة

القرطم، العصفر، الأحريض (كرتاموس تنكتوريوس، لينيه).

إذا بذرت بذوره فى وقت انحسار ماء الفيضان عن الأرض ففى الاستطاعة حصده في مارس بدون أن يستلزم عناية ما ولا تعهدا فى أدوار نموه، وبعد جفاف أوراقه تسحق وتجمع إلى بعضها على شكل رغيف من الخبز. ويستخرج من بذور القرطم زيت شائع الاستعمال بين عامة الأمة. أما سوقه فتتخذ بعد جفافها للوقود. وزراعته أكثر شيوعا فى مصر الوسطى منها فى غيرها.

الفوة (روبياتنتكتوريا، لينيه).

تزرع الفوة فى مصر منذ بضع سنوات، وكانت تستخرج سابقا فى جزيرة قبرص وهى فى مصر لا تأتى حتى الآن بمحصول يكفى للتقدير إذ كل محصولها تستنفده معامل الحكومة وفاوريقاتها.

البليخاء، الليرون، الأسليخ (ريزيدا لوتيا، لينيه).

الحناء، القيفرس (لاوسونيا البا).

تجفف أوراقها ثم تسحق فيكون منها ذلك المسحوق الذى تستعمله النسوة فى تلوين بعض أجزاء أيديهن وأرجلهن ليصير لونها كلون الجوز الكابلى، وفى جهات عديدة من القطر المصرى تصنع السلات من فروعها الصغيرة بعد جفافها. وشجرة الحناء لايحتاج نموها إلى الرطوبة.

النيلة، النيل، النيلج، العضليم، السمانى، انديقون (انديجوفيرا أرجنتيا، لينيه).

النيلة الصينى (بوليجونوم تنكتوريوم، لينيه).

تذر بذور النيلة عادة على ضفاف النيل، وتزرع بوجه خاص فى الوجه القبلى والفيوم، ويظهر أن القوة الملونة فى النيلة المصرية مثلها فى النيلة الأوربية وإن كانت المادة المجهزة فى معامل النيلة المصرية أقل نقاوة وصفاء منها فى تلك.

والفضل فى إدخال زراعة النيلة الصينية إلى القطر المصرى راجع إلى

العلامة الأستاذ (دوليل) من مدينة (مونبلييه) بفرنسا. ويأمل الموسيو فيجارى الموكل بزراعتها أن يتمكن بما أخذه من بذورها فى العام الماضى من توسيع نطاقها ، وأن يباشر أعمال استخراج المادة الملونة منها بعد ذلك.

طرنشولى، الغبيرة، الغبيراء (كروتون تنكتوريوم).

ينمو هذا النبات وحده فى الغيطان.

٣٨ـ النباتات الزيتية

تكلمنا فيما سبق على بعض النباتات التى يستخرج الزيت من بذورها ونقول الآن إن الزيت يستخرج أيضا من بذور الكتان ويسمى بالزيت الحار (الزتحار) وبذور القطن والغبيرة والتيل ويسمى زيت التيل. والفول السودانى ويسمى زيت فول سنار. وبذور الشلجم زيت الشلجم. وبذور أبى النوم ويسمى بزيت أبى النوم، وبذور الخروع ويسمى بزيت الخروع. وبذور السمسم ويسمى بزيت السيرج (الشيرج).

٣٩ ـ النباتات الكلأية.

٤٠ ـ نباتات نافعة مختلفة.

٤١ ـ نباتات الزخرفة والزينة.

٤٢ ـ مراعى الصحارى والواحات.

٤٣ ـ النباتات الطبية الأهلية والأجنبية.

(٣)
حيوانات مصر

٤٤ـ عموميات

لما كانت أرض مصر متكونة مما حمله النيل ولايزال يحمله من الطمى فأول ما يتجه الظن إليه أنها كانت قبل هذا التكوين عبارة عن خليج للبحر الأبيض المتوسط يوازى البحر الأحمر من اتجاهه ويشبهه فى امتداده وأن حيواناتها لهذا السبب لم تكن أصلية ـ أى خاصة بها ـ وأن ما فيها من الكائنات

الناشر : حذفنا أسماء بعض النباتات من الكتاب نظرا لأنها لم تعد تزرع فى مصر وليست معروفة لنا الآن.

الحيوانية إنما انتقلت إليها بالمهاجرة المتتالية من الأصقاع الأخرى، وأن هذه المهاجرة كان يتسع نطاقها بتغلب الأرض على الماء على أثر رسوب الطمى بعضه فوق بعض.

وفى المأثور من روايات الأقدمين ما يكفى لتأييد هذه النظرية التى يعززها من جهة أخرى المقارنة بين الحيوانات التى حنطت بمصر فى الأزمان السابقة ولاتزال محفوظة فى المقابر فى عدد يتجاوز الألوف والحيوانات الموجودة الآن فى هذا القطر. أما تعيين الجهات التى بدأت المهاجرات منها فلايزال من المسائل العسيرة الحل، وإنما يؤخذ من توافر الشبه بين أغلب حيوانات مصر قديما وحديثا والحيوانات الخاصة ببلاد البربر أن نقطة تلك البداية هى هذا القسم من بلاد إفريقية الشمالية.

وهذا القول ينطبق بنوع خاص على الحيوانات الثديية والشطر الأكبر من الأفاعى.

اما الطيور فقد اتفق علماء الحيوان على التسليم بأن مصر كانت فى كل زمان طريق صلة وانتقال لتلك الحيوانات التى اعتادت أن تهجر بلادها إلى البلاد البعيدة مرتين فى كل عام ذهابا وإيابا. وهذا هو السبب الذى جعلنا نجد فى مصر أنواع الطيور الأوربية وجملة طيبة من أنواع الطيور الخاصة بآسيا ماعدا طيور قليلة العدد يدخل عدم وجودها فى باب المستثنيات المثبتة للقاعدة. أما الطيور الأخرى التى لاشك فى أنها من الطيور المقيمة لا الرحالة فإنها تعيش وتموت فى هذا القطر بدون أن تتخطى الحدود التى تعيش فى نطاقها.

ولست أقصد من أيراد أسماء الحيوانات التى اتخذت مصر مقاما لها أو ممرا تسلك منه إلى الأقطار النائية الإبغال بعيدا فى دائرة علم الحيوان فإننى إنما أقصد تعريف القارىء على وجه سطحى بخصائص كل نوع إذا عن لنا فيها ما يفيده الوقوف عليه منها، وتصحيح الخطأ فى بعض الآراء الشائعة بشأنها.

وإنى وإن توخيت فى إيراد تلك الأسماء عدم إزعاج القارىء بجفوة الترتيب والتبويب ووحشية الألفاظ الفنية الاصطلاحية. لاسيما إذا كان من طبقة الظرفاء الذين لا أشك فى أنهم سيكونون صفوة المطلعين على هذا الكتاب فقد بدا لى

أن أجعل هذا العمل مرتبا بحسب الطرائق العلمية حتى لا يكون من جهة أخرى دون ما ينتظره منا رجال العلم.

الحيوانات الثديية

الحيوانات الأهلية الداجنة: الحصان ــ الحمار ـ البغل ــ الحمل ـ الثور ـ الجاموس ـ الغنم ـ الماعز ـ الكلاب ـ السنانير.

الحيوانات المتوحشة: الذئب ـ الثعلب ـ ابن أوى ـ الضبع ـ الخنزير البرى ـ فرس البحر ـ الدركاس ـ الدامان ـ القرد ـ القنفذ ـ النمر ـ قط النهر ـ الفار ـ الأرنب.

الحيوانات الأهلية الداجنة

٤٥ـ الحصان

للخيل فى مصر أنواع عديدة منها النوع العربى الأصيل الوارد من بلاد العرب ، والنوع الشامى الذى تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة، والنوع الوارد من داخل آسيا وأوروبا ، والنوع المجلوب من دنقلة. وقد اختلطت هذه الانواع ببعضها فكان نسلها خليطا مختلفا، على أنهم يتخذون للطلوقة غير الجياد العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا نزت على أفراس قوية انجبت نوعا من الجياد كبيرا قويا تام استدارة الأعضاء ، وهو الذى يتألف منه النوع المصرى الحقيقى.

فالحصان المصرى أطول قامة من الجواد العربى ورأسه أحسن وضعا من رأسه ورقبته أجمل منقارا وأدق الاستدارة وعيناه يطير منهما شرر النشاط والحماس ومنخراه أعرض وأوسع من منخريه = أى الحصان العربى = وسوقه أدق وأصلب وأكثر أعصابا من سوقه، ومشيته أدل على النبل والعزة والجلال، والجواد العربى الأصيل يرى على الدوام صغير الجسم نحيله مجردا من الهيئات المحبوبة فى النظر بسبب ما يتكبده فى معيشته من العمل الكثير والمشقة البالغة والحرمان المتلف وما يلقاه من الهوان فى أيدى أناس هم أقرب إلى الهمجية منهم إلى الحضارة وأبعد عن أن يعنوا بما يملكون من الحيوانات. ومع هذه العوارض فإنه لايزال من الإقدام والشدة بحيث يرى صاحبه فيه عند الحاجة أنه خير ذخر وأثمن كنزله.

والمفهوم أنه لا يوجد بمصر خيل طويلة القامة، ولهذا السبب لايستطيعون تحميل خيولها بالفرسان الثقيلة.

وأمم الشرق تستخدم الخيل بدون أن ينشأ عن استخدامهم إياها ضرر ما. لأن طاعة هذا الحيوان عندهم ليست بأقل من طاعته عندنا . بل هم لا يعذبونه بما نعذبه نحن به من بتر ذيله مثلا وهو الأمر الذى يحط من قيمته ويثير أعصابه فهو عند الشرقيين الذين يجهلون هذه العادات وأمثالها لايثور ولا يجمح بل ينقاد لمطالب صاحبه بإقبال عجيب مهما بلغ من حدته الطبيعية وميله إلى الحرن والعبوس.

٤٦ ـ الحمار

يخطىء من يخلط بين الحمار المصرى والحمار الأوربى . فإن الحمار فى بلادنا ليس إلا حيوانا ضعيفا ضئيلا مرذولا سيىء الغذاء محروما من العناية يعامل بالقسوة من غير رحمة. أما فى مصر فإنه حيوان كبير حسن الخلقة خفيف المشية يجمع فى حركاته اللطف والحدة معا . وهذا هو السبب الذى جعل أثمان الحمير المصرية غالية لاسيما إذا جمعت إلى ما وصفته فيه من حسن الشكل والنشاط والقوة. وتستخدم الحمير بطريق التفضيل على غيرها فى الأسفار البعيدة بأطراف الصحراء مع الجمال محملة بالأمتعة الثقيلة والبضائع الكثيرة.

وأجمل الحمير وأعلاها قيمة الوارد منها من الجهات الجافة والأصقاع الحارة كالصعيد. أما التى تستنسل فى الوجه البحرى فأحط مرتبة من هذه فى جميع الوجوه.

٤٧ ـ البغل

بدهى أن تنتج مصر أصناف البغال كما تنتج أجمل أصناف الخيل والحمير. والبغال فيها مطلوبة جدا. إذ منها ما يعدل ثمنه ثمن كرائم الخيل. وأصحابها يمتطونها لقطع المسافات البعيدة ويتخذون لها من السرج والعدد ما يتخذ للحمير عادة على وجه التقريب. أما البغلة فأسلس قيدا من البغل وأقوى على احتمال التعب، ولذا تفضل عليه ، وسيرها العادى الخبب، وهم يعودونها هذا

السير بطريقة ميكانيكية وهـى أن يجمع اليد الأمامية والرجل المقابلة لها من خلف بواسطة حبل بحيث أن حركة اليد الأولى منهما تستدعى حتما حركة الرجل الخلفية.

٤٨ ـ الجمال

إذا أريد إطلاق لفظ «الجمل» على ذلك النوع من الجمال التى يتقوس ظهرها بحيث يكون سنامين فلنبادر إلى القول هنا بأن هذا النوع من الجمال غير موجود بمصر مطلقا. وإنما الموجود نوعان مختلفان يسمى أحدهما الجمل وهو عظيم الارتفاع عجيب القوة ثقيل المشية، ويخصص لحمل الأثقال والثانى يسميه العرب بالهجين وهو أصغر حجما من الأول وأنشط حركة وأسرع سيرا.

وبالرغم مما كانت الجمال تقوم به من جلائل الأعمال فى الأزمان الماضية فقد كان المصريون ينظرون إليها بعين الاحتقار والتصغير. فساروا فى ذلك على عكس العرب الذين يحبونها حبا جما ويجلونها ويقدرونها. على أن الجمال بصرف النظر عن نقل الأثقال وقطع أجواز الفلوات تفيد صاحبها من جهة أخرى فوائد جليلة. فإن وبرها من أهم ما يتجر به من أصناف البضاعة ومنه يتخذ العرب بيوتهم وينسجون ثيابهم وسجاجيدهم. وهى إذا خلط بعرها بالقش المقطوع ثم جفف فى الشمس كان منه وقود فى غاية من الصلاحية والفائده. ولبن النياق من الألبان التى يقدرها الأعراب قدرها لما يستفيدون به من منافعة.

٤٩ ـ البقر

البقر الداجن فى مصر لا يختلف فى شىء عن البقر الأوربى، وهو يستخدم فى أعمال الزراعة وفى كثير من المصالح المختلفة. أما ما ذكره بعض المؤلفين الذين كتبوا عن مصر من جمال هذا الحيوان وجودة لحمه فلا يسبب = يصيب = شاكلة الصواب كله. ومن المحتمل أنه كان فى الأزمان القديمة ممتازا بكبر حجمه وجمال شعره ونمو قرنيه فإذا صح ذلك ـ وهناك ما يدعو إلى ترجيح صحته بالنظر لما كان له عند الأقدمين من الاحترام والتقدير ـ وفى هذه الحالة يسلم بأنه قد طرأ على نوعه بعض الفساد فصار إلى ما صار إليه. فإن البقر المصرى على ما هو مشهور الآن قد صغر جسمه إلى أن بلغ حد الوسط فى أجسام الثيران. كما صغر أيضا قرناه بوجه عام. وليس فى لون شعره الذى

يشبه لون شعر بعض الضوارى ما يلفت النظر بوجه ما . كما أن جودة لحمه أبعد من أن تستحق الشهرة التى سمعناها عنها، فإن ألذ لحوم الأبقار طعما وأقومها لصحة الأكل لحوم الثيران الموجودة فى الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية لا فى البلاد الحارة منها .

وفى مصر نوع من البقر يسمى ببقر الوحشى (الخيس) وهو يقرب كثيرا من حمار الوحش على ما ذكره أحد كبار المؤلفين - إذا لم يكن هو حمار الوحش نفسه - ويقوم الغرب أحيانا بتربية أبقار صغيرة من هذا النوع فى الخلوات لأنهم يكونون قد أصابوها فى أثناء مطاردتهم لما هو أكبر سنا ، والجلود المتخذة منها جيدة مرغوب فيها .

٥٠ـ الجاموس

الظاهر أن الجاموس ليس بمصرى الأصل. إذ لم تشاهد صورة له على الآثار القديمة. كما أنه لم توجد له جثة محنطة ضمن المومياوات. ويذهب البعض إلى أن العرب هم الذين جلبوه إلى مصر بعد الفتح الإسلامى. وإقليم هذا القطر أرضه يناسبه تمام المناسبة. فإنه قد تناسل فيها بسهولة تامة ونما جسمه وتحسن شكله وارتفعت قامته، ووبر الجاموس المصرى قليل ولون جلده رمادى يشبه لون الحديد. ويميل كثيرا إلى السباحة فى الماء ميلا يتبادر معه إلى ذهن من لم يألفه أنه من الحيوانات البرية المائية ، ولم يكن منظره مخيفا ولا مزعجا بل هو فى الحقيقة هادىء الطبع سلبى القيادة وليس فيه ما فى الجاموس الأوربى - وعلى الخصوص جاموس رومانيا من سرعة الخوف المقرون بحب الافتراس - وتعطى الجاموسة فى اليوم الواحد من أربعة عشر إلى ستة عشر رطلا من اللبن الجيد. ولم ينتفع المصريون حتى الآن بما فى الجاموس من القوة العجيبة باستخدامهم إياه فى أعمالهم البيئية. أما لحمه فجيد جدا ولاتأكله إلا الطبقات الواطئة من الشعب.

٥١ـ الضأن

الضأن جزء من الثروة فى مصر، وهو فيها كثير العدد مصون الأصل، وذكور الضأن لا تخصى كما هو الحاصل عندنا، وصوفها من النوع الجيد الناعم. أما النعاج فأحسن من النعاج الأوربية من جهة أنها تلد أكثر منها . إذ

تحمل في كل سنة مرتين في كل حمل رأسان دفعة واحدة، وأصل هذا النوع من بلاد البربر.

وفي مصر أنواع اخرى من الضأن جلبت إليها من سنار وكردفان واليمن وهي تلك الخراف الكثيرة شحم الذنب المرتفعة القامة الرديئة نوع الصوف، ولكنها مع ذلك كثيرة اللحم جيدة الشحم. ومنها أيضا تلك الخراف القصيرة الوبر في صلابة وبر الغزلان والأيائل، وفي بعض أجزاء جسمها نمو شحمي يمكن الاستفادة به من وجوه كثيرة.

٥٢ـ الماعز

أصل الماعز المنتشر في مصر السفلى من بلاد الشام، ويتميز بتقوش ذيوله وصغر قرونه وطول آذانه في هبوط وتدل وصهوبة لون شعره بوجه عام، ولبنه جيد غزير شائع الاستعمال وتتألف منه بداخل المدن قطعان صغيرة يقودها الرعاة في الطرقات والأزقة، فإذا أراد أحدهم شراء شيء من لبنه حلب أمامه على منظر منه وهي كالنعاج شديدة القابلية للضراب والحمل. لأنها تعطي في السنة حملين في كل حمل رأسان غالبا وثلاثة رءوس أحيانا وأربعة في الأحوال الاستثنائية.

أما ماعز الصعيد فمن نوع أخر غير المتقدم. لأنه أصغر قامة وأطول قرونا وأكثر نشاطا وأسرع حركة وأطول وبرا وأنعمه وأغزره ، وهو إذا اعتبرنا هذه الخصائص أقرب شبها بماعز ولاية أنقره.

ويستورد من سنار نوع من الماعز قصير القامة جدا وقصير الشعر يخترق ظهره كله خط أسود بينما لون بقية الشعر في الجسم كله إما رمادي وإما مائل إلى الشقرة.

٥٣ـ الكلب

لا أدرى أيستحق الكلب المصرى أن يدرج في عداد الحيوانات النافعة أم لا، فإنه بطباعه وعاداته يكون تارة أليفا أنيسا وطورا وحشيا نفورا، وذلك تبعا لوجوده بلا صاحب في المدن أو الخلوات . حيث يأنس على حدود الصحراء بالثعالب وبنات آوى. على أنه في الحالتين المتقدمتين يعرف بمميزات واضحة في شعره فإنه في حالة حيرته التامة يكون طويل الشعر في لون يقرب من لون

شعر الحيوانات الضارية، ويعتمد فى غذائه على ما يتركه الضبع وابن آوى من فضلة فريستهما . فإذا عز عليه الغذاء هجم على أخيه وافترسه ليشبع نهمته.

أما فى المدن حيث يرى كثير الانتشار فإنـه يأوى إلى بعض الأحيـاء طوائف مختلفة ويستقر فيها ويتخذها موطنـا له. فإذا طرأ عليها كلب من طائفـة أخرى اجتمعت عليـه كلابها وهـاجمته ودفعته. فـإذا لم ينج بنفسـه نهشته نهشـا. وتلك هى معاملة هذه الكلاب للكلاب الأوربية الأصل إذا التقت بها فى الطرقات. ومع أن الكلاب مدنسة فى نظر المسلمين فإنها تجد منهـم فى مصر عناية خاصة. إذ يخصها الآكلـون بفضلات طعامهم كما هـو المشاهد منهـم فى جهات عديـدة من تركيـة أوربا ، وممـا يحق لنـا ملاحظته وتوجيـه النظر إليـه بهذه المنـاسبة أن داء الكلب فـى هذه البلاد غير معروف من أهلها كما هـو معروف من غير المصـريين بالديار المصرية لما تجده الكلاب من الشفقة عليها والعناية بأمرها .

وخلاصة القول أن الكلاب المصرية من نوع خاص تناسل على توالى الأجيال بـدون أن يختلـط بـأى نـوع آخـر مـن الكلاب. فليس مـن المستغرب إذا رأينـا التشابه متوافرا بين صفاتها ومميزاتهـا وصفاتها ومميزاتها فى المومياوات التى يعثر عليها بالمقابر الصغيرة والمقابر الكبيرة.

٥٤ ـ القط أوالسنور

فـاز القط بمصـر فـى كل زمـان بامتيـازات تكـاد لا تقف عند حـد كما يثبتـه تكريم الأقدمين لـه، وما هو فيه الآن من الحظوة والقربى. وكـان المتشرعون فى الأزمان الحاليـة يفرضـون على العـامة ذلك التكـريم لاعتبـارات سياسيـة كما أن وارثى ملك الفراعنـة من المسلمين لم ينحرفوا عـن هذه الجادة لبعض الاعتبارات والتقاليـد الدينيـة. فقد روى أن محمـدا صلى اللـه عليه وسلـم كان يحـب القطط بدليل أن قطا نام يوما على كم ثوبه ففضل أن يقطعه كيلا يزعجه من نومه، ولعل هذا هو السبب فى محبة المسلمين للقطط اعتقادا منهم أنها من نسل القط الذى لقى ذلك الرفق والإكرام.

وللقـط فـى مصـر أن يـدخـل فى كل مكـان. فهـو يغشـى الحرم كمـا يغشـى المسجد وينسـاب فى بيـت الفلاح كا يهبـط بيت الشيـخ. وله مـوضعه مـن مجلس القاضـى كما له مثلـه من مجلس الأغا. وكـان موت القط أيـام الفراعنة يستـدعى حزن أصحـابه وحدادهـم عليه. وكانوا يعبـرون عن أسفهم عليـه بمظاهر خـاصة

منها قيامهم بتحنيط جثته وتشييعهم جنازته بالإكبار والاجلال فى أسمى مجالى الاحتفال، أما الآن فقد اقتصروا على احاطته بعناية يمازجها الرفق فى أثناء مدة حياته، وبالملاطفة والتعهد أثناء مرضه حيث يعالج فى مستشفيات خاصة أو ما يشابهها من المنشآت التى أقيمت بالأموال المرصودة على البر والإحسان.

يؤخذ مما تقدم أن القط عومل فى مصر بالإكرام والاحترام . بينما الكثير من الحيوانات الأخرى لاحظ لها من البقاء فى هذه الدنيا إلا الجوع والألم والموت فى آخر الأمر بشر ما تلاقيه الأرواح من صنوف الفناء والتلاشى من عالم الوجود.

٥٥ـ الذئب

زعم بعض علماء التاريخ الطبيعى أن الذئب لا أثر له بمصر - وهو زعم فاسد - إذ فى جملة جهات منها نوع من الذئاب يختلف عن النوع الأوربى بقصر شعره. على أن الذئب المصرى أقل انتشارا من الثعلب والضبع، ولعله من النوع المعروف فى لغة العلماء باسم «كانيس انثوس» أو النوع المعروف عندهم باسم «كانيس فنس» كما ذكره (بروس).

٥٦ـ الثعلب

الثعلب المصرى أصغر حجما من الثعلب الأوربى وأذناه سوداوان وأرجله كأرجل الحيوانات الضارية ولون بطنه أسمر يزداد ميلا إلى السواد كلما تقدم فى العمر. وهو يوغل فى الخلوات يبغى القنيصة، ويدنو من المساكن ليفاجئ فيها الدجاج والحيوانات الداجنة فيفترسها.

٥٧ـ ابن أوى

تعيش بنات أوى أسرابا عديدة بأطراف الصحراء وتأوى إلى الخرائب والأطلال وتتغذى بجيف الحيوانات وهريرها أثناء الليل محزن مستطيل .

٥٨ـ الضبع

هذا النوع من الحيوانات المفترسة شائع فى مصر شيوعه فى الشام والسواحل الشمالية لإفريقية ، وطباعه وعاداته معروفة فلا حاجة إذن إلى

الإفاضة فيها. ويمكن استئناسه إذا أخذ صغيرا وعود الإقلال من أكل اللحم.

٥٩ـ الخنزير البرى

يظهر أن هذا الحيوان نوع مستقل بذاته، وهو بالنظر لدنسه أصبح فى منجاة من مطاردة الصيادين له، وهذا هو صاحب انتشاره فى جهات الوجه القبلى حيث يكثر فساده، إذ من عادته الانسياب فى الغيطان المزروعة ذرة ويشاهد فى الغالب أسرابا كل سرب منها مؤلف من خمسين إلى ستين. وأكثر وجوده على سواحل البحيرات والبحر.

٦٠ـ فرس البحر

هذا الحيوان الهائل الجسم الذى يعتقد الناس وجوده فى كل مكان من مصر يخترقه النيل لايشاهد فيها إلا عرضا. والحقيقة أن موطنه ومستقره بلاد النوبة العليا. على أن هناك روايات تؤيد مشاهدة بعض الناس له حتى بالجهات القريبة من دمياط فقد ذكر (بروسبر البان) أنه صاد مرة فرسا منها فى هذه الجهة وأنه شوهد بالقرب منها فى سنة ١٨٣٦ وأنه أصاب المزروعات بتلف بالغ، وظل نحو العشرين يوما يفتك بها حتى اختفى فلم يعد يراه أحد. وقد زعموا أن فرس البحر كان فى زمن مضى منتشرا بالقطر المصرى وهو زعم لم يقم عليه دليل ولذا لاينبغى التعويل عليه.

٦١ـ الغزال

يكثر هذا الحيوان الجميل الظريف على حدود الصحارى المتصلة بمصر ويمكن التذكير بما تفنن فيه شعراء العرب من ضروب الإطراء فى محاسنه من دقة أعطاف ورقة حركات وسواد عينين.. إلخ.

وهو يتغذى بالأعشاب الصغيرة التى تنبتها الصحراء، وقد يطرق فى الليل أحيانا الأراضى المزروعة ليأكل من نباتها ويرتوى بعذب مائها. وقد برع عرب البدو فى مطاردته على أفراسهم الخفيفة. فيتمكنون بهذه المطاردة أحيانا من إعيائه وأخذ الأطراف عليه وقنصه فى نهاية الأمر. ولهم فى اصطياده وسائل مختلفة فهم يصيدونه إما بالبندقة وإما بالصقر أو الكلب. وتؤخذ صغار الغزلان حية فلا تلبث أن تأنس بالإنسان وتألفه بالرغم من نفورها الشديد فى حالة التوحش. وفى دارى بالقاهرة جملة منها تأنس بى وأنس بها وتتناسل فى كل

عام. أما الدركاس وهو فى مصر اسم لبقر الوحش فأعلق ببلاد النوبة منه بالقطر المصرى، ومن الحيوانات الداخلة فى فصيلة الغنم نوع من الخراف يبدو من ارتفاع جسمه أن أصله من النوع المعروف بالخروف الأفريقى.

وتتمة لهذا البيان الذى قصرناه على ذكر الحيوانات الثديية أذكر حيوانا نادرا جدا من الحيوانات المجترة هو بحجم الجدى وقد وجدته فى الصحراء المجاورة للضفة الشرقية من النيل تجاه أسيوط ولم أجد لنوعه ذكرا فى الكتب المصنفة.

٦٢ـ الدمان

هو المعروف عند اليهود باسم الشازان، والمشهور عند العامة بخروف إسرائيل أو دمان إسرائيل، وأول عالم أورد ذكره هو العلامة (بروس) وقد عرفنا به إذ قال إنه قصير القامة أصهب لون الشعر فى سمرة خفيفة والحيوانات المفترسة تتخذ فى الغالب منه غذاء ها.

٦٣ـ القرد

ليست القرود التى فى مصر ـ ويتنقل أصحابها بها من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى ـ مصرية الأصل بل مجلوبة من سنار وبلاد العرب. فمن الخطأ المحض ما زعمه بعض المؤرخين من أنها مصرية، وأنها وجدت بمصر منذ العصور الخالية استنادا على ما استكشف فى المقابر الاثرية من القرود الكثيرة المحنطة، والحقيقة أن القرود التى يطاف بها من الأنواع المعروفة بأسماء الميمون والتتارى والماجو.

٦٤ـ القنفذ

يختلف نوع القنفذ الموجود بمصر عن النوع الشائع بأوروبا فى لون جلده ولكن يماثله فيما عدا هذا عادات وطباعا..إلخ.

٦٥ـ الدروال

هذا الحيوان لم يشاهد نوعه إلا فى القطر المصرى، وهو فيها يغشى الدور فيقتل الطيور ويفتك بها أذرع فتك ، وفيه شراهية غريبة إلى البيض.

٦٦ـ النمس

الاسم الخاص بالنمس هو (اشنومون) وفـأر فرعون. وهو منتشـر فى أرجاء القطر المصرى كافة وفى الاستطاعة استئناسه لأنه لطيف بطبيعته. فإذا استؤنس أفاد صاحبه بإبادته الفيران الكبيرة والصغيرة لما فى فطرته من الشره الشديد إلى التغذى بلحمها. ولكنه يضر من جهة أخرى ضررا بالغا لضراوته بالحيوانات الداجنة التى تسوقه غريزته إلى الفتك بها.

والنوادر المأثورة عن النمس كثيرة. حقا أنه يبيد التماسيح وهى فى بيضها بل ويفتش فى الرمل عن هذا البيض وينهش صغار هذا الحيوان متى نفقت عن بيضها، ولكن مالا يستطاع التسليم بصحته لظهور أثر المبالغة عليه أنه يغتنم فرصة انفتاح فكى الورنة الكبيرة فينفذ من بينهما إلى معدتها ويمزقها تمزيقا ويسبب بهذا الفعل موتها.

وفى القوانين المصرية القديمة نصوص صريحة تقضى بحماية النمس وتوصى به، وهذا ما جعل الأهلين فى ذلك العهد البعيد يوافونه بحاجته من الغذاء ويكرمونه ويحتفلون به إذا مات.

٦٧ـ القط إلنمرى

فى مصر نوعان من القط النمرى، أحدهما يجاور المستنقعات ليتغذى بما يصيده من الطيور التى تألفها. وحجمه يعدل ثلاثة أضعاف حجم القط، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى «فليس شوس» والثانى نادر الوجود جدا يسمونه «فليس لنكس».

٦٨ـ اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع

فى مصر نوعان يختلفان اختلافا بينا فى حجم الجسم واكتساء الأرجل بالشعر أو تجردها منه. وفى الحالة الأولى يكون اليربوع من النوع الصغير المعروف عند علماء الحيوان باسم «دبيوس هرتييوس» وفى الحالة الثانية يسمونه «دبيوس ساجيتا» والنوعان يتفقان فى أن الرجلين فيهما أطول من اليدين وأدق منهما ولهذا تراهما يثبان بسهولة وثبا يقطعان مسافة بعيدة بعدا مناسبا وليس بين الحيوانات القارضة حيوان أكبر أسنانا من اليربوع، ولا أعظم قدرة منه على القرض حتى أنك إذا وضعت يربوعا فى قفص من الخشب الصلب وأخذت

الحيطة حتى لا يفلت منه فانه لا يلبث أن يقرض خشب القفص ويفر منه مستردا حريته. أما إذا كان القفص حديداً فإنه لا يستطيع إتلافه كما يتلف القفص الخشبى.

وقد خلط بعضهم فأطلق اسم اليربوع على حيوان قراض = قارض = بحجم الفئران الكبيرة فى أوربا هو الكثير الانتشار فى جهة الأهرام. ويقال أن فى النوبة نوعا من هذا الحيوان ولكنه أقل حجما منه بمقدار النصف.

٦٩ـ الفأر والسيسى

هذان الاسمان يشملان أنواع الفيران التى يكثر فى مصر وجودها. ولكن من بين هذه الأنواع نوعين جديرين بالبحث وهما فأر الإسكندرية الذى توطن سواحل أوربا الجنوبية وتبلد فيها وهو نفس الذى يسميه الإيطاليون بفأر السطوح، ثم الفأر الشوكى وهو الذى وبر ظهره خشن الملمس وخاز ليد اللامس.

٧٠ـ الأرنب

يختلف الأرنب المصرى عن الأرنب العام المعتاد بلون شعره وطول أذنيه ورجليه الخلفيتين، وهو فى نظر المسلمين غير طاهر ولهذا يمسكون عن أكله ولا يطاردونه لصيده كما يطارد النوع المعتاد فى فرنسا وفى جميع الأصقاع التى ينتشر بالتناسل فيها.

الطيــور

الطيـور الداجنــة

الدجاج ـ الدجاج الهندى ـ الحمام ـ الأوز.

٧١ـ الدجاج

لا يختلف دجاج مصر عن دجاج أوربا إلا بحجم الجسم. فإن حجمه لا يتجاوز حجم هذه كبرا. ومما يستدعى البحث فى طباعها والبحث عن غرائزها بنوع خاص أنها لا تميل إلى احتضان بيضها. حتى لقد لجأوا فى مصر إلى التفريخ الصناعى وهو فيها شائعه = شائـع = بحيث يمكن التوكيد بأنه لم يكن فى بلد ما أعم انتشارا منه فى القطر المصرى، لاسيما وأن الوسائل المتخذة للتفريخ لا تقتضى إيقافه زمنا بحكم الفصول كما هو المشاهد فى البلاد الأوربية. وأبسط تجربة يمكن القيام بها لبيان الشذوذ الذى ذكرته الآن فى أمر الدجاج المصرى والدجاج الأوربى هو أن ينقل إلى مصر بعض الدجاج عرف عنه فى أوربا الميل إلى احتضان بيضه وأن ينقل إلى فرنسا فى الآن نفسه بعض الدجاج المصرى فإذا أدى هذا النقل إلى فقدان الأولى خصية الإحتضان وإكتساب الثانية لها فلا يكون السبب لذلك سوى تأثير الطقس، وفى هذا الحادث الغريب ما يستدعى الاهتمام بدرس أسبابه.

ويوجد بالفيوم وبندرة نوع من الدجاج أكبر حجما من الدجاج المعتاد وأطول أرجلا منه.

٧٢ـ الدجاج الهندى

جلب الدجاج الهندى إلى مصر منذ سنوات قلائل وتربيته فيها سهلة وانتشاره مطرد سريع.

٧٣ـ الحمام

يربى الحمام الداجن الشبيه بحمام أوربا فى مصر بعناية ونجاح، وله أنواع عديدة كما للحمام الصغير البرى المرغوب فيه كثيرا للذة طعمه. وهو يفضل على النوع الأول من حيث إنه غير مستأنس يتحرى غذاءه فى الجهات البعيدة فلا يكلف صاحبه فتيلا ولا نقيرا. وفى مصر قرى يكاد لا يوجد لأهلها شاغل سوى تربية هذا الصنف من الحمام.

٧٤ـ الأوز

النوع الأصلى من الأوز هو الرمادى لون الريش. وقد أدخل الأوز الأوربى إلى مصر حديثا. أما البط الأهلى فقليل الانتشار بخلاف البط البرى الذى يشبه لون ريشه لون الصلب، وهو يربى مع بقية الحيوانات الداجنة فى المنازل.

الطيور الجارحة

الحدأة ـ الصقر أو البازى ـ العقاب ـ العقاب الصياد ـ النسر ـ نوعان من الحدأة ـ الباشق ـ الصقر الشاهينى.

٧٥ـ الحدأة الرخمية

الحدأة من نوعى «آريان» و«جريفون» والحدأة الرخمية المعروفة بدنجاجة أو فرخة فرعون من الجوارح الشائعة فى مصر، وهى لا تستقر فى مكان واحد بل تهاجر فى أوقات دورية إلى القارة الأوربية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

٧٦ـ الصقر أو البازى

فى مصر سبعة أنواع من البزاة والشواهين وهى كلها صقور:

الصقر الحاج ـ الصقر الرمادى ـ الصقر الصغير ـ اليؤيؤ ـ الصقر الأرقط ـ الصقير الأرقط ـ الكوبز. وجميعها من الطيور الشاردة الرحالة(١).

٧٧ـ العقاب

أنواع العقاب أربعة وهى: العقاب العادى الرحال ـ العقاب الملوكى الشارد ـ العقاب الصارخ الرحال ـ عقاب طيبة المقيم.

ويوجد من هذا الأخير فى الشام بل وعلى سواحل بلاد البربر.

٧٨ـ العقاب الصياد

أنواع هذا العقاب وهى العقاب الصياد ذو الذنب الأبيض والعقاب الصياد المعروف باسم حنا الأبيض والعقاب الصياد القصير المنقار لم تكن نادرة الوجود فى القطر المصرى لأنها تجد غذاء ها وافرا فيه على ضفاف نهر النيل وسواحل البحر وشطوط البحيرات.

---

(١) جاء فى حياة الحيوان تقسيم الصقور إلى خمسة أصناف: البازى والباشق والبيدق والزرق. وفرخ البازى يسمى الغطريف.

٧٩ـ النسر

وعادة الانتقال غريزة في النسر والباشق فإنهما يظهران بالقطر المصرى فى مواعيد دورية مختلفة من السنة.

٨٠ـ نوعان من الحدأة

وما سبق من الكلام على النسر ينطبق على الحدأة الملوكية والحدأة السوداء.

٨١ـ الحدأة المعروفة باسم الأنيون

إن هذا النوع من الحدأة طير فريد في نوعه، وهو يعيش مقيما فى القطر وربما كان ينبغى حسبانه ضمن الطيور الشاردة.

٨٢ـ الباشق

يعرف الباشق العادى فى القطر المصرى بأنه من الطيور الرحالة فليس بمستغرب أن يستكشف علماء التاريخ الطبيعى بعض أصناف له بالنظر لاختلاف ريش هذا الطير الجارح.

٨٣ـ الصقر الشاهينى

البومة الكبيرة (غرندوق) ـ البومة المتوسطة (الدوق المتوسط) البومة القصيرة الشوشة ـ هامة سافنيى ـ المصاصة الصغيرة ـ المصاصة سكويس.

هذه الطيور الليلية الضعيفة الأجنحة الرخوة الريش فى قلة اتصال وتلاحم لا تستطيع الطيران لقطع المسافات الطويلة، وهو ما يؤخذ منه انها تقيم فى هذا القطر ولا تنتقل منه بالرحلة إلى قطر آخر. ولكن ظهور النوع المعروف منها باسم «ستركس اسكولافوس» فى انجلترا وبعض جهات أوربا مع أن مأواه الخاص القارة الأفريقية يناقض ذلك الرأى المبنى على الملاحظات الفسيولوجية.

٨٥ـ الخفاش والوطواط

تأوى أصناف لا حصر لعددها من الخفاش والوطواط داخل الأهرام والمقابر الفرعونية القديمة والمغاور والهياكل القديمة والأشجار الجوفاء، والصنف المعروف منها باسم الخفاش الأصهب أكبر الأصناف الأخرى حجما.

وقد قسم علماء التاريخ الطبيعى أصنافه أقساما تختلف عن بعضها بعلامات ومميزات خاصة، وتلك الأصناف هى: «دينويوم» و«ريمولوف» أى الذى

كحدوة الحصان و«نيكتير» و«زافيان» و«مولوس» و«نيكلونوم» و«روسيت» أى الأصهب.

٨٦ ـ عصافير الشوك

إن معظم أنواع العصافير الصغيرة التى ينطلق عليها هذا الاسم، وهى خاصة بأوربا، تظهر عادة بمصر فى الأوقات الدورية لهجرتها. فلسنا فى حاجة إذن لتعدادها وإنما اقتصر من باب الاستثناء على ذكر بعض أنواعها كالنوع المعروف بدقة منقاره مثل عصفور سيكسيكولا والعصفور الأصهب الصادح...إلخ.

وكلها دقيقة المنقار، وكذا العصفور ذو الطوق الأشقر اللون من نوع العصافير ذات المنقار المخروطى الشكل والقنابر المعروفة باسم «بيفاسيسى» و«ايزابلليني» و«الحسون» «الكوكو الأمريكى» الرمادى اللون و«الفينيجيل».

ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا عن العصفور الأوربى العادى. ويظهر أنه فى رحلاته وشروده لا يحيد عن طريق واحد و«الشوالة» العظيمة الانتشار فى شبه جزيرة إيطاليا، ثم العصافير المشقوقة المنقار كخطاف سافينى وقنبرة البرك التى تظهر عرضا فى إقليم بروفنس بفرنسا ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا.

أما الغربان فأنواع. منها الغراب النوحى والسقاو، وهذا الأخير هو الذى نراه يعلو المنازل فى القاهرة ويتنقل فيها انتقال السيد المالك ويوغل حتى يبلغ إلى مصر العليا وهو من نوع البضاء الألمانى وهو مسرول بالريش الأخضر الضارب إلى الزرقة ويخيل للناظر أنه طير من طيور المنطقة المحصورة بين المدارين.

ومن أنواع الطير النوع الملتصق الأصابع وهو يجتمع أسرابا كثيرة العدد ويعتبر من الوجهة الحيوانية الخاصة بهذا النوع الصلة بين افريقية الغربية وأفريقية الشمالية المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، ثم الأنواع المعروفة بأسماء «ميروبس سافنيى» و«ميروبس ايياستر» و«ميروبس فيريدس». وهذا الأخير هو الذى نراه يتقلب تقلبه الجميل فى الهواء فوق غيطان الذرة وبالقرب من أشجار السنط التى يأوى إلى أغصانها المتكاثفة، ثم النوع الرفيع المنقار الذى منه

الهدهد وهو لا يختلف فى شىء عن نظيره بأوربا.

٨٧ـ الطيور المتسلقة

لا أذكر من هذه الطيور سوى الشرشق المعروف بالشقراق ومقطع الظهر وهو من القواطع التى تمر بمصر مرا ولا تقيم فيها. أما النوع المعروف باسم «كوكسيزوس يزانوس» فهو والكوكو العادى من الطيور المقيمة بالقطر المصرى.

٨٨ـ الطيور التى من نوع الدجاج

يشمل هذه الطيور اسم «جنجا» أو «الجونية» أو «الجونى» وهى كثيرة بالقطر المصرى وتعيش على حواف الصحراء وكثيرا ما تتقدم أسرابا عديدة نحو الحقول المزروعة، وتقصد إلى ضفاف النهر لترتوى بمياهه وهى على أنواع منها:

الجونية القطاة.

الجونية لشتنستين.

الجونية التى ذيلها كالمقراض.

وهى جميعا من الطيور المقيمة وتختلف عن بعضها قلة وكثرة. أما السمانى أو الهى أو السلوى فيكثر فى بعض الأوقات، وهو يقطع فى رحلته المسافات الطويلة بحيث يرى فى الجهات المتعارضة من سطح الكرة الأرضية.

وهناك نوعان مختلفان كل الاختلاف من طير اليمام لا يمكن إغفالهما وغض النظر عنهما، وهما من نوع اليمام أو الشفنين العام المألوف الذى يمر بالبلاد مرا ولا يقيم بها ولحمه لذيذ مطلوب، ونوع اليمام المقيم ذى اللحم القليل غير المقبول فى الذوق. ويمام هذا النوع يشبه كثيرا يمام بلاد الغرب المطوق، لولا أن الجزء الأسفل من بياضه كدر ناصع كبياض ذلك اليمام المغربى.

٨٩ـ الطيور المعروفة بطول سوقها

إذا تصدينا لإيراد أصناف هذه الطيور الداخلة فى فصيلة أبى مغازل بما هو معروف عنها من التفاوت فى الحجم والاختلاف فى الشكل فإننا نزج بأنفسنا فى بيداء لا أطراف لها من الأسماء وهو ما يخرجنا حتما عن موضوعنا ويذهب بنا بعيدا عن أفقنا. لا سيما وإنها جميعها عين مايشاهد من أنواعها فى الأقطار الأوربية مما يعرف عنه الميل دواما إلى الرحلة والانتقال من

مكان إلى مكان. ولكنا نذكر منها عصفور الزقزاق المعروف بسواد الرأس والزقزاق البلدى (المسلح) وجراى الصحراء فانما.

ومما تسرنى الإشارة إليه الطير المعروف بأبى منجل أو أبى حنس، وهو نوع من اللقلق ومن أشهر الطيور الطويلة المنقار، وكان مقدسا عند قدماء المصريين ومحترما منهم، وقد وجدت جثته محنطة فى المقابر المصرية القديمة بعناية تامة واحتياط بالغ ، وصورته ترى ضمن النقوش الهيروغليفية.

ولم يكن ذلك الطير منتشرا فى القطر المصرى الآن انتشاره فى الأزمان السابقة فإذا شوهد فإنما فى الجهات التى يصعد منها إلى الشلالات ويكون فى صغره مجرد الرقبة من الريش فإذا كبر كساها الريش الكثيف على طول امتدادها.

وسأتبع هذه القاعدة فى الكلام على الطيور ذوات الكف كالبجع وأنواع البط والأوز.

٩٠ ـ الكلام على الحشرات

توجد الحشرات كلها على تعدد أشكالها فى مصر إلا القليل منها. فحشرة أبى دقيق أقل أصنافا فى هذا القطر من ذوات الأجنحة العمودية ، والحشرات الليلية من هذه (عفريت الليل) أكثر انتشارا من الحشرات النهارية. وتعزى هذه الكثرة إلى الشمس وتأثير أشعتها الشديدة الحرارة فى قطر لا يتسع فيه الظل ولا يمتد إلى مسافات بعيدة، ثم إلى النباتات المتسلقة التى تأوى ما لا حصر لعدده من الكائنات العضوية الصغيرة الحجم ، ويحتوى النيل بعض الحيوانات المفصلية من الطائفة القشرية وبعضا آخر من الطائفة العلقية. أما الحشرات من طائفة أبى ريالة فتخرق دائما مياه النهر وتلعب على ضفتيه. بل كثيرا ما ترتفع الألوف المؤلفة منها فى الفضاء وترحل مهاجرة إلى الأصقاع النائية كالطيور المختلفة وأبى دقيق.

أما الجراد وهو الحرجول أو الحرجل الذى كان فى العهد القديم من البلايا والآفات التى منيت مصر بها فلا يزال يرى فى أريافها أكثر عددا منه فى جميع البلدان. بينما ترى الطيور الآكلة للجراد تعيش فى البلاد كطيور مقيمة لارحالة ولا مهاجرة.

وما الحشرات العنكبوتية من جميع الأشكال والألوان التى إذا لسعت كانت لسعاتها عظيمة الخطر شديدة الضرر تأوى إلى الرمال والخرائب وتندس فى كل شيء حتى فى حصيرة السمر التى تفرش بها الحجرات. وهناك دودة صغيرة من نوع النمل المعروف باسم أبى على «ميرميليون» تثقب الأراضى المتحركة ثقبا على شكل القمع وتفعل فيها ما يفعله هذا النوع من النمل فى أوربا من التربص بالحشرات الأخرى للوثبة عليها والفتك بها واتخاذها غذاء تشبع به نهمتها.

٩١- الأصداف البحرية

الأصداف البحرية كالقواقع والشنج والركبة والودع قليلة الكمية فى مصر إذا قيست بما يعيش فيها من صنوف الحيوانات العضوية. والصدف المعروف فيها باسم «هليكس أريجولاريس» هو بوجه التقريب النوع الوحيد المعروف منها. ولا حصر لأشكال هذا النوع وألوانه لكثرتها.

وتحتوى مياه النيل الكثير من الأصداف المعروفة فى العلم بأسماء «أونيو» و«أيريدين» و«القورنى» كما تعيش على ضفافه «قواقع المستنقعات».

وفى الوجه القبلى وحوالى الشلالات توجد أنواع المحار الاسواقى المعروفة بالاثيرية التى يرجع فضل استكشافها إلى العلامة (كايو) وترى مندمجة فى القطع الصخرية. وتوجد أنواع من القواقع الحلزونية الصغيرة والودع متفرقة هنا وهناك.

٩٢- الهوام والأفاعى الرحالة

الهوام الداخة فى طائف الأفاعى كثيرة العدد فى القطر المصرى، وبعضها وهو الشطر الأصغر يسكن مياه النيل أو يأوى إلى ضفافه، والبعض الآخر يقيم فى المدن والحقول وأطراف الصحراء.

والتمساح ويسمى أيضا بالورل النيلى أشهر ما يسكن النيل من الهوام ولكنه لا يألف إلاجهات الوجه القبلى ولا يهبط ما يلى: بلدة جرجا شمالا وهذا هو السبب فى عدم رؤيته من النيل بجهات الوجه البحرى إلا نادرا فى أيام الفيضان العالى وهو يصل إليها مسوقا بتيار النيل.

والتمساح وإن لم يكن من الحيوانات التى تعيش فى الهواء والماء لتجرده من

عضوى التنفس - أى الرئتين يعيش فى الماء وعلى وجه الأرض ويتنفس الهواء الطبيعى. ولكنه إذا برز إلى البر ثحلت = بطأت = مشيته وتعطلت حركاته بخلافه فى الماء فإنه يبدو سريع الحركة كثير النشاط، وهذا ما جعله يخاف على حياته ويشعر بأنه لا يأمن عليها إلا إذا بقى فى الماء فتراه إذا سمع همسا لجأ إليه واحتمى به. وفيه تبلغ ضراوته الحد الأقصى. فكثيرا ما إذا عثر بإنسان يفتك به ويقضى على حياته. أما فى البر فإنه لايملك القدرة على الأذى وبطشه فيه لايخشاه حتى الطفل الصغير.

والتماسيح كثيرة النسل. فالأنثى منها تعمد إلى الرمل تودعه بيضها التى تنقب فى الميعاد بفعل حرارة الشمس. ويبلغ طول التمساح عادة وقت خروجه من بيضته سنتمترين ثم ينمو إلى أن يبلغ من الطول نحو الخمسة أمتار أو الستة، وقد شوهد منها ما بلغ طوله إلى عشرة امتار.

وتتخذ التماسيح مساكنها بأطراف الجزر والأماكن التى تستطيع الالتجاء منها بسهولة إلى النيل، وتعيش أفواجا مجتمعة وتخرج للصيد بإرشاد زعيم لها وإذا نامت قام أحدها بالحراسة والمراقبة. فترى أثناء النهار مطروحة على جزر النيل مستشرقة الشمس المتلظية أو مخرجة رؤوسها من الماء فترى متحركة بتأثير دفع التيار.

وفى القطر المصرى أنواع مختلفة من التماسيح كان نوع منها فقط موضع إجلال قدماء المصريين الذين كانوا يغالون فى تمجيده إلى حد دفع بسكان مصر الوسطى إلى عبادته. لاسيما وإنهم كانوا وهو صغير لا يخشون منه ضررا بل كانوا يستأنسونه ويألفونه.

وكان ماء الفيضان يسوق التماسيح إلى تلك الجهة. فإذا رآها المصريون اعتبروها بشرى خير وبركة وأدوا إليها مراسم التكريم الدينى وبلغ من حفاوتهم بها وإكرامهم لها أنهم كانوا يحلون أذانها بالذهب والأحجار الزجاجية كما يحلون أرجلها بالأساور الذهبية. وقد وجد الكثير منها محنطا فى المقابر على هذا المثال.

ونقتصر هنا على ذكر الأفاعى الأخرى التى بالقطر المصرى وها هى:

السلحفاة الرخوة النيلية الكبرى أو الرق واسمها العلمى «تريونكس»

وسماها المصريون «الترسة».

ورن البحر واسمه العلمى «توينمبيس» ويعرف أيضا باسم «مونيتور النيل» حيوان شديد الخوف سريع الانكماش. إذا رأى أحدا يدنو منه صفر صفيرا حادا . خصوصا إذا كان من ضوارى الماء كالتمساح وهو بذلك يخدم الإنسان خدمة جليلة لأنه يخطره بوجود هذا الحيوان.

الحردون المعروف عند الأقدمين باسم «ستلليون».

والضب المجهول أعضاء التذكير.

والوزغ أو البرص أو سام أبرص.

ومنه نوعان شهيران أحدهما الحلقى.

والحرباء القصيرة.

والسقنقور، وهو على تسعة أنواع بأقل تقدير، والفرق بينه وبين الورل من وجوه . منها أن الورل برى لا يأوى إلا بالبرارى والسقنقور لا يأوى من الماء، ومنها أن ظهر الورل أصفر أغبر والسقنقور مدبج بصفرة وسواد.

أما الورل وجمعه أورال وورلان فله سبعة أنواع مختلفة وهو والضب والحرباء وشحمة الأرض والوزغ كلها متناسبة.

وثعبان الرمل، ومقر بعضه فى الوجه البحرى والبعض الآخر فى إقليم طيبة.

والحية وتطلق على الذكر والانثى وانما تميز بقولهم حية ذكر وحية أنثى وهى على أنواع. الرقشاء والرقطاء بنقط أو خطوط سوداء وبيضاء.

وثعبان جهة الأهرام.

والأفعوان نوعان ـ الأفعوان ذو القرنين والهاج ـ وهو معروف بشدة خطره وقد قام فورسكال بتجارب عديدة على تأثير سمه فقال إنه سم قتال لا محالة.

والضفدع والشفدع ـ أى صغير الضفدع ، ومنها نوع يعرف باسم سافينيى تراه مذكورا ومرسوما فى كتب العلوم الطبيعية.

الأســماك

٩٣ـ عموميات

إن أسماك النيل وهى الجيدة التى أتصدى لذكرها هنا يتألف منها على قلتها مجموعات يهم القارىء العلم بها لما يستطلعه من أحوالها وعاداتها وتراكيبها العضوية.

وهذه الأسماك المختلفة فريقان، فريق يقيم باستمرار فى أماكن معينة والفريق الآخر من القواطع يتنقل من مكان إلى مكان فى مواعيد مختلفة من السنة. وربما بلغت الرحلة به إلى الأرجاء القاصية من الأرض. ومن الأسماك النيلية ما يجىء من أعلى جهات النيل حتى يبلغ إلى مصبه. فإذا جاء موعد الفيضان فى سبتمبر من كل عام أخذه الأهالى فكان لهم من الغذاء الطيب الوافر. ذلك لأنهم يلتقطون منه المقادير العظيمة فى الأرض التى يغمرها الماء بعد انحساره عنها وعودته إلى مجراه. وبحيرة المنزلة القريبة من دمياط كثيرة الأسماك تصاد منها الأسماك بمقادير وافرة جدا فيتجر بها الصيادون ويصدر منها إلى جزر الأرخبيل وبلاد اليونان.

وقد زعموا أن الأسماك القواطع الرحالة تحتوى أجسامها علامات مؤكدة تدل على هجرتها. والذى أجمع عليه العارفون بأحوال الأسماك وسلموا به أنها فى الوقت الذى تتجه فيه إلى مصبات النيل يصيبها بالجانب الأيسر من رأسها جرح أو أثر اصطدام. بينما التى تصعد فى النيل من مصباته إلى أعلاه يكون ذلك الأثر فى الجانب الأيمن منه، وبحسب الرأى الأول يكون الأثر ناشئا من أن السمك يدنو من الضفة اليسرى للنيل اجتنابا لقوة دفع التيار، وبحسب الرأى الثانى أن هذه الضفة تكون إلى يمينه.

نعم إن أحد المؤلفين المتأخرين الضليعين فى هذا الفرع من علم الحيوانات وهو الذى أخذنا عنه هذه البيانات ذكرها فى كتاب له، ولكنه لم يذكرها من قبيل التعميم على الأسماك القواطع كافة . بل جعلها مقتصرة على بعض أنواع. فقد قال بالحرف الواحد: إن السمك لا تهمه سرعة التيار الذى يلقى فيه بنفسه من غير أن يتحرى الطريق الذى يلائمه اتباعه. بل إن هناك حاجة تدفعه إلى

الحركة وترشده إلى الطريق، وهى حاجة الانضمام إلى أفراد طائفته. فتراه لهذا السبب يسارع فى الوصول معها إلى هذا الوسط الملائم لتوافر بواعث الطبيعة بالتزاوج. ومتى تم له ذلك وأراد العودة إلى الوسط الذى اعتاد الإقامة به والذى أقصاه عنه مؤقتا ذلك الاحتياج الغريزى فإنه يدنو من الشاطىء لمقاومة التيار الذى تفوق سرعته السرعة الطبيعية. وبهذه المناسبة وحدها تحدث الجراح التى ترى على جانبى رأسه لأعلى الجانب الأيمن منه فقط. وهو ما يثبت أن السمك فى صعوده للنيل إلتماس الأوبة إلى موطنه يسير بلا تمييز تارة إلى اليمين وطورا إلى اليسار وسط الاعشاب النهرية والأحجار التى تجد فيها بينه غذاء.

٩٤ ـ أسماء بعض أسماك النيل

هذه الأسماك هى:

الكرشرة اسمها العلمى «نريهس لاتس».

ونوع جميل يشاهد فى البرك التى يكونها النيل بالقرب من رشيد ولحمه لذيذ واسمه «خروميس بوتيه».

ونوع كان يسميه الأقدمون «لبيدوس» وهو من نوع «الباربو» واسمه العلمى «سبران لبيدوس» وكان فى عداد معبوداتهم.

وسمك آخر من نوعه استكشفه فورسكال وسماه «سيران النيل».

واللبيس وقد استكشفه (روبل).

ونوع يسمى «لنسك النيل» وهو سمك جميل فضى اللون ذهبى بريق البطن يوجد بنواحى طيبة فى أيام الفيضان.

ونوع آخر منه يسمى «منسسك بيبيه» ربما كان نوعا من أنواع السمك السابق.

ونوع منه يسمى «لنبسسك طيبة» ويعرف عند المصريين باسم ابيبه.

سمك مورمير «اكسيرنك» وهو الذى ذكرت عنه البيانات الخاصة بهجرته من مكان إلى مكان، وكان قدماء المصريين يبجلونه ويكرمونه.

وهناك نوع من السمك اسمه العلمى «مورميروس» وهو أصناف كثيرة منها:

الصنف المعروف بالكلشفى، والصنف المعروف بالعرسة، والصنف المعروف بالجنفى.

والصنف الذى يسميه المصريون بالقشرة، ويشبه قليلا السمك المعروف باسم سمك الكراكى أو القشر..إلخ.

الجرى أو سلورس ذو الأذنين، وتسمى أيضا الشلبة، واسمها العلمى «سولوروس وريتاس».

الجرى أو سلورس أو الشلبة بأنواعها واسمه العلمى «سولوروس مستوس».

وهناك ثلاثة أنواع من الشلبة نوع منها لاهبى اللون يسميه الأهالى بالشلبة العربى، واسمها العلمى «هبيوفتالموس نيلوتيكوس».

وهناك خمسة أنواع من الأسماك الغليظة أحدها هو ما يسميه المصريون بالشال ويوجد محفوظا بالتحنيط فى مقابر طيبة.

وثلاثة أنواع من صنف آخر من الشال اسمها العلمى «سينودونتيس».

والنوع المعروف فى الصعيد باسم البجتل والبجاس، وقد يبلغ من الطول أحيانا خمسة أقدام ولحمه رخو تافه الطعم لا إقبال عليه.

والسمك المعروف باسم الدقماق ويسمى أيضا بالخنزير.

والسمك المشوك وهو سمك صغير الحجم يخشاه الصيادون كثيرا بسبب ما تحدثه أشواكه من الوخزات الضارة ، وبالنظر إلى هذه الخصية فيه سماه المصريون أبوشكه.

القرموط، واسمه العلمى «هيتيروبر انشوس انجيلاريس» وهو معروف بقوته الحيوية وشدتها إلى حد أن مظاهر الحياة تظل بادية عليه بعد اخراجه من الماء ولو هشم رأسه. وبه تتغذى الطبقات الفقيرة من الأهلين.

والرعد أو الرعاد. يسميه المصريون بذلك ، ولكن هذه التسمية لا تفى بما توافر فيه من الخواص الكهربائية الغريبة التى بواسطتها يوصل إلى أجسام الذين يلمسونه موجات كهربائية شديدة تضطرهم إلى التنحى عن الإمساك به فى الحال.

والحيتان المعروفة باسم حيتان سليمان، وهى أنواع. منها الحوت المعروف

بالنفاش أو اللفاش ، والحوت المسند إلى (راسكال) والحوت المعروف باسم الراعى واسمه العلمى هو «شراسينوس نيلوتيكوس» والحوت المسنن والحوت المعروف باسم (بس) وهو نادر الوجود لايرى إلا بالقرب من طيبة (الأقصر).

ومن أنواع السمك البارموزه وهو صغير الحجم كثير الألوان والجية، وهو كثير بالقرب من طيبة ولايهبط الوجه البحرى فى النيل والملش والسردين السابوغة. ومن أنواعه كذلك:

أبومنقار، واسمه العلمى «هيميرهميس».

البرنونى، واسمه العلمى «مولوس».

البطيش، واسمه العلمى «جيرينيدون فاسياتوس».

البطيط، واسمه العلمى «موجيل سينالوس».

الفهدة، واسمها العلمى «باربوس برنس».

الفرخة، واسمها العلمى «موجيل سالينوس».

الجورنتى، واسمه العلمى «تريحلا» وهو سمك منتظم الهيئة وفيه خاصية استنشاق مقدار من الماء وقذفه بقوة على الناس وهو لايرى إلا أيام الفيضان.

الجرجار أو الزقزوق، واسمه العلمى «يرستييوما بتنيى».

اللبيس، واسمه العلمى «لابيونيلوتيكوس».

الشبار، أو البلطى واسمه العلمى «ثيلابيا».

البياض، واسمه العلمى «باجروس بياض».

سكان مصر المختلفون

عموميات - الأقباط - المصريون المسلمون - البدو أو العربان - اليهود - اليونان أو الاغريق - الأحباش - الأثيوبيون - الأوربيون.

لا نتصدى فى هذا المقام للبحث فيما إذا كان سكان مصر الأول من الصينيين أو الهنود. لأن الكلام فى هذا الموضوع بناء على الحدس والتخمين مجازفة إذا أصبت كبد الحقيقة أحيانا تتعرض للخطأ غالبا لتعذر الرجوع بخصوصها إلى الأسس القويمة والمآخذ المقطوع بصحتها. ومن البديهى بالنظر إلى حقيقة تكون الأراضى المصرية واتجاه مجرى النيل من الجنوب إلى الشمال أن يتبادر إلى الذهن أن الشعوب التى كانت تقطن بلاد الحبشة والنوبة العليا والنوبة السفلى انتشرت نحو الشمال تبعا لإتجاه تكون أرض مصر وجريان النهر الذى يشقها. وهذا الافتراض الذى يتفق مع تعليل المؤرخ هيرودتس لهذا الموضوع يبدو أنه الأدنى إلى الصواب. لاسيما إذا أمعنا النظر فى سحنة التماثيل والصور المنقوشة فى جدران أقدم آثار الأول وهيئات أعضائها.

ولقد كانت مصر أكثر من كل بلد سواه، محطا لرجال الثورات البشرية والحوادث السياسية. فلقد أغار بالتتابع عليها أقوام الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك والأتراك والفرنسيين فنشأ عن امتزاج هذه الأمم بالجنس المصرى واندماج نوعيتها فيه بقدر ما ان تناول الطابع الأصلى للسحنة المصرية شيء من التغير والاختلاف عن أصله الأول.

وسكان مصر الآن يتألفون من أقباط وعرب ويهود ويونان وأتراك وجركس وأحباش وسودانيين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومن جاليات أوربية.

٩٦ - الأقباط

درج المؤلفون دائما على اعتبار الأقباط وحدهم سلالة قدماء المصريين لايشاركهم فى هذه الصفة مشارك. واستشهدوا على هذا الرأى بما هو متوافر من جوامع الشبه المعينة بينهم والصور الهيروغليفية المنقوشة فى الآثار (١) ولكن خالف العلامة شامبليون هذا الرأى إذ وصف الأقباط وصفا جثمانيا بانسحاب الجبهة وسعة العينين فى سواد واتجاه قطاع الجفنين من أسفل إلى أعلى ومن

(١) وقف الكاتب الرحالة «فولنى» الذى زار مصر على أصل كلمة «قنط» التى تطلق باللغات الاوربية على الاقباط فقال: «أن كلمة قبطى العربية يظهر انها تحريف لكلمة «اجبتوس» اليونانية التى معناها «مصرى» إذ لابد من ملاحظة أن «يوتا» كان النطق بها عند قدماء اليونان وأن العرب بالنظر إلى عدم وجود حرف كما ينطق به امام ولا حرف الفارسى يبدلون من هذه الحروف بحرفين . أى القاف والباء العربية . فالاقباط والحالة هذه سلالة قدماء المصريين .

الداخل إلى الخارج ونتوء الخدين فى ضخامة وارتفاع صيوان الأذنين وانبطاح الأنف انبطاحا خفيفا وغلظ الشفتين فـى ارتفاع وعرض الذقن واسوداد الشعر، . وهـم بوجـه عـام نحـاف الأجسـام يقل مـن بينهـم السميـن. هـزيلـو الأعضـاء بشرتهم ضاربة اللون إلى الكدرة.

وهذه الصفات والمميزات لا تتوافر فى الأقباط جميعا . لأن سوادهم الأعظم اختلطت أنسابهم بالأغيار . فمن اعتنقوا المذهب الكاثوليكى منهم شيبت أصولهم بأصول المسيحيين اليونانيين أو السوريين. بينما الأقباط من أهل المذهب اليعقوبى وهم أكثر الأقباط انتشارا فى الصعيد فقد حفظت أنسابهم صريحة مصونة من تداخل الأعراق، وصينت مع عاداتهم وأخلاقهم السحنة المعروفة عنهم منذ قديم الزمان.

٩٧ - المصريون المسلمون

لا يختلف إثنان فى أن شطرا كبيرا مـن الأقباط اعتنقوا فى أول عهد الفتح العربى الديانة الإسلامية طوعا أو كرهـا، فالتحم الغالبون بالمغلوبين واختلطوا بهم ولبسوا جلدتهم.

وقد دخل العنصر العبرى فى هذا المزيج بنسبة ضعيفة جدا - إذا قيست بالعنصر الأصلى - فنشأ عن ذلك أن صار المصرى فى العهد الحاضر أقرب شبها بشكل ملامحه وطباعه وأخلاقه إلى قدماء المصريين منه إلى العرب الصميمين الذين لا يوجدون بأشباههم الحقيقية وأصلهم الصميم إلا فى بلاد العرب الأصلية.

ويختص المصريون المسلمون الذين يتألف منهم الآن السواد الأعظم من سكان المدن والأرياف - بل الذين أطلق عليهم اسم الفلاحين - بالصفات الجثمانية الآتية: عظم الجمجمة وقيام الوجه على قياس الزاوية القائمة تقريبا واستدارته على الشكل البيضاوى وتقوس الحاجبين وسواد العينين فى غور ونتوء الشفتين وكثافة اللحية وسعة الصدر وضمور البطن وتقوس العمود الفقرى واستدارة الأعضاء وقلة بروز المفاصل وصغر اليدين والقدمين وتوسط القامة واختلاف لون البشرة فى الدكنة. ومع أن مسطح مصر صغير وعرضها قليل وأطرافها متقاربة فقد شوهد أن بياض بشرة سكانها على سواحل البحر الأبيض المتوسط يقرب من بياض بشرة الأوربيين، ثم يضرب إلى الدكنة شيئا

فشيئا فيصير فى مدينة أسوان كلون أهل النوبة .

٩٨ـ البدو أو العربان

تعرف القبائل الرحالة التى ترتاد الصحارى القريبة من مصر باسم البدو أو العربان. والعربان مرتفعو القامة بوجه عام ارتفاعًا مناسبًا وأعضاؤهم غير مستديرة كما هى فى العرب الفلاحين بل ضئيلة نحيلة. ولونهم الطبيعى قريب من اللون الأبيض الذى لفحته الشمس، ونساؤهم بارعات فى الجمال، وهم يفتخرون بصراحة أنسابهم وسلامة أصولهم من الشوب ويحرصون على هذه المزايا . فتراهم لذلك يجتنبون بما فى وسعهم مصاهرة أهل الأرياف.

٩٩ـ البرابرة

البرابرة جيل من النوبة السفلى انتشروا على ضفاف النيل بين جزيرة فيلة (أنس الوجود) والشلال الثانى على مسافة طولها مائتا فرسخ تقريبا ويميزهم عن المصريين لون البشرة. إذ تشبه فيهم لون خشب الجوز الكابلى. والفارق بينهم والجنس السودانى الأسود عظيم لما امتازوا به من الإخلاص والأمانة وعددهم فى القاهرة الآن من خمسة آلاف إلى ستة يزاولون جميعا أعمال الخدمة المنزلية . فهم للمصريين فى مصر بمنزلة أهالى مقاطعتى (أوفرنى) و(سافوى) للفرنسيين، ويرجعون كهؤلاء إلى مواطنهم الأصلية ليقضوا فيها آخر أيامهم بعد أن يجمعوا من ثمرات كدهم شيئًا من المال، ومع امتداد بلاد البرابرة ذلك الامتداد العظيم فإن عددهم فيها قل أن يتجاوز مائة وعشرين الفا إلى مائة وثلاثين ألفا من النسمات.

١٠٠ـ اليهود

احتفظ اليهود فى مصر بسحنتهم الأصلية أكثر مما احتفظوا بها فى بلد آخر، وهم يختلفون عن الأهلين ببياض ألوانهم وزرقة عيونهم أو لونها الرمادى وشقرة شعر لحيتهم ورءوسهم.

١٠١ـ اليونان أو الإغريق

أصل اليونان المقيمين بمصر من الأرجاء المختلفة ببلاد اليونان، وبعضهم مولودون فى هذا القطر ويعرفون بتقاطيع وجوههم ورشاقة قوامهم ولطف حركاتهم واختلاف ملابسهم عن ملابس بقية السكان.

١٠٢ـ السوريون أو الشوام

السوريون كثيرو العدد فى القطر المصرى، وهم أقل من اليونانيين فى حسن مظهرهم وانحدار غريزتهم إلى البسط والمطايبة. ولغتهم العربية ولباسهم لباس الرعية من أهل القطر.

١٠٣ـ الأحباش

يؤتى بالأحباش إلى القطر المصرى ليباعوا فيه بيع الرق. ويخصى البعض منهم فترتفع بهذه العملية أثمانهم. أما الحبشيات فأقل عدداً فى مصر من الذكور والجهات التى يرد الأحباش منها إلى مصر سواحل البحر الأحمر وسواحل الأوقيانوس وداخل بلاد الحبشة وحدود بلاد السودان، وهم على ثلاثة أنواع.

الأول لونه كالمولدين. شعره متجعد فى ملابسه فلا يشعر لامسه منه بما يشعر به إذا لمس الصوف.

الثانى يقطن داخلية البلاد ولونه أنقى وأصرح من لون غيره وشعره طويل مرسل.

وهذان النوعان تنطبق أوصاف رءوسهما وتقاطيع وجوههما على المعروف من مقابلها عند العرب، وإنما فى دقة وتناسب لا يتوافران فى رأس العربى ولا فى تقاطيع وجهه. وهيئة أعضائهما مستديرة وبنيتهما رقيقة وتنقصهما القوة البدنية كما تنقصهما الهمة النفسية، على أنهما آية فى الذكاء والأمانة.

والنساء منهن يمتزن بالمحاسن الخلقية ورقة الأخلاق وحسن الطباع.

أما النوع الثالث من الأحباش فموطنه حدود إقليم (الجلا) حيث يضرب لون بشرتهم إلى السواد وشعورهم صوفية اللون والملمس وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع وجوه السودانيين.

١٠٤ـ الأثيوبيون

أصل السودانيين الذين يصلون إلى مصر من بلاد دارفور وكردفان وبلاد الكاميل. والقبائل فى هذه الأقطار مختلفة يحارب بعضها بعضاً فيأخذون الأسرى الكثيرين ويبيعونهم أو يقايضون عليهم، ويأتى تجار من النوبة يعرفون

بالجلابة فيأخذون هؤلاء الأسرى إلى أسواق النخاسة بمدائن مصر الكبرى ليبيعوهم فيها. والسودانيون من تلك الأقطار تختلف أشكالهم الجثمانية وصفاتهم الطبيعية اختلافا عظيما. وهم يختلفون عن بعضهم بالقامة وشكل الرأس وتقاطيع الوجه ولون البشرة ودرجة الفهم والذكاء.

١٠٥- الأوربيون

يتألف الأوربيون النازلون بالقطر المصرى، والذين تشملهم فيه لفظة «الإفرنج» من جاليات تابعة لأمم أوربا وعلى الخصوص إيطاليا وقد جاءوا جميعا إلى مصر وبلاد الشرق الأدنى مدفوعين إليها بحب الكسب من مزاولة الأعمال التجارية. والقليلون منهم يتخذون هذا القطر مقاما دائما لهم ولأعقابهم، وأغلبهم يعودون إلى أوطانهم.

ولسوف اغتنم الفرصة فى الفصول المخصصة للكلام على الأمة وأخلاقها لذكر شىء عن الأقوام المختلفة بالقطر المصرى مقرونا ببيان مايجمعها بعضها إلى بعض من الروابط والعلاقات وإيراد أهم الصفات الأدبية التى اختص بها كل فريق منهم.

الباب الثالث

السكان والمساكن والمدن والقرى فى مصر

(١)
السكان

سكان مصر فى العصور القديمة ـ السكان الحاليون ـ أسباب قلة السكان فى القطر المصرى ـ ما اتخذه محمد على من الوسائل لإنماء عددهم ـ الموانع التى تحول فى الوقت الحاضر دون ظهور أثر الإصلاحات التى قام سموه بها.

١ ـ سكان القطر المصرى فى العصور القديمة

محقق أن سكان القطر المصرى أيام مجده القديم كانوا كما فى جميع الممالك والولايات الراقية كثيرى العدد منيعى الجانب بكثرتهم. ولو سلمنا بما ذكره كل من استرابون وديودورس الصقلى لكان عددهم فى عهد الملك سيزوستريس، وفى أيام البطالسة يتراوح من سبعة ملايين إلى ثمانية. وقد بالغ مؤرخو العرب فى تعداد سكان القطر المصرى مبالغة أفضت بهم إلى زعم أن عدد سكان مصر كان إبان الفتح الإسلامى يناهز العشرين مليونا من النسمات، وأن عدد مدنها وقراها كان نحو العشرين ألفا.

وبعيدا عن الشك أن هذا التقدير مبنى على ما عرف به الشرقيون من المبالغة والإغراق. على أنه لا يبعد كثيرا عن الصحة وربما كان مصيبا لشاكلة الصواب إذا رجع فى تقدير سكان قطر ما على المتوافر فيه من الوسائل الطبيعية الكافية لقضاء حاجاتهم المعيشية . فيكون أولئك المؤرخون قد اعتمدوا فى تقديرهم على ما استنتجوه من اتساع أراضيها وطبيعة تربتها

ومقدار مساحتها القابلة للزراعة.

ولما كان مسطح مصر يعدل على هذا الاعتبار السدس من مسطح فرنسا، وكان بمثابة واد خصيب قابلة مساحته للزيادة كما هى قابلة للنقصان. فبالزراعة وحدها يستطاع توسيع نطاقها بإيصال مياه النيل إلى الصحراء لإخصاب رمالها. فإذا أحللنا محل الاعتبار هذه العناصر التى تتألف منها الثروة الداخلية للبلاد فإنى أرى قريبا من الاحتمال أن يكون عدد سكان مصر قد بلغ قبل هبوطها فى هاوية الانحطاط إلى نحو الثلث مما قدره أولئك المؤرخون من العرب.

٢- السكان الحاليون

فى بداية هذا القرن - أى فى عهد الحملة الفرنسية قدر عدد سكان القطر المصرى بما لا يتجاوز مليونين من النسمات. نعم لم يكن هذا التقدير مبنيا على شىء من الدقة والضبط . إذ قد ثبت بالإحصاء أن عددهم الآن يبلغ ثلاثة ملايين من النسمات.

ومن المستحيل الرجوع بهذا الرقم إلى مصدر صحيح وبيان مضبوط لحرمان مصر فى الوقت الحاضر من نظام تضبط بمقتضاه الأحوال المدنية لكل فرد من الأهلين، وانما التقدير عمل بحسب مايستنتج من الإحصاء التقريبى لعدد المنازل فقد ذهبوا إلى أن منازل مدينة القاهرة يحتوى كل منها ثمانية أشخاص ومساكن الأرياف أربعة على حساب المتوسط فى الجهتين. وقدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمائة ألف نفس. الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح. أما مجموع السكان فيمكن تقسيمهم على الوجه الآتى:

المصريون المسلمون	٢٦٠٠٠٠٠
المصريون المسيحيون - أى الاقباط	١٥٠٠٠٠
العثمانيون - أى الأتراك	١٢٠٠٠
العرب - أى البدو	٧٠٠٠٠
السودانيون	٢٠٠٠٠
البرابرة	٥٠٠٠

الأحباش	٥٠٠٠
المماليك الجراكسة	٥٠٠٠
اليهود	٧٠٠٠
السوريون	٥٠٠٠
اليونان الرعية	٣٠٠٠
الأرمن	٢٠٠٠
اليونان الأفرنج	٢٠٠٠
الإيطاليون	٢٠٠٠
المالطيون	١٠٠٠
الفرنسيون	من ٧ إلى ٨٠٠
الإنجليز	من ٨٠ إلى ١٠٠
النمسويون	من ٦٠ إلى ١٠٠
الروسيون	من ٢٠ إلى ٣٠
الأسبانيون	من ١٥ إلى ٢٠
السويسريون والبلجيكيون والولنديون والبروسيون والدانيماركيون تقريبا	١٠٠

وأكرر القول هنا بأن هذه الأرقام ليست رسمية، وما قصدت بإيرادها إلا تصوير فكرة تقريبية عن السكان فى القطر المصرى.

٣ ـ أسباب قلة عدد السكان فى مصر

لا يسع المرء إذا قارن عدد سكان القطر المصرى فى العصور القديمة به الآن إلا التساؤل ـ والحزن ملء فؤاده ـ عن أسباب النقص السريع الذى اعترى النوع البشرى فى بلاد خولتها الطبيعة كل العطايا والمنح. ولما كان هذا القطر محصورا بين صحراوين فهل يمكن القول للإجابة على هذا السؤال بأنه يتنازل شيئا فشيئا عن أراضيه ليحتلها ذلك المغير الذى لا يعرف للرأفة والشفقة معنى؟ وهل صحيح ما يزعم بعض علماء طبقات الأرض[١] من أن الناموس الطبيعى يقضى بأن تعمر جهات الوجه القبلى بالصحراء التى سبق لها أن وارت تحت رمالها شطرا كبيرا من إقليم طيبة القديم، وأن النوع البشرى قد طاردته فأخرجته من مواضعه وأماكنه القديمة تلك القوة التى لا

(١) راجع كوفيين فى خطابه عن التقلبات التى تناولت سطح الأرض.

غالب لها. هذا ما لا نعتقده، وإنما الذى نسلم به أن بنى مصر يستطيعون التغلب على الصحراء فإذا كانت هى الغالبة على أمرهم فما ذلك إلا لجمودهم وتراجعهم عن مغالبتها بما استنبط فى هذا العصر من ذرائع التقدم ووسائله.

الحياة فى مصر هى النيل والموت هو الصحراء. والنيل هو الذى أوجد مصر من العدم، فهو إذن روحها ولايزال كذلك. أما الصحراء فإنها إذا تركت إلى القوة التى تدفعها نحو الأرض الخصبة فإنها لا تلبث أن تلتهمها وتفنيها شيئا فشيئا فى ذاتها، ولكن النهر يستطيع التغلب على الرمال بإخصابه إياها بمياهه فمن الواجب للاحتفاظ بمصر الجميلة التى توغل بمقدار مائتى فرسخ فى البحار الرملية بل لتوسيع نطاقها، معارضة قوة الصحراء بقوة النهر ودفعها بها. ولاريب أن رفاهية مصر وزيادة عدد سكانها يتوقفان على حسن تدبير مياه النيل. بل هما مرتبطان وثيق الارتباط باتساع نطاق الرى وتعهد احواله، فلتتيسر موالاة هذه المصالح الحيوية الجليلة الخطر بالرعاية ومواصلتها بالمراقبة الدائمة لاغنى عن مشاركة القدرة للفكرة وإتحادهما معا وأن تكون الحكومة مصدر الاثنتين.

فمصر إذن أكثر البلاد احتياجا إلى تدبير أمورها بمعرفة حكومة عاقلة مدبرة. ووجودها المادى وحفظ كيان تربتها الزراعية وبالتالى نمو عدد سكانها يتطلب الهمة فى العمل والمثابرة عليه من القابضين على زمام أمورها. ولكن قضى الله أن لا يوجد على وجه الأرض بلد اختل نظام الحكم فيه منذ عشرة قرون اختلاله فى القطر المصرى. بل لا بلد شهد فى مدد قصيرة تناوب السلطات المختلفة مثله على استلام زمام أموره على ما عرفت به من شدة الهمجية والميل إلى التخريب مع الدعة والتهاون والغباوة فى إدارته[١].

وإذا بحثت عن أسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فإنك لاتلبث أن تتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والإفساد حتى ضاع

(١) الناشر: يقصد الكاتب الإشارة إلى السلطات وليس الشعب.

الغرض النافع المقصود منها.

فإذا كان فى مصر أسر شهـدت حقولها ومزارعها وقد علتهـا من الصحراء طبقة صيرتها غير صالحة للزراعة حتى اضطـرت أن تهجر مواطنها وأماكن عزهـا، وإذا وجدت أسر غيرها قد أنهكهـا الفقر المدقع وأضناهـا الجوع حتى كاد أفرادها يتلاشون عن آخـرهم للسبب المتقدم. فما الخطأ فى ذلك إلا خطأ السلطة ولية الأمر، أو بعبارة أخرى خطأ حرمان البلاد من سلطة جديرة بأن تتحلى بهذا الاسم.

وإذا كانت الأوبئة على تعددها واختلافها قد تحيفت القطر المصرى وفتكت بأبنـائه أذرع فتك واتخذته لنفسهـا مستقرا ومقـاما، فمن ذا الـذى تقع على عواهنـه مسئوليـة الإهمال فى اتخاذ الوسـائل لدفـع ضررها إمـا بالصيـانة والوقايـة وإما بالمكافحة؟ بـل من ذا الذى يحاسب على جهلـه وغفلته فيكون إثمه غليظا وقصـاصه عليه عبرة ظاهرة للنـاس ومثلا مضروبا؟ إن على رأس تلك الحكـومات – إن وجدت – تقع أثقـال هذه العبرة، فإن لم تكن مـوجودة فقد حق للنـاس أن يرفعوا الصوت بـالشكوى والتذمر مـن سوء الحال وشر المآل.

ولقد نشأ عـن الفوضى الطويلة التى حلـت فى مصر محل النظام أن شيعا كثيرة من صغـار الزعماء استمدوا من قـوة الحسام ما انتحلوه أنفسهـم من حق التصرف فى نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك. ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتهـا وشبابها وقـوتها وقد ضيـق عليها الأنفـاس أولئك الألـوف المؤلفة مـن صغار الظلمة الطـاغين؟ ومن أين لـذلك البلد أن يـرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثـل المصاب بالبرص ليس لـدائه طب. إذ أصبح ميـدانا مستمـرا للحروب الأهليـة ومجالا تعبـث فيه شيـع الفاتحين الغـزاة بالخراب والفسـاد.

٤ ـ محمد على ووسائل زيادة عدد السكان

محقق أنه لإقـامة أركان سلطة قويـة فى بلد تدهور فى مثل هـذا الدرك من الانحطاط الأدبى والمادى، وإيجاد وحدة متينة العـرى حيث ذهبت وحدة كل

شيء بددا، بقوة الفوضى التى تعاقبت على مدى الأجيال، وتخويل هذه السلطة الجديدة من الحياة ما يكفى لضمان استمرار تأثيرها بانتقال التقليد بها من طريق الوراثة إلى سلالة أسرة واحدة، لايكون مثل هذا العمل الجليل على ما يتراءى لى إلا عملا ذا عبقرية ساطعة عجيبة والذريعة الفريدة لبعث مصر ثانيا إلى الوجود وزيادة عدد سكانها، وقد كان هذا قصارى ما يستطاع أن ينتظر من محمد على. بل لم يكن لأحد الحق فى أن يطالبه فى هذا الموضوع بأكثر مما عمل.

ومع هذا فإن خصومه وشانئيه لم يكفوا عن توجيه التهمة إليه بأنه استنفد قوى البلاد المصرية واستدر حلابها . بل ذهبوا إلى أنه قد أتى إثما غليظا لتنقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية مالا تتسع للإنفاق عليه مالية البلاد.

فإذا كان من المسلم به لإعادة مصر إلى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة فى سالف الأزمان من البدء قبل كل شيء بانشاء حكومة قوية على أسس وطيدة فلابد من غض النظر والتسامح حيال الوسائل التى استعان محمد على بها على تعزيز سلطته بالقوة التى تكفل لها الاستمرار.

وليس بغارب على فكر أحد أن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» لمن المبادىء التى تحقق على البلاد المتوحشة التى يخضع كل شيء فيها لحكم الاستبداد الفعلى. بل والتى لاتزال كلمة الحق العام فيها من الكلمات المجهولة أو من اللغو الباطل، فمن عجز المنطق وقلة الذمة وسوء النية أن يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الأمة من الآلام الوقتية ويصيبها من الأضرار الزائلة التى يؤدى إليها تنفيذ مشاريعه الكبار، وليست هذه الأضرار والآلام إلا نتيجة الأمراض المزمنة التى أخذ على عاتقه تطهير مصر من أدرانها وصيانتها من عواقبها الوخيمة.

نعم إن مصر قليلة فى عدد السكان الآن، ولكن ليس فى استطاعة الوالى ابتكار ما يؤدى إلى زيادة عددهم فورا. إذ من المقرر أن المدنية لاتبلغ إلى حد الكمال حتى فى أكثر الظروف والأحوال ملاءمة لها إلا بتأثير الزمن. ولم يقل أحد إن شعبا نهض من عثرته وبدل شبابا من هرمه وقوة من ضعفه بإحدى

وسائل السحر . فمما يدعو إذن لإكبار محمد على وتكريم ذاته أن جعل وسائل التقدم والإصلاح ممكنة فى مصر، وأن يتخذ منها قوة تحل محل الضعف ويستمد منها حياة وعمرانا يقومان مقام الموت والخراب.

فمحمد على لم يستنفد رجال وادى النيل. بل دأب على ما يوجب كثرة عددهم. ولقد كان نابوليون يقول: «إذا انقضت عشرون سنة على مصر وهى بيد المماليك يتصرفون فى إدارتها على ما تشاء أهواؤهم فإنها تكفى لخسارة ثلث أراضيها الزراعية وخرابها» ولكن «محمد على» عرف بحكمته ودرايته كيف يوقى مصر شر هذا الرأى. إذ شق الترع الكثيرة التى حملت إلى الجهات القصية من بلاد الأرياف عناصر الخصب والرخاء، وأدخل التحسين على نظام الرى فأصابت حسناته القفار والصحارى فزادت محصولات مصر زيادة بالغة، واستدعى إليه الأطباء الأجانب لاستئصال شأفة الأمراض، وأنشأ مدرسة للطب ومستشفيات عديدة، وكان داء الجدرى قبل ولايته يحصد الثلث من عدد الأطفال. فبما اتخذ من وسائل المكافحة والوقاية زال هذا السبب الذى كان من أهم أسباب نقص السكان. إذ تقرر تلقيح المولودين وغيرهم بالمادة الجدرية، وحال بين الموظفين والتسلط على الأهلين بالظلم والعسف، وساد النظام التام فيما خضع لحكمه من بلاد افريقية التى ظلت فيما سبق نهبا مقسما وفريسة بين القبائل التى كانت كالكلاب المسعورة فى الشره إلى الغنائم . وساد الأمن وخفقت ألوية النظام بحيث أصبح ساكنوها متقلبين على مهاد الراحة والنعيم. بل أهنأ بالا منهم فى أى بلد من أوربا ساد فيها النظام واستقر الأمن على أوطد أساس.

٥ ـ موانع ظهور الإصلاحات التى قام بها الوالى

إن قوات مصر العسكرية هائلة فى الحقيقة، ولكنها لا تنهض دليلا يستند إليه القائلون بأن الجندية المصرية نظام داع إلى نقصان عدد سكان القطر. فإن الفلاح يجد فى الجيش الذى هو أحد جنده هناء ونعيما يبعد أن يكون متمتعا بمثلهما فى بيته، وعدد الوفيات بين الجنود أقل منه نسبيا بين الفلاحين. ومن جهة أخرى فإنه من المسموح به لرجال الجيش التزوج وهم فى الغالب متزوجون الآن.

ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاولة أعمال الزراعة، ولولا أن «محمد على» بحاجة إلى الدفاع عن استقلاله ضد ما يلاقيه من سوء الإرادة والنية، بل لو كان من المسموح له أن يتخصص للعناية بشئون الأقاليم الواقعة تحت حكمه وأن يوجه إليها كل خاطره لكفاه الزمن القصير لينشر على أهليها أجنحة الهناء ويغدق عليهم الثروة واليسار.

ولقد تم اليوم إنشاء الحصون ودور الصناعة وأقيمت المبانى العمومية والأشغال الأساسية ودفع ما استلزمته الأدوات من النفقات. فلم يبق إلا أن تقطف مصر ثمار المزايا المنتظرة من الإصلاحات الحديثة. إذ لم تبق الحياة السياسية لصاحب تلك الاصلاحات على محك البحث والمناقشة من غير انقطاع. أما المصائب والآلام التى ما برحت مصر تنوء بها فأوربا وحدها هى الكفيلة برفع هذه الأصر عنها إذا أرادت أن تحسم المصاعب الناشئة عن المسألة الشرقية حسما نهائيا جازما [١]. فإذا لم تكن مصر حتى الآن تستطيع السير بقدم ثابتة فى طريق السعادة والمدنية فما ذلك إلا لأن الدول الغربية هى التى يرجع الأمر إليها فى تعضيدها التعضيد النهائى بوضع حد لما نجم من المتاعب والمشاق عن بقاء الحالة السياسية الحاضرة على ما هى عليه بالنسبة لها مقرونة بما تتكبده من القلق الشديد على مصيرها.

(١) الناشر: إنها وجهة نظر المؤلف فى الفترة التى أصدر فيها كتابه.

(٢)
منازل السكنى والمبانى العمومية

منازل المدن ـ مظهرها الخارجى ـ باب الدخول ـ الشبابيك ـ الجديدة ـ السطوح ـ صحن الدار ـ حجر النساء ـ بيوت القرى ـ المساجد ـ الأسبلة والأحواض والحمامات ـ الأسواق والقهوات والوكائل.

٦ـ منازل المدن

منازل المدن بوجه عام أفسح منها فى القرى وأجمل. وهذا الفارق لما يلفت النظر فى القطر الذى يشكو سكانه من أهل القرى الفقر ويعانون الفاقة على وجه يخيل معه أن الهناء والرخاء قد فارقا ربوعهم ليهبطا المدائن الكبرى ويسيرا فى ظل سكانها تبعا لهم وطوعا إرادتهم.

ومواد بناء المنازل فى المدن الأحجار العادية وحجر الجص. وهما يؤخذان من الجبال المجاورة لها، ثم من حجر الآجر المطبوخ بالنار أو المعرض لحرارة الشمس.

وليس لتلك المساكن غالبا سوى دور أرضى وطابق علوى، وقلما شيد فوق هذا الطابق طابق ثان، لأن كل دار لا يسكنها إلا أسرة واحدة. وسيدرك القارىء على أيسر وجه سر هذه العادة متى علم أن المسلمين نزعت بهم التقاليد إلى قصر الحياة البيتية على العزلة وقطع الصلة مع الأغيار. فهم يؤثرون أن تكون لكل منهم داره كى يستطيع إغلاق بابها عليه دفعا لكل صلة تترتب على المخالطة أو ما يستتبعها من المودة.

٧ـ المظهر الخارجى للمساكن

لما كانت دور المسلمين مقتصرة على ما ذكر من المصلحة الذاتية فمن الطبيعى أن تختلف فى أسلوب بنايتها وتوزيع حجراتها ومظهرها الخارجى عن غيرها من المساكن، وأن يقصد بترتيب أوضاعها وتنميق زخرفتها إلى توفير الهناء الذى يتحرى أربابها أسبابه وجعلها . بحيث لا تصل إليها أشعة أبصار المتسمعين والمتسقطين. فإنه لم يراع فيها مثلا مجاراة أذواق الجمهور فى أن تكون على نمط من أنماط البناية الهندسية الصحيحة . فحوى أغلبها

لهذا النقص الفاضح مشيدا بحكم الجزاف والمصادفة فى شوارع غير معتدلة. ودور الأغنياء منها كثيرا ما يرتد الطرف عنها وهو حسير لقبح منظرها وحقارة مظهرها وخلوها من كل أثر للتناسق أو الزخرفة، ولكنها فى مقابل ذلك تحتوى من الداخل أجمل ما يقع البصر عليه من الزخارف وثمين الرياش، وربما كان لإغفال شأن المظهر الخارجى للمنازل سبب آخر غير قلة اكتراث أصحابها بميول الجمهور وأذواقه وهو اتقاء مطامع العظماء وأصحاب البطش بتزهيدهم فى التطلع إلى ما يستره القبح الخارجى من الجمال الداخلى. فلقد تبين الشرقيون بالتجربة الطويلة ما يتهددهم من الخطر فى أموالهم وأعراضهم إذا امتدت أنظار الأقوياء إلى ما وراء جدرانهم القبيحة من مجلس النفائس وثمين الأعلاق وجميل المقتنيات.

٨ ـ باب الدخول

مداخل هذه المنازل أبواب واطئة جدا تفتح دواما إلى الداخل، وتتألف من دفة = درفة = واحدة بحيث إذا فتحت وقف نظر الناظر دون جدار قائم تجاه المدخل والى جانبه منفذ يوصل منه إلى داخل البيت. والأبواب فى هذا تغلق بعارضة متينة من الخشب تجرى فى مجراها ، فتمر بالباب كله على اتجاه العرض فإذا أريد فتح الباب أدخلت فى مجراها وإذا أريد إغلاقه سحبت منه وهناك أيضا مزاليج من أصناف مختلفة لا أرى فائدة من إيراد وصفها فى هذا المقام.

٩ ـ الشبابيك الحديدية

لواجهات المنازل نافذات كبيرة ركبت فيها قضب حديد متشابكة ضيقة الثقوب تؤذن للهواء والضوء بالنفاذ إلى داخل الحجرات، ولكنها تحول دون رؤية ما وراءها من الأشخاص أو الأشياء. والطابق الذى يلى الدور الأرضى هو الذى توجد النوافذ به عادة، وهو بارز إلى الأمام بنحو قدمين أو ثلاثة أقدام فيتكون من هذا البروز شرفة مستورة لا يمتد البصر إلى ما وراءها. والمشربيات التى تركب عادة فى هذا الجزء البارز عبارة عن قطع صغيرة دقيقة من خشب المخروط تعشق بعضها فى بعض بحيث تتألف من مجموعها أشكال ورسوم متشابكة لطيفة المنظر. وفى بيوت الفقراء تتخذ حواجز النوافذ من البوص أو سعف النخل. أما دور الموسرين ففيما عدا الحواجز الحديدية توجد بها أبواب من الزجاج تحول دون نفاذ العثير = التراب الناعم = إلى الداخل.

١٠ـ السطوح

لما كانت سقوف المنازل فى مصر مسطحة فقد استتبع ذلك أن تكون سطوحها مسطحة كذلك، ومن ثم أطلق عليها هذا الاسم. وتحيط بالسطوح ذروة بارتفاع الإنسان وتتخذ مناشر لتجفيف الثياب المغسولة. ولكنها فى الحقيقة معاهد خاصة لتريض النساء فى منازلهن. خصوصا إذا كانت خالية من الحدائق والأفنية وإليها يصعد رب البيت وحرمه وجواريه لاستنشاق النسيم العليل فى الأصيل والتماس الراحة من عناء النهار، وتطلى السطوح - أى ظاهر السقوف عادة بمونة تتألف من رماد الأفران والجير والمصيص. أما فى منازل أصحاب اليسر والرخاء فتبلط بالبلاط الحجرى مقطوعا قطعا صغيرة رفيعة جدا.

١١ـ صحن الدار

فى كل منزل غالبا صحن داخلى تتوافر فيه مزيتان: إحداهما إدخال الضوء والهواء فى حجرات الدار، والثانية الاستفادة بما حوله من الأمكنة فى اقتناء الحيوانات الداجنة كالدجاج والمعز.. إلخ أو إيواء حيوانات النقل كالخيل والحمير أو حفظ الأمتعة الفائضة عن الحاجة، وقد يجعل فيها الطاحون والفرن والمطبخ ومسكن للخدم وحجرة استقبال الزائرين (المنظرة) يتوسط ذلك كله بئر لاستقاء الماء اللازم للمرافق المنزلية منها.

١٢ـ حجرة النساء

يختص القسم الأعلى من الدار بالنساء. وهو يحتوى بهوا كبيرا يشبه البهو الخاص بالاستقبال فى منازل الأوربيين، وكذا مخادع النوم لرب المنزل ونسائه وجواريه وغرفا أخرى..إلخ.

١٣ـ المميزات الخاصة

دور المسلمين كافة - إلا القليل منها - مشيدة على الطراز المتقدم ومقسمة بمقتضاه فإذا وجد اختلاف يسير فى الترتيب بين دار وأخرى فإنما يرجع إلى التفاوت بين أربابها فى الهيئة الاجتماعية وجاهة وثروة. فبيوت الأغنياء مثلا تحتوى الحدائق غالبا وهى سرحهم ومراحهم دون غيرها يختلفون إليها لترويح النفس وتطييبها وتعوض عليهم لذة ما يرجى من السرور بتنزههم فى الخارج، وتحتوى مساكن العظماء أحيانا صحنين وحديقتين وبنايتين

إحداهما للرجال والأخرى للنساء.

ودور المصريين مبلطة عامة ببلاط من الحجـر. أما الاغنياء فيقوم المرمر فى دورهم مقام البلاط فى تلـك وفيها الحمامات. وتبلط مناظرها بـالقاشانى، وفى وسطهـا حوض ينبثـق منه الماء. وفى الحجـرات العليا أحـواض من هـذا القبيل ذات نافورات، وليس فى كل دار سـوى مدخنة هى التى يسلك = يخرج = منها دخـان المطبخ. أما بيـوت الخلاء فعديـدة. إذ لكل حجرة واحـد منها. وزجاج الشبابيك لا ينفتح كما هنا بدفتين بل يرفع من أسفل إلى أعلى فيتحرك فى مجرى خاص به يمنة ويسرة ولما كانت التهوية من الأمور المهمة فى البيوت المصرية فالذى جرت عليه العادة فى مصر أن يفتح فى السقف فتحة يقام عليها منـور متجـه إلى الشمال (البحـرى) فـإذا مـا أقبلـت الـريـح مـن الشمال واصطدمت بهذا الحاجز هوت إلى داخل المنزل فجددت هواءه.

والنمط الهندسـى الغربى هو المعمـول به فى إنشاء جميع المنـازل تقريبا بالقطر المصرى ،ولا يجهل أحد ما تحلت به هذه الهندسة البنائية من الرسوم الظريفـة والزخـارف الجميلة والتراكيب المنسقـة والألوان الـزاهية. وهـو ما يصـح معه القـول بأن البيـوت المصرية مـدينة بجمال منظـرها إلى الأجـزاء التفصيلية التى هـى أس ذلك النمط الهندسـى وقوامه. ولقد سبـق لى الكلام على رداءة مظهرها الخارجى. وهى من حيث تـوزيع أقسامها الداخلية حقيقة بمثل هذا الانتقاد. إذ لانظام بالمرة فى توزيع الغـرف بل غالبا ما تكون بعض الحجرات أكثر ارتفـاعا من البعض الآخر وغير قائمـة على مستوى واحد وأن تكون كلها حجرات طابق واحد. وهذا الاختلال الهندسى مقصود بذاته. لأنه يساعـد على العزلة التـى يطلبها رب البيـت. وهناك مخابىء كثيرة ليـس من الممكن انشاؤها إلا إذا ضحى بالنسق الهندسى ووحدة التطابق فى المجموع.

ومنذ بضع سنـوات طرأ اختلاف عظيم على أنماط هندسة المسـاكن فحل محلها النمـط الإسلامبـولى الذى هو عبـارة عن مـزيج من النمـط اليونـانى الفاسـد والنمط العـربى لارائد له مـن الذوق السليم. ولقـد أنشئت مبـا من الخشب طبقا لهذا النسـق الجديد، وروعى فيها استبدال القواعـد البيضـاوية الشكل بنوافذ كبيرة مستطيلة واستعيض عن النقوش العربية الجميلة بصقل

أسطح الجدران صقلا متناسقا وهو مما ينبو عنه النظر وينبذه الذوق.

١٤ـ الحوانيت

فى الأدوار الأرضية من المنازل الواقعة فى الأحياء التجارية حوانيت التجارة ومخازنها. وهذه الحوانيت صغيرة جدا يختلف مسطحها من ١٢ إلى ١٦ قدما عرضا فى مثلها طولا، وليس لها فى مقدمها مكان تعرض فيه البضائع. وكل ما هنالك دكان من الحجر يحول بين الجمهور المقبل على الشراء والدخول فيها فيضطر إلى البقاء خارجها.

١٥ـ منازل القرى

فى مدن الوجه البحرى فقط تشاد المنازل بالحجر والآجر، لأن الأمطار فيه كثيرة والمنازل تستلزم الصلابة والمتانة أكثر مما تستلزمهما المنازل فى الوجه القبلى لقلة الأمطار، ولا يستعمل فى بلدان الصعيد عادة إلا الآجر المربع المجفف فى الشمس والمبنى من الطين وحده، وليس فيه مدن كبيرة بل قرى صغيرة فقط فيها مساكن الفقراء، وهى فى أقصى ما يكون من الحقارة. لأنها عبارة عن أكواخ لا ترتفع فوق سطح الأرض إلا ببضعة أقدام وجدرانها الهشة متخذة من الطين الآجر النيىء الذى اتخذ روث الحيوانات لإلصاق بعضه ببعض. والضوء والهواء ينفذان فيها بفتحات صغيرة جدا، وأسقفها مغطاة بفروع الأشجار وسعف النخل. ويعيش الفلاح فى هذه الغرفة الضيقة مع ما يملكه من الحيوانات الداجنة. وفى عدد عظيم من القرى أبراج مربعة الشكل للحمام ولكن جدرانها مائلة ميلا قليلا وقائمة فوق سطوح الأكواخ.

١٦ـ المساجد

المساجد هى معابد المسلمين، وهى كثيرة العدد منتشرة فى جميع أرجاء القطر المصرى لكثرة ماشاد منها الملوك والأمراء والاغنياء إظهارًا لورعهم وتقواهم. والقاهرة وحدها فيها أكثر من أربعمائة مسجد تحتوى مبانيها عادة بوابات ترتفع صفوفها حول صحن مربع فى وسطه حوض معد للوضوء والجانب الذى فيه المحراب والمنبر من المسجد يتجه صوب مكة المكرمة، وهو أفسح من الجوانب الأخرى، وبه صفان أو أكثر من الأعمدة موازية للجدار الخارجى ويتألف منها الجزء الأمامى من المسجد، وفى الجدار المتقدم تجويف يسمى بالمحراب هو دليل الاتجاه نحو مكة بالنسبة للمسجد وإلى اليمين من المحراب المنبر الذى يصعد فيه الخطيب ليعظ المصلين، وتجاه المحراب إلى الخلف أدراج بسطت عليها نسخ من القرآن ودكة يقيم المؤذن

منها الصلاة. وفوق المساجد ترتفع المنارات فترتسم على صفحة السماء اللازوردية اللون كسهام محددة النصال، وهذه المنارات يدعو المؤذنون من أعلاها المؤمنين إلى الصلاة فى الساعات المقررة لها فتكسب المدائن الإسلامية طابعا خاصا تخلو منه المدائن الأخرى. وتكتسى جدران المساجد بنقوش هى آية الظرف والدقة والإتقان. ومعلوم أن نبى المسلمين لما أراد أن يطعن الوثنية فى قلبها الطعنة القاضية عليها شدد فى تحريم تصوير الكائنات الحيوية = الحية = ولو كان رسما بالقلم فكان هذا سببا فى ألا توجد على الآثار الإسلامية نقوش تمثل صور الإنسان أو الحيوان ذات الأشكال المختلفة التى تحير بمختلف تراكيبها اللب وتأخذ بمجامع القلب، وهى كلها لا تمثل سوى تشابك الأغصان وتضاهى = تماثل = الأوراق والأزهار على نمط بديع يشير إلى ما هنالك من الحذق والمهارة فى الصناعة.

وغالبا ما تعترى السياح الدهشة كلما زاروا هذه المساجد ورأوا ما هى عليه من اندثار تلك النفائس فيها شيئا فشيئا وتعذر عليهم التوفيق بين هذه الحالة وما يظهره المسلمون من التقوى والورع والتعلق بالدين واحترام المساجد. ولكن لنا أن نقول إن هذا الاحترام نفسه هو السبب فى إهمال شأن المساجد على الوجه الذى رسمناه لمبالغتهم فيه إلى حد أنهم يخشون أن مجرد الشروع فى ترميم العطب وإصلاح الفاسد يعد منهم افتئاتا وتعديا على تلك الآثار الجميلة . فهم يتركونها على حالها من الاندثار إلى أن تؤول إلى السقوط فإذا سقطت شرعوا فى بنائها من جديد.

١٧- الأسبلة والأحواض والحمامات

فى غالب الأمر يلحق ببناء المساجد منشآت للجمهور كالأسبلة وأحواض الماء والحمامات والمدارس والفنادق. أما الأسبلة فشائعة شيوعا عظيما فى جميع أرجاء القطر. إذ يوضع فيها الماء فى أيام الفيضان النيلى ليوزع على المحتاجين إليه. وهذه الأسبلة مستديرة الشكل وتحلى بالنقوش وفى نافذاتها الشبابيك المصنوعة من البرونز والأعمدة الرخامية والزجاج الملون والكتابات المحفورة. أما الأحواض فعبارة عن حوض يملأ بالماء وتعلوه قبة أو باكية، وكثيرا ما يكون بالقرب منه بوابة كبيرة تجعل لها منظرا أثريا. ويقضى طقس مصر بالاستحمام ، ويحتمه دين المسلمين، وهذا هو السبب فى وجود عدد كبير من الحمامات العمومية.

١٨ القهوات والأسواق والوكائل

من الخطأ تصور القارىء أن القهاوى فى الشرق تشبه القهاوى فى بلادنا بوجه ما من وجوه الشبه. فإن القهاوى المصرية عبارة عن غرف يحيط بها دكاكين من الحجر مغطاة بالحصر يجلس عليها المصريون للتدخين وشرب القهوة وسماع القصص، والقهاوى من هذا النوع كثيرة جدا.

أما الأسواق فليست إلا شوارع مغطاة على عطفيها = جانبيها = حوانيت صغيرة تتزاحم أقدام الناس فيها.

وأما الوكائل فبنايات كبيرة مخصصة لحاجات التجارة ، وهى عبارة عن أبنية مقامة حول فناء مربع يحتوى فى وسطه حوض ماء وحوله مخازن فسيحة مسقوفة بالحجر كيلا تؤثر فيها نار الحريق. أما الأدوار العليا فمقسمة إلى غرف وحجرات ينزل فيها الغرباء من التجار.

١٩ـ المدن والقرى المصرية

يؤخذ مما ذكرته عن المساكن المصرية أن المدن التى تتألف منها لابد أن تكون على شىء من الجمال، ولكن الحقيقة غير ذلك. فإن الطرقات فى هذه المدن لا تحف بها منازل يرضى شكلها النظر أو يسر القلب. فضلا عن أنها غير خاضعة لقانون تنظيم يجعلها فى تعاقبها على خط مستقيم. لأن كل مالك متى شرع فى بناء منزل له أقامه على مايرضى هواه ويتفق مع مصلحته ولذا كان فى الغالب لا يهمه التوفيق فى الاتجاه بين واجهة منزله ومقتضيات الطريق العامة. فكثيرا ما تراه يجعل هذا المنزل مائلا على هذا الطريق لاقائما عليه وهذا فضلا عن أن الطرقات كثيرا ما تكون من الضيق بحيث تكاد مشربياتها المتقابلة تلتقى ببعضها فتمنع انطلاق الهواء فى الطريق وتحجب أشعة الشمس عنه. ثم إن الطرقات لم تكن مفروشة بالبلاط . فهى إما أن تغطى بطبقة كثيفة من العثير وإما بطبقة أكثف منها من الطين. وفى الحالين يكون المرور منها مكروها ومتعذرا. وهناك شوارع على شىء من الاتساع ولكنها جميعا معوجه تعترضها الأزقة المسدودة أو تتلاقى ببعضها على وجه المصادفة ومن غير ترتيب. فيتكون من مجموعها تيه يتعذر على من لم يكن قد ألف السير فيها التماس مخرج له منها.

وتنقسم المدائن إلى حارات أو أحياء تغلق كل حارة منها فى الغالب بأبواب كبيرة تعهد حراستها ـ كما هو الحاصل فى القاهرة ـ إلى حراس يظلون طول الليل فى موقف المراقبة، ولكل حارة من تلك الحارات اسم تعرف به. كما أن

لكل طريق اسما كذلك، ولكن هذه الأسماء لم تكن مكتوبة على جدرانها . كما أن المنازل لم تكن مرقومة بأرقام التعداد. أما الاستصباح = الضوء من المصابيح = العام فى الطريق فمجهول بالمرة وغاية ما هنالك من الضوء فى الليل ما يعلقه الأغنياء من الفوانيس على أبواب منازلهم فى أثناء الليل. ومواقع المدن والقرى اختيرت بمحض المصادفة وبدون رعاية شرط ما من الشروط التى تقتضيها قواعد الصحة التى يهملها سكان القطر وأهل القرى منهم خصوصا فيضرون بأنفسهم ضررا بليغا . فإنك تراهم يتركون المنازل يعمل فيها الفناء بلا اكتراث فتشقق جدرانها وتنتشل أحجارها فلا تلبث أن تصبح ملتقى لصنوف الحشرات والأفاعى، وهذا فضلا عن إغفالهم إزالة الأنقاض التى تتراكم على الأرض، وربما زادوا الطين بلة بإلقائهم عليها من غير كراهة ولاتقزز قمامات المنازل وقاذوراتها وما تعافه النفس من فضلات طعامها فيكون ذلك شر بؤرة تنبعث منها عناصر الأمراض الوبيئة.

(٣)

التقسيمات الأرضية

التقسيمات فى الأزمان القديمة ـ التقسيمات فى عهد المماليك ـ التقسيمات الحالية ـ المديرلكيات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.

٢٠ ـ التقسيمات فى الأزمان القديمة

كانت مصر على عهد الفراعنة مقسمة إلى ستة وثلاثين نوما – أى قسما أو مديرية، وكل نوم أو مديرية إلى مراكز صغيرة. وكان أربعة عشر من تلك الأقسام بالوجه البحرى واثنان وعشرون بالوجه القبلى. وحافظ البطالسة على هذا التقسيم فلم يدخلوا عليه تغيرا ما، فلما صارت مصر فى أيام أغسطوس قيصر إقليما رومانيا رأى أنها من الأهمية بحيث لا يليق أن تعهد إدارتها إلى حاكم واحد فجعلها اثنى عشر قسما فقط.

٢١ ـ التقسيمات فى عهد المماليك

أما فى عهد المماليك فكانت مصر مقسمة إلى خمسة عشر إقليما . تسعة منها فى الوجه البحرى وهى البحيرة ورشيد والغربية ومنوف ودمياط والمنصورة والشرقية وقليوب والجيزة، وثلاثة فى مصر الوسطى وهى أطفيح والفيوم وبنى سويف، وثلاثة فى مصر العليا ـ أى الصعيد وهى أسيوط وجرجا وطيبة، وحافظ بونابارته على هذا التقسيم فلم يدخل عليه تعديلا ما.

٢٢ ـ التقسيمات الحالية

أما محمد على فقد غير هذه التقسيمات برمتها. إذ قسم القطر أقساما إدارية رأى أنها أصلح لحصر السلطة وأدعى إلى تركيزها وتوحيد أعمالها. فجعلها سبع حكومات أصلية يقوم على تدبير شئونها المديرون، وقسم هذه الحكومات أو المديرلكيات = مديريات = إلى مقاطعات والمقاطعات إلى مراكز يحوى كل مركز منها عددا من القرى.

وقسم الوجه البحرى إلى أربع مديرلكيات ومصر الوسطى والوجه القبلى إلى ثلاث، وجعل عدد المقاطعات فيها كلها أربعا وستين مقاطعة وظهر من الإحصاء أن عدد القرى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية.

وسأبين هنا مراكز المديرلكيات والمقاطعات التى تتألف منها والمدن الشهيرة والقرى المهمة التى تحتويها.

٢٣ ـ المديرلكية = المديرية = الأولى

تتألف هذه المديرلكية من أقاليم البحيرة وهى مقاطعات الرحمانية والنجيلة وشبرى ريس ودمنهور. وفى الطرف الشمالى الغربى من هذا الإقليم ثغر الإسكندرية. ومن أهم قراه أبوقير وديروط والطرانة ثم إقليم الجيزة ويتألف من مقاطعتى الجيزة والبدرشين، وفيها من المدن ميت رهينة (منفيس) ودهشور وسقارة.

أما القاهرة فلم تكن داخلة فى إحدى المديرلكيات، ولكنها توجد بحكم وضعها فى إقليم، الجيزة ثم اقليم قليوب، ويتألف من مقاطعات قليوب والمرج وبنها العسل وطحا. ومن قراها الشهيرة شبرى = شبرا = والخانقاه وأبوزعبل والمطرية.

٢٤ ـ المديرلكية الثانية

تتألف من إقليم منوف، وهى مقاطعات أشمون جريس والباجور وشبين الكوم ومليج وابيار، ومن قراها الشهيرة منوف، ثم الغربية وتتألف من مقاطعات فوه وزفتى وطنطا والجعفرية والشباسات والمحلة الكبرى ونبروه وشربين ودمياط. ومن مدنها رشيد وهى لاتدخل فى إدارة مديرى المحلة الكبرى.

٢٥ ـ المديرلكية الثالثة

تتألف من إقليم المنصورة، وفيه مقاطعات ميت غمر والسنبلاوين والمنصورة والوادى ومحلة دمنة والمنزلة ومن قراه الشهيرة فارسكور

والعريش والتينة بالقرب من أطلال الفرمة.

٢٦ـ المديرلكية الرابعة

تتألـف من إقليـم الشرقية، وهـى مقاطعات شيبـة النكاريـة والعزيـزية وبلبيس وهـهيا وأبوكبير وكفور نجم.

أما أطفيح فتتألف من مقاطعة واحدة من أشـهر قراها التبين.

٢٧ـ مديرلكية مصر الوسطى

هذه المديرلكيـة تشمل الفيوم وبنى سويـف وتتألف من ســت مقاطعات وهى فمن العـروس والفيوم وبنى سويـف، والفشن وأبوجرج. ومـن قراها الشهيرة الزاوية وأبوصير الملق ومدينة الفيوم واللاهون ومعصرة دروة.

٢٨ـ الوجه القبلى والصعيد

ينقسم الوجه القبلى إلى مديرليكيتين تشمل الأولى بنى مزار والمنيا وزاوية موســى وديروط وملـوى والقوصية ومنفلـوط والدويـر والشروق وأسيوط وسوهاج وطهطا وأخميم وبرديس وجرجا وفرشوط.

وتشمل الثـانية مقاطعـات قنا وقوص وإسنـا وإدفو. ومن أشهـر مدنها دندره ومدينة آبو.

(٤)
أشهر مـدائن القطر المصـرى حـالا

الإسكندريـة ـ أبوقير ـــ رشيد ـ دميـاط ـ دمنهور ـــ الرحمانية ـــ فوه ـ المنصورة ـ المحلة الكبرى ـ طنطا ـ المدن الأخرى فى الوجه البحرى ـ القاهرة ـ بنى ســويف ـ الفيوم ـ فيديمين ـــ المنيا ـ الأشمونين ـ منفلـوط ـ أسيوط ـ أخميم ـ جرجا ـ قنا ـ قوص ـ إسنا ـ أسوان ـ السويس ـ القصير.

سأتـوخى فى كلامى على أهـم مدائن مصر الحالية المرور بها مـرا سريعا، وسأبتـدىء بالواقـع منها فى الوجـه البحرى ثم أتبـع فى ذكر البقية تـرتيبها بحسب مجرى النيل صعودا . وهذا الترتيـب ينطبق على الطبيعة. إذ هو الذى يراها بمقتضاه السياح والرحالون الذين يزورون القطر المصرى.

٢٩ـ الإسكندرية

قال نابليـون: «اشتهر الإسكندر بتأسيسه مدينـة الإسكندرية وانصراف نيته إلى اتخاذهـا مركز دولتـه وعاصمة ملكـه أكثر مـن اشتهاره بفتوحـاته

العظيمة وانتصاراته الباهرة.

فقد كان مقررا أن تصير تلك المدينة عاصمة العالم بأسره، وهى حرية بذلك لوجودها بين آسيا وأفريقيا واتصالها بالبلاد الهندية والأصقاع الأوربية. ومِيناؤها هو المرسى الوحيد للسفن على مدى خمسمائة فرسخ من السواحل الممتدة من تونس أو قرطاجنة القديمة لنهر النيل ومِيناؤها يسع أساطيل العالم بأجمعه وفى الميناء القديم تكون عرضة لعبث الرياح وهجمات الأعداء».

وموقع الإسكندرية فى درجة ٥ ، ١٣ ـ ٣١ْ من العرض الشمالى ودرجة ٣٠ ٣٥ـ ٢٧ْ من الطول الشرقى ، وقائمة بالقرب من بحيرة مريوط على البرزخ الذى بين القارة وشبه الجزيرة التى يتكون منها الميناء القديم والميناء الجديد. أما الميناء الجديد وهو الواقع إلى الشرق فمتسع المدخل ولا أمن فيه على السفن إذا لجأت إليه أثناء اضطراب البحر. وفى النهاية القصوى من لسان الأرض الواقى له قلعة المنارة، سميت بذلك لأنها مشيدة على المكان الذى كانت به فى الأزمان القديمة منارة البطالسة. أما الميناء القديم فإلى الغرب من الأول وهو حوض عميق جدا إذا لجأت إليه السفن أمنت على نفسها عبث الأمواج بها، والبوغاز المؤدى إليها يتعذر المرور منه على السفن الكبيرة التى جزؤها الغائص فى الماء عميق. وكان الدخول منها إلى الميناء ممنوعا ومحرما على المسيحيين قبل أن يتسلم محمد على مقاليد الحكم. إذ كان لا يجوز لهم النزول إلى البر إلا فى الميناء الشرقى الشديد الخطر على السفن ـ كما قلنا.

وموقع الإسكندرية، وقد أحاط بها البحر من جهة ورمل الصحراء من جهة أخرى، يجعلها كالجزيرة. وليس فى المدينة الحالية شىء من الإسكندرية القديمة غير الاسم والأطلال الدارسة، وقد لاحظ الكثيرون هذا الأمر. والذى خططها وأقام مبانيها بمقتضى الأوضاع والأوصاف التى عينها الإسكندر الأكبر هو بنفسه المهندس (دينوقراطس) ويؤخذ من رواية (بلينياس) أن طول محيطها كان خمسة فراسخ تقريبا ، وأن عدد سكانها كان ٣٠٠,٠٠٠ من الأحرار ومثلهم من الأرقاء. وكان يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طوله ٢٠٠٠ قدم وعرضه ١٠٠ قدم يقطعه فى زوايا قائمة شارع آخر مثله. وكانت أحياؤها محلاة بالمبانى المنجدة من القصور الباذخة والهياكل الفخمة والمدارس الجمنازية والمسارح التمثيلية..إلخ.

ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب أنه لما استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية كانت مؤلفة من ثلاث مدائن تسمى إحداها «منه» والثانية «نكيته» والثالثة «الإسكندرية» ووصفها ذلك الفاتح العظيم فى كتاب بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال إنه وجد بها ٤٠٠٠ قصر و ٤٠٠٠ حمام و ٤٠٠٠ ملهى وبناية عامة و ١٢٠٠٠ مخزن أو مستودع للتجارة.

وقبيل سنة ١٢١٢ من الميلاد المسيحى أحاطها أحد السلاطين ممن حكموا بعد السلطان صلاح الدين بسياج طوله الدائرى فرسخا يتخلله مائة برج ولايزال هذا السور قائما إلى الآن ورممه محمد على.

وقد سقطت مدينة الإسكندرية من علوة مجدها منذ فتحها المسلمون وهبطت إلى الدرك الأسفل من الحضيض فى عهد المماليك. فليس بغريب إذن أن تكون فى أيام وصول الحملة الفرنسية إلى القطر المصرى واحتلالها إياها قرية يأوى إليها القرصان، وأن لا يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة وأن تكون حصونها وقلاعها آيلة للسقوط وأن ينتابها العربان فى كل وقت للنهب والسلب. حتى أن الإنسان كان لا يستطيع الخروج منها لزيارة عمود بوميبوس (السوارى) الواقع على مسيرة عشر دقائق من المدينة من غير حرس يحرسونه.

ولم يطل احتلال الفرنسيين لمصر ليتمكنوا من إحلال الإسكندرية فى المرتبة الأولى التى تجعلها حقيقة بها بموقعها الطبيعى على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكل ما استطاعوا أن يقوموا به فيها من الأعمال أن شادوا حولها الاستحكامات اللازمة لوقايتها من غارة العربان وترميم الاستحكامات القديمة التى عملت فيها يد البلى والاندثار.

وما أن استتب لمحمد على الحكم على الديار المصرية حتى أدرك بثاقب نظره وصائب فكره ما لها من الأهمية العظمى من الوحوش = الوجوه= الحربية والبحرية والتجارية، وهى الأهمية المستمدة من طبيعة موقعها كما ذكرناه. فإنها بلا مراء المفتاح الحربى للقطر المصرى، وأول نقطة يتصدى لها العدو المغير بهجماته. فكان فى الدرجة القصوى من الأهمية السهر على توطيد تلك الحصون والاستحكامات وتعهدها بما يجعلها على الدوام مكينة البنيان وثيقة الأركان. ولاشك فى أن احتلال الانجليز إياها سنة ١٨٠٧ ألقى فى نفس محمد على الاعتقاد بأن أقل إهمال فى هذا المصدر ربما كان فيه

القضاء على نفوذه ومكانته أبد الآبدين.

ومرفئا الإسكندرية هما الوحيدان اللذان على السواحل المصرية ، وإذا كانت الأساطيل ضرورية لصيانة استقلال القطر المصرى الذى لا تستطيع الدول الأوربية تهديده إلا عن طريق البحر. فالإسكندرية المرفأ الوحيد الذى تستطيع هذه الأساطيل اتخاذه مكمنا يتعذر الهجوم عليها فيه. فقد كان من الواجب اغتنام هذه المزية الطبيعية وهو ما لم يغفل عنه محمد على لأنه جعل الإسكندرية ثغرا حربيا وأنشأ بها دارا للصناعة (ترسانة) فارتفع لها شأن بين مرافىء البحر الأبيض المتوسط.

أما الأهمية التجارية لكل نقطة من نقط سواحل مصر على البحر الأبيض المتوسط فتابعة لسهولة المواصلات بينها والقاهرة التى هى المركز التجارى والصناعى والسياسى لذلك القطر وكانت الإسكندرية قديما تتصل بالجهات الداخلية من القطر بفرع النيل الذى كان واصلا إليها. فلما انسدت هذه الترعة بانهيال الأتربة فيها كان أول ما عنى الفاتحون العرب به إيصالهم إياها بالقاهرة بترعة أجاد المؤرخون الشرقيون وصفها. ولكن هذه الترعة لم تلبث فى أيام أن اندثرت كسابقتها وأصبحت لافرق بينها والخندق البسيط يجف الماء منها أثناء الشطر الأكبر من السنة، فنشأ عن ذلك أن فقدت الإسكندرية مكانتها التجارية التى آلت من بعدها إلى ثغر رشيد.

غير أن محمد على أبى أن يستمر هذا الغبن. فأعاد إلى الإسكندرية أهميتها الأولى بإنشائه ترعة تسير فيها السفن سماها بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود إجلالا وتخليدا لاسمه، ومنذ هذا الحين انحصرت دائرة التجارة فى الإسكندرية وجعل ناظر التجارة المصرية مقره فيها لهذا السبب، ولكى يباشر أيضًا مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير إلى التجار الأوربيين.

ولما نهضت الإسكندرية من عثرتها وعادت إلى نضرة شبابها الأول من الوجوه الثلاثة المتقدمة ازداد عدد سكانها بسرعة غريبة فوصل إلى ٦٠٠٠٠ نسمة الثلث منهم يعملون فى الأساطيل والمصانع نوتية أو صناعا. والثلثان الباقيان نصفهما - أى عشرون ألفا من الأهالى الوطنيين والنصف الثانى منه ستة آلاف من الأتراك وعشرة آلاف من اليهود والقبط وخمسة آلاف من الأوربيين. ولا يدخل فى هذا التعداد السكان الرحل ـــ أى الذين يأتون إلى الإسكندرية لقضاء الأشغال أو لمجرد السياحة ثم يعودون إلى مواطنهم.

ولقد تغير منظر المدينة تغيرا محسوسا خلال السنوات الأخيرة. فلقد كانت المقابر الفسيحة بداخل المدينة فزحزحت إلى خارجها، وبعد أن كانت مستنقعات المياه الراكدة تتخللها جففت وردمت. أما الطرقات فمن المحقق أنها لم تفرش بالبلاط، ولكن العناية بنظافتها متواصلة وأنشئت على أعطافها = جوانبها = فى كثير من جهاتها المبانى المختلفة ودور الصناعة (الترسانات) والقصور والثكنات العسكرية والفاوريقات والمستشفيات..إلخ وهدم قسم عظيم من الأسوار التى كانت محيطة بها من ناحية البحر لتحل المبانى الجديدة محلها وتنمو المدينة النمو الطبيعى الذى كانت بحاجة إليه.

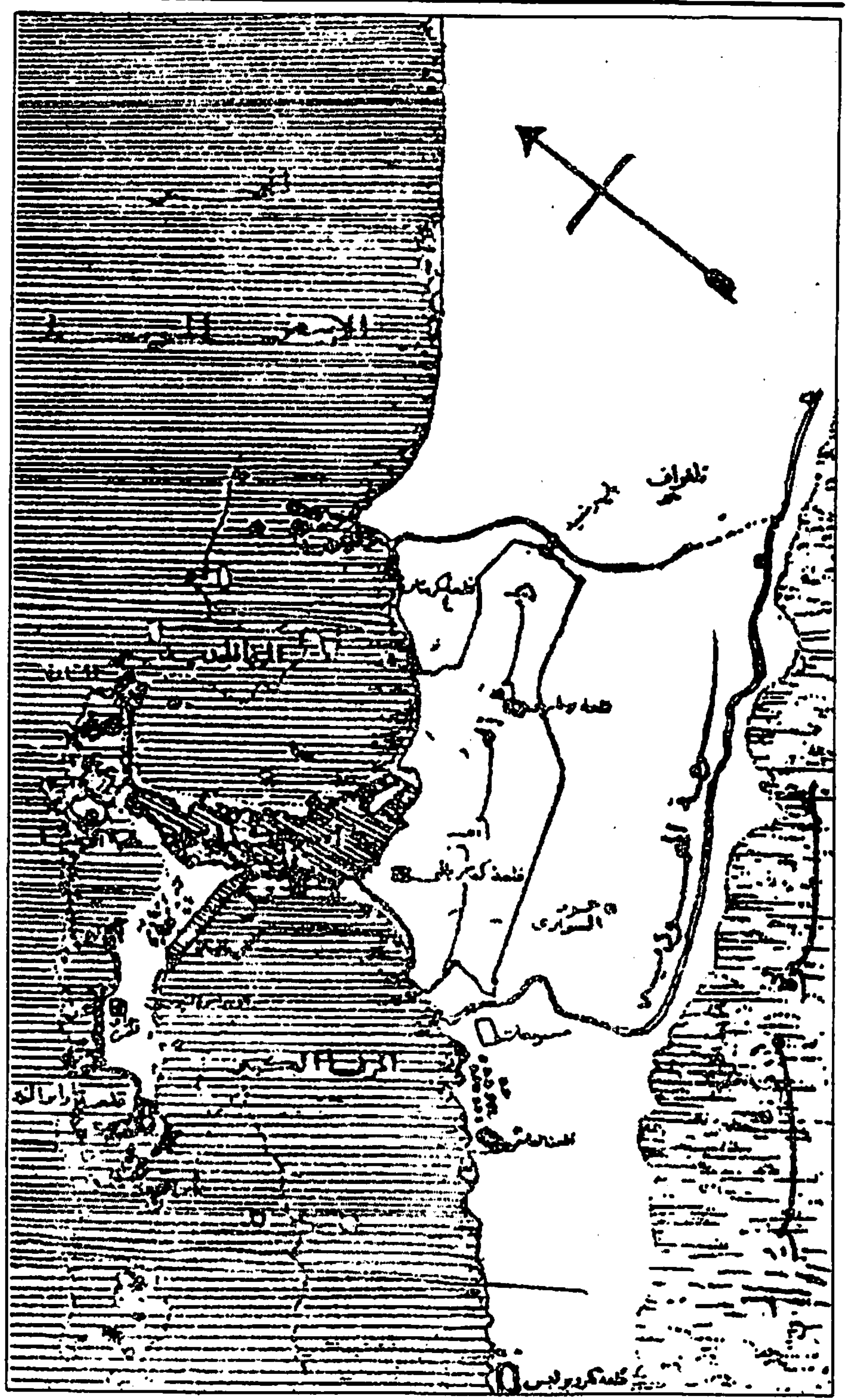
ودار الصناعة البحرية (الترسانة) مشيدة فى شبه الجزيرة المعروفة برأس التين كما شيد فيها قصر الوالى وجملة من المبانى المخصصة لمصالح الحكومة.

أما البرزخ الواصل بين رأس التين والأرض القارة. ففيه الحى الذى يسكنه الأتراك وهو مشيد على النمط المألوف فى المدن الإسلامية.

ويلى ذلك الحى حى الأوربيين، وكان بالإسكندرية فى الزمن السابق حى أفرنجى يسكنه الإفرنج ـ أى الأوربيون ـ فصار أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الآهلة بالوطنيين منذ ألقيت مقاليد الحكومة إلى عهدة محمد على واتخذ القناصل الجنراليون الإسكندرية مقرا لهم.

وفى سنة ١٨٢٤ نزلت الإسكندرية وافدا عليها من الخارج فكانت لا تقع عين الناظر فى الحى الإفرنجى إلا على بضع وكائل. أما الآن فقد انقلب هذا الحى رأسا على عقب وتغيرت معالمه. فامتد من وسط الميناء الجديدة إلى مسلة كليوباتره. وبجوار هذا الاثر الآن ميدان جميل مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم وعرضه ١٥٠ قدما. وقد شيدت المبانى الحافة به من كل جهة على الطراز الأوربى وبحسب تصميمات هندسية متقنة. ويملك سمو إبراهيم باشا بعض هذه المبانى الشاهقة ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر. ودار القنصلية الفرنسية منها تمتاز عن دور القنصليات الأخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها.

وداخل السياج المتكون من حصون المدينة أكمتان = تلاّن = ارتفاع كل منهما مائتا قدم تقريبا وعلى قمة كل منهما طابية أنشأها الفرنسيون، ولاتزال إحدى الطابيتين تحمل اسم البطل (كفاريللى دوفالجا) القائد فى فرقة الهندسة والمتوفى فى حصار عكا ، وهذه الأكمة وهى أقرب الأكمتين من المدينة



خريطة الإسكندرية فى عهد محمد على باشا

عبارة عن مجموعة اكام من الأنقاض يرجع تاريخ وجودها على الأرجح إلى زمن حكم العرب. أما الأكمة الأخرى المعروفة بكوم الدكة فصخرة حجرية تشرف على المكان الذى كان يشغله فى الزمن القديم أحد ملاهى التمثيل، وكانت المساكن التى حولها عششا وأكواخا حقيرة لبعض العربان. أما الان فبالنظر لما تبينه الأوربيون من جودة موقعها وحسن مناخها وموافقتهما لصحة المقيمين بها شيدت المبانى عندها، وأقيمت القصور فى وسط الحدائق الغناء.

والخرائب والأطلال منتشرة بضواحى الإسكندرية إلى مسافة كيلومترين منها وهى تدل صراحة على صدق ما رواه المؤرخون عن عجائب المدينة القديمة وتحفها وصحة ما قالوه بشأنها وأنه لم يكن مبالغا فيه، ولاريب فى أن مواد البناء التى شيدت بواسطتها منازل الحى العربى أخذت من هذه الأطلال الداثرة وكان أخذها من الطبقة الظاهرة على وجه الأرض دون الطبقات التى تحتها، وهذا هو السبب فى أن المنقبين عن الأطلال القديمة يعثرون كلما حفروا على مقابر وافرة منها ، وكثيرا ما يهبطون أثناء الحفر إلى عمق ستين قدما.

أما المبانى العامة التى بثغر الإسكندرية فهى دار الصنعة (الترسانة) وقصور سمو الوالى فى رأس التين، وهى تتألف من الحرم والديوان والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافرخانة التى أعدها الوالى لضيافة وإكرام كبار الزائرين والمسافرين والسياح. وفى الإسكندرية مصلحة لمراقبة الشئون الصحية ومستشفيات أحدها للبحرية وهو المعروف بمستشفى المحمودية ويسع من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مريض، وهناك مستشفى آخر للجنود البرية يعرف بمستشفى رأس التين ويسع من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مريض وفى المدينة كلها نحو ثلاثين مسجدًا.

٣٠- أبوقير

إذا اشتط السائر الساحل شرقى الإسكندرية كان أول مايلتقى به فى طريقه قبل وصوله إلى بحيرة إدكو ساحل اشتهر بالواقعة البحرية التى ذهبت بثمرات الحملة الفرنسية وبفوز بونابرت على الأتراك فى السنة التالية التى أصيب فيها بذلك الفشل - أى على أثر عودته من بلاد الشام. فذلك

المكان ذو الشهرة المضاعفة الذى يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد هو «أبوقير».

أما القرية المسماة بهذا الاسم فواقعة فى المكان الذى كانت فيه قديما بلدة (بوزيرس) المشهورة بهيكلها المشيد للإلهة إيـزيس وبالأعياد السنوية التى كان المصريون يقيمونها به.

وأهمية موقع أبـى قير من الوجهة العسكرية لا تذكـر، ولولا أن سواحلها معرضة لهياج الأمواج لكانت أصلح موقع تنزل منه حملة أجنبية للإغارة على الديار المصرية. ولقـد أدرك الوالى بثاقب فكره تلك الأهمية فأنشـأ به حصونا واستحكامات جعلتـه أمنع من عقاب الجو، كما أيـده الكثيرون من العارفين بحقيقة الحال.

٣١ ـ رشيد

مدينة رشيـد واقعة فيمايلى بحيرة المعدية على الضفـة اليسرى من الفرع الغربى للنيل. وموقعها على مسافة فـرسخ ونصف من البحر المالح فى ملتقى ٢٥ ْ٣١ من العـرض الشمالى بـ٥, ٨ ـ ْ٢٨ مـن الطول الشرقـى. والسفر إليها بـرا باشتطاط الساحـل وبحرا باجتياز ممـر شديد الخطر عنـد مصب النيل. وهـذا الممر أو البـوغاز يفتحه التيـار فى الكثبان الرملية المتكونـة من رواسب النهـر. وهو شـديد الاختـلاف، ومن هنـاك جاءت الصعـوبة التـى تعترض السفن فى اجتيازها إياه.

وبعد اجتياز البوغاز يرتسم فى بـاصرة الانسان منظر يفتن العقل ألا وهو منظر سهول الدلتا وقد فرشت ببساط طبيعى من سندس أخضر ونثرت عليه الحاصـلات الذهبيـة اللـون، ورسمت فيـه صور غـابـات النخل، والقـرى والمدائن تعلوها منارات المساجد ذاهبة إلى السماء كأنها سهام حادة النصال، وتلك السهـول تمتد إلى أقصـى مدى النظـر فتنتهى إلى حيـث ينتهى الأفـق وتعجز الباصرة عن نظر ما والاه.

ويقول العـرب: إن مدينة رشيد أطلـق عليها هذا الاسم نسبـة إلى هارون الرشيـد الخليفة العباسـى. وقد حازت أهميـة تجارية كبرى عندمـا سقطت الإسكندرية وتدهورت إلى الحضيض، ولكن التجار لم يلبثوا أن هجروها منذ

أنشئت ترعة المحمودية وأعادوا إليها بانشائها المزايا التى فقدتها زمنا ما، وقد نقص عدد سكان رشيد للسبب المتقدم نقصا محسوسا فهو لا يتجاوز الآن ١٥٠٠٠ نسمة. وهى مشهورة بمعامل الأرز فيها وبحدائقها الغناء التى يبالغون فى وصف جمالها وهى على نسق الحدائق الشرقية التى وصفتها فيما تقدم بما يزجى = يسوق = إلى ذهن القارىء فكرة صحيحة عنها.

ويبلغ ذرع = مساحة = مدينة رشيد نحو الفرسخ طولا فى ربعه عرضا. ومما يلفت النظر فيها مسجد آية فى حسن البناء ومعمل لنسج القطن ومعامل لضرب الأرز منها واحد يدار بالبخار وثكنة فسيحة للجنود. وفى جنوب رشيد زاوية شهيرة بنيت على ضريح شيخ مشهور بالتقوى والورع يعرف عند الأهلين هناك باسم سيدى مندور، والذى يصعد فى منارة مسجد هذا الشيخ يرى منظرا عجبا يتناول ما ينتهى البصر إليه برا وبحرا.

٣٢- دمياط

ثغر دمياط على الضفة الشرقية من الفرع الشرقى للنيل الذى كان معروفا أيام الفراعنة بالفرع (الفتنى) وهو بعيد عن البحر الملح بنحو فرسخين وعن بحيرة المنزلة بنحو نصف فرسخ فى ملتقى خط ١٥ ـ ٢٩ ـ ٢٩° من الطول الشرقى بالخط ٤٣ ـ ٢٥ ـ ٣١° من العرض الشمالى. وليست الآن فى نفس الموقع الذى كانت تشغله أيام الحروب الصليبية. والمدينة التى هاجمها الصليبيون مرارا حتى وقعت فى قبضتهم سنة ١٢١٨ من الميلاد هى دمياط القديمة لا الحديثة، ثم استولى عليها القديس لويس سنة ١٢٤٩ ولما ردها هذا الملك إلى المسلمين فى مقابل إطلاق سراحه هدمها هؤلاء وأنشأوا المدينة الحالية على مسافة فرسخين من الأولى.

وضواحى دمياط مشهورة بمزارع الأرز، أما هى فإنها المستودع الكبير لأصناف أرز القطر المصرى، ولها بالشام صلات تجارية وثيقة، وكانت لمعامل النسيج بها فى الزمن السابق شهرة ذائعة وصيت بعيد. وقد أبلغ بعضهم عدد سكانها إلى ٦٠ أو ٨٠ ألف نسمة. وهذان الرقمان مبالغ فيهما. لأن هذا العدد لا يتجاوز اليوم ٢٥ إلى ٣٠ ألفا فقط.

وأشهر مبانى دمياط وأجملها المساجد وما شاده الوالى فيها من معامل الأرز ومستودعاته، وقد أنشأ سموه بها ثكنات للجند ومدرسة للمشاه (البيادة).

٣٣ ـ دمنهور

دمنهور أول مدينة كبيرة يمر المسافر بها وهو متجه نحو الغرب، وهى على مقربة من ترعة المحمودية ويتراوح عدد سكانها بين ٨ و١٠ آلاف نسمة.

٣٤ ـ الرحمانية

مدينة صغيرة على النيل وعلى مقربة منها أطلال مدينة (صا) أو (صائيس) القديمة، وبالقرب منها أيضا كانت مدينة (نوقراطيس) وهى الوحيدة التى فتح قدماء المصريين أبوابها من مدن القطر المصرى كله للتجارة مع الأجانب.

٣٥ ـ فوه

واقعة على النيل بين الرحمانية ورشيد تجاه فم الترعة المحمودية وكانت فى القرن السادس عشر على مكان من الأهمية ولكن قلت أهميتها وتلاشى وجودها التجارى منذ أن انسدت ترعة الإسكندرية التى كانت واصلة بينها وهذا الثغر وكانت من بواعث تقدمها بما كان يرد إليها بواسطتها من البضائع والأرزاق وقد علا فى هذه الأيام نجمها بإنشاء سمو الوالى فيها فاوريقة لصنع الطرابيش على مثال المصنوع منها فى تونس ومعملا لغزل القطن وطاحونا لضرب الأرز.

٣٦ ـ المنصورة

واقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط، وتبعد عن هذا الثغر بنحو اثنى عشر فرسخا وقد اشتهرت بانكسار الجيش الفرنسى الصليبى الذى كان يقوده ملك فرنسا لويس التاسع عشر المعروف بالقديس لويس، ولايزال يوجد بها فى ميدان صغير مقابل للنيل المكان الذى سجن فيه هذا الملك بعد أسره. ومما يرى فى المنصورة غير ذلك أطلال قبة يقال إنها التى أمضى القديس لويس تحتها معاهدة الصلح القاضية برد ثغر دمياط والجلاء عنه. وفيما بين المنصورة ودمياط بلدة فارسكور التى انكسر فيها جيش القديس لويس الأول مرة . فكان هذا الانكسار سبب خذلانه وحبوط آماله.

٣٧ ـ المحلة الكبرى

يؤخذ من أقوال بعض الجغرافيين أن المحلة الكبرى الواقعة الآن بداخل

الدلتا على مقربة من فرع دمياط تشغل موقع مدينة (سينوبوليس) أى (مدينة الكلاب) وهى على شىء من السعة وانفساح الجوانب. ومع أنها الآن فى غير ما كانت عليه سابقا من ارتفاع الشأن وجلال القدر فلايزال عدد سكانها متراوحا بين ١٦ و١٨ ألفا من النسمات، ولمعامل نسيج قماش التيل فيها شهرة فائقة ، وقد أنشأ سمو الوالى بها فاوريقة جليلة لغزل القطن ونسج الأقمشة.

٣٨ـ طنطا

يلقى الصاعد من بحرى القطر المصرى إلى قبليه عن يمينه بالنسبة للمحلة الكبرى مدينة طنطا. وهى مدينة صغيرة اشتهرت بتقاطر الجم الغفير من الناس إليها لحضور المولد الأحمدى . والسيد أحمد البدوى صاحب هذا المولد مدفون فى مسجد مشهور به، وهو من أشهر مساجد القطر المصرى وأجملها. ومن الكرامات المنسوبة إليه أن التوسل به يزيل العقم ويشفى الأدواء المستعصية..إلخ. وهذا الاعتقاد جعل المصريين يتواردون إليه من جميع أنحاء القطر المصرى، وهذا فضلا عن أن الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز يقفون بطنطا فى طريقهم لزيارة ضريحه.

والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الذى يقام فى كل عام إجلالا له، وهو أهم الموالد الثلاثة التى تقام عادة فى تلك المدينة ، والاثنان الآخران هما مولد سيدى عبدالعال ومولد الرجبية. وفى المولد الكبير تزدحم مدينة طنطا بالزائرين. إذ يقصد إليها التجار من بلاد تركيا وفارس والهند وبلاد كثيرة من إفريقية يحملون إليها معهم الأقمشة المطبوعة والمناديل والأقمشة الحريرية ولعب الأطفال والأوانى الصلصالية والخزفية وريش النعام والأرقاء.. إلخ للاتجار بذلك وغيره. وهم يعرضون هذه البضائع على الأنظار فى الوكائل وتحت الظلات التى كثيرا ما تشغل متسعا من الأرض طوله نحو الأربعة فراسخ على صفين متوازيين.

أما الذين يحضرون إلى المولد بقصد الزيارة لا الاتجار فإنهم يضربون الصواين والخيام بقرب المدينة فيجىء الحواة وبنات الهوى والراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقى ليطلعوا تلك الجماهير على فنونهم وصناعاتهم. وقد اعتادت الحكومة أن ترسل إلى طنطا فى أيام المولد أربعة

آلاف جندى لحفظ الأمن والنظام ، ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم بما هو معروف عنهم من الحيلة والتمويه والدهاء. وبانتهاء المولد الأحمدى تعود مدينة طنطا إلى سابق عهدها من السكون وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس، وتصبح كأنها قفر بلقع ليس فيه ديَّار ولا نافخ نار.

٣٩ ـ مدائن الوجه البحرى الأخرى

مدائن الوجه البحرى الأخرى الجديرة بالذكر هى:

منوف ـــ قرية عظيمة بالقرب من رأس زاوية الدلتا ، وبها مسجد فيه أعمدة جميلة.

وإلى شرق فرع دمياط بالطريق الموصل إلى الشام القرى والبلدان الآتية: بلبيس ـــ حصنها نابليون بونابرت ـــ وبالقرب منها كانت توجد على عهد البطالسة مدينة (أونيون) التى أنشأ بها (أونياس) ابن أحد كبار الأحبار اليهود هيكلا عبريا على طراز هياكل أورشليم ، وفيه كانت تقام شعائر الديانة اليهودية.

الصالحية ـ بلدة واقعة فى وسط مديرية الشرقية.

وأبوزعبل والخانقاه ـــ اكتسبتا أهمية وشهرة فى العهد الأخير، وهما واقعتان فى الطريق من الصالحية إلى القاهرة على مسافة أربعة فراسخ من هذه ومثلها من النيل. أما القريتان فتبعدان إحداهما عن الأخرى بنحو نصف فرسخ، وفى كل منهما نحو ١٥٠٠ نسمة. وفى المسافة الفاصلة بينهما سهل عظيم غير مزروع يواجه صحراء برزخ السويس الذى حدثت فيه الواقعة بين جيش الصدر الأعظم المؤلف من ٨٠٠٠٠ مقاتل وجيش الفرنسيين المؤلف من ٩٠٠٠ مقاتل بقيادة (كليبر) ودارت الدائرة فيها على الجيش الأول. إذ دحره الجيش الثانى ومزق شمله. وفيه أيضا أقيم ميدان التعليم للجيوش المصرية النظامية، وأنشئت المدارس الأولى لأركان حرب الطوبجية، وكذا مدرسة الطب المشهورة باسم مدرسة أبى زعبل.

المطرية ـ بلدة من ضواحى القاهرة قائمة على أطلال عين شمس ـ إحدى مدن مصر القديمة الذائعة الصيت ـ وتحوى آثارا وأطلالا ذات علاقة

بالديانة المسيحية فى إبان أمرها كالبئر التى استقى منها الماء يوسف النجار ومريم والولد يسوع فى فرارهم إلى مصر، وشجرة الجميز التى آووا إلى ظلها. وهذه الآثار يجلها المسلمون والمسيحيون على السواء. والمطرية شهيرة بالمعركة التى وقعت بجوارها بين الفرنسيين والأتراك، وكان الظفر المبين فيها للأولين على الآخرين.

٤٠ـ القاهرة

تقع القاهرة فى ملتقى الخط ٢١ ٢ ٣٠ْ من العرض الشمالى بالخط ٣٠ ٥٨ ٢٨ْ من الطول الشرقى. وهى قائمة على سهل رملى وتبعد عن النيل بنحو ٤٠٠ تؤاز ، وعن رأس الدلتا بنحو خمسة فراسخ ونصف وعلى مقربة من السفوح الأخيرة لجبل المقطم. والقاهرة الأصلية وتسمى أيضا بالقاهرة العظمى تنحصر بين بولاق مرفأها فى الشمال ومصر العتيقة مرفأها فى الجنوب.

وتشغل مصر القديمة المكان الذى كانت فيه بابل مصر قديما. وكان عمرو بن العاص محاصرا لها حينما عششت حمامة على فسطاطه فلما بلغه هذا الخبر سر به واستبشر. فلم يشأ أن يزعجها بتقويض الفسطاط يوم عنَّ له الرحيل إلى الإسكندرية لفتحها ، ولما تم له فتحها وعاد اختط له عاصمة حول المكان الذى ترك فيه فسطاطه وسماها «فسطاط مصر».

ولم يكن من حظ المدينة الجديدة أن تتقدم ويتسع نطاقها فإن الصليبيين زحفوا عليها فى سنة ١١٦٧ بقيادة (آمورى) ملك أورشليم. فلم يكن من حاكمها حينما رآهم مقبلين عليها إلا أن أضرم فيها النار التى استمر ضرامها فيها خمسين يوما واضطر سكانها أن يلتجئوا إلى الريف المجاور لها وأن يجددوا مساكنهم حول القاهرة التى اختطها فى سنة ٩٥٨ للميلاد المسيحى جوهر القائد مولى المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين ، فارتفع شأنها بعض الشىء فحلت محل الفسطاط كعاصمة للديار المصرية. واتسع نطاقها وامتدت حصونها وزهت مبانيها بالزخارف الجميلة فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى. ذلك أصل مدينة القاهرة التى يسميها العرب «مصر» وهو الاسم الذى أطلق منذ ذلك الحين على عاصمة الديار المصرية.

والقاهرة أكثر امتدادا فى الطول منها فى العرض. وتعتبر المدينة الأولى بين مدن الممالك العثمانية المحروسة بعد الاستانة. إذ إنها تشغل من الأرض ما مسطحه ٩٠٠ هكتار ويبلغ محيطها ٢٥٠٠٠ متر وتكتنفها آكام ترابية تكونت بتراكم الانقاض المتخلفة عن المبانى المصرية التى كثيرا ما تشاد با لمواد الطينية والترابية[١].

وكان يحيط با لمدينة سور عظيم شاده السلطان صلاح الدين الأيوبى وجعل الأبراج تتخلله على مسافات متقاربة. ولم يبق منه الآن سوى جزء صغير. لأن المدينة باتساع نطاقها ونموها الكبير من ناحيتى الجنوب والشرق ويخترقها على اتجاه طولها مجرى الماء المسمى بالخليج.

وفى القاهرة الآن ثلاثون ألف منزل يقطنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ من السكان. وهى مقسمة إلى حارات يتجاوز عددها الخمسين. أهمها على ترتيب الاتجاه من الشمال إلى الجنوب حارات: الشعراوى والأزبكية والنصارى (وهى حارة الأقباط والأرمن والشوام وغيرهم..إلخ) والروم (أى حارة اليونان) واليهود والافرنج والموسكى وزويله والأزهر والمؤيد وباب الخرق وبركة الفيل والمغاربة وطيلون = طولون = (وهذه الحارة أقدم حارات مدينة القاهرة) والرميلة وقره ميدان والقلعة.

وبالقاهرة أكثر من سبعين بابا بعضها من الداخل وأهمها فى الجنوب: باب السيد وباب طيلون وباب السيدة وباب القرافة. وفى الشرق: باب الوزير وباب الغريب. وفى الغرب من جهة النيل: باب اللوق وباب الناصرية. وفى الشمال: باب الحسينية وباب النصر وباب الفتوح والبابان الأخيران أثران هندسيان جليلان (وباب النصر يرجع تاريخ انشائه إلى عهد السلطان صلاح الدين) وباب الحديد.

---

(١) هذه الأكام مرتفعة ارتفاعا وافيا ، وقد أقام الفرنسيون أيام الحملة البونابرتية عليها استحكامات وقلاعا سهل بواسطتها التسلط على المدينة عند الحاجة. ولما كانت تلك الأكام حائلا منيعا دون انبثاث الهواء فى أحياء القاهرة وشوارعها وازقتها فقد كان فى نيتهم إزالتها. ولكنهم عدلوا عن ذلك لصعوبة هذا العمل وطول مايلزم من الزمن للقيام به. وقد كان إبراهيم باشا أول من أقدم على تنفيذ المشروع. إذ ازال أكمتين عظيمتين كان يبلغ ارتفاع كل منهما نحو ٢٠٠ متر وكانتا تشغلان فيما بين بولاق وفم الخليج مسطحا من الأرض مساحته كيلومتر مربع ، وظل العمل قائما على قدم وساق نحو خمس سنوات. فانتفع بالتراب المرفوع فى ردم المستنقعات الآسنة المجاورة للقاهرة وسويت الأرض به ومهدت تمهيدا حسنا مكن أولياء الأمر من غرس الحدائق الغناء فى مكانها. أما سمو الوالى محمد على فقد ازال أكمة عظيمة كانت تسد طريق شبرى . وكانت تتلو الاكمتين السالفتى الذكر، ولست بمتردد فى القول بأن إزالة هذه الأكام كانت من أنفع الاعمال الجسيمة التى تمت على عهد محمد على والى مصر.

وشوارع القاهـرة مثلها مثل سائرالمدن الإسلامية معـوجة كثيرة الالتواء والانعطاف والانكسار تقاطعها أزقة منها ماالايتجاوز عرضه أحيانا أكثر من ثلاثة أو أربعة أقدام وعطفات لا منفذ لها.

وعـدد الطرقـات الأصلية – أى الكبيرة فيهـا يـزيد على مـائتين وأربعين طريقا. وهى غير ما يعترضها من الأزقـة والعطفات وعددها ثلاثمائة من هذه ومثلها من تلـك. وتتغير أسماء الشوارع غالبا ، ومـن أكثرها أهمية شـارعان يخترقان المدينـة فى اتجاه طولها أحـدهما هو الممتد مـن باب السيـدة إلى باب الحسينية ويبلغ طوله ٤٦٠٠ متر ، والثانى يسـاير الضفة اليمنى من الخليج ابتداء من القنطـرة الجنوبية المسماة بقناطـر السباع إلى قرب باب الشعـرية. وهناك خمس طـرقات تقطـع المدينة فى اتجاه العـرض منها ثـلاث تتجه مـن القلعة إلى النيل.

وفى القاهرة أربعـة ميادين كبيرة هى: ميـدان قره ميدان وميدان الـرميلة بجنوب المدينـة وميدان بركـة الفيل فى وسطها ، وميـدان الأزبكية فى شمالها الغـربى وهـذا الاخير هو أكبر الميـاديـن وأفسحـها . إذ يبلـغ مسطحه داخـل مسطح ميدان العـرض العسكرى بباريس المعـروف باسـم (شانـدومارس). وإلى الجانب الغربـى من الأزبكية البيت الـذى سكنه الجنرال بونـابرت أيام الحملـة الفرنسيـة. وتلك الميـادين يغمـرها الماء فى أيـام الفيضان إلا ميـدان الأزبكية الذى رفع سطحه بعض الشـىء ومهـدت أرضه وغرست فيه أشجار وجر إليه الماء بواسطة قناة.

وفى وسط المدينـة أسواق كثيرة بعضها حقيـق بالـذكر كسوق الغـورية. حيـث تباع الشيـلان الكشميريـة والحريـر الموصلى والأقمشة الـواردة مـن الخارج، وسـوق الأشرفيـة حيث تجار الـورق، والخان الخليلى حيـث تجار الجواهر والنحـاس والسجاجيـد، وسوق النحـاسين وفيه تجار المصـوغات وصنـاعهـا وسوق البنـدقـانيـة حيث تجار العقـاقير والخردوات، وسـوق الحمزاوى وفيـه تجار الجوخ وسوق السروجيـة حيث تصنـع وتباع سروج الخيل وغيرها، وسوق السلاح وفيه يصنع السـلاح ويباع ، وسوق الجمالية حيث تجار البن والتبغ الوارد من الشام.

أما شـارع مرجـوش الكبير (أمير الجيوش) فيبـاع فيه بـالتجزئة أثـواب

الأقمشة المنسوجة فى القطر المصرى وهناك وكالة الجلابة التى يباع فيها الأرقاء المجلوبون من وسط أفريقية.

وبالقاهرة أربعمائة مسجد. الكثير منها متخرب أو آيل إلى السقوط وأشهرها من جهة النمط الهندسى مسجد عمر بن العاص المبنى سنة ٢٠ من الهجرة (٦٤٠ من الميلاد) ومسجد الحاكم العبيدى المشيد سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٧ للميلاد) على عهد الفاطميين، ومسجد السلطان حسن شاه فى سنة ٧٥٧ للهجرة (١٣٥٤ للميلاد) أحد السلاطين المماليك المعروف بهذا الاسم. وقد قضى البناءون فى بنائه ثلاث سنوات. قال المقريزى: كان ينفق عليه فى اليوم ألف مثقال من الذهب. ومسجد طيلون = طولون = بنى سنة ٢٣٨ للهجرة (٨٥٠ للميلاد) بناه السلطان أحمد بن طولون، ومسجد المؤيد انشأه فى سنة ٨٢٠ للهجرة (١٤١٥ للميلاد) السلطان أبوالنصر المؤيد شيخ ومسجد السلطان قلاوون سيف الدين، ومسجد السلطان برقوق بنى سنة ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٥ للميلاد) ومسجد السلطان قايتباى بنى سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٣ للميلاد) ومسجد السيدة زينب سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٠ للميلاد) ثم مسجد الأزهر وهو أشهر المساجد على وجه الإطلاق.

وللمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم نحو ثلاثين كنيسة ومصلاة. أما اليهود فلهم عشر بيعات.

وفى الأحياء التجارية والصناعية نحو ألف وثلاثمائة وكالة.

وفى أنحاء متفرقة من القاهرة ألف ومائتا قهوة وثلاثمائة صهريج وسبعون حماما أشهرها بالاتساع وفخامة البناء وحسن الرياش حمام يزبك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية..إلخ.

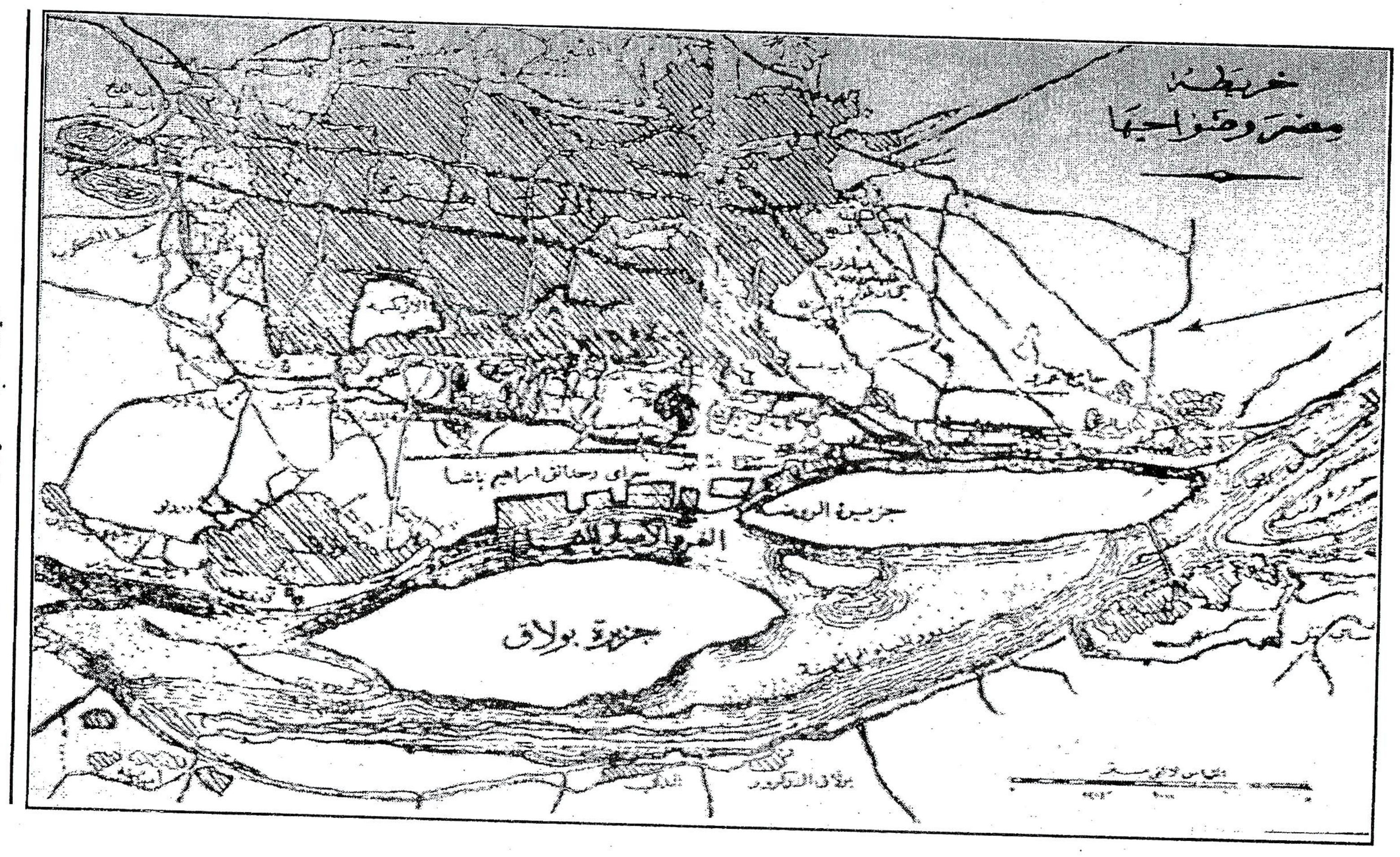
وفى ظاهر القاهرة ثلاث بقاع للمقابر شهيرة باتساع نطاقها. لأن مسطحها يشغل أكثر من ربع مسطح هذه المدينة. وهى القبه بحرى السور وترب قايتباى فى الشرق وترب السيدة أم هاشم فى الجنوب وفى هذه المقابر الواسعة قبور الخلفاء وبعضها آية فى الجمال الهندسى. أما مقبرة القبة فبها قبر الملك العادل وقبور أخرى لبعض السلاطين والبكوات المصرلية - أى المماليك.

ولم يكن بالقاهرة فى الزمن السابق سوى مستشفى واحد هو المستشفى المعروف بالمارستان وسيأتى الكلام عليه فى غضون الفصل الخاص بالحالة الحاضرة للطب فى القطر المصرى. وفى ميدان الأزبكية الآن مستشفى ملكى جميل يحوى سبعمائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء. ويتبع هذا المستشفى مدرسة للولادة ومستشفى للمجاذيب. كل هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الواقع فى الطريق بين القاهرة الكبرى ومصر العتيقة قرب المكان الذى كانت فيه عزبة إبراهيم بك على ضفاف النيل. ويحوى هذا المستشفى ألفا وثمانمائة سرير.

وبالقاهرة غير العدد العظيم من المدارس الخاصة أو الملحقة بالمنشآت الخيرية كالمساجد والأسبلة وأحواض الماء مبان عديدة مخصصة للتعليم والتربية. وفيها قصور جميلة وسرايات واسعة .منها ما يملكه سمو الوالى وكل من إبراهيم باشا وعباس باشا والدفتردار بك حول ميدان الأزبكية ، وقصر إبراهيم باشا كجك (الصغير) الذى يشغل من المدينة مكان السرة من الجسم، وقصور أخرى لغيرهم كقصر محمود بك. لا أتصدى للكلام عليها تقية = خشية = الإسهاب فى الموضوع. وعلى ضفاف النيل قصر لإبراهيم باشا وآخر للدفتردار بك وهما مما يلفت النظر بانفساح الأرجاء ورشاقة البناء.

أما القلعة فإلى الجنوب من القاهرة على الجبل الأخير من سلسلة جبال المقطم، وهى تحكم المدينة، وقد أنشأها فى مكانها السلطان صلاح الدين الأيوبى وليس لها فى الحقيقة أهمية ما من الوجهة الحربية. لأن هناك جبلا آخر يتسلط عليها أنشأ محمد على فيه قلعة صغيرة تعوض ما ينقص القلعة الأصلية من جودة الموقع ومزيته والوصول إلى القلعة بطريقين منحدرين منحوتين فى الصخر أحدهما واقع إلى الشمال، ويفضى إلى الباب المشهور باسم باب العزب الآخر إلى الشرق ويؤدى إلى الباب المعروف بباب الانكشارية. وقد دمرت القلعة كلها تقريبا فى سنة ١٨٢٤ ميلادية عقب انفجار مخزن للبارود منحوت فى الصخر. فإن ما كان بها من المبانى عامئذ سقط كله أو بعضه، ولكن «محمد على» لم يلبث أن أعاد بناءها كلها تقريبا.

وبالقلعة القصر المعد لنزول الباشا كلما جاء إلى القاهرة. وبها أيضًا بئر


خريطة
مصر وضواحيها
جزيرة بولاق
جزيرة الروضة
سراى وحدائق ابراهيم باشا

يوسف الذى سمى كذلك نسبة إلى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبى الذى أمر بحفرها فيها، وهى بئر مربعة الشكل منقسمة فى اتجاه العمق إلى قسمين ويبلغ طول عمقها ٢٨٠ قدما. وقاعها يستوى مع منسوب نهر النيل. وينزل إليها بسلم حلزونى فى نهاية القسم الأول منه ساقية ذات عجلات يديرها ثوران فيرتفع الماء من القسم الأسفل إلى هذه الساقية التى يرتفع الماء منها إلى ظاهر الأرض عند مدخل البئر بمثل الوسيلة المتقدمة، وإنما حفرت هذه البئر لدرأ خطر قلة الماء فى القلعة إذا أصاب البوابات (العيون) التى تحمل ماء النيل إليها عطب أو قطعت فى جهة ما من جهاتها بفعل فاعل. على أن بالقلعة صهاريج عديدة يكفى واحد منها بضعة آلاف من الرجال سنة كاملة. وبالقلعة أطلال دارسة لقصر السلطان صلاح الدين الأيوبى والعمل بها متواصل الآن لإنشاء مسجد كبير بها أمر بإنشائه سمو الوالى، وفيها أيضا دار للصناعة ومسبك لصب المدافع ومعمل لصناعة الأسلحة ومصانع لإعداد معدات الفرسان والمشاة ولوازمها ومطبعة ودار لضرب النقود يصنع من النقود الذهبية فيها كل سنة ما تعدل قيمته خمسة ملايين من الفرنكات.

وتبتدىء حركة الأعمال فى القاهرة منذ الساعة السادسة من الصباح وتنتهى عند اشتداد القيظ فى ساعة الزوال. فيسود السكون ويظل سائدا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولقد أجمع الرحالة الذين كتبوا عن مصر على غرابة ما تقع عليه الأنظار من المرائى فى الشوارع والأسواق والميادين لاختلاط الأهلين على تعدد أجناسهم وتباين لباسهم. وذكر كل منهم ما شاء أن يذكر من متناقضات تلك المناظر الغريبة. فوصف الغنى صاحب الجاه بملابسه الفاخرة المزركشة بالذهب إلى جانب الفقير ذى الثياب الرثة والأطمار البالية وصاحب العمل مارا بخطوات سريعة أمام المتعبد الزاهد الذى يتمطى بلا اكتراث فى الطريق . فتأتى إليه النساء اللائى امتلأت رؤوسهن بالخرافات وباطل المعتقدات ليلمسنه ويربتنه للتبرك به اعتقادا منهن أن هذا الفعل سوف يذهب بأمراضهن، كما وصف أولئك الناس من الأمم العديدة والأديان المتخالفة والمذاهب والشيع المتباينة بالأوصاف الجثمانية والملابس الغريبة يتخلل هذه الجمع النساء اللائى يشبهن الطيف المبهم والسر الغامض، وقد تغطين بأرديتهن وأخفين ملامح وجوههن إلا ما

كان من عيونهن كى يهتدين بها إلى السبيل. دع ما هنالك من اختلاط الحمير بهذا الجمع الكثيف تشق زحامه بدافع من استفزاز السائق الشاب النشيط المتحمس إياها بالضرب تارة والوخز أخرى، إلى جوارها الجمل البطىء النهضة الذى يشعر ثقل مشيته بشىء من الوقار، وعلى مقربة منه جواد الثرى مطهما بأحسن ما تطهم به الدواب ومحلى بأجمل ما تحلى به من مظاهر الأبهة والجلال، إلى جانبه البغلة التى تحمل الشخص الفقيه البصير بعلوم الشريعة تسير الهوينى بخطوات منضبطة القياس لا تزيد على ما يريده الراكب ولا تنقص عنه، إلى جانب ذلك كله الحواة والمشعوذون يدخلون على المارة السرور والدهشة بغريب ألعابهم وحيلهم. والقصاصون متصدرين فى القهوات لرواية القصص والحوادث على مسامع المختلفين إليها من ذوى البطالة والمغرمين بالتدخين، وينضاف إلى هذه الغرائب ما يتركه فى النفس من أثر المنظر الخاص الذى تطبعه القاهرة فيها بشكل بيوتها ذات السطوح المنبسطة وشوارعها الملتوية تلوى الثعبان فى انسيابه وما لا حصر له من منارات المساجد. فإذا مثلت فى خاطرك هذه المناظر مجتمعة كان لك أن تتخيل صورة هذه المدينة وتعتقد أن لا مدينة سواها على وجه الأرض تشبهها فى طابعها العربى الخاص إلا ما كان من المدائن التى ورد وصفها فى حكايات ألف ليلة وليلة. أما بلدة بولاق فإلى الشمال من مدينة القاهرة يفصلها عنها سهل ضيق. موقعها على ضفة النيل، وهى تقوم للقاهرة فى علائقها التجارية مع الوجه البحرى مقام المرفأ، وبها معامل لصنع الجوخ وغزل القطن ونسج الأقمشة ومسبك لصهر الحديد وورشة لبناء السفن النيلية ووكائل ومخازن ومستودعات كثيرة للتجارة، وكذا قصر لإسماعيل باشا توجد به الآن مدرسة الهندسة.

بمصر العتيقة مستودعات للحبوب يعرفها العامة باسم شون يوسف وهى عبارة عن سبعة أفنية مربعة مبنية الأسوار بالآجر. وفى هذه الأفنية أكداس شاهقة من القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب.

٤١ ـ بنى سويف

بلدة بنى سويف واقعة فى ملتقى الخط ١٥ ٥٢ ٢٨ْ من الطول الشرقى بالخط ١٢ ٩ ٢٩ْ من العرض الشمالى وكانت تعرف قديما باسم

(بتوليمائيدون) وسميت باسمها الحالى الذى معناه بتفسير أهلها «بنى السيوف» نسبة إلى واقعة بالسلاح الأبيض كانت هذه المدينة ميدانا لها. ويقرب عدد سكانها الآن من ٦٠٠٠ نسمة، والحركة التجارية فيها أكثر ما تكون نشاطا فى مصر الوسطى. وفيها مصانع السجاجيد الصوفية والأغطية والملاء القطنية التى اشتهرت بها قديما ، وفيها الآن مصنع مهم للأقمشة القطنية ، وموقعها بالقرب من أحد مصاب البحر اليوسفى الذى يرسل ماءه إلى بلاد الفيوم. وإلى موقعها هذا يرجع الفضل فى أهميتها التجارية التى ما برحت محافظة عليها حتى الآن.

٤٢ ـ مدينة الفيوم

أكبر مدائن إقليم الفيوم الخصيب التربة، وموقعها فى مدخله، وقد بنيت بأنقاض مدينة (كروكوديلوبوليس) القديمة أى مدينة التماسيح وعلى شطر من موضعها. و(كروكوديلوبوليس) هذه هى التى بدل بطليموس فيلادلفوس اسمها باسم مدينة أرسينوه تكريما لأخته وتخليدا لذكراها. ويبلغ محيطها الآن نحو الفرسخ ويخترقها فرع من البحر اليوسفى. وكان أمراء المماليك يقصدونها فى الأيام السالفة للنزهة والتماس الراحة، وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة.

٤٣ ـ فيديمين

أجمل قرى إقليم الفيوم على وجه الإطلاق، وهى مؤلفة من مجموعتين من المساكن، يسكن الأولى المسلمون والثانية الأقباط ، وتحيط بها أشجار الفاكهة التى يكسب تكاثف أغصانها وتشابكها هذه القرية منظرا جميلا. وإذا جاءها السياح أطلعهم أهلها على شجرة زيتون قديمة يزعمون أنها أم أشجار الزيتون كافة فى القطر المصرى، ويقدرون لهذا السبب عمرها بعشرة قرون. وهى تأتى كل سنة بمحصول تحسب زنته بأربعمائة كيلوجرام من الزيتون. وهو ماجعل سكان فيديمين يحترمونها ويحافظون عليها.

٤٤ ـ المنيا

واقعة فى ملتقى الخط ٣٥ ٢٨ °٢٨ من خطوط الطول بالخط ٢٠ ٢٨ °٢٨ من خطوط العرض الشمالى وموقعها على الضفة الغربية من النيل.

وهى حسنة المبانى منتظمة بعض الشوارع بها جملة مساجد متينة البناء دقيقة الهندسة ، وفيها فاوريقة لنسج الأقمشة القطنية.

٤٥ـ الأشمونين

بلدة عدد سكانها من ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ نسمة وهى على الضفة اليسرى من النيل.

٤٦ـ منفلوط

بلدة على الضفة اليسرى من النيل عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس.

٤٧ـ أسيوط

مدينة واقعة فى ملتقى الخط ١٧ ٢٣ ٢٨ْ من خطوط الطول الشرقى والخط ١٤ ١٣ ٢٧ْ من خطوط العرض الشمالى، وتحسب عاصمة الوجه القبلى. والأراضى التى حولها خصبة وزراعتها ناضرة وحاصلاتها وافرة. وهى قائمة على أطلال مدينة (ليكوبوليس) القديمة على مسافة ربع فرسخ من ضفة النيل. وحصونها كان يعتصم المماليك بها كلما زحزحوا عن الوجه البحرى وطوردوا إليها . ولذا ما برحت حافظة لشىء مما كان لها فى عهدهم من رفعة الشأن فإن شوارعها أعرض من شوارع المدن الأخرى وأنظف، وأسواقها عديدة رائجة، وبها مسجدان جميلان وقصر لإبراهيم باشا أنشأه حينما كان حاكما للصعيد، وحمام عام ملحق بمسجد أنشأه بها محمد بك الدفتردار، ومعملان أحدهما للغزل والآخر للنسج، وهى محط رحال القوافل التى تفد من السودان والنوبة وعدد سكانها ٢٠٠٠٠ نفس.

٤٨ـ أخميم

بلدة صغيرة على الضفة اليمنى من النيل عدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس. ألف منهم يدينون بالنصرانية، وبها فاوريقة للقطن وهى قائمة على أطلال مدينة (بانوبوليس) القديمة.

٤٩ـ جرجا

واقعة فى ملتقى الخط ٥١ ٣٤٥ ٢٩ْ من خطوط الطول الشرقية بالخط ٣٠ ٢٢ ٢٦ْ من خطوط العرض الشمالية، وقائمة بالقرب من أطلال مدينة (بطوليمائيس) القديمة وعلى الضفة اليسرى للنيل. وهى أكبر مدن القطر المصرى بعد القاهرة والإسكندرية، كما أنها من مدن الصعيد التى اتخذها المماليك ملاذا لهم ومعقلا عند مسيس الحاجة. وكانت فى عهد سبق عاصمة

الصعيد كله، وترى بها المساجد الفخمة الجميلة والأسواق الكبيرة ، وفيها الآن معمل لغزل القطن وتعداد السكان بين ثمانية آلاف نسمة وعشرة آلاف منهم ٥٠٠ يدينون بالنصرانية وفيها دير للمبعوثين الكاثوليك.

٥٠ـ قنـا

كائنة فى ملتقى الخط ٣٠ ٢٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٢٠ ١١ ٢٦ من خطوط العرض الشمالية وقائمة على أطلال مدينة (كينوبوليس) القديمة بالضفة الشرقية من النيل، وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس تقريبا وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير، فهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى بلاد الحجاز أو التى ترد منها إليه عن طريق القصير. والظاهر أنها كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى العصور السالفة بترعة لم يبق منها الآن أقل أثر. وفمها كان حيث توجد مدينة قنا الآن. وقنا مشهورة فى جميع أنحاء القطر المصرى بصناعة الخرزات (القلل) المشهورة فيها بالقلل القناوى، وبها معمل لنسج الأقمشة القطنية. وتجاهها بلدة (دندرة) القائمة على أطلال مدينة (تنتيرس) القديمة المشهورة بهيكلها الجميل الذى لايزال حافظا لكيانه حتى الآن.

٥١ـ قوص

كانت تسمى قديما (أبولينوبوليس بارفا) وهى صغيرة بالضفة اليمنى من النيل وحركة التجارة فيها لا بأس بها.

٥٢ـ إسنا

كانت تسمى قديما بمدينة (لاتوبوليس) وهى على الضفة اليسرى للنيل وحركتها التجارية لابأس بها وإليها تقصد القوافل الواردة من دارفور وسنار وتتخذها محطة لها، وفيها أكبر وأشهر سوق للجمال ويكتنفها من الآثار القديمة والأطلال الفرعونية ماسأفيض الحديث فيه بالباب المخصص للكلام على الآثار المصرية.

٥٣ـ أسوان

مدينة واقعة فى ملتقى ٣٩ ٣٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٨ ٢٤ من خطوط العرض الشمالى. وهى آخر مُدن القطر المصرى من جهة

النوبة وقد أكسبها موقعها فى كل زمان أهمية لا تنكر. فقد كانت فى الأزمان القديمة (واسمها وقتئذ سيين) معقلا حصينا وموقعا منيعا. وعنى العرب بتحصينها فلما سقطت دولة الفاطميين دمرتها القبائل النوبية التى احتلتها وأخنت عليها ، وعندما استولى السلطان سليم على مصر جددها على الضفة اليمنى من النيل بالقرب من الشلال الأول، وهى قائمة الآن على منحدر من الأرض تتخلله أشجار النخل. ومبانيها محاطة بالمزروعات فكان منظرها لذلك آخذا باللب، وسكانها الآن ٤٠٠٠ نفس تقريبا كلهم من العرب والبرابرة والأقباط وبعض الأتراك الموظفين.

وتجاه أسوان جزيرة الفنتين الصغيرة، وعلى مقربة من الشلال الأول جزيرة فيله المشهورة بهيكل (أنس الوجود) وهى مع قلة اتساعها، إذ يبلغ طولها ١٣٠٠ قدم، ينبوع للآثار الثمينة لا ينضب معينه وبها بعض أشجار النخل وقسم منها مزروع. يبقى علينا أن نتكلم إجمالا على مدينتين لاتحسبان من مصر بالنظر لكونهما خارج نطاق وادى النيل ولكنهما تابعتان له. نريد بهما ثغرى السويس والقصير الواقعين على سواحل البحر الأحمر.

٥٤ - ثغر السويس

واقع فى ملتقى الخط ٥ ١٥ ٣٠ْ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٥٩ ٢٩ من خطوط العرض الشمالى. كان له فى الأزمان السالفة شأن خطير بسبب نقل البضائع الهندية. وكانت تسمى فى بادىء الأمر مدينة (أرسينوة) ثم سميت بمدينة (كليوبتريد وبوليس) ولمرفأها الآن علاقات متواصلة بالثغور التى على سواحل البحر الأحمر، ومكاسب أهلها من التجارة مع بلاد العرب. وفريق من الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز ينزلون منها فى السفن. وكان لخط السفن التجارية الآتية من الهند إليها والذاهبة منها إلى الهند تأثير فى المدينة، إذ جعل لها فى العهد الأخير شأنا كبيرا دعا بفريق من الإنجليز إلى التردد عليها لمباشرة أعمالهم التجارية. وبينها والقاهرة الآن طريق ممهد تجرى فيه عربات من طراز الدليجانس لنقل السياح منها إلى هذه العاصمة. وفى السويس قنصل لانجلترا وعدد سكانها ١٥٠٠ نفس، ومع انها قريبة من القاهرة فإنها تختلف عنها بالمرة من جهة شكل مبانيها ومن جهة أخلاق أهلها وعاداتهم، وهى بالنسبة إلى الهند كالطليعة بالنسبة إلى الجيش.

وسنـرجع إلى الكـلام على هذه المدينـة فى الفصل الـذى سنعقده للكـلام على المواصلات الكبرى المنوى تنفيذها بين النيل والبحر الأحمر.

٥٥ـ القصير

قلت فيما سبق إن الوادى الممتد بين قنا والقصير هو الطريق الذى يسلكه الراغبون فى الوصول إلى هـذا الثغر، وللقصير مرفأ صغير على البحر الأحمر وتجارة لا بأس بها مـع سكان سـواحله، وهـى محطة مـن محطات السفـن الانجليزيـة ، وبها قنصلان أحدهما لإنجلترا والآخـر لفرنسا. وعـدد سكانها ١٢٠٠ نسمة وتتبع إداريا مديرية قنا.

المسافات بين بعض مدن القطر المصرى(١)

من القاهرة إلى الإسكندرية	٤١,٦	فرسخا
من القاهرة إلى رشيد	٣٨,٣	فرسخا
من القاهرة إلى دمياط	٣٦	فرسخا
من القاهرة إلى الصالحية	٢٤	فرسخا
من القاهرة إلى بلبيس	١٠,٨	فرسخا
من القاهرة إلى السويس	٢٨	فرسخا
من القاهرة إلى بنى سويف	٢٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى المنيا	٤٩,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسيوط	٧٣	فرسخا
من القاهرة إلى جرجا	١٠٠	فرسخا
من القاهرة إلى قنا	١١٩,٥	فرسخا
من القاهرة إلى طيبة (الأقصر)	١٣٠,٩	فرسخا
من القاهرة إلى إسنا	١٤١,٣	فرسخا
من القاهرة إلى إدفو	١٥٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسوان	١٧٤	فرسخا
من الإسكندرية إلى رشيد	١٢,٨	فرسخا
من رشيد إلى دمياط	٢٨,٩	فرسخا

(١) المسافات من القاهرة إلى البلدان التى فى الصعيد مأخوذة بحسب مجرى النيل.

الباب الرابع

الديانات والمذاهب الشائعة فى القطر المصرى

(١)

الإسلام وقواعده

القرآن - الوحدانية ورسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) - الملائكة - البعث ويوم القيامة - الجنة - جهنم - المطهر.

١ - الإسلام هو الديانة الشائعة فى مصر انتشرت بها فى القرن السابع للميلاد المسيحى عقب فتحها على يد عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكان المصريون قبل هذا الفتح - أى فى عهد الدولة اليونانية الشرقية يدينون بالنصرانية لا يعرفون غيرها لهم عقيدة، ولكنها كانت مهيضة الجانب منحلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيعا متعادية ومذاهب شتى كالتى مزقت أحشاءها منذ القرون الأولى للميلاد فى بلاد المشرق.

والظاهر أن ما ترتب على هذا الانقسام من النزاع والجدل فى الدين كان قد أضجر المصريين ونفرت منه نفوسهم فلما فشت بينهم الدعوة إلى الإسلام أقبلوا عليه وأجابوا داعيه وبدلوا من عقيدتهم به ولم يبدوا فى معارضته مقاومة مبنية على الجد وصدق العزيمة.

وليس فى الآراء المتداولة عن الإسلام ولا فيما يسند إليه ما يطابق الصواب ولذا أرى فرضا عَلَيّ أن أورد بعض الشيء عنه على الوجه الصحيح. لا أقصد بذلك تمجيد عقيدة لا أدين بها ولست من الدعاة إليها، وإنما أرمى إلى التعريف بها فى غضون الإشارة إلى قواعدها وآدابها وعباداتها مراعيا الإيجاز الكلى. إذ ليس فى مقدور أحد أيا كان النطق بحكم صحيح على أمة مستمسكة بالدين كالأمة المصرية إذا كانت البيانات التى عنده فى أوكد أسباب حياتها

العامة والخاصة مشوبة بالأغاليط والأوهام.

٢ـ القـــرآن

يعتقد المسلمون أن هذا الكتاب أثر لوحى إلهى أنزله على رسوله. وهو مصوغ فى لغة عربية مبينة، ومفرغ فى قالب يرى الأئمة والعلماء أنه نهاية الإبداع فى حسن المبنى ودقة المعنى وأن الإنس والجن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا فالقرآن فى نظر المسلمين أجل الكتب. ولذا تراهم يتلونه أو يسمعون ترتيله خمس مرات فى كل يوم. وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ومن لم يكن حافظا له فهو ملم بكثير من آياته وسوره الأكثر ارتباطا بشئون الحياة واتصالا بأحوال المعاملات.

وفى القرآن مائة وعشرون سورة (الحقيقة ١١٤) [١] يعتقد المسلمون أنها أوحيت على محمد خلال الثلاث والعشرين سنة التى انقضت قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى ـ أى منذ بعثه وهو فى الأربعين من عمره.

٣ـ الوحدانية ورسالة محمد

القواعد الأساسية للإسلام بسيطة تنحصر فى أمرين: الاعتقاد بالوحدانية معبرا عنها بشهادة أن «لا إله إلا الله» وبرسالة محمد معبرا عنها بشهادة أن «محمدا رسول الله» فعلى مبدأ الوحدانية جمع محمد كلمة شعوب العرب وقبائلهم بعد أن كانوا قبله عاكفين على عبادة صنف من الأصنام هو أغلظ وأفظع ما يمر بالخاطر من أصنافها . فوضع بذلك أساس ديانتهم ووثق أركان ملتهم.

وفيما جهر محمد به من الدعوة إلى الإسلام أن الدين عند الله كان ولايزال واحدا هو الدين الذى بعث لتجديده بوحى على لسان جبريل الأمين. وأن هذا الدين كان كلما طرأ ما يحرفه عن أصوله أويغير من أوضاعه أنزل الله كتبا على أنبيائه فى أزمان متفاوته بحسب وقوع هذا التغيير. فأنزل التوراه على موسى والمزامير على داود وغيرهما من الكتب على غيرهما من الأنبياء ثم أنزل الإنجيل على عيسى، وهذه الكتب كلها حق وصدق والقرآن آخرها فالواجب

(١) الناشر: نؤكد أن عدد سور القرآن الكريم هى ١١٤ سورة

اتباعه إلى يوم يقوم الحساب وهو كلمة الله ونوره، وباق إلى الأبد وغير مخلوق من أحد، وهو فى اللوح المحفوظ لايدخل عليه تغيير ولا يتناوله نسخ.

٤ ـ الملائكة

من تعاليم الإسلام أن لله ملائكة وكل إلى بعضهم الإشراف على نبى الإسلام فهم رقباء عليه، وأن جبريل موكل بإنزال الغضب والسخط على المغضوب عليهم وعزرائيل يقبض الأرواح فى النفس الأخير واسرافيل بالنقر فى الناقور يوم البعث والنشور.

٥ ـ البعث ويوم الحساب

يعتقد المسلمون بالبعث. فقد جاء فى القرآن «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» وبحسب هذا الاعتقاد يجىء الحساب ثالثا، وقد ذكر القرآن أيضًا «ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شىء قدير».

وجاء فيه أيضًا: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا وأمامن أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا إنه كان فى أهله مسرورا».

٦ ـ الجنة

فى العقيدة الإسلامية أن من يصدع بما يؤمر به ويعمل صالحا يجزى جنات النعيم. فقد جاء فى القرآن: «والسابقون السابقون أولئك المقربون، فى جنات النعيم ،ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون».

ولم تكن جنات المسلمين مقتصرة على الملاذ المادية كما تذهب إليه أوهام العامة، بل تتناول من صنوف السعادات الروحانية شهود الحضرة الإلهية، وهو اسمى هذه السعادات يفوز بها من رضى الله عنهم فأنعم عليهم بهذه النعمة العالية. وقد ورد فى القرآن: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ،الذين ينفقون فى السراء والضراء

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».

٧- جهنم

فى تلك العقيدة أن ليس لأثيم أن يعتمد على بذل الصدقات وإقام الصلوات ذريعة لمحو ما أتاه من السيئات. بل يعذب فى نار الجحيم عشرة أضعاف ما عذب غيره ظلما وعدوانا.

٨- المطهر

كثرت استعارات الإسلام من المسيحية إلى حد قيل معه إن الدين الإسلامى لم يكن فى الحقيقة إلا إحدى الشيع المنشقة عن النصرانية. ذلك لأنه نقل ماورد برمته فى الكتاب المقدس عن التكوين وهبوط آدم من الجنة، وأن هبوطه هو ليكفر عن خطيئته ويتوب عن ذنبه ليجزى فى الآخرة خيرا. فقد جاء فى القرآن: «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم».

وبمقتضى العقيدة الإسلامية أن الله يغفر لمن يموت مؤمنا قبل الندم على خطيئته ولكن هذه المغفرة لا تحق له إلا إذا كفر عنها وتاب فى مكان يعانى فيه صنوف الآلام، وهو الأعراف الشبيه بالمطهر فى النصرانية.

(٢)
آداب الإسلام

الفضائل - الصلاح والتقوى - القضاء والقدر - صلة الرجل بالمرأة.

٩- الفضائل

يحض القرآن على التمسك بعرى الفضائل وترك النقائص والرذائل واجتناب الكبائر، فهو والمسيحية فى تعزيز الآداب سواء. وأكبر الفضائل التى تحلى بها الإسلام وحافظ عليها المسلمون الزكاة. فالمسلم الذى حسن

إسلامه وصدق إيمانه هو الذى يؤدى زكاة العشر عن ماله يدفعها لذوى العوز والحاجة. وفى القرآن نصوص صريحة على تحريم الربا وحث على نسيان الإهانة وتحبيذ الصراحة فى القول والتواضع والكرم والعفة والصبر...إلخ.

١٠ـ التقوى

التقوى فى نظر المسلمين رأس الفضائل وعمادها إذ أن الله لا يقبل الطيبات من الأعمال ما لم تكن مقترنة بها. فمن أحب أن تتوافر فيه صفات التقى والصلاح وجب عليه الاحتراز من ارتكاب الخطيئة بجارحة من جوارحه السبع تقية أن تصير لصاحبها أبوابا تفضى به إلى نار الجحيم. أما هذه الجوارح فهى الأذنان والعينان واللسان واليدان والبطن والعورة.

١ ـ لايجوز التسمع لعزف الآلات الموسيقية ولا إعارة الأذن لسماع القبيح من كذب ونميمة وفاحشة ولاسماع الغناء والتغنى بالقرآن أو الصلاة.

٢ ـ يجب تنحية النظر عن المحرمات، فلا يجوز لمؤمن أن يطلع من رجل على مابين سرته وركبتيه، ولا لإمرأة أن تطلع من نظيرتها على ما بين سرتها وركبتها.

كما لا ينبغى للمسلم أن ينظر على السرة والركبة، بل ولا الظهر والبطن من محارمه. أما غيرهن فيكون من الإثم إطلاعه على أكثر من وجوههن وكفوفهن وأقدامهن. سواء أكان إلى ذلك مسوقا بدافع شهوة أم بغيره أو كانت المرأة المنظورة مليحة أم قبيح. شابة أم عجوزا. وهذه القواعد لا تسرى على الزوجة الشرعية ولا على الأمة.

ومن الواجب الإمساك عن التطلع إلى ما داخل دار الغير بالتسمع من وراء الأبواب أو النظر من خلال الشقوق والثقوب كما لا يجوز النظر إلى المسلمين بعين الازدراء والاحتقار.

٣ ـ ينبغى صون اللسان عن الكذب والغيبة والوشاية ومدح النفس والمراء وخلف الوعد ونقض العهد.

واللعن خطأ كبير ينتزع من مرتكبه ثواب ما أسلفه من حسنات. وإذا كان

متزوجا فقد انحلت عقدة زواجه .

٤ ـ رفع اليد بالإيذاء على أحد أو مدها للاستيلاء على طعامه ولمس النجاسات بها مــن غير ضرورة، كلمــس الميتــة أفعــال مخالفــة لمقتضـــى الشريعــة الإسلامية.

٥ ـ يجب اجتنــاب مواقــع الشبه، والـدخول بـلا إذن على دار الغير والاعتداء بالأذى كالضرب على قريب واتلاف سجادته أو حصيرته أو أى شىء آخر من متعلقاته.

٦ ـ أما خطايا البطن وأوزارها فتتقى بـالامتناع عن تناول المحرم من الطعام والبعد عن الشره إليه والإفراط فيه.

٧ ـ أما خطايا الفرج التى تعاقب عليهـا الشريعة الإسلامية عقابا أشد صرامة مـن عقـاب الخطـايـا الأخرى فهـى اللـواط والمواقعـة فى أثنـاء الطمـث والوضـع..إلخ.

١١ـ القضــاء والقــدر

عقيـدة القضــاء والقـدر لا تنتزع مـن المرء ـــ فى دائرة الآداب والأخــلاق والفضــل وعدمــه ـ كـل إرادته ولا تستلـب منه حـرية تصرفـه. ولقد غـالى المتصدون للبحث فى القضاء والقدر عند المسلمين فى المسند إليهما من التأثير فى المقدور للمسلم من السلوك الذى يسلكه والشعور الذى يستشعر به. نعم إن اعتقاده بالقضاء والقـدر قد أودع فيه غريزة الاتكال والرضــا بما يأتى به الدهر من المحن وينزل من النـوازل الخاصة والعامة، ولكن لاصحة لما زعمه الزاعمون منهـم من أن ذلك الاعتقاد قتـل فيه الشعور فأصبـح لا يميز بين الحق والباطل بين الحالى = المتجر من الحلى= والعاطل = لابس الحلى= .

ليس فى التسليـم بالقضــاء والقدر ما يكبـل المسلمين بأغــلال الجمود أو يلزمهم ملازمة الثبوت والاستقرار. فإنهم وإن تلقوا ضمن مبادىء دينهم ما يفيد أن الحذر من القـدر إدعاء بالخلود مطـالبون دينيا بالنهـوض إلى إطفاء الحريق إذا شـب فى دورهم، ومغادرتها إذا كـانت آيلة إلى السقـوط لحادث ما كالـزلزلة وغيرها واللـيـاذ بالفرار مــن الفيضان وإتخاذ كل ما يعـن لهم من الوسائل التى يمليها العقل وتحكم بها غريزة حفظ الذات.

١٢ ـ صلة الرجل بالمرأة

نظمت الآداب الإسلامية علاقة الرجل بالمرأة على قاعدة احكم وأطبق على العقل مما يتبادر إلى الذهن أول وهلة. حقا إن تعدد الزوجات فى الإسلام مباح أباحته فى جميع بلاد المشرق ولكنه مقيد بحدود صريحة. إذ جاء فى القرآن: «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا». وقد أصلحت الشريعة حالة المرأة فى الشرق، إذ قضت بأن لايتم زواج إلا بصداق من المال يدفع الرجل آجله إلى زوجته فى حالة طلاقها. وفى المواريث قضت تلك الشريعة بأن ترث الأخت نصف حظ الأخ وأن تعتق الأمة لمجرد وضعها بعد الحمل من مالك رقبتها.

ويحرم الإسلام الزواج بالوثنيات ولكنه يبيحه باليهوديات والنصرانيات وفى القرآن آيات تقرر فضل الرجل على المرأة على أن يكون مظهر هذا الفضل الرفق بها والذود عنها ، ومن هذا القبيل قوله: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا».

(٣)
العبـــادات

الصلوات اليومية الخمس ـ التطهر ـ المساجد ـ النظار والأئمة والمشايخ والخطيب والمؤذنون والقيمون ـ رمضان ـ عيد الفطر وعيد الأضحى ـ الحج إلى بيت الله الحرام ـ الأولياء ـ المذاهب الأربعة ـ القيام بترويض الدين عند المسلمين ـ الأغذية المحرمة ـ الواجبات الدينية المفروضة على النساء ـ مخالفة الآداب الشرعية ـ وصية القرآن بالتسامح نحو المسيحيين.

١٣ ـ الصلوات اليومية الخمس

الصلاة هى الركن الأساسى من أركان الفروض الدينية فى الإسلام، وكل

مسلم مسئـول عن إقامتها وأدائهـا خمس مرات فى كل يوم. ومـن المعتقدات المقررة فى الإسلام أن ملكا يهبط فى الفجر من السماء فيظل مقيما حتى الظهر فيسجل أسماء الذين قاموا بفرض الصــلاة. فإذا أقبل الظهر طوى كتابه ولم يدون فيه أسماء المتخلفين عن أدائه، ويالشقاء هـؤلاء، ويا لشدة ما سيلقون من عذاب. على أن فى يدهم محو هذه السيئة بالصلاة والصوم فى غير المواقيت المفروضة.

وبعد الظهر يهبط ملك ثان يظل مقيما على الأرض إلى أن يأزف أوان العصر (حوالى منتصف الساعة الرابعـة بعد الزوال) ليدون أسماء المصلين كما فعل الأول ثم يهبط ملك ثالث لأجل ما بين العصر والمغرب فرابع وهو الاخير لأجل ما بين المغرب والعشاء الأخيرة (أى بعد غروب الشمس بنحو الساعتين).

جاء فى القرآن: «وسبـح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبـل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

.. «ومن حيـث خرجت فـول وجهك شطـر المسجد الحرام وحيث مـاكنتم فولوا وجوهكم شطره».

١٤ـ التطهـر

التطهـر قسم مـن أهم أقســام العقيدة الإســلامية. فـإنه لا يجوز لمؤمـن بحسب الدين الإسلامى أن يباشر فرضـا ما من الفروض الدينية إلا إذا تطهر من كل الأدناس الجثمانية. والتطهر ثلاثة أنواع: الغسل والوضوء والاغتسال. فالأول ما يـراد به إزالة دنس مـادى فى الجسم أو الثوب أو المكان الـذى تقام الصلاة بـه. ولإتقاء هذا الدنـس يأمر المسلمـون عبيدهم بأن يحملـوا معهم سجـادة صغيرة ليطرحـوها على الأرض متـى آن وقت الصــلاة ثم يصلــون عليهـا. أما مـن لم تكـن عنـدهم سجـادة فيتخـذون منهـا بديـلا أرديتهـم أومعاطفهم.

أما الوضوء فهو غسل الوجه والفم والأنف واليدين والذراعين إلى المرفقين والقدمين إلى الكعبين والمتـوضـىء يقـرأ فى أثناء وضـوئه بعض مـا تيسر من القرآن أو الدعوات.

أما الاغتسال فيكون من الجنابة والحيض..إلخ.

ولا خـلاف فى أن هذا التطهـر على وجوهــه المتقدمــة من أوفـق ما سنتــه الشريعــة الإســلامية لمقتضــى العقـل والحكمــة. لأنها تفرضــه على المسلــم بمناسبــة إقبالــه على أداء فرض مــن فروض دينــه، فتمهد لــه بذلـك وسائل النظافة والـوقاية الصحية التـى لا جدال فى مزاياهــا ومنافعها بالبـلاد كافة والشديدة الحرارة منها خاصة.

١٥ـ المســاجد

يكثــر المسلمــون مــن الحفــلات الــدينيــة والأعيــاد ويحتفلــون بها بما يستطيعون من مظاهر الجلال. ولهم عناية خــاصة بتعهد المساجد. إذ تراها على الدوام فى الغــاية القصــوى من النظافــة. وليس بداخلهــا شىء مــن آثار الزخرفة والتأنق فلا كراسى ولا مقــاعد مستطيلة، وغاية ما هنالك أن أرضــها تفرش صيفا بحصير السمار وشتــاء بالسجاجيد يجلــس عليها المصلون فى وضــع تستروح منه رائحة التواضع والتقوى. وتراهم قبل غشيانهم المساجد يخلعون أحــذيتهم ونعالهم ثم يجلســون خاشعين. أما المساجــد الكبرى فقد يرى النــاس فيها، مــع جلوسهم على الـوضع المذكور، يتبــادلون الأحــاديث وربما يأكلون أو ينامون أو يزاولون عمــلا ما بدون أن يفوتهم قط أثناء ذلك إظهار الاحترام العظيم لتلك المعاهد.

وقبل وصــول الحملة الفرنسيــة واحتلالها الــديار المصرية كــان من بين المســاجد الكبرى جملــة لا يسمح للنصــارى ولا لليهــود المرور أمامهــا على صهوات خيلهــم فأبطل بونــابرت هذه العــادة وجادل فيها العلماء فألــزمهم الحجة إذ قــال لهم: «إذا كان مــا تقصدون إليــه بذلـك المنع طلبكــم الاحترام والتوقير لمساجدكم فلماذا لا ترمون إلى مثل هذا الغرض بالنزول عن دوابكم؟ وهل مما يقبله العقل والعدل أن يطالب المرء أجنبيا بما لا يطالب نفسه به من علامات التوقير لدينه؟». وعلى أثر هذه المناقشة لزم المسلمون حد الاعتدال فى معاملــة الأجانــب من هذا الــوجه بـل بلغ من تســامحهم معهــم أن أذنوا لـهم بغشيــان المساجــد لـزيارتها والتفــرج عليهــا مــن غير خوف عليهــم. وإنما يؤسفنــى فى هذا المقام أن ألاحــظ على بعض الــزائرين تغافلهــم عن الاحترام الواجب عليهم نحو تلك الأماكن.

والجدير بالنظر والاعتبار فى أمر المساجد ما ألحق بها من المعاهد المختلفة التى لاخلاف فى فائدتها كالملاجىء لإيواء الغرباء والمسافرين والكتاتيب العامة والمدارس التى ينشأ فيها الطلبة على التفقه فى الدين فيتخرج منهم المؤذنون للمساجد والقضاة والنواب..إلخ.

وعدد المساجد كبير جدا فى القطر المصرى. بل هو أكبر مما يلزم له فى الحقيقة، وهو فى القاهرة وحدها يبلغ إلى الأربعمائة أهمها الأزهر الشريف[١] وكلها عتيقة البناء جميلة النمط الهندسى. والذى يشيد منها الآن قليل جدا وليس فى شىء ما من حسن الانماط الهندسية التى كانت مرعية فى عهد الخلفاء المتقدمين.

١٦ـ النظار والأئمة

يقوم بإدارة كل مسجد ناظر بيده الإنفاق على شئونه من ريع الأملاك المرصودة عليه، وإليه يرجع تعيين خدام المسجد من الإمام إلى صغار الخدم الموكلين بنظافته. والعادة أن يكون لكل مسجد إمامان يأتم الناس بأحدهما فى الصلوات الخمس متى حلت مواعيدها الموقوتة. وليس لرجال الدين فى الإسلام طائفة خاصة ولا فرقة ممتازة على غيرها فى الهيئة الاجتماعية. لأن صفتهم الدينية لم تكن لاصقة بهم على الدوام كما هى عند القساوسة فى المذهب الكاثوليكى، وإنما هى وقتية إذا شاء الناظر انتزعها منهم فيفقدون مع مراكزهم صفة الإمامة. ولهم حق التزوج لايمنعهم عنه مانع إذ لا رهبانية فى الإسلام. ولما كانت الأجرة التى يتقاضونها فى مقابل قيامهم بوظيفة الإمامة زهيدة جدا وهى قرش واحد فى اليوم فإنهم يضطرون فى الانفاق على عيالهم إلى مزاولة مهنة أو الاحتراف بحرفة، فترى منهم العطارين والماورديين ومعلمى الكتاتيب. أما الذين لا يقدرون منهم على ممارسة الحرف أو لم يكونوا قد تعلموا حرفة خاصة فيرتلون القرآن فى البيوت مقابل مال يتقاضونه من أربابها فى آخر كل شهر وهم يكونون فى الغالب من فقراء الطلبة فى الأزهر الشريف.

(١) يشبه الجامع الأزهر فى مصر جامعة السوربون فى فرنسا، والطلاب من أهل الشرق جميعا يفدون عليه لتلقى العلوم الدينية والشرعية. ومما يدرس به علم الفلسفة على مذهب أرسطو واللغة العربية والتاريخ. وبداخل الجامع أروقة لسكنى الطلاب. رواق منها لكل من الأكراد والفرس والنوبيين والأتراك والهنود والمغاربة والحجازيين..إلخ وهم جميعا يتلقون العلم على نفقة الجامع.

ومن أئمة المساجد تتألف الطبقة الوسطى من رجال الدين. إذ فوق درجتهم توجد درجة العلماء المتفقهين فى الدين والقائمين بوظائفه ومناصبه، والشيوخ أو المشائخ ويقومون بخطبة يوم الجمعة والخطيب يقوم فيه بالصلوات الخمس التى يؤديها الإمام بقية أيام الأسبوع. والمؤذنون ويدعون المؤمنين إلى الصلاة من أعلى المآذن والقيمون وهم صغار الخدمة فى المسجد.

١٧ـ رمضان

صيام رمضان من فرائض الدين الإسلام المتداولة الذكر فى أوربا لشهرتها. ويلبث شهرا كاملا. والمفهوم أن ليس فيه شىء من المزايا الصحية المتوافرة فى الصوم على الطقسين المسيحى واليهودى. لأن شهر رمضان لا يقع فى فصل معين من فصول السنة، وانما يطوف بها جميعا على التدريج ويتم دورة طوافه فى كل ثلاث وثلاثين سنة مرة. ولم يكن شهر رمضان عند المسلمين خلافا لما اتجهت إليه الظنون فى أوربا ـ شهر رفه ونعيم وتفرغ للمنكرات. بل هو شهر حرمان من الشهوات فى الغاية القصوى من الشدة. فإن كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره مطالب برعايته. فقد جاء فى القرآن: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون».. «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر».

ونصوص الدين فى الصوم محترمة الجانب. إذ يتبعها المسلمون بدقة وانتباه ليس بعدهما وصف لواصف. نعم لاتخلو الحال من وجود أناس يجرؤون على مخالفتها ولكنهم قليلو العدد جدا . فضلا عن تسترهم على أنفسهم فى ذلك. ولم يكن الإمساك فى الصوم قاصرا على حرمان النفس غذاءها طول النهار من كل شراب وطعام. بل يتناول استنشاق الأرواح العطرية والتدخين والنشوق. وهناك فريق من المتشددين يحرصون دائما على لفظ اللعاب محترزين من ابتلاعه.

أما الحوامل فلا يطلب منهن الصوم وكذا المرضى والمسافرون، ولكن

القليل من هؤلاء يميلون ـ وهم فى حالة مرضهم أو سفرهم إلى الاستفادة من هـذه الإبـاحة. بـل إن هنـاك كثيريـن من الأتقيـاء والصـالحين يتمادى بهم الحرص على رعاية فـروض الدين حتى فيما تباح مخالفته لمثـل تلك الأسباب فيضنون على أنفسهـم بقطرة الماء يرطبون بها أفـواههم فى أثناء سفـرهم فى الصحراء. حيـث يشتد القيظ ويقـاومون بذلـك الأوار الشديد. ولقـد شهدت بنفسى مرضى كثيرين فى بحران الحمى يأبون تعاطى الدواء المخفف لدائهم مؤثرين الموت على مخالفة واجب الصوم.

١٨ـ عيد الفطر والأضحى

يتلو عيد الفطر شهر رمضان ومدته ثلاثة أيام يحل أثناءها الفرح الشديد والهنـاء محل شـدائد الصوم ومـا تخللـه مـن صنوف الحرمـان، ويتبـادل المسلمون التهانى العيدية ويعفون بعضهم عن بعض.

أما عيـد الأضحى فيتلـو عيد الفطـر بنحو ٧٠ يـوما ويلبـث أربعة أيـام والغـرض منه إحيـاء ذكرى إبـراهيـم الخليل. وعيـد الفطر والأضحـى هما الوحيدان من أعياد السنة اللذان ينقطع الناس فيهما عن مزاولة الأعمال.

١٩ـ الحـج

من قواعد الدين الإسلامى الحج إلى مكـة والوقوف على جبل عرفات. وكل مسلم مطالب بأداء هذه الفريضـة لايعفيه منها إلا الفقر والمرض، وفى مذهب أبى حنيفـة أن فى استطاعـة القادر على الحج إذا لم يشـأ أداء هذه الفـريضة بنفسه أن ينيب عنه فى أدائها غيره ـ على شرط قيـامه بنفقته كلها ولكن سواد المسلمين يغفلون القيـام بشعائر هذا الفـرض والحجاج الـذين ينالـون لقب الحاج بعد أداء فريضة الحج بزيارة مكة والوقوف على جبل عرفات يقصدون إلى الحجاز إما من طـريق دمشق واما من طريق القـاهرة، والعادة أن يجتمع مسلمو أفريقية وأتـراك ألبانيا والروملى الذاهبون إلى الحجـاز فى القاهرة ثم يقصدون منها إليـه. أما الفرس وأتراك آسيا الصغـرى فيجتمعون فى دمشق ومنها يوالـون السير إلى الحجاز، وجرت العادة أن يطابق تحرك القـوافل من القاهرة للحج فى السابع والعشرين من شوال، وقبل هذا التاريخ بأيام يحتفل بالمحمـل، وهو صندوق مربـع من الخشب تـوضع فيه نسختان مـن القرآن يرسل مثلهما إلى مكة فى كل عام.

وهذا المحمل مع ما يتبعه من عفش أمير الحج والصندوق المحتوى على صرة المال المرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوى وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة ـ وتشغل فى القاهرة من الحرير الأسود ــ فيطاف بها فى حفلة حافلة وموكب جليل بالسهل المعروف بالحصوة بحرى القاهرة ثم تتجه منه إلى بركة الحاج التى هى آخر مرحلة لاجتماع الحجاج برسم السفر إلى الحجاز.

وينقسم هؤلاء الحجاج إلى ثلاث قوافل تتبع إحداهما طريق البر من الصحراء وتسرى عادة فى الليل فلا تقف إلا الصبح بعد شروق الشمس بساعتين وتقضى النهار فى مكانها . فإذا ما أقبل الليل تحركت للمسير من جديد فى الساعة الثانية بعد الغروب ويظل السفر برا مدة أربعين يوما تقريبا. أما الذين يخشون أخطار هذا السفر ومشاقه فيسافرون إلى جدة عن طريق البحر الأحمر، بالنزول فى السفن المسافرة إليها من السويس أو القصير.

والمقرر أن يجتمع الحجاج فى مكة خلال الأيام الأولى من شهر ذى الحجة فيزورون الحرم المكى الذى فيه الكعبة. والكعبة بناء صغير يبلغ طوله ٥٦ قدما فى عرض ٤٨ وارتفاعه ٨٠. والمأخوذ من الروايات العربية المصدر أن إبراهيم قام بالتضحية فداء لابنه إسماعيل فى جبل عرفات الواقع على مسافة ستة فراسخ من مكة. وأن الحج لاتتم شعائره إلا إذا صعد الحجاج فى هذا الجبل إلى قمته وحضروا فى ليلة التاسع من ذى الحجة الصلاة التى تقام بها، وفى اليوم التالى يقصدون إلى سهل منى ليختموا تلك الشعائر بتضحية الماعز والنياق..الخ ويقدرون عدد الحيوانات ذات القرن التى تنحر بهذه المناسبة من ثلاثين ألف رأس إلى أربعين ألفا.

وميعاد عودة ركب الحج من مكة إلى القاهرة فى أوائل شهر صفر التالى وتسمى هذه العودة بنزلة الحج. والعادة أن يجتمع أهل الحجاج وأصدقاؤهم ومعارفهم للقائهم بمظاهر الفرح والسرور غالبا وبعلامات الحزن أحيانا إذا علموا أن الذين جاءوا للتمتع برؤيتهم قد لقوا حتفهم أثناء الطريق بسبب ما عانوه فيه من أنواع المشاق وصنوف الحرمان. أما الحجاج الذين يصلون سالمين فيحاطون بالرعاية والاحترام ويرمقون بعين الإعجاب. لأن الناس يعتبرونهم كأنهم طبعوا بطابع البركة والقداسة، ولهذا يتوسلون بهم إلى الله

فى إجابة دعائهم وتحقيق متمناهم.

٢٠ـ الأولياء

الأولياء فى مصر كثيرون ولهم فى نفوس الأهلين منزلة رفيعة. إذ تراهم يجلونهم ويتبركون بهم فى حياتهم فإذا ماتوا أقاموا لهم الأضرحة وبنوا فوقها البنايات الحسنة. وليس لتقديس الأولياء وحسبانهم كذلك صيغ مخصوصة وإجراءات معينة كما هو عندنا .فإن الرأى العام هو المحكمة التى تقرر ولاية الولى بما يحدث فى نفسها من الأثر الناشىء عن استحسان فعاله واعتبارها متفقة مع ما ينبغى من الورع والتقوى ليكون وليا جديرا بالتكريم حقيقة. وغالبا ما يكون ذلك الرأى مخطئا فى حكمه فيصبح من لم يكن أهلا للولاية وليا ترمقه عين التجلة والاعتبار من جميع الأمصار. أما العلماء فلا يذهبون مذهب العامة فى ذلك بل لا يعتبرون وليا ما تقر هذه ولايته.

وليس المعتوهون والذين ألفوا العادات المستغربة وظهروا بالأحوال الشاذة التى تشبه الجنون بأولياء كما تتجه إليه ظنون البعض. حقا إن فى الدين الإسلامى ما يقضى برعاية جانبهم ولكنه لا يقيم لهم ولاية ولا يجعل لهم صفة تؤهلهم للتبجيل تبجيلا دينيا فإذا شوهد هنالك ما يخالف هذا المبدأ فهو مناقض للواجب ومضاد للقواعد الشرعية على الخط المستقيم.

٢١ـ المذاهب الأربعة

المذاهب التى يتمسك المسلمون بها فى عباداتهم أربعة: مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى ومذهب مالك ومذهب الحنبلى، وأكثر هذه المذاهب شيوعا فى مصر المذهب الأول، وهو كذلك فى بقية أنحاء الدولة العثمانية.

٢٢ـ أداء فروض الدين عند المسلمين

الأمر الذى يدهشك من المسلم ثبات عقيدته ورسوخ إيمانه فى نفسه رسوخا لايتناوله شك أو تزعزعه قوة بالغة من الشدة مابلغت. فلعقيدته فى نظره من سمو الرفعة وجلال القدر ما يلقيه فى الدهشة والاستغراب من مخلوقات الأرض كيف لا يدينون بالإسلام؟ وقد جرت عادة المسلمين على تسميتهم إيانا بغير المؤمنين لأنهم يرون منا الإحجام عن أداء فروض الدين كما أنهم يسموننا بالكفار لأنهم لا يشاهدوننا مقبلين على الصلاة. وترى

المسلمين مستوفزين دائما للوثبة على من يهاجم دينهم بطعن أو انتقاد وعندهم كل مكان صالح لأداء فرض الصلاة. فالطريق العام وحقل الزراعة، والبيت الخاص بالسكنى سواء فى ذلك. وهم يصلون جماعة أو فرادى ولو فى وسط يختلطون فيه بالأجانب لا يلويهم عن ذلك مانع أو اعتبار ما.

وقد ذهب الناس فى أوربا إلى القول بأن المسلمين أخذت تنبث فيهم الميول الجانحة إلى ما يخالف الإيمان والعقيدة. أخذوا ذلك على سبيل الاستنتاج من مشاهدتهم بعض المسلمين لايراعون نواهى القرآن فيما يتعلق بتعاطى الخمور. إذ هم يتعاطونها جهارا نهارا. ومفهوم أن هذه النواهى أكثر ما يكون ملاءمة لصحة الناس من أهل المناطق الحارة كبلاد العرب وأفريقية التى إذا وجدت بها الخمور فانما تكون مما ورد إليها من البلاد الأجنبية لا مما صنع فيها.

٢٣- الأغذية المحرمة

من فضائل الديانة المحمدية وآثارها الحسنة فى النظام الاجتماعى عنايتها المتواصلة بتقرير جملة طيبة من الاحتياطات الصحية الجزيلة الفائدة. وهذه العناية وإن استوجبت أحيانا رعاية بعض التفاصيل الدقيقة واستدعت شيئا من العسف فى تحتيم ما جاءت به من النواهى لايسعنا إلا الحكم بصوابها من حيث المبدأ. وبما أنها تناولت المشروبات الخمرية فقضت عليها بذلك القضاء المبرم واعتبرت وسائل النظافة الخارجية للجسم من الواجبات الدينية التى يتحتم القيام بها كان لابد أن تتناول المطعومات أيضا. وفى الواقع فقد قررت فى هذا الشأن الخطير أصولا وقواعد لاخلاف فى صلوحها وفائدتها منها اعتبارها من مواد الغذاء النجسة التى يتحتم الإمساك عن تناولها، واليهود يشاركون المسلمين فى هذا الاعتبار، لحوم الخنزير والحصان والبغل والحمار والسلحفاة والفيل والضوارى على أنواعها والجوارح والأفاعى، ومما حرم تعاطيه غذاء لبن الفرس والحمارة ، وعلى كل حال فليس من الجائز استنفاد شىء بالأكل من أحشاء تلك الحيوانات وأعضاء تناسلها فإنها محرمة قطعا ومما شدد الدين الإسلامى فى تحريمه الدم. وهذا التحريم هو علة ذبح الحيوانات - أعنى قطع رؤوسها وما يرتبط بهذه الرؤوس من العروق تسهيلا لخروج دمها حتى إذا أكلت لاتكون محتوية أثرا ما من الدم. ويأكل

المسلمون بلا مانع دينى لحوم الصيد، ولكنهم لايقبلون كثيرا على لحوم الطير المصيدة لتعذر استنزاف دمها كله.

٢٤ـ واجبات الدين للنساء

النساء المسلمات غير مطالبات بكل ما يطالب الرجل به من فروض الدين، فإنهن نادرا ما يذهبن إلى المساجد لأداء فرض الصلاة. ومع هذا فلم يرد فى الشريعة الإسلامية نص يمنعهن من الذهاب إليها للقيام به ولم يحرمه عليهن، ولكنها آثرت أداءهن إياه فى بيوتهن. ولما كان المسلمون يذهبون إلى اعتبار وجود النساء فى المساجد صارفا للخواطر عما يلائم صفة الطهارة والقداسة اللاصقة بالمعابد فقد حرموا على النساء بالفعل ما أباحه الشرع لهن فى المبدأ من الصلاة فى المساجد (١).

٢٥ ـ القرآن والتسامح نحو النصارى

اشتهر المسلمون فى أوربا بكراهتهم للمسيحيين وحقدهم عليهم فإذا كان سبب هذه الشهرة ارتكابهم فى أيام الحروب ضروب الفظاعة فى حق المغلوبين(٢) فمما ينبغى الجهر به أن مسئولية كراهتهم لا تقع على مبادىء الدين الإسلامى، كلا فقد دعا القرآن فى أكثر من موضع بالتسامح نحوهم كما تدل عليه السور الآتية:

«ومريم ابنة عمران التى أحصنت، فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين».

«وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب».

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم».

ومما ينبغى الجهر به فى هذا المقام أن تعصب العامة من الشعب كثيرا ما حال دون ظهور أى أثر لما كان يخالج الحكام من النيات الحسنة نحو المتمسكين بالديانات الأخرى غير الإسلام. ولكننا لا يسعنا إلا الجهر قبل انتهاء هذا الفصل بأن العرب الأصليين أكثر تسامحا نحو الذميين من

(١) الناشر : ليس صحيحا ما ذكره المؤلف من تحريم الإسلام لارتياد النساء للمساجد .
(٢) الناشر : هذه رؤية غير موضوعية للمؤلف فيما يتعلق بنظرة المسلمين للمسيحيين فى أوربا .

الشعوب الإسلامية الأخرى وأن المصريين يفوقونهم فى التسامح. إما لما جبلوا عليه من الرقة ودماثة الأخلاق، وإما لما سبق لهم من الارتباط بالأوربيين.

(٤)
الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة

اليهود ـ الأقباط اليعاقبة ـ الأقباط الكاثوليك ـ اليونان المنشقون ـ اليونان الكاثوليك ـ الأرمن ـ الكاثوليك اللاطينيون ـ العداوات بين المذاهب المسيحية.

٢٦ ـ الديانات أو المذاهب الدينية الشائعة فى مصر بعد الإسلام هى الديانات والمذاهب التى يتمسك بها اليهود والأقباط والأرمن واليونان المنشقون والأقباط والأرمن واليونان الأرثوذكس والكاثوليك من المذهب اللاطينى. ويبلغ عدد المنتمين إلى هذه المذاهب المختلفة ٣٠٠٠٠٠ نفس.

٢٧ ـ اليهود

فى القطر المصرى نحو ٧٠٠٠ يهودى يقطن سوادهم الأعظم حيا خاصا بهم منهم ١٢٠٠ من القريين = القرائين = والباقون من الربانيين. ورجع إلى محمد على باشا الفضل فى استنقاذ اليهود مما كانوا يلقونه قبله من التصدى بالإهانة والاضطهاد. فقد منحهم حمايته وعضده كما منحهما غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى. ولهم فى مصر ثمانى بيعات أى هياكل للعبادة.

٢٨ ـ الأقباط اليعاقبة

الأقباط المنشقون هم الشيعة الأكثر عددا والأعز فى مصر نفرا . إذ يعدون ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا لهم ١٣٠ كنيسة وديرا فى أرجاء القطر ورئيسهم الدينى هو البطريك الذى يتولى كرسى البطريركية معينا من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وإليه يرجع الاختصاص بتعيين النظار المكلفين بإدارة الأديرة والكنائس. والمفهوم أن المذهب القبطى مقتصر على مصر لايوجد فى غيرها، ومن طقوسه الاعتراف والتناول الربانى بنوعيه. ولابد من التطهر

بالاغتسال قبل الجلوس إلى المائدة المقدسة ،وهم يختتنون كاليهود ومذهبهم مستمد من بدعة (أوتيكيس) المبتدع اليونانى من أهل القرن الخامس. والأقباط يذهب بعضهم مذهب الطبيعة الواحدة والبعض الآخر مذهب الإرادة الواحدة مع الطبيعتين.

٢٩ ـ الأقباط الكاثوليك

بالقطر المصرى ٥٠٠٠ قبطى على المذهب الكاثوليكى. ولم تدخل الكثلكة بين أقباط مصر إلا منذ عهد قريب. ولهم أسقف خاص بهم، وقساوستهم أسمى إدراكا وأوسع علما من القساوس اليعاقبة. والظاهر أن مذهب الكثلكة أثر فيهم فجعل لهم التفوق بالعلوم والمعارف على سائر المتمسكين بالمذاهب القبطية الأخرى.

٣٠ ـ اليونان المنشقون

اليونان المنشقون بالقطر المصرى ٣٥٠٠ يونانى ينقسمون إلى فرقتين الفرقة الأولى تتألف من اليونان المتناسلين فى القطر المصرى نفسه وهم السواد الأعظم، والفرقة الثانية من اليونان الذين وفدوا على هذا القطر بعامل حب الكسب من التجارة. والمفهوم أن يونان الفريق الأول منتشرون بالوجه البحرى وهم سلالة الجاليات القديمة، وانهم إذا تمذهبوا بالمذهب الانشقاقى فما ذلك إلا لاتصالهم بالقسطنطينية عاصمتهم السياسية القديمة وشأنهم كشأن الاجانب فى تبعيتهم من الوجهة الروحية إلى البطريك المعين من اسلامبول. ولهم بالقاهرة ثلاث كنائس وهى دير مار جرجس ودير القديسة كاترينة وكنيسة مارنيقولا.

٣١ ـ اليونان الكاثوليك

اليونان من المذهب الكاثوليكى يبلغ عددهم ٣٥٠٠ تقريبًا . سوادهم الأعظم من السوريين وهم تابعون منذ بضع سنوات إلى أحد البطاركة فى أحوالهم الشخصية.

٣٢ ـ الأرمن

يعد الأرمن فى مصر ٢٠٠٠ نفس تقريبا . أغلبهم تابع للمذهب المنشق ولهم قساوستهم وبطاركتهم وكنائسهم. ولفريق من الأرمن الكاثوليك هيكل

خاص لإقامة شعائرهم الدينية.

٣٣ ـ الكاثوليك اللاطين

الكاثوليك المتمسكون بالمذهب اللاطيني هم الجاليات الأوربية ويقيم شعائر هذا المذهب في الكنائس اللاطينية آباء الأرض المقدسة ومتدينو القديس فرانسوا.

ولمبعوثي المذهب الكاثوليكي كنائس في القطر المصري، وقد عين قداسة البابا أخيرا أسقفا لهم فيه.

والمعاهد الدينية الكاثوليكية وضعت منذ زمن بعيد تحت حماية فرنسا، ومعلوم أن الملك فرنسوا الأول والملك لويس الرابع عشر شملا هذه المعاهد بوصايتهما ورعايتهما بأوامر أصدراها في هذا الصدد.

٣٤ ـ العداوات بين المذاهب المسيحية

تشمل حكومة محمد على بحمايتها جميع الأديان والمذاهب على حد سواء بصرف النظر عما هو مستحكم بين بعضها البعض من أسباب العداوة والنفور. وليس في هذه المساواة ما يبعث على الدهشة. فإن المسلمين يعتبرون تلك الأديان والمذاهب كلها مخالفة للإسلام، وبالتالي غير مؤمنة وبين العقائد الدينية المختلفة التي يدين بها غير المسلمين من المصريين تنافر غريزي وتحاسد وتباغض وتخاصم أفضى بها إلى الخلاف المستمر والتنابذ. ولكن هذه المقابح زالت الآن وصار لا أثر لها. لأن «محمد على» بما عرف به من النزاهة والبعد عن المحاباة لايؤثر أهل مذهب على أهل مذهب آخر ولا يناصره ضده وإذا كان هناك ضرر يلحق بتلك الأحزاب الدينية فإنما هو الضرر الناشيء من حملهم المسلمين بتلك الأفعال القبيحة على احتقار المسيحية والنيل من كرامتها. وكان هذا الضرر قبل أن يتسلم محمد على أزمة البلاد متفاقما . فقد كانت تلك المذاهب لانتقاضها على بعضها واستنفار الفساد بينها تتسابق في شراء حماية الحكومة بأموال تنقدها إياها فلا يفوز بهذه الحماية منها ليغنم الامتيازات إلا من بلغ الحد الأقصى من المزايدة في سوق الدلالة. وكان الإنسان لا يبعد أن يرى عندئذ أرباب الفتن والدسائس من المشايعين للمذاهب وقد توصلوا بقوة المال إلى تحقيق ميولهم الشريرة من

الفتك بأرواح خصومهم أو هدم كنيستهم أو استنزال السخط والاضطهاد عليهم وليس بعازب = ببعيد = على فكر أحد أن العداوات من هذا النوع إذا أطلق لها العنان كان من أخص نتائجها تزجية = سَوْقَ = فكرة محزنة إلى أذهان المسلمين عن فضائل الديانة المسيحية وآدابها [١].

(١) الناشر: اخالف رأى المؤلف.

الباب الخامس

الشريعة الإسلامية وإدارة العدل فى مصر

(١)

الشرائع والقوانين المدنية

الشريعة الإسلامية ــ البلوغ ـ الزواج والطلاق ـ الحقـوق الأبوية ـ الأوصياء ـ المدينون والمفلسون ـ الحجر ـ التسليف على رهن ـ المحبة ـ الميراث.

١ـ الشريعة الإسلامية

ينبوع الشريعة عند المسلمين كما هو فى المدنيات الشرقية الدين وقوانينهم فى الشئون المدنية، والعقوبات مستمدة مـن القرآن، وحيث إن هذا الكتاب لم يقرر الأحكام بـالتفصيل فى وجوه المنازعـات فالقضاة يعتمدون فى تقـريرها على الاسترشاد بمايأتى:

أولاً: السنة، وهى ما نسب إلى النبى قولا أو فعـلا أو تقريرًا ـ أى ماحدث أمامه من قول أو فعل فأقره بالقول أو السكوت.

ثانيًا: الإجماع – أى أجماع الصحابة الذيـن توفى النبى وهو راض عنهم أو بعبـارة أخرى هـو المتفق عليـه بالتـواتـر فى خلال الثـلاثة قـرون الأولى للإسـلام ، ويرجعون فى العمل به إلى قول النبى «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ثالثا: القياس، وهو ما قررته العادة وجرى عليه الاصطلاح.

رابعًا: الاستقراء.

٢- سن الرشد

قررت الشريعة الإسلامية أن يكون بلوغ الرشد للذكر والانثى ميعاد بلوغهما الحلم - أى الثانية عشرة للذكور والتاسعة للإناث، هذا إذا جهرا بأنهما فى هاتين السنين قد بلغا الحلم. وأقسما على ذلك. فإذا لم يجهرا ولم يحلفا فإن سن الرشد لهما تكون ببلوغهما تمام الخامسة عشرة، وفى هذه الحالة يجوز للذكر الحر حق التصرف فى شئونه. فإذا مات أبوه فإن وصيه يتولى إدارتها إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، وإذا أمسك الرجل بزمام ماله فتصرفه فيه طبقا للقانون يعتبر صحيحا لا غبار عليه.

٣- الزواج والطلاق

رأينا فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية حددت بأربع عدد الزوجات الشرعيات التى للمسلم أن يتزوج بهن ويتم الزواج شرعا بإيجاب وقبول فى حضرة الشهود وبدفع صداق للزوجة إما معجلا كله وإما معجلا بعضه ومؤجلا البعض الآخر ، والخيار فى الطلاق يرجع فى الأصل إلى إرادة الزوج. ولذا ترى العرب يسيئون استعمال هذه الحرية ويعبثون بها إلى حد أن بعضهم ربما تزوج وطلق خمسين مرة. أما الأتراك فالطلاق بينهم نادر جدا. وعلى كل حال فللزوج المطلق أن يرجع إليه زوجته فى الطلقتين الأوليين فإذا طلق ثالثة فلا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين بعد طلاقها من الزوج المحلل.

٤- حقوق الأب

وللوالد الخيار فى تزويج أبنائه القاصرين لمن يشاء وعلى أى وجه يشاء بدون أن يكون لهم حق ما فى الاعتراض على سلطته. أما الأبناء البالغون فلا يمكن تزويجهم بغير رضاهم. وهذه القاعدة مستمدة من الاقتداء بمحمد فانه استشار ابنته فاطمة قبل أن يزوجها بعلى. وللوالد الحق فى إدارة أموال أبنائه القاصرين بدون أن تلحقه مسئولية فيما لو أدركها ضرر كالذى يحتمل وقوعه إذا رهنها تأمينا لدين عليه أو أنفقها فى احتياجاته الصحيحة.

٥- الأوصياء

للوصى من الحقوق على القاصر ما للوالد بالسواء ما عدا الحقين الأخيرين اللذين تقدم ذكرهما. وأقرب الأهل إلى والد اليتيم أحق الناس بالوصاية عليه،

فإذا لم يكن لهذا اليتيم ولى تؤول الولاية إلى قاضـى الجهة التى يقيم فيها.

٦ ـ المدينون والمفلسون

تبيح الشريعة الإسـلامية حبس المدين حتـى يعلن عجزه عن السـداد. أما المفلس فيقـع تحت طائلة الحجـر الصحيح، ولا يجوز لـه التعامل مـدنيا أو القيام بعمل ما يختص بأمواله إلا بتصريح من القاضـى.

٧ ـ الحجر

الذيـن يحجر عليهم هم: القصر والشيـوخ المعتوهون والمجـانين والأرقاء والمسرفون والمفلسـون. ومع هذا فإنهم يعاقبون بالعقوبات المبينة فى الشريعة إذا ارتكبوا ما يجعلهم أهلا لها.

ولصاحـب المال أيا كان حق التصرف فى مـاله بالتنـازل عنه لمن أراد على شرط أن لا يكون مـحجورا عليه.

٨ ـ التسليف على رهن

وإذا سلف مالا فى مقابل رهن فإن النفقـات التى تستلزمها صيانة الشىء المرهون تكون على ذمته، ويكسب دينه صفـة الامتياز فى حالة وفاة المدين أو إفلاسـه.

٩ ـ الهبة

ولصاحب المال بمقتضى ماله من حقـوق الملكية أن يهب فى حياته ما شاء من ماله إلى مـن يريد كائنا من كان. ولكـن يبقى بيده الحق فى استرداد الهبة كلها أو بعضـها، والشريعة تجيز له ذلـك وإن تكن من جهة أخرى تستقبحه. ومع هـذا فإن الهبـة لا تتم فعلا إذا مـات الواهب والموهـوب إليه، أو كـانت بينهما قرابة، أو كان الموهوب إليه لم يتسلم الهبة.

١٠ ـ الوراثة

فى مصر كما فى بلاد الـدولة العثمانيـة يرث الأبنـاء بالتسـاوى بما يتركه والدهـم من الأموال فليـس فيها ذلك الحق الذى يقضـى بأن تكون الـوراثة لـلأكبر فـالأكبر مـن الأبنـاء. كما لا فارق ولا تمييـز بين أبنـاء الـزوجـات الشرعيات وأبنـاء السرارى والجوارى، أما الأنثـى فترث من مـال الأبويـن ما

يعدل نصف حظ الذكر. وإذا تـوفى المورث عن بنات فقط فبمقتضى الشريعة ترثن ثلثى التركـة سواء كن اثنتين أو أكثر عددا. أما إذا مـات المورث عن ابنة واحـدة فلها بمقتضـى الكتاب الحق فى نصـف ما تـرك والدهـا وفى الحالتين المتقدمتين يعود الثلث أو النصف الباقيان إلى البنات الوارثات أو الابنة الوارثة بعد التأكد من عدم وجود أقارب للمـورث توزع تلك الحصص الباقية عليهم. وإذا مات المورث عن والده ووالدته فإن سدس تركته يؤول إليهما فى حالة ما إذا كان لـه أبناء. أمـا إذا لم يعقب فيرث الاب ثلثى مـا ترك الابـن والأم الثلث الباقـى. فإذا كـان للمورث أخـوة فلا يصيـب الأم سوى السـدس مما تـرك ويؤول إليهم السدس الآخر . وليس للرجل أن يتصرف على سبيل الوصية فى أكثر من ثلث مـاله ، والواجب بعد وفاتـه سداد ديونه وما وصى بـه قبل كل شىء آخر

(٢)
الجنايـات والعقوبـات

سب الدين ـ القتل ـ الضرب والجرح ـ الزنا ـ السرقة ـ الردة.

١١ ـ سب الدين

فى الشريعة الإسلاميـة يقام الحد على من يسب الـدين بالقتل ويقـام هذا الحد أيضًا على قاطع الطريق..إلخ.

١٢ ـ القتل

عقوبة القتل القصاص ويملك تخفيفها ورثة القتيل باقتضائهم من القاتل مالاً يـدفعه فى مقابـل ما اجترمه وهـو دية الـدم. وحوادث القتل تكـاد تكون معدومة فى القطر المصرى.

١٣ ـ الضرب والجرح

تعـاقـب جنـايـة الضرب والجرح بـــالقصـاص. العين بـالعين والســن بالسن..إلخ.

١٤- الزنـــا

يقام الحد على الزانى غير المتزوج بالجلد وعلى المحصن بالرجم.

١٥- السـرقة

يعـاقب السـارق بقطع اليـد، ولكن ورد فى السنـة تطبيق هـذا الحد على السارق الـذى يسرق فى ظروف توجب التشـديد فى عقوبته وشهـود الزور فى الدعاوى المدنيـة يشهر بهم بين أهل وطنهم حتى يلحق بهم عـار زورهم. أما شهـود الزور فى الجنـايـات فيستوجبـون على أنفسهم عقـوبـة الجلد وقـد يعاقبون بنفس العقوبة التى تترتـب على شهادتهم لو نطق بها فى حق المتهم. وحد شـارب الخمر الجلـد وهذه العقـوبة وإن تكن مـرعية قـانونـا فى القطر المصرى لا يتأتى تطبيقها إلا فى النادر لندرة من يعاقرون بنت الدنان فى القطر المصرى.

١٦- الردة

الارتداد عـن الديانـة الإسلامية جنـاية ليـس بعدها جنـاية ولذا يعـاقب مرتكبها بالقتل ما لم يحلف المرتد ثلاثا بأنه عاد إلى حظيرة دينه.

(٣)
نظـام القضـاء

القضاة ــ المحكمة ــ تنفيذ الأحكام ــ العقود العامة ـ المصـاريف القضـائية ــ القـانـون العسكرى ــ السلطـة الاستبـدادية التـى بيـد الباشوات ـ العقوبات ـ القضاء عند الافرنج.

١٧- القضـاة

السلطة القضائية مستمدة فى مصر من ولى الأمـر وحده. فهو الذى يرجع إليه اختيار كبـار القضاة وتعيينهم، وهؤلاء يبـاشرون تعيين من دونهم ممن يتولون مناصب القضاء فى أرجاء القطر. وبناء على هذه القاعدة فإن السلطان الـذى هو ولى الأمـر يرسـل إلى مصر فى كل عـام قاضيـا كبيرا تمتد سلطتـه القضـائيـة بحيث تتناول هذا القطـر كله وتشمل رياستـه المشائخ والمدنيين والنواب وبالجملة أصحاب المناصب القضائية على اختلافهم.

وتتطلب الشريعة الإسلامية ممن يتولى القضاء صفتين أساسيتين. الفضيلة والعلم، وليس لعالم أن يرفض منصب القضاء إذا عرض عليه والقضاة قابلون للعزل من مناصبهم.

١٨ـ المحكمة

المحكمة هى التى يُنظر فيها القضايا بين الخصوم وتصدر الأحكام ولكل محكمة كاتب أو كُتاب يسجلون المرافعات. وليس للخصوم فى بلاد الدولة وكلاء يدافعون عنهم أمام المحاكم بل كل خصم يدافع عن نفسه بنصوص الشريعة. والمقرر بوجه عام أن شهادة الشاهدين تقوم مقام الدليل الكامل فى جميع القضايا إلا قضايا الزنا فإنه من المحتم لصدور الأحكام فيها من شهادة أربعة شهود تتفق شهادتهم اتفاقا تاما ولا تختلف فى شىء، ومن اعتراف الرجل والمرأة به مكررا أربع مرات فقط وإلا فلا دليل على وقوعه.

ولا تنهض شهادة الشاهد الواحد فى أية قضية دليلا على إثبات أو نفى، ولا تقبل شهادة النساء إلا فى القضايا المدنية والأحكام التى تصدر فيها. ولذا نادرا ما تستأنف. لاسيما وأنها إذا استؤنفت لا تلقى إلا تأييدا. وكل ما هنالك أن الأعوان الموكلين بالتنفيذ إما يوقفون تأثيرها أو يعدلونه. والتنفيذ يتم فى العادة فورا. وفى المسلمين نزعة إلى احترام أحكام الشريعة الإسلامية ولو داخلها بعض الخطأ أو كانت مبنية على شهادة شهود الزور.

١٩ـ تنفيذ القوانين

فى كتب القضاء الإسلامى، وفيما تقرر بالقياس أحكام صالحة ونصوص حسنة جدا. ولكن ينبغى لكى تأتى بالفوائد والمزايا المقصودة منها أن لا تصدر قوانين مناقضة لها فتذهب بأثرها النافع، وأن يحرص الحرص كله على تنفيذها. وهنا لا أتمالك من الجهر بسوء حالة القضاء فى البلاد العثمانية فأقول إنها فيها أسوأ منها فى كل بلد سواها، ولا سيما من جهة الحقوق المدنية المعرضة إلى أفظع ما يكون من صنوف العبث والاغتيال.

فإن القضاة يحورون من أحكامهم بحسب ما يرونه من مكانة المتقاضين محاباة لهم، أو بحسب ما يدلى هؤلاء إليهم به من المال فإنهم فى بعض الأحيان يبيعون أحكامهم بيعا لصالح من يتفوق على خصمه فى المزايدة. ومن

الفاضح بعد هذا وذاك تواتر شهادات الزور. فقد سبق أن قلنا إن شهادة شاهدين تقوم شرعا مقام الدليل .فليس أسهل على المدعى عليه أو المتهم من العثور على شاهدين يبيعان ذمتهما با المال.

وقبل أن تسند الولاية إلى محمد على كان القضاء فى أشد من هذه الحالة اختلالا وظلما .إذ كان يقوم مقامه استبداد الباشوات والبكوات وصغار الرؤساء وغيرهم ممن يفتاتون على حقوق القضاء وضماناته لقضاء أوطارهم.

٢٠ ـ العقود العمومية

أعمال المأذونين فى العقود من اختصاص القضاة بمصر .فالقاضى هو الذى يتولى تحرير عقود بيع العقارات بين أفراد الملاك فى مقابل رسم يتقاضاه لايزيد على ٢٪. وهذه العقود ويسميها المصريون «الحجج»، مشمولة بختم القاضى وأصولها تبقى محفوظة ضمن أوراق المحكمة فى خزانة دفاترها.

٢١ ـ المصاريف القضائية

لاتتجاوز المصاريف القضائية بمصر أربعة فى المائة . لأن إجراءات القضاء بسيطة فى ذاتها ولا التباك فيها، فضلا عن أنها تنجز بسرعة. والمحكوم عليه فى القضية ـ أى الخصم الخاسر هو الملزم بدفعها فورا بالجلسة. ومفهوم أن ما يستفيده القضاة عادة من التصرف فى القضايا بحسب أهوائهم ومصالحهم كثيرا ما يبلغ مبلغا جسيما.

٢٢ ـ القانون العسكرى

لم يكن باستطاعة محمد على إدخال شىء من الاصلاح على حالة القضاء فى الشئون المدنية نظرا لارتباطها الارتباط الوثيق بالدين. وكان بلا ريب يعلم ما يعتور هذه الحالة من الخلل والنقص فترك حبلها على غاربها وتحامى التصدى لها خيفة الاعتراض والتهمة بالجنوح إلى المساس بالدين. ولكنه لما أتم تنظيم الجيش المصرى لم يتوان فى اتخاذ القانون العسكرى الفرنسى قانونا له، وزاد على ذلك أن أنشأ مجلسا مختلطا للتجارة دخل فى عضويته نواب عن الجاليات الأوربية.

٢٣ ـ سلطة الباشوات الاستبدادية

من المسلم به أن سمو الوالى اضطر فى ظروف خطيرة وأحوال ذات بال ولاسيما فى ابان ولايته حينما كانت سلطته غير راسية القواعد ولاوطيدة الأركان إلى تنفيذ الإعدام، بلا مداعاة ولا مقاضاة، فى بعض دعاة الفتنة من الألبانيين أو غيرهم. ومما لاريب فيه أن رمى عنق رجل واحد كثيرا ما يؤدى إلى انقاذ ألوف من الأرواح. ولست أتطلع بهذا القول إلى تحبيذ الأسلوب الذى يجعل حياة أحد الأفراد تحت رحمة أمير أو قيد إرادة زعيم. كلا بل أقدر مزايا الإجراءات القضائية الممهدة للأحكام عند الأمم المتمدينة وما توليه من الحماية والضمانة للهيئة الاجتماعية. ولكن إذا كانت الأمة أمة خيم عليها الجهل ورانت عليها الهمجية فلن يؤثر فيها من أساليب المعاملات إلا الشديد النكاية المكفول النتيجة المقصودة من الشدة والعسف. وفى مثل هذه الحالة لاجناح على الحاكم مادام الغرض الذى يسمو إليه تأييد قضية الحضارة ورفع شأنها.

ولقد جربنا فى بلاد الجزائر ما أيد يقيننا فى عدم الفائدة من المحاسنة والسير بمقتضى القانون ودفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا غالب على أمر سكانها من القبائل المتوحشة المتعصبة سوى إقامة حكومة عسكرية ومجالس حربية بينهم. أما وسائل الرفق والحسنى التى يدعو إليها حب الإنسانية نحو أناس يجهلون الأماكن والأشياء والأشخاص فمن شأنها أن تؤدى إلى إراقة الدماء واستنزال الكوارث وليس كلاهما من الأمثلة = المثل = العليا التى ترنو إليها الإنسانية.

٢٤ـ العقوبات

رأينا حين الكلام على الحدود فى الشريعة الإسلامية ما هى أصناف العقوبات التى توقع فى القطر المصرى على المجرمين وقلنا إنها تنحصر فى الجلد والقصاص. ونقول الآن إن النساء لا تطبق عليهن. العقوبات التى تطبق على الرجال فهن لا يشنقن ولا ترمى أعناقهن بل يوضعن، إذا صدرت

الأحكام عليهن بالإعدام، فى الأكياس ويلقين فى الماء ليغرقن. والشنق ورمى الأعناق والخوزقة عقوبات الجرائم الغليظة. وكان الباشوات والزعماء فى الزمن السابق بما عرف عنهم من القسوة والجور يتفننون فى استنباط وسائل للتعذيب هى أفظع ما مر بخاطرى ومن ثم لا يسع أحد أن يتذكر ما ارتكبه أحمد باشا الجزار من الفظاعات حينما مثل بنحو الثلث من سكان عكا إلا ويقشعر بدنه فزعا وجزعا.

٢٥ـ القضاء عند الإفرنج

مفهوم أن الأوربيين فى الشرق ليسوا خاضعين للقضاء العثمانى. لأن الامتيازات الأجنبية تجعلهم فى منجاة من هذا القضاء وتابعين لقضاء قناصلهم. وقد أصبح من اختصاص القنصليات الفرنسية فى تلك البلاد ـ بمقتضى أمر جديد ـ النظر فى قضايا الفرنسيين. وحبذا هذه الطريقة. لأن اختصاص القناصل كان فى السابق مقتصرا على تحقيق القضية التى يتعلق النظر فيها بمحاكم فرنسا حيث يتعذر استدعاء الشهود. وهذه الحالة التى ما برحت مرعية بالنسبة للجاليات الأوربية الأخرى من شأنها أن تكفل للمجرم الفرار من العقوبة. وفى الواقع فإنك لاتزال ترى فى الشرق مجرمين ارتكبوا القتل يطلق سراحهم بالنظر إلى ماهنالك من تعذر محاكمتهم فى بلادهم.

الباب السادس

أخلاق المسلمين وعـــاداتهم

(١)
الطبقات الاجتماعية

اعتبارات عامة ــ الأتراك والعرب ــ الطبقات الاجتماعية عند المصريين ـ الطبقة الوسطى ـ العمال ـ الفلاحون.

١ـ اعتبارات عامة

من المقدور لمصر أن تحمل فى كل شأن من شئونها طابعا خاصا بها لا يشبهها فيه شىء بالبلدان والأقطار الأخرى. مثال ذلك أن تكون الهيئة الاجتماعية فيها لم يتمش فى الطريق الذى تمشى فيه هذا التكون بغيرها من البلدان ولاسيما الأوربية فى الأبحر والمدنية. فإن الأمم العربية تكونت على أثر تخلصها من الغارات والفتوحات، فهى إذن ثمرة اندماج الأجناس الغالبة بالأجناس المغلوبة على أمرها. وكانت تتكون من الفاتحين الغالبين فى مبدأ الأمر طبقة ممتازة، ثم قامت بينهم وبين عامة الشعب طبقة وسطى أخذ نفوذها يمتد شيئا فشيئا بما برعت فيه من العلوم والفنون والصنائع وبذلته من الجهود التى لا تعرف الملل فى إنجاز الأعمال حتى إذا بلغت إلى مستوى الطبقة الشريفة حصلت على المساواة بها فى الشئون المدنية أو هيأت بالأقل هذا الفتح الأدبى المبين الذى يظهر أن سيكون من حظ الهيئات الاجتماعية الحديثة القيام بمثله فى جميع أنحاء العالم.

فإن الشعوب القاطنة فى وادى النيل لم ينقصهم الفاتحون. إذ يظهر أنهم مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم. ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضعة نير العبودية فى أعناق تلك الشعوب، ثم

جاء الفتح الفارسى وتلاه الفتح اليونانى الذى لم يلبث أن حل محله الفتح الرومانى فالفتح العربى فحكم المماليك والأتراك. فلم يطرأ فى خلال هذه الأدوار ما يغير من شأن الأمة المصرية. لأنها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نير تسلطهم وتحكمهم فيها. ولم يرد فى أخبارها السابقة ما دل على أنها كانت ذات أثر فى شئونها الخاصة ولا مداخلة فى مصيرها. (١)

٢ ـ الأتراك والعرب

بالرغم من أن مؤسس الدين الإسلامى لم يجعل بين المسلمين فروقا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض. وأنه لا يوجد فى الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة، فإن فى مصر فريقين يختلفان أحدهما عن الآخر ــ بصرف النظر عما يربطهما من جامعة الدين ــ اختلافا حال دون اختلاطهما ببعضهما. أحدهما الفريق الذى بيده السيطرة والحكم يتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم والتكريم ويستقل بفوائدهما، والفريق الثانى هو المقضى عليه الخضوع والخنوع للفريق الأول ويصيبه عار ذلك وما يفرض عليه من الكلف الباهظة. ذلك الفريق هو العنصر التركى،وهذا هو العنصر المصرى العربى.

هذه الحالة القائمة فى مصر المشهودة من كل ذى عينين إنما هى نتيجة ماض موغل فى القدم إلى مدى أربعين جيلا. فمن المتعذر أن تتغير فجأة بوقوع ثورة فجائية. لهذا كان من الواجب الاحتراز من إلقاء مسئولية بقائها واستمرارها على عواهن محمد على باشا.إذ إن جميع العقلاء غير المتحيزين إلى الغرض يقرون بأن هذا الوالى قد بذل بالعكس كل ما فى وسعه لتغيير تلك الحالة أو تعديلها طبقا لمقتضيات الظروف. فمحمد على هو العثمانى الوحيد الذى عمل على رفع القومية العربية إلى المستوى الذى هى جديرة به، فإنه بدأ بنشر نعمة التعليم بين أفرادها. وأرسل إلى مدارس أوربا، وعلى الخصوص فرنسا، وجامعاتها طلابا من العرب لدراسة علومنا والاطلاع على أفكارنا والانطباع بطابع مدنيتنا. ثم انه ـ وهو أمر فى الغاية القصوى من الأهمية ـ ضرب الأتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بالجيوش المصرية العربية التى ألفها من أبناء البلاد، وذلك بالرغم من خضوعهم لهم مدة ثلاثة قرون.

(١) : الناشر : نسى المؤلف الفترة الفرعونية التى كانت مصر فيها سيدة نفسها وسيدة منطقة البحر المتوسط . خاصة أيام الفراعنة العظام أمثال تحتمس ورمسيس .

ومن عادة الفوز فى الحروب إكساب الفائز احترام الغير وإحلاله شرائف الرتب. وإن أنس لا أنسى أن أقول أن المجد الذى يظفر به المنتصر بحد السنان تاج يعلو مفرق الشعوب المنتصرة ويرفع مكانتها ويعلى شأنها. وعلى هذا الاعتبار فإن الانتصارات الأربعة التى فاز بها محمد على ووثق بها أركان ملكه لابد أن سيكون لها أثر فعال فى إعادة القومية العربية إلى سالف مجدها. يضاف إلى هذا أن سموه عهد فى مختلف إدارات حكومته إلى المصريين الوطنيين عددا عظيما من الوظائف واختار من بينهم جميع ضباط جيوشه إلى درجة أمير الالاى.

٣ـ الطبقات الاجتماعية عند المصريين

ينقسم العنصر المصرى الأصلى إلى عدة طبقات. الأولى منها طبقة العلماء وهم يتوارثون تقاليدها وخططها عن الآباء والأجداد ويؤلفون بذلك الطبقة العليا من الأمة. وكان لهم فى عهد سبق تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة آرائها فكانوا هم الذين يحرضونها على الحركات السياسية والفتن ويصدونها عنها إذا أرادوا. غير أن الوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عاليه سافله إذ انتزع من أيديهم الأملاك الواسعة التى ابتزوها من الأمة بطريق الاستفادة بما جاءت عليه من جهل وأوهام فاسدة. فأصبحوا لهذا الأسباب ولا شيء بيدهم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكومة التى يمكن أن يقال إن الممسك بأعنتها إنما هو العنصر العثمانى.

أما الطبقة الثانية فتتألف من الملاك والتجار كبارا وصغارا وأفرادها قليلو العدد لأنها لا تحتوى بوجه عام إلا ذوى الثروات المتوسطة. غير أن الأزمة التى تجتازها مصر الآن قد رفعت على مايظهر من شأنها وإلى ذوى النفوذ والجاه من أفرادها عهدت مراكز القيادة الكبرى فى الحرس الوطنى، وهو الحرس الذى أنشأه محمد على فى مدائن الوجه البحرى.

أما الطبقة الثالثة فطبقة العمال والصناع. وينقسم أربابها إلى طوائف عديدة مختلفة تتولى بنفسها إدارة شئونها فى الدائرة التى تتبعها. ولها أنظمة خاصة وعادات لا تتعداها ورؤساء أو مشائخ يقبضون على زمامها. ومما يدخل فى إدارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد جدا.

أما الطبقة الرابعة وهى تتألف من المزارعين الفلاحين فمنها يتكون

الشطر الأكبر من الأمة، وستتاح لنا فرصة الكلام عنها مرارا فى هذا الصدد.

(٢)
الأســـرة الإســـلامية

السلطة الأبوية - احترام الزوجة لرب الأسرة - احترام الأبناء والدهم - السلطة بين الإخوة - احترام الصغار للكبار والمرءوس للرئيس.

٤ - يمكـن القول بـأن الأخلاق والعـادات فى الشرق لم يطرأ عليهما تغيير أساسى ما. فـإن الصفة المميزة للحضارة الشرقية ترجـع إلى أمرين: أحدهما احترام التقاليـد، والثانى استقرار الأفكـار والعقائد الدينيـة والعادات. ولهذا كـانت الحضـارة الشرقية مخالفـة لحضـارتنـا التـى يميزهـا عنها النشـاط والحركة والعمل المتواصل، والتخلص من استبداد القوانين القديمة والعادات التى أكل الـدهر عليها وشرب والوقوف فى المدارس على حركـة التقدم الحديث وعدم الثقة إلا بالحاضر وعدم الانصراف إلا إلى شىء واحد ألا هو المستقبل.

٥ - السلطة الأبوية

من الأسرة الشرقيـة يتضوع شذا التقـاليد القـديمة الذى يحبـب إلينا إلى الدرجة القصوى البحث فى شئونها، فـإن الاسرة الإسلامية قد حفظت كيانها المبنى على السلطة الأبـوية. وغير خاف أن مؤســس الديانة الإســلامية ولد فى قوم يفتخرون بأنهم من سلالة إبراهيـم عليه السلام، وعاشوا - ولا يزالون عائشين برمتهم تقريبا على البداوة الأولى فكان بدهيا أن يخص الأسرة بشطر واف من الأنشطة الـدينة. خصوصا وأن مهمة الأسرة عنـد الشعوب الشرقية على جانـب عظيم مـن الخطورة والأهميـة. ومن ثـم كان للسلطـة الأبويـة فى الشرق جزء من النفـوذ العظيم الذى كان لها فى عهد قيامهـا بين قبائل العرب وشعوبها.

وعلى هــذا الاعتبار فـالأب هو الـرئيـس الأعلى للأسرة ولــه بهذا الوصــف السلطة المطلقة على زوجته وأولاده وأقاربه إناثا وذكرانا. وكل هؤلاء مطالبون بالاحترام الجم له والطاعة لأوامره وحياطته بصنـوف العناية والرعاية. وهذه

السلطة الوالدية التي تخضع لها الأسرة برمتها شائعة في سائر الطبقات الاجتماعية للأمة ، وشأنها في أسر الأمراء، ومن ثم إنها في أسر المستضعفين والفقراء.

٦ـ احترام الزوجة لرب الأسرة

تعنى المرأة في علاقاتها مع زوجها بإظهار الاحترام الكلي له. فليس لها أن تظهر نحوه بما هو مألوف في الغرب من عدم الكلفة – أي الإشارة الوحيدة للتساوي بين الزوجين. فإنها في غالب الأحوال تقف أمام زوجها لتتلقى أوامره وتدعوه إذا دعته بياسيدي. ولها من العناية بشئونه والمداراة له مالا يصح أن يطلب من الخادم فضلا عن الزوجة. ومع هذا فإن قيامها بهذه الواجبات ليس مما يشق عليها لاعتيادها فناء ذاتها في ذات زوجها .فلا يكون همها في الحياة إلا اتخاذ الوسائل لنيل رضائه عنها والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له.

وهذه الصفات المبنية على التواضع والإخلاص هي التي رأينا نساء العصور السالفة مقيمات عليها. كما يؤخذ من الحكايات الواردة في التوراة.

٧ـ احترام الأبناء لآبائهم

مفروض على الأبناء توقير أبائهم والطاعة لهم. لهذا تراهم يلثمون يمينهم ويؤدون إليهم من علامات الاحترام والخضوع مايدل على برهم بهم، ولا يجلسون في حضرتهم إلا إذا أذنوا بالجلوس لهم ولايتكلمون إلا جوابا على سؤال ويمسكون عن التدخين وشرب القهوة في حضرتهم[١] ولا تظهر على علاقتهم بهم مسحة من الحرية وارتفاع الكلفة إلا بعد زواجهم وكما يحترمون الآباء تراهم يوقرون الأمهات ويتحينون الفرص لإظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم.

٨ـ السلطة التي لأكبر الأبناء على إخوته

الروابط بين الأبناء يسوسها مبدأ رئاسة الكبير منهم على الصغير.

(١) مرتبة منه بمقتضى نظام الدرجات إذ كان بصفته واليا على مكة أول ولاة الدولة العثمانية وأشرفهم رتبة وأعلاهم مقاما ، وكان فوق هذا وذاك قائدا مكللا بأكاليل الفخر العسكري والفوز في الحروب ومع هذا فكان في حضرة والده يظهر نحوه من علائم الطاعة والاحترام ما تقضي الآداب الإسلامية به على الصغير نحو الكبير والمرءوس نحو الرئيس.

فالأصغر سنا مطالب بالطاعة والاحترام للأكبر سنا وللبكر حق الرئاسة فى الأسرة بعد الأب لأن هذا الحق يؤول إليه طبعا عقب وفاة رب الأسرة. وأفراد الأسرة جميعا يحترمون ما بينهم من أواصر القرابة ويقدرونها على حد اعتبارهم اليمين التى يقسمونها بحياة جد أو جدة أو أب أو أم..إلخ مما يجب عدم الحنث فيه وإذا لم يكن أحد هؤلاء على قيد الحياة فإنهم يحلفون بقبره.

٩- احترام الصغير للكبير والرئيس للمرءوس

إن ما ذكرناه من الأخلاق البيتية أثر تأثيرا كبيرا فى الهيئة الاجتماعية الإسلامية، إذ جعل احترام الكبار ضربة لازب = حق واجب = على الصغار حتى أصبح هؤلاء لا يفرقون فى الاحترام بينهم وآبائهم وهم إذا خاطبوهم فى أمر أو حدثوا عنهم أطلقوا عليهم وصف الوالد أو الشيخ. ولم تكن الفروق فى السنين وحدها من بواعث التأثير فى الروابط الاجتماعية فإن للفروق فى الرتب والتفاوت فى الدرجات تأثيرا مثله، فمظهر طاعة الطبقات الدنيا صيغ أدبية خاصة ينمقون بها عباراتهم.

ومن هذا القبيل أنه إذا مر أحد من الأعيان أو ذوى الحيثيات بهم ألقوا من أيديهم الأدوات التى يدخنون بها أو انقطعوا عن أعمالهم ثم وقفوا ينتظرون باحترام أن يلقى المار الكريم العظيم عليهم تحيته. وإذا وجه مرءوس خطابا إلى رئيسه دعاه بالأستاذ أو السيد أو الوالد. أما إذا وجهه إلى نظيره سماه بالأخ، وهكذا بحيث يخيل لمن يشهد هذه المناظر أو يسمع هذه الأقوال أن المجتمع الإسلامى أسرة واحدة تربط أعضاءها جميعا قرابة عامة ضمن أسلوب يقتضى طاعة الأصغر للأكبر فى ظلال السلطة الأبوية الشاملة.

(٣)

الرق فى الشرق

الرق فى الغرب - الرق فى الشرق - الرقيق الأبيض - الرقيق الأسود - حالة الأرقاء - الأرقاء من النساء - ديانة الأرقاء - سلوك الأوربيين نحو أقرانهم فى مصر - أقوال مقتبسة من الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالرقيق والنخاسة وعتق الأرقاء.

١٠ـ الرق فى الغرب

إن سمو الأخلاق وارتقاء الآداب بفضل انتشار الديانة المسيحية أديا إلى استهجان مبدأ الرق وتحقيره فى ذاته واعتباره جريمة ضد الجنس البشرى كله. وقد جعلت الفظائع التى ارتكبت. سواء فى العصور القديمة أو الحديثة ضد التعساء الذين ساقهم الشقاء إلى السقوط فى هذه الهاوية اسم الرق ممقوتا ومبغضا عند الناس أجمعين. لذا سيكون من أكبر بواعث الفخار لهذا الجيل أن يقضى على تلك التجارة الشنعاء التى كانت ولاتزال تملأ أسواق النخاسين فى المستعمرات الأوربية، وأن يحرر أولئك الإفريقيين الذين نقلوا إلى أمريكا ليذوقوا بها عذاب الاسترقاق فى أحوال ينفطر لها القلب وتنهمر بسببها دموع ذوى الرفق بالإنسانية.

١١ـ الرق فى الشرق

إن حب الكسب الذى أوجد من العدم أسواقا للنخاسة فى المستعمرات وجعل هذه التجارة رائجة فيها أفضى بها إلى حالة من الأحوال التى تتقزز النفس عند ذكرها وتنبو الأبصار عن مشاهدتها. إلى حد أننى لا أود استعمال لفظة الاسترقاق للدلالة على الاستعباد الواقع فى بلاد الشرق من بعض الناس على إخوانهم فى الإنسانية. فإن هناك فى الحقيقة فرقا باليا بين الاستعباد الأمريكى والاسترقاق الشرقى. فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة القاسية أو الحاطة من قدر الإنسان لأنهم لا يرون فى الرقيق متاعا أو شيئا ماديا كما كان الرومانيون فى قديم الزمان يرونه كذلك بحسب قوانينهم، كما أنهم لايتخذونه صنفا من الأصناف التى يجرى عليها التصدير والتوريد وتكون موضوعا للمضاربات فى طلب المزيد من الربح بالتصرف فيها بيعا وشراء ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الآلات بالأحصنة. فان المستعمر الغربى لا ينظر إلى العبد الأسود إلا من جهة قيمته المادية ناسيا أنه إنسان مثله ذو آداب وفضائل فيكون فعله هذا باعثا على تغيير ذاتيته وتحويل طبيعته.

أما المسلم فإنه على العكس مما تقدم يرى فى رقيقه إنسانا مثله لا يختلف عنه فى شىء ما . فلذلك يعامله بحيث يخيل للواقف على طرائق هذه المعاملة أن الرق الشرقى لم يكن الا تبنيا صحيحا للرقيق وأن هذا الأخير يندرج

باسترقاقه فى سلك الأسرة التى اشترته بمالها.

١٢ـ الرقيق الأبيض

بمصر فريقان من الأرقاء. فريق أبيض والآخر أسود، أما الفريق الأول فهم الذين أسروا فى الحرب أو باعهم أباؤهم ببلاد الجركس. والموجودون منهم فى أسواق النخاسة قليلو العدد منذ اتسعت فتوحات الروسيا حتى تناولت تلك الأصقاع. وكأن الله سخر هذه الدولة لمعاقبة أقوام القوقاز الذين درجوا منذ زمان بعيد على توريد النساء إلى دور الأغنياء فى الشرق بالرغم من الشرائع السماوية والوضعية المحتم إتباعها. وفى مصر بعض أرقاء من اليونان أخذوا أثناء حرب استقلال البلاد اليونانية.

١٣ـ الرقيق الأسود

أما الأرقاء السودانيون والحبشان فكثيرو العدد جدا وهم عبارة عن الأسرى الذين أسرهم أقوام أفريقية الداخلية وشعوبها أثناء الحروب التى يشب بينهم ضرامها. ولم يقل أحد إن هؤلاء الأرقاء باعهم أهلوهم للنخاسين. وهو ما يؤخذ منه أن الشعور بمقتضيات النواميس الطبيعية أعلق بأفئده أولئك المتوحشين منه بأفئدة الجراكسة الذين حاول بعض المتأخرين من الكتاب تصويرهم فى صورة يفهم منها أنهم سلالة من الأبطال على جانب عظيم من العزة والشرف وكرامة النفس.

١٤ـ حالة الأرقاء

ليست حالة هؤلاء الأرقاء فى شىء من الرداءة كما يتبادر إلى الخاطر أول وهلة. إذ كثيرا ما تكون هذه الحالة سببا فى ارتقائهم إلى مستوى لم يكونوا ببالغية لو جمدوا على حالتهم الأولى. فإن الأرقاء البيض يستطيعون الصعود إلى أعلى المراتب فى الهيئة الاجتماعية والحلول فى الوظائف الكبيرة والمراكز السامية، ومع أن الأرقاء السود قضى عليهم لونهم الأسود بمزاولة الأعمال الدنيئة. فإنهم يحظون من الهناء والسعادة والنعيم بما لم يخطر ببالهم أن يتوقعوا الحظوة به لو بقوا على فطرتهم الأولى، وهناك أمثال كثيرة يفهم منها أن كثيرين من السودانيين نالوا شرائف الرتب وبلغوا إلى أرفع المناصب وتحلوا برتبة البيكوية. فما الاسترقاق بالنسبة إليهم فى الحقيقة إلا حياة جديدة كتبت لهم فى لوح القدر ونجاة لهم من الموت. ذلك لأنهم بعد أسرهم

يذبحـون بلا رحمة بأيدى المتغلبين عليهـم إذا لم يتقدم النخاسـون لشرائهم بالمال.

قلنـا فيما تقدم أن الاسترقـاق فى الشرق سلم للتبنـى والاندراج فى سلـك أعضاء الأسرة. فـإن المسلم الذى يشترى رقيقـا فى سن الطفـولة يأخـذه من سوق النخاسين عـاريا من الثياب قذرا محرومـا من وسائل العنايـة اللازمة للأطفال. فهـو بشرائه إياه يلتقط طفلا مهجـورا ليقوم على تربيته لـوجه الله وطلب مثـوبته. ولا يقتصر على السلطة المادية التـى يخوله إياها حـق ملكيته ذلك الرقيق الصغير، بـل يؤيد هذا الحق بما يتخذه حياله مـن وسائل العناية بأمره والسهر على تـربيته. إذ يبدأ بتعليمه فروض الدين وإيقـافه على قواعد القراءة والكتـابة حتـى إذا شب وترعـرع وكل بـه أمر تعمير شبكـه أو تهيئة قهوته أو تجهيز فرشه - أى جعله إما شبكجيا أو قهوجيا أو فراشا. فإذا كان مالك الرقيق سريا غنيا اتخذه خزندارا له أو كاتبا أو سلحدارا أو كيخيا (قيما على شئونه) وربما زوجه بعد ذلك من إحدى جواريه غالبا ومن ابنته أحيانا.

وعلى هذا المثـال ترى أن الاسـترقاق الشرقـى يتحول فى ظل هـذه الأخلاق الأبويـة التى امتـاز بها الشرقيون إلى صفة مغـايرة وجدنـاه إليه فى الـديار الأمريكية. دع أن فى الشريعة الإسـلامية نصوصا تقضى بحماية الـرقيق من جور مـولاه وتكفل له الاعتصـام من قسوتـه وعسفه وتظله بجنـاح الحماية والرعايـة الواجبتين على المؤمنين للضعفاء. ولم يكن اختلاف المعاملـة هو ما استوجـب دهشتى، فإن الاسترقـاق الشرقى يباين الاسترقـاق عندنا مبـاينة تشرف الأول وتفضلـه على الثانـى لاسيما وأنـه يحترم الكـرامة الإنسـانيـة ويؤيدها.

فالـرقيق فى البلاد الإسـلامية لايرى فى مركـزه الاجتماعى ما يغـض من كرامته ويحط مـن منزلته. بل إنه غـالبا ما يفتخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق عادة على سيده لقـب الوالد، ويعلم علم اليقين أنه لن يبقـى إلى الأبد راسفا فى أغـلال حالته الرقية لأنه يرى أمامـه من الأمثال ما يحرك فى نفسه سـاكن الطمـع ويصرف أمله إلى الغايـات البعيدة والمقـاصد العالية. وحسبنا دليـلا على ذلك جماعة المماليك الذين وضعـوا أيديهم قرونا عدة على زمـام الحكم فى مصر. فـإنهم لم يكونـوا سوى أرقـاء اشتروا بالمال

لافرق بين السيد والمسود منهـم فعلى بك ومراد بك وإبراهيم بـك كانوا أرقاء حصلت عليهـم المساومـة فى أسواق النخـاسة وهـذا الصدر الأعظـم الحالى للدولة العثمانيـة الشيخ الفانى خسرو بـاشا لم يرق إلى منصبه السـامى إلا بعد أن بيع فى أسواق النخاسة واشترى بالمال. وكـذا كان خليل باشا وسـعيد بـاشـا ، وأحدهما صهـر السلطـان محمـود، والآخر زوج أخـت السلطـان عبدالمجيد ووزيـر فى الباب العالى فإنهما من الرقيـق وصل بهما الجد إلى تلك الرتـب الشريفة والمسـاند الـرفيعة. والتقـط السلطان محمـود من شــوارع الآستانة حافظ الجركسى واتخذه سر عسكر لجيشه الأخير.

أمـا فى مصر فالسـواد الأعظم مـن كبـار الضباط فى الجيـش أرقاء فكـت رقابهم. وقد رأيت بعينى رأسى فى أسواق الجلابة بـالقاهرة أرقاء من اليونان انتزعـوا من وطنهـم فى الوقـت الذى كـان هذا الوطـــن فيه على وشـك الفوز باستقلاله ثم رأيتهم بعد ذلك وقد احتلوا المناصب السامية فى النظامين الملكى والعسكرى. وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن أسرهم، بصرف النظر عما سببه من الآلام لأهليهـم وعما كان هؤلاء يتمنونـه من مشاهـدتهم راتعين معهم فى بحبوحة الاستقلال التام ومتقلبين على مهاد الحرية، لم يكن مصابا حل بهم، بل نعمة سابغة وخيرا جزيلا.

١٥ـ الرقيق من النساء

النسـاء اللائى يسترقـقـن ويدخلن فى حوزة مـن يشترونهن بالمال يتصلن بخدمـة حرمهم، وربما اتخذوهـن زوجات لهم أو زوجـوهن من أبنـائهم أو ضبـاطهم أو بعـض المنتمين إليهـم بعـد تجهيزهـم إيـاهـن بما يلزمهـن فى معيشتهن المقبلة من الأمتعة والأثاث. وسلاطين آل عثمان لايقترنون عادة إلا بجوارى الرق، وكذا الحال بالنسبة إلى سمو والى مصر وأبنائه.

وكثيرا مـا يشاهـد فى البيت الـواحـد الجوارى السود والجوارى البيـض ويتزوج مولاهن بجارية جركسية منهـن وأخرى حبشية وثالثة سودانية من بنات دارفور. ويرى فى هذه الحالة صارفـا كل همته إلى العناية بهن وأبنائهن على وتيرة واحدة ونمـط لايتغير محافظا على العـدل بينهن، ويندر أن يتخذ الأبيض جارية سوداء زوجة لـه أو أن تتزوج البيضاء من عبد أسود فى الأسر

الكبيرة والبيوتات ذات الشأن.

١٦ ـ ديانة الأرقاء

من مستتبعات الاسترقاق فى الشرق ونتائجه تحويل عقيدة الأرقاء ذكورا وإناثا إلى العقيدة الإسلامية ولعل فى شغف المسلمين وسعيهم المتواصل لتحويل الناس جميعا إلى عقيدتهم الدينية ما يعلل عدم إجازتهم للمسيحيين اتخاذ الرقيق إناثا وذكورا. واهتمامهم بأمر دينهم على هذا المثال خليق بالإعجاب من حيث دلالته على أن الشرقيين يرون فى أقاربهم أهلا لمشاطرتهم السعادة المقبلة التى وعد بها المؤمنون فى القرآن ويعترفون صراحة بالمساواة بين الناس جميعا أمام الخالق مساواة تسرى بالطبع عليهم فى سائر شئون الحياة ومرافقها. وبالرغم من ذلك فإن المسيحيين يتمتعون فى مصر بأوسع وأعظم مما يتمتع به أمثالهم فى بقية بلاد المملكة العثمانية فقد منحوا الحرية فى شراء الأرقاء من العبيد والجوارى وبيعهم، وتوسع بعضهم فى الانتفاع بهذا الإذن فتمكنوا، مع الاحتياط والحذر، من إدخال الجوارى الجركسيات فى حرمهم.

١٧ ـ معاملة الأوربيين للأرقاء فى مصر

أجيز للأوربيين بفضل ما أظهره محمد على من التسامح والتساهل فى معاملتهم اقتناء الأرقاء كغيرهم. وأول ما يقع فى الخاطر عند سماع هذا القول أن الإرقاء إذا صاروا إلى حوزة الأوربيين ـ أى إلى قوم تنكر حكومات بلادهم الاسترقاق وتعمل على محو أثره وتقول بإكرام النزيل ومنح الحرية لمن يسألها، أصبحوا فى ليان = تسعة ورخاء = من العيش ورفاهه. وهو خطأ بيِّن ووهم فاسد يسوق إليهما حسن الظن. فإن أولئك الأوربيين الذين كلما عن لهم الكلام على المسلمين يلصقون بهم عار التوحش والهمجية ويقرنون القول فى حقهم بعلامات الازدراء والتحقير نادرا ما يوفقون بين معاملتهم الشائنة لأرقائهم وما يتبجحون به من الكلام الفارغ فى عطفهم على الإنسانية.

فإن الكثيرين منهم إذا اقتنوا الرقيق سرعان ما يهمون ببيعه التماس الربح، أو المقايضة عليه بغيره أو ببضاعة، ولقد يكون لمثل هذا التصرف ما

يسوغه فى حدود معينة وأحوال خاصة وإنما على شريطة أن لا يكون القصد من البيع والمقايضة طمعا فى ربح. وأنه لمن والتناهى فى جفاء الطبع فك رقبة الرقيق الصغير السن مع العلم بعجزه، إذا ترك وشأنه، عن كسب ما يسد به الخلة من عرق جبينه. فعتقه وتلك حالته من القصور عن مداركة حاجة لمحض الرغبة فى الخلاص منه قسوة لا مبرر لها وجريمة فى حق الإنسانية لا تغتفر بل هبوط إلى درك الوالد الذى يطرد ولده من بيته من غير ما جرم أتاه.

أما بيع الرقيق القدير على كسب حياته بالكد فتجارة مزرية بالشرف حاطة من الكرامة. فإذا قيل إن من الافرنج من يزاولون هذه التجارة فإنا نقول نعم وقد وصموا الإنسانية بعار لا يمحى. ولسنا ندرى بأى حكم يقضى عليهم إذا أثبتنا هنا أن منهم من يبيعون جواريهم حاملات منهم فكأنهم بهذه الفعلة الشنعاء يلقون أبناءهم بأيديهم فى وهدة الاسترقاق بدون أن يزعهم وازع الضمير أو يردعهم رادع الترقق للإنسانية. وإن اللسان ليعجز عن وصف هذه النقائص الشائنة بل الآثام الفظيعة، وإن الافئدة لتمتلئ بالسخط والنقمة على مرتكبيها.

ولاشك فى أن الشرقيين إذا رأوا أولئك المتجرين بنسائهم وبما تحمله بطونهن من أبنائهم بعد أن عرفوا بعض الشىء من أمرهم ليحق لهم أن يشمخوا بأنوفهم ويفتخروا بهمجيتهم الفاضلة، ويحتقروا مدنيتنا التى دنسها أولئك الأشقياء بما لا يمحى على مر الأجيال من دناءاتهم.

وهذه المخازى لاتنفى وجود لفيف من الأوربيين يعاملون أرقاءهم عبيدا وجوارى بما تقتضيه المروءة من الرحمة والرفق ويعترفون بأبنائهم ممن ملكت أيمانهن من الجوارى ويترفعون عن ارتكاب المقابح واحترام الآثار الغليظة التى لا تتفق وأخلاقنا وديانتنا ومبادئنا الاجتماعية التى تتنزه عن تلك النقائص كلها.

ويدفع الطيش والنزق أحيانا بعض السياح الذين يزورون مصر إلى ارتكاب ما لا يقل عما ذكرته الآن من المخازى والمقابح .فإن البعض منهم يزورون أسواق الجلابين لمجرد الاطلاع على شىء سمعوا به ولم يروه ـ كما هو شأنهم فى كل أمر مستغرب ـ فإذا أعجبتهم سودانية أو حبشية أو غيرها

اشتروها بقليل من المال أيضا إرضاء لشهواتهم وجريا وراء أهوائهم حتى إذا قضوا منهن وطرا وظنوا أن من آيات الإحسان نحو هاته الشقيات البائسات اللاتى أطفأوا فيهن جمرة شهواتهم الزائلة أطلقوا سراحهن بالاعتاق ولكنهم نسوا أن تحرير الرقيق فى بلد لا تستطيع المرأة فيه أن تعيش إلا فى ظل الرجل وبفضل قيامه بنفسه على شئونها يدفع بها إلى أسوأ حالات الفقر والفاقة بل يلقى بها فى هاوية العهر والدعارة. فترى من ثم أن طيش بعض الرحالة الأوربيين، وهو طيش مبنى على حب الذات، كان سببا فى نظر المسلمين إلى أخلاقنا وعاداتنا بعين المقت والاحتقار.

وإنى لألفت النظر إلى ما ينجم من النتائج المحزنة عن مباشرة الغربيين للاسترقاق على الأسلوب الشرقى فانهم يضرون به الأرقاء ويسيئون إليهم فى معيشتهم وأخلاقهم ومستقبلهم، بينما المسلمون يعاملونهم بما ذكرناه من العطف واللطف والإحسان.

والواجب أن توسم النزعات المخجلة التى انحدر الأوربيون فى تيارها بين أمة لا تعرف شيئا من عاداتنا وأخلاقنا بالعار والخزى. وإلا اضطرت هذه الأمة إلى الوقوف فى موقف الاحتياط والتحفظ إزاء المدنية الغربية والاستمساك بالمدنية التى تفخر بالانتماء إليها، ومواصلة العمل لإثبات سموها على مدنيتنا فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تكون لفظة الافرنجى محفوفة بمظاهر الكرامة والرفعة فى أعين المسلمين. ومن كبائر الإثم أن تستنزل على هذه اللفظة عبارات التحقير وأن تلوث بلوث الإهانة والتصغير بسبب فعال تلك الطائفة الخرقاء.

وأختم هذا الفصل بفقرات مقتبسة من كتب الشريعة الإسلامية يجد القارىء فيها بيانات مهمة تكشف الستار عن وجهة النظر الشرعية فى الاسترقاق وإنهاء الحرب . فإذا جاء الاسترقاق من غير طريقها كان ظلما وعدوانا وافتئاتا.

١٨ - مقتبسات فى الرق وتجارته والعتق

إذا أفضت الحرب إلى وقوع بعض المشركين أسرى فى قبضة المسلمين فلولى الأمر الحق فى إتخاذ إحدى الوسائل الأربع الآتية حيالهم:

أولاً: يجوز له قطع رقابهم ما لم يكونوا نساء أو أطفالا أو مصابين

بجنة..إلخ.

ثانيًا: يجوز له العفو عنهم وإطلاق سراحهم.

ثالثًا: يجوز المبادلة على غيرهم من أسرى المسلمين لدى العدو أو افتداؤهم بالمال.

رابعًا: يجوز له استرقاقهم.

فإذا اختار ولى الأمر وسيلة ما من هذه الوسائل الأربع فله أن يقوم على تنفيذها بشرط أن تكون أحسن الوسائل وأوفقها لمصلحة حكومته. فإذا استقر رأيه على الاسترقاق فقد وجب عليه أن يحسن معاملة أرقائه. فقد ورد فى كتب الشريعة ما مفاده أن جماعة من الأسرى من بينهم عباس قدموا يوم بدر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأمر النبى بكسوته على الفور ووجدت بالاتفاق والمصادفة ثياب لعبد الله لم تكن له بها حاجة فأعطيت إلى عباس فأخذها فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -: رفقا بالضعيفين. أراد بهذا القول الإشارة إلى المرأة والرقيق. وجاء فى الأحاديث الشريفة أيضا ما يستفاد منه أن النبى سئل يوم بدر فيما ينبغى أن يعامل به الأسرى فأجاب: إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم فسأل عمر بن الخطاب: «يارسول الله أتضرب أعناقهم». فالتفت النبى إلى الحاضرين من المسلمين قال لهم مكررا: «إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم». فكرر عمر هذه الكلمات. فقام أبوبكر عندئذ وقال للنبى: يارسول الله إن هؤلاء بنوا العم والعشيرة والاخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ففرح النبى وأمر بقبول الفدية. وبهذه المناسبة نزلت على رسول الله الآية الآتية: «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم».

ولما طلب الرسول من عباس مائة أوقية ذهبا فدية ولم يطلب من قريب آخر سوى أربع وعشرين أوقية صاح عباس بما معناه: «إن هذه لإحدى آيات القرابة القريبة» فأنزل الله على النبى الآية الآتية: «يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم

ويغفر لكم والله غفور رحيم».

ولما كانت الحرية فى الإنسان أصلا والاسترقاق عرضا فإن حكم الديانة الإسلامية بتحرير الأرقاء فضيلة تستوجب الحمد. وهناك صنوف من الذنوب والمخالفات لايكفر عنها إلا بفك الرقاب. منها اليمين الكاذبة وفطر رمضان فقد قال الرسول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار» ـ وقد أعتق النبى فى حياته ثلاثة وستين رقيقا ـ أى بقدر ما عاش من السنوات، وأعتقت عائشة ابنة أبى بكر زوجه تسعة وستين رقيقا أى بقدر ما عاشت من السنوات وأعتق أحد صحابته وهو ذو القرى وأصله من قبيلة حمير ثمانية آلاف رقيق فى يوم واحد وأعتق عبدالله بن عمر ألف رقيق وحكيم بن جزان مائة كانوا يحملون فى رقابهم أطواقا من الفضة وعبدالرحمن بن عوف ثلاثين ألفا وكانوا جميعا من أصحاب النبى.

والديانة الإسلامية تحبذ تحرير الرقاب وتحث عليه وتدعو إليه حتى إنها لتشترط على من يشترى رقيقا لكى يعتقه الوفاء بعهده بعد الشراء. فإذا أبى الوفاء بعهده عومل بما يلزمه الوفاء ولو بالإكراه البدنى ويجوز بل يجب على غير المؤمن أيضا إعتاق الرقيق ولو كان عدوا مبينا للمسلمين وسواء وقع الإعتاق من مسلم أو من غير مسلم فإن المعتق يظل مقيما فى ولاية مولاه. وبين المولى والعبد رابطة وثيقة من القرابة تجعل أولهما الوصى الطبيعى على الثانى فى حالة عتقه كما يكون الوالد وصيا.

وهناك طرق متعددة للعتق يقضى أحدها على المعتق أن يصرح كتابة فى حياته بإعتاقه رقيقه بعد وفاته. وإليك النص الذى ينبغى أن يكتب به هذا التعهد: «أنت حر لوجه الله بعد وفاتى» ويقضى الثانى أن يفتدى العبد حريته بمبلغ من المال يؤديه على دفعتين. وله أيضا بعد مساومته مولاه على هذا المبلغ أن يؤديه إليه أقساطا صغيرة، فإذا برئت ذمته منه أصبح عتيقا طليقا.والحالة الثانية من هاتين الحالتين لا تنطبق إلا على الجوارى فى حالة حملهن. أما إذا لم يكن كذلك فليس لهن أن يحصلن على حريتهن إلا بموت مالكهن.

(٤)
الرجال

انفصال الرجال عن النساء فى الهيئة الاجتماعية ـ الصفات الجثمانية للرجال ـ الصفات النفسية والعقلية ـ القناعة ـ الصدقة ـ الشجاعة والتوكل ـ حب المصريين أوطانهم ـ العيوب والنقائص: الجشع، الانكار، الحسد، كفران النعمة ـ الكسل ـ العزة الدينية ـ الجهل ـ العناد والتشبث ـ الشجار والانتقام ـ المجون والمباسطة ـ الملابس القديمة ـ ملابس المماليك ـ الملابس الحديثة ـ الحذاء ـ أفكار فى الملابس الحديثة ـ ملابس الفلاحين ـ عادات المصريين فى تدبير الشعر واللحية..إلخ ـ النظافة والوساخة ـ استعمال الوقت والاشغال ـ النوم وكيفية الرقاد ـ عبارات النداء والتعجب والقسم.

١٩ ـ فصل الرجال عن النساء

يمثل الدين الإسلامى مع ما تواكب عليه من التقاليد الشرقية سدا منيعا فى الهيئة الاجتماعية بين الرجال والنساء. فكان من نتائج هذا الافتراق أن صار لكل من فريقى الرجال والنساء فى مصر أخلاق وعادات خاصة ومتباينة إلى حد يستدعى بحثها واستقراؤها فى الرجال مستقلة عنها فى النساء والعكس بالعكس.

٢٠ ـ الصفات الجثمانية

تنم سحنة العربى وهيئته عن كرم المحتد = الأصل =وصلابة القلب وجفاء الطبع وشدة الرصانة. والمصرى المسلم وإن حمل الاطمار البالية تبدو متوافرة فى شخصه أمارات السمو ورفعة القدر. إذا وقف وقف مستقيما فى انحناء وبدا فى هيئة الجندى وإذا سار اتأد = اطمأن = فى مشيته بلا تكلف كأنما يعد الخطوات، وإذا تحرك تحرك فى سكون ورباطة حتى لقد يخيل للناظر أنه يضبط حركاته وسكناته ويدبرها. والحقيقة أنه لا يرهق نفسه بعناء شىء من ذلك لأنه يتحرك ويسكن من غير تصنع ولا تعمل. وما يبديه الأوربى من الهزيمة فى الحركة والاسترسال فى الفرع والتبسط فى المجانة قلما يخل بنظام مشيته أو يستفزه إلى السرعة فيها أو يهز وترا من أوتار نفسه. وهو إذا نظر كان نظره حادا يدل على الجد وبدأ وجهه من حوله معربا = معبرا

= بملامحه عن البأس والهمة. وهو مطمئن النفس لا يزعزع سكونها شيء ولذا تراه أكظم ما يكون لما ينتابه من الانفعالات الباطنية. ففيما وراء هذا الستار تعصف عواصف المؤثرات المختلفة بدون أن تحرك له ساكنا. وإذا تكلم تحرى الاقتصاد فى كلامه والاقتصار منه على ما يؤدى مراده بالضبط من غير لجاجة وبدت كلماته كأنها لا تخرج من فيه إلا وقد وزنت مرارا بمعيار الإمعان والروية. ومن عادته إذا حدث أن يرفع صوته عاليا فيخيل لسامعه أنه وهو يحدث قد ثارت بينه وبين محدثه ثائرة الجدل والخصومة.

٢١ـ الفضائل النفسية والعقلية

المصريون أقوياء الحافظة أذكياء بالفطرة لا يجدون صعوبة فى الاستظهار ولا عناء فى الفهم ولكنهم ـــ إما لعدم المبالاة وإما لضعف فى الذاكرة ـــ لا يتذكرون زمنا طويلا ما أسرعوا فى حفظه أول وهلة. وهم على شيء كثير من سلاسة الطبع، ودماثة الخلق. وهذا ما مهد لهم مزاولة الأعمال بهمة ونباهة على شدة ما بينها من التفاوت. ولسرعة انفعال نفوسهم بالمؤثرات تراهم على استعداد للتنافس والتبارى فى العمل فإذا استثيرت كوامن هذا الاستعداد ظهرت أهليتهم للقيام بجلائل الأعمال. ولاننسى ما هم مفطورون عليه من الحذق فى الأعمال اليدوية وأنهم يبدون فى أدائها مهارة نادرة مقرونة بالإتقان والإجادة.

وللمصريين نزعة إلى السرور واندفاع فطرى إلى المزح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء وحضور الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لايكادون يبلغون إلى سن الرجولة حتى يميلوا عما مالوا إليه بالظهور فى مظاهر السمت والوقار وملازمة الجد فى القول والفعل. ويرجع هذا التحول بلا ريب إلى تأثير المبادىء الدينية التى تتأصل فى نفوسهم كلما تقدموا فى العمر وازدادوا رزانة ورصانة.

٢٢ـ القناعة

القناعة من خصال المصريين التى تستوجب العجب والدهش، وإن القارىء سيقنع بهذه الحقيقة مما سأورده عن كيفية غذائهم. أما المسكرات فتعاطيها غير فاش بينهم وأما الطعام فيراعون فيه البساطة والتقشف

والإقلال. ومن الخصال المحمودة التى درجوا عليها احترامهم الخبز وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة، فهو فى نظرهم قوامها الذى لا تقوم لها بدونه قائمة. ولعل هذا ما حدا بهم إلى تسميته بـ«العيش» الذى يفيد معنى الحياة فى اللغة العربية. ولشدة حرصهم عليه واحترامهم له يدأبون على وقايته مما يدعو إلى تحقيره والحط من قدره. فتراهم إذا عثروا فى الطريق على شىء من فتات العيش سارعوا إلى التقاطه ولثموه ورفعوه إكبارا إلى رءوسهم ثم اختاروا لصيانته مكانا إذا اهتدت إليه الحيوانات استطاعت أن تأكله بدلا من بقائه عرضة لدوس الأرجل والتلطخ بالأقذار.

٢٣ـ الصدقة أو الإحسان

المسلمون ميالون بوجه عام إلى البر بالفقراء والإحسان عليهم، لأن فى دينهم من التعاليم والمبادىء ما يجعل هذه الفضيلة فرضا واجب الاتباع. وثمة سبب آخر يدعوهم إلى البذل فى سبيل الصدقة وهو الرجاء فى الفوز بما أعد للمحسنين فى الآخرة من الثواب. وربما كان الباعث لهم على التصدق فى سبيل هذا المطلب أقوى منه فى سبيل العطف على المساكين والبر بالمعوزين.

أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعا فى القطر المصرى وهى ـ حرية بالذكر والإطراء الآن. فالمسافرون وعابرو السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين فى كل زمان ومكان صدرا رحيبا ومثوى كريما. ومن شيم المسلم انه إذا جلس إلى الطعام وزاره أحد دعاه إلى طعامه وأشركه فيه. وسواد أفراد الطبقة الوسطى يتناولون طعام العشاء على أبواب منازلهم حتى إذا مر بهم أحد دعوه إلى مشاركتهم فى طعامهم.

وهم حينما تلاقوا بدت على وجوههم أمارات البشاشة والهشاشة وتبادلوا عبارات الانس والمودة ثم لا يلبثون أن يحافظوا على السكون ويلزموا التحفظ إذا التقوا بالأوربيين أو تحدثوا معهم.

٢٤ـ الشجاعة والتوكل

ولد قطان = سكان = القطر المصرى تحت تأثير الضغط والعنف. فتراهم فى الاحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للأخطار أو اقتحام

غمارها، ولكنهم إذا نـزل بهم نازل أو تهددهم خطر لاتلبث الشهامـة الكامنة فى نفوسهم أن تهب من سباتها فيدرأون هـذه النازلة بشجاعة وهمة. وهم فى كل مـا يحيق بهم من الأحـزان والأرزاء يثقون باللـه ويتوكلون عليـه إتكالا لاتزعزعـه قوة بالغة ما بلغت. وإلى هـذه الثقة وهذا التوكل يرجـع رضوخهم لمقتضيات الظروف ورضاؤهم بما تجيء به الحوادث بـاعتبارها قضاء إلهيا لا مرد له وقـدرا ربانيا لا مفر منه. وهـم يقابلون المحن والمصـائب إذا نزلت بهم بعبارة تدل على ثباتهم إزاءها وصبرهم عليها وهى قولهم «الله كريم».

٢٥ـ حب المصريين أوطانهم

لا يوجد بين مخلوقـات الله من يذهب المذهب البعيـد فى حب مسقط رأسه كالمصريين فإن الفلاحين لا يجدون للحياة معنى ولا لذة إذا ابتعدوا عن النيل الذى يطفىء ماؤه أوار عطشـهم ويروى أرضـهم أو حرموا النخيل الذى يكفى. أن يهزوا اليهم بجذعـه ليساقط عليهم ثمـره فلا يتكبدون فى أكله أقـل كلفة. ومن ثم تسمعهم إذا حـدثوا أوربيا عن وطنه يسألـونه عما إذا كان يجرى فى أرضه نيل كنيلهم أو ينبت فيها نخيل كنخيلهـم يعطيهم ما يشتهون من غذاء شـهى ومرافق أخرى.

٢٦ ـ الكسـل (١)

إذا ترك المصريون وشأنهم أخلدوا إلى البطالة والكسل وترامـوا فى أحضان الدعـة والخمول أى أنه إذا لم تستفزهـم إلى العمل إرادة فعالـة وهمة نشيطة ولم تدفعهم إليه يد قوية آثروا قضاء حيـاتهم فى البطالة التامة. ولعل الباعث لهم على ذلك قلـة احتياجـاتهم وقدرتهم على قضاء مـا يستشعرون بـه منها وهم على مهـاد الراحة. ومن مظـاهر جمودهم على هذا السلـوك الشائن انهم قلما يفكرون فى المحافظـة على خصوبة الأرض التى يلتمسـون منهـا غذاءهم بالعمل المتـواصل فى فلاحتها واستخراج خيراتها. والحقيقة الثـابتة أن دولة المصلحـة لم تتغلـب فى نفوسهـم على مـا ألفتـه مـن الاستنامـة إلى الكسـل والسكـون فتراهم لهذا السبـب لا يهتمون مـن شئـونهم إلا بما يتعلق منهـا بحـاضرهـم غير ملتفتين إلى مستقبلهـم. وهـم يشبهـون لصـوص نـابلى لا

(١) الناشر: تعرض الكاتب للنقائض الموجودة فى عهده كظواهر اجتماعية فذكر منها الجشع والإنكار والحسد.

يحركون ساكنا إلا إذا عضهم الجوع بنابه. فالنظر إلى المستقبل لا يمتد عندهم إلى أبعد من الغد.

٢٧ - عزة الدين

من خصوصيات الديانة الإسلامية سلطانها الذى لا يُغلب على نفوس المستمسكين بحبلها وهيمنتها عليهم فى أقوالهم وأفعالهم، وتأثيرها فيهم تأثيرا لا يقوون على دفعه مهما أوتوا من صدق الإرادة ولطف الحيلة. ترى أن الواحد لم يتلق شيئا من دروس الدين تلقيا خاصا ثم مع ذلك سرعان ما تدرك مبادئه الأساسية وتنطبع عقيدته بالطابع الذى يبغى أهله أن يبقى منقوشا فى صحيفتها فلا يجد الشك مسربا إليها.

وترى المسلم لرسوخ عقيدته ووطود دعائم إيمانه لا يلبث أن يصبح مختالا بها فخورا بسموها على بقية العقائد. وينتهى الأمر به إلى الاعتزاز بانتمائه إلى ديانة يرى أنها تسمو على سائر الديانات وتفوقها فوقا عظيما فلا يسعه إلا أن ينظر إلى المتمسكين بغيرها بعين الاستخفاف والاحتقار.

٢٨ - الجهل

السواد الأعظم من الأمة المصرية هائم فى أودية الجهالة، وقد حاول بعضهم إسناد جهلهم إلى الديانة الإسلامية. وهو خطأ فاحش ومذهب باطل فإن فى القرآن آيات كثيرة تدل على شرف العلم والحض على تحصيله. على أنه غنى عن البيان ما بلغت إليه العلوم والفنون من التقدم والارتقاء فى عهد الحضارة الإسلامية ببغداد والأندلس.

والسبب الحقيقى لانغماس المصريين فى حمأة الجهل أن المماليك أطفأوا فى مصر نور العلم وهاضوا ركنه ودكوا معالمه حتى صار لايوجد الآن من المتنورين والمتعلمين من غير الذين نشأوا فى المدارس الحديثة وتلقوا بها مختلف العلوم من يلم بالقراءة والكتابة سوى النذر اليسير ومعلوماتهم مقتصرة على دراسة العلوم الدينية وحفظ بعض القصائد الشعرية.

٢٩ - التعنت وصلابة الرأى

التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين فإنك ترى فيهم من

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة. ومن النادر أن تجد أحدهم مقبلا بخاطره على دفع المال الذى عليه فإذا دفع أحدهم - بعد معاملته بهذه الاساءة التى يتحملونها بقدر ما تسمح لهم به قوتهم البدنية ما هو مطلوب منه - أظهر الأسف لأمر واحد، وهو أنه لو استطاع بدنه أن يتحمل من الضرب فوق ما تحمله لتخلص من دفع المال الذى لأجله يلقى هذه الإهانة.

والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج لإكراه المولين على أداء الأموال المستحقة لجانب الحكومة وإقناعهم بالعدول عن الإصرار على عدم سدادها. ولقد كانت هذه حالهم على عهد (أميانوس مرسلانوس) فقد روى هذا المؤرخ أن المصريين يرون من بواعث الفخر والشرف أن لا يؤدوا ما عليهم من الضرائب إلى الخزينة إلا إذا ضربوا الضرب المبرح وعذبوا العذاب الأليم.

٣٢ ـ المنازعات والانتقام

يميل المصريون من أهل الطبقة السفلى إلى المنازعات والمخاصمات التى يرجع سببها فى الغالب إلى الاختلاف على مصلحة لايبعد أن تكون تافهة غير جديرة بالاهتمام. والذى يرى المشاحنة وقد احتدمت نارها وتلظى سعيرها وتبودلت فيها ألفاظ السب والشتم واستنزلت اللعنات وتراشق الفريقان بسهام المخازى والمعايرة يتبادر إلى ذهنه أن الشجار لسوف يفضى إلى أوخم العواقب ولكنه لا يلبث أن يوقن أنها لم تؤد إلى شىء مما يخشاه والسبب فى ذلك أنه قلما ينقلب الشجار بين المصريين من التنابذ بالقول إلى التضارب بالأيدى، بل أنه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل أحد الخصمين عن حقه بقوله للآخر: «الحق على».

ويتفق أحيانا أن يتداخل بين الخصمين ثالث، ويجعل تمهيده للمقابلة قوله: «اللهم صلى على سيدنا محمد» فيكرر الخصمان هذه الجملة بصوت خافت ثم يقرآن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوئام والوداد.

أما الانتقام أو الأخذ بالثأر فغريزى فى نفوس المصريين. وبين بعض العائلات عندهم آثار = ثارات جمع ثأر = قديمة يثأرون بها على تسلسل

الأعقاب وفيما سبق من الزمن كان الأخذ بالثأر بين قرى برمتها. وهو ما يصح القول معه أن الدم يجذب الدم، فإن أسرة القتيل يتحتم عليها الانتقام من أسرة القاتل ولكن القتل لحسن الحظ يكاد يكون مجهولا فى القطر المصرى.

٣١ ـ الميل إلى المجون والمطايبة

يميل المصريون بفطرتهم إلى المجون والمطايبة وهم كثيرا ما يبنونهما على النكتة ، لاسيما وأن اللغة العربية التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكناية إلى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس. وهم فى كل ذلك قلما يحرصون على الآداب أو يتصونون عن القبائح إذ يعبرون بفاحش القول عن الآراء التى يجفل من الانصات لها السمع الكريم. ونادرا ما تجد بين النساء حتى الفضليات منهن من يتحاشين تلويث كلامهن بالألفاظ القذرة ذات المعانى المعيبة.

٣٢ ـ الثياب

الملابس القديمة ـ الملابس التى كان المصريون يكتسون بها قبل سنوات قليلة تتألف: أولاً من القميص، ثانيا: من اللباس ــ أى السروال، وثالثا: من الصدرية، ورابعا: من القفطان، وخامسا: من الحزام، وسادسا: من الجبة، وسابعًا: من البنش.

ولم يكن للزى الحديث (المودة) تأثير ما على طريقة الاكتساء عند المصريين الذين لم يطرأ تغيير ما على نظام ملابسهم كلها أو بعضها.

وتختلف الأقمصة الشرقية اختلافا بينا عن القمص عندنا . فهى عندهم تمتاز بفرط الطول والعرض إتساع القن (الكم) واسترساله إلى كاحل القدم. أما قمصان أفراد العامة فهى إما من الكتان أو التيل بخلاف أقمصة أصحاب اليسر فإنهم يلبسونها من قماش دقيق النسج يسمونه المغربى أو قماش الحرير، والقميص لا يحشى به داخل السروال كما هو الحال عندنا بل يسبل فوقه.

ويمتاز السروال المصرى بالسعة حتى ليخيل لرائيه أنه جبة خيط الجزء الأسفل منها بحيث يترك فتحتين لخروج القدمين. وهو سابل إلى الركبتين ويثبت حول الجسم بتكة تجرى فى باكية وغالبا ما تحلى التكة بالزركشة التى تتفاوت بتفاوت أصحابها فى اليسار أما الصديرى فيتخذ عادة من الجوخ أو القماش الحريرى أو القطنى. وفوق هذه الثياب كلها يفرغ القفطان وهو لباس سابل إلى القدمين عريض الكمين.

أما الحزام فقطعة من قماش الحرير يبلغ عرضها مترا واحدا فى ثمانية أمتار إلى عشرة طولا يلف حول الجسم عند الحرقفتين وأصحاب اليسار يتخذونه من الكشمير الثمين.

أما الجبة وتوضع فوق المجاسد السابقة كلها فتبطن بالفرو وإذا كانت للبس الشتاء يكون كماها أقصر من كمى القفطان وتلبس فوقه مشقوقة من الأمام.

ويحمل بعض الناس فيما عدا الجبة ثوبا أعرض منه يسمونه البنش وكماه واسعان جدا وطويلان ومشقوقان فى نهايتيهما، ولايلبس إلا فى الحفلات، ويختص رجال الشرع والعلماء بلبسه دون غيرهم من الناس.

ومع أن مصر من البلاد الحارة فإن لبس الفرو شائع فيها شيوعا عظيما. ولم يكن شيوعه للخيلاء فقط بل للحاجة إلى الاكتساء بمعطف واسع عريض الأكمام ومبطن بالفرو. وسبب ذلك أن الطقس فى مصر ينتقل فجأة من درجة حرارة إلى درجة مناقضة لها فيجعل الشعور بالبرد شديدا. وكرك السمور التركى عبارة عن معطف من الحرير أو الجوخ لايلبسه إلا ذوو الحيثيات وأصحاب المقامات العالية ويكون محشوا بالسمور..إلخ. وهو معدود من شارات الشرف ورفعة القدر، والعلماء لا يكتسون إلا به وإذا عين أحد فى منصب خطير فإن علامة التقليد له فى هذا المنصب إلباسه كركا من السمور.

أما القلانس – أى ما يلبس على الرأس فعبارة عن طربوش من الصوف المصبوغ باللون الأحمر تلف حوله العمامة. وتحت الطربوش يضع المصريون قلنسوة رفيعة يسمونها الطاقية الغرض منها وقاية الطربوش من تأثير العرق والعمامة شال من القماش الموصلى صوفا أو حريرا ساذجا أو

مشغولا. ولايزال يوجد حتى الآن أناس يحافظون على الزى القديم ولهم طرائق عديدة فى حمل القلنسوة وتنسيق أوضاعها فإنهم يطوون الشال طيا ينطبق على اتجاه أحد قطريه ثم يلفونه بأسلوب معلوم حول الرأس مع جعل اللفات متشابكة بحيث يتكون منها فوق الجبهة ما يشبه خطين متقاطعين هكذا × واحيانا يجعلون اللفات متراكبة بعضها فوق بعض بحيث يتألف منها ما يشبه الشكل الحلزوني، وقد يكتفون بجعل الشال إلى أحد جانبى الرأس دون الجانب الآخر. واختلاف هذه الأزياء والأنماط يدل على حالة صاحب القلنسوة ويشير إلى مرتبة فى الهيئة الاجتماعية. فإما أن يكون موظفا دينيا أو عسكريا أو ملكيا.

وهناك وسائل أخرى لتسوية العمامة تدل على حال لابسيها . فهناك العمامة الخاصة بالعساكر والعمامة الخاصة بالتجار والعمامة الخاصة بالبحريين وغيرها كالتى على الطراز التركى أو الالبانى أو الأرناؤوطى أو التى يلبسها القاضى واختها التى يحملها المفتى.. الخ.

وكانت عمامات العلماء تمتاز بضخامة الحجم ، ويتكون منها حول رؤوسهم ما يشبه الكرة العظيمة. وكان بعضهم يحليها بوشاح من الكشمير أو الحرير الموصلى تهبط منه عذبتان أحداهما تمس الصدر وتبقى معلقة أمامه من ناحية إحدى الكتفين، وتمس الثانية الكتف الأخرى وتحف الاثنتان بوجه العالم والشيخ فتعطيانه هيئة الجلال والوقار التى عرفت عن رجال الدين منذ قديم الزمان.

وكانت ألوان العمائم فى الزمن الغابر تفيد فى التمييز بين طبقات الناس. فكان المسلمون يتخذون العمائم البيضاء أو الحمراء، والأشراف من آل البيت النبوى العمائم الخضراء، أما الرعايا من اليهود والمسيحيين فكان لا يباح لهم من العمائم الا أسود اللون أو أسمره أو بنفسجيه أو ما كان لونه أحمر غامقا.

ذاك كان نظام اللباس القديم ، وهو المسمى باللباس الطويل، وقد اندثر اليوم زيه ولم يعد يحمله من طبقات الناس سوى العلماء والتجار وكتبة المصالح وبوجه خاص الوطنيون من النصارى واليهود.

٣٣ ـ لباس المماليك

لايزال يحمل هذا اللباس بعض الذين بقوا على قيد الحياة من طائفة المماليك وهو يختلف يسيرا عن اللباس الذى وصفته الآن. فإن قفطان المماليك بدلا من أن يكون مفرط الطول ينتهى عند الحزام فكأنه صدرية لا قفطان. وكان الواحد منهم يلبس قفطانين أحدهما ضيق الأكمام جدا ينتهى عند الكوع. وكانوا يلبسون فيما عدا ذلك سروالا من جوخ البندقية يحملونه فوق السروال الداخلى ويثبتونه عند الحزام بتكة، وكان عظيم العرض سابلا إلى سمانة الساق ويشبه غرارة كبيرة ذات ثقبين فى أسفلها وكانوا يشدون بعد ذلك حزاما على وسطهم من الكشمير.

٣٤ ـ اللباس الجديد

إن الانقلاب الذى طرأ على لباس المصريين يرجع تاريخه إلى عهد تنظيم الجيوش النظامية فى سنة ١٨٢٣ وكان نتيجة لهذا التنظيم، فكانت العمامة أول ما حذف فى الجيش من ملابس الجنود، وفى سنة ١٨٢٦ أدخلت تعديلات أخرى. إذ تركوا اللباس العريض الهابط إلى الركبتين كما هو وأدخلوا صدرية ذات كمين توضع فوقها سلطة من نوع ما يلبسه عامة الشعب عندنا ، وإنما تختلف عنها بالسعة وانفتاح الكمين وهبوطهما خلف الجسم. ولم يلبث المصلحون أن أدركوا مقدار ما تحدث هذه الأكمام من الالتباك فى أثناء القيام بالحركات العسكرية فقضوا بحذفها وحذفت فعلا.

ولما كان الجيش فى القطر المصرى الكل فى الكل الآن فقد كان من المنتظر أن يسرى تأثير التعديلات التى تطرأ عليه ولقد سرى هذا التأثير فعلا فتناول اللباس القديم الشائع الاستعمال إذ أخذ ذوو الحيثيات يجعلون ثيابهم على طراز الثياب العسكرية سواء أكانت لهم أم لم تكن مناصب فى قيادة الجيش، وكان إبراهيم باشا فى مقدمة المقلدين فبدل العمامة بالطربوش. فلم يلبث الناس جميعا أن قلدوه ولبس الوالى نفسه عين اللباس الذى اتخذه لجيوشه.

والشرقيون ميالون إلى اتخاذ الثياب ذات الألوان الفاتحة الساطعة كالأحمر والوردى والأبيض والبنفسجى..إلخ بقدر ميلهم عن الألوان الغامقة التى جعلوها ميزة الرعية من اليهود والنصارى. ولكن الأذواق والعادات

تغيرت الآن من هذه الجهة تغيرا محسوسا إذ هجر الألوان الساطعة أفراد الطبقات العليا واعتادوا الآن لبس الثياب من الجوخ الأسود والأزرق والكستنى..إلخ وظل عامة الشعب محتفظين بالألوان الأولى.

وفى ظنى أن القلنسوة الحالية، وهى الطربوش بغير عمامة أصلح بكثير منه بها بل وأظرف شكلا. وأرى أن من غير المستطاع إدخال تغيير عليها فى زمن قريب. ولست أدرى بم يمكن تغييرها لو رغب فى هذا التغيير. فإن القبعة الأوربية ليست فى شكلها أظرف ولا أشرف من الطربوش حتى يمكن القول بالاستعاضة عنه بها. ثم إن المسلمين يمقتون القبعة إلى حد أنهم إذا أرادوا فى ثورة غضبهم قول ما يستفاد منه أنهم سيأتون أمرا نكرا قالوا بصوت التهديد أنهم سيلبسون القبعة. لأن لبس القبعة لايقل فى نظر المسلمين عن جريمة التنحى عن القومية والكفر بالدين.

وعلى كل حال فالذى نتمناه ونقترحه فى هذا الموضوع أن يجعل المصريون فى طرابيشهم رفرفا يظلل وجوههم بحيث تضاهى به القلنسوة التى يحملها جنودنا فى أفريقية. إذ مما تمس الحاجة اليه فى بلد كمصر يشتد فيها سطوع الضوء وحرارة الشمس وقاية العينين والجبهة من تأثيرهما الضار. غير أنى لازلت أشك فى إقبال المسلمين على العمل بهذا الاقتراح النافع . لأن الرفرف الذى أشرت إليه الآن يجعل الطربوش شبيها بالقبعة وهو ما يمقتونه ويتقونه بكل الوسائل.

٣٥ ـ الحذاء

لايلبس المسلمون عامة الجوارب. ولكن أصحاب اليسار منهم يستعيضون عنها بشىء من الجلد الأصفر يسمونه المزد. فإذا لبسوا هذا الشىء الذى لا هو بالجورب ولا هو بالحذاء دسوا أقدامهم فى حذاء من الجلد الأحمر أو الأصفر يسمونه بالمركوب، واللون الأصفر فى المركوب كان لا يسمح به سابقا إلا للمسلمين. أما المسيحيون فكان لا يسمح لهم إلا بالأحذية الحمراء اللون. وكان السواد اللون الأصلى فى أحذيتهم.

وفائدة لبس الحذاء والمزد معا عند الشرقيين أنهم إذا غشوا مجلسا أو مسجدا تركوا أحذيتهم مع ما يكون عالقا بها من القذر عند الباب وساروا

بالمزد على الحصر والبسط والسجاجيد بدون أن يمسها شيء من الأذى وبقيت أقدامهم مكسوة غير عارية.

٣٦ ـ أفكار وخواطر فى الزى الحديث

بالرغم من أن الزى الجديد قد تناول اللباس المألوف بالتعديل والتغيير فإنه لم يفقد شيئا كثيرا من صبغته الوطنية لأنه جمع بعد تعديله إلى مزايا اللباس الأفرنجى أخص ميزات اللباس الإسلامى. على أنه لم يكن زيا مستحدثا فقد كان معروفا فى ألبانيا والروملى ومألوفا عند أهليها فإذا اختاره محمد على وفضله على غيره من الأزياء فما ذلك إلا لأنه طابق عنده ما كان يرمى إليه من حسن التدبير وسلامة الذوق. أما حسن التدبير فلأنه لو فرض على أفراد رعيته اتخاذه لباسا لهم لأثار غبار الاعتراضات من جهة رجال الدين وجر إلى نفسه كراهية الجمهور ونفوره. وإما سلامة الذوق فلأن الذين اعتادوا لبس الثياب الواسعة عرفوا مالها من المزايا على الثياب الضيقة وأنها تعوق حركة المفاصل ولو انساقوا بحكم التقليد إلى لبسها لاضجرتهم فقلقوا وتبرموا وربما أبرزهم القلق والتبرم إلى المترصدين للانتقاد فى شكل يحملهم على الاستهزاء والاستخفاف بهم.

وما حصل من هذا القبيل فى الآستانة دل على صدق نظر الوالى وسلامة ذوقه وسداد رأيه وسرعة خاطره فإن السلطان محمود قد ألبس جنوده شوار الجنود الأوربية بدون تحوير، وهو مؤلف من القميص الضيق ورباط الرقبة والبنطلون الضاغط على الفخذين والسترة الواصفة بضيقها للجسم والأحذية المغطاة فكان ذلك كله فيما عدا الطربوش نسخة طبق الأصل من الشوار المومأ إليه. وهو ماساتاء العثمانيون منه بانتقاده واستهجانه وتقبيح رأى مقترحيه والذين سعوا إلى تنفيذه بلا نظر إلى أن الجيش الذى ألبس ذلك الشوار الافرنجى جيش إسلامى. لايجوز له التشبه فى زيه بالجيش المسيحى لاسيما وأن الأتراك يتضايق بهم اللباس الأوربى ولا يشعرون معه براحة حتى أنهم قلما يعنون لهذا السبب بأحكام ثيابهم أو طلب التأنق فيها أو صرف العناية بتدبيرها فكان هذا باعثا آخر على تحول ذلك الإصلاح السلطانى إلى موضوع السخرية والتهكم.

وليس من الإنصاف بالرغم مما تقدم إنكار ما لتطبيق الإصلاح المومأ إليه

من النتائج الطيبة بقضائه على الفروق التى جعلت المسلمين فى معزل عن أهل أوربا ، وصيرتهم أجانب عن هذه القارة وهم إنما يعيشون فيها. أما الاصلاح الذى قام به فكان من نتائجه أن قرب مسألة الخلف بين اللبسين المصرى والأفرنجى بدون أن يؤثر فى نمطهما الأصليين تأثيرا ذاهبا بكيانهما. وهذا سيفضى حتما إلى دور من أدوار الانتقال فى موضوع اللباس يتم فيه التحول من غير صدام ولا احتكاك.

وأنماط الملابس، ولاسيما إذا كانت رمزا صحيحا للتقاليد الدينية والقومية كما هى عند المسلمين كثيرا ما تقيم بين الشعوب حواجز تتعذر إزالتها. فإذا نظرنا فى الأمر من هذه الناحية فلا يسعنا إلا الحكم بخطأ الإصلاح الذى قام به كل من الوالى محمد على والسلطان محمود. وبدهى أن الذين يسرهم بقاء القديم على قدمه لسوف يأسفون على مزايا الملابس الواسعة وفوائدها التى تجل عن الحصر، ولكن الذين ينظرون فى الأمر نفسه من الناحية العملية لسوف يرون أنهم عوضوا عن تلك المزايا الصورية والمحاسن الظاهرية بخير منها ألا وهو ما أثمره ذلك الإصلاح من النتائج الجليلة والفوائد الجمة المطابقة لمقتضيات الزمان والمكان من جهة والتى لا تخالف من جهة أخرى العقائد المستقرة فى النفوس.

هذا وفى النصوص الشرعية ما يحرم على المسلمين لبس الثياب الحريرية أو المزركشة بأسلاك الذهب، ويحظر عليهم التحلى بالذهب والفضة. ولكن صرامة الأوامر والنواهى الدينية فى هذا الموضوع لم تتغلب على ما هنالك من النزعة الطبيعية الشديدة الى التحلى والتجمل. ومفهوم أن الشارع أنس فى العرب الرغبة فى التجمل بالحلى والثياب الفاخرة فحاول، ولكن عبثا ـ أن يصدهم عن مناحى هذا الميل بما سنه من تلك النواهى الصارمة. ويقينى أن لا أمة من أمم الأرض قد شغفت حبا كالأمة الإسلامية بالتحلى بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المزركشة واسرفت من مظاهر التزين والتجمل على أنواعها. ورغم هذا فإن المسلمين لا يحكمون الذوق السليم فى تنسيق زينتهم وترتيب أوضاع حلاهم، ولا يدرون كيف يوفقون بينها حتى لا تنبو الأنظار عن رؤيتها وتمج الأذواق شكلها لما استحكم فى أجزائها من التنافر وزال عنها من طلاوة التجانس والتشاكل فإنه لا يبعد فى بلاد الشرق الإسلامى أن يقع

نظرك على رجل يحمل صدرية مزركشة بأسلاك الذهب على ثياب رثة وأطمار بالية.ولا يقتنى المصريون من الثياب بقدر ما يقتنى الأوربيون منها عددا ولكن أثرياءهم وأصحاب اليسار منهم يكثرون منها ويلبسونها على التعاقب ويغيرون المجاسد أى الثياب التى تلى الجسد مباشرة مرارا فى الأسبوع الواحد. أما عامة الشعب فعلى عكس ذلك ولذا كانوا من أحوج المصريين إلى رعاية النظافة والعمل بقواعدها. والمصريون لايستعينون بالرماد فى غسل ثيابهم إذ يكتفون فى تنظيفها بالماء البسيط والصابون ولايحملون الثياب مثنية ولا مكوية.

٣٧ ـ ثياب الفلاحين

ثياب الفلاحين فى الدرجة القصوى من البساطة، إذ تنحصر فى قميص وسروال من الكتان يعلوهما قميص أزرق سابغ يسمونه «العرى» يضبطونه حول الجسم بنطاق من الجلد أو القماش، وقلنسوة الفلاح صنف من طربوش أبيض أو رمادى يعرف باللبدة. وفى الشتاء يلبسون بدلا من العرى عباءة صوف واسعة الأكمام تسمى عندهم بالزعبوط.

وتختلف أشكال اللباس المصرى باختلاف الجهات. فسكان الوجه البحرى يستوفون فى ملابسهم شروط الصحة المتفقة مع أحوال الطقس فيه، وسكان الإسكندرية يتخذون جميعا ثيابا من الجوخ شبيهة بثياب المغاربة. أما القاهرة فالثياب فيها أخف منها فى الوجه البحرى والإسكندرية. غير أن الذين لا يستطيعون من أهلها اقتناء ثياب الجوخ يكتفون بالثياب القطنية. ومن غريب التناقض فى موضوع اللباس فى مصر أن سكان الوجه القبلى رغم شدة الحرارة يرتدون الاقمشة الصوفية حتى فى أشهر الصيف. ويقتصر الرجال والنساء فى ضواحى أسوان فى لباسهم على حزام من الجلد (الرهط) يضربونه على خصورهم فلا يستر من أجسادهم سوى العورة كالمشهود عند الأمم المتوحشة بالسواء.

٣٨ ـ عادات المصريين فى تدبير الشعر

يرى المسلمون أن حلق الشعر فرض محتوم عليهم بحكم الدين. فهم يزيلونه برمته ولا يتركون منه سوى خصلة صغيرة وسط الجمجمة

يسمونها «بالشـوشـة» يعللون ذلك بأنهم إذا وقعـوا فى أسر العدو وسيقوا إلى الإعدام برمى الأعناق جذبهم العدو منها لكى يمضى فيهم حكمه فلا يلجأ إلى وضع يده المدنسة فى أفواههم أو يقبض بها على لحاهم.

وشعر المصريـن كشعر أقـوام المناطق الحارة غير غـزير. وخصـوصا فى اللحية. وهم يحلقون منه الجزء الذى فوق الفك الأسفل وشيئا من أسفل الفك تحت الشاربين ويغفلون الجزء المصطلـح على تسميته عندنا بالملـوكية وهى طريقة تسوية شعر اللحية كانت شائعة فى فرنسا على عهد الملك لويس الثامن عشر) ويحلقون تحت الذقن جزءا من اللحية وما يكون ناشزا من شعر الوجه ويدعـون اللحية تنمـو حتى يبلـغ طولها قبضـة اليد ويقصـون الشارب إلى مايوازى الشفة العليا ، وهم فى ذلك يخالفون الأتراك الذين لا ينقصون شيئا من اطرافه بالمقراض فينمو نموا عظيما.

وللحية احترام عظيـم عند الشرقيين، لأنها رمز الـرجولة والحريـة والقوة النفسية والبدنية. والقسم باللحية والشاربين (الشنب) يمين لايحنثون فيها. وإذا ذكر أحدهم بقلـة الفهم قالوا أن عد شعر لحيته مستطـاع. وهم شديدو العنـاية بها ، ويحرصـون على تعهدهـا بالنظـافة والطيـب لمكانتهـا عندهـم واحترامهـم إياهـا . فتراهم كلما اغتسلـوا أو توضـأوا نظفـوها بـالصابـون وضمخوها بالروائح العطرية وإذا كانوا فى بعض الأحيان يصبغونها بالحناء فما هو إلا لما رسخ فى اعتقادهم من أن سواد اللحية شطر من الجمال، وهم لا يعدلون عن صبغها إلا لاتقاء الفتنة ، ومع هـذا فعادة الصباغة آخذة بالزوال والاندثار الآن على توالى الأيام.

وقد أمـر الوالى محمد على بحـذف اللحية فى الجيش وحتمـه على الضباط والعسـاكر سواء. فأصبحنا الآن نرى قواد الجيش والباشوات وقد تساووا فى محو آثار هذه الحالة الطبيعية التى كانوا فيما مضى يهتمون بأمرها ، وعندنا أن إزالة اللحيـة سيذهب بـأحد السياجـات الكثيرة التى مابـرحت تحول بين الأوربيين والشرقيين، وهـى من الأهميـة بمكان لاينكـره إلا المكابـرون لأنها بإزالتهـا أحد الفـوارق والمتناقصـات التى مـن شأنها أن تجعـل الشرق على الدوام شرقا والغرب غربا تتحقق فكـرة إتحاد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض إذا لم يكـن فى كل شىء فأقـل ما يكون فى الأخـلاق والحالات النفسية

العامة. وفى النظام الملكى لايربى الشاب لحيته إلا إذا أذنه والده بإرخائها أو إذا حان وقت زواجه. أما الأرقاء فيحرمون تربيتها. ولكن إذا بلغوا سن الكهولة وأحبوا إرخاءها أذن لهم سادتهم وأجابوهم إلى رجائهم.

ومن لالحية له يرخى شاربيه على كل حال لأن الشرقيين يرمون من لاشاربين له بأقبح الصفات ويلصقون به العار، لذا أنصح إلى الأوربيين الذين يجيئون إلى الشرق للسياحة بأن يعنوا بهما ولا يتركوا الموسى تسطو عليهما.

وشهدت بنفسى نادرة مضحكة ذات علاقة باللحية وإنى إذا تصديت لذكرها فى هذا المقام فلأزجى إلى ذهن القارىء فكرة عن مبلغ اهتمام المصريين بهذه الشارة التى يعدونها دليلا على كمال الإنسان ورجولته.

فى عام ١٨٣٤ كنت أطوف فى بعض بلاد القطر لأداء مهمة تتعلق بالتجنيد فلما وصلت إلى الزقازيق - وهى قرية صغيرة من قرى الوجه البحرى واقعة على الضفة اليمنى من بحر مويس - شهدت قضية غريبة كانت اللحية سببها. ذلك أن شيخ البلد كان قد جاء برجل طاعن فى السن لينظمه فى السلك العسكرى فلم أوافق على قبوله من الوجهة الطبية وكان هذا يخوله الحق فى الحصول على الإذن، وقد أعفى من الخدمة العسكرية، بالانقلاب إلى أهله. ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل دنا من المأمور وأخذ يشخص فى شيخ البلد الذى جاء به لينظمه فى السلك العسكرى وصاح قائلاً: «ألم أقل لك أننى غير صالح للخدمة العسكرية، ثم التفت إلى المأمور واسمه حسن وقال: «انصت إلى قولى أيها المهاب. إن شيخ البلد هذا خصمى وقد حتم على مفارقة الأهل والوطن لأقضى بقية حياتى فى ظلال البنادق والسيوف مع مجاوزتى الأربعين من العمر. ولكى يصيب هذا الغرض أكرهنى على إزالة لحيتى لأبدو صغير السن فى نظر البكوات وما أنا كذلك فى الحقيقة فكيف استطيع الآن، وهى دليل مكانتى وشارة شرفى، أن أعود إلى بلدى سليب اللحية. إنى إن عدت إليه لاشك ذاهب فريسة ضحك الصغار وموضع رثاء الكبار فبحياة النبى اقض بينى وبينه بالعدل فإنك ابن إبراهيم صاحب العدل والبطش».

فتأثر المأمور بهذا القول وسأل القاضى الذى كان حاضرا فى تلك الآونة

أن يدون حكمه فى الموضوع. وكان القاضى متربعا على سجادة يهز رأسه هزا خفيفا كعادة القوم هنا إذا فكروا وترووا ثـم نطق بالحكم الآتى ولم يكف عن هز رأسه: «جاء فى سورة المائدة» من القـرآن الحكيم ـ «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بـالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» ـ ولكن لم يرد فيها شىء عن اللحية.

وكان شيـخ البلد والقاضى حينما طـرحت المسألة على القضـاء يتبادلان إشارات تفيـد التواطؤ بينهما على أمـر ما. فلما سمـع المأمور ذلك فكـر مليا وأخذ يمر بيـده على لحيته التى خطها الشيـب ثم قال: «الحمد للـه والصلاة والسلام على نبيه، حيث إن من المباح أن يقص أحـدهم لحية أخيه فقد حكمنا بأن تقص فى الحال لحية حضرة القاضى» ومعنـى هذا أن القاضى إذا أصبح ولا لحية له صار فى حكم المعزول يسخـر الناس منه. فما كادت هذه الكلمات ترن فى أذن القـاضى حتى اعتراه خوف شـديد واعتذر وابتهل وبـادر ينقض حكمه الأول منصرفا إلى تطبيق قاعدة «العين بالعين» السالفة الذكر.

وكان شيـخ البلد شديد التعلـق بلحيته فخشى أن يسطو المقـراض عليها وأن يذهب ضحيـة التهكم عليه من قومـه فالتفت إلى صـاحـب الشكوى وهو ذلك الـرجل الذى أكـرهه على قص لحيتـه وقال له: «يـاخليل ياأخـى! هل إذا قصت لحيتى تنفيذا لحكم القاضى تنبـت لحيتك فى أسرع ما تنبت اللحى فيه عادة من الزمن؟ إن الأولى بنا التراضى والاتفـاق على أمر. قل لى ماذا يرضيك تعويضا لك عـن الضرر الذى ألحقته بك؟» فدارت المساومـة على تقدير قيمة لحية الـرجل حتى انحطـت على ستين قرشـا. أى ما يقرب مـن خمسة عشر فرنكا. ومع أن الرجل قد حصل بهذه الترضية على ما كان يبتغيه من العدل فى قضيته لم يشأ أن يعود إلى بلده بل ظل فى خدمة المأمور إلى أن نبتت لحيته.

والنصـارى من سكـان القطـر المصرى يجلون اللحيـة. بقـدر ما يجلهـا المسلمون ويتبعون فى تربيتها وتدبيرها والعناية بها عين الطريقة التى يتبعها هؤلاء. وأجمل اللحى وأوفاها حجما لحى القساوسة، لأنها أدعى إلى احترامهم وتوقيرهم. وإذا لم ييسر للمذهب الكاثوليكى فى الشرق الانتشار المرجو له فما هو إلا لأن قساوسه يجردون أذقانهم من اللحى.

وعادة المصريين من مسلمين ونصارى أن لايقروا بالطاعة لرؤساء دينيين لا لحية لهم إذ يقولون أنه لا فرق بينهم وبين الأرقاء فى الحرمان منها وبالتالى لا احترام لهم ولا مكانة فى النفوس.

وإذا كان قداسة البابا هو الذى استحسن تجريدهم من اللحى فإنك ترى المصريين من الطائفتين ينظرون إلى قساوستنا بعين الشفقة الممزوجة بالازدراء. ولست أدرى كيف سرى إلى كل هذا الشعور فإنى لا أتمالك هنا من الاعتراف بأننى لما ذهبت إلى روما وحضرت الصلاة التى أقامها قداسة البابا بنفسه فى حفلة فخمة أسفت الأسف كله من أن هذا الشيخ الجليل لم يضف إلى العلامات المحسوسة التى يقصد بها إلى توقيره وإجلاله التأثير الرهيب الذى يقع فى نفوس الناظرين لو أحاط وجهه بهالة لحيته البيضاء. وإنى لمعتقد بأن اللحية خير ما يليق بالوقار الكهنوتى ولست استبعد اليوم الذى يطالب فيه أحد الباباوات الذين سيخلفون البابا الحالى على الكرسى الرسولى الكرادلة والأساقفة بل أعضاء طبقات النظام الاكليروسى كله بإرخاء اللحى وأثق بافضاء الخطة التى تقتضيها كرامة الديانة المسيحية لدى الشرقيين إلى نتائج تستوجب الرضا والارتياح لاسيما وأن الشرقيين تؤثر فى نفوسهم المظاهر الخارجية أكثر مما يخطر فى بال الأوربيين.

وفيما عدا اللحية يعنى المسلمون بإزالة الشعر من جميع أجزاء الجسم التى ينبت فيها عادة، وهذه الإزالة تتم عندهم بطريقة من ثلاث إما حلق الشعر وإما نتفه - أى استئصاله وإما إسقاطه بعجينة مركبة من الجير وكبرتور الزرنيخ بحالته الطبيعية، وبعض العامة يحلون أيديهم وأذرعتهم بالوشم المعروف بالدق.

٣٩ - النظافة والوساخة

أدرك النبى أهمية النظافة فى بلاد حرها كنار تلظى ففرضها على أصحابه فرضا دينيا .فالمصريون يحرصون كل الحرص على تنظيف أعضاء التناسل ومواضع التبرز مرارا فى اليوم، ولايزاولون هذه العملية إلا باليد اليسرى باعتبار أنها الخاصة بالنجاسات، وأما اليد اليمنى فتستخدم فى الأعمال الطاهرة الشريفة كتناول الطعام والمصافحة..إلخ وهم يكثرون من

الاستحمام . وسنتكلم على هذا الموضوع فيما بعد.

ومن عادة المسلمين ألا يبصقوا فى حجراتهم ولا فى مساجـدهم. فإذا كانوا فى حضرة غيرهم مـن الناس واحسـوا بالحاجـة إلى البصق أداروا وجـوههم وبصقوا فى مناديلهم بأتم ما يكون من الاحتياط والحذر.

وهم يسمحـون لأنفسهم بالجشاء على الطعـام وأثناء الكلام بـل وخلال الصلاة ويتجشأون بصوت مرتفع ينكره الأوربيون ويستاءون منه لجهلهم جريان عادة القـوم به. والظاهر أن العرب نقلوا هذه العـادة إلى أسبانيا فإنـها لاتزال باقية ومعمولا بها حتى الآن.

وبالرغم من أن الـدين الإسلامى قد فرض النظافة فـإن الأغنياء كالفقراء كثيرا ما تحتـوى ثيابهم القمل. وهم لا يخجلهـم وجوده ولا يعنون بإبـادته وتطهير أجسامهم منه. بل يقتصرون ـ بما جبلـوا عليه من الدعة والخمول ـ على إمساكه بـأطراف الأنامل وطـرحه على الأرض بعيدا عنهم. ولـدى أرباب اليسار أداة خاصة من الخشب فى شكل المغرفة يحكون بها ظهورهم ليخففوا عن أنفسهـم آلام وخزها ولسعها. وقـد نسب وجود القمـل عند المصريين إلى الوسـاخة وحـرارة الطقس واستعمال الثيـاب القطنية والإخـلاد إلى الراحـة والنعيم والإمساك عن المشروبات المتخمرة إمساكا تاما.

ومـع أن المصريين يغسلون أفـواههـم مرارا فى اليـوم الـواحد فـإن ذوى اليسار منهـم الذيـن يراعون هـذه القاعـدة يصيب التلـف أسنانهم أجمعين بخلاف الفـلاحين فإن اسنـانهم ناعمـة البياض جميلـة الشكل، وقـد تكلم المؤرخ هيرودتس على الأطبـاء فى مصر أيام الفـراعنة فذكـر منهم طبقـة كان همها الـوحيد الاشتغال بعـلاج الفم. وهو ما يـؤخذ منه أن داء الأسنـان كان شائعـا فى القطر المصرى ومعـروفا فى كل الادوار التـى تقلب فيهـا، وإن من الخطأ المحض نسبته إلى تعاطى القهوة أو التدخين، وإنما السبب الحقيقى له هـو النظام الغـذائى الذى يتبعـه الاغنيـاء بأكلهـم اللحوم والخضر المهيـأة بـالسمن وتنـاولهم الأطعمة الحارة ثـم البـاردة بغير نظر إلى ضرر الانتقـال المتعاقب من الحر الى البرد ومن البرد إلى الحر.

ولا يستعمل المصريون الفراجين الشعرية التى اعتدنا تنظيف أسناننا بها

لأنهم يخشون احتواءها شعر الخنزير وهو دنس فى شريعتهم، ولكنهم يتخذون لتنظيف أسنانهم جذورا ليفية لنبات يقال له الأراك ينمو فى سنار وبلاد العرب.

ولا يتولى المصريون بأنفسهم تقليم أظافرهم بل يتركون للحلاق أداء هذه المهمة بالمقراض وهم يستأصلون الأجزاء البارزة منها.

ومن عاداتهم، إذا تربعوا على الفراش، أن يشبكوا سوقهم بعضا ببعض وأن يمروا بيديهم على باطن القدمين لأنهم يحبون الشعور بالتأثير الذى تحدثه هذه الملامسة.

٤٠ ـ الحمامات

يفرض الدين الإسلامى على المسلمين الاستحمام بالماء الساخن لإزالة القذر. وشدة الحرارة فى بلادهم تجعلهم يستشعرون بالسرور والهناء كلما قاموا بهذا الواجب. فلا يدهش أحد مما يراه من إقبالهم على الحمامات وإكثارهم من الاستحمام.

ولقد رأينا فيما تقدم أن عدد الحمامات العمومية عظيم جدا فى القطر المصرى، وأنها فى الغالب ملحقة بأحد الأبنية الدينية. والموجود الآن منها فى القاهرة سبعون حماما بعضها مخصص للرجال دون غيرهم، والبعض الآخر للنساء وصغار الأطفال، والشطر الأكبر منها للرجال والنساء، على أن تخصص فى الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء. فإذا كان الحمام مشغولا بالنساء علقوا ببابه قطعة من قماش الكتان أو الجوخ إشعارا للرجال بأنهم لايجوز لهم الدخول فى الحمام. وفى كل حمام خدم من الذكور لمباشرة تنظيف الرجال وغسلهم وخدم من النساء لأداء هذا الواجب نحو السيدات.

وواجهة الحمامات مزخرفة على النمط الذى تزخرف به المساجد. ويغلب اللونان الأبيض والأحمر فى هذه الزخرفة خصوصا حول المدخل. أما الحمام نفسه فيتألف من حجرات مبلطة بالرخام المختلف الألوان ويتلو بعضها البعض. وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ الضوء بواسطتها من خلال قطع متكورة من الزجاج. والجدران والقباب تبنى عادة بالآجر والمصيص على مستوى الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية

القزان = الجزان = بالماء وهو يؤخذ أما من بئر أو من حوض فى أسفل البناء.

والقسم الأول الذى يمر به راغب الاستحمام يسمى المسلوخ ويحيط به صفف = مصاطب = مفروشة للجلوس، وفيه يتجرد المستحم من ثيابه. وإذا كان يحمل ساعة أو نقودا أو سيفا عهد حراستها عند دخوله إلى حارس الحمام الذى يسمونه بالمعلم.

ومتى تجرد الإنسان من ثيابه جعل على وسطه فوطة كبيرة ولبس قبقابا من الخشب وقصد بعد ذلك إلى مكان الاستحمام بواسطة دهاليز عديدة ضيقة يعتاد بالمرور فيها التدرج على الحرارة الأخيرة للحمام، وهى التى لايطيقها المستحم إلا بهذا الانتقال التدريجى المتعاقب.

والحمام نفسه عبارة عن بهو كبير ذى قبة عالية وأرضية مفروشة بالرخام، وفى وسطه حوض ماء ساخن تنبعث منه سحب من الأبخرة لاتلبث أن تتكاثف فوقه ويستمر انبعاثها على الدوام فتختلط بالروائح الزكية التى تحرق فى المباخر. وطريقة الاستحمام أن يتمطى المستحم على قطعة من القماش بحافة الحوض ويسند رأسه إلى مخدة صغيرة ثم يتخذ من الأوضاع ما يراه الأنسب لحاله والأوفق لراحته ومزاجه. وتكون السحب العطرية المنعقدة بتباخر الماء قد أحاطت بجسمه وأحدثت شيئا من التمدد فى مسامه جميعا. وعقب برهة من الوقت يقضيها المستحم فى هذه الراحة اللذيذة تكون البشرة قد اكتست بطبقة خفيفة من الرطوبة فيأتى عندئذ أحد عمال الحمام ليبدأ عمله بذلك الجسم، ولكنه قبل الدلك يضغط الأعضاء ضغطا خفيفا متداركا ويطويها طيا رفيقا حتى إذا أكسبها المرونة الضرورية فرقع ما تحتويه من المفاصل ثم تصرف فى الجسم بما يخيل معه أنه بأصابعه السريعة يعجن اللحم الذى يلمسه بها عجينا يراعى فيه الرقة واللطف. وفى أثناء هذه العملية التى لم يقل أحد أنها أفضت إلى حادث مضر لا يقتصر على فرقعة تلك الأعضاء بل يعدوها إلى الرقبة مرتين على الأقل. وحينما تتم إلانة المفاصل على هذا المثال يحك الكعبين وباطنى القدمين بحجر خشن ذى مسام متخذ من الآجر المطبوخ فيعمل عمل المبرد فى الحديد ثم يدلك اللحم بقطعة من الصوف تسمى الكيس. وبتأثير هذا الدلك الشديد يخيل للمستحم أن البشرة تنزع من مكانها ولكن الحقيقة أن الأقذار هى التى تنزع من البشرة

وتسقط بما غمر الجسـم من العرق. ذلك لأن الجزيئات الصغيرة التـى كانت تسد المسام ينتزعها الكيس من مكـانها فيتكون من اجتماعها بعضها ببعض ما يشبه الشكل الاسطـوانى السالف الذكر. ومتـى تمت هذه العملية شعرت بالبشرة وقـد تناسـق سطحها ونعمت نعـومة الحريـر ولا يستطيع المرء أن يتصور مقـدار القاذورات والأوساخ التى تخرجهـا يد المدلك من جسـم أكثر النـاس نظافـة ــ أى مـن جسم الـذى اقتصر فى الاستحمام على الحمامـات المنزلية ولو تتابع استحمامه فيها.

ينتقل المستحم بعد ذلك إلى خلوة يصـب ذلك الخادم فيها على رأسه رغوة من الصابـون المعطر ثم يغسله بقطعـة من ألياف النخل يسمـونها بالليف. فإذا تم تنظيـف رأسه وجسمه بهذه الطريقـة ينزل فى حوض ماء سـاخن ثم يغطى رأسـه وجسمه بعـد الخروج منه بـالبشاكير الكبيرة ويعـود إلى البهو الذى تجرد فيـه عن ثيابـه، وهناك يطرح نفسه على طـراحة يغطى فيهـا مرة أخرى بالبشاكير الجافـة ويجفف الماء الذى كان على جسمه بها بالـدلك مرة أخرى ويقضـى فى هذا الـوضع نحو نصف ساعة مستشعـرا النعيم والراحة، وتقدم إليه خلال ذلك القهوة أوالشبك للتدخين حتى إذا ما انتهى من ذلك كله لبس ثيابه التى يبخرها الخدم ببخور العود.

والعادة أن الإنسان إذا استحم على هذه الطريقة الشرقية شعر بهناء ولذة ونعيم يستحيل عليه وصفها. وغاية ما يقال أنه يستشعر بمرونة فى الأعضاء ونشاط فى الجسم لم يسبـق له اعتيادهما بل يستشعر بـأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه، أو أن حياة جديدة فتح لـه بابها وفيها يتمتع مع الهناء والسعادة بحياة طيبة لايدرك قدرها إلا العقل والقلب كما تدركه جميع الجوارح.

وكثيرون مـن النـاس يقصـدون إلى الحمامـات مـرتين فى الأسبـوع كما يقصدها غيرهم مرة واحدة وأقـل من مرة . ومنهم من يقتصر على الاستحمام فى حـوض ويغسـل رأسـه بماء الصابـون المعطـر. والاغتسـال فـرض على المسلمين كلما ضاجعوا نساءهم أو لحق بهم دنس من أى نوع ما.

ورسـم الدخـول فى الحمام زهيـد جدا. وفى متنـاول يـد الناس جميعـا فالفقراء منهـم لا يعطون رسما لاستحمامهم أكثر مـن خمس بارات إلى عشر

أى من ثلاثة سنتيمات إلى ستة. وهم بهذا الرسـم لا تدلك أجسامهم بالكيس ولا تغسل بالصابون.

أما أصحـاب اليسار فيـدفعون رسما لـلاستحمام الكامـل من قـرش إلى خمسة قروش ـ أى من خمسة وعشرين سنتيما إلى فرنك واحد وربع الفرنك على أن الدخول فى الحمامـات أمر من الأهمية بحيث لايوجـد ثرى إلا وفى بيته حمام خاص به.

وأعتقد أن الحمامات الشرقيـة مفيدة للصحة إفادة تـامة، أولا لأنها كفيلة باستمرارالنظافة. وهو الأمر الذى لابـد منه فى بلد تبلغ الحرارة فيه هذا المبلغ ويكثر العرق ويثـور الغبار،. فيكون ذلك كلـه من بواعث القـذارة، ثم إنها لما كان امتناع العرق فى مصر من أهم بـواعث الأمراض فإن استعمال الحمامات يكون من هـذه الوجهة نافع الأثر عظيـم الفعل بإيقاظه على الـدوام الوظائف الجلديـة. وبدهى أن التجربـة أثبتت للشرقيين فائدتها من هـذه الجهة، ولهذا تراهـم متى استشعروا بألم أو بضعـف ولو خفيف فى الجسـم أو بجفاف فى البشرة إلى غيرها من العوارض قصدوا إلى الحمام من فورهم وقضوا به بضع ساعات ثم كرروا هذه العمليات أياما متعاقبة.

وإلى الاستحمام فى الحمامـات يرجـع الفضل فى شفـائهـم من الأمـراض الخطيرة كالأمراض الزهرية والجرب إلى آخر الأمراض الشائعة فى الشرق.

ومما لا ريـب فيه أن انتشـار الحمامات فى الشرق سبـب من أهـم أسباب نقـص الأمراض الجلـدية كـالبرص وغيره التى كـانـت فى العهد السـابق ـــ بتفشيها بين الناس ـــ تلحق بهم أضرارا كبيرة وتفتك بحياتهم وبنـاء على ما تقدم فإننى أعتبر أن الحمامـات الشرقية من أقوى عوامل حفـظ الصحة عند الشرقيين. وإنى أتمنى على الله المنـى أن يشيع استعمالها فى البلاد الأوربية. لأن الحمامـات التـى انشئـت بها حتـى هذا اليـوم ليسـت إلا تقليـدا معيبـا للحمامات الشرقية إذ توزيع أقسـامها ردىء والانتقال فيها من الحر إلى البرد لا تراعى فيه شروط التدريج. هذا فضـلا عن أن التدليك والتكييس ليسا فيها كما هما فى حمامات الشرق.

ومع انتشار الحمامات فى مصر السفلى فإنها غير معـروفة فيما يلى مدينة

جرجا جنوبا . لأن الأهالى هناك من رجال ونساء يكتفون بالانغماس فى النيل المتأثر بحرارة الشمس والخروج منه وحرارة الطقس هناك تقوم مقام الحرارة الصناعية الناشئة عن تباخر الأبخرة من الماء الساخن فى الحمامات العادية.

٤١ ـ استخدام الوقت والأشغال

ينهض المصريون مبكرين. إذ من واجب المسلم الذى يهمه أداء صلاة الصبح فى ميعادها أن يستعد لها عند بزوغ الفجر فيلبس ثيابه ويهيىء نفسه. وأول عمل يقوم به بعد أدائه فرض الوضوء والصلاة أن يشعل شبكه = يدخن البايب = ويتعاطى قهوته. وكثير منهم يكتفون فى الصباح بهذا الشراب، ولكن غيرهم يميلون إلى تناول طعام الفطور.

والموسر المتصرف فى وقته يمتطى بعد ذلك جواده وينطلق به إلى منازل أقربائه ومعارفه لزيارتهم أو إلى السوق لشراء بعض اللوازم، ثم ينتظر ساعة العشاء متحدثا مع صديق له ويتناول طعامه الأول قبل الظهر ثم يدخن ويشرب القهوة. وبعد العشاء يدخل إلى حرمه حيث تسهر زوجته وجاريته على إعداد ما تتوافر به الراحة له، وهناك ينام ساعتين أو ثلاث ساعات وبمجرد ما يستيقظ من نومه يغسل وجهه ويعمل على كيفه.

وهذه الكلمة لا مقابل لها فى لغتنا وإنما تدل على حالة بها تتوافر الراحة والنعيم للعقل والجسم معا ويسكن الإنسان فيها إلى الدعة والتمتع بالسعادة وتقف الحياة العملية. فهو بالجملة نوع من السبات ترتاح النفس إليه وتكمل اللذة به تلك اللذة التى لايفيد معناها إلا كلمة Far nienic عند الايطاليين ثم يدخن جملة شبكات ويتعاطى القهوة ويلعب بلعبة الدامة أو الشطرنج حتى العصر حيث يعود إلى منزله لأداء الصلاة أو يذهب إلى المسجد للقيام بها فيه. وبعد انتهائه من ذلك يخرج للنزهة راجلا أو راكبا ،ثم يعود قافلا إلى منزله قبل غروب الشمس بساعة كى يتأهب لصلاة المغرب وتناول طعام العشاء بعدها. وبعد العشاء يبرح منزله مرة أخرى إما إلى إحدى القهوات لسماع القصص التى يرويها الشعراء، وإما إلى أحد الأصدقاء للمسامرة معه ساعة من الزمان أو ساعتين وهو ينام عادة فى الساعة الثامنة أو التاسعة من المساء

ما لم تكن هناك حفلة خاصة كزفاف عريس مثلا فإنه يطيل السهرة أكثر من ذلـك. وربما يـدعوه جمال الطبيعـة فى الليـل إلى الصعـود إلى سطح منـزلـه ليستجلى مناظر السماء ويستنشق النسيم العليل.

تلـك هى حيـاة الـرجل الغنـى وهـى حياة مبنيـة على الـدعة والسكـون والتصون عـن الأعمال فإذا شئـت أن تصفها بـوصف مـا فقل إنها الـراحة المطلقة. والظاهر أن المصرى يمقت الحركة ويجتنـب السعى حتى إنه لا يرى فى السير للنزهـة باعثا من بـواعث اللهو، ولا يستطيع أن يتصـور كيف يجد الأوربيون لذة فى هذا النوع من الرياضة.

أما الذى يتولى مراقبة عمل ما أو إدارته أو يكون موظفا فى إحدى المصالح فإنه يذهـب فى الصباح إلى مقر عمله أو مركز ديوانه حيـث يقضـى النهار كله ويتناول فيه طعام الغداء ثم إلى داره.

وجماعة التجار يقضون النهار كذلك فى حوانيتهم وهذه الحوانيت لاتوجد غالبا فى البيوت التى يسكنونها ولا فى الأحياء التى هم من أهلها.

أما الصناع فيبدأون أعمالهم مبكرين ومثلهـم الفلاحون فإنهم يخرجون إلى حقولهم فى الصبـاح ولا يرجعون عادة إلى بيـوتهم إلا فى المساء، والأعمال الزراعيـة ليست على جـانب عظيـم من المشقـة لأنهم يؤدونها ببـطء شديـد ويقضـون شطرا من وقتهم فى النوم لالتماس الراحـة مما يكون قد نالهم من العناء ويكونون فى نومهم غالبـا معرضين لأشعة الشمس، ولكنهم يقصعون = ينكمشون = فى أرديتهم أذا لم يكـن بالقرب منهم أشجـار يأوون إلى ظلها. ولقد اعتادوا حرارة الشمس حتى إنهم قلما يضجرون من زمن تأثيرها فيهم أثناء النوم أو يصيبهم من جرائها أقل ضرر.

٤٢ ـ النوم وطريقة الرقـاد

إن الشعوب والأقـوام الساكنة بالبـلاد العثمانية بدوية الأصـل كلها على وجه التقـريب، فليست مسألـة النوم عندهـم من المشاغل الهامـة أو المسائل الخطيرة لأنهم بما اعتـادوه مـن تقويـض خيـامهـم فى كل لحظـة للظعـون والانتجاع لا يحوطون النوم بالوسائل الكفيلة بالراحة التى تستلزمها معيشة الإقامة فى البيوت الثابتة ، وقد ورث الأتراك والعرب الحاليون فى هذه المسألة

كما ورثوا فى غيرها من المسائل مادرج عليه أجدادهم من الأخلاق والنزعات والعادات فهم بوجه عام لا يعرفون استعمال الأسرة. نعم إن البعض منهم قد درجوا على استعمالها من سنوات قليلة ولكنهم الفئة اليسيرة. والذى جرت عليه عادة المصريين فى الرقاد أن يلقوا طراحة أو جملة طراحات فوق البسط أو السجاجيد ثم ينامون عليها بثيابهم ويزعمون أن هذا الفراش الذى يجهزونه فى بيوتهم كل مساء ويجعلونه لاصقاً بالأرض أصلح من كل طريقة سواها للرقاد بسبب احتفاظ الفراش فى كل نقطة من نقطه وجهة من جهاته بالاستواء الأفقى. ويقولون أيضا إنه أقل كلفة من الأسرة وأبسط فى الاستعمال، وإذ كانوا لايخصصون فى منازلهم غرفا معينة للنوم بها فإنهم يطوون الطراحات بسهولة ويرفعونها لوضعها فى مكان آخر، وبذا يتصرفون فى الغرفة التى قضوا الليل فيها نوما لما يشاءونه من المصالح البيتية الأخرى.

وطراحات الشرقيين محشوة بالقطن وليست بذات سمك عظيم. لأن المصريين يفضلون الزيادة فى عددها على المبالغة فى حشوها. وسعة الطراحات من طول وعرض وسمك مقررة عندهم ومرعية فى كل مكان لأن تقديرها بنى على ما هنالك من الضرورة لطيها ونقلها من مكان إلى مكان، دع أنه إذا كان الفرش مكونا من طراحات سميكة فإنه يسد المنافذ ويكون باعثا على زيادة الحرارة.

وملاءات الأسرة عند الأغنياء تتخذ من الحرير أو التيل الناعم، وتكون الملاءة العليا متصلة بالغطاء.

وأصحاب اليسار فى المدن يخلعون قبل النوم الثياب التى كانت عليهم فى النهار فلا يبقى منها على أجسادهم إلا القميص واللباس ثم يلبسون جلبابا يسمونه بالقفطان يشدونه على وسطهم بحزام من الكشمير أو الحرير ويخففون من القلنسوة مكتفين بطاقية بسيطة.

والكثيرون من الصناع والعمال لايملكون فى العادة ما يفترشونه أثناء نومهم غير السجاجيد والأبسطة . والفقراء منهم يتوسدون الحصر، والنوم عندهم ليس من المسائل التى تستوجب قلق البال. إذ أنهم يعمدون إلى رداء واسع يلفون أجسامهم به أو يفعلون مثل ذلك بالغطاء الذى يبغون التغطى

به ثم يرقدون على الأرض. وقد اعتادوا جميعا هذه الطريقة فى نومهم إلى حد أنه لما شرعت الحكومة فى تنظيم الجيش على النسق الجديد ارتأت ألا تعطى العساكر فراشا ما للرقاد عليه مقتصرة على أسرة الميدان التى كان هؤلاء العساكر يفرشونها ببطانية صوف ثم ينامون عليها.

والظاهر أن المصريين ينامون طوع إرادتهم. فالأغنياء منهم إذا أحبوا أن يجلبوا النوم بسهولة كلفوا جواريهم أو خدمهم أو نساءهم بكبس أقدامهم وسيقانهم فيفعل هذا الضغط فيهم. فعل التنويم المغنطيسى. وإذا اشتدت الحرارة عهدوا إلى عبيدهم السهر طول الليل بجوارهم ليذبوا بالمذبات عن وجوههم ما يسّاقط عليها من الذباب أو ليروحوا على وجوههم بالمراوح ولهم طرق خاصة للاستيقاظ من النوم فإنهم لا يستيقظون على جلبة صوت أو جذب يد، كلا! بل أن الخدم أو العبيد يدنون منهم باحتراس وحذر ويمرون بأيديهم مرا متداركا على باطن أقدامهم إلى أن ينتبهوا من نومهم مستشعرين بلذة هذا اللمس.

٤٣ ـ أصوات النداء والتعجب والاستفهام والقسم..إلخ

لما كان المسلمون شديدى التمسك بالدين فإنه غالبا ما تراهم فى أثناء محادثتهم يرفعون أصواتهم بذكر الإله والنبى والقرآن فى كل من تلك الأحوال. وهم شديدو الميل إلى القسم. فلا يستشهدون على ما يقولون إلا بتلك الكلمات التى هى موضع إجلالهم واحترامهم وكثيرا ما ينطقون فى الأيمان بكلمة «والله» وقبل أن يبدأوا بعمل أى شىء يرون من الواجب أن يقولوا «بسم الله الرحمن الرحيم» فإذا انتهوا منه قالوا «الحمد لله» وهم لايحدثون أبدا عن شىء فى المستقبل إلا إذا قالوا [إن شاء الله] أو عن حادث وقع فى الماضى إلا وقالوا «الله أعلم».

والمسلمون أبعد الناس عن سب الأديان وإذا سمعوا أحدا يسبها امتلأوا حنقا وغيظا. أما معجم الشتائم عندهم فغنى بكثرة الألفاظ. ومنها ما يندى الجبين خجلا عند ذكره. فهم يتقاذفون بمثل لفظ «الخنزير» و«الثور» وهم يتظاهرون أحيانا بالبصق على الذين يشتمونهم. لأن البصق فى نظرهم أبلغ

فى الإهانة والتحقير.

٤٤ ـ الخدم

اعتاد المسلمون الإكثار من الخدم وهؤلاء ينقسمون فرقا عديدة لكل فرقة اختصاص بحسب ما تزاوله من العمل. فمنهم الفراشون الموكول إليهم العناية بالشئون الداخلية فى المنزل وفرش الفراش..إلخ. ومنهم السقاءون الذين يحملون إلى المنزل ما يحتاجه من الماء، ومنهم الطباخون الذين يباشرون طهى الأطعمة، ومنهم الشبكجية الذين يجهزون الشبكات بوضع الدخان وتقديمها إلى المدخنين. ومنهم القهوجية والسواس الأولون لتقديم القهوة والآخرون لتدبير شئون الدواب. ولكل منزل بواب يحرس مدخله ويعرف الداخل فيه والخارج منه.

وجرت العادة بأن تكون رياسة الخدم للسقاء. وفى بيوت متوسطى الحال يكون لكل فراش من الفراشين رئيس مسيطر على أفرادها. والخادم لايؤدى سوى العمل الذى وكل به أداؤه والذى يعتبر أنه صناعة له لايجوز أن يتعداها إلى غيرها. وفى هذا من المضار والعوائق ما يجعل رب البيت مضطر دوما فى قضاء حاجته، ولو كانت تافهة، إلى الاعتماد على أناس مختلفين يعلم أحدهم ما لايعلمه الآخر. دع ما يستلزمه أيضا من استخدام عدد عظيم من الخدم والقيام بالانفاق عليهم جميعا. ولقد تغيرت هذه الحالة بعض الشىء إذ قل عدد الخدم كثيرا عن ذى قبل، واقتصر الناس على الاحتفاظ بمن لا يستغنى عنه منهم، وذلك بفضل سمو الوالى ونجله إبراهيم باشا اللذين نصبا نفسيهما للقدوة فى هذا الموضوع.

والمسلمون كثيرو الرعاية والعطف على خدمهم . إذ يتولون تغذيتهم وكسوتهم مع دفع الأجور المستحقة لهم. وليست هذه الأجور بالشىء الذى يستحق الذكر، ومع ذلك فإنهم يقومون بواجبهم خير قيام ويؤدون عن طيب خاطر الأعمال التى لم يكن القيام بها ـ وقد قسمت ذلك التقسيم — مما يستدعى الكلفة والمشقة. وإن خادما واحدا عندنا ليقوم بسهولة ومن غير ضوضاء بعمل أربعة أو خمسة من الخدم المصريين، ولذا نرى هؤلاء يعمدون

إلى الدعة والسكون ويميلون إلى البطالة والكسل ولايزاولون العمل بنشاط إلا بدافع الخوف من العقوبة.

ولا يتخذ الـرجال ابدا لخدمتهـم خدما من النســاء ولا النساء خدمــا من الـرجال، والعـادة الأوربية الجاريـة على عكس هـذا المبدأ، وهـى من أخـص عاداتنا وتسوء المسلمين كثيرا إذ يرون فيها العار والفضيحة كلهما.

والخدم المصريون شـديدو الشره إلى النقود، وعـادتهم أن يسألـوا جميع المختلفين إلى منـازل سادتهم، وخصـوصـا فى أيام الأعيـاد، هـدية مـن المال يسمونها «العيدية» فإنك إذا خرجت من منزل بعد زيارة صاحبه جروا خلفك ليساعدوك على امتطاء جوادك أو بغلك ثم مدوا أيديهم لطلب المكافأة الصغيرة المعروفـة عندهـم بالبقشيش. والبقشيـش عادة جـائرة متبعة وهـى فى ذلك كعادة Bona Manc الشائعـة فى بعض الأقـاليم الإيطـالية. ويـذهب الخدم المصريون المذهب البعيد فى المطالبة بالبقشيـش لأنهم يتقاضـونه فى مقابل ما يكونوا قد أدوه إليك أو أداه سيدهم من الخدم وبمنـاسبة ما تكون قد قمت به منها لأجلهم فـإذا أقمت مثلا وليمة ودعوت إليهـا أصحابك فإنك ملـزم بدفع البقشيش لخدمهم.

ولقد عـدت بصفتى طبيبا أحد المرضـى ولم أتقاض أجرة عيادتـى له فما برحـت غرفته حتـى حوصرت بالخدم ولم أتخلـص منهم إلا بإلقـائى بعض النقود فى أيديهم. ولقد نـهى سمو الوالى عن هذا لعبث وشـدد فى أمره ولكنه كان متأصلا فى النفوس فلم يستطع اقتلاعه منها.

وكان من غير المسموح به للمسيحيين فى البلاد الإسلامية اتخاذهم الخدم من المسلمين لاعتبار القوم استخدام المسيحى مسلما إهـانة للإسلام وسبة. ولكن مصر ظلت بعيدة عن هذه العادة التـى دعا إليها التعصب ولولا تسامح المصريين فى هـذه النقطـة لـوقـــع الأوربيـون المقيمـون بها فى أشـد الحيرة والاضطراب بدون ريب.

(٤)

النســـاء

النساء المصريات - وسائل الزينة - تزجيج الحواجب - تلوين الجفون والأظافر والأصابع وباطن القدم - الوسيلة الصناعية لتسمين العنق - الوشم - خفض النساء - النساء التركيات - سن البلوغ عند المصريات وحملهن وشيخوختهن - الملابس - النساء الغنيات - التعديلات الحديثة التى طرأت على ملابس النساء الغنيات - نساء العامة - الميزات الممنوحة للنساء - زيارات نساء الحرم - مشاغل النساء - آراؤهن فى حالتهن - استحمام النساء فى الحمامات - حكاية رواها نابليون - أخلاق العاهرات المصريات.

٤٥ - النساء المسلمات

النساء المسلمات، وهن الشطر الأوفى من جماعة الجنس اللطيف فى القطر المصرى، متوسطات القامة يلفتن الأنظار إليهن بحسن شكلهن ويشاركن الرجال فى متانة التركيب ووثوق الأركان، ويقاسمنهم مشاق العمل الواجب عليهم وحدهم أن يقوموا به، وكثيرا ما يعلون عليهم فى أدائه . وعمودهن الفقرى مقوس وأعضاؤهن المختلفة مستديرة منتظمة وأيديهن وأرجلهن صغيرة شثنة، وأعينهن واسعة سوداء سوادا فاحما، ينقدح منها شرر الحياة، تحيط بها أهداب طويلة تزيد وجوههن حسنا وتبث فيها من الحلاوة ما يستهوى الأفئدة وأنوفهن صغيرة خفيفة الانبطاح وشفاههن سميكة قليلا وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البياض تخالف ببياضها لون بشرتهن الضارب إلى السمرة، تتفاوت سمرته بحسب ما إذا كن من أهالى الوجه البحرى أو أقاليم مصر الوسطى أو الوجه القبلى أو من أهالى المدن أو الريف. وأثداؤهن جيدة التكون حسنة الوضع وافية صلابة تحلى صدورا عريضة، لا قبل لها بالحيل الضارة التى يلجأ إليها السيدات الأوربيات لتحسينها.

أما مشيتهن ففى النهاية من الرقة والرشاقة والدلال، إذا مشين فبخطوات واسعة معينة المواطىء. وفى أوضاع أجسامهن ما يشعر بالجلال والفخامة وفى حركاتهن من اللطف والرشاقة والخفة ما يحرك ذكرى نساء العصور الغابرة وفى أصواتهن من العذوبة والرخامة واللين ما يستهوى السمع ويرتفع له حجاب الأذن خصوصا وأن عباراتهن فى أحاديثهن كثيرا ما تلابسها تلك العذوبة، فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «ياعينى» «ياروحى» «ياقلبى» إلخ ألفاظ الرقة والعطف. وإذا كان المخاطب رجلا أطلقن عليه اسم السيد أو الأخ أو غيرهما من الألفاظ التى تستروح منها رائحة الاحترام.

٤٦ ـ وسائل الزينة والتبرج

تهتم المصريات كثيرا بوسائل الزينة والتجمل لأنهن شديدات الطموح إلى الظهور فى المظهر الفاتن لعقول الرجال وقد استنبطن لإصابة هذا الغرض ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان. منها أنهن بدلا من تركهن الحواجب تنمو على طبيعتها يزججنها أى يرققنها بالإنقاص من عرضها حتى لا يبقى منها سوى خط رقيق جدا. ومنها انهن يكتحلن أى يصبغن باللون الأسود منابت شعر الأجفان ويستعملن لهذا الغرض مسحوقا أسود يسمونه الكحل أو الاثمد يضعنه فى إناء صغير من الفضة أو البللور يسمى المكحلة يدخلن فيها عند الاستعمال الميل (المرود) الذى يرفعن المسحوق به إلى الجفون فإذا تكحلن على هذا الوجه بدت أشفار الأجفان سوداء براقة، وإذا لم يسرفن من الكحل حصلن على نتيجة حسنة تبدو عيونهن بها فى أجمل ما يكون. ويضعن فى مكان يخترنه من الوجه الخال الصناعى كما يضعنه على الرقبة والنحر.

ويصبغن اظافرهن والأجزاء الناتئة من باطن سلاميات الأصابع وباطن القدمين وأطراف أصابعهما باللونين الأسود والأحمر. يحصلان عليهما بورق شجيرة الحناء. فإن هذا الورق إذا سحق وبل المسحوق فى الماء تكونت منه عجينة توضع على الأيدى بتقسيم فنى لايعلمه غيرهن. فإذا نزعت فى الصباح وجدت تاركة اثرا جميلا جدا، والمفهوم أن الغرض من هذه العناية أظهار بياض بشرتهن وحسن لونهن.

٤٧ ـ الوشم أو الدق

اعتاد نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وأذقانهن وسواعدهن وأيديهن.

٤٨ ـ خفض النساء أى (ختانهن)

تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ناهزن السابعة أو الثامنة، إذ يؤخذن إلى الحمام وفيه تؤدى تلك العملية الموكلات بها بواسطة مقراض ردىء. ولست أعلم أصل هذه العادة ولاسببها ، ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حدة شهوة المرأة المصرية لا ما يعزون إليها من الأسباب الصحية فإن بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجما ولا أكثر انتشارا منه فى المرأة الأوربية. دع أن الديانة الإسلامية لم تحتم حذف هذا العضو من جسم المرأة . والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع إلى استمرارها على توالى الأجيال ومر الأزمان.

٤٩ ـ النساء التركيات

النساء التركيات أجمل نساء القطر المصرى على الاطلاق. لأن أغلبهن من الجوارى الجركسيات ومنهن طائفة السرارى والحظيات فى القصور ودور الأغنياء وبشرتهن ناصعة البياض وتقاطيعهن من التناسق والجمال بحيث يمكن القول بأنهن أجمل نساء الأرض طرا.

٥٠ ـ سن البلوغ عند المصريات وسن الشيخوخة

تبلغ نساء مصر سن الحلم فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن، ويصرن لهذا السبب أمهات فى الثانية عشرة وجدات فى الرابعة والعشرين وجدات لوالدات فى السادسة والثلاثين وجدات لجدات فى الثامنة والأربعين، وليس من النادر فى مصر أن يرى الإنسان نساء معاصرات للطبقة الخامسة من سلالتهن.

وبلوغ النساء المصريات الحلم فى تلك السن يؤدى غالبا إلى ذبول زهرة شبابهن. بحيث لايبعد أن ترى مصرية فى الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرو المرأة الأوروبية فى الخمسين من عمرها. وقد اجمع المؤرخون من قديم الزمان على سرعة قابليتها للحمل. والمصريات

اللائى يصبن بالعقم ينظر إليهن بعين الاحتقــار والامتهان، لذا تراهن دائبات على البحث عن الوسائل الكفيلة بحملهن، ودخولهن فى ديوان الأمهات.

٥١ ـ لباس السيدات الغنيات

نســاء العظماء وذوى الحيثيـات يمتـزن على ســائر النســاء بما تجمـع ملابسهـن على تنوعهـا من أسبـاب الزخـرف والزينـة والتبرج من زركشـة بالـذهب والحريـر والكشمير ذى الألوان الساطعـة ومايتعلـق بكل ذلـك من التوشية وغيرها. وفيما يلى بيان الملابس المختلفة الخاصة بالسيدات:

قميـص مـن حريـر الموسلين أو القماش الـدقيـق السلك أو الكـريـب أو الأنسجة الثمينـة، ويكون إما أبيض وإمـا على ألوان كالـوردى والبنفسجى والأسمر والأزرق السماوى أو الأسـود أحيانا. ويزركـش غالبا بـالحرير أو أسلاك ذهب لامعة ويكون فى العادة واسعـا جدا وعريض الأكمام وقد لايهبط إلى الركبة فيغطى الجزء الأعلى من الملبس الذى يتخـذ من التيل الدقيق السلك وإما من حرير الموسلين.

شنتيان عريض القماش ينـاط بالخصر بواسطة تكة تمر فى باكيـة بأعلاه ويربط من أسفـل بالساق ويهبط من موضـع ربط ســابلا الى القدمين فيكون أشبه شـىء بالجونيلا.

يلك (أى ثوب) يلتصق بالقامة عند الحرقفتين فيصفهما إلى القدمين، وهذا الرداء مقور بحيث إن مكان النحر منـه لايغطيه ولايثبته فى مكانه إلا القميص وهو يحتوى أزرارا مـن أمامه تتلو بعضها بعضـا من فوق إلى تحت الحزام، ويكـون مفتـوحـاً من الجانبين مـن ابتـداء الحرقفتين، والكمان يـلاصقـان الذراعين ثـم يذهبان متسعين شيئا فشيئـا من الكوع ويهبطان حتـى يعادلا أسفل الثوب وقد ينتهيان عند المعصمين.

حزام يحيط بالوسط، وهو إما مـن الشال الكشميرى أو مربع من حرير الموسلين أو من أى قماش آخر كالشيت بحسـب تفاوت درجات اللابسات فى الثروة. فإذا كـان الحزام عبارة عن مربـع من الحرير فانـه يطوى على اتجاه أحد القطريـن ثم يوضـع على أسفل البطـن وتبقى زاوية من زوايـاه من خلف

الجسم، ثم يعاد بطرفيه إلى الأمام حيث يثبتان بعقدة أو مشبك. وبهذه المثابة يكون الحزام المحيط بالجسم غير ضاغط له فى أى جزء من الأجزاء التى يلامسها.

وتلبس السيدات فوق اليلك جبة من الجوخ فى فصل الشتاء، وينتهى كما هذه الجبة عند الكوع وتقور من الأعلى ولا تلتقى حافتاها فوق الصدر. ولذا تبقى مفتوحة على الدوام، وتكون إما سانجة بسيطة أو مشغولة بالتطريز وبعض السيدات يستعضن عن الجبة بلباس آخر معروف عندهن باسم «السلطة».

أما القلنسوة - أى لباس الرأس فعبارة عن طاقية حمراء صغيرة يلف حولها على شكل العمة منديل أو أكثر من قماش الكريب أو حرير الموسلين الأبيض أو المرسوم أو المزركش بصنوف الزخرف.

وفى مقدمة الطاقية تثبت صفيحة مستديرة مكورة يبلغ طول قطرها ثلاثة بهامات تقريبا وتسمى بالكور، ونساء الطبقة الدنيا يتخذن هذه الصفيحة من الذهب فقط.. أما نساء الأغنياء فيتخذنها كذلك مرصعة بالأحجار الكريمة.

وترسل شعور القسم الأمامى من الرأس مجعدة بشكل الخلقات أو الصدغين أو ترفع الى فوق بالشكل المعروف «بالباندو» والنساء المصريات كنساء أوروبا يجمعن شعورهن خلف الرأس ولكنهن بدلا من رفعه إياه عليه يرسلنه إلى الظهر ويعقصنه ضفائر صغيرة يختلف عددها من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وثلاثين، ويهتممن الاهتمام كله فى أن يكون عدد هذه الضفائر فرديا ويدخلن فى تركيبها ثلاثة خيوط خفيفة من الحرير وتنتهى كل ضفيرة بحلية ذهبية أو بقطف من اللؤلؤ أو بقطعة نقد مثقوبة من الحافة. ومجموع هذه الضفائر منسقة على الوجه السالف يسمى بالصفا.

ثم أن المصوغات واللآلىء والأحجار الكريمة من الماس وغيره تكثر فى زينة تلك النساء، فيكون منها الأقراط فى الآذان والعقود العديدة والقلائد فى النحور والخواتم الساطعة الضياء فى الأصابع.

والسيدات المصريات بوجه عام لا يلبسن الجوارب. ومع هذا فبشرة أقدامهن من النعومة بما لاتختلف به عن بشرة أيديهن لأنهن يغسلنها غالبا

بالماء المعطر ويعنين بتنظيفها ويقلمن أظافرهن بالحناء. واللائى يبالغن منهن فى التأنق ويذهبن المذهب البعيد فى التبرج يحلين أصابع أقدامهن بما يحلين به أصابع أيديهن من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ويلبسن فى أقدامهن حذاء يسمونه (المزد) من الجلد الأصفر أو القطيفة المشغولة بالحرير أو القصب لاحافة له من الخلف، لذلك يرى الكعبان ظاهرين للعيان، ويقوم المزد فى أقدام النساء مقام الجوارب. لأنهن يبقينه بأقدامهن أثناء ذهابهن إلى الدواوين والسجاجيد. أما إذا أردن السير فى مكان آخر فإنهن يلبسن من الأحذية نوعا يقال له البابوج وهو حذاء من الجلد الأصفر طرفه دقيق ملتو إلى فوق، وإذا أردن الخروج وضعن أرجلهن وسيقانهن فى أحذية صغيرة من الجلد الأصفر صونا للساق من وقوع النظر عليها.

إن اللباس الذى وصفته الآن خاص بداخل الحرم، وهو فى بعض أجزائه على غاية الحسن. ولكن اللباس الذى تتغطى به النساء بين الجمهور يجعلهن شبيهات بالراهبات عندنا، أو بعبارة أخرى بمن يلبسن الثياب المعروفة بالدمينو فى مراقصنا.

فإنهن إذا أردن الخروج أفرغن على أجسامهن فيضا من الحرير الأسود يسمينه «السبلة» ثم يغطين هذا القميص بإزار واسع جدا من حرير الحبر (التافتا) ويسمينه بالحبرة. وهو يغطى الجسم كله. وهناك إزار آخر من حرير الموسلين يستر من وجه المرأة المصرية إذا لبسته، كل شىء إلا العينين وحبرة المتزوجات سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات اللائى لم يتزوجن فإنها بيضاء اللون، ونساء الطبقة الدنيا اللائى لايستطعن اقتناء الحبر من الأقمشة الحريرية يتخذن هذا اللباس من نسيج الخيط والقطن ذى الأرضية الزرقاء ويسمينه «الملاءة».

٥٢ ـ التغيرات التى أدخلت على ثياب نساء الأغنياء

إن الزى الحديث فى الثياب لم تصل عدواه إلى النساء المصريات ورجالهن. ومع هذا فقد أخذ اللباس المصرى، منذ سنوات قليلة، يتغير شيئاً فشيئاً بتأثير التحسينات التى أدخلت عليه– مثال ذلك لباس الرأس عند السيدات أصبح غير مثقل بالعمائم الكبيرة المرصعة بالجواهر، وهذا فضلا عن أن الصفا نفسه كاد يزول استعماله على أثر اعتياد النساء ضفر شعورهن

ورفعه فوق الرأس.

ولم تعد النساء يتركن القميص فوق الشنتيان كما كن يفعلن سابقا، كما أن اليلك لم يبق بطول اليلك الذى كان شائع الاستعمال قبلا. إذ أصبح كماه منتهيين عند المعصمين ولم يكن مقورا على الصدر بل صار يزرر فوق هذا الجزء من الجسم ويلتقى طرفاه به كما فى ثياب الأوربيات. أما الجبة فقد أصبح استعمالها مقصورا على الطاعنات فى السن وشاع استعمال الجوارب بين نساء الطبقة العليا وتركت الملابس المزركشة بالذهب فى زوايا النسيان وحل محلها نسيج حرير الموسلين الساذج..

وبالجملة فقد تمت هذه الإصلاحات وأدخلت على اللباس المصرى فجعلته مطابقا للذوق السليم ومانعا من الإسراف فى النفقة والاسترسال فى الزخرف الذى لامعنى له.

٥٣- نساء الطبقة الوسطى

يلبس نساء الطبقة الوسطى بدلا من قميص التيل قميصا من الحرير وحذاء يسمى با لمركوب يمكن أن يقال أن أقدامهن لاتشعرن فيه بضغط ما عليها.

٥٤- نساء الطبقة الدنيا

أما لباس نساء العامة فأكثر من اللباس السابق سذاجة. لأنه عبارة عن قميص واسع من القماش الأزرق عريض الكمين جداً يلبس فوقه قميص أبيض ولباس. وهن بوجه عام لايحملن الأحذية فى أقدامهن.

٥٥- مساكن النساء والحرم

فى منازل الأتراك قسم منفصل عن القسم الذى يسكنه الرجال أو الذى يجتمعون فيه . وهو خاص بسكنى النساء ويسمى «الحرم» والفكرة الشائعة عن الحرم فى أوربا لا أثر لها من الصحة ولا نصيب من الصواب. فإن هذه الكلمة مستعملة فى المعنى الذى يؤخذ من لفظ السراى أو القصر. والحال أن المسلمين يطلقون كلمة الحرم ليس فقط على المسكن الذى يقطنه النساء بل مايحتويه هذا المسكن من الساكنات ـ أى على المحل والحال.

وليس فى التقسيم الداخلى للحرم ما يعد خارجا عن القواعد المألوفة. فإنه

يحتوى ـ كالمسكن الخاص بالرجال ـ ديوانا أى غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وتستقبل الزائرات، ثم حجرة لكل منهن وغرفا تابعة لهذه الحجرات لسكنى جواريهن وخدمهن وحفظ حاجاتهن المنزلية. ورب البيت يجتهد بقدر الإمكان فى تجنب أن يكون لهذه الحجرات نافذات تطل على الشارع، ولذا تستمد الضوء والهواء من نافذات تطل إما على الحديقة وإما على صحن البيت، والنافذات ذات حواجز من الخشب المشغول بحسب الفنون المستظرفة فتحول دون نفوذ الأشعة الشمسية وأشعة أنظار الذين يحاولون استكشاف ما وراءها.

والفكرة السائدة فى أوربا عن الحرم أنه مهد للفسق والفجور وبؤرة للعهارة اتخذتها أمة فاسقة لتمتعاتها الشهوية العديدة والمضى فى تيار الفساد الذاهب بالعقل. وهذا هو الوهم الباطل بعينه. فإن الحرم يسود فيه نظام أساسه الشدة والقسوة وتنتشر عليه ألوية الصيانة الدقيقة.. وهذا وذلك مما يجعله أقرب فى الشبه إلى الأديرة الخاصة عندنا بالنساء.

٥٦ - الهيئة التى يتألف الحرم منها

لايذهب الوهم بالقارىء إلى أن المقصود بوجود النساء فى الحرم الاستعداد لإطفاء شهوات رب البيت .لأن حرم الرجل الغنى يقتضى التوسع فى المعيشة والاسترسال فى المظاهر ويتطلب وجود عدد عظيم من الخادمات للقيام بحاجات الخدمة الداخلية. وتكون هاته الخادمات عادة من السودانيات ، وهذا وحده يكفى لإدراك الحالة التى يصير إليها الحرم إذا جاز أن يتألف من السواد الأعظم من نسائه.

ثم أن لكل زوجة من زوجات رب البيت بلاطا صغيرا خاصا بها يتألف من جوارٍ مخصصات لخدمتها بالذات يؤدين حواليها الواجبات المطلوبة من الخدم فى بيت أحد الرجال، ولكل زوجة كاتمة سر وخازندارة ووصيفة، ولكل منهن وظيفة موكولة إلى عهدتها فمنهن من توكل إليها الخدمة على الطعام أو تدبير شئون الثياب، ومنهن من تكلف بتجهيز القهوة أوالشبك وتقديمهما إلى الشاربات والمدخنات..الخ.

ومن بواعث الشرف للزوجة أن يكون عدد جواريها كبيرا. لأنها إذا خرجت

صحبنها وسارت هى فى طليعتهن افتخارا بأنهن على كثرتهن من توابعها. وكان المماليك فى الزمن السابق يرون أن الفخر كل الفخر فى أن يسيروا وفى صحبتهم العدد العظيم من الخدم والحشم إظهارا لما كانوا فيه من الثروة والنعيم والصولة.

ولكل من تلك الجوارى اللائى يشغلن لدى الزوجات تلك الوظائف المختلفة طائفة من الخادمات. فيزداد بهذا النسق عدد النساء فى الحرم ويتضاعف بازدياد وتضاعف عدد خادمات الزوجات وخادمات خادماتهن. ومن ثم يمكن ان يقال إن فى الحرم المؤلف من مائتى امرأة أكثر من مائة وخمسين يجهلن رب البيت. ولست فى حاجة إلى التأكيد بأن الحرم المؤلف من مائتى امرأة نادر جداً فى أيامنا ، وأن أكابر موظفى الدولة وحدهم هم الذين لايعجزهم الإنفاق على هذا القدر العظيم من النساء.

٥٧- المعيشة فى الحرم

لاترى النساء المسلمات فى بقائهن بداخل الحرم شقاء وعذابا، لأنهن ولدن فى دائرته وبلغن فيه إلى سن الشباب بدون أن يعلمن أن على وجه الأرض مقرا لنوعهن. يخالف هذا المقر ولا طريقة للمعيشة تناقض مادرجن عليه منها فى كنفه. فلقد كان الحرم المعهد الأول لألعابهن فى طفولتهن وأفراحهن وآلامهن وآمالهن فتعاقب الفرح والألم والعمل والراحة فى معيشة الحرم الشرقى هو بعينه تعاقب هذه المؤثرات على مسرح الحياة الذى فتح العرب أبوابه لنسائه.

ولقد قيل بحق. وهو قول قاله الحكماء منذ زمن طويل «أن العادة طبيعة ثانية». فمعيشة الحرم من هذا الوجه تنزل من النساء المسلمات منزلة العادة لأنهن إعتدن الحركة فى حدود هذه الدائرة فلا يخطر ببالهن أن يتعدينها ولهذا وقفت أفكارهن ورغباتهن عند هذا الحد بدون تكلف وعناء لاعتبارهن إياه مما قضى به الزمن والدين والعادة . وهن إذا بلغن سن الزواج وخرجن من حرم الأم إلى حرم الزوج أحاطت بهن الأفراح والمسرات الجديدة وواجهت أفئدتهن السعادة المأمولة من الحياة الجديدة. لأن التربية التى تربينها لم تضرم فى هذه الأفئدة ضرام الشهوات المخوفة. دع أن العناية التى يلقينها من أزواجهن تجعل الطريق الموصل إلى تلك السعادة سهلا ممهدا.

وكل ما يملكه المسلم من حسن ونفيس يخصصه لحرمه، وهو يميل إلى

إعطاء مسكن نسائه رونقا من الجلال والفخامة. بينما يكتفى بالمسكن البسيط لإقامته، ويقتصر فى الزخرف ومظاهر الأبهة على اقتناء السلاح والخيل. ومع ما استقر فى الأذهان من أن النساء المسلمات رقيق لأزواجهن فإن لهن كما بسائر البلاد نفوذا عظيما وبأسا شديدا . فكم من الحوادث السياسية كان الباعث عليها سرا كمينا = دفينا = فى الحرم وكم من سلطان رضخ لما لا يستطيع مقاومته من رجاء حظيته المكرمة. فعين فى منصب الوزارة من أشارت عليه برفعه إلى هذه المرتبة السامية أو رقى من شاءت ترقيته من ضباط البلاط.

فالاستفادة من سلطان النساء الحظيات ودالتهن على أزواجهن أمر لايحتاج إلى زيادة البيان. والسيدات المسلمات ، إذا تزاورن حصلن لأزواجهن أو لبعض أفراد أسرهن بلا كبير عناء فوائد جمة ومزايا جليلة يرجع فى منحها إلى الزوجات صاحبات الهيمنة والسلطان على أزواجهن.

٥٨- امتياز النساء بالنجدة

فى زمن الحرم تحترم النساء احتراما خاصا. فالمقاتل المغلوب على أمره ، إذا لجأ إلى الحرم واحتمى بحماه، لايصيبه ضير، وفى الأزمان السابقة كان مثل هذا الامتياز ممنوحا لهن بقصد الكرم والنجدة والإغاثة إذ لهن أن يحمين المحرم من توقيع الجزاء عليه والتنكيل به.

وبلغ من الأمر فى عهد المماليك أن المجرم الذى يساق إلى الإعدام كانت تعصب عيناه حتى إذا الذى فى طريقه بموكب لحرم أحد الأمراء اغتنم هذه الفرصة ليلمس طرف ثوب إحدى النساء السائرات فيه . فإن هذه الحركة التى يقصد بها الاستغاثة كانت تؤدى حتما إلى العفو عنه وإخلاء سبيله.

٥٩ - زيارة سيدات الحرم

لاتستقبل السيدات المسلمات من الرجال أحداً غير الزوج. فإذا اتفق ودعى طبيب إلى الحرم عنى بتغطية المريضة بإزارها أو بأحد الأغطية الخاصة بها وحضر العيادة أحد الخصيان. وفيما عدا هذا فالحرم مفتوح على مصراعيه لجميع السيدات على اختلاف عقائدهن وأجناسهن. وإذا وقف الناس على كثير من تفاصيل الحياة بداخل الحرم وأسرارها فإنما جاء العلم

بها عن طريق المسيحيات واليهوديات اللائى تختلفن إلى الحرم الإسلامى.

وتستغرق زيارة السيدات أحيانا أياما متعاقبة. ومتى كان بالحرم سيدة أجنبية فإن رب البيت يرى من أخص واجباته عدم الدخول فيه مهما طال أمد زيارتها به.

٦٠ - أشغال النساء

لاتتلقى النساء المسلمات شيئاً ما من العقلية لاعتقاد المسلمين أن المرأة من جهة العقل والفهم أحط درجة من الرجل. ومفهوم أن الدين الإسلامى لم يفرض عليهن بسبب هذا الانحطاط رعاية الفروض الدينية المحضة رعاية كاملة. وذهب بعض العلماء إلى الشك فى أن لهن روحا. وهن يجهلن القراءة والكتابة، ولكنهن يحاولن بعض الأعمال كالتطريز والنسيج والوشى ويزاولن الخدمة البيتية بحذافيرها ويدخلن السرور على أنفسهن فى أوقات فراغهن بالألعاب المختلفة، وقد يستحضرن إلى حجراتهن المغنيات والعوالم للتسلى بهن، وسنتكلم فى الفصول الآتية على مايقمن به فى مجالى السرور والأفراح من آن إلى آن.

أما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد، وكثيرا مايتفق أن يبعث أزواجهن بهن الى الأسواق لبيع الحاصلات المختلفة أو غيرها.

٦١- رأى النساء فى حالتهن

ما سمعت السيدات المسلمات أن السيدات الأوربيات يرثين لحالهن لما هن فيه من الاحتجاب وعدم البروز للجمهور إلا وقد اعتراهن الدهش، وقابلوا بالملاحظات المرة القارصة عواطف الرحمة والحنان التى لم يكلفن أحد بالإعراب عنها لأجلهن. فإن سيداتنا إذا سألتهن عن فائدة التزين والتجمل إذا كن مرغمات على سترهما عن الأنظار فضلا عن احتجابهن وراء الستار أجبن: «إنا إذا تزينا وتجملنا فإنما لأجل سيدنا ومولانا نفعل ذلك. أما أنتن فلغير أزواجكن من الرجال والنساء تتزين وتتجملن».

وإذا قال لهن أحد إن حالتهن تستدعى الشفقة لعجزهن عن الخروج والذهاب حيث يشأن أجبن على هذا العطف بقولهن: «إنكن لأسوأ حالا منا لأننا إذا شئنا أن نشترى شيئاً جاء التاجر إلى بابنا وعرض بضاعته علينا، أما

أنتن فلا بد لكن من الذهاب إلى حانوته» الخ.

٦٢- عادة الاستحمام فى الحمامات

تذهب النساء المسلمات غالبا إلى الحمامات وحمامات البخار هذه أحد اجتماعاتهن المألوفة يأنسن فيه بعضهن ويروين على مسامع بعضهن نتفا من حوادث الحياة المنزلية فيما يتعلق بأشخاصهن أو بما يتخذنه من التدابير للزواج.

٦٣- حكاية نابليون بونابرته

أورد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى إبرازها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على أن إقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الأحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال.

قال: «تزوج الجنرال مينو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات. إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها أوفق المجالس ويقدم إليها خير الأطعمة وأشهاها، وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه. فلما روت تلك المرأة هذه الأمور على صاحباتها فى أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الأمل فى تغير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضا قدمنه إلى السلطان الكبير- بونابرته- ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل مايعامل «مينو زوجته الرشيدية به».

٦٤- طباع النساء وأخلاقهن

يتعلم النساء المصريات فيما يتلقينه من التربية عن أهلهن الطاعة والاحترام. وإذا كن لارابطة تربطهن بالرجال فمن النادر أن يستطعن التفرغ للتدابير والحيل الغرامية، وبهذه المثابة كان شرف الأزواج بالشرق فى مأمن منه فى الغرب. ولابد لنا من القول هنا بأن النساء المصريات. مع محافظتهن على فضيلة العفاف واستمساكهن بعروتها الوثقى إلى وقت زواجهن حيث يلزمن بإقامة الدليل القاطع على بكورتهن لايلبثن أن يصرن بعد زواجهن أقل حرصا على كرامتهن. ذلك لأن كرامة النساء ـ أى العفة لم تكن مرتكزة فى

الشرق على قواعد وطيدة من الأخلاق. فإذا وقين أنفسهن شر العار، فما ذلك إلا لخشيتهن بأس أزواجهن لا لاحترامهن أنفسهن أو حرصهن على كرامتهن. وهذا هو السبب الذى جعل الأزواج يضيقون عليهن الخناق ويأخذون عليهن الأطراف بالدأب على مراقبتهن. علما منهم بأن صيانة شرفهم لاتتأتى إلا عن طريق اليقظة والانتباه فى المراقبة والحكمة فى التدابير والاحتياطات التى تتخذ لذلك.

وميل النساء المصريات شديد الى المضاجعة لانهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة . فلا جرم إذا رغبن فى الكسل وطبعن على اللين والتفنج وأن لا يكون لهن هم سوى استهواء أزواجهن إلى الإعجاب بهن ومنهن من يعكفن على شئون البيت، ولكن إدارة هذه الشئون فى الشرق أقل صعوبة منها بكثير فى أوروبا.

وليس بالإمكان العثور فى مصر على امرأة متزوجة تعيش عيش الخليلة مع رجل آخر غير زوجها.

٦٥ - العاهرات

تحرم الديانة الإسلامية، كالديانتين الموسوية والعيسوية العهارة تحريما قاطعا مانعا، ولذا كان وجودها فى الديار العثمانية نادرا جداً ، ولكن مصر التى خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة. ولاسيما فى ارتخاء حبل الأخلاق، تجاوزت الحد فلم تنتصر على قبول العهارة فى إجازتها بل كانت تجبى من العاهرات مبلغا جسيما يدفع سنويا لخزانة حكومتها، وكانت طائفة العاهرات فيها إلى عهد قريب منا طائفة معروفة ذات رؤوس يهيمنون عليها وأنظمة خاصة تسير على منهاجها. وقد عدلت الحكومة فى آخر الأمر عن جباية ذلك المال منها برسم خزينتها. بل وقررت منعها إزالة لوصمة وجودها وعار الاعتراف بها.

نعم لايزال يوجد حتى الآن عدد عظيم من النساء العموميات إلا أنهن يزاولن حرفتهن الساقطة الدنيئة سرا لاجهرا كما كان الأمر قبلا. ومع أن قرار الحكومة بصددها يرمى إلى غرض أدبى أخلاقى بحت. فما نذكره هنا مع مزيد الأسف أنه أفضى إلياإتساع نقيصة أشد خزيا وعارا من نقيصة العهر ألا وهى اللواط. وليس من المستحيل تجاه تفاقم هذه المخزاة الجديدة أن

تنتبه الحكومة لها وتدرأ سوء مغبتها، بعد أن يستقر فى خلدها أن غض النظر عنها مفض حتما إلى تجويز العهارة والرضا بوجودها.

والذى اعتقده أن هذه البلية الاجتماعية يعززها فى القطر المصرى العبث بالطلاق وإرخاء العنان للأزواج فى تطليق زوجاتهم أكثر مما يعززها المزاج الخاص الذى يحمل المصريات على الأفراط فى قضاء شهواتهن. فإن نظرة واحدة فى أحوال العاهرات تكفى للإقناع بأنهن بوجه عام من النساء المطلقات اللائى أنفن ذل المعيشة الزوجية وأبين ضيمها أو اللائى لم يستطعن بعد طلاقهن التزوج ثانيا فلم يجدن للارتزاق بابا مفتوحا غير المضى فى تيار العهر والفسوق.

٦٦ - الخصيان

يجدر بنا - وقد بلغنا إلى هذه النقطة من موضوعنا - أن نذكر شيئاً عن الخصيان الموكول إليهم حراسة الحرم ومراقبته. فإن الخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة أزواجهن. وليس ببعيد أن يراهم الإنسان فى الوقت نفسه وقد اكتسبوا ثقة الأزواج والزوجات للتغرير بالفريقين وإدخال الغش عليهما.

واستخدام الخصيان يرجع إلى الأزمان القديمة فى التاريخ. فقد روى أن الملكة سميراميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا واحتفظ اليونان فى عهد دولتهم الأخيرة التى كان مقرها القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان، وكان أحدهم وهو الخصى (نرسيس) أكبر قوادهم بعد (بليزير) ورفع من شأنهم زمنا فى البلاد الإيطالية.

ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصى (الجب) فقد عكف المسلمون عليه وبالغوا فيه، بحيث يخيل للإنسان أن هذه العادة الوحشية ملازمة لتعدد الزوجات ملازمة لا مفر منها.

وفى بلاد آسيا وأوروبا لايفوز بامتياز الحصول على الخصيان واقتنائهم غير العظماء والأثرياء. أما فى إفريقية - ولا سيما فى القطر المصرى - فإنهم أكثر انتشارا لسهولة الحصول فيهما على العبيد اللائقين لعملية الجب.

٦٧ - معاهد الجب

عملية الجب لاتجرى الآن فى غير القطر المصرى فهذا القطر أصبح المورد التى تستورد منه الخصيان برسم حرم العظماء والأثرياء فى كل مكان. وصناعة الجب فيه رائجة رابحة يزيد فى ربحها شدة الإقبال عليها وغلاء ثمن التعساء الذين تجرى عليهم تلك العملية القاسية.

ومدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتان من مدائن القطر المصرى اللتان تباشر تلك العملية الشائنة فيهما. ومن كان يخطر بباله أن الموكلين بمباشرتها جماعة من المسيحيين، وأنهم من رجال الاكليروس القبطى؟ هؤلاء الناس الذى أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية بالإنسانية موضوع احتقار السكان فى تينك المدينتين لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياء من الجريمة فى حق المروءة والإثم الغليظ ضد الإنسانية.

وقرية زاوية الدير القريبة من أسيوط عاصمة السفاكين السفاحين الذين يقومون بعملية الجب. وهم يرتكبون جرمها الشنيع على نحو ثلاثمائة شخص فى كل عام ويختارون هذه الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات الى تسع وتأتى بهم قوافل الجلابة من سنار ودارفور. ويباع هؤلاء التعساء بحسب ما يكون من حظهم فى الحياة بعد إجراء العملية عليهم وبحسب المزايا المتوافرة فيهم من ١٥٠٠ قرش إلى ٣٠٠٠.

٦٨ - عملية الجب

تعمل هذه العملية عادة فى فصل الخريف باعتبار أنه أوفق فصول السنة لنجاحها . ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول وبعد إلقاء الزيت يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى المعذب على هذا المثال فى الأرض إلى ما فوق البطن وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعة وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من طين الابليز والزيت.

٦٩- تعظيم الخصيان

إن نحو الـربع مـن الغلمان المساكين الـذين تجرى عليهـم هذه العمليـة الشنعاء لايعيشون بعدها. أما الباقون فيقضون حياتهم فى الضعف والآلام. نعـم إن المسلمين يحوطونهم بكـل ما هـو مستطـاع من الاحترام والـرعايـة والتكريم .. حتـى أن كبير الخصيان فى الآستانة العليـة مثلا يعد من أعـاظم رجال الحاشية السلطانية، وأن السلطان محمود رفع أحد خصيانه إلى مرتبة الباشوية وعهد إليه قيادة جيوش الـدولة ولكن الحقيقة التى لاريب فيها أن لا آية من آيـات الشرف والترفيع ولاشارة من شـارات الحظوة والفوز بالـرعاية تعدل فقدان الرجل صفته الخاصة به وعلامته المميزة له على غيره.

٧٠ - العلامات المميزة للخصيان

بوجه عـام يعرف الخصى بمظهره الخارجـى وهيئة جثمانه. فإنـه يكون أمرد سليـب اللحية والشاربين وبجسمه ميـل إلى السمن وفى صوته خنـوثة. وتبدو عليه فيما عدا هذه الصفات، علامات التكبر فى كربة، ووجوم، وتشاهد فيه نزعة إلى الأذى والخوف وسرعة الغضب. وهى نتائج طبيعية لما يشعر به من سقوط شـأنه وانحطاط مكانته بـزوال أخص صفة للرجولـة عنه. ويميل عادة إلى مظاهر الصلاح والتقوى، إذ يـرى فى القيام بفروض الدين على وجه التشدد تعويضا لـه عما أصابه من النقص فى جثمانه. ومـن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون إليهن. بل أن فيهم من يتزوجون بهن.

٧١- منع الجب

إذا كانت ثمة جريمة نحسب أن الهيئـة الاجتماعية بأسرها قد اشتركت فى ارتكابها، وأن لا جريمـة تفوقهـا فظاعـة وشنـاعة فـإنما هى عـادة إتخاذ الخصيان وبقاء هذه العادة حتى الآن..

ولقد حمل كبار الفلاسفة والمفكريـن وبعض رجال الحكومات العاملين فى أيامنـا هذه الحملة الشعواء على الاسترقـاق وها نحن أولاء نـرى أوربا تسير سيرا حثيثا فى الطريق المؤدى إلى إلغائه، ولكن عادة اتخاذ الخصيان فضيحة كبرى للطبيعة وهتك مخز لأستار النواميس الطبيعيـة والخلقية. والغريب مع هذا أننـى لا أعلم أن بين الشعوب التى تتـولى زعامة الحضارة العصريـة من

استجمعوا قواتهم وجهودهم لمكافحة عادة إتخاذ الخصيان.

وتداخل أوربا اليوم فى شئون الدولة العثمانية ذلك التداخل الذى أصابها ببالغ الضرر من جراء ضغطها عليها بأثقال المصالح السياسية والمرافق الاقتصادية المختلفة كان يمكن أن يكون نافعا ومجديا وجديرا بثناء الإنسانية وشكرها لو كان الغرض منه إدخال الإصلاحات المطابقة لروح الحضارة والمدنية. لا التى يقصد بها تحقيق تلك الأغراض السياسية.

وليس من بين هذه الإصلاحات ماهو أوجب للحمد والثناء كمنع الجب وإتخاذ الخصيان .. وأتمنى صونا لكرامة أوربا وشرفها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها فى الحصول على هذا الإلغاء من سلطان تركيا ووالى مصر، وإنى لموقن أنه يكفى لتحقيق هذه الأمنية الشريفة أن تعرب تلك الحكومات لهما عن مقاصدها الخيرية نحو الإنسانية المعذبة لترى منهما الإقبال السريع على إجابة مطالبها ، وها هو محمد على المعروف بالمسارعة إلى اتباع النصائح النافعة والمشورات النبيلة لن يتوانى فى العمل بهذه النصائح وبذا لاتصبح مصر ميدانا لجريمة لايسع هذا الجيل بعد الآن أن يتهاون فى أمرها أو يتغاضى عنها.

(٦)
الزواج وتعدد الزوجات والطلاق

الزواج- تعدد الزوجات فى مصر- الطلاق- أسباب تعدد الزوجات والطلاق فى الشرق- تاثيرهما.

٧٢ - الزواج

فى بلد تجيز شريعته ، بلا قيد، تعدد الزوجات والطلاق لايمكن أن يكون الزواج عظيم الخطر، كلا ولا من المسائل لتى يتوقف عليها مستقبل الرجل والمرأة فى الحياة كما نراه نحن. ففى الشرق لا يسيطر الحب على الروابط بين الزوجين. لأن احتجاب المرأة فى الحرم يحول دون معرفة الخطيب خطيبته التى ستربطه وإياها عقدة الزواج، - ولو بالنظر - بل غالبا ما يتم الاتفاق على تزويج اثنين من بعضهما بين أهليهما وهما لم يخرجا بعد من سن الطفولة. فإذا ما بلغا سن، الحلم قلما يستشار أحدهما فى أمر زواجه بالآخر.

فكان من المنتظر، فى هذه الحالة أن يتجلى الزفاف عن حبوط أمل وخيبة رجاء لايجد الزوج التعس للخلاص من ورطتهما غير حل عقدة الزواج بالطلاق. وفى هذا العهد بدا من جانب الأهل جنوح إلى تلطيف هذه الطريقة المنافية للصواب والعقل من وجوه كثيرة. إذ أخذوا يعدلون الآن عن خطة التشدد والتعسف ــ لا إلى جهة الرضا بأن يرى الخاطب المرأة التى اختطبها أو يحدثها ــ بل من جهة أنهم يعنون باستقصاء أحوال الخطيبين سنا وخلقا وخلقا.

وعندما يشرع فى الخطبة تذهب أم الخاطب فى لفيف من أهلها وقرابتها إلى بيت المخطوبة برسم الزيارة. فإذا وقع نظرهم عليها حفظوا ما بدا لهم من صفاتها جمالا ودمامة فضيلة ورذيلة حتى إذا عادوا إليه سردوا عليه ماثبت عندهم من أمرها. فإما أن يقبل على الزواج بها وإما أن يعدل عنه.

وفى الشرق لايمهر النساء الرجال بل الرجال هم الذين يقدمون إليها الصداق. وعند أصحاب اليسار والغنى يبلغ الصداق عادة عشرة أكياس (أى أكثر من ألف فرنك ومائتى فرنك) وهو أقل من ذلك للأيامى والمطلقات.

٧٣- تعدد الزوجات فى مصر

رأينا فيما تقدم أن الديانة الإسلامية تبيح التزوج بأربع نساء ومالا عد له مما تملك اليمين. ومعنى هذا أن الإسلام يقرر تعدد الزوجات ويدعو إليه. ومن الخطأ أن يظن أحد أن إباحة تعدد الزوجات معمول بها من جميع الناس فإن السواد الأعظم من المصريين يقتصرون على زوجة واحدة فقط، وإنه ليتعذر عليهم أن يعدوا هذا القدر مالم يكن عدد النساء فى مصر يتجاوز بكثير عدد الرجال.

والحقيقة أن عدد النساء فى هذا القطر يكاد يعدل عدد الرجال، وهو ما يؤخذ منه انحصار تعدد الزوجات فيه ضمن دائرة ضيقة جداً . لاسيما وان الإكثار من الزوجات يستدعى من النفقات الطائلة مالاقبل لأحد به ولا طاقة له عليه إلا إذا كان من أصحاب الثروات الواسعة، وهو ماجعل عادة تعدد الزوجات مقتصرة على أرباب الغنى وأصحاب المظاهر والحيثيات لاتتجاوزهم إلى غيرهم . ويتفق أن يكون للرجل من عامة الشعب زوجتان أو أكثر ولكنهن ينفقن فى هذه الحالة على أنفسهن من صفوة أموالهن . ومن

المسلم به أن متوسط عدد الزواج الذى تتعدد فيه الزوجات بالقطر المصرى لايتجاوز خمسة فى المائة من مجموعه.

٧٤- الطلاق

من الأنظمة المرتبطة بتعدد الزوجات بروابط عديدة الطلاق، وقد بلغ من الشيوع مبلغا فاضحاً مخزيا. لأنه إذا كان تحدد الطلاق يبيح للرجل الإمساك بقدر مايريد من الزوجات فإنه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهن ـ على شريطة أن يخلفن بعضهن البعض فيتعاقب استمتاعه بهن بتعاقب الاقتران وتواليه، وتعدد الزوجات والطلاق متحدان فى طبيعتهما لانهما ناشئان عن أسباب بعينها، ولابد طبعا أن يفضيا إلى نتائج متشابهة ويعقبها آثار متجانسة.

ولقد سبق أن، قلت إننى لا استبعد وجود مسلمين فى القطر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ولكن هذا من النوادر التى لاحكم لها. والمألوف المعروف وجود من تزوجوا وطلقوا عشر زوجات أو اثنتى عشرة زوجة أو عشرين، ويخالف الأتراك المصريين فى ذلك فإنهم يحرصون على عقدة الزواج ويصونونها من الإنحلال أكثر من هؤلاء. وتعدد الزوجات لايلجأ إليه كما لا يلجأ عندهم إلى الطلاق إلا إذا كانا الوسيلة الوحيدة للخلاص من ضيق شديد.

٧٥ - أسباب تعدد الزوجات والطلاق

تمتاز الروابط التى تصل الرجل بالمرأة فى الشرق بصفات خاصة بها ومناقضة على خط مستقيم للصفات المميزة فى البلاد الأوربية، ولقد أمعن الفلاسفة النظر فى هذا التباين واقتفى أثرهم فى ذلك كتاب الصحف والباحثون فى الشئون الفسيولوجية وذهبوا فى طرق الآراء متخبطين.

أما فى الغرب فقد حافظت الشعوب جميعا من الإغريق إلى الغولو والجرمان إلى الرومان المحافظة التامة على وحدة الزوجة، وأما فى آسيا فقد أباحت شعوبها أجمعين من الفرس إلى الأتراك للرجل الاقتران بعدة زوجات..

ومفهوم أن روابط الرجل بالمرأة لكبيرة الأهمية عظيمة الخطر من الوجهة الاجتماعية ، وأنها سريعة التأثير فى الأسرة وبالتالى فى الهيئة الاجتماعية بأسرها. فمن المفيد والحالة هذه استقصاء الأسباب التى تجعل تلك الروابط

خاضعة لعوامل الاختلاف المترتب على اختلال البلدان وتباين الشعوب التى تسكنها.

والذى نعتد به فى هذا الموضوع أن السبب الأصلى لتعدد الزوجات جثمانى مادى بحت، فقد لاحظ العلامة الفيلسوف «مونتسيكو» أن بين النوعين الذكر والأنثى فى البلاد الحارة اختلافا طبيعيا وتفاوتا عظيما، قال: «إن النساء فيها يبلغن الحلم فى الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرهن، وهوما يجعل الطفولة والزواج يسيران فيها يدا بيد فتصبح المرأة التى تزوجت فى إحدى تلك السنوات عجوزا شمطاء ولن يتفق اقتران العقل عندها بالجمال. فإنه إذا تطلب الجمال النفوذ والسلطان أباهما عليه العقل، وإذا استطاع العقل الفوز بهما يكون الجمال قد تلاشت دولته وذهبت صولته. ومن ثم كان الواجب بقاء المرأة فى حكم أحد وتبعيته ــ لأن العقل لا يجعل لها فى هرمها سلطانا ونفوذا بخل الجمال عليها بهما وهى فى غض الشباب وإبان الحسن. فمن بسائط الأمور إذن أن يترك الرجل امرأته ليتخذ بديلا عنها ـ لاسيما إذا لم يكن فى الدين مانع يحول دون ذلك وأن ينشأ عن فعله تعدد الزوجات».

واعتقادى أن ذلك المفكر العظيم قد كشف بثاقب نظره وصائب رأيه عن حقيقة سبب تعدد الزوجات وشيوع الطلاق فى الشرق.

الأطفال

العناية الأولى بهم ـ تربيتهم.

٧٦ ـ العناية الأولى بهم

الغرض الأول من الزواج فى مصر استبقاء النسل وتخليد الذكر، لذا كان مولد الأبناء من الحوادث الباعثة فى الأسرة على السرور والابتهاج. وعقم المرأة فى نظر المصريين غضب من الله عليها وباعث من بواعث نفور الزوج منها وعدم رضائه عنها. وبالجملة فاحترام المرأة عندهم يقاس بحسب قابليتها للحمل والوضع قلة وكثرة. والرأى المجمع عليه أن الرجل المستقيم لا يليق به أن يطلق امرأته لكونها لم تعقب منه سوى غلام واحد، ولاسيما إذا بقى هذا الغلام على قيد الحياة.

ولو لم يكن حب الأم لبنيها فى مصر كما فى غيرها من البلدان أطهر ما بثته

الطبيعة فى فؤادها من العواطف لكان من مصلحتها أن تتعهد هذا الحب بما ينميه ويقويه. فإن الامهات يبدين الكثير من الرفق نحو أبنائهن ويتجاوزن عن هفواتهم ويحطنهم بوسائل العناية والرعاية بل ويقمن على إرضاعهم بأنفسهم. والشريعة المحمدية تبيح لهن إرضاعهم حولين كاملين ما لم يأذن لهن أزواجهن بالفطامة قبل هذه السن. والقاعدة المألوفة أن يأذن الوالد بالفطام فى منتصف الثانية من أعمارهم. وفيما قررته تلك الشريعة من ذلك ما يطابق الصواب . لأن البلاد الحارة من البلدان التى يموت فيها الأطفال بالأمراض المعوية. فلبن الأم بالنسبة لهم من خير الأغذية الموافقة لهم والمناسبة لحالهم.

وإذا لم تكن الأم فى حالة من الصحة تسمح لها بمباشرة إرضاع وليدها فلها أن تتخذ له مرضعا . فإذا كانت المرضع إحدى جوارى البيت عدت لهذا السبب من أفراد الأسرة وكسبت حقوقا مؤكدة تظهر محسوسة فى احترام الأبناء الذين أرضعتهم وشكر آبائهم لها وحسن جزائهم إياها.

ولا يحمل الأطفال امهاتهم أو مرضعاتهم وهم فى نعومة الأظفار عناء كبيرا فى تربيتهم لهم لأنهم قليلو البكاء. ولو امتنع أهلوهم من وضعهم فى القماط كما نفعل نحن بأطفالنا لنموا وابتدأوا المشى على أقدامهم منذ الشهر السادس من عمرهم.

وهم يكونون فى الغالب ضعافا نحيلى الأبدان إذا ناهزوا الثانية أو الثالثة من أعمارهم ، وتتكور بطونهم كثيرا لرداءة الغذاء، ولا شىء فى ملامحهم وهم فى هذا الدور من حياتهم يبشر بأنهم سيكونون على شىء من جمال الصورة العربية وقتما يبلغون سن الشباب.

وأبناء الطبقة العليا لا يعتنى بحسن لباسهم، تتعمد والداتهم ذلك فإذا خرجن من دورهن واستصحبنهم نزعن من ثيابهم ما يمكن أن يحكم الناظر به على يسار أهلهم وقدرتهم وجاههم. وقاية لهم من عيون الحاسدين. أما أبناء الفقراء فيجردهم أهلهم من الثياب بالمرة . وكثيرا ما تشاهد الأمهات فى الارياف والمدن وهن حاملات لهم بهذا الشكل على أكتافهن.

٧٧ـ تربية الأطفال

فى الطبقتين العليا والوسطى يربى الأطفال بداخل الحرم حتى يبلغوا السابعة من عمرهم . وللتربية الأولى كما هو معلوم أو كما فى نفس المرء. فمن

البدهى إذن أن تترك التربية التى يتلقاها المسلمون على هذا الوجه أثرا عميقا فى حياتهم.

وغير منكور أن الأطفال يكتسبون فى داخل الحرم لين العريكة ودماثة الخلق فينتهى بهم الأمر إلى أن يشبوا على شىء من الرصانة والتحفظ والبعد عن نزق الطفولة وطيشها وألاعيبها. وفى الأسرات الغنية يعود الأطفال آداب المعاشرة والاجتماع على الأسلوب المقرر فى الدين الإسلامى. فلا يبعد أن يقع نظرك على غلام فى الخامسة أو السادسة من عمره يدهشك من سلوكه مالا تجده فى خلق الرجل الكبير أو المولى العظيم من الرزانة والسمت والوقار.

وتعمل عملية الختان للطفل وهو فى السادسة من عمره أو قبل هذه السن أو بعدها بيسير وفى الأوان نفسه أو حواليه يعلم الأطفال تلاوة القرآن وكتابة آية فإذا ناهز الثامنة أو التاسعة خرج من وصاية الحرم فإن كان أهله على شىء من الغنى والجاه جاءوا إليه بالأساتذة يلقون عليهم الدروس فى بيوتهم ويتصدى آباؤهم لإرشادهم إلى الواجبات والفروض الدينية من وضوء وصلاة ..إلخ.

والإسلام يقضى أن يتعلم الأطفال الصلاة فى السابعة من العمر ويدعو آباءهم إلى ضربهم إذا لم يقوموا بفروضها فى العاشرة من أعمارهم. ومتى أشرفوا على تمام الثانية عشرة عهدت إليهم بعض الأعمال العسكرية أو المدنية ليؤدوها بإرشاد بعض الحكام وملاحظتهم.

أما الأطفال من أهل الطبقة الدنيا فيرسلون عند بلوغهم السابعة من أعمارهم إلى المدارس العامة ـ أى الكتاتيب الملحقة بالمساجد ـ وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ثم يخرجون منها لمزاولة التدريب على إحدى الصناعات بحيث لا يناهزون الثامنة من العمر إلا ولهم قسط فى الأعمال ومشاركة للعاملين فيها. وهم فى الأرياف يفيدون أهليهم فائدة جليلة بتسيير الماشية وإدارة السواقى والذين يتخصصون من الأطفال لدرس علوم الدين يباشرون تلقيها فى العاشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم. وصفوة القول أن الأطفال يبكرون بمزاولة الأعمال ويربحون منها قوتهم.

الأغذيـــــة
وآداب الطعام

الغذاء- ألـوان الطعـام- الترتيـب المتبع فى تقـديمها- المشروبـات- قهوة البن- الشربات- الحشيش- الأفيـون- الوجبة - الآنية والأوعية المستعملـة للأطعمـة- آداب الطعـام- الاقتـداء بالأوربيين فى طـريقـة الأكل- طعام الفلاحين.

١- الغــــذاء

يتناول المسلمون كثيرا من الأطعمة التى اعتدنـا نحن تناولها. فهم يحبون من اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سـواه. ويأكل أصحاب اليسـار، غير هـذا اللحم، اللحـم البقرى والفقراء اللحـم الجامـوسـى وسكان الصحـراء لحم الجمل أحيانا. ويمسك المسلمـون جميعا عن أكل اللحـوم المحرمة كلحم الخنـزير والخيل والحمير الخ.. أما لحم العجول وصغار الضـأن فانهم لايتغذون به إلا فى النـادر.. لأن الشريعـة الإسلامية تـوصـى نصوصـها بـالامتناع عن ذبح صغـار الماشية دفعا لما يخشى من انقراض أنواعها. أما الطيور فمن النادر مثولها على موائدهـم لأنهم ـ كما سبق لنا القـولـ لايميلون إلى الصيد والقنـص لتعذر ذبح الحيوانات المصيدة بعد صيدها. وهم شديدو العناية باستنـزاف دماء الحيوانات المذبوحة للتغذى بها. ولكنهم لايجارون اليهود فيمـا يتخذونه من وسائل الاحتياط لهذا الأمـر.. فمن ذلك أنهم لايـرون ضرورة فى أن يكون القـائم بذبح الحيـوانات رجلا اقتصـر فى عملـه على هـذه المهمة فـأصبحـت صفة قـائمة به لاتتعداه إلـى سواه، ولا أن تكون المديه التـى يذبح بها جامعة صفات وخصائـص لاتتوافر فى سواها الخ.

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والسمك، ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر، غير السمك، شيئا من الأنواع الأخرى كأنواع المحار والأصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم. ويحبون الألبان والبيض حبا جما، ويستنفدون المقادير الوافرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف أنواعها، ولا سيما الخباز (الخبيزة) والباميا والملوخيا (الملوكية) والباذنجان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والفول والفاصوليا والترمس والبسلة. ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئا كالبصل والخيار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحمقاء) الخ.. ومما يوجب الأسف اساء تهم الظن في البطاطس الذى لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لأفادهم فائدة لاتنكر.. وتدخل فواكه البلاد بنسبة عظيمة ضمن الأغذية التى يتناولونها.

وهم يطهون الأطعمة بالزبدة ويكثرون من ألوانها، ولكن العناية بالشطر الأكبر منها تكاد تكون معدومة.

ويجلب الزيت الذى يستنفد فى مصر من الشام واليونان، وعلى الخصوص من جزيرة كريد. وهو من الصنف الواطىء الذى لو وجد مثله فى أوربا لما استعمل فى غير الصناعة، على أنه تجلب إلى مصر أنواع من الزيت الجيد كزيت (بروفانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لايتعدى الأوربيين والأغنياء من أهل البلاد.

وزيت الزيتون يعتصر فى مصر بمقادير قليلة جدا، لان أشجار الزيتون لاتزال - كما قلنا سابقا - نادرة الوجود بها.

ويستخرج الزيت أيضا من بذور الخس والسمسم. وفقراء المصريين يستعملون فى بعض الأحيان زيت بذر الكتان المعروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم حريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل.

والبهارات شائعة الاستعمال فى المطابخ المصرية فإن الفلفل الأسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبهان الخ يستنفد فيها مقادير عظيمة.

ويكثر المصريون من استعمال الليمون . إذ هم يعصرونه على جميع ألوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البلح ولكنه ردىء النوع.

أما الخبز - الذى أشرنا فيما سبق إلى احترامهم إياه الاحترام العظيم. -

فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه، ولكن الخبز الذى يعجنونه لايجارى خبزنا فى جودته وحسن صناعته. لأنهم يضيفون الماء الكثير إلى العجينة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف شكله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا . فإنه عندهم أشبه بفطائر مستوية كبيرة.. ومنذ انتشر الفرانون الأوربيون فى القاهرة والإسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا .

٢- ألوان الطعام

من ألوان الطعام عند المصريين الحساء. وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لاتتغير، فإنه عبارة عن الماء الذى سلقت فيه دجاجة أو بعض أفراخ الحمام، على موائد الأغنياء منهم، أو قطعة من اللحم على موائد متوسطى الحال. وقد يضيفون إليه بعض الحشائش أو البقول وأحيانا نوعا من العجين المجفف يشوونه بالشعرية.

ومن الأطعمة التى يميل إليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم. ويظهر أنهم أتقنو هذا اللون وأجادوا فيه كل الإجادة.. وإذا شووا اللحم لا يشونه فى الأسياخ بل فى الأفران، بخلاف الأتراك والغربان فإنهم يشوونه فيها، وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله. وبعضهم يربطونه بحبل إلى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار ويهيىء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الكباب» وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى أسياخ صغيرة.. وإذا كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فانهم يرتبون تلك القطع فى الأسياخ بحيث تتخلل قطع اللحم الأحمر قطع من اللحم الدهنى، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوة أو فى الفرن.

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول ، وأحيانا بالزبيب وعصير العنب.

وهم يميلون كثيرا إلى الأطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور. بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ.

والأرز عندهم من الأطعمة الوطنية يأكلونه مفلفلا ، ويسمونه بالأرز المفلفل ويطهونه إما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهريز)، ويخلطون الأرز باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمونه بالورق المحشى والضلمة.

أما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة إليها. وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه لأن فطائرهم ترجع، على اختلافها، إلي فطائرمسطحة مستديرة يضعون بداخلها اللحم أحيانا أو القشدة أو الجبن الأبيض أو المربى أحيانا أخرى. وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجاراة الأوربيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الأطعمة.

وفى جميع الأحياء حوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور، ويميل العرب إلى المربات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى. ولم يعتد المصريون أن يأكلوا، قبل ألوان الطعام المعتاده شيئا ماعلى سبيل فتح الشهية مما يسميه الأوربيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحناة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الأسود وأنواع السلطات الخ. وهذه الأصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الأصناف. قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل. واذا كان الشرقيون لايجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فإنهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد ويختم الطعام عادة بالفواكه التى تثمرها البلاد كالمشمش والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضج على أمه، والمصريون يعللون أكلها كذلك بقولهم: إن الفواكه إذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها.

٣- الترتيب المتبع فى تقديم أصناف الأطعمة

تقدم أصناف الأطعمة متتابعة بعضها تلو بعض. ولا توضع أبدا مع بعضها. ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعى فى أوربا لتعاقب الأطعمة. فإنهم بعد تعاطى الحساء يبدأون بشواء اللحم ويثنون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصناف اللحم. أما الأرز المفلفل فلا يؤكل إلا فى ختام الطعام.

٤-المشروبات

لايشرب المسلمون على الطعام سوى الماء صرفا. لأن الدين الإسلامى يحرم عليهم خمر النبيذ كما حرم عليهم جميع الأشربة المسكرة. وهذا التحريم فى الدرجة القصوى من الصواب والحكمة بالنظر إلى أن طقسا كطقس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ.

والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ وغيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد، وهم الذين وقع الاتصال بينهم والأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم. ومن النادر جدا أن تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين، ولا سيما الذين أصلهم من تركية أوربا، فإن تعاطى النبيذ عندهم شائع مألوف.

والمتعاطون للخمر من المسلمين لايتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد الشارب فائدة بدنية أو نفسية، كما هو المشاهد غالبا فى حالة التعاطى باعتدال وقناعة. وما السبب فى ذلك إلا أنهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياع العقل بالسكر . جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الإدراك والمشاعر وتتعطل المواهب النفسية التعطل الذى لو شعر به أوربى لما راق له أبدا.

واستعمال العرق فى مصر أكثر شيوعا وأقل ضررا من استعمال النبيذ. والعرقى الذى ألف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح، ولكنه ردىء النوع. وأجود أنواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعا من العنب، لأنه يقطر مرارا ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ إلى ٢٥ وأحيانا إلى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جدا.

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوظة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير. وهى كثيفة القوام جدا كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الأوروبيين، ولذيذ جدا فى حلوق أبناء البلاد.

٥- قهوة البن

قهوة البن هي الشراب المختار عند المصريين وضرورته لهم كضرورة النبيذ للأوربيين. لأنهم إذا تنوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناءة وتلذذ وا بطعمه رويدا متمطقين. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى المحافظة على تعاطيها صباحا وبعد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربون فى خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا.

وصنف البن الذى يهيئون به قهوتهم فى غاية الجودة لأنهم يجلبونه من مخا (ببلاد اليمن) ويحمصونه كما نحمصه نحن تقريبا ولكنهم يختلفون هنا فى كونهم لايسحقونه بالطاحون بل يدقونه فى الهاون زاعمين أنهم بدقه يستخرجون منه الزيت الذى هو الأصل الفعال فيه.

وطريقتهم فى تهيئة القهوة بسيطة جدا. إذ تقتصر على وضع الماء على النار فى إناء القهوة (الكنكة) فإذا ما بدأ الغليان رفعوا الإناء وأسقطوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه فى الماء ثم أعادوه إلى النار مع استمرار التحريك فإذا غلا الماء وفار رفعوا الإناء نهائيا وترك زمنا ريثما يتم امتزاج الماء بالبن ثم يفرق على الفناجين. وقهوة البن المجهزة على هذا المثال لاشك فى لذتها وجودة صنعها . حتى أن كثيرين من المغرمين بشرب القهوة يفضلونها على المصنوعة منها بحسب الأسلوب الاوربى.

أما أنا فإنى مقتنع بأن فى الاستطاعة اذا اتبعنا فى تهيئة القهوة الطريقة التى استنبطها (دوبلوا) أن تكون القهوة أحسن بكثير من التى تصنع به على الطريقة الشرقية.

٦- الشربات

تعاطى المشروبات المرطبة المعروفة بالشربات كثير الشيوع فى مصر. ويقدم غالبا بعد تعاطى القهوة أو قبله. وهذه المشروبات أنواع كثيرة أبسطها الماء المحلى بالسكر والمضاف إليه ماء الورد أو ماء زهر البرتقال أو عصير البرتقال أو الليمون، ويتعاطى المصريون أيضا شراب اللوز أو بذور الشمام والبطيخ والقرع الخ. ويشربون غالبا فى نهاية كل طعام الخشاف، وهو ماء محلى

بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطر بماء الورد. وأعظم أنواع المشروبات المرطبة اعتبارا فى نظر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من ساقه ويعجن بالسكر ثم يجفف. وبعد جفاف العجينة يدق دقا ناعما جدا ثم يذاب فى الماء عند الاستعمال. ويباع فى الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخروب).

٧-الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدر قد كلف بتعاطيه الشعب المصرى. هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنب المصرى. وطريقة استخراجه أن تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير إلى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز الطيب وخلاصات الروائح العطرية. وبعد طبخها تصنع منها أقراص صغيرة ضاربة اللون إلى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق. ويكفى للمرء أن يبتلع منه قطعة بحجم البندقة ليشعر فى الحال بنتائج تأثيرها. وفى بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب. وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء. وفى الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن ما يحرق فى نوع من الشيشة يسمى الجوزة. وهو فى هذه الأحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبة لاتلبث أن تتحول إلى أقوال وأفعال شاذة.

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جدا، وكان شائعا فى الأقطار الهندية منذ العصور الموغلة فى القدم. وروى المؤرخ (هيرودتس) فى الفصل الخامس والسبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحيثيين كانوا يستعملونه فى حفلاتهم الدينية. وقد ذكره أيضا الحكيم (جالينوس) وشاع فى بلاد الفرس على أثر اتصالهم بالهنود. فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى إلى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها. والمحتمل أن الشيع المتعصبة التى زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل إنما كانت تعمل تحت تأثير الحشيش . ومن ثم سموا بالحشاشين، وهو اللفظ الذى حرفه مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التى أطلقوها على أولئك الأقوام ولاتزال موجودة فى معجم لغتنا حتى اليوم.

وفى أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب، فهو محصور بينهم - كما قدمنا - يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى القهاوى العامة

وفى حوانيت خاصة به تسمى (المحاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطى الحشيش تستعمل أيضا فى لغة القوم للسباب والشتم.

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيرا بالغا من الشدة والقوة الغاية القصوى. والظاهر أنه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين. فيصبح مخ من يتعاطاه يلتمس منه الغيبوبة والخدر مركز ازدواج أفكار غريبة بأحلام خيالية مضطربة. وبالجملة فان الحشيش يحدث تأثيرا يشعر صاحبه بشىء من الهناءة ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقة إلى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشذوذ. وهو يثير الشهية إلى الطعام، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى إلى النوم الذى تخالطة الأحلام السعيدة. على أنه لايصيب الرأس بصداع ما ولا التنفس بشىء من الصعوبة والعناء، وهو كجميع المشروبات التى تزعزع أركان المجموع العصبى يصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله إلى الحيوانات العجم أقرب منه إلى بنى الإنسان.

٨- الأفيــون

الأفيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى، ولكنه شائع بين الأتراك الذين يميلون إلى التخدر به. وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظرإلى مافطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل. أما الحشيش فالمصريون أميل إليه من غيرهم لأن التأثير الملازم له يتفق مع ما جبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاخترع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب.

٩- وجبات الطعام

للمصريون وجبتان فى كل يوم. الأولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة، مهما يكن اختلاف الفصول. أما الأولى فيسمونها « الغداء» والثانية «العشاء» والعشاء هو الوجبة الأساسية. وهذا هو سر العادة الشائعة عندهم من طهى الطعام بعد الظهر. وإذا لم يكن عندهم مدعوون لتناول الطعام فإنهم يحفظون ما يبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم الالى. والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الأمة أن لا يأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده.

ولما لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شهر رمضان أن يتعاطوا شيئا ما

خلال النهار فإنهم لايتناولون طعاما إلا فى الليل. فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهى الصوم وبدأوا بتناول طعام الإفطار. وقبيل نصف الليل يستأنفون كرة الأكل، ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسن ما يروق فى الأذواق من شهى الأطعمة.

١٠- الآنية والأوعية المستعملة فى الطعام

قبل أن يجلس المسلمون إلى موائد الطعام يغسلون أيديهم ، وفى بعض الأحيان أفواههم بالماء والصابون. وذلك بأن يتقدم أحد الخدم إليهم ومعه طست إبريق من النحاس أو القصدير أو الفضة، إذا كانوا أغنياء. وللطست غطاء مثقب ترتفع فى وسطه هنة تشبه الحوض الصغير. فإذا سكب الخادم الماء فى الأبريق على يدى المخدوم مر من ثقوب الغطاء وسقط فى قاع الطست بحيث إذا تقدم الخادم إلى مخدوم آخر ليغسل يديه لايقع نظر هذا الأخير على أثر ما من الماء الذى غسل سابقه به يديه.

ويختلف منديل الطعام (الفوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لا مربعا ونسيجه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويقه. وهو فى بيوت الموسرين مزركش إما بالحرير أو القصب. وقد تبلغ قيمة الواحد منه ما يعدل ثلاثمائة إلى أربعمائة فرنك. والعادة أثناء الطعام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شىء بالوشاح، وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الأول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنا. وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لا عند المصريين.

والمشارقة بدويو الأصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الأوعية. ولايزال المصريون إلى عهدنا يتوخون هذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهم فى ذلك على صينية من النحاس أو غيره من المعادن يختلف طول قطرها من قدمين إلى ثلاثة أقدام وكرسى = طبلية = بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه، واجتماع هاتين الأداتين يتألف منه ما يسمونه « السفرة» التى يجلس الآكلون حولها على

المخدات المحشوة أو على السجاجيد وتوضع أمام كل آكل قطعة من الخبز وملعقة.

والشرقيون لايستخدمون الشوكة في تناول الأطعمة. وملاعقهم على ثلاثة اصناف، صنف لتعاطي الحساء والأرز وكل طعام سائل القوام. وهو من الخشب المعتاد في الأسر الفقيرة، ومن خشب الأبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والأحجار الكريمة في الأسر الغنية. وشكل الملعقة المصرية يخالف شكل الملعقة الأوربية من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهي بطرف مدبب، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس.

وللحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعقة خاصة. وهناك شيء من الملاعق أكثر تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغة ويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطي الخشاف.

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم . بل يأخذون من الصحفة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصيني بل من النحاس، وهي على شيء من العمق ولها غطاء تغطى به.

والأوعية المستعملة للشراب هي آنية الماء أولا. وهي نوعان. عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق. وتصنع القلل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس، وخاصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى في وقت القيظ الشديد، ويعطر داخلها عادة ببخور الأخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكي المجلوبة من البلاد اليونانية. ولها أغطية من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو ورق النخل، وتوضع في صينية من المعدن تتلقى الماء الذي يرتشح منها. والقلل في مصر يقابلها في البلاد الأسبانية الجرازا (الخرزة). وفي بلاد الشرق لايستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الآنية ممسكين برقابها، على أن أصحاب اليسار يشربون في أكواب (طاسات) من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب.

١١- آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الآكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة، وهم إذا جلسوا كذلك أمكن أن يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية، ونادرا ما تحتوي المآدب

الشرقية مدعوين يربون على هذا العدد فإذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر ما يكفى لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها. وقبل أن يتناول المسلمون الطعام يبسملون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم» وهم لا يستعملون الشوك فى تناوله ورفعه إلى الفم. بل يأخذون ما يلزمهم منه بين أصابعهم فى الصحفة العامة الموضوعة وسط الصينية. وطريقة الأكل على هذا النمط ألطف مما يخطر ببال الأوروبيين الذين يسمعون هذا الوصف. ذلك لأن جميع الآكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة.

ثم إن الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة. إما بقدر عدد الآكلين أو زيادة عليه، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء ومن غير أن يلوث القطع الأخرى. ولايشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الإبهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى. وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الأصابع الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصحفة بنظافة تامة وبشىء من اللطف والرشاقة.

وصاحب البيت أو الداعى ينبغى أن يكون أول من يمد يده إلى الطعام . فإذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الآكلين فآداب الأكل تقضى عليه بأن يمسه إما بطرف إصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز، وبعد ذلك يتناول كل واحد من المدعوين ما يطيب له من الطعام.

وفى المآدب الكبرى التى يستدعى عدد المدعوين إليها إقامة عدد من الموائد تنقل الأطعمة من مائدة إلى أخرى. وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الأربعين إلى الخمسين لونا أحيانا، ولكنها غير وافية المقدار، فيتمتع الآكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام إلى طعام من غير كبير كلفة. وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم.

ويلزم المصريون الصمت على الطعام. ومع إسراعهم فى تناوله فإنهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال، إذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الأكل، وقد بلغ حد الشبع. وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة. فإذا أطالوا المكث فقلما تتجاوز هذه المدة نصف الساعة. ومتى انتهى

الطعام بادر الآكلون بالقيام محمدلين بقولهم: « الحمد لله» واعتنوا بغسل أيديهم وأفواههم كما فعلوا قبل الجلوس إلى الموائد ورب البيت مضطر إلى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها الآكلون. فإذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة.

١٢- الاقتداء بالأوربيين فى تناول الطعام

هم بعض الذوات والأعيان منذ زمن بتقليد الأوربيين فى طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافنا واستعملوا لتناول الطعام منها الشوك والمدى وقرنوها بالأكواب لتعاطى الماء. غير أن الأسلوب الأوربى فى هذا الموضوع يلقى من الصعوبات ما يحول دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل ما بذل من المساعى فى هذا السبيل حتى الآن كانت نتيجته التقليد الأعمى الذى ينافى الطبع والذوق. فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر ما يكون من الآنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف = الآنية = الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس، وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد فى أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعام فيمسكون اللحم فى الصحفة = الإناء = بأصابعهم ثم يرفعونه إلى أفواههم بالشوكة بعد طعنهم إياه بأسنانها. وكثيرا ما يحدث فى المأدبة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم إليه الصحفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل مايحتويه. وخدام السماط الموكلون بتفريق الطعام على الآكلين لا يدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف، دع أنه بسبب ما يصيب الآنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها.

١٣- طعام الفلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة فى المأكل والمشرب والاكتفاء منهما بما يسد الرمق، وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه. ويحدث أن يضيفوا إليه، إذا استطاعوا، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح، أو الأرز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو الكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ، ولايتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن.

(٣)
الأثـــــاث

ملحـوظات عـامة- المنظـرة: الدركـة والليـوان والديـوان- زخرفـة الجدران والسقـف- الـرفـارف والبراويز الحائطيـة- زجـاج النـوافـذ وحديدها والفرش- مفروشات الفقراء

١٤- ملحوظات عامـــة

ترى فـى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعرب والأتراك آثارا تدل على أصولهم البدوية، ويتبين منها أن احتفاظهـم بالتقاليد كان من الشدة بحيث لم تؤثـر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قـرون فى شكل الأمتعة التى يـؤثثون بها منـازلهـم. فـإن النـاظـر إلـى أثـاثهم أول ما يخطـر ببالـه أنهـم مـا بـرحـوا علـى الاستعـداد التام للـرحيل، كما لـو كانـت المنـازل التى يسكنـونهـا أقل استقـراراً وثبوتا من الخيام التى سرعان ما تقوض لتضرب فى مكان آخر.

ومعنى هذا أنهـم يربأون بأنفسهـم عن اقتناء الأثاث والأمتعـة الثقيلة المتعذرة النقل التى يؤثث الغربيون بها منازلهم، ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهدا ببقائهم فيهـا طول المدى. فإنك لا تـرى فى حجراتهم لامكـاتب للكتابة ولامنـاضد ولاخزانات للثياب ولا ماجرى مجراها من الأثـاث التى تـأتلف مزية الانتفاع فيها بـالإسـراف فى الزخـرفـة والتنميق، والمرايـا الصـافية الأديم والأرائك النـاعمـة، والـزرابى المبثـوثة، والكـراسـى المصفـوفة، والتمـاثيل المتقنـة، والسـاعـات الدقيقـة الصنع.. الخ بل إن متاعهم روعى فيه الإقلال مـع البساطة فلم يعد شـاملا لشىء سـوى حصر السمـار والسجاجيد والطراحات . فـالشرق لم يكـن المكان الـذى ينبغـى أن يقصد إليـه الإنسان للبحـث عن تحف البـذخ وطـرف الرفـاهة والنعيم التـى تفنن الغـربيـون وحـدهـم فـى أساليب ابتكـارهـا، ويـرجـع فضـل تحقيقهـا وإيجـادهـا إلـى عبقريـة العلماء والفنـانين منـا ومهارة عمـالنا وجـودة صنـاعتهـم، والـواقـع أن الشقـى الذى يلـذ لبعض الشعـراء الخيـاليين تصـويـره فى قصـره أو داخل حرمه متقلبا فى الهناءة والنعيم وسط ما يعجز القلم عن وصفه من مظاهر الأبهة والجلال يعيش فى قصارى ما يخطر بالبال من وسائل البساطة والتقشف والقناعة بالقليل.

١٥- المنظــرة والدركـة

لا يلفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة - أى غرفة استقبال الرجال. والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار. وجزء من الأرض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة إبهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى « الدركة» والعادة فى منازل الأغنياء أو الأثرياء أن توجد بوسطه فسقية ينبثق الماء منها على الدوام ، وأن تبلط بالبلاط المختلف الألوان على أشكال هندسية جميلة وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعدة مبنية بالحجر ومستندة إلى الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة ذات أقواس وحنيات محمولة على أعمدة صغيرة وتسمى « الصفة».

والغرض من الصفة احتواء آنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام وبعده والوضوء وقلل الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ. وفى المنازل المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القيشانى.

١٦- الليـــوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهى كلمة معناها المكان المرتفع. ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد. لأنهم يفرشونه فى الصيف بحصر السمار وفى الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات).

١٧- الديـــوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها، ومن جهة خاصة على صفف مؤلفة من طراحات طويلة أو قصيرة يبلغ عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة ابهامات إلى خمسة. وهذه الطراحات تفرش إما على وجه الأرض مباشرة، وإما على دكاكين من الحجارة أو ألواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة إبهامات إلى ستة. وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا. والطراحات تتخذ من القماش وتحشى إما بالقطن وإما بالأسبطة = الليف = فى الأسر الفقيرة. وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا

العرض طولا تصف مستندة إلى الجدران فى وضع عمودى على الطراحات لكى يستند الجالسون إليها.

وتكسى الطراحات عادة بالجوخ إذا كانت معدة لجلوس الرجال، وبالقماش الهندى (الشيت) أو الحرير المزركش بأسلاك الذهب إذا كانت معدة لجلوس النساء. وتنتهى هذه الأغطية، سواء كانت جوخا أو قماشا فى أطرافها السابلة إلى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجف. أما المساند فيغطى وجهها الظاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا ما يكون هذا القماش موشى بالطرازات المختلفة الأشكال والألوان من الحرير.

١٨ زخرفة الجدران والسقوف

تغطى الجدران فى مصر بالقماش، وإنما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الأغنياء. ولما كان الشرقيون لا يمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فإن ما تخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفة لم يكن إلا رسما غليظا لا أثر فيه لأصول الفن ودقائقه فإنهم إذا تصدوا لرسم شىء لا يراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق. وكل ما تتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن والأشجار والحدائق والفسقيات.. الخ وكلها لا أثر فيه ـ كما قلنا ـ من طلاوة الفن وحسنه. على أنهم يبرعون بتفوق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر، ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب فى فن التصوير الهندسى. ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا إلى تصوير تلك الرسوم عليها.

١٩- الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل جدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة. ويصفون على الأولى آنية الخزف الصينى وعلى الثانية أدوات المائدة. وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف كما يشاهد فى جميع البيوت تقريبا من قطع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم تشبه ما تحتويه منها الغضائر القشانى . وهناك سببان لصناعة الأثاث المصرية على هذا المثال. أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى. فتراهم

يتوخون هذه الطريقة للانتفاع بالقطع الصغيرة منه، والثانى إن حرارة الجو تدعو إلى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالألواح الكبيرة التى ، إذا استعملت، لا تلبث أن يصيبها هذه الطارئ.

٢٠- زجاج الشبابيك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشيء عن الشبابيك. وأضيف الآن إلى ما ذكرته عنها أنه ليس لها دفتان كما هو الحال فى أغلبها عندنا. فإن حلوقها تنقسم إلى قسمين أحدهما وهو الأعلى يظل ثابتا لا يتحرك والآخر وهو الأسفل يتحرك بحركة رأسية صعودا وهبوطا. والزجاج المركب فيها ردئ الصنع مهمل الشأن. إذ يحدث أن ألواح الزجاج فى بيت أصبح عتيقا لا تكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها. وهى إذا انكسرت بباعث ما، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها، لأن الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديدة تفكيك أجزاء الشباك برمته. وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذتهم قطعة من قماش الشيت أو القماش الهندى، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لا يتجاوز طوله طول النافذة. ولا يحلى بشيء ما من الرفارف (السجف) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الأستار وتنميقها به.

٢١- الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لا يستعملون الأسرة لنومهم، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة. ونقول الآن انهم لقضاء ليلهم، إذا كان الفصل صيفا، يضعون الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها، إذا كان شتاء يبسطون هذه الفرش فى غرفة صغيرة تسمى بالخزانة تكون عادة من الغرف الملحقة بالمنظرة. ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الأغنياء وأصحاب اليسار يتقون شرها بالكلل (النموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير الموسلين أو الخز = الحرير = أو أى نسيج آخر دقيق السلك، وبواسطة هذه الأقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها، ويثبتونها من زواياها الأربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بالجدران الأربعة للغرفة.

وتبلغ الكلل أحيانا من العظم ما يجعلها تشغل الديوان كله تقريبا، وتحمى

من البعوض أسرة برمتها. وفى بيوت الأغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعت من مكانها وطويت لتنشر مرة أخرى قبيل الرقاد.

وليس لدى الشرقيين دواليب لحفظ الثياب. لأنهم يكتفون فى صيانتها، بجعلها صرة تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به. ولما كانت المجاسد - أى الثياب التحتية لاتكوى ولاتثنى بواسطة النار فى مصر، وكان استعمال القبعات والمثقبات (الدانتلا) مجهولا من نسائها فإن هذه الثياب تلبس غير معرضة لعبث العابثين بها، فضلا عن أن صرها فى البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة.

ولاتقع عين الناظر بمصر من المرايا إلا على الصنف الردىء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية. وهذا لاينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التى أخذ بعض العظماء وذوى الحيثيات يستوردونها من البلاد الأوربية.

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الأهالى ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس، وهى مما تصنعه المانيا برسم التصدير إلى الشرق الأدنى. والمصريون مغرمون باقتناء هذا النوع من الساعات إلى حد انك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين، وفى بعض الأحيان ثلاث ساعات من هذا النوع.

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا عن الأشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغرض فلا حاجة إذن إلى استئناف الكلام عنها.

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام. وليس فى مصر شىء من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء. لأن الشرقيين ما برحوا عاكفين على استعمال المصابيح الغليظة التى كان يستصبح بها أجدادنا منذ بضعة قرون، ويستعملون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن ردىء الصنع جدا غير أن لدى الأغنياء ثريات من زجاج البندقية.

وقد أدخلت إلى مصر وفى السنوات الأخيرة أشياء كثيرة تؤثث بها المنازل عندنا فى بيوت العظماء والأثرياء، ولست أذكر بهذه المناسبة قصور أصحاب

السمو التي بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الأثاث تعد مستكملة لحاجيات الحضارة الأوروبية.

٢٢- أثاث الفقراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الأثاث بالطبع مثل ما لدى اصحاب اليسار، وإن يكن فى حد ذاته على شيء كثير من البساطة والسذاجة. ذلك لاقتصار الفقراء، فى تأثيث بيوتهم، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات. أما الفلاحون فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم، ومائدة لطعامهم.

وليس عندهم من الأوعية إلا بعض آنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين . ذاك كل ما يتألف منه أثاثهم ، وليس فى الأمر مايستغرب. لأن هذا الأثاث أوفق ما يكون لحالة الأكواخ التى اتخذوها مساكن لهم.

(٣)
آداب الاجتماع

بيانات عامة– التحية– القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان ـ أى مكان الجلوس– القهوة– الشبك .

٢٣- بيانات عامة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والأشارات والأوضاع من الفرد. فآداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هى، فى يد الباحث الراغب فى تصوير حضارة أمة من الأمم، الذى لا ينبغى له أن يطره = يمدحه = لأنه خير ما يبلغ به إلى غايته فى تشكيل كيانها.

وثمة اعتبارات لاشك فى أنها مما تقدم ارتباطا بالفلسفة، ولكنها ترمى إلى غرض المنفعة، تدعونى فى هذا المقام إلى سرد بعض القواعد والأصول التى تنظم المعيشة اليومية للوطنيين المصريين، وسيسر الرحالون الذين يطوفون فى الشرق، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته، أن يجدوا فى البيانات المبسوطة فى هذا الفصل متنا وجيزا لقواعد آداب الاجتماع الشرقية. وبتلاوتهم

هذا المتن والمامهم بما يحتويه يألفون شيئا فشيئا الآداب المرعية عند المسلمين ولاينتابهم من الحيرة والاضطراب ما ينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشيء من عاداتها وأخلاقها. وأية حيرة للرحالة الأجنبى من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لايفهم منهاشيئا. الا يكون شأنه ـ وهذه حالته ـ شأن من يحتاج إلى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها؟ أما إذا ألم بما يجهله من أمرها فإنه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيتها فيجتهد فى التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها.

٢٤- التحيـــة

فى الغرب، إذا ساقت المصادفة شخصين إلى الالتقاء فى الطريق ، فإننا نرى الذى يستشعر منهما بسمو الآخر عليه فى الوجاهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالسلام. أما فى الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذى يفاتح صاحب المرتبة الدنيا به.

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبطا أرتباطا وثيقا بمراتب الذين يتبادلون التحية. فالنظيران إذا التقيا مثلا سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعا إياها إلى الفم ثم منه إلى جانب الرأس فإذا لم يكن التساوى بينهما تاما، كأن كان هناك تفاوت يميز أحدهما على الآخر. فالأرفع درجة من الأثنين هو الذى يجب عليه أدبا أداء التحية بالوصف الذى أوردناه. ولكن يجب على من يتلقى التحية فى هذا الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها، وذلك بأن يحنى رأسه وجسمه إحناء خفيفا. أما إذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد إلى الصدر. وفى هذه الحالة يجب على من يتلقى التحية أن ينحنى انحناء محسوسا ويرسل يده اليمنى ألى أسفل لكى يرفعها بعد ذلك إلى الرأس. وإذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا فى حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحية على المثال المتقدم بكلتا بديه.

وفى تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير فى طريقها. فإذا كان هناك فرق فى المراتب، فالواجب على الأدنى مرتبة أن يقف ويواجه الذى يجب عليه رد التحية إليه.

وتصحب التحية التى تعبر عنها الإشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء

الخير) أو (نهاركم سعيد).

وإذا التقى إثنان فى طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما. وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (ازيك) (طيبون) الخ. مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها إلى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال.

ونادرا مايستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم. فإن الآداب الإسلامية تستدعى إمساك الرجل عن توجيه التحية إليهن. ولاشىء يخالف مقتضى الآداب الأوربية من تلك الآداب السلامية كالعمل بهذه القاعدة.

حقا إنه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤتزرات بذلك الإزار الذى لايرى من خلاله شىء يعرفن به، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن، وإلا عد ذلك من المخالفات التى لاتتفق مع أصول الحشمة والصيانة. ثم إن النساء لايسلمن بعضهن على بعض فى الطريق.

٢٥- القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو البهو المخصص لاستقبال الرجال. وقد ذكرت فيما تقدم ترتيبه وتأثيثه، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطىء من البهو « الدركة» حتى لاتتسخ الحصر والسجاجيد بالقذر أو يصيبها شىء من الدنس الذى لايتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين. وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية إلى الحاضرين، كلا بل إن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عند دخوله إذا كان من أهل مرتبته ودرجته. فإذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتنحى له عن مجلسه. أما إذا كان أحط منه مرتبة فليس على رب المنزل إلا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهم بالوقوف، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير إليه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقا إحدى ساقيه وثانيا الأخرى تحته تبعا لما يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت. وإنما يجب عليه فى هذه الأوضاع المختلفة أن يجعل يديه مشتبكتين على أسفل

البطن. أما رجال الجندية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم.

وفى مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم، حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة والباشاوات وأكابر رجال الدين. ولم يتبع سموه هذه العادة مع الأجانب - ولاسيما الأوروبيين منهم - فإنه يدعو إلى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون إليه.

أما الإفرنج الذين فى خدمة مصر، فإنه يطلب منهم مراعاة عادات الشرقيين فى كل أمر.

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان. كما أن لضباطهم حق الجلوس فى حضرتهم، وهكذا بحسب ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكرى.

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم إلى جانب بعض بحيث يكون أسماهم مرتبة وأعلاهم مقاما أدناهم منه. على أن هذه القاعدة الأدبية غير مرعية دوما. فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظروف معيشتهم حتى أنك لتجد الأمير فى بعض الأحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك.

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحدهم بكلمة ويتراجعون إلى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لايولوه أدبارهم أو أكتافهم. وعليه فى هذه الحالة أن يجيبهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا. وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين إلى الباب، إذا اقتضى أحد هذين الأمرين مكان الزائر المنصرف ورفعة قدره.

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات. وهذه العادات الأهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معروفة ومرعية من الجميع، والكل مجمعون على ضرورة الاحتفاظ بها واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون إيمانا أو يقينا دينيا.

٢٦- قهوة البن

مما لا يختلف فيه اثنان تعاطى قهوة البن فى أنحاء بلاد الشرق، فإن الشرقيين يقدمونها إلى جميع الذين يحق لهم الحضور فى مجالسهم. فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته أميرا خطيرا أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهذا الواجب الأدبى، ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل. وفى هذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر.

أما اذا كان المزور أقل من ذلك شأنا وأحط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفا إياها بوصف الجودة.

وتشرب القهوة فى آنية صغيرة من الخزف الصينى تسمى بالفناجين، وهى تشبه قشر البيضة مقطوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشبه شىء بالآنية التى يوضع فيها البيض النميرشت. والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو المينا، وترصع أحيانا بالأحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينى والظرف من النحاس، وتصف عشرة فناجين إلى اثنى عشر فنجاناً، وقدر هذا العدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسطها كنكة القهوة التى تتخذ من أحد تلك المعادن، وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزركش بالذهب أو بغيره بحسب مقدرة رب المنزل.

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها إلى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالإبهام والأصابع الثلاثة التالية له من اليد اليمنى. وتقدم القهوة فى أول الأمر إلى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره فى الخدمة، فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فإن فناجين القهوة تقدم إليهم فى آن واحد وعليهم قبل تناول الفنجان الذى يقدم إليهم أن يحيوا بعضهم بعضا. أما إذا كان الزائرون أحط مرتبة من المزور فلا يصح تقديم القهوة إليهم إلا بعده بحسب ترتيب مجالسهم منه، والواجب عليهم فى هذه الحالة أن يحيوا صاحب البيت

بالإشارة قبل تناول الفنجان وكلما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانه إلى موازاة وجهه وعلى أثر هذه المظاهر الأدبية يشرب كل القهوة التى قدمت إليه.

ولاينبغى فى شرب القهوة أن تشرب إلا مصا بطرف الشفتين ومن غير إمالة الفنجان، ومن يريد من الحاضرين إظهار الاحترام للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأنا فعليه أن يتحول برأسه عنه تحولا خفيفا وأن لايشرب من القهوة إلا الشىء اليسير منها.

وقد سرى قانون الآداب الإسلامية حتى على الكيفية التى ينبغى أن يرد الفنجان بمقتضاها إلى من قدمه. فإنه يقتضى فى حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرد الفنجان أن يكون هذا الابتعاد خفيفا وأن لايصحبه كلام مع الخادم وإنه متى تناوله هذا الأخير منه يؤدى بإشارة التحية كما أداها وقتما قدم إليه.

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشبه التى يقدمونه بمقتضاها رقة وأدباً . ذلك لأن الفنجان لايحتوى على بروز خارجى فإنه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى .

ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل إلا بعد شرب القهوة. فاذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته إليه قبل ذلك كانت هذه المسارعة تهجما لا مبرر له . بل مسلكا لا يليق بالمتأدبين.وهذه العادة يستند البعض إليها فى إقامة الدليل على كسل الشرقيين ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو- أول وهلة - أنها مضيعة للوقت فيما لا جدوى منه ترتجى لاتخلو من الفوائد والمزايا. لأنها تفتح للزائر والمزور معا طريقا للانتقال الصالح من المشاغل التى كان خاطرهما مشتغلا بها قبل الزيارة والتى سيشتغلان بها فى خلالها. وبهذه المثابة لايحسب المزور أن الزائر أخذه، بزيارته إياه فى الوقت غير الملائم أو فى الأوان الذى كان لايتوقع فيه زيارته، على غرة منه. لانه بما ينقضى من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الأهبة للمفاوضة فى الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعدادا فكريا.

ومن جهة أخرى فان الزائر نفسه يجد، أثناء تعاطيه القهوة، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه

أسهل تناولا على الفهم أو أبلغ فى الإقناع بالحجة. وإذا فرض أن أحدهما أو كلاهما كان حينما وقع نظره على صاحبه قد ثارت فى نفسه ثائرة الغضب أو اعتراه الحياء أو تملكته إحدى العواطف المؤثرة فى النفس فإن الوقت الذى ينقضى فى تبادل التحيات والتسليمات وشرب القهوة يمهد للغاضب سبيل الفيئة = العودة = إلى السكون والحلم اللذين لابد منهما فى كل مفاوضة أو مناقشة.

٢٧- الشبك = الشيشة =

ليس فى استطاعتنا - إذا كنا فى أوربا - أن نصور لنفسنا منظر تركى وليس بيده شبك يستثير الدخان منه. وما من أحد فى الشرق إلا وهو مغرم بتدخين التبغ. إلا أن القوم يسلكون فى تدخينه مسلكا يدل على تفوقهم فى سلامة الذوق ورشاقة الحركة وما إلى غيرهما من المظاهر التى يندر أن يتصف بها المدخنون عندنا.

والشبك أداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحولت فى نفوسهم، كعادات كثيرة غيرها، إلى طبيعة ثابتة. وللطرق المستحدثة والثروة تأثير فى الشبك باعتبار كونه إحدى الأدوات المنزلية التى يفضلها المدخن على غيرها. والأجزاء الثلاثة التى يتألف الشبك منها هى: الفم والأنبوبة والجوزه أو الحجر.

فالفم ويسمى أيضا التركيب هو الجزء الذ ى يوضع بين الشفتين لاستنشاق الدخان، ويكون عادة من الكهرمان رفيعا أو غليظا قصيرا أو طويلا، وعلى كل حال مناسبا لطول الأنبوبة مع اختلاف فى الشكل والزخرف اختلافا يوافق مزاج صاحبه وميله . ويبلغ ثمن الفم عادة، إذا كان من الكهرمان، من خمسين فرنكا إلى خمسمائة فرنك. ومن الأفمام ما يتجاوز ثمنه هذا الحد، ويكون مزخرفا بالمينا أو مرصعا بالأحجار الكريمة. ويقتصر الفقراء على اتخاذ أفمامهم من القرن أو سن الفيل.

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام، وتصنع إما من أعواد شجر الكراز أو الياسمين أو أى خشب سواهما وتكسى بالحرير. وإذا كان صاحبه من ذوى اليسر والقدرة كسا طرفيها، بطول أربعة إبهامات أو خمسة، بالفضة أو الذهب أو المينا، وربما رصعها بالأحجار الكريمة. أما الفقراء فيقتصرون على الخشب المعتاد فى صناعة الأنابيب لشبكاتهم وربما اكتفوا بقطعة من البوص

لهذا الغرض.

اما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربي، وتختلف الأحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس إلا.

ولم يكن التلهي وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفا على الرجال فقط، فإن النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضا بتدخينه داخل الحرم. وهذه العادة أقل شيوعا بينهن منها بين الرجال. ثم إن النساء لايجهرن بالتدخين، وانما يدخن فى حجراتهن بعيدا عن الأعين، وشبكاتهن أجمل رونقا من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة .

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحيانا بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقونه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم. ويتخذون أثناء التدخين أوضاعا تنم عن الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة والسكون من جهة أخرى، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور. وجلال تلك الأوضاع مضافا إلى أطوال الشبكات وسحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والأحوال التفصيلية الأخرى، مما يساعد على تحبيذ تلك العادة التى تبدو لنظر الأوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم.

وكان لابد للشبك أن يدخل، وله ماذكرنا من الشأن والمكانة، فى دائرة الآداب الاجتماعية. غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة، ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على أنه لايقدم عادة إلا من المرؤوس لرئيسه أو من النظير لنظيره. فمن النادر إذن أن يقدمه الرئيس لمرؤوسه، وإذا قدمه فلا يكون ذلك إلا لقصر مدى التفاوت بينهما فى الدرجات، وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم إليه. ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أو الست بينها من التفاوت والاختلاف مايجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم إليهم .

ثم إن الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع الأساليب الإسلامية الممتازة بالرقة فى الأدب. فإن الخادم المكلف بتقديمه لايمسك به إلا من أسفل

الأنبوبة فـى النقطة المتوسطة مـن طولها. ويكون إمسـاكه بثلاثة من أصـابع اليد اليمنى فقط كما يمسك قلـم الكتابة مع العناية بجعل الحجر إلـى الامام. فإذا ما وصـل تجاه الشخص الـذى يراد تقديمه إليـه أسند الحجـر إلى الارض بعد أن يكون قد قـاس بنظـره المسافـة الفـاصلـة بينه وبين هـذا الشخـص بحيث يجعـل أنبوبـة الشبك، بعـد ارتكاز الحجـر على الأرض، تتحرك حـركة يـرسم الفـم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم إليه.

ويقـدم الشبك كمـا تقـدم القهـوة إلى الـذيـن يحلـون المكان الأول مـن مجلـس صـاحـب البيت ثم إلـى الـذيـن يلـونهـم يمنـة ويسـرة، وهذا علـى حسـب تـرتيـب المواضع. والواجب فـى هذه الحالة على من يقدم إليهم الشبـك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت. وإذا كان علـى الزائـر للمزور فـروض احترام وتعظيـم إما لجاهـه أو وجاهتـه أو ثـروتـه أو غيـر ذلك فمـن الأدب المستحسـن أن يعنـى بـإبعـاد طـرف الأنبوبـة التى فيها الحجر عـن مجاورته. لأن ترك هـذا الطرف بالقرب منـه يشير إلى أن الكلفة مـرفوعة من بينهما ويكون الـزائر قد أتى، فى هـذه الحالة، أمرا لا يتفق مـع حسـن الشمـائل وكـرم الأخلاق. وواجب الـزائـر حيـال المزور الذى هـذا شأنه أن يتـرك الطرف الأعلى من الشبـك مستندا إلى ركبته، وأن يستنشـق منه بين حين وآخـر نفسـا خفيفـا لايزفـره إلا وهـو محـول رأسـه عـن نـاحيـة المزور. والحذر كـل الحذر مـن انبعـاث صـوت ما بين الشفتين أو البصـق فـى منـديـل أو غيره.

وإذا أراد الزائـر مزايلة = ترك = المكـان بعد انقضـاء الزيـارة، فعليه ان يكف عن التـدخين بأن يرفع بيـده الطرف المشتمل على الفـم (المبسم) فلا يلبث الخادم أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك.

فإذا فـرض ولم يكـن هناك خـادم ولم يتقـدم أحد. فلـه أن يسند هـذا الطرف إلى ديوان الجلوس.

(٤)
الختان أو الطهارة

قدم هذه العادة– الاحتفال بها.

٢٨- قدم عادة الختان

كان الختان عند قدماء المصريين إحدى الوسائل الصحية التى تقضى بها القوانين المدنية، وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام).

وإذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هو إلا لما ثبت عندهم من فائدته وحسن أثره من الوجهة الصحية. لأنه، بقطع النظر عما يتطلبه الدين الإسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام، من أنجع الوسائل لوقاية أعضاء التناسل من الأمراض الكثيرة التى يكون القذر سببا لها.

٢٩- الاحتفال بالختان

جرت العادة بأن يكون ختان الأطفال فى السابعة أو الثامنة أو التاسعة من أعمارهم. نعم إن السن التى يقام فيها الاحتفال بالختان تحدد على وجه الصراحة. غير أنه يجب الشروع فى إجراء عملية الختان والاحتفال بها قبل مناهزة الغلام سن الحلم، لانه يعتبر فى هذه السن مكلفا بأداء فرض الصلاة. فإذا لم يكن قد اختتن فلا يعتبر جائزا على شروط الطهر والنظافة التى يقتضيها الشرع

والمألوف عند ذوى اليسار والبسطة فى المال أن يبالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم. فإنهم يؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم.

أما الغلام المراد اختتانه فيمتطى جوادا مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمم بعمامة من الكشمير الأحمر. وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه اليلك والسلطة والكور والصوفة، ويضع على فمه بيده اليمنى منديلا مزركشا بالقصب. وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبى الحلاق الذى نيطت به عملية الختان ممسكا بيده الجلم، وهو صندوق يحتوى عدة معلمه وأدواته. يراد

بجعله فى المقدمة الرمز إلى الغرض من الاحتفال ثم يتلوه رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته.

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله. ولاسيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد فإنهم، فى هذه الحالة، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبأيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل. وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصة من الزمن بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه بنبيه أن يحفظ «المطَّاهر» ويحرسه لأهله، ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الأطفال وغيرهم.

والعادة أن تتم عملية االختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل إلى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الخشفة = الغلفة - = بالموسى ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم. ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر وإتحافه بالهدايا الجميلة. وبعد أسبوع من العملية يؤخذ إلى الحمام.

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختتن. فإن الناس ينظرون إليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة. ومن هذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين. وإذا كان غنيا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسع النطاق. أما إذا كان فقيرا فإنه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها.

(٥)
الــــزواج

ميل المصريين إلى الـزواج- السن المعينـة للزواج- الـزواج المحرم- مقدمات الزواج- حفلات الزواج- إزالة البكارة.

٣٠- ميل المصريين إلى الزواج

يـرى المسلمـون فـى الـزواج أنـه من الفـروض التـى لايحسـن بـالمرء محـاولـة التنصل مـن القيام بها. فهـم يريدون مـن الرجل الاقتـران بالمرأة متى بلـغ السن الملائمة لذلك ولم يحل دون إتمام هـذا الأمر حائـل لاقبل لأحد على دفعه. وبلغت شـدة الوهـم بهـم فـى هذا الموضـوع إلـى حد لايمكن لأحـد معـه السكنـى بأحـد الأحياء فى بيت خاص به ما لم يكن متـزوجا أو عنده فى خدمته جارية أو جملة مـن الجوارى. فـالعازب مضطـر إذن إلـى السكنـى فـى الـوكائـل- أى الفنـادق العامة المعدة لإقامة الغرباء

ويريـد الآباء لأبنـائهم مـا يريـدونه لأنفسهـم من الحصـول على النسـل. وهذه الرغبة أسـاس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهـم فـى مقتبل العمـر. وكثيـرا مـا يخطبون لهـم العـرائس وهـم فـى طفـولتهم الأولـى فيحتظون بهن إلى أن يبلغوا سن الحلم فيتم زفافهم بعضـهم على بعض.

٣١- السن المعينة للزواج

الحقيقة أن لاسـن معينة للـزواج عند المصـريين، لذا تـراهـم يـذهبون فـى هذا الأمـر إلـى حد العبث والإخلال بـالصـواب. فإن منهـم مـن يـزوجـون بناتهـم فـى التاسعـة والعاشرة مـن عمرهن- أى فى الوقـت الذى لم يتـوافر للمرأة فيـه من النمو البدنى والأدبى ما يجعلها أهلا للتزوج.

وكثيرا ما يرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم، وقد تزوجوا بفتيات صغيـرات يصح أن يكونوا لمثلهن أبـاء أو أجدادا. وهو الـدليل على أنهم لايلتمسون من الزواج سـوى شفاء الغليل من الشهوات البدنيـة، وعلى أن الدافع لهم إلى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولاالعاطفة.

٣٢- الزواج المحرم

ليس لمسلم أن يتزوج بإبنته أو أخته او بنت الأخ أو بنت الأخت أو الأخت فى الرضاعة أو أخت الزوجة ما لم تكن قد توفيت أو طلقت، وفيما عدا هذا من طبقات القرابة يباح الزواج. والشريعة الإسلامية لاتحرم زواج المسلم بالنساء من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسيحيات ولكنها تحرمه بالمشركة من أديان أخرى غير هذين الدينين. ومما يكاد يدخل فى حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الإباحة فيتزوج بمسيحية أو يهودية.

٣٣- مقدمات الزواج

إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح.

والزواج فى مصر اتفاق خاص لايحتاج فيه إلى مصادقة من السلطة الدينية ولا إلى إجراءات ما من جانب السلطة المدنية. فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين، وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك. فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك إياها » فيجاوب هذا: « قبلت». وكثيرا ما يتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج إلى القاضى فيفضيان إليه الرضا والقبول. ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية

ويتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر. وليست المرأة فى مصر هى الملزمة بأدائه إلى الرجل، لأن الشريعة الإسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق إلى المرأة. وهذا الإلزم غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق، فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة.

ويقدر الصداق عادة بالريالات. والريال نقد صورى ينقسم إلى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما. ففى الأسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة إلى ألف ريال، وأحيانا لايتجاوز نصف هذا المبلغ. أما الاغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا. ويبلغ عندهم عادة إلى عشرة أكياس، وربما تجاوزها إلى ما فوق. ومما يشترط فى عقد الزواج أن تقبض العروس من المهر

عاجلة أى الثلثين من مجموعه، ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه. أما الثلث الباقى وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال إحتياطى لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها.

٣٤- حفلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضا من الخطيبين، وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لاتتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها. وقد يقدم العريس إليها بعض الهدايا أثناء ذلك.

والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنين والجمعة على الأخص.

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنحصرة بين فيضان النيل وشهر رمضان. وفى الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو الثلاث ليالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية إليه من الحى الذى يسكنه، وتقام المآدب ويدعى إليها أقرباؤه وأصدقاؤه.

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقريباتها وجاراتها، ويعد من الأعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية، ويزال شعر بدنها للمرة الأولى فى حياتها. ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها. ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ما تتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج، ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات. وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل. أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضا فى مثل هذا المظهر ويقضى به اليوم بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه. وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان إلى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالأجرة فلا يغشاة أحد من جمهور الناس.

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف، سارت العروس إلى بيت عريسها فى موكب

حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها إلى الحمام. وتسير فيه أيضا جواريها بعضهن حاملات أوعية تتضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصوغاتها، والبعض الآخر يقمن بإحراق البخور فى المباخر، بينما تبث نساء غيرهن فى الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد. ويواصل الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لإذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور فى بهجة احتفاله.

ولدى عودة العروس إلى الحرم المعد لإقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهى الطعام. فتجلس إليها للأكل مع صويحباتها قريبات وجارات. أما العريس فلا يحضر هذه المائدة. بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا إلى المنزل لتناول الطعام معا، وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها.

عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل. وهذه الآونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الإنسان. لأنه يتأكد بعينى رأسه إذا كانت الأحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه، منذ تحرير عقد القران، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق. وعقب رفع النقاب يباشر بنفسه العملية التى يقوم بها الدليل على بكورة عروسه من عدمها.

٣٥- فض البكـارة

يتم الزواج بمصر فى ظروف خاصة جدا، وخاصة إلى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها. نعم إن من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة إلى هذا المبلغ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهذا الواجب مع الاحتراز بقدر الإمكان عن إيذاء سمع ذوى الحشمة والوقار.

إن الغرض الأول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة. اذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها. كما يرى العريس أن هناك ما يدعوه إلى التحقق منها. فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها إقامة الدليل- لا لزوجها وأهلها - بل لأصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا، على أن درة البكورة لبثت مصونة ولم تعبث بها يد الثاقب.

لهذا كان المصريون يرون فى إزالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة إلى

إحاطتها بالأسرار المبنية على الحشمة والحياء، وأن لا مانع - بناء على ذلك - من الاستشهاد عليها بدعوة الناس إلى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه.

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الأمهات وبعض كبار السيدات. ومؤداها أن يقوم العريس بإزالة بكارة عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحرير الأبيض. وهو - فى قيامه بهذه العملية - يبدى الشيء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الغيرة المخجلة التى ملأ بها فؤاده قبل أن يستجلي وجه عروسه. أما المنديل الحريرى فيعرض على الأهل والأقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون فى مظاهر الفرح والسرور. ثم يعرض أيضا هذا الدليل الدموى على عفاف العروس وطهارة ذيلها، على المدعوين. وفى اليوم التالى تطوف به أم العروس أو أختها أو إحدى قريباتها فى الحى برمته لتطلع سكانه عليه.

والغاية مما تقدم أنه اذا اتفق أن عروسا وقعت فى خطيئة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص فى التكوين الجثمانى يحول دون إتيانها بذلك الدليل فإن للعريس أن يطلقها من ساعته. وفى مثل هذه الحالة غالبا ما تكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لايزعهم من الرحمة والتبصر وازع عن قتلها ذبحا وإلقاء جثتها فى النيل للتخلص من عارها. وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لأحد الأسباب المتقدمة.

والأحوال التى لاتستطيع العروس فيها إثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات. لاسيما وأن من السهل، ببعض الحيل الصناعية التى يعرف أسرارها بعض العجائز، إثبات وجود البكارة مع انها غير موجودة لحادث ما. هذا ولا يباح الاتصال للزوجين الا بعد سبعة أيام من إزالة البكارة على الوجه المتقدم.

(٦)

الوفـــاة والجنـــازة

الوفاة– حزن الأهل– الكفن– القبور والمقابر– احترام المسلمين للموتى– الحداد.

٣٦- الوفـــاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم، ولهذا كانت الجنازات عندهم من أهم المظاهر الدينية. غير أن هذه المظاهر لاتنهض فى هذا الأمر ـ كما فى كثير من الأمور غيره ـ دليلا على الشعور الحقيقى بالحزن والتأسى. لأن الدين الاسلامى يدعو أهله إلى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وإرادة لا راد لها وحكم يجب الانقياد إليه والرضا به. فإذا استسلموا إلى الحزن وبالغوا فيه أتوا ما يخالف أوامر الله وذهبوا إلى عكس مشيئته . وهذا هو السر فى قولهم أثناء كلامهم على موتاهم، متى هدأت نار حزنهم الأول: إن الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم إليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء إلى دار البقاء الخ.

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم إليه يظهرون التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون: «لاحول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون» ويقولون لمن يجيء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم : « الحمد لله، هو أرحم الراحمين» وإذا أنسوا فى أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة، ليكونوا فى انتقالهم من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، على طهارة تامة. فإذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة.

٣٧- حزن الأهـــل

إن اللحظة التى يلفظ المسلم فيها النفس الأخير تتلوها فى العادة مناظر غريبة طالما وقع نظرى عليها واستقصيتها من أولها إلى آخرها. فإن النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار . ولكن المسلمين على خلاف ذلك. فإنه مادام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوى قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب

الصبر، ومهما أقنعهم الأطباء الأوربيون به من قرب الوفاة وأنها لابد تالية لحالة الاحتضار، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين: «إن الحياة والموت بيد الله، وأن ليس لأحد من البشر أن يخبر عن شخص لاتزال الأنفاس تتردد فى صدره، أنه لا محالة مائت» ولكنه متى لفظ النفس الأخير ولبى نداء ربه، سرعان ما يأخذهم الانزعاج ويتنابهم الحزن والأسى فيصيحون ويبكون، وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعرهن ويحثين التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على إيقاع معلوم منهن. وإذا كان المتوفى رب الأسرة انبعثت من صدورهن ألفاظ تدل على مبلغ الحزن والأسى لوفاته من نفوسهن فيقلن: « ياسيدى! ياجملى! أنت الذى كان يجىء بقوتنا! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا! ياسبعى! يا ركنى! ياعزيزى! يا وحيدى! وامصيبتاه!لماذا تركتنا! ماذا كان ينقصك بيننا! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا!» الخ ما هنالك من عبارات الشجو وصيحات الحزن.

ولايكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضفن صراخهن وعويلهن إلى صراخ صاحباتهن وعويلهن. وغالبا ما يدعين إليهن الندابات الضاربات على الإطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها إظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات فى إيرادها المبالغة التى لامعنى لها. وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على إقامة الأحزان ويقبحونها ويدعون إلى هجرها والتنصل منها.

ذاك شأن النساء فى المآتم. أما الرجال فيحتفظون غالبا فيها وفى الحوادث المكدرة والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الألم والحزن الذى يحسون به شديدا فى قلوبهم، ويتحامون إظهار شىء من العلامات والإشارات التى تنم على ما ينتابهم من ذلك، وغاية ما يشاهد منهم حب الانزواء عن الناس، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركهم أحد فيه. وهذا ولاشك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم على الشدائد والمحن.

٣٨ - الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن.

والمجمـع عليه بمقتضـى نصوص الـدين التعجيـل بتجهيـز الميت وتشييـع جنازتـه ودفنه، وهـم يعجلـون بذلك حتى إنه ليحـدث أحيانا أن تنقل الجثة إلـى القبر. بعد الـوفـاة بنصـف سـاعـة أو سـاعـة، ونـادرا تمتـد هـذه المدة إلى بضـع سـاعـات. والمقصـود بهذة العجلـة التـى أوصـى الشـارع بهـا منـع التأذى مـن تعفـن الرمـة السريع الحصـول فى الأقاليم الحـارة. وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت إلى أكثر من حزن موجب الأسف والندم.

وتشييع الجنازات فى النهـار عادة فإذا توفى الميت ليلا فـإنه لا يكفن إلا بعد شروق الشمـس، ولذلك يبيت أهله فى بكـاء وعويـل لا يكفون عنهما إلا بعـد زمن طويل تفنى فيه قواهم وتبح أصواتهم. وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الأخير مـن صـدره يذهـب أهلـه فى طلـب المغسلين والحـانـوطيين الذكـور منهم للـذكور، والإنـاث للإناث. وبعـد غسـل الجثـة فوق لـوحة الغسـل يزال شعـره وتسد فتحـات جسمه جميعـا لصيانته مـن التدنس بـالمواد التى لايبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد.

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى إنهم إذا خرجـوا، لسفـر طويل أو قتـال مـع العـدو، أخذوا أكفـانهـم معهـم. وبعد إدراج الموتـى فـى أكفـانهـم يوضعون فى نعش يغطى بقطعة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى.

وليـس محتمـا أن تكون نعـوش الرجـال شبيهـة بـالصنـاديـق المقفلـة. ولكـن الشـريعـة الإسلامية التـى تلاحـق النسـاء بعـواطـف الغيرة عليهـن، تقضـى بـأن لاتكون نعوشهن بعد موتهن إلا على الشكل المتقدم الذكر.

وبعد إيداع الجثة النعش، تحمل إلى أحد المساجد بحيث تكون الـرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه. والمسلمون لايأذنون للمسيحيين بجعل جثث موتاهم على هذا الاتجاه. بـل يلزمـونهم بجعلهـا علـى عكس هـذا الوضـع - أى بتقـديم القـدمين على الـرأس. ويتقـدم مشهـد الجنـازة طـائفة مـن العميـان يسيرون علـى ثلاثة صفوف صـائحين صيحات موزونة مشجيـة ناطقين بالشهادتين وهما «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ثم يليهم خدم الفقيد فالنـدابات مرتديات بأردية طويلة زرقـاء ومـؤتزرات بـإزار أبيض. فـالأربعة الـرجـال الـذيـن يحملـون النعـش علـى اعنـاقهم فـأعضـاء أسرة الفقيد فشيـوخ المسـاجد يتبعهـم، فـى بعض الأحيـان، جماعة من عامة الشعب.

وبعد نقل النعش إلى المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه، ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره إلى المقبرة، وفيها يستخرج الميت ليغيب فى القبر الذى أعد له متجه الرأس نحو الشرق. أما المشيعون الذين تـألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حـول حفرة الميت، ويعود الأهل والأقارب مع النـدابات إلى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لأداء وظيفتهن الجنـازية. ألا وهى إذكاء نار الحزن على الفقيد فى قلوب أفراد أسرته (١).

٣٩ - القبور والمقابر

إن قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفورة بحيث يتمكن الموتى الذين يـودعونها من القيام لتلقى سؤال الملكين منكر ونكيـر والإجابة عليه. وأحد وجهى القبر يكون بـاتجاه الجنوب الشرقى. أى صـوب مكة والوجـه الآخر المقابـل له فـى المدخل يحميه مـربع صغيـر من البناء ويمكـن أن يحتوى كل قبر أربـع جثـث لا أكثر، ومـن النـادر أن تـدفن النسـاء فـى نفس القبـر الذى يـدفن الرجال فيه. وفـوق القبو الذى يكون سطحه الأعلى بمستوى سطح الأرض يقام أثـر مستطيـل مكعب الشكل يثبت بطـرفيـه لـوحـان مـن الحجر يعلـوهمـا شكل قلنسوة تـدل على ما إذا كـان القبر مخصصا لـدفن الرجـال أو النساء. وبالـرغم مـن أن الديـن الإسلامـى لايبيـح وضـع النقـوش بـآيات القرآن علـى القبـور فإنـه لايكـاد يخلـو قبـر منهـا. ومـع تحريمه صـراحـة العلـو ببنـاء القبـور والأضـرحـة وتحتيمه الاقتصـار فـى بنائها على الطـوب النىء فإن الأغنياء والعظمـاء يشيدون لأنفسهم أضـرحة من الرخـام المنقوش بالكتابـات والرسـوم الجميلة. بـل أن منهم مـن يبنون المسـاجد الفخمـة ليجعلـوا فيها أضـرحتهـم. فلا جرم إذا كـانت قبـور الخلفاء والأمراء والمماليك من أنفس تحف الهندسـة العربية وأجل آثارهـا. وموقع مقـابر المصريين من المدن داخلهـا أو ضـاحيتهـا القريبـة، ويتحرون لهـا الاماكن الرملية المرتفعة ونادرا مـايقع النظر فيها علـى النباتـات إلا ما يكـون من بعـض أشجار الجميز التى تنشر ظلالها الوارفة على القبر، أو بعض شجيرات الأزهار نامية حوله يتعهدها من آن إلى آن قريب حزين أو صديق حميم.

---

(١) إن عادة الندابات عادة خاصة بمصر. وقد جاء فى مؤلفات هيرودتس وديودوروس الصقلى ما يؤخذ منه أن هذه العادة كانت فاشية فى الأزمان القديمة.

وقد حرمها الدين الإسلامى، ولكن هذا التحريم لم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها.

٤٠- احترام المسلمين للموتى

يعنى المسلمون أثناء انتشار الأوبئة بتكفين موتاهم ودفنهم على المثال المتقدم. ولايظن أحد أن الأوبئة تلقى فى أفئدتهم الروع الذى تلقيه فى أفئدة الأوربيين. كلا فإنهم لايتنحون أبدا عن موتاهم الذين يموتون بالطاعون. وهذا هو شأنهم أيضا فى الحروب، فإنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضه الدين. وإذا كانوا يخترقون الصحراء فى سفر طويل ثم أعياهم السير وأضناهم حلول الشقة، وأدركوا أنهم مائتون لا محالة، حفروا قبورهم بأيديهم ورقدوا فيها إلى أن يدركهم الموت.

٤١- الحداد

لايحمل المسلمون الحداد كما نحمله نحن، الا أن منهم من يصبغون أيديهم بالنيلة أو بالسواد ولا يزيلونهما إلا إذا زالا بنفسهما. وإذا توفى الأزواج صبغ النساء بالنيلة أيديهن وسواعدهن إلى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهن وقناعهن وتركوا شعورهن شعثة وعطلوا أنفسهن من الحلى وفى حالة وفاة رب المنزل قلبوا الحصر والسجاجيد والمساند وأغطية المفروشات ظهرا لبطن.

(٧)
الاعتقادات الباطلة

الجن- الأولياء- الدراويش- العين الحاسدة- الشعوذة- الأحلام- أيام السعود والنحوس- التنبؤ بالمستقبل- السحر- التنجيم- الكيمياء- أصحاب الفأل- حواة الثعابين- الاعتقاد فى الخرافات- المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على.

إن الشعب الجاهل الذى أخذت الاعتقادات الدينية من نفسة مغرسا عميقا يكون ميالا فى العادة إلى العقائد الباطلة والخزعبلات الفاسدة. وهذا هو شأن المصريين الذين عرفوا بالميل الشديد إلى العجائب والغرائب وإحاطة جميع الشئون والظروف المعيشية بها.

٤٢- الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار فى مصر الاعتقاد بالجن.

والجن فى نظر المصريين وسط بين الملائكة والبشر، وقد خلقوا قبل آدم

وكان خلقهم من النار. وأطال الله فى حياتهم. فحياتهم تدوم قرونا طويلة. ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصية التشكل بما يروق لهم من الأشكال. فإذا شاء وا كانوا بشرا أو حيوانا وإذا شاء وا كانوا حجارة أو نباتا وأذا أرادوا خفوا على الأنظار فلا تدركهم الأبصار. أما مساكنهم ففى جبال قاف التى يعتقد الأميون من المسلمين أنها تحيط بالأرض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحا مستويا لا كرويا.

ومن الجن رهط يميلون إلى الخير ورهط ينزعون إلى الشر، والمسلمون يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم. وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو إضرام نار الخ قاموا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الأعمال. ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف إلى الحمامات والآبار والمراحيض، وأهل القاهرة مقتنعون بأن كل حى من أحيائها موكول حراسته إلى نفر من الجن الميالين إلى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين.

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت، فما من عبث أو فساد يقع فى الأرض إلا وينسب إليهم فعله. فهم الذين يقضون فراغ وقتهم، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نوافذها، فى إلقاء الأحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناهم المقابر والهياكل والقصور والآثار القديمة. ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس فى شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس. وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب إعصارا قالوا فى تفسير هذه الآثار والظواهر أن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا فى الأرض فسادا. واذا سقطت الرجوم من السماوات قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع، ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين فى قولهم: « سهم الله فى عدو الدين».

٤٣- الأوليـــاء

ليس فى الدين الاسلامى ما يقضى بتقديس الأولياء، ولكن المسلمين بوجه عام، والمصريون منهم على الأخص يعتقدون فى بعض الأولياء، بناء على ما تناهى إليهم من إجماع الرأى العام على تقديسهم . وقد يكون الرأى العام فى

ذلك مخدوعا بخدعة مازح أو ماكر، وهم لايقتصرون على تكريمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضوع احترامهم وتوقيرهم أثناء حياتهم.

ويرى المسلمون فى المجاذيب والمجانين الذين لايضرون الناس أنهم قوم أتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة. وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلى من المواهب التى يسمو الإنسان بها على سائر الحيوانات، ولكن عامة الشعب يعللون إجلالهم إياهم أن روحانيتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها. ومن ثم تراهم يغضون الطرف على فعال أولئك الأولياء الذين تستدعى حالاتهم العجب والدهش. فإنهم لا يأبهون بهم اذا برزوا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى مايستر عوراتهم. وقد يكون منهم من يهتكون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا يرعون حرمة الآداب والدين. ومع هذا فلست ترى أحدا يتأفف من عملهم أو يرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار. وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه إذا كان أولئك الأولياء قد تركوا أجسامهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى ميدان الملاذ المادية، فما ذلك الا الاستغراق روحانيتهم فى التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى. ويعرف سواد أولئك المجاذيب بقدرة أبدانهم ومايتشحون به من أطمار بالية. وهم يصرفون نظر الناس إلى ذواتهم بما يأتونه من شاذ الفعال وغريبها ويعيشون من الصدقات التى يتهافت الناس على أدائها إليهم من غير سؤال فى غالب الأحيان.

ومن لم يصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون يطلق عليهم اسم الأولياء، ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها فى إظهار ولايته. بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب. وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يفوهون بكلمة وإنما يبدون فى مقابل ذلك من فاضح الإشارات ما يندى منه الجبين. وهناك فريق لا شغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غيره لا عمل له الا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع فى أيديهم أو يكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها

واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران.

وليسـت ثياب هـذه الطوائـف أقل غرابة مـن فعـالها المتقـدمة، فـإن منها مـن لايغطـون رؤوسـهم بـالقلانس. بـل يتركـون شعـورهم تنمـو حتى تبلـغ من الطـول مبلغا عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثا وإما ممشطا. وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسـون بين السابلة لايستر أبدانهم شيء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يتعملون الحياء ويتكلفون السمت والـوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان.

وشهرة الأولياء بإتيـان الغريب والمعجب من الأعمال غنيـة عن البيان.، ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الأولياء يسمو على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتـولى رياستهـم باسم القطب أى المحور الذى يـدور الأولياء حولـه. وهو يبرز إلـى الناس ويختلـط بهم، ولكن ليس فـى قدرة أحـدهـم أن يتبيـن حقيقته أو يعرف أنه هو ذاك الـذى امتاز على أقرانه بتلك الخلال الجليلة والصفات العالية. وسبب جهل الكـافة بحقيقـة أمـره. ظهر بينهـم، تحريـه التواضـع والخشوع فـى مظهره والحسنـى والمعروف فـى معاملته النـاس كى يتمكـن من إقنـاع المخالفين لأوامر الـدين والمتغـافلين عـن العمل بنـواهيه بـالفيئة = الـرجوع = إلـى طريـق الحق والرجوع إلـى الصراط المستقيم. والمعروف عنـدهم أنه يفضل الإقـامة على سطح الكعبة ويصيح من أعلاها مع اختفائـه عن الأنظار مرتين فى منتصف كل ليلة قائلا : «يا أرحم الراحمين ارحمنا» ولـه فـى القطر المصرى جهات يقف بها، منهـا باب زويلـة بـالقاهـرة ومقام سيـدى أحمـد البدوى بطنطـا ومقـامات أخـرى ومعاهـد للدين . وممـا لا يختلفون فيه أن فـى قدرتـه الانتقال فى لمح البصـر من القاهرة المحروسة إلى مكة المكرمة.

والموالـد لتكريـم الأولياء وإحيـاء ذكراهـم تقـام عادة بعـد وفاتهـم وقد أنشئت المساجـد الجميلة علـى قبور البعض منهـم وأقيمت الأضـرحة فـى المدن والأرياف تعلوها القباب على أجداثهم إجلالا لكرامـاتهم، وجرت العادة بغرس شجر جميز بجوار كل قبة لتظللهـا أغصانها بظلالها الوارفة. وأهل البلـدان القريبة يقصدون هـذه الأضـرحـة إمـا لتلاوة الـدعوات وإمـا لالتمـاس الشفـاء للمـريـض أو قضـاء مطلب.

وفى بعض الأحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر حتى، إذا وصل إليه أحد السابلة استطاع الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار الباسقة. أما الأضرحة التى لا أبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب السابلة .لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل الجرار والقلل فيها ويتعهدونها على الدوام لإرواء العطشى من أبناء السبيل أو المسافرين. وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها، أو يظهر فيهم أثر لجرح، ويروضون الأفاعى والعقارب حتى تأنس بهم، ويضعون النار متلظية تحت أباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى.. الخ.

وهم فى هذا العهد أقل إسرافا فى الشموخ والازدهاء بهذه الخاصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس.

ومن أغرب حفلات الدراويش الذكر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصلا غير منقطع. وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض، وقد حقنت وجوههم، وسال اللعاب من أفواههم بما يسيل من أفواه المتشنجين وبدت عليهم علامات الأخذة. وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثناءها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الإيذاء والتمثيل. وربما نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال.

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينية، ويسيرون فى مواكبها، ويمارس فريقهم الأكبر بغض الصناعات، والفريق الآخر لا مهنة له سوى تلاوة القرآن والإنشاد فى الجنازات فى سد جوعة أو قضاء حاجة، والفلاحون ينذرون النذور لأضرحة الأولياء فإذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فمنهم من إذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أو ماشية ذبحه وطبخه ومد الأسمطة ودعا إليها الفقراء فيفدون زرافات لتناوبها وإشباع البطون منها.

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الأولياء المشهورين فى القطر المصرى.

٤٤- الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصلاح والورع تفوق فيهما أبناء الفرق الدينية الأخرى. وهم كثيرو العدد فى القطر المصرى وينقسمون إلى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضهم عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وإشكال قلانسهم. ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة إلا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها. فإنهم مثلا يأكلون الأحجار والزجاج والمعادن، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين إلى الآخر دون أن يشعروا بألم.

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء» الذى يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين. أما الفريق الآخر فيعيش بما يغدق عليه من الصدقات والمبرات. وفى مصر دراويش كثيرون متشردون وأصلهم من بلاد الشام والعجم.

٤٥- الحسد أو النظر أو العين

يعتقد المسلمون فى الحسد أو النظر أو العين، وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة. للوقاية منها. فاذا رأوا أحدا يغالى فى الإعجاب بشىء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده - أى أصابه بعينه، ولهذا السبب تراهم، اذا أرادوا الإعراب عن إعجابهم بشىء، يراعون القصد فى الألفاظ الدالة على ذلك. وعندهم لا يليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شىء يملكه أنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الإعجاب به بجملة « ما شاء الله» التى تشير إلى الطاعة للمشيئة الربانية واحترامها. واذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شىء فالذى يحب من السامعين. لها اتقاء مايضمره المتعجب من الحسد أن يواجهه بقوله: « صل وبارك على سيدنا محمد» فإذا أجاب على هذه الكلمات بقوله: « اللهم صل وبارك عليه» فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد.

ويعلل المسلمون ما ينزل بهم من المصائب الطارئة بسوء الحظ وقلة البخت وعدم موافقة الطالع. ويعتقدون فى النفاثات فى العقد. ويسندون ما هم فيه من العجز وقلة الحول إلى التأثير السارى إليهم من أعين الحاسدين.

٤٦- الأحجبة

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والأحجبة. فيحملون الحجاب الواقى من الشر مخيطا بثيابهم.

وأحسن الأحجبة، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشدها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آيات القرآن تكتب فى رقعة وتوضع - بعد أن تغلف فى قطعة من الحرير - تحت الإبط إليسرى.

ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية: « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» أو أسماء الله الحسنى أو أسماء النبى.

ويسند المسلمون إلى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فإن النساء يعلقن أهمية عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير والمواد يجهز ويباع فى العشرة أيام الاولى فقط من شهر المحرم يسمينه ببخور عاشوراء أو الملح المبارك. ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى والماء المستنبط من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة، ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا فى مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله» أو بعض آيات القرآن مثل « إنا فتحنا لك فتحامبينا» أو بعض الأدعية مثل « يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب» إلى غير ذلك من الأقوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم.

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الألفاظ مثل « يا الله» « الخالق الدايم» وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان إحدى شجيرات الصبار الذى يعزون إليه تأثيرا فى دفع العين وضرها.

٤٧- الأحلام

يقرأ المصريون فى صفحات أحلامهم ما يستنبئون به المستقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب. وإذا قال أحدهم لآخر إنى رأيت مناما، أجابه السامع حالا بقوله « خير إن شاء الله».

٤٨- أيام السعود والنحوس

والأيام عندهم قسمان: أيام سعود وأيام نحوس، فأيام النحوس هى الأحد وليلة الإثنين التى توفى فيها النبى ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لأن كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيه ويوم السبت وهو أنحس الأيام جميعا. أما أيام السعود فيوم الإثنين، ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبارك، ويوم

الجمعة وهو أول الأيام لأنه عند المسلمين بمنزلة السبت عند إليهود. وهم يفضلونه لإتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة.

ومن أيام السنة ما هو أيام سعود ومنها ما هو أيام نحوس.

وشر أيام النحوس الأربعاء الأخير من شهر صفر، وفى هذا إليوم يهجر الناس مساكنهم تقية الإصابة بالأمراض الكثيرة التى تنصب فيه على بنى الإنسان.

٤٩ - التنبؤ بالمستقبل

إذا تحير المسلمون فى أمر ولم يهتدوا إلى وجه الصواب فيه اعتمدوا فى تبينه على أمور ترجع إلى الخزعبلات المبنية على فساد الاعتقاد. فمن ذلك التجاؤهم فى إصابة الغرض إلى مايسمونه بالزايرجة. والزايرجة هذه عبارة عن شىء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة فى كل خانة حرف من حروف الإبجدية العربية، وطريقة استعمالها أن يقرأ فاتحة الكتاب. ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهى: « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين».

ويضع إصبعة على الجدول مغمض العينين ثم يفتحها، وبعد أن يقرأ الحرف الذى سقط أصبعه علية يكتبة فى ورقة ويكرر هذة العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التى يحتويها العمود الخامس إلى يمين العمود الذى أرشد إليه الحظ والجزاف أول مرة . فإن اجتماع هذة الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة . والمشتغلين بالزايرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطى أربعة أجوبة سلبية فى مقابل جواب واحد موجب .

ومن الناس من يستخيرون القرآن ويلتمسون منه النبؤة القاطعة فيما يحبون استطلاعه من أحوالهم . وذلك بأن يجعلوه فى موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة. فيعمدون إلى السطر السابع من الصحيفة إليمنى ويقرأون. فإذا كان معناه يفيد السكون والسلم والخير كان الجواب موجبا. بخلاف ما إذا أفاد السخط الإلهى أو اللعنة فإن الجواب يكون سلبيا

وكثير مـن المسلمين يستفسـرون المستقبل بأن يحـركوا بيـن أصابعهـم حبات السبحـة التـى بيدهـم قـائليـن عند تحريـك الحبة الأولـى : «سبحان الله » وعنـد تحريك الحبة الثانيـة : «الحمد لله » وعند تحريك الحبة الثـالثة :«لا إله إلا الله» . ثـم يكررون هـذه الأدعيـة بحسـب ترتيبهـا كلمـا حركـوا حبـة حتـى يبلغوا الحبـة الأخيـرة فـإذا كـانت الاستخـارة التـى قيلـت فـى الحبـة الأولـى تصـادف الحبـة الأخيرة فـإن الإجابـة تكون موافقـة أى موجبـة وإذا كانـت الثانية كـانت الإجـابة لازمة، أى لا موجبة ولا سالبة .

يفهم ممـا ذكر أن الشعب المصرى الـذى يبنى فعالـه وتصرفاته علـى القضـاء والقدر لشعـب خؤوف يهاب تحكيـم الضمير والعقل اللـذين وهبهمـا اللـه للإنسان وميزه بهما على سائر الحيوان، ويتنصل مـن مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبـل أموره علـى غارب الجزاف والاتكـال الأعمـى. راضيا بما تفضـى إليه مـن النتـائج ولـو ساء ت مستسلمـا لهـا باعتبـاره أنهـا الإرادة الربـانية بلا نـزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم إنما كـان الإقـرار على أسبـابهـا نتيجـة حكـم حبـوب من السبحـة أخـذت تجرى بيـن أصابع وزير مـن الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوسـاوس، ومن ذا الذى يعلم كـم مرة عبثـت أيدى السلاطيـن بحظوظ الـرجـال، بل والـدول على أثـر التجائهـم الاستخـارة اثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم.

٥٠- السـحـر

ان مصر بلـد السحر ولا فخر، ولعل القـارىء يذكر السحـرة الذين كانـوا فى خدمة الفراعنة، ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمباراة موسى بسحرهم، ومن المؤكد أن خلفاء هـم الحاليين لم يرثـوا شيئا من قوتهـم ونفوذهـم السحر إليـوم ينحصر فيما يسمونـه الآن بالنكرومانسيـا إذ إن السبحرة رجالا ونساء يقتصـرون تقريبا على التبنؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئان غالبا. وهم، فـى بعـض الأحيان، يستحضـرون الموتـى والأحيـاء ويطلعـون الناس عليهـم فـى مرآة سحريـة مؤلفة من بقعة حبر علـى مربع من الورق يقوم بعملهـا طفل صغير تحضر له هذه التجربة مقدما. فإن الطفل يرسم صور الأشخـاص الذين تسوقهم قوة الساحر إلى المرور أمامه. ومما لاشـك فيه أن بعض اللذين يعجلون بتصديق

مما يقـع تحت أنظارهم مـن الحوادث بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونـة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفة الغلام شفويا لحقيقة الواقع. ومن الأوربيين الـذيـن تستميلهم هـذه الخزعبلات الفـاسـدة، وعلـى الخصـوص الإنكليـز، مـن يصدقون بهذه التجارب ويصدقون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلا. فقد وصـف وصف المستـر م.و. لان فى كتـابه «عـادات وملابس المصـريين» وفـى هذا لم يبد ذرة من الشك فى صحة نتائجها.

ومسلمـو مصر يعتقـدون أن بـالإمكـان القيام بـالإجـراءات السحـرية بحسب مبادىء الخير أو الشر. وتسمـى نظريتهـم فى الحالة. الأولـى بالعلـم الروحـانى، وفى الحالة الثانية بـالعلم الشيطانى. فالسحر الروحانى وهـو موضوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لأنه يعتمد فيه علـى الوسـائل غير المنافية للدين، أما السحر الشيطـانـى فيستعان فيـه بـالأرواح الشـريـرة والشيـاطين لغـرض سـىء وقصـد خبيث.

٥١- التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضاً بعلم النجـوم، ويتبعـون فيـه القـواعـد والأصـول التـى يقصـد بهـا استخـراج وتعييـن الأوقـات الموافقة للمشـروعات واستنبـاء فلك البـروج بحسب التـأثيـر الذى يكـون الانسـان تحت سلطـانـه. ويـزعـم المنجمـون أنهم، بـرسمهـم علـى الـرمـل صـورا وأشكـالا لا يعرف أسـرارهـا إلا هـم، يستطيعـون الوقـوف علـى أحوال الماضـى والحاضر والمستقبل.

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضاً من المشتغليـن بالكيمياء، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مـع حياة وأموال بعض السـذج والبلهاء فى البحث عـن الحجر الفلسفى الـذى يقولـون إن الجواهر الخبيثـة تستحيـل بواسطتـه إلـى الجوهر الكريم وهـو الذهـب. والعرب أول من اشتغـل بهذا العلم وانكب علـى تجاربه العقيمة النتـائج. غير أنهـم مما بـذلوه من الجهـود فى هـذا السبيل، تـوصلوا إلى تقـرير كثيـر من المبادىء الصحيحة والأصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقى.

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الحجر واثقون بأن مساعيهم فى هذا السبيل تكلل بـالنجاح التام، اذا استطاعوا أن يقضوا سبعـة أيام بلياليها من غير نـوم مطلقا. ومفهوم أنه لم يستطـع أحد ولن يستطيع أن يتغلـب أبدا على حاجة النوم التى تدعو إليها الطبيعة ولايتيسر لأحد الاستغناء عنها.

٥٣- البوهيميون أو الغجر

إن لجنس البوهيميين، وهو الجنس الغريب الخفى الأسرار المتشرد فى طول أوربا وعرضهـا، فروعا منبثة فى ضفاف النيل، ولكنهـم فى مصر تتألف منهم طبقـة مستقلة لا خلطة لها مع بقيـة السكان. وشكل سحنتهم يميـزهم عن غيرهـم. فإن لون بشرتهم أشد سمـرة من لون المصريين، وكلامهـم لغة تخالف اللغة العربية، ومع أنهم ينتحلـون الإسلام دينا لهم فإنهم لا يؤدون فرضا ما من فروضه، ويهيمون على وجوههـم من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قـرية، متفـرقين أو مجتمعين. ويشتغل الـرجال منهـم عـامة بـأساليـب الشعـوذة والحيل. أمـا النسـاء، ويعـرفن بمـلابسهـن الغـريبة، فيـزاولـن حرفةالنظر فى البخت والإنباء بـالمستقبل، ويخترقن الأرياف والمدن حاملات على أكتافهن أخـراجاً من جلد الماعـز أو الغزلان محتوية لأصنـاف كثيرة من الأحجبة والتمائم والأدوية والثعابين، ويصفن الدواء للأمراض كافة، ويدعين أن عندهن السر الـذى يمنع عقم النساء ويخبرن الجمهور فى نـدائهن المتكرر بما لديهن من الأسرار العجيبة والكنوز النافعة.

٥٤- حواة الثعابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر فى كل مكـان. وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير البان) إنه شهد بنفسه غرائب تأثير حرفتهم. وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثا يعربون عـن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم فى الأفاعى والحيوانات السامة. ويطوف حواة الثعابين با لمنازل ويتنقلون من مكان إلى مكان يـرتلون من الأقوال مـا يسحرون به الثعابين التـى تحتويها. وهم يـزعمون أنهم يجذبونها إليهم بتـأثير سر لا يعرفه سواهـم. ويمسكون عادة بقضيـب صغير من الخشب فيـدخلون الغرفـة التى يراد تطهيرهـا من الثعابين ويتمطقون بلسانهم ثم يتفلون على الأرض، وينطقون بمعنى الجملة الآتية: « أستحلفك بـالله إن كنت بـالخارج أو الداخل أن تبرح مكـانك وتجىء

إلى، واستحلفك بالاسم الأكبر أن تظهر لى إن كنت طائعا، أما اذا لم تطع فلتمت ولتمت ولتمت» فاذا كان الثعبان طيعا للأمر خرج من مكمنه على الفور ويكون خروجه عادة من ثلمة فى الجدار أو فى الأرض.

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون إلى أن فعل الحواة هذا حيلة مدبرة فلست أتمالك من الاعتراف بأننى - وقد شهدت تجاربهم مرارا - لم أقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشك دائما فى أمانتهم وصدق شعوذتهم. فقد ثبت لى أنهم كانوا يتحيلون - فى أحيان كثيرة على إدخال الثعابين إلى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون إلى استخراجها منه، ولما كانت الثعابين تخشى ضوء النهار، فانهم يبحثون عنها فى الأماكن المظلمة حيث يستطيعون، بلا خوف من الأعين الرقيبة وفى مأمن من نقد الناقدين، تنفيذ ما دبروه من الحيل للتغرير بالناس. ومن عادتهم للوصول إلى هذا الغرض إخفاء الثعابين تحت إبطهم. وبما اعتادوه من الخفة والرشاقة فى الحركة لايسع الناظرين إلا الإعجاب بفعالهم وتجنب إساءة الظن فيهم.

ثم إنه لا يوجد فى مصر من الثعابين السامة إلا النذر إليسير. ومن عادة الحواة استئصال أسنانها. ومن الحيل التى يخدعون بها العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها. ولكنهم لا يقدمون على هذا الفعل إلا بعد استئصالهم الأعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها.

٥٥- الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والأوهام على عقولهم، بل يشاركهم فيها الخاصة على اختلاف مذاهبهم.

ولقد اتفق لى يوما، وأنا ذاهب إلى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين، أن مدحت لأحدهم الجواد الذى يحمله. فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشيء من الاحتياط وعدم التصديق. وما تقدمنا إلى الأمام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولاشك بمدحه. فسارعت إلى التوجه نحو الفارس الذى كان قد سقط عن جواده لمعاونته وإسعافه، وسألته منه عن سبب كبوة جواده. فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ

«لا بأس والسبب وإن خفى معلوم عندى» فأدركت من إجابته هذه أننى قدمت له دليلاً جديداً يؤيد الاعتقاد فى الحسد والإصابة بالعين.

وكان محمد بك أول ناظر للحرب فى حكم سمو الوالى . وهو من فحول الرجال. إذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه فى جلائل أعماله ، يأوى عنده رجلا من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربه وأحوالهم الشاذة تدعو الناس إلى وصفهم بالولاية. وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه. وسبب معرفته بهذا الولى المسمى بالشيخ يوسف، أنه بدر منه مرة ما دعاه إلى حبسه فى سجن مظلم. فبينما كان موقنا بأن كأنه لم يقبض عليه ولم يودع سجنا . فلم يسعه الا أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلا صادقا على ولايته. فدأب منذ هذا الحين على احترامه وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الأعمال، وكان من لازمة ذلك الغى اعتراضه الناس جميعا فى الطريق وطلبه من كل منهم خمس بارات، فإذا أبوا عليه دفعها لطمهم على وجوههم. وكان يقطع البارات التى تعطى إليه قطعا صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء. وقد أنشأ محمد بك ضريحا له بجوار ضريحه ولاتزال رفاته تظللها نفس القبة التى تظلل رفات هذا الكيخياء العظيم الذى كان وكيلا لمحمد على فى إدارة شئون البلاد

وقد بلغ من تأثر المسيحيين واليهود الوطنيين بالاعتقادات الباطلة الشائعة بين مواطنيهم المسلمين أنهم اعتقدوا بما يعزى للأولياء من القدرة العجيبة. فإن الجهلاء منهم يتوسلون بهم كما لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبادة على الطقوس المسيحية أو العبرية.

٥٦- المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد أقام سمو الوالى الدليل على حدة ذكائه وصدق نظره وأصالة رأيه. فلقد توصل فى ظروف كثيرة إلى كسر قيود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لها أبناء دينه ويرضخون لحكمها رضوخ الأسير المغلوب على أمره. وسأذكر على سبيل المثال حادثة لا يخلو إيرادها من الفائدة. وبيانها أنه قد ظهر بالقاهرة فى إبان حكمه ـ أى فى الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الأسس

الوطيدة، امرأة تزعم القدرة على الإنباء بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها تطلب أحدهم أن يبرز فيسارع إلى إجابة طلبها ، وتجعل الناس يلمسون فى الظلام يده ويسمعون صوته.

وكان السواد الأعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساؤهم، حتى لقد استفحل أمرها وارتفع شأنها، فلما علم محمد على بأمرها، وكان يريد استكناه سر هذه الساحرة التى أصبح يخشى خطر نفوذها، استدعاها إلى قصره، وأعرب لها عن رغبته فى الحديث مع جنيها. فرضيت أن تطلعه على ما خصت به من قوة وسلطان. وكان الوقت ليلا، فأطفئت أنوار المنظرة التى كان ضباط الجند مجتمعين بها. وكان محمد على قد أمر أتباعه أن يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم. فلما دعت المتنبئة الجنى أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم، حتى لقد وقع فى وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار. ثم قدم يده لكى يلثمها الباشا . ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع. فلما أضاء المكان إذا باليد يد المرأة نفسها. وحينما رأت انكشاف حيلتها وانتهاك سترها توسلت إليه أن يعفو عنها.

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سمو الوإلى وحكموا بأنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه،وأخذوا يمرمرون مستائين، فخطب سمو الولى فيهم مبينا لهم خطأهم فى سرعة اعتقادهم بما لم يكن صحيحا، ثم أمر بإلقاء المرأة فى النيل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به. ولكن محمد على تغلب عليهم بقوة الحجة قائلا لهم: إنه لو كان أحد الجن فى خدمتها، كما تزعم باطلا وبهتانا، فلن يتركها تذهب ضياعا فى النيل. أما إذا لم يكن لها صاحب من الجن، فإن ما لقيته من الهلاك هو الجزاء الحق لاجترائها على التغرير بالناس من غير خوف ولا حياء.

(٨)
الآداب اللغويـــة

الآداب العــربية ــ قصــة أبى زيـد الهلالى ـ المحـدثـون ـ الشعـر ـ القصص الخرافية المصرية

٥٧- الآداب اللغوية العربية

اذا كان لابد مــن ذكر الآداب العربية بمنــاسبة الكلام على آداب المصريين اللغوية، فإن هذا الموضوع من تشعــب الفروع وترامى الأطراف بحيث يتعذر على تناوله بالبحث. وغاية ما يمكننى قوله فيه إن آداب اللغة العربية لمن أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا وأكرمها جوهرا وأحسنها حلاوة وطلاوة.

ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها. وساغ لنا أن نقول فيها إنها أصبحت فى عداد الآداب الفانية.

ثم إن اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معا لمها، غير أن الضعف والجهل قد غشيــا الشعوب الناطقة بها. فبعد أن كانــت من الأمم المتسلطة صــاحبة الغلبة والحكــم فقدت استقــلالها وأضاعت معــه المواهب العالية التــى كان أبناؤها يبتكــرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلهــا مغزى، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة.

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعهــا واستيعاب حــوادثهــا. ويتناقــل الحافظــون لها وقــائعها العجيبــة المختلفــة بعضهم عــن بعــض بطريــق الروايــة. وهــم لايملون سماعهــا ولا يضجرون من تكرار روايتها. والغالب فيها أن تكون من حيث الوضع خليطا من النثر والشعر، ومن حيث الموضوع وصفــا مستفاضا لما كان العرب عليه فى معيشتهم، وما كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبــائلهم. ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق ما يستدل بــه على أخلاق هذه القبائل التى لا تزال على فطرتها الأولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وماكان يقع بينها من قتال لاتحوم أسبابه فى الغالب إلا حول مكيــدة غرامية يرصعونها بالحوادث الآخذة بالألباب لغرابتها.

٥٨- قصة أبى زيد الهلالى

من أهم تلك القصص وأحبها إلى الجمهور قصة أبى زيد الهلالى. وإنا لموردون هنا تحليلا وجيزا لها فى الأسطر الآتية:

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهن بغير غلام واحد لاذراعين له ولا ساقين. فلما يئس من إنجابهن غلاما كامل الخلقة تزوج من أمرأة أخرى غيرهن تسمى قدرة. فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل. واتفق، ذات يوم ، أن خرجت مع بعض خادماتها تتريض وتتنزه النفس، فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من طيور آخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر. فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت الى الله تعإلى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه، ولو كان أسود اللون مثله.. فأجاب الله دعاءها. فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده. جمع نفرا من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده. وفى اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطا به. فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاما لايشبهه ولأن لونه الأسود ينهض دليلا على فجورها ودنس ذيلها. فعمل الأمير بنصيحتهم هذه مكرها. لأنه كان شغوفا بامرأته ومقيما على حبها وعهد الولاء لها. وكان لايشك من جهة أخرى فى أن الولد ولده.

عادت قدرة إلى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال. ولقد روت قصتها على أحد الأمراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده، وأن يربى هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وسماه بركات. فانقضى زمن شب الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة البأس. فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتى من ضروب البسالة فى القتال ماسارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام فى كل مكان.

وفى ذات يوم عن له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره. فأثار هذا السؤال فى نفسها الميل إلى الانتقام من زوجها الذى طردها ظلما وعدوانا من بيته، ولوث سيرتها إذ رماها بشر ما ترمى المحصنات به من التهم. فقالت

لولدها إن رزقا هو السبب فيما يراه من عنائها وتتكبده من بلائها، وأنه القاتل لأبيها والمناوىء لقبيلتها. فاستشاط الفتى غيظا وأقسم إلا أن يأخذ بالثأر، وخرج لوقته رجاء اللقاء به وقتاله. فقاتله وتغلب الولد على والده على والده جهل منه بحقيقة الصلة بينهما، وأطلعته على سر الأمر قائلة إن الذى ظفرت به وكدت توررده موارد الهلاك إنما هو أبوك بلا نزاع. فتعرف الخصمان على بعضهما، وكان ذلك سببا لرضاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها إلى داره حيث عاش معها فى سلام ووئام وأحاطها بمظاهر الاجلال والاعظام، وخصها بالحب الخالص والولاء التام، وسمى بركات بأبى زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته.

ذاك هو ملخص الواقعة الأولى من وقائع قصة أبى زيد وفيها من غريب الحوادث وطرف النوادر وطليها مما لايتسع المقام لإيراده ولا الإشارة إليه. والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى.

وهناك قصص أخرى يميل العامة إليها ويحرصون على سماعها. منها قصة عنترة العبسى وغيرها. وقد ترجمت قصة عنترة كبير أبطال العرب إلى اللغات الأفرنجية، وهى ذائعة الشهرة فى أوربا، وأورد المسيو (دى لامارتين) نتفا منها فى غضون كتاب رحلته بالشرق.

٥٩-المحدثون

المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين. وأكثر تلك الفرق عددا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء، فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة.

وفى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعرا من تلك الفرقة، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر، ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسى، ويسمى رجالها بالعنترية، والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى فى

كل ليلة، ولاسيما فى ليالى الأعياد والحفلات. وقد أعدت لجلوسهم صفة= مصطبة = مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام، فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة. ويجلس السامعون أمامهم صفوفا متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن لشبك أو متذوق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاغتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التى يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب إلقائها. فإن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية والحركات التى من شأنها أن تستثير الهمم من مكامنها وتوقظ النشاط من سباته. وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل فى نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن فى الأساليب التى تشحذ العواطف، وكثيرا ما يستفزهم ذلك إلى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها إلى الأصل مع التماس المبالغة فى تحريك النفوس واستثارتها.

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكايتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم، وهذا غير ما يجمع برسمهم من السامعين. على أنه لا أحد من هؤلاء بملزم فى الحقيقة بدفع أى مبلغ إليه بمثابة أجر له، ولكنهم لايضنون عادة بشىء من المال كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته فى نفسه من السرور والارتياح والنشاط.

٦٠- الشعر

إن وزن الكلام وتقفيته سليقة فى العرب. فإنهم يميلون بفطرتهم إلى النظم والتقفية إلى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر، وقد بلغ عند الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيماً.

وقد انتشرت فى مصر الأغانى العامة الشبيهة بما نسميه عندنا بالرومانس. وينقسم إلى مقاطع تنتهى عادة بقافية واحدة.

وأغانيهم تختم فى الغالب بقولهم « يا ليل! يا ليل! » وبعض هذه الأغانى يرمى إلى الهجو، ويباح فيه ذكر ما لايباح عادة من القول، إلا أن أغلبه يستشعر منه الحزن العميق والشجو بتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائية واحتوائه من التشبيهات الشعرية ماهو مستمد من أخلاق الأمة

والصفات التى اختصت البلاد بها.

والشعراء المصريون يميلون كل الميل إلى تشبيه وجه المحبوبة بالقمر. ومما يذكرونه فى معارض شعرهم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الأسد وشوكته وجلاله، ورشاقة الغزال وخفته وحور عينيه وسكون الليل الخ. ويجدون فى لغتهم الغنية بالألفاظ ومطاوعتها لأداء المعانى المطلوبة ما يمهد لهم التعبير عما يخالج الفؤاد من الأحاسيس المختلفة والعواطف المتباينة.

٦١- الأناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الأغانى والأناشيد مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعرية تتغنى بها العوالم فى الأعياد العامة والأفراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الأهلين جميعا فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أوقات بسطهم وانشراحهم.

(٩) الموسيقى

الموسيقى العربية- استعداد المصريين الموسيقى- آلاتهم الموسيقية- إدخال الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى.

٦٢- الموسيقى العربية

يميل المصريون ميلا شديدا إلى الموسيقى. ولكنهم يرون أنه مما لايليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدراستها والتدريب عليها . وقد ذمها النبى محمد فى أقواله ونهى عنها، ولكنهم لميلهم الغريزى إليها تجاوزوا هذا النهى. فتراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بما فى أوقات فراغهم أو أثناء ممارستهم لأعمالهم. وبلغ من شدة ميلهم إليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة.

ومعلوم أن العرب تلقوا عن الأقدمين ما قرروه من القواعد والأساليب فى

الموسيقى وزادوا عليه زيادة كبيرة. ولم يطلقوا على هـذا الفن اسما من ألفاظ لغتهم، بل احتفظو للدلالة على أصله إليونـاني بلفظ الموسيقى الذى ما برحوا يسمونه به حتى الآن.

وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفـرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى. كما لوحظ أن بين الأغانى العـامة فى مصر والأغانى الشائعة فى أسبانيـا مشابهة فى كثير منها. ذلك لأن العـرب احتلوا البلاد الأسبانيـة زمنا طويلا. فكـانت تلك الأغانـى الشبيهة بالأغانـى المصرية بعض ما تـركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها. والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والارغن.

أما الموسيقى المصرية الحاليـة فلم تكن إلا فنا من الموسيقى العـربية طرأ عليـه الفساد. وهـى تمتاز بتقسيـم الصوت إلى أقسـام والأقسام إلى أجـزاء صغيرة، كما تمتاز باختلاف مقامها عـن مقام الموسيقى الأفرنجية. ولاسيما من جهـة عدم وجـود المفاتيـح فيها بـالمرة. ومع هـذا فإن العـرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيـب، ويحلونه هم إلى ثلاث وأرباع وأثمان. وهذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرها. ولدقة تدرج هذا التقسيم يتعـذر. بل يستحيل على االأوربيين تقليد الموسيقى المصرية، وإن يكن أهل البلاد يدركونها ويلتقطونها بسهولة تامة.

والأوربيون، إذا سمعوا الموسيقـى العربية، لا يشعرون بشـىء غير ذلك الشعور الذى يبث فى نفوسهم الحزن والشجو. على أن اتصافها بهذا الوصف الخاص، مضافا إلى بسـاطة الأنغام التى تتـألف من مقامـات صغيرة العدد جدا، للدلالة على بضعة أسطر من الغنـاء، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الأسماع. ومهما يكـن مـن آراء الغـربيين فى محاسن الموسيقـى العـربيـة أو مقابحهـا، فمن المجمع عليـه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين مـن خصائص الجمال والجلال، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن إلى أداء الصلاة.

أما المصريون فسريعو التأثر بأصوات المطربين منهم بالأغانى والأناشيد. وهم يشجعونهم على الإحسـان ويستفزونهم إلى الإجادة بما يوجهـونه إليهم مـن عبـارات الاستحسـان والتحبيـذ التـى يعبرون بها عـن شعـورهـم، إذ يصيحون بلفظ الجلاله قائلين « الله!» كلما بلغ الطرب منهم قصاراه. فكأنهم

يقصدون بإيراد ذلك اللفظ المعنى الآتــى مقدرا: « أحسنت أحسن الله إليك!» أو « صوتك رخيم حفظ الله صوتك!».

٦٣- استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميـل المصريون إلى سماع الموسيقــى منذ قــديم الــزمان. ومـا برح هــذا الاستعداد الفطرى بـاقيا فيهم حتى الآن. فانسجام الأنغـام وإتزانها وضبط قوافيها سليقــة فيهم، حتى إنك ترى النــاس إذا أرادوا التعاون على أداء عمل، قامـوا به على أحســن ما يـراد بفضل ذلـك الاستعداد الفطـرى الذى ينظـم حــركاتهم أثنــاء عملهم. فيعــاونهم نظـامها على أدائه مــع الاتفاق والسرعــة. ويتمكنون فى الأعمال التــى يستدعى أداؤهــا اشـتراك الأيدى العاملــة اشتراكاً مقــرونا بــالإجماع المنظم، مــن الحصــول على هذا الإجماع بــالتغنى جميعــا بصوت واحد.

ولبعض الصناعات عنــدهم أغان خاصة يقصد بــالتغنى بها التعاون على إنجازها بــالسرعة والدقة. فللمراكبيــة أغانيهم وأناشيدهــم التى إذا تغنوا بها وأنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جــر المراكب فى الأوقات التى لا تكون فيها الرياح موافقة، وللسقــايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يســاعدهم على ملء قربهم بــا لماء وحملها و،تفريغهــا، وهكذا بالنسبــة لكل صنعة وحــرفة. وإذا تــذكرنــا أن بعض شعــراء العصور القــديمــة مثل (ابشيــل) و(مارسيــال) و(أوفيدس) قــد استرسلوا فى وصــف محاسن الأغــانى النيليــة، استطعنا أن نسلم. على سبيل الترجيح. بأن الأغانى التــى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفــن فيه، هى عين الأغانــى التى كانت ضفتــاه ترجعان صداها قبل بضعــة ألوف من السنين، ولكل طبقة من الأمــة أغانيها الخاصة بها. أما أغــانى طبقة العلماء فتستروح منهــا رائحة الجد والشدة، لأن أغــانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بــالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم.

٦٤- الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريون آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هى من أبسط ماعرف من الآلات وأوفقها للحالــة الفطرية. نذكــر منها الطبل البلدى، وهــو من النحاس

ويشبه المرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق، والنقاقير وتستعمل فى المواكب. والكاسات وتستعمل فيها أيضا، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شيء من النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن، والدف بكاسات صغيرة (الطار) ويشبه طبل البشكنس، والدربوكة هى طبل مخروطى الشكل ينتهى بأنبوبه مجوفة، وتمسك بإحدى اليدين بينما تدق اليد الأخرى على الرق الممدود فوق فتحتها. وبالجملة فشكلها يشبه شكل القمع الكبير وهى كثيرة الشيوع فى القطر المصرى. والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجا غريبا.

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناى والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل إلى الزمر بها.

أما الآلات الوترية فابسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة. وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم القصص. والربابة آلة جديرة بالذكر. فإنها عبارة عن كمنجة لا تجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية. واستخراج الأصوات منها بواسطة القوس. والآلات الأخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة، وهى ذات وترين يتألف كلاهما من أكثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة إلى بعضها. إذ إن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة مثقوبة بثقوب صغيرة. والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم، والقانون، والعود، وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد.

٦٥- المغنون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية، مفرده آلاتى، وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، إذا جيء بهم إلى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة. والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة، من محض كرمهم، شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة، وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيرها، وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض.

وفى مصر مغنيـات يسمين بالعـوالم، مفـرده عـالمة، وهى كلمـة أطلقهـا الأوربيون على جميـع الراقصات من غير تمييـز ولا استثناء. مع أنـه ليس فى هـذا الإطـلاق شىء مـن الصـواب. ويقـدر المصريون كثيرا مهـارة العـوالم وحذقهن فى صناعتهن، واعتاد نسـاء الأغنياء أن يأتين بهن إلى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقـات الطار والدربكة- بينما يكون رب المنزل وأصدقـاؤه من المدعـوين مجتمعين بصحـن الدار ليطـربوا أسماعهـم بتلك الأنغام. والعوالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى صنـاعتهن تدفع لهن الأجور العالية وتقدم الهدايا النفيسة.

وأغانـى العوالم شـديدة التشابـه والتجانـس لا تلبث الأذن أن تمل لهذا السبب سماعهـا. ومن هـذا الوجه لا محل لمقـارنة بينهـن ومغنياتنـا اللائى يمتزن برخـامة الصوت ونعومته ورنينه، ومـن المغنين من يتسمون بجمال أصواتهم وهـم يتوخون مـن مقامات الصـوت، الجهير الكروانى وبـالجملة الأصوات الحادة حتى تـراهم وقد انتفخت أوداجهن لهذا الغـرض وتكلفوا ما فوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العـالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن. وهيئتهن فى هذه الحالة لمن أغرب ما تقع عليه الأبصار، لأنهم عقب هذا الانتفاخ يطـرقون برؤوسهم ويضعون أصـابعهم فى آذانهم ويحشونها بتجويف كفوفهم ويخرجون الأصوات من حلوقهم بأقصى مجهودهم.

٦٦- الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة فى الجيوش الأوروبية موسيقى خاصـة بها، أرادت هذه الحكومة أن لا تكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب. فاستدعت إلى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها إلى مـؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الأسبانيين فى الفنون الموسيقية. فأنشأ هذا الأستاذ ببلدة الخانقاه، حيث كان ميـدان تعليم الجيـش وأركان الحرب، معهـدا للموسيقـى جمع بين جدرانـه مائتى تلميذ. فتعلـم هؤلاء الطلبة الموسيقى الأوروبية الصوتيـة وتدربوا على الضرب بآلاتنـا. وكما أنهم استعاروا منـا آلاتنا الموسيقية. كـذلك أخـذوا عنا أدواتنا الحربية وأغانينا العسكرية.

وفى هذا المقام لايسعنى إلا الاعتراف بأننى بالرغم من سرورى واغتباطى

بسماع أنغامنا الوطنية والأناشيد العسكرية ترددها الأجواء على مقتضى إيقاع تلك الأنغام والأناشيد، إلى غايات الفوز والفخار فى المكان الذى سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتباط والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا، ونقلهم إياها عنا من غير تحوير ولا تبديل. فإن موسيقانا لا تؤثر بالمرة فى المصريين، حتى أن أنشودة بونابرته لا تهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطعها أسماعهم. دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية. فإن حكومات أوربا لما أنشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لا ترمى إلا إلى غرض واحد وهو التأثير فى العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة.

ولاشك فى أن الموسيقى لغة، ولغة فصيحة تؤثر فى مجاميع الناس وطوائفهم تأثيرا عظيما، ولكن إرغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بآلات غير التى ألفوها قد أوقع الذين أرادوا هذا الإصلاح المعكوس وقاموا به فى عين الخطأ الذى وقع فيه من يريد تحريك شعب بإرغامه على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لايفهمونها لأنها غيرلغتهم. وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سرورا إذا سمعوا أغانى المغنين والآلاتية منهم، وهى على ما عرفت من التجانس والتشابه الباعثين على الملل، لا يشعرون حين سماعهم الآلات والأدوار الموسيقية الأوروبية إلا بالملل وانحراف المزاج. وإذا كان من الآلات الأوربية ما يتلذذون بسماعه وتحسن فى نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير. اما الآلات الأخرى فأصواتها فى حكمهم خليط لايستحق الاهتمام والاعتبار.

وكان الواجب والصواب فى آن واحد، أن يستدعى إلى مصر فريق من الفنانين فى الموسيقى القادرين على إدراك مغازى الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها. وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير فى نفوس الجنود المصريين تأثيرا موسيقيا لا ريب فيه.

وبدهى أنه ما كان لموسيقانا أن تجد، بين أناس لا يهتمون بها ولا يخفق

لهم قلب عند سماعها، أن تـؤدى أداء حسنا بمعرفتهم، فلم يكن مـن الغريب إذن أن تقر الحكومة مـا أقرته من إلغاء معهد الخانقـاه الموسيقى الذى كان ـ بالـرغم مـن الموانع والصعـوبات السـالفة ـــ ينشىء عـددا لا بأس بـه من الموسيقيين الأكفاء القادرين. وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا فى كل أورطة من الجيش معلما أوربيا للموسيقى، ولكن مـا كان بميسور لمعلم واحد ان يحرز ذهنه نظـرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طـريقة استخـراج الأصوات منها. لذا كان متعذرا على الموسيقـى العسكرية المصرية أن تجارى الموسيقى الأوربيـة. ولو تـرك المصريون وشـأنهم فى تطبيـق الموسيقى الأوربيـة. على حاجاتهم لتطرق إليها الفساد والاختلال بلا ريب.

(١٠)
الرقـــص

الرقص المصرى– الرقصات والعوالم– الرقاصون.

٦٧- الرقص المصرى

لا وجـه بالمرة مـن وجود الشبـه بين رقـص الشرقيين ورقص الغـربيين. فعندنـا ينظر إلى الرقـص بوجه عـام من حيث كـونه إحدى وسـائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن. أما فى الشرق فمحال أن ترقـص امرأة مـع رجل. والـرقص فى أوربـا رياضـة عملية تتلخـص فى أداء أشواط من الحركات موقعة إيقاعا متنـاسقا وتحريك الساقين تحريكا يراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط.

أما فى مصر فما هو إلا تتابـع أوضاع وتعاقب حركات يلتـوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى. يرمى بذلك إلى غـرض واحد هو أستثارة كوامن الشـوق إلى الملاذ الشهوية.

والمفهوم أن الـرقص المصرى وجد بنوعـه وشكله منذ العصـور الموغلة فى القدم. فقد رأيت فى النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرهما مناظر ممـا يقع داخـل البيوت كمنـاظر الـراقصـات فى ثياب كـالتى يلبسنهـا الآن

وأوضاع وحركات لا تختلف فى شىء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم.

ثم إن هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات. وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين. فإن رقص الراقصات الأسبانيات من نوع الرقص المصرى، وهو مطبوع بالطابع العربى. ولكنه، والحق يقال، أخف من الرقص المصرى وأرشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية.

والغرائز فى مصر، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها فى سائر أقطار المملكة العثمانية. فإن الرقص، مع أنه غير مباح فى الديانة الإسلامية، مسموح به لغوازى (الراقصات العموميات) اللائى لايقتصرون فى عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة. بل يتجاوزنها إلى الطرقات والميادين العامة. على ملأ من الجمهور. ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة فى مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال فى طرقات القاهرة والإسكندرية.

ولا يدخل الرقص فى برنامج الدروس التى تعلم للبنات، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن. ومع أن هذه الحركات فى غاية القبح وسوء الأدب فإن الأهلين لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها. والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات الذيل لا يجرؤن على الرقص إلا فى داخل منازلهن بين صويحباتهن، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من آبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن. ولما كان الرقص من وسائل التسلى والابتهاج التى تروق السيدات كثيرا، فقد اعتاد العظماء والأثرياء اتخاذ الراقصات فى منازلهم من الجوارى لإدخال السرور على زوجاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن.

ومن النادر جدا أن يدعو المسلمون الغوازى إلى منازلهم. فإذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فإنما هم اليهود والأوربيون. وإذا اتفق وجود الغوازى فى منازل المسلمين برسم الرقص فإنهن لا يرقصن إلا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال. وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فانه يحصل فى بهو الاستقبال. والراقصات إذا

رقصن فيه برسم الرجال جيء بالنوبة ـ أى طائفة آلات الطرق، وبيد كل من رجالها إحدى الآلات التى سبق وصفها، لايقاع الحركات على مقتضى الأنغام. ويبلغ شعـور الراقصات بالحاجـة إلى الإيقاع والتناسق فى الحركـات إلى حد أننى شهـدت بنفسى البعـض منهن لا يستطعن القيـام بأداء حـركاتهن، إذا قصرت الموسيقى عن أداء الأنغام بحسب الوزن المطلوب.

والعـادة أن يجلـس الموسيقيـون فى ركن مـن أركـان البهـو وأن تشغـل الراقصات المكان المعروف بالـدركة، وأن يجلس المدعوون فى سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المرأى الشهوى وهم يدخنون الشبكات. ويطاف على الراقصـات والموسيقيين، من آن إلى آخـر، بأقـداح العرقـى الذى يستفـزهم بالتـدريج إلى الإمعـان فى الرقص والغنـاء. ولكنه كثيرا مـا يفقدهـم الصواب ويلقيهم فى غيابـات السكر جميعا فلا يفيقـون من سكرتهم إلا بعد سـاعات طويلة. أما إذا كان الرقص فى الحرم فإن الموسيقيين لايحضرون مجلسه. وفى هذه الحالـة توزن حركات الـراقصات بالطـار والدربكة الذيـن ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت.

٦٨- الراقصات

السواد الأعظم مـن العوالم فى مقتبل العمر وعلى حصـة وافية من الجمال والحسن، إنهن يجمعن إلى فـن الرقص مزية الاتصـال مع الرجال بـالروابط التى تربط الخليلة عادة بخليلها. وملابسهـن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتـأنقات فى ثيابهن اللائى وصفنـاهن فى غير هذا الموضـع، ولكنها تختلف فى مظهرها الخارجى عن ملابـس الحلائل الطاهرات الذيل. فمن ذلك أنها تضغـط على أجسـامهـن فتصفهـا أكثـر ممـا تصـف ثيـاب الحلائل أجسامهن، دع أنهن يكشفـن عن نحورهن وسـواعدهن، ويتوخين الـزخرف والزينة فى ثيابهن وحليهن، ويتخذن هـذه الثياب من فاخر الأقمشة ويتحلين بالكثير من المصوغات والجواهر.

وإذا رقصن يرقصن إمـا مثنى وإما رباعا. ومع كونهن يتحـرين التوفيق أحيانا بين حـركاتهن، فإنهن لا يأتين بـأوضاع منتظمة كالتـى تتراءى لنا فى الصور أو على مسارح التمثيل.

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعنى عن التصدى لإيراد تفاصيله ووصف أجزائه. لذا أكتفى بوصفه وصفا سطحيا يصور للقارىء شيئا من حقيقته. فإنهن إذا اصطففن فى الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج (الصاجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الإبهام والسبابة) محركات أيديهن فوق رؤوسهن وحول أجسامهن، فيؤدين هذه الحركات أداء جميلا للغاية، وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذى يتلخص وصفه فى احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك الذراعين والتقائهما بحيث يتكون منهما ما يشبه الحلقة ثم انخفاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الأطوار المختلفة للشعور الشهوى الذى يستثير هذه الحركات فيهن.

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكلف الكلل والملال وما يستتبعانه من الفتور والدلال. وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنثنى فتنحط بفعلها الحرقفتان تارة وترتفعان طورا أخر، وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها منافية للحياء والحشمة لدلالتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدثها.

ورقص الغوازى على صنوف متنوعة. أولها، وهو أدلها على ما هناك من الجرأة فى أداء تلك الحركات، مصرى الابتكار. وثانيهاخليط من الرقصين المصرى واليونانى إذ يتخلله التنقل بالخطوات. وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة. ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعة النحلة، فيأخذن بالبحث عنها فى ثيابهن صائحات : « النحل أوه! النحل أوه!» ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لا وجود لها الا فى مخيلتهن يتجردن شيئا فشيئا من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفافة تخفق بشدة حركاتهن حول أجسامهن، ويفتحنها من آن إلى آن ثم يضممنها بمقتضى الإيقاع النغمى.

وإنى اترك للقارىء الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوامن الشهوات حتى فى العواطف الجامدة.

ومتى بلغ الرقص من مداه حدا تثور فيه الأشواق الشهوية، تلجأ الراقصات إلى الراحة وتختلطن با لمتفرجين لمعاكستهم ومناوشتهم. وأغلب ما يوجهن دعابتهن إلى زعيم المدعوين وعظيمهم. ولست بحاجة إلى القول بأنه لا يتمالك نفسه من الاسترسال معهن فى هذه الدعابة. ومن مزاجهن فى هذه الفرصة جلوسهن فى حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معانقتهن إياه. وبالجملة فإنهن يتطوحن معه فى أساليب من المداعبة والمطايبة ينفر منها من لم يعتدها. والأوربيون يخجلون طبعا من نظرها أو سماعها. أما بقية المدعوين فيظهرون للراقصات ارتياحهم منهن وإعجابهم بحسن أسلوبهن فى الرقص، ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها إليهن على شكل يدعو إلى الاستغراب. إذ غالبا ما تكون هذه الهدايا قطعا صغيرة من النقود الذهبية يريقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحورهن وسواعدهن.. الخ.

وأجمل العوالم وأبرعهن فى استمالة الرجال إليهن يحرزن فى الغالب جانبا لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة، وتتألف منهن فى الأمة المصرية طبقة خاصة تعيش فى معزل عن سائر الطبقات.

وغير خاف أن الغوازى يرجع تاريخ وجودهن إلى العصور الموغلة فى القدم أى إلى العصر الذى ابتكرت فيه حركات الرقص الشهوية التى كان الفراعنة الأولون يتلهون بمشاهدتها . بدليل ماهو منقوش من صور تلك الراقصات فى قبورهم منذ آلاف السنين.

٦٩- الراقصون

معلوم أن فى الرقص المصرى شيئا يخالف المألوف ويستفز العجب. ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بما يكون أوفق لمقتضى الآداب والأخلاق الفاضلة. وعلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضل بكثير من الحركات السخيفة السافلة التى يقوم بها الراقصون فى مصر.

ومع أنه من المقر فى الدين الإسلامى أن لايباح لرجل مشاهدة رقص النساء. فإن من الرجال فى مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم «الخولات».

والخولات يتزيون عادة بزى النساء . وإذا كان الـرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الـرائى استحسان رقصه فإن الخول المصرى إذا رقص، لا يترك فى نفس من يشاهده إلا التقزز والاستنكار. وحينئذ فما يعتبره الناقدون غير ملائم للأدب فى رقص العوالم ممقوتا ومخجلا فى رقص الخولات.

ومنذ صدرت الأوامـر بمنع رقص النساء على قوارع الطـرقات إزداد عدد أولئـك الـراقصين المخنثين زيـادة ينـدى منهـا جبين الأدب ويحمـر وجـه الإنسانية، وكان من أثر ذلك المنع أن حـل مكان فساد فساد آخر أسوا وأفظع منه. وإنى لأرجو مـن الحكومة المصرية أن تعجل باقتـلاع جذور هذا الخزى الذى يدنـس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضر منه من بـاب التفضيل على مالا قبل لأحد بضره وشره.

(١١)
الألعاب والرياضات والمشعوذون

الألعـاب الحسابيـة- الريـاضـة البدنيـة- ركوب الخيـل- الحواة والمشعوذون

٧٠- الألعاب الحسابية

أكثر الألعاب موافقة لطبيعة الـدعة والسكون فى المصريين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الألعاب الحسابية التى نذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج. ولهم بهذه الألعاب ولع شديد. إذ كثيرا ما يرى الـلاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقل قطعها على الـرقع. وصناعة هذه القطـع لا أثر فيها لدقة. وهـى برسم الكبراء والأثرياء تصنع من الأخشاب الثمنية أو سن الفيل.

أما لعبـة الورقة (الكتشينـة) فالاقبـال عليها قليل، ولـذا ترى المصريين يجهلون الألعاب التـى تبنى عليها وتستنبط منهـا ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته.

وهناك ألعاب أخـرى خاصة بمصر والشرق يطول بنـا الشرح إذا تصدينا لبيانها فى هـذا المقام، وإنما نذكر منهـا لعبة المنقلة وهى تلعـب من اثنين على

لوحـة من الخشب حفـر فى اتجاهها الطولى إلى كـل جانـب من جانبيهـا ستة تجاويف يتألف منها صفان متوازيان وتوضع فيها قطع صغيرة من الأحجار أو أصداف بحـرية بقصد ضمها جميعـا بتدبير اللعب وسياستـه فى تجويف معين من قبل.

ثم لعبة الطابـة وهى عظيمة الانتشار شديدة الالتبـاك، وبينها وبين لعبة الطـاولة بعـض المشابهة. أمـا لعبة السيجـا فأكثـر الناس إقبـالا عليها هـم الفلاحون، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة الدامة.

واللعب بهذه الأدوات تجرى أدواره إما بـالمنازل أو بالقهوات العـامة وفى النادر يكون النقد موضوع المراهنة. إذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة.

٧١ - الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صـالحين للقيام بالتمرينـات الرياضية البـدنية التى تتطلب من مؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل فى قلوبهم أمام ما يحسبـونه خطرا على حياتهم وضنهـم بأرواحهم أن تجشم المتـاعب والمصاعـب. لهذا لم تقع الأنظار عليهـم متنافسين فى إحراز قصـب السبق فى الركـض أو المصارعة أو غيرهما مـن ضروب الريـاضة التى تبث فى الجسم النشاط والهمـة وتكسب الأعضـاء اللين والمرونة. نعـم إن الفلاحين اعتـادوا المنـازلة أحيـانـا فى الأعياد والحفـلات العـامة بـالعصـى الطويلـة المسماة بالنبابيـت التى مدار الفوز بها محاولـة إصابة الخصم فى رأسـه ولكنهم، إذا هموا باللعب، يحملون على بعضهم البعض بـالضربات أو يتقونها بهمة فاترة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسالة والإقدام

وعلى كل حـال فمنازلتهـم بعضهم البعض على الـوجه المتقـدم لا تنهض دليلا على أن فيها شيئـا من البراعة والحذق. وهم يباشرون المصـارعة أيضا، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى نصف أجسامهم عاريا. وهم يدلكون هـذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصـارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الأرض. ولكن الذين يشهـدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقـدرونها قدرها ويعتقدون توافر

هذه المزايا فى المصارعين الأوربيين لايسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين الازدراء والتهكم والاحتقار.

٧٢- ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظور إليها فى الشرق بعين الاجلال والاحترام. والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة وأسماها قدرا، ولا يكادون يتجاوزون طور الطفولة حتى يتفرغوا للتدريب عليها، ولاسيما إذا كانوامن البيوتات الكريمة أو الأسر المعروفة بسعة العيش وكثره المال، ولتدربهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد الخيل جموحا وأكثرها شموسا بهيئة تدل على الوقار وحسن السمت وجلال الهيبة. ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثيرة من الحركات التى من شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الخيل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى يصير حضور الذهن من أخص صفاتهم، ولقد كان المماليك فى الزمن السابق متفوقين فى هذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم فى الخطران بالسلاح، وهم على متون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها، إلى وصف فرق الخيالة وشراذمها منهم بأنهم أحسن الفرسان طرا على وجه الأرض.

وكان من أخص رياضاتهم بعد انثلال = زوال = عرشهم وانقراض ذريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد. وهى مما يذكرنا ببراجسنا القديمة أيام انكباب الناس فى فرنسا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات البدنية على متون الخيل، ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدوا من جانبين متقابلين ليلتقيا ببعضهما.. ففى أثناء هذه يقذف أحد الفارسين بأقصى فى ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها من أربعة أقدام إلى ستة يقصد بها إصابة الفارس الآخر. فإذا أصابة بها فقد يحدث به جرحا بالغا ـ ربما يلقى بسببه حتفه، وهذا لا يكون طبعا إلا إذا أنفق من قوته الكثير من إلقاء تلك العصى على نظيره. ولكن وجه الحيلة فى تلك اللعبة أن يستطيع الفارس المراد إصابته بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده وهى تخترق الجو مصوبة إليه. وقبل أن يبرز فرسان العرب لأداء هذه اللعبة العسكرية يقضون زمنا طويلا فى التمرن على إصابة غرض ثابت معين

بالعصى من الجريد.

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التى تشاهد فى ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها.

٧٣ - الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيرا فى شوارع القاهرة وميادينها، وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان ما يتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر. وهم يقومون بعدد عظيم من الأدوار يكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه إليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التى لاتتفق ومكارم الأخلاق. وللحواة عادة عون أو عونان من الأطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون فى جسم أحدهم نصلا أو رمحاً من الحديد، وهذا السهم انما يغيب فى قراب من الخشب. وقد يطرح الطفل أرضا ويستعمل الطريقة عينها.. موهما الناظرين أنه يغرز فى أنفه نصلا مطويا أو مدية صغيرة. وفى أحيان أخرى يفتح شدقه ثم تمسك بخديه داخلا وخارجا لينفذ منه قفلا لا يلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين، والحقيقة أن شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرج أنه يقاسى من العذاب ألوانا.

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين فى أوربا. ومن أخص أدوارهم دور الأكواب التى يحولون البيض فيها إلى كتاكيت، ويصبغون بالألوان المختلفة قطع الورق الأبيض الخ. ومن أدوارهم أيضا إيهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونهما من أفواهم مغزولين وملونين بمختلف الألوان، ومنها أنهم يلقون التراب فى إناء ممتلىء ماء ثم يستخرجونه فإذا به جافا، ويتفننون فى أشباه هذه الحيل التى لا يحصيها العد بين استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة.

وفى أيام الأعياد والحفلات يقوم الجعيدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة فى الطرقات والميادين لإدخال السرور على العامة. ولدى

المصريين وسيلة لهو يقـوم بالتمثيل فيهـا تماثيل صغيرة على شبـه الإنسان وتسمى بالأراجوز. والممثل الـذى يحرك التماثيل يستتر عن أنظار المتفرجين فى مربع من الألواح الخشبية ثم يحرك تلـك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافها ويقرن حـركاتها بأقـوال يفوه بها. فيخيل للسـامع أنها أقوال تلـك التماثيل وألفاظها.

وهنـاك طائفـة من ممثلى الـروايـات المضحكة تـؤدى أدوارها فى منـازل الخاصـة ولا يـدخـل فى تضـاعيفهـا مـن الحوادث مـا يستمـد مـن الحيـل والدسائس أو يشير إلى أنها جاءت عفوا ومـن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل. وبالجملة فإن مصر مهد لفرع من فن الروايات لايزال على فطرته الأولى مجردا مما تحسن فى السمع أو البصر.

وهناك طـوائف وفرق مـن البوهيميين « الغجـر» يمثلون أمـام الجمهور بعض أدوار القـوة والصـلابـة البدنيـة، فيرقصون على الحبـال المشدودة أو يطوفـون على الناس بقـرودهم وكـلابهم وغيرها مـن الحيوانـات المعروفـة بالذكاء فيجعلونها تـرقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكـة ما يدخل السرور عليهم.

(١٢)

٧٤- الأعياد والحفلات العمومية

إذا استثنينا حفلة قطع الخليج، وهى الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ الألوف العديدة من السنين، فإنا نجد الأعياد والحفلات الأخرى كلها ذات صبغة دينية لا مراء فيها.

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الأمر والباحث عن أسبابه، أول وهلة، أن الشريعة الإسلامية لم تترك جهدا إلا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الأخرى. فهى فى دعـوتهم إلى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفير الـذى ينفخ العبرانيـون فيه لهذا الغـرض، ولا الأجراس التـى يدقهـا المسيحيون لـه، بل قضـت بأن يكـون الأذان هو النـداء الداعـى إلى الصلاة.

والعادة، إذا دخل الإسرائيليون معابدهم، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفـة رؤوسـهم. كما أن عادة المسيحيين، إذا غشوا الكنـائس، أن يكشفوا رؤوسـهم.

أما المسلمـون فإنهم إذا دخـوا مساجدهـم أبقوا عمائمهـم على رؤوسـهم وخلعوا نعـالهم. وحتى لا تكون هنـاك قدوة باليهـود والمسيحيين فى راحتهم الأسبوعيـة لم تتخذ الشريعة الإسلاميـة أحد يومى السبـت والأحد لالتماس الراحة من عنـاء العمل، بل اتخذت له يوم الجمعة الـذى لم يكن المقصود به، بمقتضى الشريعة الاسلامية، الإمساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة. ولهذا ترى المسلمين، بعد قيامهم بهذه الفـريضة الدينية، ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم كما اعتادوا مزاولتها فى بقية أيام الأسبوع بلا فارق أبدا.

أما الأعياد العامة التى يتحتم عليهم الاحتفال بها فتنحصر فى عيدى الفطر والأضحى. وليست الاعياد الدينية الأخرى التـى سأسردها فيما بعد، إلزامية كالعيدين.

فالسنة الهجرية من هذه الأعياد، تبتدىء بشـهر محرم الحرام. لأن العشرة الأيام الأولى مـن هذا الشـهـر تعد من الأيـام المباركـة، ويرتبـط بها كثير من الأوهام البـاطلة التـى يسلم العـامة بصحتهـا، ويسمى اليـوم العاشر منهـا بعاشوراء بذكرى وفاة الحسين شـهيدا فى واقعة كربلاء.

وفى صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة إلى مصر.

ومنذ الشـهر الثـالث من السنة الهجـرية تعد المعدات العظيمـة للاحتفال بمولد النبـى وإقامته فى ميدان الأزبكية بمظاهـر الأبهة والجلال. والدراويش السعـديـة المحور الأكبر الـذى يـدور عليـه هـذا الاحتفال العظيـم. فـإنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار التى سبق لى وصفها فى إحدى الفقرات المتقدمة. والعادة أن يبقى الشيـخ البكرى، شيخ سجادتهم، بميدان الأزبكية. فإذا أقبل ذلـك اليوم عاد فى موكب جليل مـن المسجد إلى داره. وقبل أن يصل إليها بقليـل يقف فى الطريق حيـث تقام بحضوره الحفلة المعـروفة بالدوسة.

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطيا جواده، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الأقدام. والذى يزعمه أولئك الدروايش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما، وأن هذا ينهض دليلا على ولايته.وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الأولياء أشهرها مولد الحسين ثم مولد السيدة زينب. وليلة السابع والعشرين من شهر رجب تعد من الليالى المباركة التى ينبغى إحياؤها بالحفلات لأنها ليلة المعراج التى عرج النبى فيها إلى السماء. وقد ذكرت أن شهر رمضان وعيد الفطر الذى يتلو ختامه وعيد الأضحى الذى يطابق وصول الحجاج إلى مكة من الأعياد التى تقام الحفلات العامة برسمها.ففى هذه الأعياد وفى ليالى رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بإدخال السرور على الجمهور فى الشوارع كلها مما يسهل على الباحث فى أحوال مصر وعادات أهلها الوقوف على ما يمتاز به الشعب المصرى من الأخلاق الغريبة والعادات العجيبة.

(١٣)
بيانات تفصيلية عن الأخلاق

٧٥ - الشحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون فى أغلال العوز والفاقة، فإن الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة فقرهم وعوزهم. وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر فى دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمرا ميسورا عليهم. بل إن مداركتها من السهولة بحيث يندر أن يوجد فى القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه.

ويتقى المصرى برد الشتاء بقميص بسيط. لأن الشتاء فى مصر لم يكن زمهريرا، ولا يرهب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده إياهما منذ نعومة

أظافره. وإذا لم يكن مالكا ما يسد به الرمق من القوت فإنه يثق بحصوله على شيء من الخبز من أى مكان من أبناء جلدته يواجهه فى طلب إسعافه، فالمصرى الفقير لا يموت بالجوع أبدا.

وكان بعاصمة القطر المصرى فى زمن مضى جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الإسلام فى نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والإحسان، حتى اقتنوا من المال شيئا كثيرا من تلك الطريق بإلحاحهم وإلحافهم فى السؤال. وكان سوادهم الأعظم ينفقون هذا المال فى ملاذهم، ولاسيما فى تدخين الحشيش. فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظا فى هذا العالم للشحاذين وأن ما يشعرون به من الملذات الخيالية لا يختلف فى شىء عن الملاذ الحقيقية التى يحس غيرهم بها فى عالم الحقيقة. ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعا لشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمائة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا.

٧٦- اللصوص

كان انتشار الفوضى فى مصر، قبل أن يتسلم محمد على ذروة الحكم، من بواعث اختلال الأمن واضطراب حبل النظام وتؤلف عصابات اللصوص فى كل مكان، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى. وقد اختص لفيف منهم بالقرصنة على نهر النيل. إذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ما تحمله، ويتخيرون الليل لارتكاب جرائمهم.

وتدور على ألسنة الناس قصص عن مهارتهم وجرأتهم تكاد لاتصدق. ولكنهم كانوا مع ذلك فى غاية الجبن. إذ كانوا يخشون بأس الأوربيين ويفرون من أمامهم إذا وقفوا لهم وقفة الجاد لا المازح وكشروا عن أنيابهم. لقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنة فى النيل واللصوصية التى اتخذها العربان حرفة لهم، وألزم سكان القرى جميعا الذين تقع فى دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعة ما يقع منها من دفع التعويض الوافى متضامنين لمن يصيبهم الضر من جرائها. فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظام، ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين من السهر على حفظ الأمن

والسكينة فى نواحيهم.

ومع هذا فحوادث السرقات بمصر أقل منها بأوروبا، وعلى الخصوص الحوادث المصحوبة بالظروف المضاعفة للعقوبة كأن تكون السرقة سطوا استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ.

٧٧- المحكوم عليهم

منذ أنشئت ترسانة الإسكندرية ابتكرت للمجرمين عقوبة جديدة قصد بها إفادة هذا المصنع العظيم ببعض الأيدى العاملة وصرف أصحابها عن الأذى وتعويدهم العمل الصالح. فالمجرمون الذين ارتكبوا جرائم معينة يحكم عليهم الآن بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدد طويلة أو قصيرة. وهذه العقوبة فى مصر لاتسيء سمعة المحكوم عليهم بها ولا تحط من أقدارهم، إذ كثيرا ما شوهدوا بعد انقضاء مدة العقوبة وانقلابهم إلى أهليهم وهم يحلون محلهم القديم فى المجتمع الإنسانى، ويتحلون بالرتب والامتيازات التى كانت لهم قبل الحكم عليهم. ولو حظ فى حالة ميلهم إلى الزواج أن لا أسرة من الأسر التى طمح فى الارتباط معها برابطة المصاهرة رأت فى سعيه لديها ما يلوث شهرتها أو يذهب برونقها أو يحط من مكانتها بين الناس. ويدعو إلى ذلك أن المسلم لايرى فى العقوبة التى يقضى بها الشرع ما ينافى شرفه وكرامته أو يصمه طول عمره بوصمة الخزى والعار.

٧٨ - القتل

إذا كانت حوادث القتل فاشية عند الأمم المتمدينة فإنها فى بلاد الشرق نادرة الوقوع جدا. أما ما قد يحدث أحيانا فى هذه البلاد من جرائم التعدى على النفس فتعليله لا يرجع إلى مثل ما يعلل القتل به فى أوربا من الشهوات الدنيئة والأهواء السافلة والغرائز الوحشية الخ ما يدعو عامة المجرمين بأوروبا إلى إزهاق النفوس البريئة.

إن المصرى قد فطر، فى الأحوال العادية، على دعة الجانب ودماثة الخلق والنزوع إلى الطاعة. وليس من الممكن، وهو فى هذه الحالة، أن يقصد ارتكاب جريمة تقضى إلى إراقة الدماء أو يصر على أى جرم من هذا القبيل، فإنما تلك نزعته الطبيعية إلى السكون والهوادة فى معاملاته.

٧٩ - الشغب والفتنة

إن ماذكرناه من انفطار الأمة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش فى ظلال الأمـن والسلام يقعـدان بها عن رفـع لواء العصيـان والخروج على أولياء الأمور. نعم إن الفلاحين ينزعون أحيانا إلى الشغب وإضرام نار الفتنة. ولكنهم لا يلبثـون أن يفيئوا إلى الطاعـة ويخلدوا إلى السكينة قبـل أن تتحول تلك النزعة فى نفوسـهم من التردد إلى اليقين. وهـذا فضلا عن أنه لايدور بخلد مصرى ولا يخالط مـزاجه شـىء مـن البواعث التـى توطن العـزم على الثورة كـالتروى فى عواقبهـا والاحتياط لها بـالوسـائل العمليـة كالمثـابرة والهمـة واليقظة. إذ كثيرا ما يحدث أن يتجمهـر الفلاحون وتحتشد حشـودهم وتثير التراب فى الهواء وتصيح قائلة: هلموا! هلموا! (يلا! يلا !) فإذا حان وقت العمل لايلبثون أن يسكـن الروع قلـوبهم. وأن يخشوا عاقبـة طيشهم وغـرورهم. وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأن لاخطة عمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها.

وقبل ان تتـوثق أركان حكـومة محمد على وتشتد مقـاومها، كانـت الفتن والمشاغـب متواترة الوقـوع فى القاهرة. وكان رجـال الدين يعززون جـانبها بتأييدهم ويعضدونها (١). والسبب الدينى وحـده هو الذى يستفز المصريين إلى العصيان، كما يـدل عليه مـا لايزال حـاضرا فى الأذهان لقـرب عهده مـن توصـل الكذابين، وفى مقـدمتهم المهدى، إلى جمع شتـات بعض الألـوف من الفلاحين أيام الحملة الفـرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهـم على النكاية برجالها.

وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نـار الثورة فالتهمت ما بين إسنا وأسوان، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد. وكان زعيمها ومذكى ضرامها شيخا ممن يدعـون أنهم مهبط الوحى الإلهى. وكانت فى تلك الأرجاء شرذمـة جنود الأورطة الأولى فتفـرقوا ولم يبق فى الصفـوف منهم إلا العدد الكافى لإخماد تلك الثورة التى لو حـدث مثلها فى بلد آخر لاتسع نطاقها وخيفت مغبتها.

---

(١) لقد خلط المؤلف بين الثورة التى تحض عليها الأديان السماوية وتعتبرهـا واجبا مقدسا دفاعا عـن حقوق الأوطان والكرامة والسيـادة ، ولم يفرق المؤلف بين الثورة والفتنـة التى تعمل الأديان السماويـة وخاصة الديـن الإسلامى على وأدها فى مهدها، ولكنها بعض الرؤى الغربية التى لم تفهم حقيقة الأديان خاصة الإسلام.

٨٠ - تنفيذ أحكام الإعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام الرضا والتسليم بما ساقه القدر. وكل ما يتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم إلى ساحة الإعدام تكرارهم الجملة الآتية « هذا ما أراده الله . هذا ما كتب فى لوح القدر». ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم إلى حيث تريد، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم. وإنك لتعتقد، إذا رأيتهم، أنهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذى سيطوى حياتهم .ولقد شهدت مرارا حوادث الإعدام، فكنت أرى المحكوم عليهم يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث، وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم إليها. أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة إلى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ أو ينجلبون إليه من كل فج وحدب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم إلى ساحة الإعدام.

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ فى الساحة التى تقام فيها الأسواق. فإذا سيق مجرم إلى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماما بغير أعمالهم التى جاءوا من أجلها، إذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم. ويصعد المحكوم عليهم بالإعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد، وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم إما إلى حبل المشنقة وإما إلى سنان سيف الجلاد، بدون أن يبدو على وجوههم أثر ما من آثار الخوف حتى أن المتفرس فيهم لايفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله.

٨١- الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل. لأن ذلك الوباء الأدبى لا يفتك إلا بالجماعات التى انطفأ نور الإيمان من قلوبها، ولاينزل إلا حيث يصطدم العزاء الذى يبثه فى النفس الاعتقاد بالحياة الأخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الإيمان سوى الاعتقاد بالحزن والألم.

ولكن الدين الإسلامى يبث فى قلوب ذويه جذورا قوية من الإيمان لا تلبث أن تتأصل فيها، لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة اله والخضوع لإرادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها. ولاشىء فى العالم يزعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لأنهم يرون أن ماقدر عليهم مكتوب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ، وأن أوامر الله ونواهيه لا معقب عليها . فالمسلم، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه، لأسرع الناس إلى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر. اذا جاءه نبأ بخسارة مال أو فقدان مظهر، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون. فلا يسقط فى يده ولايضطرب جأشه ولا يختلج فؤاده. وهذه حالته أيضا إذا فقد أعز الأشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته.

ومهما تكن الدرجة التى يهبط إليها فى سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به، لا يعتقد أن هذا الهبوط يحط من كرامته ويقلل من شأنه. فلا غرو، وهذه قوة توكله ووطود إيمانه، أن يكون من اليأس وخور العزيمة مناط الثريا، وأن لا يفكر أبدا فى الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال.

ولو كان فى وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا لزمنا أن نتحراها فى طبقة المسلمين الذين انغمسوا فى رذائل الحضارة الأوربية ومخازيها . ذلك لأن الشرقيين لا يسخطون فى الغالب على أخلاقنا، كلما اختلطوا بنا، سوى ما كان منها سىء العاقبة بعيدا عن الصواب.

٨٢- المبارزة

إن المبارزة، وهى تلك العادة التى اتصلت بنا منذ عصر المروءة القديمة والتى تدعو إليها فى أوربا عزة النفس والحاجة إلى صون الكرامة والذود عن الشرف، مجهولة عند الأمم الشرقية. وبلغ من جهلهم بها أنه لا توجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا فى منزلة الإيمان الحقيقى، بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليل بالنهار فى التدريب على استعمال السلاح. ولقد رأينا فيما سبق كيف أنهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يتراشقون به. ولكنهم لا ينازلون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم من أعداء دينهم أو وطنهم.

الباب السابع

نظرة فى العناصر الأخرى من سكان مصر

(١)
العربـــان

قبـائل العربـان- شغـف العـربان بـالصحـراء- صفـاتهم وطباعهـم - قناعتهم- مكـارم أخلاقهم وجميل عـاداتهم- تربيتهم ونظامهـم- حروبهم- حريتهـم الدينية- تـربيتهم العقلية- الأدلاء من العـربـان- سرقات العـربان وقطعهم الطريـق- مكافحة محمد على لهذه النـزعة- تنظيم فرسـان العربان على هيئة جيوش غير نظامية- فضائل العرب الرحل.

١- قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الـرحالة التى تعيش فى الصحـراء، وكانت القبـائل التابعة لمصر أيام الحملـة الفرنسية ستين قبيلة عـدد أفرادها مائة ألف نفس، منهم ثمانية عشر ألفـا إلى عشرين ألف فارس. وهذا الإحصاء التقريبـى لم يتغير منذ ذلـك الوقت، إلا قليـلا. ومن أشد تلـك القبائل بـأسا وأبعدها شـهرة الهوارة والعبابدة والهنادى والهدندوة بالوجة القبلى، والمعازة بمصر الوسطـى والطرابين والقطاويـة والبكابيـش وأولاد على.. الخ بالـوجه البحرى.

٢- شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحـراء المتراميـة الأطراف إلى أبعد مدى مـرات كثيرة. فـأدركت السر فى تعلق العـربان بها، واستكشفـت سبب نظـرهم الينـا بعين الاحتقار، نحن الذيـن كدستنا الحضـارة فى آفـاق ضيقة الحلقات. وقد بلـغ ذاك التعلق وهذا الاحتقـار من نفوسـهم مبلغـا جعلهم لا يطيقون سكنـى الحضر إلا بعد معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها.

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لايميل بفطرته إلا إلى الصحراء، ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الإقامة فى الحاضرة. حيث تسلم مقاليد الحكم على إحدى المقاطعات. ولقد طلب، وهو فى مركزه هذا، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العربية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره المعيشة فى المنازل المنجدة عليها فى بيوت الشعر، وطلبه خصب العيش فى ظل الدعة والراحة والسكون، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة. فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه.

٣- صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرحل بحسن شكلهم الأول وبساطته. فالناظر إليهم يخيل له أن نفوسهم لا تنفعل إلا بالعواطف السامية والإحساسات الشريفة، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية. فمن محض الخطأ إذا تخيلناهم فى صفة المتوحشين وثوب الهمج وأسأنا الظن فيهم بذلك. نعم لا تخلو الحال من قبائل بدوية تدهورت فى الدرك الأسفل من حضيض الرذائل، إذ جعلوا همهم اللصوصية والدعارة، ولكنها لا تخالف فى ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الأصل وإكرام النزيل وبسطة الكف. ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال إلى حد يخيل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان فى وجهه. فلا يدهشك إذن أن تراه مفاخرا على الدم بأصله، معاليا الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب = الاختلاط = وأنه ما رضخ قط لمذلة. وما أجمل منظره، إذا غشى مجلس عظيم أو ديوان ثرى، متدثرا بردائه ومتشحا ببندقيته ورافعا رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء، لا يرضخ للنظم المرعية فى الاجتماع ولا يأبه بالآداب المسنونة له، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام وإظهار شعائر الخضوع. وإذا خاطب عظيما، ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو ابراهيم باشا، خاطبه بجرأة وسهولة وصراحة لا أثر فيها لتكلف، مخاطبة النظير. فإذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلا: « كيف الحال يا محمد على وكيف مزاجك يا إبراهيم». وهذه سجيته دوما فى الأسئلة التى يروم بها فتح باب الكلام مع سيد مصر وصاحبها وأكبر قائد فى المملكة العثمانية كلها.

٤- قناعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة، فقليل من لبن النياق وبعض التمر يكفيان الواحد منهم غذاء طول النهار. وهم لا يعولون على أكل اللحوم إلا فى الأعياد والحفلات الكبيرة. حيث يذبحون رؤوس الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقة التى كانت معروفة على عهد (هيرميرس) الشاعر اليونانى. وغالبا ما يقع النظر على نسائهن وهن مشتغلات على متون الهجن، بإدارة الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم إنضاجا على ألواح حديد،يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيلة رحالها فى مكان. وهم فى الشراب أشد قناعة منهم فى الغذاء، أما النبيذ فلا يشربونه أبدا وهكذا شأنهم فى سائر الخمور، وبفضل تقشفهم فى معيشتهم واعتدالهم فى طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين.

٥- مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة فى الصحراء تصون الأخلاق من الدنس وتربأ بها عن المخازى، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعوامل الغرام، إلا أنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا إلى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها. وذلك لأن احترام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أضبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم. والذين يجرءون منهم على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت. ومع شدة غيرتهم على الأعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحرية أكثر مما يمنحه لهن غيرهم من المسلمين. فإنهن يبرزن سافرات الوجوه، ولايتنقبن إذا وقعت عليهن أنظار الرجال. ولما كانت تربيتهن من تربية الرجال، فإنهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هؤلاء ويتخلقن بأخلاقهم.

٦- تربيتهم ونظامهم

إذا تنجع البدو فى طلب الكلأ ونزلوا جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد. وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء، أو من جلود الماعز والجمال. وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ما سواها ببياض

لـونها. وتحتوى كـل خيمة أُسرة واحـدة، وتنقسم بفـاصل مـن القماش إلى قسمين، أحـدهما خاص بـالنسـاء. وإذا كـانت القبـائل لا تستطيع المعيشـة متضامة إلى بعضهـا فإنها تنقسم إلى شعب متفـرقة تسمى كل شعبـة منها بالفريق، وتتـألف من أربعين إلى مائة خيمة. ويختار كل فريـق شيخا له من رؤساء الأسر وعظمائها. وتنتخب الفرق مجتمعـة شيخا كبيرا تجعله الرئيس الأعلى لها. وسلطة الشيوخ محدودة فى دائرة ضيقة جـدا، إذ فى الإمكان عزلهم من منصبهم بصوت الأغلبية التى أفضت بـالرئاسة إليهم من قبل. على أنهم يحتفظون بحقـوق وامتيازات لاينازعهم عليهـا أحد، بعد اعتـزالهم العمل فى المشيخة، ولكل قبيلة راية ترفع أمام خيمة شيخها، وفيها يكرم مثوى الغرباء وتطـرح الآراء وتدور المنـاقشـات فى شئـون القبيلة لتقـريـر مـا يتفق مـع مصلحتها. وتحصـل المفاوضـات فى الصلح والحرب. دع أن شيـوخ القبائل وهم الـذين يقـودون التجريـدات الحربية ويسـوسـون المقـاتلة فى سـاحات الوغى.

٧- حروبهم

لكل قبيلـة نصيب مـن الصحراء وحـدودها التـى تنتهى إليهـا مراعيهـا الخصبة. ومفهوم أنه من المتعذر تعيين هـذه الحدود بالدقة فى أرض تنطمس معلما بهبوب الـرياح فى كل حين. فلا عجـب إذا نشأت المنازعـات بين القبائل المتجاورة على حـدود أراضيها، وسرعـان ما يتحـول الكلام فيهـا إلى خصام فقتال بين الفريقين.

وكثيرا ما تستمـر الحروب بينهما زمنا طويـلا. بل ربما لا تجد حـدا تقف عنده. وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلـم وقوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معـاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك، من بـواعث التنـاحر بين الجماعـات. وقد ألـف البدو الصـدق والشهامـة فى حروبهم. فإنهم ، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة، ينذرونهم بها ويطلبونهم إلى منازلهم. وهم فى قتالهم يتبارون فى إظهار الشجاعة والإقدام. ونظامهم فى القتال يلفت النظـر ببساطته، ويذكـر بأساليب القتـال فى العصـور الأولى. إذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى: الصف الأول لشبان صفوة أهل القبيلة فى الفتـوة والحماس وسرعة النجدة، فـإن هؤلاء المقاتلـة الطامحين إلى

الظهور والشهـرة يطلبون بعضهم البعـض إلى المبارزة، ويتلاقـون مرارا فى ساحـة النزال. أمـا الصف الثـانى فخاص بـأرباب الأسر الـذين بلغـوا سن الكهولة. ويقـف خلفهم فى الصف الثالـث ذوو الأسنان من الرجـال والنساء. وحكمة وجود هاته النسوة فى ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحثثن المقاتلين ويشجعنهم بالأغانى والطبول وارتجال الأناشيد الحربية.

أما الفتيات المخطوبات لزواج فيستنهضن همم خطبائهن ويعدنهم بقرب الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمـول. وأما النساء المتزوجات والأمهات فيذكـرن أزواجهن بالروابـط المقدسة التـى تربطهم بهن ويمثلن لهم حـالة الأبناء والأسرات إذا لم يعـودوا مكللين بغار الانتصـار. وتحرض أجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة إياهم جميعا بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم فى القتال أوفر قسط من المجد والفخار.

٨- حريتهـم الدينيـة

يحمـل أهـل الحضر مـن العرب نيريـن: نير الاستعبـاد السيـاسـى ونير الاستعباد الدينى، بخلاف أهل الباديـة الذين يجهلون النير الأول جهلا تاما، ويلمون بطرائق تحرير أنفسهـم من النير الثانى وإلقائه عن أعنـاقهم. وغنى عن البيان أنـهم مسلمون كغيرهم من أهـل الإسلام، ولكن اسلاميتهم لا تزال على فطرتها الأولى مـن الصراحة والسـذاجة، إذ لم يـدخلها شـوب التعاليـم الـدقيقة ومـذاهب أهـل الكلام ومختلـف آراء الأئمة. لهذا تـراهم يتنصلـون بمهارة وحذق مـن تبعة مخالفتهم لقواعـد الدين ونصوص الشرع فيقـولون مثلا: « إذا لم نؤد فرض الصلاة فـلأن الماء ينقصنا للوضوء، وإذا لم نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة مـن غيرنا، وإذا لم نصم شهر رمضان فإننا نصوم من الجوع طول السنة، وإذا لم نحج إلى بيـت اله الحرام فلأن بيت اله الحرام حيث يصلى الانسان» (١).

٩- تربيتهم العقلية

لغة أهل البادية مبنية فى الغـالب على التشبيه. وهم فى شعرهم يستعيرون تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس

(١) الناشر : إنها رؤية مشوهة وغير موضوعية للإسلام

وصبر الجمل وقناعتـه وفوائد الصحراء وصفاتها المميـزة. وليس فى أذهانهم أثر من العلوم، بل إن السواد الأعظم من مشائخهم أميون لايقرأون حرفا ولا يكتبون، ولكـن مواهبهـم العقلية بـالغة اقصـى مبلغ مـن الاتساع. معـززة الجانب بالمواهب الجثمانية التى تقويها الـرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقى من الشوائب.

١٠- السنيوره

أتيح لى مـرارا البحث فى عادات البـدو وأخلاقهم خـلال رحلاتى العـديدة الطـويلة فى الصحـراء. ومما عـرض لى فيها مـن الحوادث الجديرة بـالذكـر الحادثة التى أسوقها فيما يلى إلى القراء:

لما شرع الفرنسيـون فى الجلاء عن مصر، هـاجم البـدو التابعـون لقبيلة الزعيـم الشـهير المعروف بأبـى قوره، وهو الزعيـم الذى طالما قـاوم المماليك ونـافسهـم على السلطة حتـى حصلـت لـه السيادة على إقليـم المنصـورة، حاميتهـم فى هذه المدينة. وكان مقـره قرية (ميـت العامل) على مسافـة ستة فراسخ من الجنوب الغربى لها. فلما احتدمت نار المعركة سبى العربان امرأة فرنسـية فى ريعـان الشباب وأخذوها إلى زعيمهم الـذى لم يلبث أن تزوج بها. ولقد اشتهر أمرها فى تلك الجهات وأطلق عليها اسم « السنيورة» لجمالها.

وكثيرا ما ذكـر أمرها على مسمـع منى .فـوددت التعرف عليها واعتـزمت اللقاء بها. فلما كانت سنة ١٨٣٤ ذهبت إلى مديـرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لى إنها تسكنها ونزلت بـدارها .فإذا بها قصرا فسيح الجنبات قائما بالقرب من مساكن العرب.. وقد أحســن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثواى. وما عرف أننى فرنسـى الجنس حتى ذكر لى والدتـه وقال إنها لكذلك. فأعربت له عن رغبتى فى لقـائها، وكانت الذريعــة الوحيدة إلى ذلك مهنة الطـب التى أقوم بها. فلما وصلت إلى خدرها تلقتنى محيية باللغة الفرنسية. ولكننى سرعان ما تبينت أنها إيطالية الجنس، وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية، وأن والدها كان تاجر قبعات، اسمه بارتـولى، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت، وأن اسمها هـى جوليا، وأن العـربان سبوها وهـى خارجة مـن المنصورة إذ أركبوهاجوادا وانطلقوا يطوون بها الفـدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى الماء دارا كبيرة التقت فيها بـرجل يغطيه من الرأس إلى القـدمين حرام أبيض، وأن

هذا الرجل بذل لها من مظـاهر العطف والميل مـا لايوصف، وأنه جـردها من ثيابها الأوربيـة ليلبسـها بدلا منهـا ثوبا شرقيـا واسعا، ثم سلمهـا من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس - أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريبا، وجعل فى خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجوارى. ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطـويل، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها، فكانت لا تكف عـن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتهـا فى العودة إلى ذويها. ومـع هذا فلم ينقـض أحد عشر شهـرا حتى رزقت غلاما، فهدأ شعور الأم نحو وليدهـا ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها إلا احتماله والرضاء به.

ولما مات زوجهـا وكانت تـوليه الحب الصـادق وتعيش معه فى بحبـوحة الهناء والنعيم، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تألفه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميـل العطف. وبعد انقضاء أربع سنوات فى هذا الحال، توفى هذا الزوج تـاركا لها ابنة فى الثانية من عمـرها تسمى (حفيظة) وجنينا فى بطنها سمى بعد ميلاده بعلى. ومع أنها كانت لا تزال بعد ميلاد هذا الابن تكـابد من زوجهـا صنوف العسـف والعنف، فإنها خسرت بمـوته خير معوان وأقوى سند لها فى الملمات. ذلك لأن الشر أغرى أقـاربه بالاستفادة من ضعفها على أثر وفاته. فنصبوا المكائد ودسـوا الدسائس التى توصلوا بها إلى اغتصـاب الشطـر الأكبر من ثروة هذه الأسرة التـى كان قد اعتورهـا النقص بامتداد أيدى السلبة اليها.

وكان منصـور ابنها البكرى لا يزال فى مقتبل العمـر وعاجزا عن الدفاع عن ميراث أبيه. فأصابـه غم شديد من رؤية تلك الثروة تتحـول من يده إلى أيدى الأغيار. ولم يلبث هـذا الغم أن انقلب معه إلى جنون. أمـا أخوه على، فهو الآن عماد بيت أبيـه وسنده الوحيد، هـذا البيت الذى كان فيما سبـق رفيع العماد ومرموقا من الرواد والقصاد، إذ كان يملك زعيمه أربعا وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعـانا لا عـداد لها من الأغنـام وأكثر مـن خمسمائة عبـد وجارية من الأرقاء، فلم يبق من هذه الثروة الطائلة إلا فضلات يسيرة تكاد لا تفى بقضـاء حاجاتها ولا تكفـى لإعالتها بما اعتـادته من السعـة والخصب والنعيم.

ومنذ الأربعة والثلاثين عاما التى قضتها السنيوة فى هذه الدار لم تبرحها قط، بل لم تر رجلا من الأجانب سواى. ولقد أثار وجودى فى نفسها بواعث الانفعال والتأثر، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق إلى وطنها والرغبة فى استنشاق نسيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد فى فؤادها. وعندما انصرفت من حضرتها كانت تشيعنى بنظرات العطف والمودة. ولقد برحت دارها وقلبى يتحفز تأثرا بما رأيته وسمعته فى هذه المقابلة، ولاسيما ما أفهمتنى اياه من أنها لم يصل إليها منذ وقعت سبية فى أيدى العربان، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضابط (ديفو) الذى لا تدرى أقتل فى معركة المنصورة أم بقى على قيد الحياة.

ولقيت فى دار السنيورة كل ما يؤثر عن العرب فى ضيفتهم للأجانب من مظاهر الحفاوة والإكرام، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون فى وسطها، عند كل وجبة، خروفا بأكمله ويصفون على حافتها كثيرا من الصحاف الصغيرة، فينتابها أولا أفراد الأسرة والأعيان من أهل القرية، وكنا نأكل جلوسا على السجاجيد ونمزق اللحم بأصابعنا وبها كنا نتناول الارز مطبوخا على الطريقة العربية. وبعد أن نأكل كل على قدر همته، ينتاب المائدة بعدنا غيرنا من المدعوين. ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء. ولقد أحصيت عدد هؤلاء، ومما ضاعف دهشتى احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم إلى نهاية الطعام. وكان يبدو على وجوه أولئك الفقراء الذين يقريهم رب الدار كل ليلة على هذا المثال، أثر السرور من تلك الملاطفة التى تمحو فى نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف. خصوصا وأنهم يعتقدون أن ما يجدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لأن أهل البيت يكرمون زائريهم فى كل يوم على هذا المثال السابق.

١١- العربان الأدلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو فى الاهتداء والوصول إلى مقاصدهم. ويسترشد العربان فى قطع الطريق الذى يسيرون فيه ويقدرون أبعاد ما اجتازوه وما يتبقى عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيا على صدق النظر. والأدلاء من قبيلة بيزار، وهم أهدى من غيرهم فى

مسالك الصحارى الشرقية إلى جبل طور سيناء أما قبيلة أولاد على فمنها الأدلاء العارفون بأسرار صحراء ليبية، وهكذا قبيلة العبابدة بالنسبة لبلاد النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصحارى الممتدة بين النيل والبحر الأحمر فيما بين القصير ورانيس القديمة، وبالنظر إلى حذقهم فى الصيد والقنص ترى أنهم من أنفع العربان الباحثين فى الشئون الطبيعية .

١٧- سرقات العربان وقطعهم الطريق

إن العربان كقطعة النقد التى إذا سرك منها منظر أحد وجهيها ساءك منظر الوجه الآخر. لأن محامد الخلا ل ومحاسن الخصال لاتوجد، عند جميع القبائل على السواء، خالية من الشوب. وربما لم يكن ما وصفتهم به من كريم الشيم متوافرا فيها جميعا . فإن منها قبائل لاتستطيع مقاومة ميلها الفطرى إلى النهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها، ومن بواعث خوف المسافرين على حياتهم. ومع ما تقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة فى العربان إلى ارتكاب الشرور ورداءة الطبائع وفساد النفس، فإن أهل البادية والمعتصمين بأوعار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم فى حرب لا يخمد ضرامها مع أهل الحضر، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه مع عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب. وكان هذا على الدوام شأنهم معهم. إذ يرون أن ما يسلبونهم إياه إنما هو من الغنائم الشرعية والفيوء التى لم يحرمها الله فى كتابه.

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر بما تراءى للجنرال بونابرته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة .كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون فى مذكراته عن ذلك ما يأتى: «إذا كان موقع مصر الغريب، وهى البلد الذى يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الإدارة لانتظام شئونها واستقامة أحوالها، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم ضربات العدل تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها فى أفئدة أولئك الأشرار فلا يعيثون فسادا فى تلك الأقطار».

ولقد بلغت بهم الجرأة ، فى العهد الأخير، إلى التعدى على قرى الفلاحين بدون أن يطاردهم أحد أو ينكل بهم، عقابا لهم على سوء فعلهم. ولكن ما كاد الفرنسيون يحتلون القطر المصرى حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيته، فلم يتمادوا فى باطلهم.

ولقد حذا محمد على حذوهم فى معاملته لهم. فردهم، بإدارته الحازمة، عن بغيهم وألزمهم الوقوف عند أفقهم.

١٣- مكافحة محمد على لهم

فى الوقت الذى تسلم محمد على فيه زمام مصر، كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية. فقد كانوا يفرضون الأتاوات على سكان مصر ويضربون الفدية لايزعهم عن ذلك وازع. بل كان لايصدهم أحد عن الزحف على مدينة القاهرة ودخولها دخول الفاتح لسبى النساء وخطف الأطفال ونهب الأموال. وكان لا يجرؤ أحد على زيارة الأهرام بغير رضائهم وأمرهم. وكانت القوافل التى تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الفادحة من المال.

فلما وقف محمد على على حقيقة هذه الحال، قرر أن يمد رواق سلطته المطلقة على الصحارى كما نشر لواءها على الأرياف، مقتديا فى ذلك (بسكست كنت) الذى يؤثر عنه قوله: « من أجل الأمور أن يستطيع الناس فى مملكتى حمل أموالهم فى أيديهم وترك أبوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو يسطو عليهم فى مأمنهم». ولعل الوالى - حينما تسلم زمام الأمر - جرى فى خاطره ما ينطبق على قول ذلك الملك، فهم بالعمل على تحقيقه. إذ سلك مع العربان مسلك المهادن المسالم، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم. ولكنهم لم يلبثوا أن هتكوا ستارها ونقضوا عهودهم غير مبالين ولا هيابين. وأيقن محمد على لهذا السبب أن لا مناص له من الاعتماد على القوة فى قمعهم وتأديبهم فعول على قتالهم، وسير لمطاردتهم فرقا من الفرسان المتحركة انطلقت تناوشهم وتأخذ الآفاق عليهم وتسد السبل، حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح واستمناح العفو. ومنذ هذا الوقت ثابوا إلى الطاعة لوالى مصر وأقسموا بالولاء له. ولقد اشترط فى عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهنا عنده على طاعتهم

وضمانا لوفائهـم بعهودهم، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يـرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والأمن. وزاد على ذلـك أن أجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشـهم.

وفى رأيى أن هذه الطريقة التى ابتكرها محمد على فى معاملة العربان ينبغى تطبيق مثلها على قبـائل العربان فى بلاد الجزائر الملحقة بأمـلاكنا، فإنها خير وسيلة لكبح جماع أمة .

١٤- تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية

وبعد مضـى زمن مـن تقرير أحـوال العربـان على النمط المتقـدم، عرض محمد على عليهم تشكيـل جيوش منهم للعمل فى جيشـه، واقترح أن يدفع لهم الأجور فى مقابل خدمتهم، على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقيته. ولقد أفادت هـذه الفرق المساعـدة محمد على فـوائد جليلة، إذ اشتركت فى حـروبه بالسـودان وسنار وجزيرة العـرب وبلاد الشام كافـة. وكانت منزلتهـم من الجيش ـ مـن الوجهة العسكريـة ـ كمنزلة غير المنتظمين فى بعـض الجيوش الأوربية. وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومعاكسته أثناء انسحابه. وهم من أصلح ما يكون لأداء هذه المهمات الحربية.

ولا يزال عالقـا بالأذهان أن العربـان هم الذين أسروا السر عسكـر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثمانى فى معركة قونيا خلال الحملة الأولى على بلاد الشـام.

١٥- فضائل العرب الرحل

مما لا ريب فيه أن محمـد على توخى مع العربان أصـوب خطط السياسة وأحكمها، وجاء من ذلك بما لا يستطيـع غيره أن يجىء به لاتقاء شرهم، ولقد عقد على بك وهو أحـد امراء المماليك الذى استقل زمنا مـا بالقطر المصرى فى النصف الأخير مـن القرن الماضى، النية على إبـادة العربان جميعـا للتخلص من شرهـم، وشرع فعلا فى تنفيـذها، إذ نكـل ببعض القبـائل وقضى عليهـا، واضطر غيرهـا إلى التراجع فى الصحراء فرارا مـن المجزرة. وكان هـذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمـة السياسية ومضادا لطبيعة الإنسـانية، فلا ـ

غرو إذا عاد بالوبال والشر على المماليك أنفسهم. وإذا قلنا إنه ما كان لعلى بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر، فما ذلك إلا لما هو ثابت ومستقر قى الأخلاد = النفوس = من فائدة وجودهم. فإنه إذا صح لنا أن نقول إن الجمال سفن الصحرا، فمن الحق والعدل أن نقول أيضا أن العربان ربانو هذه السفن وقادتها فى ذلك الاوقيانوس الأرضى الذى لا أفق له. فالعربان هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد التى على حافاتها. فالاحتفاظ بهم، وذلك مبلغ أثرهم فى إفادة الإنسانية، يعود عليها بأجل المزايا. وإذا كان هناك ما يدعو إلى اتخاذ شىء من الوسائل لقمع شرورهم وصد طغيانهم فلا يجوز أن يتعدى حدود التهذيب والتأدب، لتتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم والتى لايجاريهم فيها مجار غيرهم. ذاك ما كان ينبغى أن يعامل به العربان لدفع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ما قام به محمد على على خير ما كان يريده ويتمناه.

(٢)

الحكومة فى مصر

أتراك مصر- صفاتهم النفسية- ازدهاؤهم بأنفسهم وكبرياؤهم- شعور الأتراك نحو الأوروبيين- الإسلامبولية- أتراك أوربا والألبانيون والعثمانيون- الأتراك الآسيويون والمماليك.

١٦- أتراك مصر

العثمانلية أجانب عن مصر. وهم يفدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة، يجذبهم إليها فى الغالب اشتهار محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة. ويرى الأتراك أنفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقة ممتازة ـ أى طبقة الظافرين الفاتحين. وازدهاؤهم شديد بالفارق الذى يتخيلونه فاصلا بينهم والعناصر العربية. لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة، ولا يلتحمون معهم بلحمة المصاهرة، إلا فى النادر

الذى لا حكم له. والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين، وإنما يشترطون فيها أن تكون مع الأسر الوطنية الممتازة بمركزها فى الهيئة الاجتماعية والمعروفة بسعة الثروة والجاه، وفى المدن دون الأرياف.

ثم إن العثمانلية يترفعون عن تعلم اللغة العربية، إذ يعتبرونها لغة الأمة المغلوبة على أمرها، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لا يليق بهم علمها، ناسين أو متناسين أن بها شيدت آثار جليلة فى الآداب اللغوية ستظل باقية أبد الدهر، وأنهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين وفيهم الأتراك. وإذا كان الأتراك لا يظهرون نحو المصريين الميل والعطف، فإن هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم، إذ من النادر أن نجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية.

١٧- صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانيين أخلاقا وعادات وطباعا مغايرة كل المغايرة لما يقابلها عن المصريين. أما صفاتهم النفسية فعين الصفات التى توصف بها الطبقات الشريفة الراقية. فمن صفات العثمانى الحزم والثبات والصلابة والمثابرة والتحفظ وبعد النظر فى المستقبل. وطالما لاتعترضه الوساوس الناشئة عن التنطع فى الدين، فإنه يمتاز بسلامة القلب وسلاسة الخلق، وبالشهامة والمروءة فى صلاته الاجتماعية. والناظر إليه يخيل له أن آدابه السامية غريزة فيه. وهو شديد الشعور بكرامة الذات، ومع أنه لايفوق المصرى فى حدة ذكائه وصفاء ذهنه، فإنه يسمو عليه فى العلم بأساليب التسلط والحكم والإدارة.

١٨- ازدهاؤهم بأنفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبثة فيهم انبثاثا يكاد يكون نقيصة ورذيلة. فإن الأتراك متكبرون إلى أقصى حد. ومن مظاهر كبريائهم أنهم لا يترددون فى أمر ما، ولايتراجعون عن إنجاز ما يعن لهم من عمل، ويعتقدون فى أنفسهم القدرة على القيام بجميع الأعمال على حد سواء. وهذا الصلف البالغ مداه فيهم إلى الحد الأقصى، كان من أقوى أسباب سقوط الدولة

التركية، لأننــا طالما رأينا الــوصوليين الذيــن لا يعرف لهم أصل ولا فــرع قد ترقــوا فى هذه الــدولة ، وبلغــوا من مــراتبها إلى الــدرجة العليــا لمجرد عطـف السلطان عليهــم. وبما أظهروه مــن دلائل العجز فى المنــاصب الخطيرة التــى أسندت إليهــم، لقد أورد هــؤلاء الوصوليــون الحكومــة العثمانية شر الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك.

يكون أحدهم بالأمس خادما لخادم، فــإذا هو اليوم قائد لجيش عرم، وما هى إلا لفتة من لفتات المولى المعظم، فى ساعة من ساعات رضائه، حتى يصير فى الغد أميرا لبحر أو فى منصــب قبطان باشا. فمجرد هــوى السلطان ومطلق إرادته يعفيانه مــن شهادة الفضل تليدا أو طارفا، أو من تــركية العلم معقولا كان أو منقولا. أو من الفوق على الأقران بــالاخصاء = بالتخصص = فى فرع من فــروع المعلومــات البشرية، وبالجملــة فتلك الإرادة. إذا انصرفــت إليه أو رمقته بعين عنايتها، كــانت بمثابة الشهادة له بالكفــاءة التى لا تبارى فى علم كل شىء. ومن مدهشات الأمور أن يتجرد المحسوب الذى يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته. فإنه سواء أكان قائد الجيــش أم أمير الأسطــول، يعتقد أنــه القــابــض دومــا على ناصيــة الفــوز والمتصرف فى أطوار الانتصار.

وإذا كان إدراك الأتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما هذا المبلغ. فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسهم عن التدفع والتدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذى زلت فيه أقدامهم، نحو مهواة الفناء والهلاك؟

ومما لابد لنا من الاعتراف به فى هذا المقام ـ بالرغم مما أوردناه من عيوب الأتراك ونقائصهــم ـ أنهم أقل من العــرب طمعا فى عرض الدنيــا وحرصا على حطامها الفانى، لذا يمكننا القول بأنهم كرماء، وأنهم يذهبون فى الكرم إلى حد الإسراف، وأنهم مولعون بالسعة فى النفقــة والأخذ بمذاهب الترف والنعيم فى الحياة.

بدهــى أن هذا الميــل الطبيعى يســوق أصحاب المنــاصب فى الحكــومة إلى ارتكاب الرشوة، ليستطيعــوا قضاء مطالب النفس من وســائل البذخ والعيش فى ظل الهناء والسعادة.

ولقد قلت إن كرامة النفس غريزة فيهم، وأقول الآن إن من أخص صفاتهم وأوجبها للعجب، ما يجدونه من السهولة كلما أرادوا اتخاذ الأصوات أو الاوضاع التى تلقى فى يقين السامع أو الناظر معنى العظمة والأبهة والجلال. وهم من الثقة بنفوسهم والاعتداد بذاتيتهم بحيث إذا فاجأهم الحظ بمال أو منصب، لا تعتريهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها. ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة، إلى الطرائق التى يلجئهم إلى اتباعها حب التزلف إلى الذين يسمون عليهم فى المراتب ورفعة الشأن. وكثيرا ما يفضى فجأة هذا التنقل إلى التناقض، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون إلى مقامه إشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الانصياع، إذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلسا أو مكانا اجتمع فيه أناس أحط منهم درجة فى سلم الاجتماع، قد رفعوا عقيرتهم، وقوموا من منحنى صالبهم، وأكسبوا سحنتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة وإباء الضيم. ومن ثم ترى ذلك الرقيق الذى رأيناه مرذولا وقد صار فى لحظة واحدة مولى عظيما يتوخى فى حركاته وإشاراته الصفات الارستقراطية المبنية على النهى والأمر.

١٩- شعور الأتراك نحو الأوربيين

للعثمانليين فى حكمهم على الأوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لامثيل لها. فهم يعتقدون أننا إذا أشهرنا الحرب عليهم فإنما نشهرها على ديانتهم، وأن الغرض الذى نرمى إليه هو إزالة معالمها من عالم الوجود. وأننا إذا كنا لا نستولى على بلادهم فما هو إلا لضعف جانبنا وخور عزيمتنا. وطالما عانيت الكثير من المشاق فى تفهيم بعضهم ما نحن عليه من التسامح الدينى، وأن تفاوت وجهات النظر فى السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن. وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا، كأنهم لا يذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر فى العهد الاخير أثناء حروبها مع روسيا. وأعرف من بينهم فريقا لايتزعزع يقينه فى أن أوربا تدفع الجزية، وهى صاغرة، إلى السلطان المعظم.

نعم إن الأتراك يضطرون ـ فى مسائل كثيرة ـ إلى الاعتراف بتفوق الأوربيين عليهم، ولكنهم لا يكفون عن النظر إلى هؤلاء بعين العطف الممزوج بالاحتقار. وغنى عن البيان أنه ما دامت عقيدتهم الدينية متأصلة فى نفوسهم، فلن نكون فى نظرهم إلا كفارا مشركين، ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم فى استقبال الأوربى من ذوى المكانة والنفوذ، فإنه مما يؤيد الرأى الذى أسلفناه. وبيان ذلك أنهم، مع استقبالهم إياه بشىء من مظاهر الأدب والاحترام التى كثيرا ماينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية فى المراسم الشرقية، لا يقومون إجلالا له عند دخوله بهو الاستقبال. وغاية الأمر أنهم يتحركون، وهم فى مكانهم، حركة خفيفة. فإذا كانوا ممن يحبون أن لايتهمهم أحد فى أدبهم فلا يكون هذا عادة إلا إذا علموا أن زائرهم الأوربى من أفاضل الرجال وأعاظمهم الجديرين بالاحتفاء والاجلال، إذ يكلفون خدمهم عندئذ بإنبائهم بوصول هذا الذات. فإذا ما وافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لايظهر له أن قيامهم كان من أجله. وإن ننس لاننسى أخبار الخلاف الذى سار ثائره فى هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الأعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال فى آن واحد، حتى لا يتكلف القيام خصيصا لهم إذا دخلوا عليه وهو فيه.

وفى ظروف كثيرة قامت الأدلة على هذا الصلف المستمد من التمسك الدينى. وآخر دليل منها ما حدث، منذ زمن قريب فى الديار المصرية،من رفض أحد الضباط، وهو برتبة أمير لاى، المرور على مشهد من الدوق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الولى إلى مشاهدة عرض جزء من الجيش أمامه.

أما سمو محمد على، فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الأوهام الفاسدة، وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين، إذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه. فإنه يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأنس والرقة وحسن التعهد، ولا يكف أبدا عن ضرب الامثال لضباطه وحضهم على الأقتداء به فى حسن معاملتهم إياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الأدب وواجب المجاملة. ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته يتهمونه فيها بقلة الإيمان، فكان يغتنم هذه الفرص

ليشرح لهم تفوق الأوروبيين على الوطنيين فى العلوم والمعارف، ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم وإجلالهم. وفى وسعى أن أذكر فى هذا المقام طائفة من الحكايات الغريبة فى هذا الموضوع، ولكننى أجتزىء منها بحكاية واحدة تكفى لإثبات ما ذكرته الآن.

جاء بعض ذوى الحيثيات من الأجانب يوما، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان. وما استقر بهم المقام، حتى أمر محمد على بإحضار القهوة. فما هى إلا برهة حتى تقدم الأعوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى. ولم يلتفت الزائرون إلى هذا الأمر ولا فطنوا لسبب الباعث عليه، جهلا منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق. والذين فطنوا منهم للأمر، لم يذهب سوء الظن بهم إلى الحكم بما فى تقديم القهوة على هذا الوجه من سوء الأدب وقلة الاكتراث بالضيوف. إذ لا يخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنهاخلقت لدنس، فهم لا يستعملونها إلا فى الأعمال التى يصح وصفها بهذا الوصف. وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفته ملاحظة ما أتاه خدمه من سوء الأدب فى حق زائريه، حتى استدعاهم اليه. وبعد أن بالغ فى تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضاء والسفر فورا إلى مكة ليكونوا ضمن خدم الكعبة. ثم قال لهم: «إذ بلغ بكم التعصب الذميم إلى حد تعمد سوء الأدب مع أناس يشرفنى لقاؤهم والاجتماع بهم، فأولى لكم أن تقطنوا المدينة التى لا يوجد بها أوروبى واحد تسوءكم رؤيته والتى لاتستطيعون أن تعرضونى فيها إلى الخجل من قبح فعالكم وسوء أخلاقكم».

٢٠- الإسلامبولية وأتراك أوربا والأرنؤود والعثمانيون والآسيويون والمماليك

إن الخلال التى استدللت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجة واحدة بين العثمانلية. بل إن هناك فوراق تترتب على اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى تواردوا منها على مصر.

فالإسلامبولية جبلوا على البشاشة واللطف، وربما بالغوا فيهما إلى حد التصنع. وكثيرا ما يقولون عن غيرهم من الأتراك إنهم ريفيون وإنهم لا يجاورونهم فى سمو الأدب ورقة الأخلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات

التى يمتاز بها أهـل العواصم والحواضر على أهل الأريـاف والبوادى. ومنهم من يميلون إلى الازدهـاء بأنفسهم ويتطوحون فى الغـرور إلى حد يجر عليهم السخريـة والاستهزاء. أمـا أتراك أوربـا واليونـان ومقدونيـا. فلاعتيـادهم مخالطة الأوربيين فقدوا بعض سماتهم الأصلية المميزة لهم على غيرهم، حتى أن منهـم مـن يجهلون اللغـة التركيـة ولايتكلمـون إلا بلغـة الوسـط الـذى يعيشون فيه.

وإذا نظـرنا إلى الأرنـؤود من هـذا الوجـه فلا نلبـث أن نرى أنهم جنـس مستقـل بذات،ه وذريـة لا تمت إلى الأتراك بحبـل القرابـة. وهم مشهـورون بالبسالة والولع بالقتال، وهـذا هو سبب إقبالهم على التطوع فى خدمة الولاة، وإذا انتظموا فى سلـك الجيش تفـوقوا على غيرهـم فى الصفات المطلـوبة مـن الجندى. وإنما عيبهم الوحيد العناد والنزوع إلى الثورة والشغب، ولهم حرص شديـد على المال وغرام بجمعه إلى حـد يمكن القـول معه بأن جميـع حوادث الاضطـراب تـرجع غـالبـا إلى النـزاع على المال. وسواد = معظـم = الأتـراك الموجودين بمصر مـن أصل أرنؤودى أو أوربى. أما الأتراك الأسيـويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم إذ لم يطرأ عليهم تغير كالذى ذكرناه.

أمـا المماليك فيحتفظـون بأصـولهم بدليـل ما يبـدو عليهم مـن سماتها الخاصة بها. وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والأخلاق التى يقتضيها نوع التربية المعطـاة لهم. ومع أن الكثيرين منهـم مسيحيو الأصـل، وإنما اعتنقوا الإسلام فى نعومة أظفـارهم، فإن التعصب الدينى تأصـل فى نفوسهم إلى حد جعلهم من ألد خصوم الديانة المسيحيـة. وهم، بوجه عام، لا يمتازون بشىء من الذكـاء والعقل. وكل ما يميـزهم عن غيرهم، ويعتبر الصفـة الخاصة بهم والفطرة التى فطروا عليها دون غيرهم، العناد. وأعرف منهم فريقا لا أشك فى سمو مكانتهم مـن العقل ونباهة الذكر. وفى تاريخ الـدور الخطير الذى قاموا بتمثيلة على مسرح الديـار المصرية إلى أوائل هذا القرن أمثلـة لا عداد لها على خيانتهم وغدرهـم، فالأمانة لم تكن إذن من الفضائل الشـائعة بينهم. وليس هذا مما يستغرب إذا نظرنا إلى أصـل نشأتهم، وعلمنا أنهم فى طفولتهم الأولى حرموا لذة الحب العائلى ولم يتذوقوا لها طعما، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التى نشأوا فيها إلى وسط اجتماعـى لا تلحمهم بآله لحمة قرابـة ولا يعطف عليهم

إحساس الشفقة الوالدية. فهذا الحرمان محا من أفئدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التى يحول دون انبثاثها فيهم شبوبهم، منذ المهد، فى ضيق اليتم وذل الاغتراب.

ولم أستطع، فى هذه النبذة الموجزة، أن أقدم من طباع العثمانليين إلا البارز المشهود. وليس هو فى الحقيقة مما يجوز فيه الإطلاق، فإن بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربية القويمة والعلم الصحيح، منذ جلس محمد على على أريكة ولاية مصر، من الآداب العالية ما جعلهم أهلا للإجلال والتوقير، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الأسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها.

(٣)
الأقبــــاط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الأقباط - طباع الأقباط وأخلاقهم - عقيدتهم الدينية - كنائسهم - حجهم إلى بيت المقدس - اكليروسهم - الزواج وتشييع الجنازات - صناعات الأقباط وحرفهم.

٢١- نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الأقباط

الاقباط أقدم سكان القطر المصرى، والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون، منذ الفتح الإسلامى، مختلطين بهم. وأغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، على تعاقب الأجيال. ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثنى عشر قرنا. وغنى عن البيان أنهم، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتنكيل بدولة الروم لما بينهما والمصريين من الاختلافات الدينية.

٢٢- طباعهم وأخلاقهم

طباع الأقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الأوربيين إلى محبتهم والعطف عليهم. فإنك تراهم فى وجوم دائم واكتئاب ملازم، كأن الحزن لا ينفك عنهم. وسبب ظهورهم فى هذا المظهر الشدة المرعية فى تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم.

والأقباط يمتازون بأهلية خاصة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر. وهذا هو السبب الذى جعل المماليك - وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقدرون من العلوم والفنون إلا ما تعلق منها بالحرب وحمل السلاح - يتخذون من الأقباط القومة على إدارة شئونهم المالية، خصوصا وأنهم من أصحاب الدراية ببعض المعلومات.

وقد نجم عن تولى الأقباط بعض المناصب الإدارية، لما اضطرت الحاجة المماليك إلى التنازل لهم عنها، أن توافرت لديهم الوسائل للأخذ بالثأر من جراء ما لحق بهم من المظالم والاضطهادات. فإنه لما عهدت إليهم مساحة الأرض وإدارة الأموال رأوا من استنامة الرؤساء إليهم واعتماد أرباب الأموال عليهم خير فرصة لاعتبارهم أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وسادتها الحقيقيين، ونظرهم الى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين. فكأنى بأولئك المسيحيين قد نسوا كلمة اليسوع: «رد إلى قيصر ما لقيصر».

٢٣- ملابسهم

يلبس الأقباط مثل ما يلبسه المسلمون من الثياب. وإنما يفضلون منها ما كان قاتم الون. وإذا كانوا من سكان المدن، آثروا من الثياب ما يكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه، ذريعة إلى التميز بينهم والمسلمين. وجعلوا عمائمهم بأحد هذه الألوان. أما نساؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شىء من وجوههن سواء خارج منازلهم أو داخلها، وفى حضرة أقرب الناس إليهن.

٢٤- إيمانهم الدينى

الأقباط شديدو التمسك بعقيدتهم، ولهم فى أداء فروضها أساليب فى الغاية القصوى من الشدة والصرامة. فمن ذلك أنهم يقومون بالصيام مراعين فى أداء فرضه منتهى الصلابة والدقة والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع، ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكار لصوم نينوى الذى سببه نبوءة النبى يونس. وأكثر الأقباط تشددا فى رعاية هذا الصوم يمسكون عن كل طعام مدة الثلاثة الأيام ولياليها. أما الثانى فيسمى عندهم بالصوم الكبير، وكان فى الزمن السابق، لا تزيد مدته على أربعين يوما. ولكن أقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية

حتى أبلغوه إلى خمسة وخمسين يوما. وهم فى هذه المدة يمسكون عن تعاطى الاطعمة الحيوانية الأصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن، ويقتصرون فى القوت على النباتات والبقول. ويحتفلون بـ « قبل المجىء» أى مدة التجهز لعيد الميلاد والأربعة الآحاد السابقة عليه. وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل، وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب. ويقومون أيضا بالصوم الذى قام به الرسل بعد موت المسيح.

وهناك صوم غير ما تقدم يسمونه صوم العذراء، ويقع فى الثلاثة أيام السابقة على عيد صعود العذراء، وصوم يومى الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين فى غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح والعيد الخاص بحلول روح القدس على التلاميذ. أما الأعياد الكثيرة التى يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعا للتطويل.

٢٥- كنائسهم

سبق لنا القول بأن للأقباط عددا عظيما من الكنائس والأديرة. ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم عادة إلى أربعة أقسام أو خمسة: القسم الأعلى أو الفوقى والهيكل ويحتوى المذبح، وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيسة بحاجز يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه طايب كبير، والقسم الذى يلى هذا الحاجز خاص بالقساوسة والشمامسه والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة. وهذا القسم أيضا يفصله عن الأقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجز من الخشب. وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار، وعلى الجدران صور غليظة تمثل القديسين، وعلى الأخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة. أما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية.

وعادة الأقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الأحذية كالمسلمين إذا غشوا مساجدهم، حتى لا تتلوث الأرض بلوثها.

٢٦- الحج إلى بيت المقدس

من جوامع الشبه بين الأقباط ومواطنيهم المسلمين، اهتمامهم بالحج إلى بيت المقدس. والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين فى الطموح إلى التحلى بلقب (الحاج) فتراهم يتهافتون على زيارة

الأماكن المقدسة، ويرون فى هذه الزيارة فضلا كثيرا ومزية عظمى. وهم يؤلفون القوافل العديدة لهذا الغرض، ويسيرون بحيث يدركون المدينة المقدسة فى أسبوع الصلبوت « الآلام» وأعياد الفصح. وعقب الأسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الأردن للاستحمام بمياهه.

٢٧- الإكليروس القبطى

يقوم بالخدمة الدينية فى الكنائس القبطية الرهبان والشمامسة الإنجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والأساقفة الذين يخضعون لسلطة أحد البطارقة. ولا يجوز عند الأقباط أن يترشح أحدهم للانتظام فى سلك الاكليروس إلا إذا كان متزوجا. فإذا وافته المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية. فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها فى العزوبة. وكذا الحال بالنسبة له إذا توفيت زوجته، فإنه لا يجوز له أن يتزوج مرة أخرى. ويشترط فى قبوله بالإكليروس أن يكون خاليا من العيوب الجثمانية، وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاما. وعليه أن يعيش من ثمار الحرفة التى يحترفها. ويتلقى الصفة الكهنوتية المقدسة إما من يد البطريق وإما من يد أحد الأساقفة.

أما الرهبان فتحتم عليهم العزوب،ة ويتتلمذون قبل قبولهم ليمعنوا فى الصبر والتقوى، وذلك بأن يرسلوا إلى أحد الأديرة الواقعة فى وسط الصحراء ويستخدموا فى الأعمال الحقيرة المزرية. فإذا ظلوا بعد هذه التجربة مصرين على عزيمتهم، قبل اندراجهم فى سلك الكهنوت، وتقرأ عليهم صلوات الموتى فى حفلة تكريمهم لتمثيل موت الإنسان وفنائه فى الحياة الدنيا. والرهبان كثيرو العدد جدا، ويعيشون عيشة أساسها الزهد والتقشف، فلا يحملون من الثياب إلا الصوف، ويميزون عن غيرهم بشريط من الصوف الأزرق سابل حول القلنسوة.

وللاقباط فى القطر المصرى إثنى عشر أسقفا ينتخبون عادة من بين الرهبان أو القساوسة العزب، ويظلون طول مدة أسقفيتهم محافظين على الأساليب الصارمة لمعيشة الرهبان.

أما البطريق فهو رئيس الكنيسة الجالس على كرسى مار مرقص الذى يقول الأقباط إنه تولى تحويل المصريين من عقيدتهم الأولى إلى الديانة المسيحية. ويلقبونه ببطريرك الإسكندرية، وأن يكون مقيما بالقاهرة.

وينتخب عادة من رهبان دير مار أنطونيوس القريب من البحر الأحمر. ويجوز أن يكون تعيين البطريرك بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام فى اختياره، أن يكون بواسطة الاقتراع.

وطريقة ذلك أنه إذا خلا الكرسى المرقصى انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو إثنى عشر راهبا من المعروفين بالنسك والزهد والأهلية لحلول ذلك المركز السامى، ويكتب أسماءهم فى قطع صغيرة من الورق بعضها فى كيس بعد أن يجعلها فى شكل الأنابيب. ثم تخلط الأوراق بعضها ببعض خلطا جيدا، ويدخل أحد القساوسة يده فى الكيس ويأخذ ورقة منها، فالذى يوجد اسمه مكتوبا فيها ينصب بطريكا ويعهد إليه الكرسى البطريكى. وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين، وأن يلبس من الملابس أفخرها. على أنه يبقى خاضعا لقواعد نظامية فى غاية الصرامة والشدة منها أنه لا ينام إلا إذا أوقظ مرة فى كل ربع ساعة ولبطاركة تأثير كبير فى الأمة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهى ترجع إليهم غالبا فى حسم منازعاتها وحل مشكلاتها.

٢٨- الزواج وتشييع الجنازات

يحصر الأقباط الزواج فى دائرتهم بحيث لا يتعدى قط أفقها، فهو بينهم وأهل الديانات الأخرى محرم قطعا. ويحتفلون به على الطريقة التى يتبعها المسلمون. وعندهم أن من بواعث العار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم.

أما الجنازات فليس فيها ما يستوقف النظر وغاية الامر أنهم، كالمسلمين، يستأجرون فيها المعددات والندابات. والمرأة التى توفى» زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه إذا توفيت زوجته، فإنه يحمل حدادها نصف هذه المدة. والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لا يجوز له التزوج ثانيا خلال مدة الحداد.

٢٩- صناعات الأقباط وحرفهم

للأقباط مدارس كثيرة، ولكنها قاصرة على الأطفال. فالنساء اللاتى يعرفن القراءة والكتابة قليلات العدد جدا فى الطائفة القبطية: والدروس التى تعلم ولاد فى هذه المدارس هى مزامير داود (الزبور) والأناجيل ورسائل الرسل.

ويتكلم الأقباط باللغة العربية وبها يتفاهمون. أما لغة أجدادهم فلا يدرون منها شيئا، خصوصا فى الوجه البحرى. ولا يزال الكثيرون منهم كما كانوا فى عهد المماليك يشغلون وظائف الإدارة والمساحة وجباية الأموال. أما فى المدن فيباشرون الحرف المختلفة، وفى القاهرة يزاولون الصياغة والتطرين، وفى مديرية منوف يصنعون حصر السمار، وفى مديرية الفيوم يستقطرون ماء الورد، وفى أسيوط ينسجون الكتان. ويزاولون فيما عدا هذه الصنائع مايزاوله بقية المصريين من أعمال الزراعة وما يرتبط بها.

(٤)
اليهود والأرمن واليونان والسوريون

الفقر الظاهرى لليهود- أخلاقهم- بغض المسلمين لليهود واحتقارهم إياهم- يهود دمشق- الصناعات التى يمارسها اليهود- الأرمن – اليونان- السوريون.

٣٠- الفقر الظاهرى لليهود

يسكن السواد الأعظم من يهود القطر المصرى مدينة القاهرة. ولهم فيها حى خاص بهم ضيق الطرقات مظلمها قذر بلوث لوساخات مختلفة. وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهود أنفسهم فيه، كلما أرادوا ذلك، ليكونوا فى معزل عن بقية سكان المدينة. ومنازلهم متلاحمة متراكمة إلى بعضها، رديئة التقسيم زرية الشكل. واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامح، أقل منه فى أوروبا بينهم والأقوام التى يسكنونها. ومن عاداتهم لبس الثياب الرثة والأطمار البالية، وقد جبلوا على هذه العادة إلى درجة يخيل للناظر منها أنهم يزدهون بما هم متمرغون فيه من تلك الفاقة والمتربة. أما وجوههم فشاحبة اللون، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضى فيهم سببه الإفراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشريج.

٣١ - أخلاقهم

تلاقت فى يهود الشرق الأدنى الطباع والغرائز التى جعلتهم فى القرون الوسطى مبغضين فى أوربا وممقوتين من الناس طرا. وهم مابرحوا إلى اليوم على ما فطروا عليه من الجشع والشح، لا تراهم يجتهدون فى ستر ما لديهم

من الثروة عن الأنظار، والغالب على اليهود الجهل مع التدين، والتشيع للدين تشيعا يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى فى أيامنا هذه.

ورغم ذلك فإنهم يمتازون بالنشاط والملاينة والمداهنة ومعالجة الصناعات المختلفة. ولا يترفعون عن الوسائل أيا كانت مادامت تكفل لهم الربح، قل أو كثر. أما أخلاقهم وعاداتهم فمبنية على الشدة والصرامة، لذلك كانت بعيدة عن مظنة الدنس والشوب.

ونساء اليهود تتحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجبا تاما. ولا سبيل إلى اتهامهن بما تتهم به المرأة التى تفرط فى عفتها مع الرجل وتساومه على شرفها.

٣٢- بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الأخرى بغضا واحتقارا لليهود. ويرجع ذلك إلى ما وقر فى نفوسهم من أن اليهود أكثر حقدا على الإسلام وكراهة له. فقد ورد فى القرآن (المائدة): «لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة لذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

٣٣- يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه، كما فعل مع أهل الديانات الأخرى. فهم يتمتعون الآن فى ظلال حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية، فى سائر أجزاء السلطنة العثمانية. ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على ما لقيه اليهود من العناية والرعاية فى عهد محمد على، حادثة يهود دمشق، وهى الحادثة التعسة التى دوى رنينها فى أصقاع أوربا كافة. ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح إلى عدم التصديق به، ولكننى أقول لمن لا يؤمن بقولى ان مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفيه. فلو أن تهمة كالتى وجهت إلى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق، وجهت قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية، لأفضت بلا ريب إلى إنزال

النقمة بالامة الاسرائيلية فيها وتسلط الناس عليها بالتخريب المتلف.

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن فى قبضـة وال كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممـن لا يكترثون بحياة الرعية، فإنه مـا كان من المأمول مع طـول التروى وإمعان النظر فى القضية التـى تورط اليوم فيها جملـة من يهود الشام، الـوصول إلى حلها حـلا عادلا. أمـا الآن، وقد أحاط الـوالى هذه القضية بجميـع الضمانات الكفيلة بالعـدل وعدم التحيز، وأصبحـت إدارته الحكيمة فى بلاد الشام بعيدة عن مزالق الانتقاد، فقد أقام الدليل الساطع على أنه يعمل بمحض الميل لخير الإنسانية.

٣٤- الصناعات التى يمارسها اليهود

يعالج اليهود مـن الصناعات ما يتطلب أداؤها أكثر مـا يكون من النشاط والحركة، وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والأخطار. فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش، وغيرهم يزاولون بيع الأمتعة القديمة أو يتداخلون بين الباعـة والمشترين لأداء مهمـة السمسرة، أو يحترفون بالصـاغة.. الـخ. ومن اليهود فريق كبير يعـانون الفقر ولا يعيشون إلا من الصدقـات التى يتيحها لهم ذوو اليسر من أبناء دينهم.

٣٥- الأرمـــن

الأرمـن قليلو العـدد فى مصر، والأسر المقيمة بها الآن هـاجـرت إليها مـع الفاتحين العثمانيين. ولسنـا بحاجـة إلى ذكر التـأثير العظيم الـذى نتج عـن مداخلة الأرمن، وهم على ما هو معروف من اقتدارهم ونفوذهم بالآستانة، فى أعمال الحكومة المأجورة لباشوات، يتسلطـون عليإدارة الأقاليم. والباحث فى أحوال بلاد الدولة العلية يخيـل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بين الأتراك والارمن، ملكا مشاعـا استقل هؤلاء بالنصف من خيراتها. ومـن عادتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين فى تنقلاتهم مـن بلد إلى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة إلى مصر واستوطنوها.

وليس لارمـن فى القاهـرة حى خـاص بهم. وقد درجـوا على أن ينظروا إلى الوطنيين بـالعين التى ينظـر الأتراك إليهـم بها. فهم يعـاملونهم بـالعجرفـة والصلف ويبرزون لهم فى مظاهـر الكبرياء والسمو، وبلغ من أمـرهم فى ذلك

أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم. والغالب عليهم اليسر وسعة الحال، لأنهم يعالجون صنوف التجارة ويشتغلون باستثمار الأموال.. والعظماء الأذكياء منهم هم الصرافون، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصنع الثياب وكراكى السمور وشغل الحديد. ويبدون الكثير من النشاط والهمة والأهلية فى أداء هذه الأعمال التى زاولوها مزاولة تعلم وتدرب منذ نعومة أظفارهم.

٣٦- اليونان

فى مصر طبقتان مختلفتان من الإغريق لم تختلطا حتى الآن ببعضهما. الطبقة الاولى منهما سلالة الإغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصرى قبل الفتح الإسلامى، وقد احتفظ هؤلاء بشىء كثير من السمات المميزة لأصلهم. ولا يتكلمون اليونانية وإنما لغتهم العربية، ويزاولون من الصناعات النجارة والتطريز، ويتجرون بالقطاعى فى كل شىء. أما الطبقة الأخرى فتشمل اليونان الذين هاجروا إلى مصر منذ فتحها العثمانيون، وجميعهم تقريبا يشتغلون بالتجارة.

ويقطن اليونانيون فى القاهرة حيين متباعدين: الحى الأول سمى أرض الروم (لعلها حارة الروم)، والآخر الحى المعروف بالجوانية. وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة، وسوادهم الأعظم على المذهب اليونانى المبتدع. ولهم ثلاثة معاهد دينية كبرى وهى: كنيسة مار نيقولاس التى يباشر شئونها بطريرك الأروام، ودير القديسة كاترينه فى الجوانية، ودير مار جرجس فى مصر العتيقة. وهذا الدير موضع احترام الأروام وتبجيلهم وهو عبارة عن قصر حصين يتعذر الولوج فيه من مدخله، وفيه كنيسة يصعد إليها بسلم ضيق مركب فى جدار سميك جدا. وفى الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الأراضى الخلوية المحطية به. وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمعتوهين والمجانين إلى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الذى أطلق اسمه عليه.

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب فى شبه جزيرة موره. فلما جىء بهم إلى مصر بيعوا بيع الأرقاء ثم اعتنقوا الديانة الإسلامية فتوصل بعضهم بذلك إلى أسمى المناصب فى الإدارة والجيش.

٣٧- السوريون

بدأ السوريون بالهجرة إلى مصر منذ قرن تقريبا، وكانت تدعوهم إليها الروابط العديدة التى تربط بلادهم بالقطر المصرى. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة، ولا يزال أعقابهم يسيرون على النهج الذى سلكه أجدادهم فآباؤهم.

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليونانى، وقد حاول بطاركة المذهب المبتدع استدراجهم إلى الاندماج فى طائفتهم، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك. فلكى يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا إليهم فى كل سنة إتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش.

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحى من أهل سوريا وخمسمائة إلى ستمائة بدمياط، ومائتان إلى ثلاثمائة بالإسكندرية ورشيد. ويحرصون على جنسهم من اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب. فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعيدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغربية.

(٥)
الحالة السياسية للرعية

٣٨- يطلقون اسم «الرعية» على الأهالى الوطنيين الذين لا يدينون بالإسلام. والرعية فى تركية أوروبا شطر الأمة الأكبر، أما فى مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا من الأنفس. وهو ما يؤخذ منه أن حالتهم السياسية فى القطر المصرى لا تؤثر تأثيرا كبيرا فى أعمال الحكومة، حاضرة أو مستقبلة، كما هو الشأن فى بقية بلاد الدولة العثمانية.

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعى دهشته طابع التطور الذى رسم به الأتراك كل شىء فى أنظمتهم السياسية. ولقد مضى زمن طويل قيل فيه أن الأتراك لاعمل لهم الا التنقل بخيلهم ورجلهم فى فسيح أملاكهم ولكننا رأينا، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم، أن هذا القول لايزال صحيحا فى مدلوله الخاص به.

فإن العثمانيين لم يلحقوا المملكة التى أسسوها بشىء من عنصر البقاء ولقاح الحياة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القوة والجبروت تدبير

أنظمتهم الإدارية والعسكرية، إذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس. فإنهم لم يدركوا قط أن الاستقرار فى البلاد المفتوحة حديثا لايستدعى احتلال أراضيها فقط، بل أيضا إفناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقة من مزج الأديان والأنظمة والأجناس بعضها ببعض. ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغاروا على أوربا، إبان سقوط الدولة الرومانية، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الأمم المغلوبة بهم، ويتخذوا دينها دينا لهم، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بها. ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحياة تولد، مع حالتنا الاجتماعية الحاضرة، ما هو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة فى الأمم الأوروبية جميعا.

أما العثمانيون فقد ساروا - بالنظر إلى ازدهائهم برفعة عقيدتهم وسموها على سائر العقائد - على عكس الخطة المتقدمة فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا أتحفوهم بعطاء، بل أقصوهم عنهم وعوملوا بالقهر وسيموا بالمذلة. فلم يتوافر فى المملكة العثمانية، لهذا الباعث، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوى الذين يحملهما الفاتحون إلى المغلوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل، وعنصر المدينة الذى هو تراث الماضى مصونا بيد المغلوبين. ولم يتم فى تركيا ما تم بأوروبا فى القرون الوسطى من تلقيح الجسم - الذى أخذت تتلاشى حياته - بدم جديد كريم توافر فيه ما يحتاجه هذا الجسم الآيل إلى الفناء من عناصر القوة والتجديد. وكل ما حصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة.

قامت الدولة العثمانية على هذا الأساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح، ولم تحصل من الزمن على ضمان بالبقاء، إذ كانت مؤلفة من أمتين إحداهما واقفة حيال الأخرى ومتصلة بها اتصالا لا انقطاع له، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما، وشعور كلاهما للأخرى فى نفسها بالازدراء والبغضاء.

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل أمتان لإحداهما على الأخرى التفوق فى العدد، وان لم تكن قابضة على ناصية الشوكة والحكم

فى الحال، والحقيقة التى لاريب فيها أن وحدة الأمة شرط أساسى لا مفر منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره.

ومما أدهش ذوى العقول الراجحة ما يمكن أن يفضى إليه من النتائج انقسام شعوب تركيا إلى شطرين كبيرين. فقد قال أوركارت فى كتابه (تركيا ووسائلها): «إن للرعية من المكانة والشوكة ما تستطيع به تعطيل إصلاح الدولة العثمانية وإعادتها إلى نشأتها الأولى».

وليلاحظ ما هناك من الفرق المشهود، من هذه الوجهة، بين مصر وبقية أملاك الدولة العثمانية. فإن مصر لا تخشى تفشى المنازعات الداخلية فيها، وكل ما تخشاه أن ترى النصف من سكانها يستصرخون بالأجانب ويدعونهم إلى قلب النصف الآخر والتحكم فى أهله بالغلبة والقهر. ولنفرض جدلا أن هناك أسبابا لتقليل التهم التى يوجهها خصوم مصر إلى حالتها الحاضرة. ولكننى أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرة لسائر الأجزاء، بتوافر الدلائل الراجحة فيه على حسن مستقبله، لتحقق معنى الوحدة الجنسية فيه بحذافيرها.

والرعية التابعون لدولة العثمانية لا يساهمون مع المسلمين فيما هو مفروض عليهم من الكلف والرسوم، ولا فيما هو ممنوع لهم من المزايا والخصائص فى السياسة. فمن ذلك أنهم غير مطالبين بالتجند للدفاع عن حوزة الوطن، غير أنهم محرومون إزاء ذلك، من مساواتهم فى الحقوق المدنية، فضلا عن أدائهم إلى الخزينة ضرائب خاصة بهم إلخ. فالتقريب بين الرعية والمسلمين بإزالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر فى الحقوق هما الغرضان اللذان يجب أن ترمى إليهما، فى تركيا، كل سياسة رشيدة تتمنى من قلب سليم تجديد الدولة العثمانية وإعادتها سيرتها الأولى، والظاهر أن إلى هذه النتيجة تشرئب أعناق مستشارى السلطان، وفى طليعتهم رشيد باشا الممتاز عليهم جميعا بصراحة الأفكار وحريتها وصدق الميول إلى ناحية الخير.

وإذا أتيح لى أن أزجى إلى سمو والى مصر رأيا. فإنما أول ما أشير به عليه إقامة المساواة فى الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية). وبدهى أن هذا العمل لايكبده من الصعوبة والحيرة ما يكبد الباب العالى

منهما، لأن الرعية فى حكومته أقل نفرا وأضعف شوكة منهم فى بلاد الدولة العلية. فإذا سعى سعيه فى هذا السبيل، عاد سعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار أن هذا العمل لم يكن إلا تجربة ضيقة النطاق، فإذا أفلح، وهو المرجو، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب فى أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها. وفى هذه الحالة يكون بإمكان محمد على البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والإصلاح التى يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها. فإذا أتم ذلك بمعرفته فإنما يتم عملا بدأ به، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعية من ربقة الاستعباد بقبولهم فى المناصب الكبرى الإدارية واختيار المحافظين والمديرين منهم.

(٦)
الفرنجة

القناصل- التجار- الصنائع- مستخدمو الحكومة- أخلاق الإفرنج وطباعهم- المسافرون والرحالة- شعور المسافرين- مايستجقونه من اللوم- نصائح.

فى جميع بلدان الشرق، يطلق اسم الفرنجة أو الإفرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الأوروبية. وقد رأينا ــ فى غضون الكلام على سكان القطر المصرى ـ أن عدد الافرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريبا. ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها، وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة.

٣٩- القناصل

الطبقة الأولى جماعة القناصل والقنشلرية والأعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم. وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم.

وفى مصر قناصل جنرالية يقيمون بالإسكندرية. والدول الأوروبية التى ينوبون عنها هى فرنسا وروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولندا وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا.

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها.

أما القاهرة فالمباشر لشئون الأجانب فيها وكلاء بدرجة (فيس قنصل) فى حين تتطلب أهمية هذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الأولى لما يوجبه ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها. فإنهم لا يحترمون الحكومات الأجنبية ووكلاءها، إلا بقدر ما يكون لها من جلال المظهر وحسن الهيئة. وللدول السالفة الذكر وكلاء فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والقصير تختارهم عادة بين أهالى القطر الذين يدينون بالنصرانية.

وعلى القناصل فى بلاد الشرق أداء مهمة غير التى يقوم بها أمثالهم فى أوربا. فإنه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقاتنا مع الدولة العثمانية.، كان الاختلاف بين أخلاق الأتراك وأنظمتهم وبينها عند الأمم الأوروبية عظيما إلى أحد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الإفرنج بمقتضاها، وتوسيع نطاق اختصاصات القناصل.. وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمنوطين بحمايتهم، على وجه يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا فى أى بلد غير ذلك البلد. وسبب ذلك أن الأتراك — لما فطروا عليه من التوحش والهمجية — كانوا لا يكفون عن استعبادهم بوسائل القهر والإذلال، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى من القناصل همة ويقظة لا تنقطع، فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات الدول الأوربية فى الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة، إلى أن تصبح الأخلاق والأنظمة فى الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها فى الديار الغربية.

ويميز القناصل الجنراليون للدول فى الإسكندرية، على زملائهم فى سائر بلاد الشرق الأدنى، ويسمون عليهم فى رفعة القدر.. لأن الدرجة التى بلغت مصر إليها فى العالم السياسى، منذ قبض محمد على على زمام شئونها، أفضت بحكم التبعية إلى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة الوالى إلى مكانة تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأنا وأعظم حظوة مما كان، ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء، لأنهم لا يقتصرون على حياطة المصالح

التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية . بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمرا ليرفعوا إليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة. فالشأن الخاص الذى صار إليه القنصل الجنرال فى الإسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب إذن تحويل هذا المنصب إلى مركز سياسى بحيث تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى إلى معتمد سياسى.

ولكل من انكلترا وروسيا وكيل خاص عهد إليه النظر فى الشئون السياسية. فخليق بالدولة الفرنسية أن ترفع إلى مستوى هاتين الدولتين. لاسيما وأن اهتمامها المتواصل بشئون مصر وتأييدها محمد على فيما يبذله من الجهود الجليلة لما يدل دلالة واضحة على أنها بإنابتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملأ فيه وليا عظيما لا باشا من مطلق الباشوات الكثيرين.

ثم إنه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الأخيرة إلى قنصل خاص بها. وغير خاف ما للشئون التجارية من الأهمية العظمى، فإذا اعتبرنا الأحوال الحاضرة فإن القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيرا والمشاغل عظيمة بالنسبة إلى اضطراره من جهة أخرى للنظر فى شئون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى.

يتولى القنصل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يديرها بمقتضى الأوامر والقوانين المعمول بها فى كل الشرق، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الأمة المنتخبين من الأعيان فى القضايا المدنية والجنائية، ويبرز فى الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك.

وللقنصل الجنرال، فضلا عما تقدم، الحق فى حماية جميع الأديرة أما معاهد نشر الديانة المسيحية، فحمايتها من حق القنصل وهى داخلة فى دائرة اختصاصه.

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا فى المملكة العثمانية وإعلاء شأنهم توفير

ماينبغى من الوسائل لقيامهم بالمهمة الموكولة إليهم ليكونوا أهلا للثقة التى وضعتها فيهم حكوماتهم. ومن المرغوب فيه أيضا تزويد السلطة القنصلية بالقوة الكافية، وأن لايسمح بوجه ما لأحد من أبناء وطننا التنصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهانها. والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظة على النظام بين أفراد التبعة الفرنسية وتطهيره - مادام النظر فى شئونها موكولا إليهم - من أدران المحتالين والدساسين الذين لا إلاًّ = عهدا = لهم ولاذمة، الذين يلوثون سمعة أمتهم باغتنامهم فرصة طيبة الشعب المصرى واستنامته إليهم لابتزاز أمواله وانتحالهم ما ليس لهم من الألقاب والصفات للتغرير بهم. ويجب أيضا إلزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل.

٤٠- التجار بالجملة

الطبقة الثانية من الإفرنج تتألف من كبار التجار. وهم يقيمون غالبا فى الإسكندرية، وعددهم الآن أربعون، يقيم بعضهم بالبلاد مع أسرهم منذ سنوات عديدة. ولا يتضمن عددهم طبعا التجار بالقطاعى، إنما ينبغى أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنازل رؤسائهم التجار.

٤١- التجار بالقطاعى

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجار بالتجزئة، وبالإسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الأوربيين يباع فى بعضها القماش وفى البعض الآخر الزجاج أو الجواهر. والأزياء الحديثة.. الخ.. وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضائع على اختلاف أصنافها. أما مخازن الأزياء المستحدثة فإنها من استجماع أسباب النظام والكمال بحيث تستطيع إيقاف زبائنها على حركة الازياء المستحدثة بأوربا.

وتحتوى الإسكندرية ثمانية مطاعم أو عشرة للفرنسيين والإنجليز والإيطاليين على ما يرام من النظام، وقهوات جميلة تقدم فيها الشيكولاتا على الطريقة الأوربية، وفى فصل الصيف أنواع الجليد المحلى = الجيلاتى = الذى يرد الثلج اللازم لتبريده من بلاد كرامانيا ولفطاطرية الإفرنج بالاسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهم وهم يربحون ربحا لا بأس به. وفى القاهرة مطاعم عديدة على الطراز الأوروبى.

٤٢- أرباب الصنائع والحرف

أمـا طبقة الصنـاع فتتألـف من النجـاريـن والبنائين وصـانعى الأقفـال والكوالين والسمكرية واالنحاسين وصانعـى المركبات والصياغ والجواهرية والساعاتية وصانعى الأحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الأزياء الحديثة للسيدات.

٤٣- موظفو الحكومة

تتألف مـن الأوروبيين المنتظمين فى خدمة الحكومة طبقـة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر للذهن أول وهلة. ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما فى الجيش. هذا كـل عددهـم الـذى يتوهمون بـأوروبا أنـه يتجـاوز بضع مئـات بل بضعـة ألوف، ولقـد كـانوا أيـام تشكيل الجيـوش البحرية بمقتضى النظام الجديد أكثر عددا منهم الآن، ولكن عددهم قل كثيرا منـذ تدريـب الجنـود المصري،ة ولم تعـد الحاجة مـاسـة إلى الأوروبيين فى تعليمهـا الفنون العسكـرية. أمـا المدارس ففيها نحـو العشرين إلى الخمسـة والعشريـن أستاذا أوروبيـا أغلبهـم من الفـرنسين وأما مصـانـع الحكومـة وفاوريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والإنجليز والإيطليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصنـاع فيها. وبين موظفى الإدارة بعض الإفرنج يؤخذ من إحصائهم والإحصاء المتقدم أن عدد الأوربيين الذين فى خدمة سمو الوالى لم يكـن من الكثـرة بما ذهب إليه الظـن واتجه الخاطر.. ولا جـرم فإن بدهيـا أن يكون اهتمام محمد على منصرفـا إلى استخدام أكبر عدد ممكـن من أفراد رعيتـه، وأن يتخلص من الـوصايـة التى كان لابـد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت فى استمـداد أوربا والاستعانة بها على كل أمر مـن أمورها. وهى نزعة وطنية محمودة العقبى، غير أننى ألاحظ أن فيها مبالغة وشططا. إذ لا يخفى أن الأنظمـة الجديدة تحتاج فى حفظ كيـانها إلى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجهـا أن تذهب ضياها حتى يتيسر اطـراد السير فى سبيل التقدم والفـلاح. وهـذا يستـدعـى الاستمـرار على طلـب المعـونـة مـن الأوروبيين والاسترشاد بهم.

٤٤- طباع الإفرنج وأخلاقهم

إن الأوروبيين الذين ذكرت نتفا من أحوال طبقاتهم، تتألف منهم جماعات

يلم شتاتها أحياء خاصة بهم. ومما يؤثر عنها التشدد فى رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة فى تطبيقها. فإن أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لا يجوز لهم أن يتعدوا فى علاقتهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم. ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع فى الإنفاق على ما هو مألوف فى الهيئات الاجتماعية الاستعمارية، وتحرى البذخ والأبهة فى الآثاث والرياش والثياب، وتعقب الأزياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والحضور فيها. وغالبا ما تقيم الحفلات الليلية الفخمة، وتعد المعدات الباهرة لإقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق فى التنميق والتنسيق. وفى الإسكندرية معهدان صغيران فى الغاية القصوى من إحكام الترتيب وجمال الزخرف لتمثيل الروايات على اختلاف موضوعاتها ، وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الإيطالية وكان بناؤهما على نفقة بعض هواة الفن ، ويتسم الإفرنج برقة مقرونة بمظاهر الأدب وإكرام مثوى الزائرين وبسط الكف با لمال لذوى الحاجة، حتى أنهم كثيرا ما يوافون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك إلى الخمسمائة. ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالأموال التى كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما. وقد أنشأوا بالإسكندرية مستشفى يتولون الإنفاق عليه من صفوة مالهم، ويعالجون فيه الصناع والبحرية وسائر الإفرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشئونهم فى منازلهم، أثناء علاجهم.

وما يؤسفنى ذكره هنا ما لاحظته فى الأخلاق والآداب بين الجالية الأفرنجية، من التجوز والترخص. فحيل الغرام أو دسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة، ولكن هذا الانحلال الخلقى لاينفى وجود أشخاص وأسرات على غاية ما يراد من العفة واستقامة الأحوال والمحافظة على نواميس الآداب والتدقيق فى رعاية ما يليق وما لا يليق. وهؤلاء خير قدوة لمن يجب أن يستن بسنتهم فى الفضائل ومكارم الأخلاق.

٢٥- الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دوما، فيما عدا طبقات الأوروبيين الذين سبق الكلام عليهم، عدد غير معين من المسافرين يفضى البحث فى طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم إلى الانتقاد الشديد.

إن الأسباب التى يستند الأوربيون إليها فى اعتزام زيارة القطر المصرى كثيرة ومختلفة. فبعضهم وهم الرحالة الحقيقيون يقصدون بزيارتهم الانتفاع فى أوقات فراغهم بعمل ما يجهلونه، فهم كالنحل يتنقلون من زهرة إلى زهرة لاجتناء ما يطمحون إليه من ثمرات العلوم والفنون، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والكتاب يقصدون بالزيارة حل رموز العلم وتلقى آيات الوحى فى أقدم معهد للفنون بل فى الأرض التى أغدقت عليها الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتها بالطرف النادرة واللطائف المستملحة، وتحوم فى جوها ذكريات ترجع فى القدم إلى بضعة آلاف من السنين، وهناك فريق ثالث يشخص إلى مصر فى طلب المال، وسوادهم الأعظم من رجال العسكرية والتجار والأطباء والمهندسين وذوى الابتكار لمشروعات والواقفين على الأسرار العجيبة وغيرهم ممن رفضت اختراعاتهم واستكشافاتهم فى أوربا، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها بأرضها العذراء.

وممن يحضرون إلى مصر التماسا للنزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العالية والمراتب الخطيرة. وهؤلاء يعاملون بما هم أهل له من الإكبار والإجلال، إذ يحتفى سمو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهم ويبذل المستطاع فى العناية بهم وحسن الالتفات إليهم، وكثيرا ما يخصص لنزولهم أحد قصوره الباذخة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولته. وإنا لنذكر بهذه المناسبة الحفاوة الباهرة التى لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بوكار مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى.

أما السياح الذين لا ألقاب لهم ولاشهرة، وإنما هم على شىء من الغنى واليسر، فيجوبون القطر المصرى فى أمن وسلام، ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات. وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا [1] أى

---

(١) كان هذا الفرمان يكتب كما يلى :

من ديواننا فى سنة .... من الهجرة .....

إن صديقنا القديم الحميم المسيو . «تذكر هنا الجنسية» جاء إلى أملاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الاماكن المفيدة له فى أبحاثه . وقد قدمه الينا جناب قنصله . وبناء عليه قد سلمنا فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته فى طول أملاكنا وعرضها .

فعلى المديرين والمأمورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين، وبالجملة كل من يقدم اليهم هذا الفرمان أن يعنوا بأمره ويهتموا باداء الخدم التى يروم منهم قضاءها حتى لا ترفع إلينا منه شكوى فيما بعد . ونوصيكم بعمل ما يلزم كى لايلحقه حيف أو يوجه اليه شتم من الفلاحين أو غيرهم وان تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج إليه، وأن لايدفع ثمنا عنه إلا ما يطابق السعر الجارى فى البلاد وذلك فيما يختص بأجر الدواب أو المراكب وثمن الاغذية الخ ... وانى اعتبر أن الخدمات التى ستؤدونها اليه كانها أديت إلينا بالذات .

نوعا من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التى هم تابعون إليها.

٤٦- تأثير الزيارة فى نفوس السياح

التأثيرات التى تتركها مصر فى نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف. واختلافها تابع لغرائزهم وأمزجتهم، فإن بعضهم يصلون إلى ضفاف النيل وأدمغتهم ملأى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم، فاستقر فى أخلاقهم أنهم سيجدون بمصر - فيما عدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب الراحة والهناءة والمزايا المادية التى هى ثمرة الحضارة والآثار القديمة - عادات وأخلاقا تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يمنون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم إياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر فى أخلادهم أن بلد الأهرام وأبى الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقته كما هو فى أوربا، بل متى علموا أنهم لا يستطيعون الذهاب إلى الأهرام فى السكة الحديدية، وأن ليس هناك طريق سلطانى أو إقليمى أو زراعى يصل الإسكندرية أو القاهرة بأطلال الكرنك والاقصر الضخمة الفخمة، لا تلبث هذه الخيبة أن تتحول عندهم إلى شكوى مرة أو كراهة بالغة أو غيرهما مما يجعلهم يرون الأشخاص والأشياء فى غير مظهرها الحقيقى، فيؤدى خطأ الحس حتما إلى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته.

ولا يهمهم من الأمر أن يكون الجو معتدلا، والسماء صافية الأديم، ماداموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق. ومن أين لهم، - وهذه حالتهم النفسية - التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين يبثان فى الجسم والنفس نشوة السرور والفرح، بل إذا كانت أنظارهم تقع على ما تثيره الرياح من الإعصار فيكفى هذا لكى يتأهبوا للقاء يوم عبوس قمطرير. ومع اعترافهم بخصوبة الأرض، تراهم يقولون إن مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبث اليأس والقنوط فى النفوس لتجانسها وسذاجتها، دع أنهم لاتهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الأرض لا تعدو كونها شريطا ممتدا وسط الصحراء القاحلة. ويضيفون إلى ماتقدم قولهم إن الآثار القديمة ضخمة جليلة، وأن ما تثيره من جليل الذكرى يتجه إلى خاطر الرائى ويناجى

فؤاده، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل، وسكانها رجالا ونساء لايستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد. أما الأطفال فمجردون من الثياب بالمرة، تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الأمراض المختلفة، وأن كل شيء تنبو عنه الأنظار لقبحة وبشاعته. يضاف إلى ما تقدم كله ما يستشعر الغريب به من القلق والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة،ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والموانع ما يبعث على الضجر والمل فى كل آن.

لهذه الاسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شيء سوادا، لا يتنفسون الصعداء إلا إذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التى تنزح بهم عنها ،وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد فإذا ما عادوا إلى مواطنهم واستقر بهم النوى، وكبر تأثر نفوسهم بما أصابهم من الفشل والخيبة فى رحلتهم، أطلقوا لألسنتهم العنان فى ميدان ذم مصر والطعن فى أهلها، كلما سنحت لهم فرصة ،وإذا عمدوا إلى تدوين رحلتهم أبرزوها فى ثوب مبرقش بألوان لا تطابق الحق والعدل فى شيء.

وهناك فريق من السياح يذهبون مذهب الغلو فى عكس ما شرحناه من الشعور والتأثر، فإنهم لإعجابهم بكل جيد وتحمسهم له وشرههم إلى استطلاع ما يدعوهم إلى العجب والدهش، لا يستثنون من إعجابهم ودهشهم شيئا مما تقع عليه أبصارهم. ففى نظر هذا الفريق، ينبغى أن يشمل اعجابهم واستحسانهم المرئيات التى تلفت أنظارهم، سواء فى ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ.

لهذا السبب تراهم يسارعون إلى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم، حتى لقد صار من التقليد الشائع بين الذين يصلون حديثا من الإفرنج، أن يكتسوا فى أقرب وقت بالثياب الشرقية. ومع أن الذين يلبسون الملابس الأوربية لاينقص احترامهم فى نظر الناس بسبب لبسهم إياها بل يزيد، فإن أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذى نزلوا فيه، بينما هم لايقصدون فى الحقيقة إلاقضاء حاجة فى نفس يعقوب، فيكون من أشهى الأشياء إليهم أن رأوا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا إلى جانبهم سيفا. والذين يزعمون

أنهم من الفنانين والعارفين بأسرار الثياب، يفرطون من التشيع للثياب الإسلامية القديمة بما يدعو الناس إلى انتقادهم والتهكم عليهم. فإنهم يتعملون الرفق بالشرقين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا. ومع أن استعمال العمة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئا فشيئا بحيث أصبح استعمالها لايتعدى أهل الطبقة الدنيا إلا قليلا، فلا يزالون يتعممون بها. كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريرى الذى كان الشرقيون يحملون به السيف قديما على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض

وهناك فريق تمكن منهم حب التقليد إلى حد السير على الأرض حفاة الأقدام. فيخيل للناظر إليهم أنهم أصبحوا بحيث لا يعرفون كيف يجلسون على الكراسى، وأنهم لكى يوقوا أنفسهم ضر الجلوس متربعين على الدواوين، لا مناص لهم من معاناة بعض الألم. ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الأوضاع وحمل الثياب تستدعى ــ بالرغم من مزاعم أولئك الزاعمين ــ الاختبار والدربة. وإنه ليكفى أن يتنبه الإنسان لما هناك من التصنع والكلفة فى اختيار الثياب الشرقية وتسوية بعض أجزائها، وفى خطأ الحركات والأوضاع فى الجلوس والمشى، لتميز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه، ومعرفة المقلدين الأوربين المتنكرين بالثياب الشرقية بعد اطراحهم الثياب الافرنجية على أن هذا لاينفى وجود لفيف من السياح ذوى عقول راجحة ينصفون فى الحكم ، ويتحامون التحيز والمتحاشين لغلو من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدرون البلاد وسكانها والأشخاص والأشياء حق قدرها، فلا يأنفون من الرضوخ لمطالب الوسط وحكم العادات. بل يستطيعون الحكم حكما صائبا على مصر التى أتاح لهم استعدادهم العقلى البحث فى شئونها بحثا تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجزيلة.

٤٧- أصحاب المشروعات

إن أصحاب المشروعات الذين يصلون أفواجا إلى مصر، يزودون عادة برسائل التوصية. والمشتغلون منهم بالفنون العسكرية يقترحون على الحكومة المصرية الأساليب المستحدثة لتدبير القتال، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضاعها فى ميدان الحرب. ومنهم خبراء فى الشئون

المدفعية يقـدمون إليهـا قذائف يقولـون عنها إنها أصلـح ما يكـون لإحراق المواقع الحصينـة وأفتك مـا شوهد بـالدوننمات. ومنهـم من يكـاشفها بسر تركيـب السفن الغـواصة أو يقترحـون عليها الـوسائل المختلفـة لرفـع الماء مؤكـدين بـأنها إذا روعيت تجيء بـا لمعجزات المدهشـات، أو يرفعـون إليها مشروعا بصنع آلات يعزون إلى قوة عجيبة منها، وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكر هنا على وجه خاص، أنها جربت مئات المرات وآلافها فأدى الامتحان إلى إصابة أصحابها بالفشل والامتهان.

ولقد رأينـا فيما شهدناه بمصر أطبـاء من الـدجالين يزينـون للناس أنهم يملكون مـن أسرار طرق العـلاج ما يمتـدحون لهم تـأثيره الفعال ونتيجتـه المحققة النفع. وقد جـاء أحدهم، وهو من أهل مذهب الأوميـوباتيا فى العلاج، بدواء خـاص أطرى فوائده، وقال بصـدق تأثيره فى الأمراض الثـلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهـى: الدوسنطاريا والـرمد الصديدى والطـاعون. واقترح، تحبيذا لهذا الدواء، إلغاء النقالات العلاجية. إذ قال إنه يكفى الطبيب أن يكون فى جيبه علبة صغيرة من الأدوية لمعالجة جميع المرضى فى إحدى فرق الجيش أو فى أحد المستشفيات. حقا إنه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية فى الأمراض التى تستـدعى العمليات الجراحيـة، بل جهـر بأن علاج الجراح النـاتجة من الرصاص والسلاخ الأبيض تخرج من اختصاصه، وأنـه يكل العناية بأمرها إلى الطب العادى. وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزاعم زميله المتقـدم، إذ جعل اختصـاصه ادعـاء القدرة على انقـاذ مصر كلها مـن فتكات الرمـد الصديدى. ولقد كان هـذا الرجل أسعد الأفاكين الـذى وجد من ديباجته وأشدهم دهاء ومكرا. إذ استطاع، زمنـا ما، التغرير بالناس وإدخال الغش عليهـم فسهل لـه ابتزاز أموالهم على وجـه فاضـح جدا. وممـا ينبغى الاعتراف به سرعة انخـداع الأوربيين بتغريرات من لاذمـة لهم من المتشردين والأفاقين على أثر ما يظهـرونه من المجاملة والتسامـح، بغير روية نحو أفراد هذه الطبقة. فـإنهم يسارعون إلى تزويـدهم بكتب التوصيـة على جهل منهم بحقيقة أمـرهم وجليـة خبرهم، وهو مـا جعلهم يلقون مـن مظاهـر الإجلال والتكريم ــ لدى وصولهم إلى مصر ـ مـالايستقبل بمثله الا الكبراء والعظماء. وماهم فى الحقيقة إلا لصوصا يتبرأ الرجل الشريف من معرفته بهم.

وفى استطــاعتى أن أورد هنــا حوادث عـديدة ليـس منها إلا مـا يدعــو إلى العجب والــدهشة. ولكننــى أجتزىء منهــا بحادثــة البارون (دى ولفنجــن) الشـهير الذى استقبل استقبالا بــاهرا من أهل الإسـكندرية إجــلالا للقبه الدال على علو القدر ونباهــة الذكر، وتقديرا لكتب التوصيــة العديدة التى زود بها. فقد بـدا هذا الأفاق الحاذق بالنـزول فى دار جليلة تبدو عليها مظـاهر الأبهة والبذخ، وإنفاق المال عـن سعة وبذل، واستقبال الـزائرين من أهل البيـوتات الكبيرة والأسر الكريمة. وكان لايدور حديثــه معهم إلا عن قصوره الشامخة وأموالــه الزاخرة وخيراتــه الوافرة. فكــانوا يتســابقون إليه جميعــا رجاء أن يتفضل عليهــم بإصــدار أمر أو الإعراب عــن أمنية ليتبــاروا فى تحقيقها على الفور، وما من أحد منهم إلا وتقدم إليه بماله يسـأله التعطف عليه بقوله، وما من حفلــة ليلية شائقــة الا وأقيمت عنــده أو جمعية صفاء وهنــاء إلا وأخذت مجلسـها فى بهوه. واندرع جميع الناس يتفاخــرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون والذى كان ـ والحقيقة ــ من أعرف الناس بأساليب الطف والإيناس وأوسعهم إلماما بطرق مقــابلتهم ومجاملتهم على ما تقتضيه مراســم الأدب. وما كــانت تقــع الأنظار على ذى حيثيــة سائرا فى الطــريق إلا ويجاوبك على سؤالك إياه: إلى أين أنت ذاهب؟ إننى أقصد البارون. يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلــف الذى دب فى نفسه، ولا يحس عادة به سوى من يدعى إلى لقاء ملك جليل الشأن.

وما كــان أعظم يــأس أولئك المغروريــن وأشد شعــورهم بــالفشل حينما حامــت الشكوك حول ذلك الثـرى العظيم وأصبحت يده صفــرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله. فإنــه لم يتمالك أن نبه أولئك الحمقى ذات يوم بحقيقــة أمره إذ قال: أن أمــواله الطــائلة وقصورة المشيــدة فى ألمانيا، لم توجــد قط إلا فى مخيلته أثناء حــديثه عنها وفى حماقــة الذين سلموا اعتبــاطا بمبالغاته فيها.

وقــد خسر هؤلاء مــن جراء ســذاجتهم وحســن اعتقادهــم فى هذا اللــص مالايقل عــن خمسين ألف فرنك إلى ستين ألفا. ولقــد كانت هذه المبــالغ وافرة بالنظر إلى المدة القصيرة التــى أقامها ذلك المحتــال بالإسكندرية، وهــى نحو خمسة عشر شـهرا إلى ثمانيه عشر.

٤٨- لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتقريع الشديد، لأنهم متى وصلوا إلى هذا القطر ووطئت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم إلى الترهات والأقاويل التى تحملهم على إساءة الظن بالنزلاء الأوربيين والتسليم، من غير بحث بأنهم فى حالة يرثى لها من التأخر، وأنهم هم الذين يحملون إليه وحده مشاعل العلم والعرفان. وترى البعض منهم يصدرون الأحكام الجازمة فى المسائل الإدارية ويرون فيها رأيهم البات قبل أن يلموا بشىء من أحوال الوسط وساكنيه. بل ويجرءون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته ونظامها. وربما بلغ الطيش بهم أحيانا إلى إتهام الأوربيين الموظفين فى حكومته بقلة الكفاءة وشدة الجهل، لأن بعض ما تم على أيديهم من الإصلاح لم يرق فى نظرهم إما لأنه لايفيد البلاد فائدة مؤكدة وإما لأن حقيقة ماقد يعترضه من الموانع يكون لا قبل لأحد على دفعه.

وخطأ ذلك الفريق أنهم، قبل رحيلهم إلى مصر، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب. فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها ما لم يعرفه غيرهم من الأوروبيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة. ويرون أن من بواعث السرور ودواعى الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق، وأن يعبثوا بالحرية التى منحها سمو الأمير للأوربيين من فيوض مكارمه. فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الأوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض آراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل.

ويتبع هذا الفريق فريق آخر سلكوا مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدنية التى ينتسبون إليها وذلك لأنهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مرذولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون، جهارا نهارا، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكرباج. ولأجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم إلى مصر بالكرابيج يضربون بها ـــ من غير رحمة ولا سبب معقول ـــ الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشيائهم

باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب، وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الأمتعة برسمهم من مكان إلى مكان.

٤٩- نصائح إلى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون إلى الإسكندرية أن يقصدوا ـ بعد نزولهم من السفن مباشرة ـ إلى دور القناصل الذين ينتمون إلى دولهم كى يحصلوا لهم على الفرمان الذى يسمح بتنقلهم فى البلاد وطوافهم فى أنحائها وجوبهم أطرافها. فإذا لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة إلى واحد من أبناء وطنهم المستعدين لإيوائهم وإكرام مثواهم مدة إقامتهم بذلك الثغر، فإنهم يجدون فى هذه المدينة من الفنادق والمطاعم ما يليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع الملل والنحل.

ويجب عليهم ـ إذا هموا بالسفر إلى القاهرة ـ استئجار قارب أو زورق يصلون به إلى النيل عن طريق ترعة المحمودية، وهذه المسافة تقطع عادة فى نحو اثنى عشرة ساعة أو أربع عشرة. وفى نهاية الترعة ـ أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القريبة من فوة، ينزل الركاب من ذلك الزورق إلى قارب آخر يصعد بهم فى النيل إلى مدينة القاهرة، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه. فإذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين إلى ثلاثة أيام أما إذا لم تكن موافقة فربمااستغرقت ثمانية أيام وأحياناخمسة عشر يوماً، ومهما يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدةبطئها، فعلى المسافر التذرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول إلى القاهرة، لان هذا الطريق متعب للغاية لاسيما وأن نظام النقل بين الإسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن.

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية إلى القاهرة تختلف من خمسين فرنكا إلى ستين للقوارب العادية، وتزيد على ذلك بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره. وإذا كان المسافرون عديدين فإن الأجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لايكاد يذكر من المال، والنزول من المراكب ـ عند وصولها إلى القاهرة ـ يكون فى بولاق، مرفأ هذه العاصمة وموردتها.

ويحسن بالمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام إلى خمسة عشر

يومـا. والحقيقة أن خمسة أيام منها أو ستة تكفى لزيارة مايهم الأجانب الإطلاع عليه كالأسواق والمستشفيات ودور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات والمدارس والمقابر وأهرام الجيزة وسقارة.

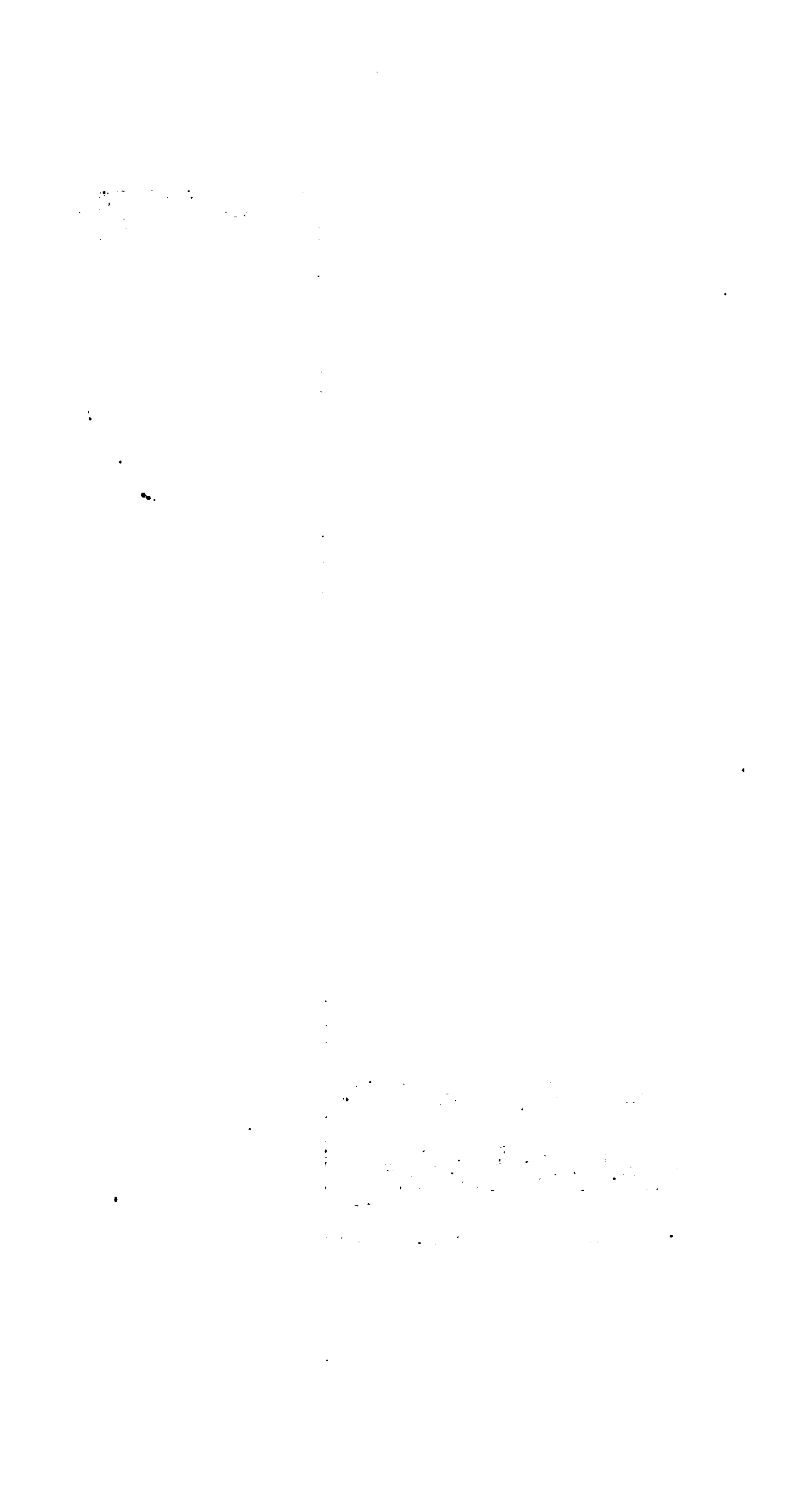
وبعد ذلك يعد معداته للصعود فى الوجه القبلى حيث الآثار التى تلفت أنظار الرحالين. والواجب قبل كل شىء، فى هذه الحالة، الحصول على قارب جيد واستئجاره بأجرة تختلف من ألف قرش إلى ألف وثمانمائة شهريا، وتتضمن هذه الأجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره. والأفضل أن يحرر مع الرئيس صاحب المركب أو ربانها عقدا لابرازه عند الحاجة لدى السلطة المحلية، خصوصا إذا لم يف صاحب القارب بوعوده ولم يقم بعهوده. ومما يفيد المسافرين كثيرا، أن يكون استئجار القارب بالشهور لا باليوم، ويحسن به الاحتياط، فيأخذ معه بعض مايلزمه من المؤن كالبن والسكر وغيرهما من الأشياء التى يتعذر الحصول عليها داخل البلاد. أما اللحم والبقول والخضر والفواكه والبيض واللبن الخ. فالحصول عليها ميسور على طول الطريق بأبخس الأثمان.

ولابد ـ قبل مبارحة القاهرة ـ من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة، ويشترط معه فى ذلك أن يكون ملما باللغتين التركية والعربية. ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئة وخمسين قرشا شهريا. وغنى عن البيان أن التراجمة المصريين لاتتوافر فيهم الشروط المتوافرة فى التراجمة والأدلاء الإيطاليين حذقا وإلماما بالشئون العامة. فإنه إذا كان التراجمة لايدرون فتيلا من تاريخ الآثار التى اعتزم الرحالة زيارتها، فلا مناص لهم من محاولة التفاهم بشأنها مع أهل البلاد، وربما اضطرتهم الضرورة إلى مواجهة السلطة المحلية لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والإلمام به.

وإذا كانت الريح موافقة عند السفر من القاهرة، فمن الأنسب الصعود فى النيل إلى أقصى نقطة منه فى القطر المصرى، ومن ثم يسهل عليهم فى أى وقت شاءوا العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسو بحسب الإرادة فى الأماكن والبقاع التى ينوون زيارتها على الضفتين، لأن المركب يكون فى هذه الحالة مسوقا بقوة التيار.

الباب الثامن

الحكومة والأنظمة السياسية



١ - أسباب ظهور الحركة المدنية
فى الشرق منذ هذا القرن

١- لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هذا الزمن وتتجل للأنظار آثار قوة انبعاثها، لما عدت المسألة الشرقية التى يعتبرها رجال الصحف وأساطين السياسة كافة سنوات عديدة، تلك الوجفة التى زلزلت أركان العالم السياسى فى هذه الأيام.

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئا ما من مظاهر حضارتنا، لما حركت أوربا نبضا أو اشرأب لها عنق اهتماما بأمره. بل لما شك أحد فى سقوط تركيا من علوة مجدها.

فبدهى إذن أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات حركتها منذ أوائل هذا الجيل.

فإذا كان ما نشهده فى الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن والحد الأقصى لشوط التقدم المستمر، فليس بمستطاع الجواب فى بضع كلما، على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درسا خاصا وبحثا عميقا يتناول الدولة التركية فى شئونها الداخلية كافة.

وإنما الحركة الحاضرة إحدى الحركات الطرآنية = الطارئة = التى لايتأتى انبعاثها من جماعات الناس، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين. فلا بد أن يكون هنا إذا باعث كبير طرأ، هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث خطير لن يتعذر على أحد استكشافه

وللحوادث العظمى دواما - على ما هو مقرر ومفهوم - نتائج لاينتظر الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها فى الحين الذى تقع فيه. ففى سلسلة الحوادث التى لايعدو المرء أن يكون فيها مسوقا بقوة إلى غاية يجهلها، تتجلى القوة الإلهية المهيمنة على شئون البشر جميعا. ولقد فطر الإنسان على حب استكشاف الصلة السرية التى تربط الحوادث بعضها ببعض، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة.

فمقدمة حركة الحضارة التى بدت آثارها الآن فى الشرق هى الحملة الفرنسية فى مصر.

لم يوفق نابليون بونابرت فقط لتحديد مجرى الأحوال فى أوربا والإشاعة باسمه فى طول هذه القارة وعرضها، بل هزت يده القوية الأساطين التى ظن الشرق القديم أنها دعامة بنائه التى لايزلزلها الحدثان. ولما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه لم استطع الجزم فى هل كان أثره فى آسيا أقل من أثره فى بلاد الغرب.

أما الحملة الفرنسية التى ساقت إلى مصر أشجع فرق الحرب الإيطالية، أى الجنود الذين عادوا مكللين بأكاليل المجد والغلبة فى وقائع (لوداى) و(أركول) فقد كانت أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق فأيقظته منزعجا من سباته الطويل.. وكانت الأساليب القديمة فيه قد بقيت إلى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل. وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد الروسيا والنمسا. ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى. لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من عقائدها التى أكل الدهر عليها وشرب. ومع هذا فإن الروسيين والنمسويين لم تقتف المدنية أثر جيوشهم. لانهم لم تكن لهم مصلحة فى نشر أنوار العلوم والمعارف بين الأتراك، وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر، وأنه لايمكن أن يوجد على سطح الأرض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة. وذلك لأن ذكرى فتوحاتها القديمة كانت لا تزال عالقة بأذهانهم، ولأن الدول الأوربية لم تنتزع هذا الوهم من نفوسهم ولم ترشدهم إلى الصواب من أمرهم، بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا فى نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قراصنة المغاربة الذين كانوا، فى ذلك

الوقت، يقـاتلون أوربا ويجبهون الـدول جمعاء بجرأتهم ويفرضـون عليها صنوف الفدى وأنواع الإتاوات.

ومن جهة أخـرى، كان المماليك القـابضون على زمـام الحكم والسيادة فى مصر يعتقدون أنهم فى طليعة جيـوش العالم منعة وعزة جـانب، كما تثبته لك النادرة التـالية التى تشير من جهة أخـرى إلى ما بلغ إليـه أولئك البكوات من الضعف الممزوج بالحمق المضحك والجهل المزرى بهم.

لما استولى بـونابـرت على جزيـرة مالطة أراد المسيـو (روسيتى) قنصل النمسا وبعض الـدول الأخرى فى القاهـرة وقتئذ وأحـد أكابر تجار القـاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطـول والكلمة المسموعة لـدى المماليك، إذ كان القيم على تدبير شئونهم والمتعهد بتوريد مـا يلزم من حاجياتهم، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته.

فبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم، وكـاشفه بهواجسه وما وقع فى نفسه من عزم الفـرنسيين على النزول إلى بر مصر، وألح عليه فى اتخاذ وسـائل الحيطة للذود عن حيـاضها، فكان جواب مـراد بك على هذا التحذير أن قهقـه ضحكا حتى كاد يستلقى على قـدميه وقال: مـا مرادك من إخافتنا بـالفرنسيين؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات- التجار- الـذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفينى، إذا نزلوا إلى بـر مصر فى مائة ألف من رجـالهم، أن أبعث للقـائهم بعض التلاميـذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحـد الركاب [1] فحاول المسيـو روسيتى جهده عندئذ لإقنـاعه بأن الفرنسيين قـد فازوا بالنصر المبين فى إيطـاليا، وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة. ثم أعاد كرة الإلحاح بتحصين الإسكندرية، فلم يأت تحذيره إيـاه بفائدة، لأنه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجاملـه، فأرسل إلى هـذا الثغـر قنطـارين من البـارود فقط ذخيرة لمدافعها.

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيـون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستـولـوا عليهـا وانتهى هـذا النبأ إلى علـم مـراد بك فـاستـدعى المسيـو (روسيتى) على الفور، وقال له بصوت المغضب: إن أولئك الفرنسيين الوقحاء

(١) كان المماليك يتخذون فى استوائهم على خيلهم ركـابا عريضا قاطعا من ضلعيـه الامامى والخلفى وكانوا يستعملونه كسلاح قـاطع ضد المشاه والفرسان من العدو بل ضد خيل هؤلاء فيصيبـونها بالجراح البالغة.

اجترأوا على وطء ثرى بر مصر، وطلب منه ان يكتب إليهم على لسانه بالمسارعة إلى الجلاء فى أقرب وقت.

فلاحظ المسيو (روسيقى) قائلا: « ولكنهم يامولاى لم يأتوا إلى هنا ليعودوا كما جاءوا عند أول إشارة تصدر إليهم منك» فقال مراد بك وقد تولاه الجزع الشديد: « وماذا يريد هؤلاء الكفار إذن»؟ ماذا يبغى هؤلاء المتشردون الذين يموتون جوعا؟ إن كانوا طامعين فى مال فأرسل إليهم بكذا ألف من البطاق (أى خمسين ألف فرنك تقريبا) وليزايلوا مكانهم. فرد عليه المسيو (روسيتى) قائلا: « ولكن هذا المبلغ يا مولاى لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة نقلتهم إلى مصر. والأحرى بكم والأولى من هذا كله أن تأخذوا عدتكم للدفاع».

لم يستطع مراد بك أن يدرك بأكثر مما تقدم معنى جرأة الفرنسيين واقدامهم على الحضور إلى مصر لمنازلته. ذلك لأنه كان مزدهيا بقوته ومغرورا بعلوه إلى حد أنه لم يعبأ بهم ولم يرسل للقائهم بادىء الأمر سوى شرذمة من الجند. ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه إلا حين فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة فى أول لقاء لهم بها، وعاد من بقى من رجالها يخبرون مولاهم بأن الفرنسيين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة، ففطن عندئذ لأمره وأدرك حقيقة الخطر المحدق به. وكان أول جرح أصابه فى كبريائه وعزته، اندحار جيوشه فى معركة (شبراريس) التى لم تنته حتى أعقبها اندحارها فى معركة الأهرام المعروفة.

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجه ما يدل على مبلغ ازدهاء المماليك بأنفسهم، وجهل الذين كانوا فى عهدهم يقبضون على دفة إدارة الحكومة فى الدولة العثمانية. لأنه إذا كان ذلك شأن الزعماء والحكام، فماذا يكون شأن عامة الناس الذين لم يكن لديهم من الوسائل مايستطيعون به أن يعرفوا شيئا عن أوربا وحقيقة أمرها ومحض كيانها؟ فمن الميسور والحالة هذه تقدير الانقلاب الكبير الذى أحدثته فى نفوس الشرقيين ما أحرزته فرنسا من الانتصارات الباهرة، على مشهد منهم فكان علمهم بها أشبه المرائى بالتجلى الذى يؤتاه المرء على غرة منه. ولاشك أنهم أدركوا أهمية الوقوف على الوسائل الجليلة التى كان من أثار تنفيذها ما أفضت إليه معركة عين شمس مثلا من

استطاعة جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربى التغلب على جيش مؤلف من ثمانين ألف تركى وأن يمزق شمله ويقضى عليه قضاء مبرما.

ولما بهر فوز نـابليون أنظـار المسلمين وفتن عقولهم انتهـى الأمر بهؤلاء، وقـد أيقنوا بـالاختبـار والعيـان أن الغربيين يسمـون عليهم سمـوا كبيرا فى الشئون العسكرية، إلى أن يتمنوا عن طيب نفـس لو تمت عندهم الإصلاحات فى هذا الباب، وأن يكون رائدها التجربة التى أظهرت فوائدها المدنية الأوربية.

ومن رجـال الحرب الذين جاءوا إلى مصر لقتـال الفرنسيين بطل مقـدونى ساقتـه المصادفة الحسنـاء إليها، وهو الـرجل التى شاءت القـدرة الأزلية أن يستفيد من أعمال حملـة بونابـرت بما تركه من الأثـر فى أحوال الشرق. ومن محاسن الاتفـاق أنه تلقـى من فرنسى يـدعى المسيـو (ليـون). من مدينـة مرسيليـا أول عبارات التشجيع التى نبهـت فى نفسه الآمال وأيقظت المطـامع فيها من نومتها.

بلغ محمـــد على إلى أسمى المراتب فى الحكـــومـة المصريـــة مجتـــازا من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها، تارة ببســالته وإقدامه وطورا بدهائه وصائب رأيه. والحقيقة التى لا مراء فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا، هى التى أخذت بيده فى الطريق وفتحت له مغـاليق الأبواب، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد، لأنهما بفوزهما على المماليك، أصحـاب السيادة الحقيقيـة على مصر فى ذلك الوقت، وانتصــارهما عليهم فى ثلاث معارك كبيرة، مهـدا له طريق الوصول إلى الغـاية البعيدة التى كان يرنو إليها.

ولا يزال محمد على ــ وهو القابض الآن على زمام الحكم ــ مؤيد الجانب من الفرنسيين. فلكأن لفظة الفرنسى أصبحت حرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر، وكان فى القطر المصرى للحكومـة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من والهاه بنصـائحه ومشوراته. وجـاء من بعده المسيو (دروفتى) الذى أحـرز عنده نفوذا كبيرا ومكانـة عالية ـ ليس فقط بـاعتبار كونه وكيلا لأمتنـا ـ بل أيضـا باعتبار أنـه من البارعين الماهـرين فى الفنون العسكرية. وبالجملة ففى عهد قناصلنـا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية، مابرحت الروابـط بين فرنسا وسمو الوالى وثيقة العرى

قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم.

وكان مما يهم محمد على، بعد اذ تسلم أزمة الحكم، الاحتفاظ بها حتى النهاية. فلكى يصل إلى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستفيدا من عظات القتال مع الفرنسيين وعبره. وكان يرى أنه لابد له فى الاحتفاظ بسلطانه، من جيش قوى منظم ليس على الأساليب التركية، فيكون جيشا نزوعا إلى الفتن والاضطرابات. متهددا على الدوام حياة الذين يجرون عليه الأرزاق والأعطيات، بل جيشا خاضعا للقوانين والنظام، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له فى ميادين القتال. فالغرض الأول الذى قرطس محمد على سهمه، فيه، إنما هو اجتياز انجع الوسائل لإصابة الغرض الآنف الذكر ألا وهو تنظيم جيوشه طبقا للأساليب الحديثة.

ولست أدعو أحدا إلى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وأنه مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الأمة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل قد سلك مسكلا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك.

وعلى أثر تنظيم الجيش والدوننمة بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها إلى فريق من، الفرنسيين. ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما للذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى مابرحت تسوقها إلى الأمام حتى اليوم.

غير أنه لاينبغى أن يخطىء القارىء فى الأمر أو يعسر عليه إدراك سره، فإن الذى أثار تلك الحركة ونبهها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم، بما فطر عليه من كرم الشمائل ونبالة المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر. أما الشعب المصرى فلم يساهمه = يشاركه = قط فى شىء ما من التصميمات التى أقرها، ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها لتنفيذها. بل ألقى فى طريقه كل ما استطاع ان ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، وأقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه. ولقد رأى محمد على عندئذ أنه لإيلاف ذلك

الشعب وتعويده الأنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغى العمل لإزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله إلى التشبث والعناد.

ولايأخذن المصريين أحد بجريرة هذه النزعات ، فإن الروسيين لم يشدوا أزر بطرس الأكبر فيما تصدى لإجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شئونهم من نافع الإصلاحات وتلك شنشنة معروفة عن الأمم فى أدوار أرتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت فى طريقه العقبات والمصاعب.

لم يذكر التاريخ مثلا لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالمه. وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية، فدعوا إلى مشاركتهم فى عملهم أبناء وطنهم. وكثيرا ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم، إلى وسائل العنف والشدة. وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لإمكان تطبيق المنطق عليه فقد جبل الإنسان على أن لايهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه، وأن لايتحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه. ولما كانت الشعوب، التى على فطرة التوحش والهمجية لاتشعر بشيء من الحاجات عادة، فإنها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها، ولايتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لإرادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها، وإنما عبقرية الرجل العظيم فى تقديره أهمية مايراه من الوسائل محققا لمراده، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر (١).

هذا ولم يبدأ بتطبيق الإصلاحات الحديثة، على الطراز الأوربى بالآستانة إلا من باب المجاراة والمنافسة لمحمد على. ولعل السلطان محمود تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث إلى فرنسا فى أن توافيه ببعض البيانات اللازمة لإدخال النظام والترتيب على جيشه.

يؤخذ مما تقدم أن الإصلاحات فى تركيا لم يبدأ بها إلا بعد أن تم فى مصر

(١) : من الطبيعى أن تكون هذه الرؤية استمرارا للنظرة الظالمة غير الموضوعية لطبيب يناصر الحملة الاستعمارية على مصر وهى لاتمت للحقيقة بأدنى صلة.

تنفيذهـا، ولم يقصد ها فى الحقيقـة سوى منـاظرة محمد على كيـلا يقال أن المتبوع أصبح - بالنسبة إلى تابعه - فى طريق التقدم من المتخلفين. وإذا جاء تطبيق الإصلاحات فى مصر مقرونا بـالنجاح مكفول الثمرات، فإنما الفضل فى ذلك يـرجع إلى تأثير الحملـة الفـرنسيـة فى شئون مصر وأحـوالها، وهـو مايستخلص منه أن فرنسا ونابليون كـانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى الشرق، وتولى محمـد على غراسها فى مصر وتعهـدها بعنـايته حتى أينعت ثمارها على ماهو مشاهد اليوم.

٢. الحكومـة فى مصر

إدارة الأقاليم فى عهد باشوات الباب العالى- آراء محمد على فى الإدارة- تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين فى مصر.

٢- لقد كان المفهـوم أن تدار حكومة مصر، بالنظر إلى كـونها إقليما تابعا للسلطنـة العثمانيـة اسما لا فعـلا بحسب قوانين هـذه السلطنـة وأنظمتهـا الإداريـة، إذا صح أن لها قـوانين تسير على منهـاجهـا، ولكنـا نعـرف كيف تشكلت الدولة العثمانية، وأن خلفاء عثمان لم يخطر قط ببالهم، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الأقاليم وأخضوعهـا لسلطانهم، أن ينظروا فيما إذا كانت هذه الأقطار تتكـون منها ـــ باجتماعهـا بعضها إلى بعـض - حكـومة متجـانسة العناصر داخلة فى نطاق حدودها الطبيعية.

كـلا ! لم يفكروا فى شىء من ذلك ولم ينظـروا فيـه، بل جعلوا مقصـدهم الوحيد، بلا رويـة ولاتبصر، ضم بلاد إلى بلادهم وإلحاق أرض بأرضـهم على طريق الجزاف والمصادفة، وكأننا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور، فبدلا من أن ينشئوا ضمن دائرة محدودة - وإن تكن كافية ـــ حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها، بددوا سيادتهم الاسمية فى أقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج مابين الأخلاق والعادات والأجناس واللغات، منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية، فأضعفوا لهذا السبـب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالى. وكانوا غلاظا فى السياسة فلم يهتموا إلا يسيرا بتفـاصيل إدارة الاقإليم التى أرضخوهـا لحكمهم. وكانت

أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر فى نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة. وهو مادعاهم إلى أن يعهدوا بإدارة الولايات إلى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجباية. وكانوا يعطون الأقاليم التى يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليها فى غيرها، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء. بل كانوا يعمدون إلى المساومة فى إعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكار، وكانوا يطلبون من الملتزمين، إذا شبت الحرب، إمدادهم بالجنود والسفن ليس إلا. فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التى فتحوها بسلاحهم هذا الحد.

وكان، أرفع الباشاوات مقاما وأجلهم شأناً فى نظر الباب العالى أكثرهم توريدا للأموال. وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الأقاليم، فإنه بقدر ما كان يناله الوالى من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته إياه بأكثر ما يكون من المال، كان يتذرع بسلطته للضغط على الأهلين والسلوك معهم مسلك الجور، ويبتز ما بأيديهم من المال. ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها إليه؟ نعم إن هناك مستثنيات لكل قاعدة، ولكننى لا أفرض وجودها هنا إلا من باب التجوز والتسامح، تكريما للفطرة البشرية وحسن ظن بها. وإلا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية والأحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد، مع مصلحة الوالى الخاصة ؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكومين ويمتزج به؟ كلا ! لأنه إذا ترك الجرح الذى أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه، ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والذادة عنه فى الآستانة، لايلبث أن يصل إليه فرمان الخلع فى الحال أو أنشوطة ينصرم بها مع حبل إدارته حبل عمره أيضا. فمن غير الممكن لوالٍ فى مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل، مالم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرض والجبايات. ثم لا ينسى أن له مصلحة كبرى فى الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع، وهو الشعور العام فى بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدرجات إلى أعلى الدرجات، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات، وهى صوت الطبيعة الآمر ونداؤها الذى لست أظن أن من بين الرجال

من يقدر على مقاومته.

يفهم مما تقدم أن علائق الولاة مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الأمة فى حماة الهمجية، وتحول بينها والوثوب فى طريق التقدم والنجاح. دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقوق - إلا ما كان متعلقا منها بالدين - لم يستطع أحد الجهر بها. وتلك إرادة الولاة وسلطتهم المطلقة وسيرهم بين الناس بالحيف والعسف. ومما لاريب فيه أن هناك أنظمة كثيرة ركنها الاستبداد وقمتها التحكم ومطلق التصرف، ولكن هذا الاستبداد كان شائعاً فى كل أرجاء الدولة العلية. إذ كان ينبعث من المركز متشععا فيما حوله كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة إلى جميع نقط محيطها.

أما محمد على فقد عرف كيف يوطد دعائم شوكته ويرسيها على القرار المكين. فهو أول عثمانى استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة. وهو أيضا أول من أبرزها من حيز العدم إلى عالم الوجود.

نعم إن سلطته مطلقة، ولكنه أحكم التدبير بتحاشيه عن الحكم الاستبدادى الذى كان لمثله ، فى شوكته وقدرته أن يجرى على خطته إذ شكل لنفسه مجلسا خاصا اعتاد المداولة مع أعضائه فى جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها. وألف لكل فرع من فروع الإدارة مجلسا من الأخصائيين، فكان هناك مجلس للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة.. إلخ.. وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجالس جميعاً يدعى بمجلس الحكومة، من اختصاصه النظر فى جميع أقسام الحكومة وكان إذا عنت الحاجة إلى وضع قرارات مهمة فى الزراعة أو الأشغال العامة الخطيرة ، يعقد مجلسا لذلك يجتمع فيه حكام الأقاليم ومديروها.

ولقد أدرك — أول وهلة - أنه لأجل تسيير الإدارة على المنهج القويم، لابد من العناية بتقسيم الحكومة إلى فروع مختلفة. وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستها الوزراء والنظار. فأنشئت على التتابع وزارات الداخلية فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمالية فالخارجية فالتجارة.

ومن المؤكد أن هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الإتقان والنظام المرجوة من أول أمرها. إلا أن هذا لايخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التى بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل، وبمثابة من النظام وحسن الأساليب فى إدارة الأعمال، بل بما أظهره من صدق الإرادة بإدخال النظام الإدارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لأهميته.

ومما لاشك فيه أنه إذا توافر عنده الوقت الكافى وانتهى من الأعمال التى يعنى الآن بإنجازها وخرّجت المدارس العدد الكافى من الأكفاء، ستتحلى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله من قبل فحصا ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية.

وعلى كل حال ينبغى لأوربا أن تعلم علم اليقين أنه إذا اغتصبت من مصر السلطة التى أقام محمد على صرحها لتعطى إلى الباب العالى، فإن ذلك القطر لابد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لاقرار لها. واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيما متينا، فقد قال نابليون إن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الأخرى فى بلادها، خصوصا إذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة . وسمو محمد على جدير، ولاشك بالمكافأة لأنه أول من أرسى فى مصر قواعد إدارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها.

٣ . الوظائف الإدارية الكبرى التى استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد: المديرون والمأمورون والنظار ومشائخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود- شرطة القاهرة.

٣- الموظفون الجدد

رأينا فيما تقدم أن محمد على غير تقسيمات القطر المصرى وبدل منها بتقسيمات إدارية تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل. وكيفية ذلك أنه قسم مصر إلى سبع حكومات أصلية، جعل عليها قومة يسمون بالمديرين، ومن تلك الحكومات إثنتان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها

مصر الـوسطى وأربع يتألف منهـا الوجـه القبلى. وكل حكومـة أو مـديريـة تنقسم إلى مراكز والمراكز إلى أخطاط.

أما المراكـز فرؤساؤهـا يدعون بـالمامورين، وأمـا الأخطاط فرؤسـاؤها يدعـون بالنظار والخط يشمل فى دائرته جملـة قرى لكل قريـة رئيس يدعى بشيخ البلد.

٤- اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفـلاحين الذين يلجأون إلى قراره وحكمه فيما يشجر بينهـم من المنازعـات، وهو الكفيل للحكـومة بدفـع الضرائب وأموال الجباية.

أما رئيس الخط فيطلب منه الإشراف على العمال المعهـود إليه أمرهم فهو الـذى يقـوم بتوقيـع العقوبـة عليهم ، إذا أنس منهم إهمالا فى تنفيـذ أوامـر الحكومة أو إعراضا عنها.

أما المأمور فوظيفته تحديد الأعمال الـزراعية، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفدادين المخصصـة فى كل قرية للزراعات المختلفـة بحسب ماتقتضيه طبيعـة الأرض. وعليه أيضـا مطالبـة الفـلاحين بالضرائب، إمـا أصنافـا من الحاصلات وإما مالا نقدا وأن يجمع فى الشون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول إلى الحكومة.

وإلى المأمور يـرجع الأمر فى جمع الأنفـار للخدمـة العسكريـة والأشغال العمومية. وعليه أيضا مراقبة المعامل والفاوريقات.

أما المدير فمن واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة فى نطاق اختصاصه والسهـر على تنفيـذ أوامـر الـوالى وقـرارات المجلس والعُنـايـة بترميم الترع والقناطر والجسور.

وعلى المأمير والمديريـن أن يبعثوا فى نهاية كـل أسبوع إلى وزارة الـداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليوميـة والأعمال التى سيقومون بها. وما من مسألة إلا وتـدور المناقشة عليها ولا يتقـرر شىء فيها إلا بعد إمعـان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالى رأيه بشأنها.

وجميع المأمير الآن من المصريين الوطنيين، إلا النزر اليسير منهم. والسبب الذى دعا سمو الوالى إلى أن يعهد إليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرايتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها، وأنهم أقدر من غيرهم على الإلمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أولى بالقيام على شئون الإدارة من الأجانب الذين لا يخلون من نزعات التشيع الجنسى. على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة. لأن هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الأهلين بأقل مما كان يعاملهم به الأتراك من الرفق والرحمة.

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المأمير من نصارى البلاد. ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوهم مثل هذه الثقة لأن أما المديرون فهم جميعا من الجنسية التركية.

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعى الخولى وصراف لجباية الأموال وحساب المبالغ التى يسلمها إلى المأمور ليتولى تسليمها إلى خزينة المدير. وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقود العمومية باعتبار كونه من المأذونين.

يفهم مما تقدم مقدار ما هنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم فى مصر وبينها فى موظفى البلاد الأخرى.

فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما، فهم حكام إداريون لا أكثر. تنحصر سلطتهم فى تقدير حاصلات الأرض وتعهد إدارة المصانع والقيام ببيان موارد البلاد المعهودة إلى إدراتهم.

ولأولئك الموظفين مرتبات تختلف باختلاف درجاتهم. وقد جعل لهم منذ زمن قليل شوار ـ أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض فمشائخ البلد يعرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية، والمامورون بها ماسية. ويشغل وظائف المديرين إما البكوات برتبة الميرالاى أو الفريق وإما الباشوات.

٥- البوليس أو الشرطة

لا يعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة فى اختصاص المديرين. فإن إدارة هذه المدن الثلاث موكولة إلى حكام خصوصيين، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا من غيرها فالحاجة إلى حفظ النظام وصون الأمن فيها تستدعى دوام اليقظة والتعهد، فقد عنى بهذا الفرع من فروع الحكومة وأتقن تنظيمه فيها. ومنذ سنوات قليلة كان يتولى أمره موظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط. أما الآن فلا يوجد على إدارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين، وتحت إمرته ضباط تميزهم شارة خاصة. وهم منتشرون فى أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصة ويصونون ـ بمراقبتهم الفعالة ويقظتهم المستمرة ـ النظام العام والأمن الخاص بأفراد الناس. ويقومون أثناء الليل بالنوبة، فإذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس ألقوا القبض فى الطريق على كل شخص لايحمل بيده مصباحا. وبهذا لاتمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة. وفى يقينى أن الأمر القاضى على الذين يخرجون فى ظلام الليل من بيوتهم ـ وعددهم قليل جدا ـ بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الأوامر الحكيمة فى مدينة كالقاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام. وعادة الشرطة فى قيامهم بالنوبة ـ أن يوجهوا إلى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو» ومعناه « من هذا؟» فيجاوبون بقولهم: «ابن البلد» فيصيح العسس عندئذ قائلا له: « وحد الله» فيجاوبه بقوله : «لا إله إلا الله».

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء. وسبب ذلك ما وقر فى نفوس أهل الملة الإسلامية من أن مرتكب الجريمة أو المعول على ارتكابها بقصد، لا يجرؤ بوجه ما على مجاوبة العسس بالقول المتقدم. ولقد اشتهر الاغاوات بالمهارة والتفنن فى استكشاف اللصوص، ونقلت عنهم فى ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم فى اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين.

٤. الموارد المالية لوالى مصر

٦- أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته، ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى إلى إنشاء الحصون والمعاقل للامتناع بها، قد أرشدته إلى الوسائل التى لايتسنى له تحقيق غرضه بدونها. ولسوف يقتنع المكابرون انه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعته ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستورا موافقا لعبقريتها وموفيا بمطالبها وحاجتها، بحيث لا يكون أثرا زائلا لسياسة لا حياة ولا أفق لها. الدستور لا يكون فى هذه الحالة إلا نتيجة طبيعية ترمى إليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضربتعديله على ما يطابق مقتضيات هذا الظرف وبث عنصر الحياة فيه، تلك الحياة الضمينة بمستقبل ساطع النور لن يقبل إلا فى هيئة وحشد عظيم من آثار التقدمات الفكرية والاصطلاحات التى أولدتها طبيعة الأشياء والتى سيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الأعمال حتى الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق. ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة إلى أسمى مافى قدرة إنسان أن يبلغه من غايات الكمال. وعلى كل حال فإنه لن يتركه بعده عملا مبتورا لا أمل فى بقائه واستقراره. كلا! لأنه لقح أعماله كلها بلقاح البقاء والاستمرار، وحسبه هذا فخرا ومجدا. وفطاحل الرجال لايموتون إذا غيبت أجسامهم فى الأجداث، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الأعمال. فإذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه إلى أبعد مدى، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الإشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها، وقدم الناس إلى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم إتاوة الإعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الأيام وتعاقب الأعوام.

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بإمعان النظر فيهما لتبين

حقيقتهما. ألا وهما: ماهيــة هذه القــدرة فى ذاتها والشروط التى يترتب عليها بقاؤهــا أو بعبارة أخرى العناصر المكـونة لها وقوام هذه العنــاصر. وسأقدم الكلام على ثانى الأمرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد إلى الكلام على الأمر الأول وهو القــوة العسكرية. لأن القوة العسكريــة فى المال كالنتيجة للمقدمة فى القياس المنطقى ولنجمل القول فى ذلك الموضوع فنقول: إن الموارد المالية التى يعتمد الوالى عليها هى: أولا تشكيل الملكية فى القطر المصرى.

وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية. وثالثا الضرائب والرسوم.

الملكيـــة

تشكيل الملكية فى الشرق– حالتها فى مصر منذ الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص إلى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم– حالتها على عهد المماليك. الأوقـاف، الأرزاق، الالتزام– أراضى الفـلاحين والأوسية– التغيير العظيم الذى أحـدثه محمد على– آراء وخواطـر فى النظام الحالى للملكية.

٧- تشكيل الملكية فى الشرق

مسألة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين: أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وأســاس تغاير ما تقوم عليها منها فى مختلف البلاد الأوربية. والثانى أن الأسلوب الذى كـانت الملكية قائمة عليه لمحمد على السبيل لجمع الموارد التى استعان بها على تشييد صرح شوكته.

ولم تعين طبيعة الملكية فى المدنيـات الشرقية بمثل الصراحة التى عينت بها فى الحضارة الغربية. لأن الحضـارة الشرقية مغايرة للحضـارة الغربية ببقائها واستمرارها. وإذا جعلت بيـانى بشأنها قاصرا على مصر، فإنى مثبت هنا أن الأراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الأقدمين ملكا لولى الأمر.

٨- حالتها فى مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى

قرر الإســلام مبدأ عاما فى ملكيــة الأرض تلخصه الآيةُ الآتيــة من القرآن: «أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الأمر. ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملكية التى كانت موجودة إبان الفتح، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فرضة من المال إلى الأمير. وظلت الأحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة. ولم يطرأ عليها تعديل إلا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول. فقد قرر هذا السلطان أن الأراضى التى أعطيت فى الأصل من الأمراء تحول منذ الآن فصاعدا إلى ملكية ولى الأمر. وبهذه الكيفية أصبح صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة. غير أنه كان لورثته ردها إلى حوزتهم بدفع مبلغ معين، على طريق العسف والاستبداد، لا تقبل فيه مساومة.

وقد أخذ السلاطين، من خلفاء السلطان سليم الأول، يعهدون إدارة البلاد المصرية إلى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيها. وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها. غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة المماليك وامتداد نفوذهم، لأنهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد وكانوا يتصرفون فى الأرض على ما تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على ما يروق فى نظرهم منها بلا أدنى التفات إلى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف.

٩- حالتها على عهد المماليك

فى عهد المماليك وإبان وجود الحملة الفرنسية بمصر، كانت الملكية منظمة على الوجه الآتى:

كان الشطر الأوفى من الأراضى ملكا للمماليك والحكومة وكان الشطر الباقى فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين. أما ما بقى من الأراضى، فكان موقوفا على المساجد ويعرف بالأوقاف أو الرزقة.

وكانت أملاك الملتزمين من الأرض على نوعين: نوع يسمونه بأطيان الفلاحين إذا كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستدرار خيراتها ابنا عن أب وأبا عن جد. وكانوا يدفعون الضريبة عنها والإيجار المستحق عليها، فكانوا

لها بمثابة المزارعين. أما النوع الثانى فكان يعرف بأطيان الأوسية - أى أن الأطيان التى اشتراها الملتزمون بأموالهم وأخذوا يزرعونها على حسابهم. وكانت أطيان القرى مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين. وكانت الرابطة بين نوعى الأطيان السالفى الذكر وثيقة إلى حد أن الملتزمين كانوا لايستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئا من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين إلا إذا باعوا فى الآن نفسه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الأوسية. وكان الملتزم لا تنقل ملكية أطيانه بعد وفاته إلا إلى أبنائه أو من يوصى بهم أن يكونوا ورثة له. وعلى كل حال فقد كان من المفروض على الورثة أو الذين احتازوا الأرض بمبيعها إليهم - كلها أو جزءا منها - أن يحصلوا على تقليد الوالى بذلك لكى يجوز لهم الحلول محل المورث فى الحقوق المخلفة عنه. وكان ثمن التقليد مبلغا من المال يعدل القيمة التى اشتريت الأرض بها، فإذا لم يدفع ذلك الثمن آلت الأرض إلى الحكومة. وكان هذا ما يحصل غالبا، إذا لم يوص الملتزم المتوفى - بدون أن يعقب - بأملاكه لأحد. ذلك لأنه كان لا يعترف شرعا إلا بأبنائه كورثة طبيعيين له.

وقد قلت إنهم كانوا يطلقون كلمة الوقف إطلاقا عاما على الأملاك الخاصة بالمساجد ومعاهد البر والإحسان. فإذا كانت هذه الأملاك أطيانا سميت بالرزقة. وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العلية والمماليك، إنها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمونة فى عهدهم. ولما كانت الأوقاف مما لايجوز التصرف فيه بوجه ما، فقد نشأ عن ذلك أن عددا عظيما من الملاك عمدوا إلى تخويل من يوصون بهم من أفراد أسرتهم حق الانتفاع بأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد. وكان يدفع إليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابة إيراد ثابت لا يجوز تقاضى الضرائب عنه ولاتمتد إليه مطامع البكوات. وقد بلغت فوائد هذه الأوقاف ومزاياها من قوة التأثير الجاذب للملكية إلى حظيرة الوقف، ما استفز الحكومة إلى إصدار أمرها بمنعه، إلا بموافقة منها. فقد خشيت أن ينتهى الأمر إلى اندراج جميع الأراضى فى سلك الأملاك الموقوفة ووقوع الأرزاق الكبيرة بعد ذلك فى ملكية أصحاب النفوذ والوجاهة من المشايخ، وأن يتمتع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الأملاك الدينية بالرعاية والحماية.

تلك كانت حالة الملكية فى القطر المصرى حينما استولى الفرنسيون عليه. ولقد انتقلت إليهم حقوق الحكومة السابقة فى ملكية الأطيان، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر إلى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ.

١٠- التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

فى سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى إلا القليل منها.

فقد طلب فى ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم، فلما قدموها إليه قرر بطلانها جميعا ـ معتمدا فى ذلك على حق ملكية ولى الأمر ـ أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان. ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين، فقدر ريع كل منهم من إيراده ودفعه إليهم سنويا من الخزانة. ثم ترك لهم حق الانتفاع، مدة حياتهم بأراضى الأوسية بعد أن فحص سنداتها فحصا جيدا، وقرر مبدئيا، للتمشى مع الاعتقادات الدينية، احترام الاطيان الأرزاقية. ولكنه لم يلبث أن ألغاها آخذا على عهدته الإنفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعى الأيدى على تلك الأطيان معاشات سنوية. ولم يحتفظ بصفة الوقف إلا للأملاك المبنية والحدائق.

وكان يبغى بهذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضى القطر المصرى إنماء موارده المالية لسد نفقات الإصلاحات العامة، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية . بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتى ألف فدان، فضلا عن إبقائه على الأملاك المبنية كما ذكرناه.

وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال بينه والفلاحين. فمهدت هذه الخطوة الأولى له تنظيم الزراعة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل فى الأرض باليومية، إذ عين للواحد منهم قرشا واحدا يوميا كان يدفع إما نقدا وإما أصنافا من الحاصلات. ثم وزع عليهم الأطيان ـــ على أن يبقوا مالكين لها دواما إلا إذا عجزوا عن سداد ضرائبها. وقرر فى الحالة الأخيرة أن يحل غيرهم، من القادرين على السداد، محلهم فى

ملكيتها. وقدم إليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشية اللازمة للرى. وكان على مأمور المركز أن يعين للفلاح مساحة الأرض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها. فإذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة. على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها. فإذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد.

١١- أفكار وخواطر فى النظام الحالى للملكية..

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف ومانشأ عنه من الارتباط بين الوالى والفلاحين، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه الحالة انتقادا مرا يرومون الحكم على مصر وسكانها بمقتضى مذاهب أوربا فى الملكية، من غير نظر إلى ما هنالك من الفارق بين أمة شرقية والأمم الأوربية. ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الأسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند، وهو المعروف باسم «زمندار» الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن فى القطر المصرى. على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة، والخبرة التى اكتسبها الأوربيون الذين تطاولت اقامتهم بمصر منذ ذلك العهد، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمدعلى للملكية هو أحسن مايكون من الأنظمة وأوفقها لحالة البلاد. إذ لولا هذا النظام لماتقدمت الزراعة بخطوات واسعة فى سبيل الاتساع والإتقان، ولا أدخلت إلى مصر زراعة النباتات المجهولة بها إلى ذلك الوقت. مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة فى زمن يسير.

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته إلى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجته وأنها أقل مما يخطر ببال الأوربى أن فيه الكفاية للمرء. فلو ترك وشأنه،وهوعلى ما فطر عليه من تلك النزعة، لأدى تركه إلى سقوط الزراعة المصرية. فالنظام الذى سنه محمد على للملكية هو خير الأنظمة، لاسيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة إيراد مصر الذى بلغ إلى ٦٠ مليون فرنك بعد أن كان لايزيد على ٣٥ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية.

ولست أنكر أن هناك إصلاحات جمة تقضى الحاجة بإدخالها، إلا أننى أجاوب الذين يأخذون على سمو الوالى أنه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى:

أولا- إن الحالة الحاضرة أفضل بكثير من الحالة السابقة.

ثانيا- إنها من الحالات المؤقته التى تبشر الأمة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات، وتمهد السبيل شيئا فشيئا، بحسب سرعة تقدمها فى طريق المدنية، لتملكها حاصلات الأرض.

وأضيف إلى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازما لتلك الحالة، إذ يصادر فى القريب العاجل على المركز السياسى الذى آل إلى محمد على وأسرته، ويزول بلا شك إذا سويت هذه المسألة التى يرتبط بها إما البقاء وإما الموت. وإنه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائره لغرض هو حرمانه، بغير حق، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة.

٢. الاحتكار

الغرض من الاحتكار- قدمه فى القطر المصرى- سبب ضرورته فيه.

١٢- الغرض من الاحتكار

الاحتكار فى مصر، على عهد محمد على، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها فى أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الأوفى من حاصلات الأرض. ومما انساق الناس إليه على طريق الوهم، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصلات مصر كافة من غير استثناء. وهذا خطأ محض فإن هناك أصنافا عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الاحتكار، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها. وإنما الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون الخ ولا يتعداها إلى غيرها.

١٣- قدمه فى مصر

اتخذ خصوم محمد على مسألة الاحتكار تكأة لتوجيه التهم البالغة إليه والنيل من شوكته والحط من كرامته والحط من شهرته.

ومما لا مراء فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه، وإنما كان من الواجب، قبل اعتباره جريمة وإسناد هذه الجريمة إلى محمد على، الإقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه. بل إنه كان معروفا فى سائر أنحاء الممالك

العثمانية ومعمولا به، وأن الخط الشريف لم يصدر بإلغائه منها إلا من عهد قريب. مع أن هذا الإلغاء لاتزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة فى تنفيذه، دع أنه بعد هذا وذاك من الأنظمة اللاصقة بمصر منذ قديم الزمان إذ من المقرر المعروف أنه كان معمولا به فى كل زمان واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة إليه.

ألم يعهد إلى يوسف (عليه السلام) بعد إذ قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع — فى سنى القحط والمجاعة ـ على الأهلين؟ وهل فى هذا الأمر إلا الاحتكار بعينه؟ ولقد أجمع المؤرخون على تمجيد (سيزوستريس) والإشادة بذكره لأنه خول رعيته حق الملكية. أفليس هذا دليلا ناصعا على أنهم كانوا من قبله لا يملكون هذا الحق؟ ومع هذا فقد توافرت الأدلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط فى مصر على أساس وطيد. وقال أحد مؤلفى مصنف الحملة الفرنسية الموسوم: « تخطيط مصر» (المجلد السابع عشر، الطبعة الثانية- الحكومة الحديثة-) مايأتى:

« منذ حدثت أول غارة على مصر، قام نظام حكومتها على حق الفتح. وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك، بدون أن يسنوا قانونا لتحديده وتعيين شرائط التمتع به. وإذا كان الشعب المغلوب على أمره قد منح أحيانا حق الانتفاع ببعض قطع من الأرض فإنه كان يكفى، لا سترداد هذا الحق غير الثابت، صدور الأمر به بمحض إرادة الفاتح. وتلك لا تزال الحال التى عليها الأملاك المسماة هنا بالأملاك الخاصة. فإنها تبقى مستقرة فى الأسرة — لا كحق ناشىء عن الوراثة — بل كآية من آيات عطف الحكومة التى يبقى لها دائما حق فيها طبق مشيئتها. فليست تلك الأملاك إذن كما شهدناه الآن، ألا أحد ضروب الالتزام التى تنقلها الحكومة من يد إلى يد، بدون أن يكون للمنتفع بها حق التصرف فيها».

ولقد أحست الإدارة الفرنسية ـ إذا لم يكن بضرورة الاحتكار ـ بصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له. على أن الجنرال (ديزه) كثيرا ما فكر فى توزيع قسم من أراضى الوجه القبلى على الفلاحين، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكرة موضع الإجراء (راجع فى كتاب تخطيط مصر السالف الذكر، الطبعة الثانية ، المجلد السابع عشر، موضوع – الحكومة الحديثة-).

١٤- سبب ضرورته

يسهل بمقتضى ما تقدم تعليل الاحتكار وإقامة الدليل على قدمه وإثبات أن محمد على لم يكن الواضع له من عندياته. ومن الحقائق الثابتة أن النيل، بفيضانه المنتظم، أوجد بالقطر المصرى حالة خاصة به. فإن هذا النهر، إذا ترك وشأنه، لا يروى إلا القليل من الأراضى إذ تضيع مياهه كلها فى البحر، فاقتضت هذه الحالة احتفار الترع العديدة وإقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لايمكن لأحد غير الحكومة أن يقوم بها. وهذه الترع والجسور كان من غير الميسور للأهلين، ما لم يكونوا على إرث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم إلى شئونهم الذاتية، ولا أن يفقهوا لما وراء هذا التعهد من الفائدة العامة للبلاد. وهذا فضلا عن أن إدارة تلك الأعمال والحاجة إلى من ينجزها من العمال وما يقتضيه إتمامها من وفير المال، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها، وهو أمر لم يكن ميسورا بالمرة، عند أمة كالأمة المصرية، بل كان من رابع المستحيلات.

وكان من الواجب على الحكومة - بعد أن تضع نظاما لرى الأراضى - أن تزرع بواسطة الفلاحين الأطيان التى ساقت إليها بذلك مواد الخصب والنماء، لاستحداث موارد جديدة للمال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات . ولقد أدركت هذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى وآلات الحراثة لاستثمار الارض محتفظة لنفسها - فى مقابل ذلك - بحصة من الحاصلات غير ناظرة إلى ما قد يحيط بالسوق من اختلاف الأسعار وتذبذبها. ذاك هو بيان أصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته.

ومفهوم أنه إذا كانت الإدارة قويمة حكيمة رحيمة، فإنها لا تتطلب من المزارع إلا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقات ومداركة حاجيات الحكومة، ولكنها إذا كانت طموعة شرهة - كما هى فى كل مكان - فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة إلى الإجحاف والظلم. أما إذا اتسع نطاق حاجياتها، فلا مناص لها من ابهاظ عاتق رعيتها بالكلف الفادحة والفرض الباهظة.

ولمعترض أن يقول إنه كان من الأولى ترك الخيار للفلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبى الحكومة منهم الضرائب نقدا عينا، لما يستتبعه ذلك

من تزاحم التجـار على الشراء وتنافسهم التنـافس الذى تنجم عنه مضـاعفة الفائدة للبائع. وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتادوا ادخار المال لوقت الحاجة إليه، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة إلى بيع حاصلاتهم وهى على سوقهـا - أى قبل أن تنضج وتحصد. وهو مـايتأتى منه تحكم المشترى فيهم بفـرض الشروط المجحفة عليهم، وأخـذه المحصول الـذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة فى اليوم المعلـوم، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق. فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتموينه بكل ما يحتاج إليه من الزاد، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الأموال فى ذمته. وشتان بين الحالين.

ولا يخامـرن القارىء أننى ممن يـذهبون مبـدئيا إلى تبرئة الاحتكـار من العيوب والموانع، أو يقولون إنـه غير قابل للتحسين والتعديل. وكل ما أراه أن تفكـر الحكومـة فى قلب النظام الحالى رأسـا على عقب، بل أدعوهـا إلى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى مـن التحسن والارتقاء. والأمثل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البداهة ويستدعيه الطبع السليم، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من الممولين المصريين. غير أن السر كل السر هو فى أن المطـالبة بالقليل ينبغى معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الإنفاق ضيقة وقليلة معا. فعليكم أن تخفضـوا اليوم من غلـواء احتياجـات الحكومـة المصرية، فإن شكـواكم من وجـود الاحتكار تقل، إذا لم تنمح بـرمتها. ويكـون محمد على فى طليعـة من يهمون بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج.

٣. الضرائب أو الأموال

الضريبـة العقـاريـة أى الميرى- الضريبـة الشخصيـة أو فـرضـة النفوس والخراج- الضرائب المختلفة والجمارك- آراء فى جباية الأموال.

إيـرادات الحكومـة من الضرائب ثـلاثة أنـواع: إيـرادات ضريبة الأطيـان وإيرادات الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس وإيرادات الجمارك.

١٥- الضريبة العقارية أو الميرى

لما استـولى السلطـان سليم على مصر أجـرى التأريع = تحديـد الـريع = لشطر كبير من أطيانها، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هذا العمل مقدار ما

كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية. وكانت تتألف هذه الضرائب من ثلاثة أجزاء: الأول وهو أوفاها قدرا كان مخصصا لسداد أموال الميرى والثانى كان مخصصا للكشوفية والثالث لفائض الالتزام.

أما الميرى فكان يؤول إلى السلطان، وأما الكشوفية فإلى البك أو الكاشف حاكم الإقليم، وأما فائض الالتزام فكان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية. وكان لا حق للملتزمين فى فائض الالتزام، إلا إذا أدوا ما عليهم للسلطان والكشاف. ثم إنهم فرضوا على الفلاحين رسوما كانوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى.

ولم تكن الأراضى كلها، خاضعة على السواء لفرض الضرائب عليها. فإن الأراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والأثر كانت معفاة منها فكان شأنها فى ذلك شأن الأراضى البور غير الصالحة للزراعة. أما الأراضى الرديئة التى كانت للملتزمين والفلاحين فكان لها ضريبة معتدلة أقل من الضريبة المفروضة على الأراضى الجيدة. أما أراضى الاثر والأوسية فكانت الضريبة تدفع عنها بحسب جودتها وكثرة ما تعطى من المحصول وكانت الاثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى.

أما الآن فلا تمييز بين الأراضى، لأنها أصبحت لا تدفع إلا صنفا واحدا من الضرائب وهو الميرى. ومتوسط ضريبة الأطيان مقدرة بما يعدل عشرة فرنكات تقريبا للفدان الواحد، أما الأراضى الممتازة بالخصوبة ووفرة الحاصلات، فالضريبة التى تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ إلى ١٦ فرنكا. والأراضى الأقل منها درجة فى تلك المزايا تدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات إلى ثمانية. ومنذ عهد قريب أعطى الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الأراضى بالحرث والرى لا ستثمارها، ما مساحته ٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا من الأراضى البور ليتولوا إصلاحها وزرعها، وأعفاها من مال الميرى. وهذا المال يعدل نصف إيرادات الحكومة على وجه التقريب.

١٦- الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد إيراد الميزانية المصرية. ويباشر تحصيلها باعتبار كونها جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الذى يفرض أنها تعدل دخل الممول. والذكور المراهقون كافة،

مسلمين كانوا أو رعية، ملـزمون بدفع هذه الفرضة متـى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم. وتختلف ـ تبعا لتفاوت الناس فى الثروة ـ من ١٥ قرشا إلى ٥٠٠ قـرش. وفى المدن تحصل الضريبـة الشخصية عن النفـوس، وفى القـرى عن المنازل. ويبلغ مـا يحصل من هذه الفرضـة عادة السدس من إيـراد الخزانة المصرية.

ويدفع الرعية من الأهلين ضريبة خـاصة بهم تسمى الخراج. وقد فرضت فى الأصل بحسب المبادىء المستمـدة من القرآن، والقـاضية على غير المؤمنين بـدفع الجزية. وتقـدر بوجـه عام من ثمانيـة قروش إلى عشرة. ولا يتجـاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠٠ فرنك (١).

١٧- الضرائب المختلفة والجمارك

وهنـاك ضرائب مفروضــة على الماشيـة. فالبقـر والجامـوس يدفع عنهـا عشرون قرشـا للرأس الواحـد، وسبعون إذا كانت مخصصـة للذبح. على أن تبقى الجلود المسلوخـة ملكا للحكومة. أما الجمال والنعـاج فيدفع عن الرأس الواحـد منها أربعـة قروش. وأمـا قوارب النيل فيـدفع عن كل قـارب ضريبة قدرها مـائتا قرش وكذا النخل فإنه خـاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة.

ورسوم الجمارك المتفق عليها فى الامتيازات الدوليـة والمعاهدات التجارية، تحصل على البضـائع المجلوبة مـن أوربا إلى مصر، وهـذا فيما عدا الضرائب التى تعينهـا الحكومـة لتحصل من القـوافل الآتيـة من بـلاد العرب وسنـار ودارفور الخ.

ولقدر أينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تـدفع عنها مكوس عند دخولها فى مدن معلومة.

أما الجمارك فمعطـاة بالالتزام. ووجه الحكـومة فى تفضيل هذه الطـريقة أنها تخليها من مشاغـل إدارتها والقيام على ضبط أعمالها. والحاصلون على هـذا الامتياز، وكلهم من التجـار الأتـراك والأرمن، تتألف منهم شركة أو مـا

---

١ ـ أبطل الخراج فى المماليك العثمانية بمقتضى خط كلخانة. لأنـه افضى فيها الى العبث بحقوق الرعية ولكن نصـوص هـذا القـانـون لم يتنـاولها بـالتنفيـذ بعـد ولم تـوضع حتى الآن مـوضع الإجـراء.

يشبهها لتحصيل الرسوم الجمركية. وهذه الطريقة، وإن تكن حسنة من بعض الوجوه، رديئة من وجوه غيرها. فإذا كان فى نية الحكومة إبقاؤها، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها فى جميع الأحوال والظروف.

١٨- أفكار وخواطر فى جباية الضرائب

لسكان مصر، إذا شاءوا، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافا من حاصلات أرضهم. وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروض وصولها إلى الخزينة، ومن شأنه أن يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين فى السداد. تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة فى مركز واحد، فالمراكز التى تتألف منها مديرية واحدة. ولا شك أن هذا النظام يلجىء العامل الذكى الذى يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله، إلى سد العجز الناشىء عما لم يكن مسئولا عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم. وفى هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا فى تصريف العدل بين الناس.

إلا أن هذا لا ينبغى أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الآنفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية. فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الإسلامى من سكان إذ تبينت ضرورته فى استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر إلى ممارسة الأعمال والانصباب عليها. ومع هذا ففى نية سمو الوالى، متى صرف عنايته إلى إتمام التنسيقات والإصلاحات الداخلية التى اعتزم إجراءها للسمو ببلاده وأمته إلى الدرجات العليا، وهى العناية ما برح فى حاجة إلى صرفها بالخارج، أن يقضى على كل اثر للحيف والظلم فى الأنظمة الحالية، فيتعهد بنفسه وقتئذ رم الجراح الذى أثخن بها جسم مصر فى السنوات الأخيرة العديدة. وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هذا الاثر الجليل الذى يود من صميم فؤاده أن يتولى إقامته لمصلحة مصر ومنفعة بنيها، إذا ما انتهى من إرساء قواعد أسرته وإعطاء مصر كيانها السياسى الذى لا قوام لها إلا به.

٤. إيرادات مصر ومصروفاتها

لكى أزجى إلى ذهن القـارىء فكـرة عن إيـرادات مصر ومواردهـا الماليـة الأساسيـة التى تعتمد عليها فى تـدبير أحوالها وتصْريف شئـونها، سأطرح جدولا ملخصا من الميـزانية السنوية لحكومة الـوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلادية الموافقـة لسنـة ١٢٤٩ الهجـريـة وإذا تخيرت هـذه السنـة دون غيرهـا من السنوات، فما هـو إلا لأن ميزانية الإيراد من هـذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيرا محسوسا.

١٩- إيرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى ـ أى الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠	فرنك
الرسوم الشخصية ـ أى ضريبة النفوس	٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
الخراج	٨٠٠٠٠	فرنك
عوائد التركات (بيت المال)	١٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٤٨٠٠٠	فرنك
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠٠٠٠	فرنك
عوائد صب الفضة والمقصب	٥٦٢٥٠	فرنك
عوائد (عشور) االنخل	٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الملح والقوارب والأسماك	٤٣٧٠٠٠	فرنك
عوائد الحبوب	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
رسوم الجمارك والمكوس	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد السوائل	٣٠٧٠٥٠٠	فرنك
عوائد السنامكى	٣٤٦٠٠٠	فرنك
عـوائد الصيد فى بحيرة قـارون والمكـوس بالفيوم	٣٢٥٠٠	فرنك

الأرباح الناشئة من الأشياء الآتية:

القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيذ والأرز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبذر الكتان والسمسم وبذر الخس والقرطم والحرير والزعفران والنتر والجير والمصيص والأحجار والنطرون والصودا والملح.

النوشادر	١٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من دار الضرب (الضربخانه)	٣٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من الأقمشة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من مبيع الحصر	٩٢٧٧٨٧٥٠	فرنك
المجموع	١٦٠٨٥١٥٠٠	فرنك

٢٠- المصروفات فى سنة ١٨٣٣

أموال مرسلة إلى الأستانة	١٥٠٠٠٠	فرنك
ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندى)	١٥٥٠٠٠٠٠	فرنك
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	٥٠٠٠٠٠٠	فرنك
جمكيات الخيالة الأتراك غير النظاميين	٨١٢٠٠٠	فرنك
أجور العربان	٦٥٠٠٠٠	فرنك
ثمن أدوات حربية	١٧٥٠٠٠٠	فرنك
المعينات للعلف والجمال والبغال	٣١٢٠٠٠	فرنك
المدرسة الحربية	٢٠٠٠٠٠	فرنك
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	٧٥٠٠٠٠٠	فرنك
إنشاء مبانى حربية	١٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
نفقات ترسانة (دار صناعة) إنشاء القوارب فى بولاق		
نفقات الفاوريقات وأجور العمال	٤١٢٥٠٠	فرنك
مرتبات موظى الإدارة	٧٥٠٠٠٠	فرنك
معينات غذائية للموظفين	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
معاشات الملتزمين السابقين	٦٢٥٠٠٠	فرنك
معاشات ممنوحة لبعض العربان	٤٤٠٠٠٠	فرنك
مصـروفـات لإنشـاء القصور والفـاوريقـات والقنـاطـر والجسور	٧٥٠٠٠٠	فرنك
أشياء مجلوبة من أوربا برسم الفاوريقات	٢٢٥٠٠٠٠	فرنك
مخصصات لصيانة قصور سمو الوالى	١٨٧٥٠٠٠	فرنك
مخصصات غذائية لسمو الوالى	١٢٥٠٠٠٠	فرنك
مخصصـات لإدارة مشتـريـات الكـاشمير والأثـواب	٥٠٠٠٠٠	فرنك
الحريرية والجواهر الخ	١٧٥٠٠٠٠	فرنك
نفقات قوافل الحجاج	٢٥٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٤٩٩٥١٥٠٠	فرنك

٥.الوسائل السياسية

تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة – المسيو سيف (سليمان باشا)– تنظيم الجيوش النظامية– المشاة المصرية– الفرسان– مدرسة الخيالة– المدفعية أو الطوبجية– مدرسة الطوبجية– الإدارة العسكرية–٠ شوار العساكر (ملابسهم الرسمية)– الرتب.

٢١- تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن ـ بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن ـ أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية. فإنه ما انتقل بلد من التعس والشقاء إلى السعادة والهناء، إلا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيرا مما يبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم. ومن فحول الرجال الذين يشار إليهم بالبنان الإسكندر الاكبر وقيصر وشارلمان ونابليون الذين كانوا ـ قبل كل شىء ـ من رجال الحرب.

.وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تأثير الحرب، محسوسا ملموسا فى سائر فروع الحضارة، كما يشهده فى حالة مصر الآن.

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما، وكان يجب لإيجاده من العدم البدء فى خلقه وتكوينه. وهو ما حدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى.

ناصب محمدعلى الفرنسيين العداء واشتبك معهم فى معارك عدة فأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته، وكان همه قبل كل شىء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ إليه من الولاية على شئون مصر، فرأى أن هذه البغية لن تنال إلا بقوة السلاح،. فاتجهت جهوده منذ هذا الحين إلى تشكيل الجيش. فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الأمن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج.

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه، نتائج عامة جزيلة النفع، أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد

الأمة المصرية النظام، بعد إذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى، حتى ذلك العهد، ولم تعامل بغير الضراوة والافتراس من جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والسير بالعنف والشدة بين الناس والنزوع إلى الفتن فى كل آن.

وكان من نتائج ذلك التنسيق أيضا، أنها أحلت وحدة العمل وترتيب الدرجات من المرؤوس إلى الرئيس وسير الأحوال على النهج القويم وهيبة السلطة، محل الانحلال والاختلال والضعف وغيرها من العيوب التى كانت فاشية فى كل مكان. ولقد رفع من شأن الشعب المصرى بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقده من الثقة والاعتزاز بنفسه وغيرهما من العواطف التى لابد منها لكل أمة تلتمس الحياة فى ظل الاستقلال. أما النتائج العملية لذلك التنسيق فكانت أكثر عددا وأعظم أهمية، إذ من المستطاع القول بأنه هو الذى كان الباعث على ما شهدته مصر من أطوار التقدم خلال السنوات الأخيرة.

وكان لابد فى تنظيم الجيش بحسب الأساليب والأنظمة الجديدة، من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون الحرب. وكان لا مناص، لإصابة هذه الغاية، من الالتجاء إلى المسيحيين لاختيارهم من بينهم، وتعويد العساكر الخضوع بالرغم مما هنالك من الاختلاف فى العادات، وأخذ الفنون العسكرية عنهم من زحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيوش وطاعة للرؤساء والنظام المسنون ودقة فى جميع الأمور الحربية. وبدأ التنسيق بتدريب العساكر، ثم بدت الحاجة إلى الضباط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت إلى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ.

ولما تم تشكيل الجيش، قضت الضرورة طبعا بالنظر فى مداركة حاجاته وتدبير شئونه والعناية بأمره، من لبس وإقامة فى ثكنات تبنى خصيصا له وتخصيص أطباء لمعالجة المرضى منه. واستلزمت مسالة التسليح وإعداد المعدات العسكرية إنشاء دور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات. وتعد الجيوش عادة، ضمن أسلحتها، المدفعية والفرسان وفرقة الهندسة الحربية. فللقيام على تدبير هذه الأسلحة التى يرجع أمرها إلى العلم، عنى بتوسيع نطاق التعليم، فأرسل الشبان من الأتراك والمصريين إلى أوربا لتلقى علوم

الحرب فى مدارسها، وغيرها من العلوم والحرف التى لها مساس بعيد أو قريب بالحرب وشئونها.

٢٢- المسيو سيف (سليمان باشا)

الذين عهد إليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد كانوا جميعا من ضباط عهد الإمبراطورية الفرنسيين والإيطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل فى وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين إلى الشرق. وكان من أعظمهم كفاءة وأوسعهم علما وأحسنهم استعدادا المسيو (سيف) ملازم الركاب سابقا لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى).

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغمط حق أحد ما من أولئك الضباط الأبطال الذين كانوا خير معوان له على أداء المهمة التى عهدت إلى كفاءته، لا يسعنا إلا الاعتراف برجوع الفضل إليه فى إنجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد على أتم ما يرام.

ولد المسيو (سيف) موفقا للقتال. فقد دخل مبكرا فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومر على التعاقب بالأسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهزة لتوسيع نطاق معلوماته، وتنمية كفاءته وحذقه وتدربه على أنواع الرياضات البدنية التى كان يساعده على أدائها قوة بدنه ومتانة أساطينه. وكان من سلامة الطبع ودماثة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة، مهمة تشكيل الجيش على النظام الجديد. وقد كان هذا الفوز مما وجه إليه الأنظار، وجعل كلا من الوالى وإبراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقة به إذ رقى بالتعاقب إلى رتبة بكباشى ثم إلى رتبة أميرالاى، وكان حائزا عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (مورة) بعد أن منح لقب البكوية. ولما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليونان وعاد معها إلى مصر، رقى إلى رتبة أمير لواء، ثم إلى رتبة أمير ميران مع لقب الباشوية بعد انتهاء حملة الشام. وكان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثا من بواعث اعجاب الدوق دى راجوز به. لهذا لا أجد بأسا من إيراد رأى هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد مما كتبه. قال:

« كان سليمان باشا نافذ البصيرة فى رأية طويل الروية فى عمله، وكان كلما ارتفع درجات فى سلم الترقى ازداد استشعارا بثقل مسئوليته تبعا لانفساح أفق سلطته. إذ كان من أصحاب النظر فى الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت الفرص له مرارا لتطبيق العلم على العمل فاغتنمها فقد أصبح بحق فى طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية. بل إنه وصل فى هذا الميدان إلى حد يجيز لى أن أقرر هنا أن مالم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه، قد أدركه وعمله بطريق الحزر والتخمين. ذلك لأنه قام بخدمته فى فرنسا وحارب معنا حينما كان فى الرتب الصغيرة. فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا، وكللت الحروب التى اشترك فيها لأجل مصر بالنجاح والفوز الباهر. وهو يحدث عن هذه الحروب حديثا عجيبا، وله فيها من الآراء ما يطابق الصواب دائما، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو با لمبادىء التى ينبغى أن تكون قاعدةهذا التنظيم وهذه الحركات. وصفوةالقول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والإعجاب لدى أركان حرب البلدان الأخرى».

٢٣- مبادىء تشكيل الجيوش النظامية.

أذكر فيما يلى بيان مبادىء تنظيم الجيوش النظامية فى مصر فأقول:

قدم محمد على إلى المسيو (سيف) خمسمائة من مماليكه كى يعلمهم استعمال السلاح ويدربهم على فنون الحرب. وما من عظيم من عظماء القطر إلا وقدم عددا من مماليكه لهذا الغرض، حتى بلغ عدد أولئك الشبان ألفا. وكان المقصود أن يكونوا نواة الجيش المصرى، غير أنه لم يكن ميسورا حملهم على رعاية النظام وتلقينهم تلك الفنون فقرر الوالى إرسالهم إلى أسوان، لا ليطيعوا أمره فقط. بل أيضا ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والأوهام الباطلة من التحويم حولهم. وكان الوالى قد أنشأ بتلك الجهة أربع ثكنات فسيحة وضع فيها أولئك الألف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب.

وكان تعليمهم مبادىء هذه الفنون يستدعى قضاء ثلاث سنوات تقريبا، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة، لم تلبث أن ذلت وأزيلت من الطريق. وكان من أهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم

والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم لمعلمين مسيحيين. وكان النظام والسكوت اللذان لابد منهما أثناء المناورات العسكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا ـ منذ نعومة الأظفار ـ الألعاب والتمارين التى تتخللها الضوضاء والحركة واختلال النظام. فلقد دبروا المؤامرات مرارا ضد المسيو (سيف) لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقدشيئا من ثبات جأشه بل أستأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد.

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ إلى الفتنة وتهددوه بالتنكيل به، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا: إنه يريد بذلك أن يقيهم معرة الجبن، إذا قتلوه غيلة. فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شرة حدتهم. وبعد إذ كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له . ولقدتمكن بفضل هذه العواطف من إتمام تعليمهم فى مدة ثلاث سنوات وبعد أن تكونت على المثال المتقدم الهيئات الأولى من الضباط، شرع فى حشد العساكر وتكوينهم. وكان الوالى لا يذهب إلى اختيارهم من الأتراك أو الأرنؤود، لإفضاء الجهود التى بذلت فى سبيل تنظيمهم إلى الفشل والخيبة، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لأحكامه. وكان من جهة أخرى لايميل إلى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا لحيلة مفتوحا أمامه إلا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار. ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا، وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفلوط فى الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل. وفى الوقت الذى وصلوا فيه إليها، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الآنفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين، وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الأورط الستة الأولى، وعين أولئك المماليك ضباطا وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الأشهر التالية إلى يونيو سنة ١٨٢٤ فى إتقان التعليم العسكرى وترقيته. ولما لاح للوالى نجاحه أنفذ بالأورطة الأولى من تلك الأورط الست إلى بلاد العرب الوسطى، وبالأورطة الثانية إلى سنار وبالأربع

الباقية إلى شبه جزيرة موره تحت إمرة إبراهيم باشا.

على أن هذه التجارب الأولية لم تتوج كلها بالنجاح، فإن السواد الأعظم من السوادنيين الذين جندوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعدم موافقة جو مصر لأمزجتهم. دع أنهم كانوا لا يصلحون فى الحقيقة لتحمل أعباء الخدمة العسكرية كما ينبغى.

وكان لايمر يوم إلا ويزداد شعور الوالى فيه بالحاجة إلى جيش منظم لتنفيذ مقاصده العالية وبلوغ مطامحه البعيدة. فاعتزم حشد الجنود من المصريين. وكانت هذه المجازفة محفوفة بالأخطار الكبار، كما يثبته تذمر الأمة المصرية ونزوعها إلى الهياج فى جهات متعددة حتى اضطرت الحكومة إلى التدخل لإخمادها. ولكن لما رأى الفلاحون الذين انتظموا فى سلك الجيش ما يعاملون به من الرعاية وحسن العناية بشئونهم، ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا فى بيوتهم، انتهى الأمر بهم إلى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتباط بها.

ولما عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديد وظهرت أهميته للناظرين ، استدعت الحكومة من فرنسا الجنرال (بوابين) والكولونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الذين كان لهم الأثر الظاهر فى إتمام ذلك التنسيق على خير ما يرام.

٢٤- المشاة أو البيادة المصرية

كان تشكيل جنود المشاة المصرية أول ما استرعى أنظار الحكومة واستدعى عنايتها. فلا عجب إذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر، حتى أنها أنشأت بثغر دمياط مدرسة لتخريج الشبان اللازمين للاندراج فى سلك الجيش كصف ضباط أو ضباط. وبهذه المدرسة الآن أربعمائة تلميذ يدربون على المناورات الحربية والإدارة العسكرية ويتلقون اللغات العربية والتركية والفارسية. وناظرها ضابط من مقاطعة (بييمونت) وهو المسيو (بولونيى) الذى كان ضابطا برتبة اليوزباشى فى عهد الإمبراطورية. وقد ترقى فى مصر إلى رتبة القائمقام مكافأة له على ما أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب وإشعارا بما أحرزه من النجاح فى مهمته.

ولقد شهد الدوق دى راجوز فيلقا من المشاة المصرية أثناء قيامه بالمناورات فكتب ما يأتى:

« كان لواء المشاة المؤلف من الأورطة التاسعة والأورطة العشرين متأهبا لرحيل إلى السويس للإبحار منها إلى الحجاز لتعزيز الحملة المصرية فيه. فتوليت بنفسى عرضه فقام بالمناورات أمامى مدةثلاث ساعات فى سهل القبة القريب من قبور الخلفاء وقبر الملك العادل فرأيت منه ما استوجب سرورى وإعجابى . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر، فتيسر بذلك لى الحكم بما كان للقائد الأعلى للجيش من الأثر الجليل فى تشكيله والحق يقال، فإن العساكر الذين عرضتهم جمعوا إلى الدراية بالأساليب العسكرية حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام.

٢٥- الخيالة أو الفرسان

لم يبدأ تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد إلا عقب عودة الجيوش المصرية من حرب مورة. فإن إبراهيم باشا كان قد رأى فى هذا البلد الخيالة الفرنسيين، فأدرك ما يكون من الأهمية للفرسان الذين يعملون جماعات أو شراذم أو أورطا، والامتياز على الفرسان غير المنتظمين، وأن هذا الامتياز يشبه نظيره فى المشاة المنتظمة بالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة. وبمجرد عودته إلى مصر صرف همته بنشاط ومثابرة إلى تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد واستدعى لهذا الغرض المعلمين الأوروبيين وشكل أورطا عديدة من الفرسان على اختلاف أنواعها. من صيادة ومدرعة ورماحة الخ.

٢٦- مدرسة الخيالة

أنشئت مدرسة الخيالة فى الجيزة بقصر مراد بك. وقد طبق عليها حديثا نفس النظام المعمول به فى مدرسة الخيالة بمدينة (سومور) بفرنسا مع رعاية ما اقتضاه المكان من اختلاف بعض التغيير والتبديل. ويتعلم بهذه المدرسة شبان من الأتراك والمصريين ـــ مختلطين بعضهم ببعض ـ ضروب المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والإدارة العسكرية.

قال الدوق دى راجوز: « وقد بلغت هذه المدرسة درجة الكمال وسيكون لها التأثير العظيم فى مستقبل الجيش المصرى»، ويتلقى العلم بها الآن

ثلاثمائة وستون شابا منقسمين إلى ثلاث فرق. والذى قام بإنشائها ويتولى إدارتها الآن هو القائمقام (فاروق) الذى كان فيما سبق ملازما لركاب الماريشال (جوفين سان سير).

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى مير الايا. وهى مكافأة عادله على خدمه الجليلة لمصر ولسمو الوالى.

٢٧- المدفعية أو الطوبجية

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت نفسه الذى شكلت فيه المشاة النظامية. وغنى عن البيان أن الذين أنشأوها طبقة من المعلمين الأوربيين وجماعة من الضباط السابقين فى عهد الإمبراطورية. ومن الأتراك الذين تفرغوا لإتقان هذا السلاح جماعة فازوا فيه بالقدح المعلى، وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك، وهذا الضابط الممتاز هو الذى أنشأ معامل صنع السلاح والمدافع الموجودة بقلعة القاهرة ويقوم الآن على إدارتها. ولقد أشار الماريشال (دى راجوز) إلى تلك المعامل، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضوعات، فقال: «إنه لايسع من شهدها إلا الإطراء فيها» وإنه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشال فى كفاءة أدهم بك وحكمه على ذكائه واقتداره. قال: «لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ، وهو صحيح اللهجة فيها. وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية. وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية وأمهر مديرى الأدوات المتعلقة بها، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الإدارية. ولا شك أن محمد على كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط . بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله.

٢٨- مدرسة المدفعية أو الطوبجية

أنشئت ببلدة طره، منذ سنوات ، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمائة إلى أربعمائة تلميذ. يعلمون اللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات، وكل ماهو صالح من

العلوم العالية للتطبيق على المدفعية. ولقد أدى ـ البرتغالى الميرالاى (ساجرا) الذى تولى إدارة هذه المدرسة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى إلى رتبة أمير لواء ـ خدما جليلة لها ـ وألحقت بالمدرسة أورطة لمدفعية المشاة وأورطة أخرى لمدفعية الفرسان. وأنشىء لها ميدان ضرب نار (بوليجون) يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ.

وهاك ما ذكره عن هذه الجنود الدوق دى راجوز الذى لايسعنى إلا الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وأفكاره العالية فى الموضوع. قال:

«تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمناورات، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات، فقامت بها على أتم ما يكون من الترتيب والدقةوبأقصى ما يراد من السرعة.

وكان رجالها على ما يرام من حسن الهيئة وسعة العلم والدربة ونظام الحركات العسكرية، كما كانت مركبات المدافع مستوفية لشروط الإتقان، وإن تكن الخيل التى تجرها صغيرة الجسم. وكل خيل القطر المصرى من هذا القبيل. ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا، وهم لا يخطئون الهدف بل يصيبونه بدقة وسرعة. فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكمال والإتقان وتشبه من هذه الجهة مدفعيات الجيوش الأوروبية. وأمير آلايها من الرجال الأكفاء الممتلئين نشاطا وغيرة. أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ثمانية عشر بلوكا وقد قامت بتمريناتها أمامى فألفيت أن مدافعها كانت تصوب مقذوفاتها نحو الهدف تصويبا حسنا. أما نار مدافع الهاون، فكانت أقل ضبطا منها وإحكاما.

« ولا يسع الرائى لهذه المدفعية إلا الإعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين الذين ديدنهم الاستنامة إلى الدعة والسكون، إلى جنود على جانب عظيم من البسالة والإقدام».

وأستميح الدوق دى راجوز الإذن لى بإيراد آخر عبارة كتبها فى هذا الموضوع، على سبيل الحكاية، فقد قال: « ومتى تخرج من المدارس نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من تلاميذها ، وهو ما لابد حاصل فى بضع سنوات إن شاء الله، فإن الجيش المصرى يكون قد تم تشكيله بحسب النظام الحديث فيبارى أمثاله فى الديار الأوربية».

٢٩- الإدارة العسكرية

نسقت الجيـوش المصريـة كلها من مشـاة وفـرسان ومـدفعيـة على نمط الجيوش الفرنسيـة. واتبع فيها ما هو متبع عنـدنا من الأساليب والأنماط فى أداء الحركات والسير، وسلكت فى نظامها الموسيقات العسكرية. وتم التشاكل من كل وجـه تقريبـا فلم تبق مغـايـرة إلا فى النداء بـالأوامـر التى يصدرهـا الضباط إلى الجنود فإنـه حاصل باللغة التركيـة لأنها من أنسب اللغات لأداء هـذا الغــرض. وطبقت على الجيش المصرى القـوانين والأوامــر التى يـدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقـا دقيقا محكما. وبلغ من المغالاة فى التقليد والأخذ عنا أن الرتب العسكرية فى ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها فى هذا.

وقد أنشئت منـذ البداية، للقبض على زمام الجيش وإدارة شئـونه، نظارة على نظـام أبسط من نظامهـا عنـدنا، مع تـوسع فى اختصـاصاتها. فنظـارة الحربية المصرية هى المنوط بها جميع ما يورد إلى الجيش من سلاح ومعدات وثياب. وهى التى تستخرج من مخازن الحكـومة ومستودعاتها مـا يلزمها من الذخائر والمؤن الغذائية والأدوية الخ.

وإدارة الفيالق فى الغايـة القصوى من البساطة والخلـو من التعقيد فإنها لاتحرر عقودا بشراء، ولا تساوم أحدا على ثمن ولا تطلب اعتمادا من أحد ولا تحول اعتمادا من بـاب إلى غيره. وفى اتباع هـذا الأسلوب السـاذج وقايـة من الاختلاس والسرقـة أما مصلحة الصحة، فقـد جعل النظام الفرنسى قـاعدة لتنسيقها وترتيبها، مع شىء من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات. ولكل أورطــة من الموظفين والأدوات العـــدد الـــلازم والمقـــدار الكـــافى لتشكيل المستشفيات الخاصــة بالأورط كلما مست الحاجـة. وسنفيض فى الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب فى القطر المصرى.

وأغذيـة العساكـر عبارة عن معينـات من الخبز واللحـم والأرز والعدس والسمن والزيت والصابون، وكلها من الصنف الجيد وبا لمقادير الكافية.

٣٠- شوار - لبس - الجنود

شوار الجنود - أى ملابسهم الرسميـة المتشابهة، فى الغاية القصوى من البساطـة. وهى، على صلوحها وفائدتها، حـافظة للزى الـوطنى الأصلى بقدر المستطـاع لتألفها من طـربوش أحمر، (والعقـائد الدينيـة تحول دون اتخاذ قلنسوة تشبـة قبعة المسيحيين) وصـدرية كالشعـار متشابكـة على الصدر

ومحشورة فى السروال. والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضا واسعا إلى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين)، ويدار على الجسم حزام. والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف. ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس ، شتاء، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء. وفى الصيف يرتدى رجال الجيش كله الملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الأحمر. ،وأما مجموعة الأدوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية. ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر إلا فى نوع الجوخ وما هو مجمل منه من الوشى ، واللون الأحمر خاص بالضباط أما الشارات التى تميزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهى: يحمل الأونباشى شريطا واحدا على الصدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة. أما الملازم الأول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمة فضي،ة والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس، والميرالاى هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللواء نجمتين فى هلال، وكلها من الماس، والميرميران ثلاثة نجوم فى هلال وكلها من الماس.

٣١ - الرتب فى الجيش

الرتب فى الجيش كما يأتى:

الأونباشى	رئيس العشرة
الجاويش	
الباشجاويش	
الصول قول أغاسى	مساعد اليسار
الملازم الثانى	التالى الثانى للرئيس يساعده وينوب عنه
الملازم الأول	التالى الأول للرئيس يساعده وينوب عنه
اليوزباشى	رئيس المائة
الصاغقول أغاسى	مساعد اليمين
البكباشى	رئيس الألف
القائمقام	الذى ينوب مناب الميرالاى
المير الاى	أمير الآلاى
المير لواء	أمير اللواء
المير ميران	أمير الأمراء
السر عسكر	رئيس القواد

وأمراء الآلايات وأمراء الألوية يحملون لقب البكوية. أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين.

٣٢- المرتبات والماهيات

مرتب الجندى البسيط خمسة عشر قرشا فى الشهر - أى ما يعدل صلديين ونصف صلدى فى اليوم. ومرتب الأونباشى خمسة وعشرون قرشا، والجاويش ثلاثون، والباشجاويش أربعون، والصولقول أغاسى ستون، والملازم الثانى مائتان وخمسون، والملازم الأول ثلاثمائة وخمسون، واليوزباشى خمسمائة، والقائمقام ثلاثة آلاف، والمير الاى ثمانية آلاف والمير لواء أحد عشر ألفا، والمير ميران اثنا عشر الفا وخمسمائة.

ومرتبات كبار الضباط جسيمة، على ما يؤخذ مما تقدم، وسبب ذلك أن سمو الولى كان يريد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث فى الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه، دع أن الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم إلى بسط اليد بالنفقة.

٣٣- الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤساء فى الجيش المصرى جارية على مثالها فى الجيش الفرنسى. فإن القانون العسكرى الفرنسى، الباحث فى هذا الموضوع، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه. وفى بادىء الأمر، اضطر إلى استعمال الجلد عقابا للمخالفين. ولكن سمو الوالى وإبراهيم باشا حصرا استعماله فى دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن إلى إلغائه بالمرة.

٣٤- الروح العسكرية فى المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم. لأنهم بوجه عام يمتازون ببدانة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمال المشاق والأتعاب. ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والبسالة والثبات عند الخطر، ومقابلة النوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معامع القتال، بلا وجل ولا تردد. والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى:

حدث فى معركة حمص أن جنديا من الأورطة السابعة الفرسان يدعى منصورا انتزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى - وهو فى هذه الحالة - التراجع عن ميدان القتال. بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة. وظل يحارب إلى أن مات.

وحدث فى معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح، أسرتهم فى المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال لمساهمة = مشاركة = إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفى تلك المعركة سقط جندى من الأورطة الرابعة الفرسان من ظهر جواده مصابا بجرح، فلما شهده أمير لوائه أحمد المنكلى سارع بتقديم جواده إليه، لكى يرجع إلى الساقة. فأبى الجندى قائلا إنه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين، ولو لقى حتفه.

وفى إحدى المعارك أصيب فتى من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح، ورأى رفاقه فى فصيلته يذهبون كل مذهب فرارا من العدو. فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. ولما شهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الحياء من رؤيته، وهو فتى صغير جدا، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالة فلموا فى الحال شعثهم وجمعوا فلولهم ثم عادوا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو برهة ما من الزمن.

ومن أهم الحوادث وأجدرها بالذكر — لا سيما وأن فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم - أن سليمان باشا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثا. فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى بالحاج على، فهم سليمان باشا برفضه معترضا على تجنيد مثله، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على إلا أن يبقى تحت السلاح قائلا لسليمان باشا إنه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه فى أول نهزة ينتهزها لذلك.

وكان الجيش المصرى ضاربا الحصار على (عكا) فخرجت الحامية يوما

وتغلبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة ملازمــة الهزيمة. فتقدمت الأورطة الثــالثة من الفرســان التى كان الحاج على منتظما فى سلكها لتعــزيز جــانب أولئك الجنود، وحملت حملــة باهــرة صدت فيها المحصــورين إلى مواقعهم. ولكن الحاج على لم يكفــه أنه شــاطر رفــاقه فخار فوزهم .بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع فى أسر العدو. ثم انقض على ضــابط تــركــى فأسره، وجــاء بــالضــابطين المصرى والتركى إلى سليمان باشا وقال له: «ألا تزال تعتقد أننى جندى لا أصلح لشــىء؟».

وكان الأتــراك، لما يشبعرون به من علوهم وكبريــائهم يحتقرون المصريين ولا يكترثــون بهم. ويعتقــدون بهم العجز عن مجاراتهم. ولكن حــرب مــورة أثبتت لهم بــالبرهــان القاطع أن ذلــك الشعب الخجول المنجمع، الــذى أذلــه الضغط والعسف، قديــر على استرداد مجده القديم وأهل لمنــازعتهم على فخر النجاح والفــوز فى القتال. ولقــد أثبت لهم فتح الشــام وانتصارات (حمص) و(بلان) و (قــونيا) سمــوهم الذاتى عليهم بــاعتبار كــونهم أفرادا كما أثبت شوكتهم باعتبار أنهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط القتال وتدابيره.

على أن المصريين الــذين يستحقون هــذا الإطــراء العظيم بوصف كــونهم جنودا، لا يستحقــونه أبــدا متى وصلوا فى مــدارج الترقى إلى مراتــب القيادة، لأنهم فى المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغايرون العثمانيين والمماليك فى الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عادتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنهإبراهيم، على الرغم منهما، إلى العدول عن ترقيتهم وترفعيهم إلى المراتب السامية فى الجندية.

وتلقــاء هــذا النقص، أسنــدت إلى المماليك والأتــراك فى الجيش المنــاصب العليــا. وليس بمستبعد أن تكــون قلة أهليــة المصريين للقيادة من الظــروف الملائمــة لجريان الأحــوال على مقتضــى الــواجب. فإن الشعب المصرى سريع التقلب عــديم الثبات إلى حــد يخشــى معــه. فيما لــو سلمت قيادة الجنــود إلى ضباط منــه، نزوعهم إلى الهياج والثــورة. أما وقــد وضــع النظام على الترتيب السابق فإن العســاكر يخضعــون لضبــاطهم ،ويستطيع هؤلاء إلزامهم بتنفيذ أوامرهــم لما يتخذونه من وســائل الاحتياط والتحفظ لــذلك. لاسيما وأنهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم، كما لو كانــوا من أبناء جنسهم والشعور العائلى

من أخص صفات المصريين، فهم لا يستغنون عن الأنس بنسائهم. ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا أيضا. ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع فى تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرد. على أنه لمايهم فى بلد قليل عدد السكان كالقطر المصرى، أن يساعد الخمسون أو الستون ألفا من الجنود المصريين، بزواجهم وهم فى الجيش، على تكثير النسل. ومفهوم أنه إذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجاتهم وأولادهم ويزحفون وحدهم إلى ميدان القتال.

وتهتم الحكومة، فى مثل هذه الحالة ، بأطفالهم وتتولى الإنفاق عليهم فترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعدل نصف المرتب الذى يتقاضاه آباؤهم.

٣٥- جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلى بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحرب الأخيرة:

حرس صاحب السمو الوالى، وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة آلايات من المشاة وآلايين من الفرسان أى من ١٢٠٠٠ عسكرى.

حرس شرف السر عسكر، وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكرى

أورطة أساس الضباط، وهى مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى

خمسة آلايات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة واثنان من المشاة الراكبة وعدد عساكرها ١١٦٠٠

ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع، وعدد عساكرها ١٨٠٠

آلاى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى

أورطتا هندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠

ستة وثلاثون آلايا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠

خمسة عشر آلايا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠

جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والأرنؤود والعربان، وعددهم ٢٦٠٠٠ مقاتل

المجموع ١٨٠٠٠٠ تقريبا.

وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التى يقيمون بها:

جيوش نظامية

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
الآلاى الأول من طوبجية الحرس	حماه	١٣٧٢
الآلاى الثانى من طوبجية المشاة	الإسكندرية	٢٣٤٩
الآلاى الثالث من طوبجية المشاة	حلب	١٩٤٩
الآلاى الأول من طوبجية الراكبة	حمص	٩٨٢
الآلاى الثانى من طوبجية الراكبة	دمشق	١٠٠٧
أربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الأورطة الأولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الأول من مشاة الحرس	عينتاب	٢٠٤٨
الآلاى الثانى من مشاة الحرس	مرعش	٢٦٤٥
الآلاى الثالث من مشاة الحرس	حلب	٢٤٣٥
الآلاى الأول من المشاة (الأورطة الخماسة)	السودان	٤٥٤٧
الآلاى الثانى من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
الآلاى الثالث من المشاة	اليمن	١٥٢٦
الآلاى الرابع من المشاة	مرعش	٢٥٩٣
الآلاى الخامس من المشاة	آطنه	٢٦٢٩
الآلاى السادس من المشاة	قليس	٢٣٦٢
الآلاى السابع من المشاة	الحجاز	٢١٩٢
الآلاى الثامن من المشاة	السودان	٣٣٩٦
الآلاى التاسع من المشاة	حلب	٢٣٠٤
الآلاى العاشر من المشاة	حلب	٢٠٥٤
الآلاى الحادى عشر من المشاة	أورفه	٢٣٣٨
الآلاى الثانى عشر من المشاة	عينتاب	٢٣٢٦
الآلاى الثالث عشر من المشاة	الحجاز	١٢٢٥
الآلاى الرابع عشر من المشاة	حلب	١٩٨٨
الآلاى الخامس عشر من المشاة	الدرعية	٢٥٥٥
الآلاى السادس عشر من المشاة	قنديا	٣١٤٩
الآلاى السابع عشر من المشاة	أورفه	٢٣٦٩
الآلاى الثامن عشر من المشاة	عكا	٢٠٤٩
الآلاى التاسع عشر من المشاة	الحجاز	٢٣٤٩
الآلاى العشرون من المشاة	اليمن	٢٦٧٧
الآلاى الحادى والعشرون من المشاة	الحجاز	٢٣٦٣
الآلاى الثانى والعشرون من المشاة	أورفه	٢٢١٢

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
الآلاى الثالث والعشرون من المشاة	ينبع	٢٣٤٢
الآلاى الرابع والعشرون من المشاة	انطاكيه	٣١٣١
الآلاى الخامس والعشرون من المشاة	أورشليم	١٧٥٥
الآلاى السادس والعشرون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى السابع والعشرون من المشاة	الحديدة	٢١٢٩
الآلاى الثامن والعشرون من المشاة	الحديدة	٢٤٤٦
الآلاى التاسع والعشرون من المشاة	آطنه	٣١٧٢
الآلاى الثلاثون من المشاة	حماه	٢٩٢٥
الآلاى الحادى والثلاثون من المشاة	حلب	٢٤٠١
الآلاى الثانى والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الثالث والثلاثون من المشاة	الإسكندرية	٢٦٠٤
الآلاى الرابع والثلاثون من المشاة	قليس	٢٥٦٤
الآلاى الخامس والثلاثون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الآلاى الأول من فرسان الحرس من المشاة	اللاذقية	٧٩٦
الآلاى الثانى من الحرس المدرعين	بيسان	٨٤٤
الآلاى الأول من الفرسان	أورفه	٨٢٥
الآلاى الثانى من الفرسان	زامبا	٨٣٠
الآلاى الثالث من الفرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨٤٧
الآلاى الرابع من الفرسان	آطنه	٦٧٨
الآلاى الخامس من القرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨٣٢
الآلاى السادس من الفرسان	دمشق	٧٧٠
الآلاى السابع من الفرسان	طرسوس	٧٤٢
الآلاى الثامن من الفرسان	دمشق	٧١٢
الآلاى التاسع من الفرسان		
فى الطريق إلى الإسكندرية		٨١٦
الآلاى العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
الآلاى الحادى عشر من الفرسان	قليس	٧٥٦
الآلاى الثانى عشر من الفرسان	طرسوس	٦٦٢
الآلاى الثالث عشر من الفرسان	أورفه	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الآلاى الأول من البلطة جيه	عكا	٨١٢
الأورطة الأولى من المتقاعدين	إسكندرية	٧٩١

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد العساكر
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقله	٨٨٥
أورطة من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨
أورطة من البلطة جيه	إسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الأساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الألعاب النارية والصواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
آلاى من رجال القرابة	السر عسكر	١١٥٢
فصيلة من رجال القرابة	فى الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	فى الحجاز	٢٠٠
	المجموع الكلى	١٣٠٣٠٠

الجيوش غير النظامية

	ضباط	عساكر
فى الحجاز		
فرسان أتراك	٤	١٥٨٠
مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	—	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦
فى القطر المصرى		
فرسان أتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعية	—	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩
فى اليمن:		
فرسان أتراك	٥	١٩٧٠

مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	–	٢٠٠
	—	—
المجموع	١٤	٢٩٣٠
في قنديا:		
فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعيه	–	٢٨٠
	—	—
المجموع	٨	٣١٣٥
في المدينة:		
فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	–	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
	—	—
المجموع	٢٩	٨٢٢٠
في السودان:		
فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية	–	١٨٦
	—	—
المجموع	٣١	٣٥٨٦
في الشام:		
فرسان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
	—	—
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتى:

ضباط ٢٠٧

عساكر ٤١٤٧١

٤١٦٧٨

وقبائل العربان فى القطـر المصرى كقبائل أولاد على والجميعات والهنادى والجهلات ولد سليمان والزوفه وجهينـه والهواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الـدوام لتوريد الكثيرين مـن الرجال والخيـول والجمال ولوازم القتال لأول إشارة من سمو الوالى.

الحرس الأهلى

الإسكندرية	آلايان	٦٨٠٠ جندى
البرلس ورشيد	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
دمياط	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
القاهرة	ثمانية آلايات	٢٧٤٠٠ جندى
مصر القديمة	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
بولاق	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
		٤٧٨٠٠

وفى استطاعة مـدارس الطوبجية والخيالـة والمشاة والبحرية والهنـدسة الحربية أن تقدم للخدمة العاملة فى الجيش ١٢٠٠ مقاتل.

وعدا مـا تقدم فإن جميع عمال الفـاوريقات فى القاهـرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بـالتدرب على المناورات الحربية والإجراءات العسكرية، وفى الإمكان إبلاغ عدد من يحشد منهم إلى ٥٠٠٠٠ إذا مست الحاجة لذلك

مراجعة عامة لما تقدم

جيوش نظامية	١٣٠٣٠٢ عسكرى
جيوش غير نظامية	٤١٦٧٨ عسكرى
الحرس الأهلى	٤٧٨٠٠ عسكرى
عمال الفاوريقات المدربون	١٥٠٠٠ عسكرى
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠ عسكرى
الدوننمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣ عسكرى
المجموع	٢٧٦٦٤٣

٢.البحريــة المصرية

إنشاء البحرية المصرية- حالة البحـرية المصرية ومنشآتها قبل وصول المسيو سريزى بك إلى مصر- إنشـاء دار صناعة الإسكنـدرية- العقبات التى ذللهـا المسيو سريـزى- الأعمال والمبانى والمنشـآت فى الترسـانة- السفن الحربيـة التى شرع فى بنائها- عمال الترسـانة من المصريين- أحواض السفن- نوتية الـدوننمة- القوات البحرية لمصر وتركيا.

٣٦-إانشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحـرية المصرية بعـد تنظيم الجيش البرى بزمن يسير. نعم إنه كان لمصر أيام حرب موره دوننمة حربية، غير أن الشطر الأكبر من سفنها أنشىء أو اشترى فى (مرسيليا) و (ليفورنة) و (تـريسته) وقد قضـى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة.

ولم يرتفع للبحرية المصريـة شأن عقب ذلك، إلا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغـر (نولون) المشـهورين بـالخبرة والبراعة فى فنون البحريـة، لتشكيل ترسانـة (دار صناعة) لإسكندريـة والإشراف على إنشاء السفن فيها. ولنا أن نقول فى موضـوع هذه الترسانة أن إنشاءها كان، كإنشاء الشعر ونظمه، عفو الساعـة لم يسبقه أقل استعداد. ولعل إيجادها من العدم كان المظهـر الأول لعبقريـة محمد على، والـدليل الساطع على عـزيمة وارادة حاسمة لا ينثلم لها حد ولا يكبح لها جماح.

٣٧- حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) إلى مصر فى أبرايل سنة ١٨٢٩ ألفى = وجد = البحرية المصرية مؤلفة من وحدات قليلة من السفن، هى التى نجت من كارثة (نافارين)، نذكر منها فرقاطة ذات ٦٠ مدفعا أنشئت بثغر (البندقية) وأخرى أنشئت فى (ليفورنة) وجملة سفن من طراز الكورفيت والبريك. وكانت هذه السفن ينقصها لوازم القتال ومعداته، لأنها أنشئت فى ثغور تجارية لا حربية. فاضطر (دى سريزى بك) إلى إنشاء مخازن للبارود فيها وإدخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضروراتها.

ولم يكن فى الإسكندرية ترسانة لبناية السفن. وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب من الماء تبنى فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقاطة. وكانت ورش الصناعة عبارة عن ظلات بسيطة من الخشب، وكانت المواد والخامات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الأوروبين يجلبونها من أوربا.

وكان يرأس أشغال بناء الأساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر، وهو رجل شهم واسع الحيلة. وقد صار فيما بعد الساعد الأيمن لمسيو (سريزى) وموضع ثقته. وكان معه رجل تركى الجنس يزعم العلم بالهندسة، ولكنه كان فى الحقيقة عنوان الغباوة والجهل، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته. وكان العمل قائما على قدم وساق لبناء سفن حربية أخرى برسم سمو الوالى بعضها فى (ليفورنة) والبعض الآخر فى (مرسيليا) و (لوندرة).

٣٨- تشكيل ترسانة الإسكندرية

كان محمد على يدرك ما للبحرياة من الأهمية وخطر الشأن فى حرب الشام وصد غارات الآستانة وحملاتها. فكان إذا وقع إبطاء فى بناية السفن بالثغور الأجنبية أو أعترض إنجازها عارض ناله من ذلك غم شديد. فعقد النية لهذا السبب على انشاء ترسانة. وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهمته بما ظهر له منهما فى إنجاز الأشغال البحرية التى أنجزت بثغر مرسيليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور إلى الإسكندرية لتولى إدارة الأعمال البحرية فى ثغرها.

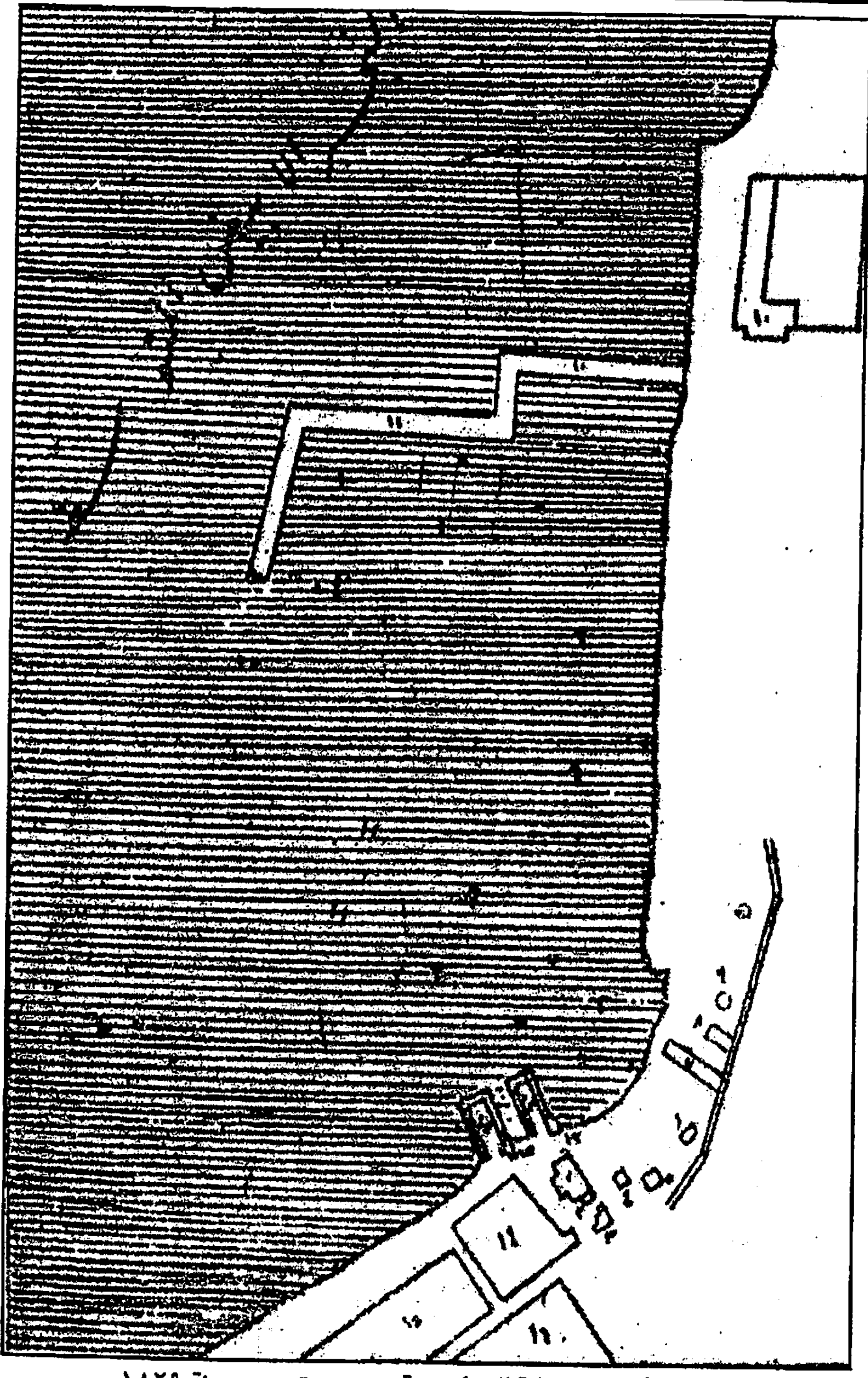
وكان كل ما ألقى فى وهم محمد على من استحالة دخول السفن الحربية إلى ميناء الإسكندرية وتحققه من نقص الأدوات الجربية والعمال اللازمين لمباشرة الأعمال المختلفة بها، مما شجعه على التمسك بإنشاء الفرقاطات الكبيرة. وكانت طلباته الأولى للسفن قائمة على أساس هذه الفكرة. فلما نظر سموه فى الرسوم التى قدمت إليه، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحوظاته بشأنها وأيقن مطابقتها للصواب، اعتزم أن لا يقتنى من السفن الحربية إلا ما كان منها كبير الحجم. ومن ثم ورد على خاطره انشاء ترسانة كبيرة.

وبينما كانت تجهز الأدوات اللازمة، بالديار الأوربية، لإخراج هذا المشروع إلى حيز الفعل، كان المسيو (دى سريزى) يعد فى الإسكندرية المعدات ويهىء المقدمات. إذ تفرغ لأخذ اعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لإنشاء الترسانة الجديدة.، ولقد تبين له أن عمق الماء فى بعض السواحل من ناحية مريوط لايعوق إقامة البناء المطلوب. ولكن هذه السواحل ـ فضلا عن بعدها عن المدينة ـ كانت أمواج البحر فى هياجه ترتطم بها ارتطاما شديدا وتحول دون إصابة الغرض المطلوب من الدفاع عن ثغر الإسكندرية. وكان العساكر يشتغلون فى آمالة الساحل، وهو متكون من مادة حجرية رخوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة المنحدرة التى تنشأ السفن عليها، بينما كان يعمل غيرهم فى استخراج الأحجار التى ستبنى بها من الأبنية الأخرى. وصفوة القول فقد كانت بوادر العمل بما تخللها من آيات النشاط والهمة أصدق دليل على شدة الحاجة إلى سفن لقتال فى أقرب ما يمكن من الزمن. وعلى الرغم من هذا فقد كان المسيو (دى سريزى) غير مرتاح لذلك الموقع، فصرف عنايته إلى البحث عن موقع آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لإنشاء الترسانة. وكان مما لاحظه أن الشاطىء الذى تنشأ فيه الزوارق فى وقاية من هبوب الرياح واضطراب الأمواج، وأن الهجوم عليه مواجهة متعذر، إن لم يكن مستحيلا، وإنما كان عيبه قلة عمق الماء به. فمر بخاطره أن يعمل للتغلب على طبيعة الأرض فيه. وكان يعلم أن المواد الصخرية موجودة على عمق ثلاثين قدما، وأن من الميسور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على أقامة المبانى المطلوبة. فعول نهائيا على إنشاء الترسانة فيه.

وما اختمرت هذه الفكرة فى ذهنه، حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمبانى التى تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة. وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة ١٨٢٩ حتى رفع إلى أعتاب سموه مجموعة من عمله الابتدائى، فأجال فيها نظره وتروى مليا ثم وافق عليها. وما هى إلا ساعة واحدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الأساس للمبانى التى كانت الحاجة إلى البدء بها أشد ما يكون. وناط بالقيمين على الآلات وضع الأوتاد (الخوازيق) للارصفة وحفر الأحواض.

دليل تفصيلى
لتصميم ترسانة الإسكندرية
قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١- الجمرك
٢- قهوة عمومية
٣ - دكان
٤- مسجد
٥- ورشة بالبناء
٦ - أرضية مستعملة لإنشاء السفن
٧- ظلة من الخشب لآلات الحدادة
٨ - ظلة من الخشب لصناعة البراميل
٩ - مسجد
١٠ - مخازن ومكان للزجاج.
١١ - الرصيف القديم، وقد تلف جزء منه
١٢- رصيف الخشب للنزول فى السفن
١٣- مكاتب مستخدمى الجمارك
١٤ - مخازن الحكومة
١٥ - مخازن خصوصية
١٦- جزء من مدينة الإسكندرية



«ترتيب أقسام ترسانة الإسكندرية» بحسب تصميم سنة ١٨٢٩

وكان سمو الوالى ، اثناء ذلك، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت إرادته إلى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن. فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهم بحسب النظام العسكرى، إذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل. فكان منهم النجارون والحدادون والجلافطة والسباكون والميكانيكيون الخ. وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج. وكان كلما اتسع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال، اختير الأونباشية والجاويشية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء.

وأجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) لسمو الوالى تشكيله هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم. ونظرا إلى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة بأسرارها على اختلاف مناحيها، كان يتولى بنفسه تدريب العمال على مباشرة الأعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها. وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيرا مطردا منتظما. ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تتزلج من البر إلى البحر.

ومنذ هذه الآونة وضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ان مسألة «البحرية المصرية» حلت على أحسن ما يرام. ولكن كانت لاتزال الحاجة ماسة إلى إقامة الدليل على خطأ الأوربيين الذين زعموا أن السفن ذات الأربعة والسبعين مدفعا لا تستطيع اجتياز بوغاز الإسكندرية فى مأمن من الأخطار.فلما تصدى (دى سريزى)، لإثبات فساد هذا الزعم إثباتا عمليا بإنشائه تلك السفينة، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات. وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد إلى حد إتهامهم أياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالاساءة إحسانه. ولكن لم تلبث هذه الحملة أن انتهت بسلام، إذ تقرر أن بالإمكان اجتياز البوغاز بلا خوف من خطر ما، إذا اتخذت احتياطات معينة وتدابير معلومة. وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة إلى تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها وأبحرت من الميناء للإيغال فى خضمات البحر الابيض المتوسط.

ومنذ هذا الحين أحرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره، وملأت بالسرور والابتهاج قلبه، فخوله السلطة

المطلقة وحرية التصرف فى شئون الترسانة. وكان مما اشرأبت إليه عنق (دى سريزى) أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على، فتفرغ لهذا العمل ووهب لأجله وقته وحياته وهمته.

٣٩- العقبات التى تغلب عليها المسيو دى سريزى

وبالرغم من الهمة العالية التى أمتاز بها المسيو (دى سريزى) تكاثرت العقبات والمعاثر فى طريقه وأصبح فرضا عليه تذليلها بحكمته وقوة إرادته وصبره. وبيان ذلك أن مجيئه إلى الإسكندرية لإنشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية، أزعج البيوت التجارية التى كانت تربح الأموال البالغة من التوصية فى الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها، وألقى الخلل والاضطراب فى أعمالها، فأخذت تذيع عنه من الأحاديث المفتراة مالا حصر له، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة. بل بلغ من أمرها أن حاولت استفزاز العمال الأوربيين الذين يتولون رياسة الأقسام الصناعية فى الترسانة ويقومون على تعليم المصرين وتدريبهم، إلى الشغب والعصيان. وكثيرا ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة فى الالتباك والخلل من جراء هذه الفتن، حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها فى مكانها قبل الاجل المعين، وكان ذلك بفعل فاعل بقصد إتلافها. وكان العمال المالطيون واليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الإسكندرية. وكان المسيو (دى سريزى) قد جاء بهم من ذلك الثغر فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رياسة الأقسام المختلفة، فلم يتحرك لمسيو (دى سريزى) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد. بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجنان ثابت وإرادة قوية، فلم تقو عند الارتطام بهذه الصفات العالية على البقاء . أمَا الولى، وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن، فقد أغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشايات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بإنجازها من غير توان ولا إمهال.

على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التى اضطر ذلك المهندس الخبير إلى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات. وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته فى بادىء الأمر إلى استخدام

الجم الغفير من الأوربيين لتسليح السفن التى كانت تبنى بسرعة مدهشة، فأدت معالجته هذا الأمر إلى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته. ولكنه ما انفك، مع ذلك، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنين، ومعاقبة المقصرين فى أداء أعمالهم، سواء أكان هذا التقصير عن إهمال أم عن غلط، أم عن سوء نية. وقد حمله تعليم المصريين تدريجيا تلك الصناعات التى حذقوها حتى ضارعوا الأوربيين فيها، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث أن الأعمال فى العهد الأخير كان ينجز الشطر الأوفى منها بواسطة عمال من أهل البلاد ولم يحتفظ من هؤلاء الأوربيين إلا بشرذمة صغيرة من المعلمين الفرنسيين قصد ببقائهم فى الخدمة الإشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن، ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سيرزى) على أداء المهمة التى وكلت إليه على خير مايرام.

دليل تفصيلى لتصميم ترسانة الإسكندرية
بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١- مدخل الترسانة، وسيكون بعد انتهاء العمل فى نمرة ٢٤.

٢- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء السفن عليها.

٣- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة.

٤ - ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها .

٥ - ورش الساريات والقلوع.

٦- ورش البكرات والخراطة.

٧ - مكان أدوات السفن وأطقمها.

٨ - مكان إبرام الحبال ، وبالدور الأول مكاتب الإدارة ومدارس مختلفة.

٩ - ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الأثقال.

١٠- ورشة الآلات البحرية والمعادن والصفيح والرصاص والنجارة.

١١- المخزن العمومى.

١٢ـ الإدارة الهندسية.

١٣ـ إدارة الميناء.

١٤ـ ورش الحدادة الكبرى.

١٥ـ معمل المزاليج والبرادة.،

١٦ـ المسبك.

١٧ـ ورشة حدادة الأحواض.

١٨ ـ ورش أشغال ترميم السفن فى الأحواض.

١٩ ـ ورش نجارة العمارات والثقب والجلفطة.

٢٠ ـ موضعا الحوضين.

٢١ ـ مكان إذابة الزفت والقطران.

٢٢ ـ ليمان.

٢٣ـ تكنة.

٢٤ ـ صحن المدخل الأصلى.

٢٥ ـ آلات ابرام الحبال.

٢٦ ـ المخازن.

٢٧ـ مساكن المديرين والضباط وموظفى الترسانة.

٢٨ ـ ورش المعادن للمدفعية.

٢٩ ـ ورش الخشب للمدفعية.

٣٠ـ مخزن وإدارة المدفعية.

٣١ ـ مخازن خاصة بالسفن التى ينزع سلاحها.

٣٢ ـ مستودعات لأخشاب بناء السفن.

٣٣ ـ آلات وسطوح مائلة لسحب أخشاب بناء السفن.

٣٤ ـ ترسانة الزوارق والسفن.

٣٥ـ مكان ترميم الغائص من السفن.

٣٦ـ حراس الميناء.

٣٧ فرقة الحرس.

٣٨ مخزن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب.

٣٩ جزء من المدينة يسكنه بعض المستخدمين.

٤٠ جزء من المدينة وحوانيت.

٤١ الرصيف المحيط.

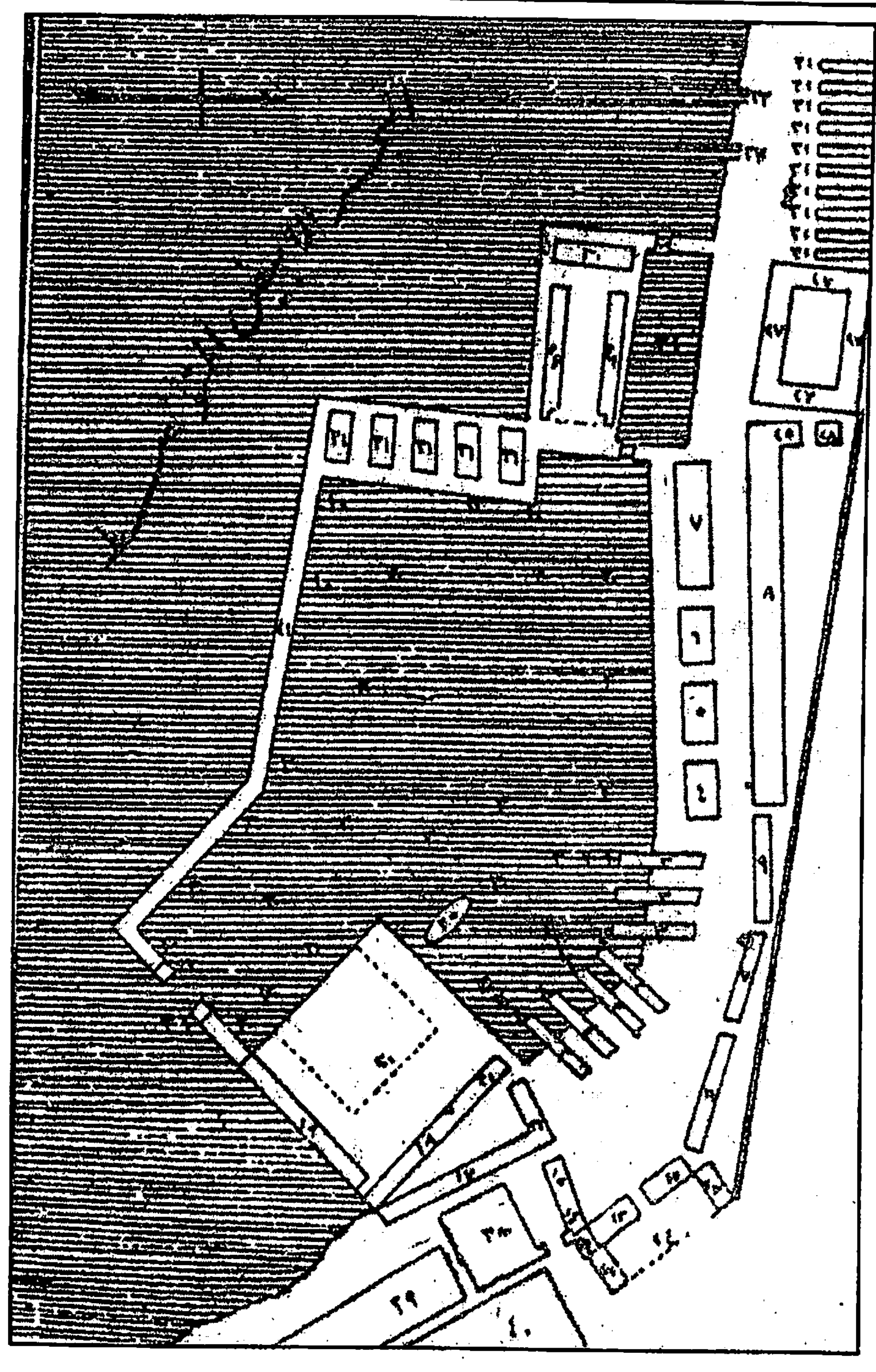
٤٠- أعمال الترسانة وبناياتها

بالنظر إلى إنشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع، قضت الحاجة ببنـاية ما يلزم لها من جـديد. أما الأعمال الأصلية التى تم إنجـازها فأربع قواعد من الحجـر لبناء السفن عليها مع ما يتبعهـا من الانحدار الممتد إلى داخل البحـر لتزلج سفـن الدرجـة الأولى ، وثـلاث قواعـد غيرهـا لبنايـة الفـرقـاطـات والسفن الأقل من تلك حجما، ومخزن عـام لإيـداع الـذخـائر البحريـة. ومصنع للحبال بـآلاته، وورش الحدادة والمزاليـج، وورشة النشر والخرط، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبـك والصفيح والرصاص والزجاج والآلات البحـرية والبكـر والأشرعة والبراميل، ومصـانع الفلائك والـزوارق وآلات رفع الأثقال وسحبها « الكابستـان» ودفات السفن والمركبات، وورشة النماذج لأجزاء السفن والمدافع، وغرفة نماذج الأشياء التى يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضبـاط وظلات لخزن الأخشاب اللازمة لبنـاية السفن وحفظهـا وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغـاطس من السفن الخ.

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسج قماش الأشرعة ومعامل أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة. وكانت ورش القـاهرة ومعاملها تشتغل أيضا لهذا الغرض، وكان المسيو (دى سريـزى) لايميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد، فـدرب جماعة من المصريين على صنـاعة حبـال السفن وأمراسهـا ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها.

٤١- السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينما كان الخشـب والموارد اللازمة لبنـاء السفن تصدر مـن أوروبا إلى الإسكندرية، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على إتمام بنـاية فرقاطة



تصميم ترسانة الإسكندرية
قدمه المسيو ليفوبور ديسريزى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٢٩ ووافق عليه سمو الوالى

وسفينتين أخريين مـن طراز الكورفيـت والبريك كان قـد بدىء ببنايتهـا قبل وصولـه إلى الإسكندرية، فتعذر تحويلهـا إلى سفن حربية. ثم شرع فى بنـاية سفينة من طراز الجويليت لم يستطع إتمامها إلا بتكبد العناء الشديد فى تعليم العمال بنفسه وارشـادهم مبـاشرة إلى دقائق البنـاية البحـرية وتفـاصيلها الجزئية، فكان فوق ما هو منـوط به من عمله أستاذا يلقن العلوم والفنون فى مدرسة العمل والتجربة.

وما كادت تصل إلى الإسكندرية الارسالية الأولى من الأخشاب التى وصى بها، حتى بدأ ببناية سفينة حـربية من ذات المائة مدفع، وما أشرف على إتمام بنائها حتى شرع فى بناية اثنتين أخريين من حجمها وطرازها.

وسنأتى بعد على بيـان واف للمنشآت التى أنجـزت أو رممت فى ترسـانة الإسكندرية أثناء وجود المسيو (دى سريزى) بالقطر المصرى.

بنيت السفينتـان (مصر) و (عكـا). وهما بحجم السفن الفـرنسيـة ذات الثلاثـة سطوح، إلا أنها لم توضع بهما البطـارية الـرابعة بسبب أن السطح الأول منهما يحمل فيهما اثنين وثـلاثين مـدفعـا من عيـار ٣٠، وهى مـدافع طويلة، والسطحان الآخران كلاهما ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠.

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهى المعـروفة بأسماء: (المحلة الكبرى) و (المنصـورة) و (حمص) . وفى كل من هذه السفن اثنـان وثلاثـون مدفعـا طويـلا من عيـار ٣٠ فى البطارية الأولى و٣٤ مـدفعا قصيرا مـن عيار ٣٠ فى البطاريـة الثانيـة و٣٤ مدفعـا من الزهـر (كارونـاد) من عيـار ٣٠ فى مقدم السفينة ومؤخرها.

والسفينة (أبـوقير) ذات الثمانية والسبعين مدفعا منهـا ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى، و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية، وعشرون مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ فى مقدمة السفينة ومؤخرها.

والكـورفيت (طنطا) وفيهـا أربعة وعشرون مـدفعا قصيرا من عيـار ٣٢ انجليزى.

والجويليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيـار ٤ وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤ وسفينة لمدافع الهاون وسفينة نقالة لأخشاب الساريات.

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعا تحت التسليح، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى و٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة.

وكان العمل جاريا فى سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب) و (دمشق).

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠.

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب المصلحون البحريون به فى أوربا بلا جدوى.

أما السفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضية السفن المنشأة حديثا فهى:

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى وكان انشاؤها بمدينة (ليفورنة).

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر (مرسيليا).

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية.

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى، وأربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ انشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا، ولكنها لم تتم فكمل انشاؤها فى (لوندرة) فرقاطة للقتال.

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤، وكان إنشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الإسكندرية تعديلات تناولت جميع أجزائها.

و(الدمياطية) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨، وكانت كبيرة وحولت فى الإسكندرية إلى فرقاطة حربية.

و (موستاجهـاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا مـن عيار ١٨ وثمانية وعشرين مدفعـا من عيار١٢، و«كلانت» فرقـاطة جزائرية أهـدتها فرنسا إلى مصر.

والسفن (جنة بحرى) وأصلها من ثغـر (جنوة) ، و (جهادبحر) وأصلها من (جنوة) أيضـا و (فوه) وأصلها من الإسكندرية، و(بلنـك جهاد) وأصلها من (مرسيليا). وكلها من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤.

و(واشنطون) وأصلها من (بوردو) ، و(فولمينان) وأصلها من (ليفورنه) ، و(الفشن) وأصلها من الإسكندرية ، و(شـاهين داريا) وأصلها من تركيا. وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منهـا إثنين وعشرين مدفعا من الزهر.

و(سمنـد جهاد) وأصلهـا من(مـرسيليـا) ، و(خبر جهاد) وأصلهـا من (سيوتا) ، و(التمساح) وأصلها من (مرسيليا) ، و(بادى جهاد) وأصلها من (الإسكندرية) ، و(الأمريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز البريك الصغير ، وتحمل كل منها إما ستـة عشر مدفعا واما ثمانية عشر من مدافع الزهر .

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن .

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب .

وكذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسمى (النيل) أصلها من (لوندره) .

وقد راعـى المسيو (دى سريـزى) فى بناية السفـن الحربية الإصـلاحات والتعديلات التى كـان الضباص الفرنسيون يطـالبون بإدخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الإصلاحات التى اهتدى إليهـا بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فـرنسا ، والملحوظـات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الأفضل العمل بها لفائدة البحرية . ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الإسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناية السفن الفرنسية الحربية ، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فيهـا بزمان طويل . وهو مـا يرجع الفضل فيه إلى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته.

٤٢-عمال الترسانة المصريون

إن العمال المصريين هم الـذين كانـوا ينجزون اعمال إنشاء السفـن، وقد أظهـرو فيها من الأهليـّة والـدراية مـا يوجـب الدهش . وكـان يشتغل منهم بالترسـانة من ستة آلاف عـامل إلى ثمانية آلاف . أما العمال الأتـراك فلم يبد منهم ما يستـوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاه عنهـم ، لأنهم كانوا من الازدهـاء بنفـوسهم والنـزوع إلى العصيـان والتمـرد بما يحول دون صلوحهم لإجادة مايناط بهم من الأعمال ، فكـانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الـذين كانـو يدركـون بسهولـة أسرار الأعمال التى تنجز أمـامهم ويتفهمـون دقائقهـا بما عهد فيهم من الـذكـاء ودماثـة الأخلاق والامتثـال للرؤسـاء . دع أنهم فطروا فى محاولة فهم مـا يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر اكثر منـه على الذكاء والعقل حتى ان الرسم البسيط يـرشدهم إلى فهم حقائق الأشيـاء بمجرد النظر إليه قبل إمعـان الفكر والروية فيـه . إلا أنه مع هـذا سريع النسيان لما يتعلمـه ، فضلا عن انـه إذا بلغ من التعلم درجة مـا لا يرغب فى تجاوزهـا ما بعدها . وهذا النقص يحول ، بـلا ريب ، دون سعيه إلى الكمال .

وهم أميل إلى مزاولـة الصناعـات التى أساسها تقليـد الأشكال والنماذج الثـابتة. ومن ثم تـراهم يجيـدون صناعـة البكـر وقماش الأشرعة والحبـال والبراميل والنجارة الدقيقة، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب. وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيهـا إذا مست الحاجـة إلى تغيير الأحجـام واستنبـاط أشكال تخالف مـا عهدوها عليـه من المثال، كما يتفق أحيـانا فى ورش الآلات والحدادة والسبك، مـا لم يراقبهم أثنـاء أدائهم أياهـا الرؤسـاء الاوروبيون فإنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام.

وترسانة الإسكندريـة التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا يستطيعون أن يؤدوا من جـلائل الأعمال مـا يؤديـه العمال المصريـون فى مثل الـوقت القصير الـذى يقومون بها فيه.

٤٣- أحواض ترميم السفن

لما أنجز الوالى بناية السفن الحربية الكبرى، وشعر بضرورة انشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة، أطلعه المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض إنشاءها بالإسكندرية ، وقال إنها فى أوروبا تلتمس العناية المتتابعة من حذاق المهندسين وأذكياء العمال. وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لإنشاء ترسانة بالإسكندرية يتناول بناية حوضين، مع أن حوضا واحدا كان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لا مفر له من العمل بإدارة صاحب السمو والمسارعة إلى تحقيق أمانيه، ولو استلزمت التحيل لإيجاد كل شىء من العدم. وكانت حالة الحرب بالنسبة إلى مصر تستدعى السرعة فى إنجاز تسليح السفن المبنية. فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من إنشاء تلك الاحواض. وعقب رحيله من الإسكندرية تصدى بعض المهندسين إنشائها فذهبت جهودهم فى هذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الولى إلا أن رجا من الحكومة الفرنسية، وقد كان هذا منذ عامين، أن تبعث إليه رجلا قديرا على إتمام هذا العمل الجليل، فاختارت إدارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الأعمال الهندسية الجليلة التى قام بها فيها، وسيبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به.

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الإسكندرية فترجع فى الأصل إلى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فإن هذا القاع طينى المادة إلى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الأركان لا ينفذ منه الماء، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الأولى. أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما. فإذ ضم إلى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما وهو سمك الأساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها، فلا مناص إذن من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء، بحيث لا ينفذ الماء منها. وهو ما لا يتأتى طبعا على قاع طينى هش إلا إذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة.

أما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام العقبات ولم تخذله صعوبتها، بل رفع إلى الوالى تصميما جليلا محقق التنفيذ - على بساطته - فقد اقترح عليه فيه ما يأتى:

اقترح أن تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الأرض مندمجة صلبة، ومن الطول بحيث تهبط إلى القاع اليابس. وقال إن هذه الأوتاد إذا وضعت على الوجه المتقدم صلحت لأن تكون أعمدة وقوائم لبناية الحوض. وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق واحاطته بخط من أوتاد أخرى متتابعة تنزل منه بمنزلة السياج وتختلف عن الأوتاد الأولى بطولها الذى تبلغ به إلى مستوى الأرصفة، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى الماء بعد زمن قصير، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء أو صخرة صناعية مصبوبة. وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعل إغلاقه ميسورا عقب مرور السفن إلى داخله بواسطة عوامة خاصة تشبه السفينة، تغرق وتعوم بحسب الإرادة. وهذه الطريقة هى المتبعة تقريبا فى إنشاء الحوض الجديد بثغر طولون.

ولقد بدىء العمل لإنشاء الحوض على هذا النمط. وهو جار الآن على قدم وساق. والمرجو أن يتم فى زمن قريب، لاسيما وأن الأخشاب والمواد اللازمة لإتمامه مكدسة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها.

ولقد قامت الكراكات بحفر القاع. أما وضع الأوتاد وهو عمل فى غاية الصعوبة فقد أنجز سريعا بواسطة آلات خاصة انشئت باشراف المسيو (مونجل) واطلاعه.

٤٤- النوتية والدونانمة

كان فرضا، وقد تم إنشاء الأسطول بهذه السرعة،إيجاد النوتية لها فى أقرب آن. لذا بودر بتدريب عشرة آلاف رجل على الخدمة البحرية. وأنشئت للملاحة مدرسة نظم فى سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعى عندنا، ونيط بضباط فرنسيين تسليح السفن وتعليم بحريتها. وكان من

أطـولهم باعـا فى تشكيل البحريـة المصرية وأعظمهم أثـرا فى تدريب رجـالها ومعاونة سمو الوالى بجهـودهم العظيمة ومساعيهم المبرورة، كل من المسيو (بيسـون بك) الذى أسفت مصر جد الأسف لوفـاته، والمسيو (هوسار) الذى لايزال يؤدى أجل الخدم لسمو الوالى.

ومما لا ريب فيـه أن إيجاد ترسـانة وإبـداع أسطول على ذلك الـوجه من السرعة لما يقضى بالعجب، ويـدل على قوة العبقرية. فقد كـان شاطىء البحر بالإسكندريـة كالصحراء الخالية من كل أثـر لكائن، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسـانة كـاملة الأدوات مستجمعـة لشتات اللـوازم والتجهيزات. فمن قـواعـد لإنشـاء السفن عليهـا وتـزليجهـا إلى البحـر، وورش ومخازن ومصنع الحبال امتداد بنـايته طولا ألف وأربعون قدمـا - أى كطول مصنع الحبال فى ثغـر طولون. وأنشئت خـلال تلك المدة دوونمة مؤلفـة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجـال وجربت للمرة الأولى من انشائها فى مطاردة أحد الأساطيل العثمانية.

وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقـاته، سواء بـدقة حركات السفن وضبطهـا أو بدربة البحـرية وحسن قيـامهم على الأعمال المنوطـة بهم وقد أصبح المصريـون، وهـم شعب مفطور على الامتثـال ومحامد الخصـال، كأنهم خلقـوا أكثر صلوحـا لممارسة البحر من غيرهم ولقد سبق لنـا ذكر فضائلهم الحربية ومنـاقبهم العسكرية ونقول الآن إنه بـالنظر إلى سكناهم شواطىء النيل، وهـو النهر الذى بلغ من السعة فى نظـرهم ما دعاهم إلى تسميتهم إياه بـالبحر، كانوا من أقـدر الناس على السباحـة وأميلهم إلى معانـاة فنون الملاحـة. ومن المناقب التى تـوافرت فيهم، غير ما تقدم، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم أن لا يحرز قصب السبق سواهم.

ومعلوم أن ثغر الإسكنـدرية تتردد عليه برسم الـزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعـلام دول مختلفة فكـان منظر هـذه السفن يبعث فى نفـوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك بحـريـة الوالى روح الغيرة والحماس ويستفـزهم إلى الـرغبة فى إطـلاع الخبيرين فى الفن كل يـوم على ماحـذقوه من الحركـات فى المناورات ونمّى بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم وتنبـه الشعور بالكرامة -

فكانت هذه المظاهر من أقـوى العوامل على تنافسهم فى إحراز أوفر قسط من العلوم والفنـون. ويؤخذ من آراء الاخصـائيين فى حالة البحريـة المصرية أن الفرق بينهـا وبحريـة القسطنطينية كـالفرق بين جيـوش محمد على البريـة وجيوش الباب العالى.

وامتازت بحـرية محمد على، أول وهلة، بـالتفوق فى شبه جزيـرة (مورة) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليـونانية التى طالما هلعت لمرآها قلـوب أهل الآستـانـة وقبعت بسببهـا أسـاطيلهم ، لم تخش بأسهـا السفن المصريـة التى كان يقـوم على أمرهـا فى ذلك العهد ربـان السفينة الفـرنسى المسيو (لوتلييه).

ولقد شرف الأسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام اذ قامت بمراقبته سواحل الشـام ومنعت الأتراك من النزول إليها وقبضت فى أنحـائها على بعض السفـن العثمانية وسـاعـدت المصريين على حصار عكـا واقتفت أثر الـدوننمة العثمانية التى كانـت أكثر منها عددا وأوفـر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذى أشرفت أن تجتازه لولا مـداخلة الدول الأوربية التى حـالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة.

وتتألف الدوننمة المصرية من إحـدى عشرة سفينة كبيرة وسبع فرقاطات وخمس سفن من طـراز الكـورفيت وتسع من نـوع البريك والجويليت. وبلغ مجموع عساكر هـذه السفن (الأطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا. ونورد فيما يلى بيانـا وافيا لقوات البحـرية المصريـة. وإذ قد أصبحت البحريـة العثمانية فى قبضة محمد على ، فقد عنيت ببيان قوات هـذه البحرية تجاهها، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية.

القوات البحرية المصرية

الدوننمة العثمانية — الدوننمة المصرية

السفن الكبرى

أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣١٣	المنصورة	١٠٣٤
فيضيان	١٠٣٤	الإسكندرية	١٠٣٤
فتحية	١٠٣٩	أبو قير	٧٣٦
ممدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧
نصرتية	٩٠٦	عكا	١١٤٨
تعريفية	٩٧٢	حمص	١٠٣٤
توفيقية	٩٤٨	بيلان	٩٠٠
برج ظفر	٧٦٥	حلب	١٠٣٤
		بنى سويف	١٠٣٤
		الفيوم	١٠٣٤
المجموع	٩٤٤٥	المجموع	١١١١٩

الفرقاطات			
الدوننمة العثمانية		الدوننمة المصرية	
نظامية	٦٧١	المنوفية	٥٥٨
جهادية	٦٧٥	البحيرة	٥١٠
نافيك	٥١٦	الدمياطية	٤٧٠
شهاب	٥٤٨	سر جهاد	٥١٠
خوز أمان	٦٦٢	رشيد	٥١٠
تافير	٥٣١	وابور النيل	١٥٢
مراد ظفر	٤٨٤		
سوريا	٥٥٥		
راسم ظفر	٥٣٤		
قائد ظفر	٤٧٨		
فضل الله	٣٨٦		
المجموع	٦٠٤٠	المجموع	٢٧١٠

الكـــــــــــــــــــــــــورفيـــت

مسير فرج	٢٧٧	جهاد فكر	١٥٩
		طنطا	١٨٣
		جنه بحرى	١٥٩
		بلنك جهاد	١٥٩
		دمنهور	٢٦٢
المجموع	٢٧٧	المجموع	٩٢٢

الجـوبليـــــــــــــــت

الدوننمة العثمانية	الدوننمـة المصريـة
الصاعقة	١١٥
واشنطن	١١٥
شاهين داريا	١١٥
التمساح	٩٧
المجمــــــوع	٤٤٢

البريـــــــــك

جاى فرح	١٣٩	سمند جهاد	٩٧
قوس ظفر	١٥١	شباس جهاد	٩٧
بحر سفيد	٨٤	وابور الجوكا	٥٢
		الوابور الجديد	٢٧
		وابور بولاق	١٧
المجموع	٣٥٤	المجموع	٢٩٠

القـــوطـــر

نمرة ١	٢٩
نمرة ٢	٣١
المجمـــوع	٦٠

٣ . حشد الرجال لخدمة البرية والبحرية

الأسلوب المتبع فى التجنيد- عيوب هذا الأسلوب- أسباب هذه العيوب- جهود محمد على لعلاج هذا الداء- كراهة المصريين للخدمة العسكرية- النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الأهلى.

٤٥- الأسلوب المتبع فى التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الأسلوب المتبع فى التجنيد للجيش بمصر. فقد كان هذا الأسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب، مخالفا لطبيعة البشر ومقتضيات العمران، وموجها لما لا مزيد عليه من الاسف.

فإنه لا نظام ولا قانون بمتبع فى التجنيد للجيش. فالجيش فى القطر المصرى لا يتشكل. كالجيش الفرنسى قبل الثورة، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاجحاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكول إلى الاقتراع بين المتساوين فى حظ القبول فى الجندية. كلا بل إن القوة الغاشمة وحدها فى مصر، وهى فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية ، هى التى يرجع إليها فى تزويد الجيش بمن يحتاج إليهم من المجندين. فالتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين بالإجحاف المتلف الضار بها. ولا شك فى أن ما رواه الرحالة عنه فى كتب رحلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه، لأنه يكفى فى موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر إلى إحدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بإلقائه القبض عليهم بمجرد وصوله إليها. وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط بعضهم ببعض يسير بهم إلى بندر المديرية، يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين. وهناك يختار الطبيب منهم من يكونون أهلا لخدمة العسكرية.

٤٦- عيوب هذا الأسلوب

هذا الأسلوب لم يكن همجيا فقط، بل سىء العاقبة أيضا،وعيوبه بادية للعيان. لأنه بصرف النظر عن الأعمار وحالة العائلات التى تحرم بالتجنيد

من رجـالها، يحول دون نمو عـدد السكـان ويلقى هذه العـائلات فى مخالب الحزن والفاقة. فإنه بمجرد توارد الأخبـار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشبـان الأصحاء الأبـدان إلى الفرار إلى الفلـوات التى يعرفـون بأسرار وهادها ونجادها فيختفون بها شهورا، فينشأ عن اختفائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحـرية لعلة أو عاهة فيهم ولست أستر هنا الضرر الناشىء عن هذا الأسلوب، بل الخطر الذى يتهدد كيان الأمة المصرية. فليس فى مقدور أحد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجه الضارة وسمو الوالى نفسـه عالم علم إليقين بضرره، ويتمنى أن يـوفق لعلاج يستأصـل به شأفـة هذا الـداء. لأنه يـرى أن مصلحته الـذاتية مـرتبطة بمصلحـة مصر الخالدة وأن لا شىء يفصل المصلحتين عـن بعضهما .فلنجتهد فى البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء .

٤٧- أسباب هذه العيوب

لما هم محمد على بإدخـال النظام العسكـرى الجديد إلى مصر قـامت عليه الاعتراضات من الأهـالى الوطنين بل بلغ من نفورهم منـه بسبب تمسكه بهذا الإصلاح أن أزدروا به وحقـروه ولقبوه « باشا النصـارى» ولم يكن قد سبق لمصريين أن خضعـوا لنظـام عسكرى . دع أنـه لم يكن فى نفـوسهم من روح الوطنيـة ولا فى رؤوسهم من الذكاء والحصـافة مـايدركون بـه حقيقة المثل الأعلى الذى ترنو مصر إليه بعينها. فيستفـزهم إلى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمـورهم. ثم لا ينسى أنهم لايفهمون لغة يتكلم بها لسـان السلطة غير لغة القـوة الجائرة والاستبداد الغاشم، فكان هـذا باعثا منذ البـداية على استعمال الشدة ليضطرهم إلى معاونته على إصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه.

ولقد خبرت المصريين با لمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم مايدعونى إلى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش. ولكننى أؤكد فى الآن نفسـه أنه كان لابـد من مضى وقت طويل لانتقـالهم من الحالة التى ألفوها إلى حالة مغايـرة لها، بل إلى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل، لا سيما وهى تنـافى عاداتهم وأخلاقهم ومـذاهبهم فى الفكر والتصـور. تلك هى الحقيقـة. غير أن محمد على مـاكان يستطيع الانتظـار والتريث طويـلا حتى

تتطور الأمة. إذ لا بد من اعتبـار أنه هبط القطر المصرى لتنشئة المصريين على مهل التنشئة التى يتمناها لهم. نعم إن ما قـام به من جلائل الأعمال يعد بناء فى جـدار المستقبل، ولكن ينبغى النظـر إلى أن الحاضر يتطلب منـــه العمل السريع والاحتفاظ بـدقائق الزمن ويأمـره بالإحتفاظ بمركـزه ودرء الأخطار المحدقة به، وبأن يكون منيع الجانب على من يـرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة، ويـدرأ عن حياته ومستقبل أسرتـه من جهة أخرى ما يتهـددها من الخطر. فكان مما لا مفر منه أن يتوافر لديه فى الحال جيش كثيف وأن لا يقف فى التجنيد له عنـد أوفق الوسائل لمبادىء الحرية والإنصاف. بل عنـد أدعاها إلى إتمام الحشد له بأسرع ما يستطاع. واتفق لسوء الحظ أن اقترنت الوسائل التى ترمى إلى هذا الغرض بالشدة والعنف، فإذا أفضت السرعة إلى تكبد فريق من النـاس هـول الشدائد والآلام، فإن الإنســانيــة تأسف من أجلهـا وليس المسئـول عنهـا سمـــو الـوالى بل أولئك الأشرار الـذيـن لا يكفـون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياتـه وتلك الظروف القاهرة القاسرة التى حفت به.

ولما أتم محمـد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل أسلـوبا عـادلا لتجنيد تقـدم إليه به بعض قنـاصل الدول رفقا بـالأهلين. ولا يسعنى هنا إلا الجهر بأننى لم أكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الإصلاح، علما منى بما جبل عليه الوالى من عواطف البر بالإنسانية. ولهذا أراد - مضيا مع ميوله الشريفة واحساســاته العالية - أن يطـرق باب التجربة مـرةأخرى رجاء أن تفضى نتيجتها إلى ما يتفق مع الإنسانية ومبادىء العدل.

٤٨- جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لما اتجهت رغبـات محمد على إلى حسم هـذا الـداء وعـلاجه بـالأنسب من الدواء، شكل مجلسا للتجنيد مؤلفا من كبار الضباط فى جميع الأسلحة، وعهد رياسته إلى أحد قواد الطوبجية، وكنت أنـا بالذات من أعضائه. فبدأنا بإنجاز مهمتنا فى مديـرية قليوب، لأنها أقرب المديـريات إلى القاهرة. ولما تقـابلنا مع المدير واستقر بنـا المقام عنده استدعى مشـائخ البلاد حتى، إذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم : « إن جميع أقطار الدنيا فى حاجة إلى القـوى العسكريـة للمحافظـة على كيـانها بتوطيـد دعائم الأمن والسـلام فى

الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير. وهذه الحاجة تدعو إلى تشكيل الجيوش، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها إلا إذا قدمت الأمة رجالها لهذا الغرض، والرجال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغى أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن».

« ومن المفروض على طبقات الأمة كافة وعلى جميع الأقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته، وما هو متوافر لديه من الوسائل. ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الأقوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم فى نفوس أسرهم الأثر السيىء. وهذا معناه أن العساكر ينبغى أن يؤخذوا من شبيبة القطر الممتلئة بالقوة والنشاط. وإنما يحدث أن يوجد بين أفراد هذه الشبيبة من يستحقون الإعفاء من تلك الخدمة المفروضة قانونا على السواد الأعظم ويدخل فى عدادهم من لهم أخ أو إخوان فى سلك الجيش أو يكونون أياما. على أن الحكومة لم تكن بحاجة إلى جميع الشبان، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها ـــ بعد جعل الحظ مقسما بالسواء بين الجميع ـ تعيين الأفراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام فى سلك الخدمة العسكرية».

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد فى فرنسا وأنها مؤسسة على القرعة. فلما سمع الحاضرون من المشائخ هذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها فى أوربا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعا بالموافقة عليه داعين إلى اتباعه والعمل به.

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم إلى قريته وأن يحرر كشفا بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة إلى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت إداراتهم المبادىء العادلة التى ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعدا. فعاد المشائخ تبدو على وجوهم علائم البشر والابتهاج، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم فى أمر تلك الطريقة الجديدة. والأسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الادبار وأركنوا إلى الفرار، فلم تجد الحكومة إزاء هذه الحالة إلا الالتجاء إلى القوة وأن تأخذ الآفاق على الذين فى سن التجنيد لتنظمهم فى سلك الجيش.

ومن النوادر التى يحسن إيرادها فى هذا المقام، أنإبراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد فى فرنسا، فتحمسوا له ووافقوا عليــه ودعوا إليــه واعترفـوا بما انطوى عليــه من رفق وعـدل. ولما أنس منهم ابراهيم بـاشا هذا الاستحســان العام قال لأحــدهم: « بما أنك موقن بمـزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل ـ فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحــدا من أبنائك الخمسة فأجـاب العالم وكان الجزع قـد ملأ فؤاده ـ : « أنا.... أنا... لا أقدر على مفارقة ولد من أولادى».

٤٩- نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل امكان اندراج إنسان فى سلك الجيش بمحض إرادته، لان المصريين يجزعون من العسكريــة ويبغضونها إلى حد أن الأمهات يتعمدن إتــلاف بعض أعضاء أبنــائهن ليصيروا غير صالحين للتجنيـد. فهن يسملن عيونهم أو يبترون أصابعهم إلى غير ذلك. ولقد شوهد بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظـام فى سلك الجندية يقطعـون جملة من أصــابع يدهم اليسرى بل يبرونها بريـا بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث ولكنهم كـانوا، بمجرد استيـاقهم إلى العمل فى الجيش، يخضعون للقـوة القاهــرة لارتياعهم منها، ويرضخون لأحكامهـا باعتبار أنها قضـاء واقع ليس له من دافع. ومع هــذا فإنهم متى انتظموا فى هيئـة الجيش تطـوروا سريعا بطـور العسكريــة واعتادوا حالتهم الجديدة ومحوا من ذاكـرتهم سيرة نفورهم القديم. وتراهم إذا دارت النوبــة دورتها فكلفوا بمبــاشرة التجنيد، يعــاملون المجنــدين بمثل الشدة التى عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمل السلاح .

٥٠- النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى

ولكن أستنتج من هذه الخاصيــة الغريبة لدى المصرى أنــه لايرجى، فيما يتعلق بمســألة التجنيــد، الوصول إلى سن نظام له أفضــل من النظام المعمول به؟ كلا، فإن بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض فى الطريق من العقبـات. ولابد أن يأتى يوم يكونــون فيه قد اعتادوا ممــارسة الأعمال الحربية وشغفوا حبا بالمعيشة العسكرية. فمتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل أفكاره فى مصر ويقصر عليهــا أنظاره وقلت حاجتــه إلى الجنود. فلا جــدال فى أنه سيضـع للتجنيـد أسلوبا يجعل قــوامه النظــام والإنصــاف.

وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهمته ما يعترضه من العقبات. وهاهو الحرس الوطنى الذى أنشاه فى الأزمة الأخيرة لسوف يفلح فى تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستفزازهم إلى القيام بواجباتها عن طيب خاطر. فإنه متى قضى الفلاح بعض الزمن فى التدريب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشة المعسكر بالقرب من أهله، زال ما كان يغشاه حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد إليها. ولسوف يتمهد له، وهو يتدرب فى المدرسة العملية للحرس الوطنى، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكى إلى النظام العسكرى. ومتى راق له هذا النظام وحسن فى نظره، لما يكون قد استقر فى خلده من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية، فإنه لن يلجأ فى مقاومته لتجنيد، وهو الضرورة التى ساقها واجب الدفاع عن الوطن، إلى تشويه نفسه ذلك التشويه الذى لم يجرؤ على ارتكابه إلا بدافع من الطيش والجهل والعناد. وعندئذ لا ترى الحكومة أن هناك ما يدعوها إلى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشريرة والنزعات الباطلة التى ليس من ورائها إلا الضرر المحقق لأصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية لتجنيد إلا وهى طريقة الاقتراع التى لم توفق للعمل بها.

ولا ريب فى أن الأمة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقة فوائد جليلة. أما الأمة، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العسكرية عليها توزيعا أساسه المساواة والعدل، وقوامه رعاية الرفق والإنسانية. وهو ما يبث فى نفسها الإقدام شيئا فشيئا بمحض إرادتها على الانتظام فى السلك العسكرى، فلا يعتمد وقتئذ على وسائل الشدة والإكراه فى التجنيد. وأما الحكومة فبما تربحه من مزايا تنظيم جنديتها شأن كل حكومة رشيدة. وأهم هذه المزايا: الوحدة والبقاء والقوة.

الباب التاسع

الزراعة والصناعة والتجـــــارة

(١)
الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر

١- الزراعة صفة خاصة بمصر وميزة لاصقة بها إلى حد يتسع معه مجال القول بأن الطبيعة ، إذا حـرمتها العناصر الأولية اللازمة للصنـاعة لتوزيعها على كل قطر ما يميزه من الصفات عن سائر الأقطار، أرادت أن تجعل الزراعة عملها الذى ينبغى أن لاتتعداه إلى غيره من الأعمال.

ولقـد رأينـا فيما تقـدم مـاهيـة تـركيب أراضـى القطـر المصرى وأنـواع حاصـلاته. وسنـذكر بعض الشىء الآن عن الظـروف الخاصة التى تـوجد الزراعة المصرية فيها الآن والأساليب المتبعـة من الفلاحين للقيام بواجباتها. ونفيض فى بيان التفاصيل المتعلقة بالحاصلات الزراعية.

غير أننى أرى قبل ذلك، أن أطـرح على أنظـار القراء الجدول الآتى ببيـان الأراضـى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة فعلا بالقطر المصرى.

٢- جدول الأراضي القابلة للزراعة والمزروعة

الوجه البحرى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
الغربية	٤٥٠٠٠٠	٤٠٩٠٠	١٥٥٥٠٠٠ فدان أراضي الأبعاديات يوجد منها قسم مزروع تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠ فدان يضم إلى مساحة الأراضي المزروعة يخصم من مساحة الأراضي غير القابلة للزراعة هكذا الأراضي غير قابلة للزراعة
منوف	٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	
الشرقية	٣٦٠٠٠٠	٥٣٠٠٠	
المنصورة	٣٢٠٠٠٠	١٥٢٠٠	
البحيرة	٢٤٥٠٠٠	٢٢٠٠٠	
قليوب	٠٢٩٠٠٠٠	٨٠٠٠	
الجيزة	٢٤٥٠٠	٦٤٠٠	١٥٨١٠٠٠ ٣٠٠٠٠
الأراضي المزروعة	٢٢١٩٠٠٠		أرض غير قابلة للزراعة ١٥٥١٠٠٠
الأراضي «القابلة للزراعة»	٣٨٠٠٠٠٠		«مزروعة ٢٢٤٩٠٠٠
«غير»	١٥٨١٠٠٠		المجموع ٣٨٠٠٠٠٠

مصر الوسطى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
المنيا	١٥٢٨٠٠	٥٠٩٠٠	٦٦٧٢٠٠ فدان أراضي
بني مزار	١٤٨٢٠٠	٤٩١٠٠	الأبعاديات منها
الفشن	١٦١٠٠٠	٣٩٢٠٠	٢٥٠٠٠ مزروعة الآن
بني سويف	١٣٩٤٠٠	٣١٠٠٠	تخصم كما تقدم
الفيوم	١٢٤٠٠٠	٤٩٧٠٠٠	
			٨٦٨٦٠٠
			٢٥٠٠٠
الأراضي المزروعة	٧٢٥٤٠٠		أرض غير قابلة للزراعة ٨٤٣٦٠٠
الأراضي القابلة للزراعة	١٥٩٤٠٠٠		أرض مزروعة ٧٥٠٤٠٠
الأراضي غير القابلة	٨٦٨٦٠٠		المجموع ١٥٩٤٠٠٠

الوجه القبلى

المديريات	الأراضى المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضى الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطيان
إسنا	٤٧٣٣٧	٢٦٦٥٤	٢٩٧٢٤٠ فدانا أراضى
قنا	١٠٢٣٩٠	٥٤٢٣٢	الأبعاديات ومن هذا
فرشوط	٩٨٨٢٢٨	٣٧٦٦٦	المقدار يمكن حساب
جرجا	١٠١٢١٧	٤٩١٩٢	١٠٠٠٠ فدان أصبحت
سوهاج	١٣٤١٦٩	٢٧٣٦٦	قابلة للزراعة الآن هكذا
أسيوط	١٦٣٥٥٤	٣٠٠٣٠	٧٧٣١٧٤
منفلوط	٩٨٩٦٤	٢٦٧٥٤	١٠٠٠٠
ملوى	١٠٠٣٦٧	٢٤٣٠٦	أرض غير قابلة
أراضى مزروعة	٨٤٦٨٢٦		للزراعة ٧٦٣١٧٤
			أرض مزروعة ٨٥٦٢٨٦
أراضى قابلة للزراعة	١٦٢٠٠٠٠		المجموع ١٦٢٠٠٠٠
أرض غير قابلة	٧٧٣١٧٤		

مراجعة عامة

المديريات	الأراضى المزروعة	أراضى غير قابلة للزراعة	المجاميع	
الوجه البحرى	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠	مجموع مساحة أراضى القطر المصرى ٧٠١٤٠٠٠ فدان
الوجه القبلى	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠	
مصر الوسطى	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠	
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠	

الــرى

الرى بالترع - الرى بالآبار- السواقى- الشواديف

٣- من الحقائق الثابتة أن سكـان القطر المصرى وجهوا عنايتهم فى جميع الأزمان والأدوار إلى الانتفاع ، بقدر الإمكـان، بما يحمله النيل إليهم سنويا من عناصر الخير والثروة. فكان إنشاء الترع وتعهـدهم إياها بالترميم والإصلاح ممـا استجمعـوا فى سبيلـه جهودهم وصرفـوا نحـوه عنـايتهم. ومعلـوم أن خصوبة أرض مصر سببهـا فيضان النيل، فلابدع إذا كانت مسألـة جر مياه هذا النهر لتغمر أوسع مساحة مستطاعة من الأرض، من أمهات المسائل التى شغلت خـواطرهم منـذ قديم الـزمان وارتبطت بحـالها حالـة مصر من يسر ورخاء أو ضيق وشقاء.

ولاتزال الحال اليوم كما كانت عليـه فى ذلك العهد. فإن ثروة مصر تتوقف على تـدبير ميـاه النيل، كما أن لأساليب الـرى الآن نفس مـاكـان لها فى تلك العصور الغابرة. والترع بالوجـه القبلى تشبه فروع الشجرة التى تتفرع عن أصلهـا الثـابت، إذ تتجـه نحـو سلسلتى الجبـال الحافتين بـوادى النيل من جانبيه، حتى إذا بلغت إلى سفوحهما استطـالت بالتوازى للصحراء وحصرت الأراضى الزراعية بين خطوطها المخصبة.

وقبل الفيضان تقام السـدود عند مآخذ ترع الـرى المتفرعة من النيل على ضفتيه، فإذا بدأ النيل بالارتفاع والنمـو تقطع تلك السدود فتجرى المياه فيها إلى أن تلتقى بسد آخر تقف عندهـا فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هذا الجزء المحصور بين السدين.

وكلما كان الفيضان عظيما ارتفعت المياه دون السدود المشار إليها واتسع نطاق الأراضى المغمورة بالمياه.

وبعد أن تغمر هـذه الأراضى وتروى ريا جيدا، تفتح السـدود التى كانت المياه قد وقفت عندها فتنسكب فى القسم التالى لها وتملأه إلى أن تقف عند سد جديد فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هذا القسم من الترعة المنحصر بين السدين، فإذا تم رى الأرض ريا جيـدا وعمت المياه الأراضى البعيدة قطع السد الثالث، وحـدث فيما يليه ماحدث فى الذى قبله وهكذا بقـدر ماتسمح به

حالة الفيضان ارتفاعا وانخفاضا.

ومآخذ المياه من النهر تتعدد على مسافات متفاوتة من شاطئه بترع خاصة يقصد بها زيادة إيراد المياه لتعويض الذاهب منه ضياعا بتفرعه وانبثاثه فى الجهات المتطرفة من الترع وتوزعه على المسطحات الواسعة من الأراضى بالقنوات التى تشتق منها فى أطرافها.

وبذا يمكن تمثيل وادى النيل أثناء انتشار الفيضان من ضفتيه إلى سفوح الجبال الحافة به من جانبيه بمناطق تذهب صاعدة كالدرج وتنغمر بالمياه الغزيرة.

ولاستمرار الماء فوق الأراضى ومنعه من الانحسار عنها والعودة الى مجرى النهر أقيمت على ضفتيه جسور اتخذها الناس طريقا للمواصلات مدة الفيضان، بين الأماكن والنواحى المتنائية، حتى أن المياه المحجوزة كثيرا ما تبقى أثناءه مرتفعة فوق مستوى سطح النهر. ومن ثم كان تعهد الجسور الأصلية الواصلة من قرية إلى أخرى أمرا من الأهمية بمكان مكين. وكذا السدود التى يتم بها فيضان المياه من الترع ذلك الفيضان التدريجى، فإنها جديرة بدوام التعهد والعناية، إذ لابد فى قطعها من أعمال الروية دفعا لما يمكن أن يصيب القرى البعيدة بسببها من الضرر.

يؤخذ مما تقدم أن مياه النيل تشبه الكنز. الثمين تقبض الإدارة على مفتاحه وتهيمن على وسائل تدبيره بتوحيد الاجرياء = الإجراءات = اللازمة لذلك وبقوة ما بيدها من الوسائل. فإذا كانت الإدارة حكيمة مدبرة حاذقة مهيبة الجانب فقد سهل عليها التحكم فى العناصر النافعة التى يسوقها النيل فى جريانه تحكما يمهد توزيعها على الأراضى المراد إرواؤها بالعدل والنزاهة. أما إذا كانت جاهلة غاشمة ضعيفة متوانيةفإنها تترك ذلك الكنز الثمين يفلت من يدها وتعرض ثروة البلاد وحياتها إلى خطر مدلهم وخطب جلل.

٤- الرى بالآبار

رأينا هذا المصنف أن فيضان النيل لم يكن العامل الوحيد لخصوبة الأرض فى مصر. إذ لو كان كذلك لكان هذا القطر أخصب بلاد الدنيا فى أحد فصول السنة وأقحلها وأمحلها فى الفصول الباقية . وقد ذكرنا أن ارتشاح المياه خلال الطبقات الرملية التى هى فى مصر قاعدة الأراضى الصالحة

للزراعة، كان من أقوى عوامل نجاح الزراعة المصرية لقيامه بتغذية النباتات أثناء السنة كلها. ولنذكر الآن كيف استفادت الأراضى الزراعية فى مصر منذ قديم الزمان بارتشاح المياه.

لما رأى الأقدمون أن المياه العليا من النيل تنحط فى القيعان وتهوى إلى المنخفضات، ابتكروا فكرة الآبار المعروفة بالسواقى أو النواعير ليتمكنوا بواسطتها من رفعها إلى سطح الأرض ورى المزروعات بها. وهذه الآلة الرافعة عبارة عن دولاب يدور حوله حبل ربطت فيه قدور من الفخار تسمى بالقواديس. ويحرك هذا الدولاب عجلة مسننة تدور حول محور تحركه ماشية من الجواميس أو الثيران.

والسواقى آلات بسيطة يصنعها الفلاحون أنفسهم ويركبونها فى مواضعها ولقد جربت طرق عديدة لرفع الماء آلاتها كثيرة الالتباك والتعقيد، فلم تفلح التجارب بسبب ما تقتضيه من العناية التامة ودوام التعهد، بالترميم والإصلاح على أيدى صناع حاذقين. وما من مرة أجريت تجربة من هذا القبيل إلا وانجلت عن ضرورة الرجوع إلى طريقة الرى بالسواقى والتعويل عليها، لاسيما وأنها منتشرة فى طول البلاد وعرضها، حتى أن عددها فى الوجهين البحرى والقبلى الآن يربو على خمسين ألف ساقية.وأكثر ما تفيد السواقى المزارعين فى الأماكن البعيدة عن النيل، لرى الأراضى التى لايفيدها الرى بالفيضان. والحدائق المنتشرة فى ضواحى المدن لاتروى غالبا إلا بمياه السواقى.

وتستعمل للرى أيضا آلة أخرى غير السواقى ترى على ضفاف النيل وشواطىء الترع، خصوصا فى الستة أشهر السابقة على الفيضان، وهى أبسط من السواقى. وفد وصفها الرحالون فى رحلاتهم، واسمها «الشادوف» ويتألف الشادوف من رافعة معلقة فى نقطة تقع فى الثلث الأول من طولها بعارضة أفقية ترتكز على دعامتين رأسيتين قائمتين على جسر النيل أو الترعة المراد رفع الماء منها لرى الأرض.

وفى طرف الجزء القصير من جزئى الرافعة ثقل من الطين الجاف. وفى الطرف المقابل له – أى طرف الجزء الطويل من الرافعة عقدة مرنة يهبط منها قضيب إذا تحركت الرافعة احتفظ باتجاهه الرأسى. وبأسفل هذا القضيب

دلو من الجلد أو غيره يملأه العامل الواقف على أرض بارزة من الجسر، وذلك بأن يغرز طرف القضيب فى الماء حتى إذا امتلأ الدلو رفعه بواسطته إلى أن يوازى صدره، فيسكب ما فيه فى رأس جدول صغير. وتكرر هذه العملية فيندفع الماء ذاهبا فى القناة ألى الأرض المراد ريها أو إلى حفرة أخرى، ليلتقطه رجل ثان فيرفعه بتلك الوسيلة عينها إلى رأس جدول آخر. وربما كان هناك، فيما عدا هذين الرجلين، رجال آخرون يفعلون فعله إذا كانت الأرض المراد ريها عظيمة الارتفاع. ومتوسط الارتفاع الذى يبلغ إليه الماء بواسطة كل شادوف ثلاثة أمتار تقريبا. وقد وضع أولئك الرجال على منحدر ضفة واحدة بحيث تكون حركة الماء فى ارتفاعها ووصولها إلى سطح الأرض على شكل الدرجات التى يتلو بعضها بعضا.

ولقد قام بعض علماء الحملة الفرنسية بتجارب عديدة على هذه الآلات الرافعة. فتبين لهم منها أن العامل المصرى يستطيع أن يرفع بالشادوف ما متوسطه ٥٠ لترا من الماء فى الدقيقة الواحدة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا. وهذا فوق طاقة القوة العادية للرجل الواحد. على الكيفية التى تقدر بها هذه القوة فى أوربا. وظهر أيضا أن متوسط ماترفعه الساقية الواحدة من الماء يعادل خمسة أمثال مايرفعه الشادوف.

والشادوف فى الوجه القبلى حيث شواطىء النيل أكثر ارتفاعا منها فى الوجه البحرى، عظيم الانتشار. وقد يضعون خمسة شواديف أو ستة بالتتابع على درجات متفاوتة الارتفاع لإيصال الماء إلى الأراضى المطلوب ريها. ولما كانت مآخذ ترع الرى من النيل بالوجه القبلى قليلة العمق، فإنها تبقى جافة أثناء الشطر الأكبر من السنة. ولكنهم يعالجون هذا النقص بالصناعة والحيلة. إذ يضعون العدد العظيم من الشواديف على خط واحد بعضها لصق بعض. لإيصال الماء إلى تلك الترع. وكثيرا مايقضى الرجال الموكلون بتلك الشواديف النهار والليل أحيانا، لرفع الماء من النهر و كثيرا ما أدهش جميع السياح الذين ساروا فى النيل أثناء التحاريق، منظر تلك الشواديف متراصة على ضفتى النهر يحركها باستمرار رجال مجردون تقريبا من ثيابهم، وهم ينظمون حركة عملهم للتوفيق بينها فى حالتى الخفض لأخذ الماء والرفع لسكبه بالأناشيد والأغانى المقفاة.

والأراضى التى تغمرهـا مياه الفيضـان تغطى محصولا واحـدا. أما التى يمكن ريها على مـدار السنـة فتعطى فى السنـة ثـلاثـة محاصيل وفى بعض الاحيان أربعة.

(٣)

آلات الحراثة والأساليب الزراعية

المحراث – الكرك– الحصاد– النـورج– تعاقب الزراعات فى الأرض– تمسك الفلاحين بالأساليب القديمة– العزبة المتخذة نموذجا

٥– لاتستـدعى أعمال الزراعـة فى مصر كبير عنـاء، إذ إنها من السهولـة بحيث لايحتاج فى القيام بها إلا إلى آلات فى الغاية القصوى من البساطة. ولعل هذا هو السبب الذى لأجله حفظت الآلات الزراعية شكلها المصرى منذ سكان مصر الأولين وهو الأمر الذى تؤيده النقوش الموجودة فى الآثار القديمة.

المحراث

والمحـراث المصرى عبـارة عن قطعتين من الخشب تلتقيـان ببعضهما من الطرفين بحيث تكـونان زاوية يتغير انفراجها بـأداة مثبتة فى القطعة السفلى، مارة فى ثقب بـالقطعة العليـا. وهذه الأداة ذات ثقوب عـديدة تمر فيهـا قطعة خشب تجعل فتحة الـزاوية ثابتـة. وانفراج هذه الـزاوية كثرة أو قلـة يكون بحسب ما إذا أريد جعل الحرث عميقا أو غير عميق.

أمـا القطعة الكبرى من القطعتين اللتين يتألـف المحراث منهما فتنـزل من المحراث بمنـزلة العريش من العجلـة. وفى طرفها عـارضة خشب هى النير = الناف = الذى يعلق به الثـوران أو غيرهما من الماشية المستخدمة فى الحرث. ويوضـع هـذا النير على عنقى الثورين أو غيرهما ويثبت فى مكـانه من العنقين بحبال من الليف.. أمـا القطعة السفلى فيجتمع فيها بشكل عـاشق ومعشوق قطعتان من الخشب تسهـلان على الحارث توجيـه المحراث نحـو الجهة التى يرومها أو غرز سلاحه فى الأرض بالقدر الذى يريده.

وبعد حـرث الأرض يسوى سطحهـا ويمهد بقطعـة من جذع نخلـة تلقى عليها يسحبها ثـور أو ثوران باتجاه عرضها. وقـد يكون الجذع خفيفا. ففى

هذه الحالة يقف فوقه الرجل الذى يسوق الثور ليزيده ثقلا. ولكى تصرف المياه من الأرض التى تروى ريا صناعيا تستعمل أداة تسمى «الزحافة» وهى عبارة عن لوح من الخشب فى طول متر بأحد طرفيه مقبض وبالآخر حبل ، فيمسك رجل أو رجلان بهذا الحبل بينما يحرك اللوح من المقبض رجل آخر.

وبعد بذر البذور لايعود الزارع إلى الغيط إلا لتنقيته من الحشائش أو ريه أو مباشرة الحصد. وتقطع سوق النباتات بالمنجل إذا لم يكن المراد انتزاعها بجذورها. وبعد الحصاد تجمع النباتات المحصودة حزما كبيرة ثم تلقى فى مكان خاص من الغيط الذى حصد محصوله أو فى مكان آخر قريب منه . لأنه بالنظر إلى قلة هطول الأمطار وسقوط الجليد فى مصر، لا يحتاج المصريون فى الاحتفاظ بحاصلاتهم الى الحظائر المسقفة. بل يدعونها معرضة فى الغيط للهواء والشمس. وفى جهات الصعيد الأعلى تدرس الحبوب بالمواشى بعد نشرها على البيدر أى الجرن. أما فى الجهات الأخرى فتتم هذه العملية بالآلة المعروفة بالنورج. والنورج عبارة عن إطار أفقى يتألف من أربعة قطع كبيرة من الخشب متعاشقة بعضها ببعض. وقد ثبت فى جانبى قطعتين منهما عمودان أو أكثر من الخشب، فى كل عمود منهما ثلاث صفائح من الحديد الذى سمكه ملليمتران تقريبا مستديرة الشكل، ونصف قطر كل منها أربعون سنتيا. وهذه الأعمدة بصفائحها المستديرة تتحرك كالعجل بحيث تكون فى وضعها على شكل تتقابل فيه صفائح كل عمود مع وسط المسافات الواقعة بين صفائح العمود التالى له. قد ركب فوق الإطار كرسى غليظ الصناعة يجلس عليه سائق الثورين. وفى العارضة الداخلية من الإطار المربع حلقة يربط فيها عريش من الخشب يعلق بطرفها نير يوضع على عنقى الماشيتين المعلقتين بالنورج. فإذا فرشت حزم الحبوب المحصودة المراد درسها بتلك الآلة على شكل دائرة يختلف نصف قطرها من ثمانية أمتار إلى ثمانية عشر مترا ، ومر النورج فوقها مرا دائريا، داست الثيران والمواشى الحزم المفروشة بأرجلها. فيخرج الحب من سنابله بينما تقطع الصفائح المدورة السوق الجافة فيتكون منها التبن.

هذا والأراضى التى يخصبها الطمى الراسب من ماء النيل تنبت باستمرار. والفلاحون لايتركونها لترتاح، بل يتابعون حرثها وزرعها. وغاية

الأمر أنهم يراعون التناوب فى زراعتهم.

والفلاحون كغيرهم من الشعوب الجاهلة متمسكـون بالأساليب الزراعية التى ورثـوها عن آبـائهم وأجدادهم. ولعل ذلك هـو لأن الأعمال الزراعيـة لا تستـدعى فى مصر إلا اليسير من المشقة إذ يظهـر ان الطبيعـة فى هذا القطـر تتولى العمل الـزراعى بنفسها، بحيث لايحتـاج هذا العمل من الإنسـان شيئا سوى القيام على الرى وتعهـد شئونه. فالفلاحون المصريـون لايحتاجون فى الحصول على مـايطمعون فيـه من وفرة الحاصـلات الزراعيـة إلى الأسـاليب الراقية التى استكشفها العلم الحديث. غير أنه لما كان تأثير العلم طيبا ومفيدا فى كل مكان وزمـان، فمن المحقق أنه سيأتى بأحســن الثمار وأجل النتائج فى مصر. وهو ماأدرك سمـو الوالى حقيقته، ولأجله أرسل فـريقا من الشبان الى أوربا للوقوف على ماوصل إليه علم الزراعة من التقدم عندنا.

ولقـد تلقى لفيف من المصريين هـذا العلم بمـدرسـة (روفيل) تحت إدارة العلامـة (ماتيو دى دمبال) وأنشأ محمـد على بالقرب من شبرى عـزبة على المثال الحديث لتكون نموذجا لما ينشأ من العزب فى المستقبل، فجاءت ببعض الفوائد. ومحقق أن بالإمكان الاستفـادة من هذا العمل، متى أتيح لسمو الوالى التفرغ التـام لتوسيع نطـاق الموارد السلمية فى مصر التى مـازال مضطرا إلى تعزيز قوتها الحربية بحكم الظروف والمؤثرات السياسية.

(٤)
الزراعات الكبرى فى مصر

مـواسم الـزراعـة : الزراعـة الشتـويـة- القمح- الشعير- الفـول- العدس- الترمس والحلبـة- الزعفران والبرسيم - الـزراعة القيضية- القطن- النيلة ـــ الزراعة الصيفية: الـذرة - الأرز- الكتان- دود القز- جدول الحاصلات المصرية.

٦- مواسم الزراعة

يقسم فيضـان النيل السنـة إلى ثلاثة أدوار زراعية. ولعل هـذا هو السبب الذى دعا قدماء المصريين إلى تأليف السنة المدنية من ثلاثة فصول فقط . كل فصل مـائة وعشرون يومـا. ففى ارتفـاع الميـاه فى النهر إلى أعلى مقيـاس لها

وانتشارها على الأراضى الزراعية بعد قطع السدود، كانوا يباشرون زراعة الإصناف التى لاتحتاج للرى إلى أن تبلغ تمام النضج وتصلح للحصد، وتعرف أصناف هذه الزراعة باسم الفياضى. أما الزراعات التى تزرع فى الفصل نفسه فى أرض لم يسبق غمرها بماء الفيضان أو لم تحتفظ بهذا الماء على سطحها زمنا طويلا، فلابد فى ريها من الاستعانة بالوسائل الصناعية. وتلك الزراعات تسمى لهذا السبب بالزراعات الشتوية . وكل من هذين الصنفين من الزراعات أى الفياضى والشتوى تتبعهما الزراعتان المعروفتان بالصيفى والفيضى. وهاتان الزراعتان تقابلان الزمن الذى يكون النيل أثناءه فى التحاريق، وتقتضيان لهذا السبب الرى الصناعى.

ومتى بدأ ارتفاع النيل تبتدىء الزراعتان الآتيتان وهما:

الزراعة الدميرى، وهى التى تحصل فى الأراضى الواطئة والزراعة النبارى وهى التى تحصل فى الأراضى العالية التى يحتاج ريها إلى رفع الماء بالوسائل الصناعية.

٧- الزراعة الشتوى : القمح

تزرع الحبوب عادة فى الأراضى التى غمرت بماء الفيضان إذ تبذر بذورها عقب انحسار المياه عنها. والعادة أن يتم بذر القمح بالوجه القبلى قبيل شهر نوفمبر، وبالوجه البحرى قبيل بداية ديسمبر. وتبلغ البذور اللازمة للفدان الواحد ثلث الأردب المصرى بعد انكشاف الأرض ببضعة أيام.. ولا يعنى بتنقية البذور من الأجسام الغريبة التى تحتويها، ويحصل الحصد قبيل أوائل مارس بالوجه القبلى وفى أبريل بالوجه البحرى. ولقد ذكرنا فى الفصل المخصص للنباتات مقدار محصول مصر من القمح فلا حاجة هنا إلى التكرار. ويزرع القمح أيضا أثناء فصل الربيع فى الأراضى التى سبق زرعها بالبرسيم الحجازى، وتروى الحقول المزروعة به وصنفه أحسن بكثير من القمح القياضى ولكن زراعته تستدعى نفقات أكثر من زراعة الأصناف الأخرى.

٨- الشعير

بعد حرث الأرض حرثا خفيفا يبذر الفدان الواحد منها بثلاث كيلات إلى أربع من الشعير. ويتم الحصد بعد البذر بمدةتختلف من أربعة أشهر إلى خمسة.

٩- الفول

يبذر الفول فى الميعاد السابق تقريبا على الطمى الذى يتركه النيل ويغرز فى الأرض بالـزحافة وتبقى زراعـة الفول فى الأرض نحو أربعـة أشهر ونصف. ويبلغ مايلزم للفدان الواحد من البذور من خمس كيلات إلى ست.

١٠ - العدس

يبدأ بذره فى نوفمبر من غير أن يعنى بالأرض المخصصة له، ولا أن تجهز تجهيزا خاصا لزراعته. ويكفى الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات إلى ثلاث ونصف. ويتم الحصاد بعد ذلك بثلاثة أشهر أو أربعة.

١١- الحمص

يبذر له فى نوفمبر بالأراضى التى لا تحرث إلا لتغطية هذه البذور بالتراب. ويبلغ مايكفى الفدان من البذور من ثلاث كيلات ونصف إلى أربع كيلات.

١٢- الترمس والحلبة

يبـذر لهما فى الأراضى الضعيفـة وطـريقـة زراعتهما كطـريقـة زراعـة الحبوب التى سبق الكلام عليها.

١٣- الزعفران

يبذر لـه فى الآن نفسه بلا تكلف عناء لإعـداد أرضه، وغاية مـا هنالك أن البذور تغطى بالتراب بـواسطة الكرك. يلزم لزراعة الفـدان من كيلة إلى كيلة ونصف من البذور. ويحصد الـزعفران فى مارس، وبعد حصـده يجعل حزما ويحمل إلى الأمكنة التى ينزع فيها من بـذوره فيترك بها من خمسة عشر يوما إلى عشرين حتى إذا جف تماما ضرب بالعصى لفصل البذور منه.

١٤- البرسيم الحجازى

البرسيم الحجـازى من الـزراعـات العظيمـة الأهميـة للفصل الـذى يلى انصراف المياه. لأنـه المحصول الـذى يعتمد عليـه فى تغذيـة مواشـى القطر المصرى.

١٥- الزراعة القيضى : القطن

زراعة القطن حديثة فى مصر وقد أشار بها على سمو الوالى فى سنة ١٨٢١ فرنسى يدعى المسيو (جومل)، إذ أوقفه على مزايا هذه الزراعة وبين له مقدار فوائدهـا وما يستثمـر من ربحها. وكـان القطن الذى تنتجـه مصر حتى ذلك

الوقت من الصنف الردىء، بخلاف الصنف التى اقترح المسيو (جومل) إدخال زراعته فإن أصله من الهند، وكان يزرع فى بعض حدائق القاهرة كنبات من نباتات الزينة. فلما وقف المسيو (جومل) عليه وسع نطاق زراعته وعنى بها فبقى اسمه مرتبطا بهذا المحصول الذى صار أهم الحاصلات الزراعية التى يعتمد عليها سمو الوالى.

وأرض مصر من أوفق الأراضى وأصلحها لزراعة هذا القطن. نعم إنهم يبذرونه فى جميع الأراضى على حد سواء، ولكن أصلح الأراضى له الأرض الكثيفة القوية الحافظة للرطوبة التى تستطيع شجيرات القطن أن تستمد من عناصرها العصير المغذى وأثمار اللوزات ومما يساعد نموه مجاورة الأراضى التى تزرع به للنيل حيث يتوافر الرى بالراحة وبأقل مايمكن من النفقات.

ومما ينبغى رعايته فى زراعة القطن أن تكون الأراضى التى تزرع به بعيدة عن مظان فيضان النهر، لأن، بقاء الماء بجوار الشجيرات يميتها حتما والفلاحون شديدو الاهتمام بحماية الأراضى المعرضة للفيضان ، أثناء ارتفاع مياه النيل، بالجسور القوية من الطين. وشجيرات القطن تروى فى مواعيد دورية بالسواقى والشواديف. وفى فصل الشتاء تروى كل خمسة عشر يوما مرة . أما فى الخريف فتروى كل اثنى عشر يوما إذا كان الندى كثيرا وكل ثمانية أيام إذا كان الزمن صيفا.

ويبذرا لقطن فى شهرى مارس وأبريل بالوجه البحرى. ويعنى قبل البذر بحرث الأرض مرة واحدة إذا كانت الأرض قوية. أما إذا كانت ضعيفة فيكرر الحرث مرتين أو أكثر، وفى الصعيد يبلغ إيغال المحراث فى الأرض ستة وثلاثين سنتيا وبعد الحرث على هذا المثال ترسم الخطوط متوازية على مسافة متر بعضها من بعض. ويكثر القلقيل عقب ذلك وتمهد الأرض، وتفتح جور قطر كل جورة من ثلاث بوصات إلى أربع وعمقها كذلك ويوضع فى كل جورة من بذرتين إلى أربع من بذور القطن التى يعنى بوضعها فى الماء قبل ذلك بنحو أربع وعشرين ساعة لتعجيل انباتها. وتجعل المسافات بين سوق شجيرات القطن نحو المتر تقريبا وعادة الفلاحين فى المزارع القريبة من المدن ان يبذروا مع القطن بذور الخضر والبقول للاستفادة بالأرض كلها. وفى زمن الفيضان تنقى الزراعة القطنية من الحشائش الطفيلية التى تنمو حول الشجيرات.

وفى السنة الثانية لاتعزق الأرض إلا للتنقية مرة أخرى وشجيرة القطن التى يبلغ ارتفاعها فى السنة الأولى من متر إلى متر ونصف يزداد نموها فى السنة الثانية. ولكن هذه الزيادة أضعف منها فى السنة الأولى.

ومنذ السنة الأولى تقلم شجيرات القطن بأداة مخصصة لهذا الغرض أسمها المشذب. وتنزع جميع فروعها لاتخاذها وقودا وهذه العملية تعطى الشجيرات قوة جديدة وتقيها ضرر البرد الذى يسطو عادة على الفروع فيهلكها.

ويبتدىء جنى القطن عن السنة الأولى فى شهر يوليو وينتهى فى يناير إذا لم يكن البرد شديدا.

ومحصول الشجيرة الواحدة رطل وربع من القطن الخام عن السنة الاولى ومن رطل وربع إلى رطلين عن السنة الثانية، ومثل هذا القدر عن السنة الثالثة. ولكن الشجيرات تفقد فى السنوات التالية هذه الخاصية ، ولذا كان من الأوفق تجديد زراعتها كل ثلاثة أعوام . وبالرغم مما تقدم فإن شجيرات القطن تستمر على الإنتاج زمنا طويلا فقد شوهد منها ما لايزال يثمر اللوزات بعد خمسين سنة، ومفهوم أن شجيرات القطن تنموا نموا عظيما فى آخر السنة الثالثة وتتكاثف أغصانها وتزداد أوراقها.

وفى استطاعة رجل واحد أن يزرع أربعة فدادين من الأرض. بحيث يحتوى هذا المسطح أربعة آلاف غرس من شجيرات القطن. أما فى موسم الحصاد فيستطيع العامل الواحد أن يجمع فى اليوم خمسة عشر رطلا من القطن الى ثمانية عشر، وكيفية حلج الأقطان أنهم يأتون بآلة مؤلفة من اسطوانتين موضوعتين أحداهما فوق الأخرى ومثبتتين فى قائمتين وطول قطر كل منهما تسع بوصات. فإذا تحركت هاتان الاسطوانتان بعجلة يديرها رجل بقدمه ووضع القطن بينهما، مر شعر القطن ووقفت البذور بدون أن تمر وسقطت فى مكان معدلها. وفى استطاعة العامل الواحد أن يحلج فى اليوم اثنى عشر رطلا إلى خمسة عشر.

ويقتصر الفلاحون فى تعبئة القطن على كبسه بالأقدام، كلما وضعوا جانبا منه فى الأكياس. ولكن سمو الوالى استحضر من انجلترا مكابس من النوع المستعمل لهذا الغرض فى أمريكا، وأمر بصنع آلات أخرى عل مثالها. وحجم

البالة على الطريقة المتبعة عند الفلاحين فى تعبئتها متر ونصف ارتفاعا فى متر واحد عرضا. أما حجمها إذا كبست بالآلة الأمريكية، فمتر واحد ارتفاعا ونصف متر عرضا.

١٦- النيلة

زراعة النيلة فى مصر أهم الزراعات وأوسعها نطاقا. وهذا النبات أصله من الخارج وقد نجح نجاحا باهرا حتى شاعت زراعته فى القطر المصرى ولاسيما فى الصعيد والفيوم. والعادة فى زراعته أن يبذر له عقب الفيضان فى الأرض السميكة الرملية التى يسهل ريها بمجاورتها للنيل أو الترع المتفرعة منه. وقبل البذر تحرث الأرض مرة واحدة ثم يقسم بينها مربعات صغيرة تخترقها قنوات متقاربة يضعون فيها البذور. وتروى الشجيرات مرة كل ثمانية أيام أو عشرة فإذا بدأت النباتات بالإزهار شرع باقتطاف الأوراق للمرة الأولى. فإذا تم نضجها وبلغت الغاية من نموها حصدت والبذور فى آن واحد.

١٧- الزراعة الصيفية : الذرة

الذرة البلدية أساس غذاء الفلاحين الذين يفضلونها على القمح. وهم يبذرون لها فى آخر مارس بالغيطان والحقول التى كانت مزروعة قبلا بالبرسيم الحجازى. والعادة إحراق الحشائش الطفيلية التى تكون الأرض المراد زرعها ذرة مغطاة بها. وبعد هذه العملية التى تزيد فى خصوبة الأرض تحرث مرة واحدة ثم تحفر فيها جورات بالفأس يودع فى كل جورة من ثلاث حبات إلى أربع وتغطى بالتراب وتقسم الأرض بعد ذلك إلى مربعات طول أضلاعها من أربع أقدام إلى خمس، تحيط بها حواجز يسيل الماء حولها، ثم يرسل إلى خطوط تعمل بواسطة الفأس. وبعد رى كل مربع رياً كافيا يطلق الماء فى المربع الذى يليه وهكذا بالتعاقب، وفى الغالب يستغنون عن الرى، ولكن المحصول يكون فى هذه الحالة رديئا وقليلا.

وتحصد الذرة خلال يوليو . وطريقة حصدها أن تقطع السوق من فوق الجذور بالمنجل أو الفأس. وفى فصل الخريف يزرع نوع من الذرة يسمى بالذرة البيضاء أو الذرة التى يسميها المصريون بالشامية. فتزرع مرتين فى

السنة. مرة فى الخريف وأخرى فى الصيف. ويبلغ مايلزم من البذور لزراعة الفدان الواحد نحو ربع أردب ويختلف المحصول من أربعة أرادب إلى عشرة ولكن الذرة الشامية يختلف محصولها للفدان الواحد من عشرة أرادب إلى أربعة عشر أردبا.

١٨- الأرز

لزراعة الأرز، وهى من أعظم الزراعات فى الوجه البحرى أسلوب خاص وطريقة تغاير طرق المزروعات الأخرى. ولقد سبق لنا القول بأن مزارع الأرز شائعة فى الوجه البحرى ، ولاسيما فى ضواحى دمياط ورشيد.

وقبل وضع بذور الأرز فى الأرض، توضع فى قفف تغمر با لماء من عشرة أيام إلى خمسة عشر يوما، حتى إذا لانت البذور نشرت على الحصير، ثم جعلت أكواما طول كل كومة ثلاثون قدما فى عرض أربع أقدام وارتفاع قدم واحد، وغطيت بالبرسيم أو التبن وبقيت كذلك إلى أن تنبتها الحرارة. وهو مايحدث عادة بعد يومين أو ثلاثة أيام من بقائها فى هذه الحالة. وتبذر بعد ذلك فى أرض تكون قد غمرت من قبل ببضعة أيام وحرثت حرثا متقاطعا وتركت أياما لترتاح، ثم أعيد حرثها وغمرت با لماء ثانيا ومهد سطحها بعد تشربها با لماء بالزحافة أو الكرك. والبذور التى تنثر عليها تنغرز فيها بنفسها بحكم ثقلها، خصوصا وأن الأرض تكون وقتئذ متشبعة بالرطوبة الشديدة. وبعد ثلاثة أيام تطلق المياه مرة أخرى على المربعات التى نثرت عليها البذور وتترك كالسابق ثم تصرف عن الأرض وتروى الأرض على هذه الطريقة الى أن يتم نضج الارز. وإذا بقيت مزارع الأرز من غير ماء، فإن الزراعة تصبح معرضة للخطر.

والعادة أن يبدأ بزرع الأرز فى شهر نوفمبر فإذا تم نضجه قطع با لمناجل وعقد حزما ثم نقل إلى بيدر (جرن) لتستخرج الحبوب منه بأداة شبيهة بالنورج يجرها ثوران بضع ساعات على تلك الحزم، بعد فك رباطها ونشرها على سطح البيدر. وبعد غربلة حبوب الأرز تعرض للشمس لتجف وتجرد من قشورها بضربها فى هاون بمضربين يتحركان بوسيلة آلية خاصة. وبعد تبييض الأرز يعاد ثانيا إلى المضارب ويخلط بكمية من الملح تعادل خمس مقداره.

١٩- التيـــل أو القنب

الأرض الموافقـة لزراعـة التيل هى التى على ضفاف النيل وحفـاف الترع، بشرط أن تكون دائمة الرطوبة. وقبل الشروع فى مباشرة بذرها بالتيل تحضر بالكيفية التى تجهز بها لزراعة قطن جـومل. والعادة البدء بالبذر فى شهرى ينايـر وفبراير، فلا يمضـى أربعة أيـام حتى تنبت البذور فتظل آخذة بـالنمو نحو خمسة عشر يوما، وتنقى عنـدئذ من الحشائش، وتكرر هذه العملية كل ثمانية أيـام. ويلبث نبات التيل فى الأرض من ثـلاثة أشهر إلى ثـلاثة ونصف تقريبـا، ويستدل بلونـه على بلوغه حـد النضج، وبعد حصده يترك معـرضا للهواء عشرين يوما لتجفيفه، ثم يضرب لفصل البذور منه فالألياف التى تنتج عن هذه العمليـة تنقع فى الماء خمسة عشر يوما، فإذا تطـورت بطور معروف عند أهل الفن فصلت بعضـها عن بعض وعرضت للشمس ستة أيام ثم نظفت من الشـوائب المخـالطـة لها وأرسلت بعـد تنظيفهـا مع البـذور الى الشـون والمخازن المعدة لحفظها.

٢٠- الكتـــان

يزرع الكتـان بطريقتين: الأولى لايعنـى فيها بتجهيـز الأرض المخصصة لزراعته سـواء قبل البذر أو بعده، إذ يكتفى ببذر البـذور عقب انصراف المياه والثانية يعنى فيها بحـرث الأرض على الأتجاهين الطولى والعرضى وقسمتها إلى مربعات تبذر باليد، ثم تروى مرة واحدة فقط، ومتى ظهر النبت ونما نثر على الأرض تـراب قلوى ثم رويت أثنـاء نمو السـوق وتركت حتى تبلغ حـد النضج فى مـارس حيث تنتزع السـوق وتنشر لتجفيفهـا، ومتى تم جفافهـا جعلت حزما صغيرة لاستخـراج البذور منها إما بالضغط على أجـزائها العليا أو بنفضها على آنيـة من الفخار. والطـريقة الأولى شائعـة فى الوجـه البحرى والثانية فى الصعيد. وبعد الضرب توضـع المحـافظ المحتوية للبذور فى الرحى لاستخـراج هذه منهـا. وعقب هذه العمليـة يربط التيل حـزما ربطـا شديـدا وتعـرض الحزم للشمس والندى زمنـا ثم توضـع فى الميـاه الراكـدة أو الترع وضعـا رأسيا لعطنهـا وتثقل بالحجـارة حتى لاتطفو على وجـه الماء. وتبقى كذلك خمسة وعشرين يومـا تستخرج فى نهايتها وتطرح تحت أشعة الشمس لتجفيفها. ومتى زال مابها من الرطـوبة توضع على حجر وتضرب بعصى ثم

تنفض نفضا لنزع القشور اللاصقة بها. وتمرر بعد ذلك من بين أعواد متوازية كأسنان المشط لتنقيتها مما يكون متخللا أليافها من القشور.

٢١- دود القز أو دود الحرير

عضد محمد على تربية دود القز فى مصر، وغرس لهذا الغرض أكثر من ثلاثة ملايين شجرة توت، فى الوجه البحرى وحده، وشجر التوت يورق عادة فى ينـاير من كل عام، كما أن نقف دود القز للبيض يوافق شهر مارس أو ماقبله وبين النقف والميعاد الذى تغزل فيه دودة القز شهران تتطور أثناءها بالأطوار المعلومة عند المتفرغين لتربيتها.

ولايصاب الدود فى مصر بالآفات الوبيئة ولاتعرف هذه الآفات فيها. ولكن الحرارة الشديدة والعثير والندى مما يضر به. وهبوب رياح الجنوب المحرقة تجففه وتحرقه حتى يصير كالفحم

والأوقية الواحدة من البيض تعطى ٧٠٠٠ فيلجة.أو شرنقة تزن الواحدة منها من نصف درهم إلى درهم. وفى سنة ١٨٣٣ بلغ محصول الحرير المصرى ٦١٥٠ أقة. أما البيض الذى يبيضه الفراش، فلا يستلزم عناية ما، لأن الذكور منه تزاوج الإناث بنفسها. ويكفى عشرون يوما لتكون الفيالج على أتم ما يراد. أما البذور التى يبيضها فتحفظ شتاء فى أكياس تدلى فى الآبار.

٢٢- حاصلات القطر المصرى

نورد فيما يلى كميات الحاصلات الأصلية للقطر المصرى فى سنة ١٨٣٣ ليقف القارىء على أهميتها التى نذكر أنها مابرحت حتى الآن حافظة لمكانتها:

	هتكولتر
قمح	٢٦٦٨٠٠٠
فول	١٢٨٨٠٠٠
شعير	١١٩٦٠٠٠
ذرة شامى	٢٩٤٤٠٠
ذرة بلدى	١٣٨٠٠٠٠
عدس	١٢٨٨٠٠
حمص	٤٦٠٠٠
ترمس	٣٦٠٠٠
حلبة	١١٠٤٠٠
أرز رشيدى	٥٥٢٠٠
أرز دمياطى	٩٢٠٠٠
بذر كتان	٤٠٤٨٠
بذر خس	١٤٧٢٠
بذر سمسم	٣٣١٢٠
بذر قرطم	٢٧٦٠٠
	كيلو جرام
قطن شجرى	٤٨٩١٧٠٠
قطن حشيشى	٢٠٠١١٥
سكر	٣٨٢٤٤٩
زعفران	٢٦٦٠٠
حناء	١٥٥٥٤٥٠
كتان	٨٠٠٤٦٠
نيله	٩٤٧١٠٠
أفيون	١٨٤٥٠
حرير	٧٩٩٥

(٥)
الصناعة

٢٣- الصناعة المصرية قسمان قسم يشمل الصناعات الكبرى أعنى الصناعات التى أنشأ محمد على لأجلها المصانع الكبرى الكثيرة. والثانى الصناعات الصغرى المحلية والأنوال المختلفة التى يكسب الأهلون أقواتهم من ممارسة العمل بها.

١
الفاوريقات = الشركات =

مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية: ببولاق والقاهرة والوجه البحرى والصعيد - فاوريقات الأقمشة الكتانية- مبيضة بولاق - بصم الأقمشة والمناديل- فاوريقات الأنسجة الحريرية- معامل الحبال- فاوريقة الجوخ فى بولاق- فاوريقة الأنسجة الصوفية- فاوريقة الطرابيش فى فوه- مسبك الحديد- معمل الأسلحة القابلة للحمل- فاوريقة السكر - معاصر الزيت- معامل النيلة - معامل البارود وملح البارود والمواد الكيميائية- أفكار وخواطر عن فاوريقات مصر ومعاملها.

أنشأ والى مصر عددا عظيما من الفاوريقات، فمن مغازل القطن الى فاوريقات الأقمشة الكتانية الى معامل البصمة (الشيت) والجوخ والصوف. إلى مصانع الطرابيش والأقمشة الحريرية إلى مسابك الحديد ومعامل الأسلحة الخ.

٢٤- مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية

فى أنحاء متفرقة من القطر المصرى عدد غير قليل من معامل غزل القطن، فقد بلغ عدد هذه المعامل خمسة عشر تحتوى ١٤٥٩ نولا منها ١١٥ للغزل الغليظ و١٣١٤ للغزل الدقيق. أما أنوال النسيج فأكثر من ١٢٠٠ تنسج فى فصل الشتاء أكثر من ٣٥٠٠ قطعة من القماش يوميا، وفى الصيف نحو ٦٠٠٠ يوميا كذلك، أما ما تنتجه فى السنة من قطع القماش فيبلغ على حساب المتوسط مليونى قطعة.

وأتقن تلك الفاوريقات وأكملها فاوريقة (مالطة) ببولاق، وهذه البلدة هى المرفأ الصناعى والتجارى لمدينة القاهرة. فإن القطن يغزل فى المعمل ثم ينسج أقمشة مختلفة الأنواع. وقد أعتنى ببنائها وجعلْ فيها للعمل ثمانية وعشرين عجلة وأربعة وعشرين محلاجا. وهذه الآلات تصل إليها الحركة من أحد عشر طنبورا يحركها ثمانية أبقار بالعدة المعدة لهذا الغرض. وكل عجلة يشتغل عليها رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تنقطع بحركة الآلة. وفى فاوريقة مالطة مائتا نول تنسج خيوط القطن. ومما ينسج فيها قماش الموسلين والباتست. وبجوار هذه الفاوريقة معملان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بمعمل إبراهيم أغا والآخر بمعمل السبتية.

أما القاهرة ففى حى الخرنفش منها فاوريقة من هذا النوع تحتوى مائتى عجلة ، عشر منها للغزل الغليظ والباقى للغزل الدقيق. وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحدة والمائة الثانية مائتين وستة عشر.

وفى الوجه البحرى تسعة فاوريقات لغزل القطن ونسجه واحدة منها فى قليوب وهى فسيحة الجوانب بعيدة الأطراف تحتوى سبعين عجلة وثلاثين محلاجا تحركها ثلاث عدد. وفى قرية شبين من مديرية منوف فاوريقة أخرى لغزل القطن فيها سبعون عجلة وثلاثون، محلاجاً يحركها عدتان. وفى المحلة الكبرى فاوريقة بها مائة وعشرون عجلة وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد، والخيوط التى تغزل هذه الآلات تنسج فيها قماشا على مائتى نول.

وفاوريقة غزل القطن فى زفتى من مديرية الغربية تحتوى خمسة وسبعين عجلة وخمسين محلاجا يحركها ثلاث عدد. وفى بلدة ميت غمر فاوريقة من هذا النوع.

أما فاوريقة المنصورة فتحتوى مائة وعشرين عجلة وثمانين محلاجا يحركها أربع عدد وفيها مائة وستون نولا لنسج الخيوط التى تغزل فى مغزل الفاوريقة. وفى دمياط مصنع للغزل شبيه با لمتقدم، وفيه مثل مايحتويه عددا من الانوال.

أما فاوريقة دمنهور ففيها مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجاً. وفى فاوريقة رشيد مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا يحركها أربع عدد وهى خاصة بنسج أقمشة القلوع.

وفى الوجه القبلى مصانع للغزل والنسيج ازداد عددها منذ بضع سنوات، وأهمها الفاوريقتان اللتان ببنى سويف وأسيوط ولقد أنشأ الوالى فاوريقات أخرى بالمنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وإسنا.

٢٥- فاوريقات الأقمشة الكتانية

أما فاوريقات الأقمشة الكتانية فموزعة كالسابقة على جملة من المديريات، ولاسيما مديريات الوجه البحرى. وما تصنعه من الأقمشة يستنفد بالقطر المصرى. ويبلغ ما تنتجه فى السنة ثلاثة ملايين قطعة، يصدر قسم كبير منها إلى (تريستة) و(ليفورنة) وفى القطر المصرى ثلاثون ألف نول لنسج أقمشة الكتان.

وفيما بين بولاق وشبرى حظيرة فسيحة جدا تسمى (المبيضة) تجرى فيها، على الأقمشة المنسوجة فى تلك الفاوريقات ، عمليات التبييض المختلفة. وفى هذا المكان تبصم هذه الأقمشة أيضا بالألواح أو الاسطوانات الميكانيكية. ويبلغ ما يبصم منها فى الشهر ثمانمائة قطعة. وفى السنوات الأخيرة أخذت الأقمشة المبصومة فى المبيضة (البصمة) تنافس الأقمشة الواردة من نوعها من انجلترا وألمانيا، ولذلك قل المستورد منها قلة محسوسة. وهى تمتاز على هذه بدقة النسيج وجمال الرسوم وثبات الألوان. وتبصم فى المبيضة أيضا مناديل الموسلين التى يعصب النساء بها رؤوسهن.

٢٦- فاوريقات الحرير

كانت الأقمشة والحريرية تنسج بمصر فى كل زمان ولكن محمد على هو الذى وسع نطاق صناعة نسجها بغرسه المقدار العظيم من شجر التوت. ولقد أحضر من الآستانة عمالا أخصائيين لنسج الحرير على الطريقة التى ينسج بها فى هذه المدينة وفى الأقطار الهندية. وبمصر الآن نحو مائة نول مستعملة لنسج الحرير والأسلاك الذهبية وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وهم على غاية من الحذق فى صناعتهم. لأنهم يجيدون النسج ويظهرون البراعة فى تحليته وتنميقه بالرسوم اللطيفة.

٢٧- معامل الحبال

إن القنب الذى أصبح محصوله أقل منه قبل أن يبلغ محصول القطن ذلك

المبلغ العظيم بتعضيد سمو الوالى، لم يعد يستعمل الآن لنسج المنسوجات ، منذ اقتصر فى استعماله على صنع الحبال اللازمة للبحرية، وبالقاهرة مصنع كبير للحبال ترسل مصنوعاته إلى ترسانة الإسكندرية.

٢٨- فاوريقة الجوخ

ببولاق فاوريقة لصناعة الجوخ على اختلاف أنواعه وألوانه وبالرغم من أنها لم تأت منذ البداية بالنتائج المرضية المنتظرة. جاءت فيما بعد بفوائد لاتنكر، خصوصا منذ تولى أمرها خمسة من الفرنسيين انتخبوا من بين صناع معامل الجوخ فى مقاطعة (لنجدوك) بفرنسا. وقد عكفوا على إدارة هذا المصنع منذ أربعة عشر عاما. فتمكنوا من تدريب لفيف من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والطباعين من الأهالى الوطنيين. ولم يكتف سمو الوالى بما تقدم. بل أرسل لفيفا من الشبان المصريين لتعلم هذه الصناعة بفاوريقات الجوخ بمدينتى (سيدان) و(البوف) بفرنسا. فاستطاعوا بعد عودتهم ، وقد تدربوا على العمل، إفادة البلاد بما حصلوا عليه بخبرتهم وتجاربهم.

وتنسج الأجواخ المصرية من الصوف المصرى الذى يرد أجود أصنافه من دمنهور والمنيا. ويستعمل لهذا الغرض أيضا الصوف المستورد من الأيالة التونسية.

أما الجوخ المصنوع فى الفاوريقة المصرية فجيد الصنع متين التيلة، ومنه تتخذ ملابس الجند. واللون الذى يلون به فى الغالب هو الأزرق الغامق والأزرق اللازوردى والأحمر القرمزى والأحمر البرونزى والأخضر الغامق. ويبلغ ما ينسج منه فى الشهر الواحد ١٣٥٤٠ مترا تقريبا.

وتصنع فى الفاوريقة الآنفة الذكر ـ فيما عدا الأجوا ـ منسوجات من الصوف لملابس النوتية المصريين (البحارة) وأغطية (بطاطين) للنوم. والصوف المستعمل لهذا الغرض هو الصوف الغليظ الوارد من الوجه القبلى. وبالقطر المصرى ٤٠٠ نول لنسيج الصوف.

٢٩- فاوريقة الطرابيش

فاوريقة الطرابيش التى أنشأها سمو الوالى توجد الآن ببلدة فوه. وقد

نجحت نجاحا باهرا فى صناعتها لأنها تنتج مصنوعات جيدة جدا بأيسر كلفة. وقد وضعت فى الأصل تحت تاجر من المغاربة واستدعى صناعها من حاضرة تونس المشهورة بصناعة الطرابيش على اختلاف أنواعها. أما الصوف المتسعمل لصنع الطرابيش فيستورد من أراضى (آليكانت). وبعد شغل الطرابيش وكبسها تصبغ باللون الأحمر القرمزى والعفص والطرطير والشب. وتصنع فاوريقة فوة من الطرابيش يوميا ستين دستجة، = دستة = منها مايصلح للبس عساكر الجيش ومنها مايباع على الأهلين.

٣٠- فاوريقات السكر

يصنع السكر بكميات عظيمة فى الوجه القبلى، ولكن الطرق التى يستخرج بمقتضاها لاتزال متأخرة. وفى سنة ١٨١٨ أنشأت الحكومة ببلدة الايدمون من مديرية المنيا فاوريقة للسكر. على نمط فاوريقات بلاد (الأنتيل) بأمريكا. ثم أسست فاوريقتان من هذا النوع، أحداهما فى ساقية موسى والأخرى فى الروضة من مديرية المنيا. وبلغ ما صنع فى الايدمون من السكر سنة ١٨٣٣ نحو ١٢٩٩٥ قنطارا من السكر الخام، وفى ساقية موسى ٥٢٠٠ قنطارا، وفى الروضة ٣٢٠٠. وفى هذه الفاوريقات يستقطر شراب الروم بمقادير عظيمة.

٣١- مصانع النيلة

أنشئت حديثا جملة مصانع للنيلة، واستدعى إلى مصر بعض الهنود لتعليم المصريين تحضير هذه المادة. وقد خص سدس محصول هذا النبات ليصنع فى تلك المصانع التى أنشئت حديثا بالبلاد الآتية وهى :شبرى والشهابية من مديرية قليوب، العزازية من مديرية الغربية، ثم فى ميت غمر والمنصورة ومنوف وإبيار والأشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وطهطا وأسيوط وملوى ومنفلوط والفشن.

٣٢- معاصر الزيت

يحتوى الوجه البحرى مائة وعشرين معصرة لاستخراج الزيت من بذرة الكتان. وهناك آلات أخرى لعصره من السمسم (السيرج) وبالقاهرة أربعون معصرة لعصر الزيت من بذور القرطم. وفى الوجه القبلى يعصر الزيت من بذور الخس. وهذه الزيوت على اختلاف أنواعها داخلة فى احتكار الحكومة.

٣٣- معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد الكيميائية

بالقرب من المقياس فى الطرف القبلى من جزيرة الروضة معمل للبارود يديره فرنسى كان سابقا من مستخدمى معمل بارود (سان شاماس) من مقاطعة (بوش دى رون) والحكومة تأخذ كل حاجاتها منه.

وقد أنشأ المسيو (هيم) الكيميائى الفرنسى جملة مصانع مهمة لتحضير المواد الكيميائية اللازمة للفاوريقات، وعلى الخصوص منها حامض الكبريتيك. وتحت تصرفه الآن جملة مناجم لاستخراج ملح البارود الذى تستخرج هذه المادة منه بالتبخير، والمعامل التى من هذا القبيل ستة أذكرها فيما يلى مقرونة بكمية ما أنتجته فى سنة ١٨٣٣:

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارا
معمل البدرشين	١٦٨٩ قنطارا
معمل الأشمونين	١٥٣٣ قنطارا
معمل الفيوم	١٢٧٩ قنطارا
معمل أهناس	١٢٥٠ قنطارا
معمل الطرانة	٤١٢ قنطارا

٣٤- مسابك الحديد

ببولاق مسبك كبير بلغت النفقة على بنايته وحدها مليونا ونصف المليون من الفرانكات. وكان إنشاؤه بمقتضى تصميم وضعه المهندس (جالويه) الإنكليزى مطابقا للتصميم الذى بنيت بحسبه مسابك الحديد فى لوندرة. وقد تولى هذا المهندس بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال من الانكليز. إدارة الأعمال فيه وهم يرأسون خمسين عاملا من المصريين، ويصبون من الحديد المصهور فى كل يوم ما يبلغ وزنه على وجه التقريب خمسين قنطارا من الحديد، وما يصنع من الأدوات والآلات فى هذا المسبك خاص بالبحرية المصرية، والفاوريقات المختلفة التى أنشأها سمو الوالى.

وفى ترسانة القاهرة مسبك يقوم بحاجات المدفعية والبحرية، وفيها أداة طرق المعادن لعمل صفائح النحاس المستعملة فى تجهيز السفن . وهذه الأداة تحركها آلة بخارية شديدة الضغط قوتها عشرون حصانا.

٣٥- معمل الأسلحة القابلة للحمل

أهم معهد للصناعة فى مصر ، بل أحق المعاهد التى من نوعه بالذكر هو . بلا خلاف معمل الأسلحة القابلة للحمل. ولست أظنني قادرا على وصف هذا المعمل بأحسن مما وصفه به جناب الدوق (دى راجوز) فيما أبداه من الآراء بشأنه. ورأيه فى مثل هذا الموضوع حكم قاطع، فقد قال: «مما أعجز عن توفيته حقه من المدح معمل الأسلحة القابلة للحمل الذى يبدع من هذه الأسلحة أكثر استجماعا لضروب الكمال والأتقان. والمعامل من هذا القبيل فى مصر ثلاثة، زرت منها معمل القلعة باحثا مدققا منتقدا فرأيت ان الأسلحة التى تصنع قد جمعت وسائل الإتقان والإحسان المتوافرة فيما تصنعه معاملنا من نوعها. والنوع الذى يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسى. وجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة نوع السلاح تتخذ فى معامل مصر كما تتخذ فى معاملنا. سواء. وقد اتبعت فيها طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة فى معاملنا فإن كل شىء يعمل بالقطعة بحسب تعريفة مقررة. وخلاصة القول فإن معمل السلاح الذى زرته يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاما وجودة مصنوعات وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد.

٣٦- آراء وخواطر فى فاوريقات مصر

أثار إنشاء الفاوريقات فى مصر انتقاد الكثيرين. وقد بنوا انتقاداتهم على الأسباب الآتية:

أولا- أن الآلات الضرورية للفاوريقات لايمكن صنعها ولا تركيبها فى القطر المصرى، وأن مصر ستبقى مضطرة دواما إلى الاستمداد بأوربا فيما يتعلق بالوسائل الأولية لنشر الصنائع فى أرجائها.

ثانيا- إنه لمن المتعذر جدا تعهد الآلات بالعناية فى قطر لا مناص من إصابتها فيه بالتلف بسبب الحرارة والعثير والرطوبة.

ثالثا- إن الأمة المصرية تنقصها جميع المزايا والفضائل التى تحملها على الميل الى الصناعة والانصباب عليها. دع ماجبلت عليه من الدعة والتراخى وقلة البصر بالعواقب وعدم الحرص على الضبط والدقة . فهى لاتملك إذن شيئا من العبقرية التى تتطلبها الصناعة فيمن يتصدرون لمارستها.

رابعا- إن الحكومة لم تخلق للتفرغ إلى تسيير الصناعة فى الطريق الطبيعى الذى ينبغى أن تسير فيه ، وإنما يتوقف اتساع نطاق الصناعة على التنافس فيها بشرط أن يهيمن على إدارة شئونها أخصائيون يهمهم بالذات رقيها فى مدارج النجاح. لا موظفون ليس من مصلحتهم الاشتغال بها ولا باعث هناك يستنفرهم إلى التنافس فى طلب الربح منها.

خامسا-إن من المتعذر على المصريين فيما وصلوا إليه الآن من الحضارة أن ينتجوا شيئا يضارع فى الجودة ما تنتجه الشعوب الغربية التى أمعنت البحث فى العلوم الطبيعية والرياضيات ولاتزال حتى اليوم تقطع الأشواط البعيدة عن طريق نموها.

سادسا- إن مصر لن تستطيع استعمال الآلات البخارية مادامت تستعين بالأجنبى فى استيراد الوقود منه، ولاتستطيع لحرمانها من الشلالات والأنهار السريعة التيار استخدام الوسائل المائية لتوليد القوة المحركة. يضاف إلى ما تقدم أن القوة التى تنتجها الحيوانات لاتكفى فى هذا الزمن لأداء الأعمال الكبيرة ولاتليق إلا بالصناعات الصغرى التى ما برحت على الفطرة الأولى.

سابعا- إن مصر مضطرة إلى الاستقرار والبقاء فى نطاقها الزراعى بحكم خصوبة أرضها وطبيعة طقسها وأخلاق سكانها.

وهذه الاعتراضات على مكان مكين من الصواب والحق كما هو ظاهر، ولا غبار عليها، إذا نظرنا إليها من جانب الإطلاق والتعميم. وقد أيدت الحوادث بعض ما ورد فيها، إذ كثيرا ما تبين النقص والعيب فى المصنوعات المصرية مع زيادة كلفتها على مايقابلها من المصنوعات الأوروبية. وأن هذا الفارق لم يمنع سمو الوالى من المضى فى تجاربه الصناعية مراعاة لشعور الحب الذاتى والنعرة الوطنية.

ومع هذا فمما ينبغى الاعتراف به أن نظر محمد على على البعيد فى السياسة. كان القائد الرائد له فى سبيل اقراره على إنشاء المعامل الكثيرة. فلقد كانت همته منصرفة إلى تخويل مصر كل ما ينقصها من عناصر الاستقلال وأسبابه. وأن له من هذه الجهة الحق فى اتخاذ الوسائل الكفيلة بتخلصه من ربقة التبعية الصناعية لأوربا.

ولا ينبغى ان يتطلع أحـد - بـاسم النواميـس الصارمـة التى أقرهـا علم الاقتصاد السيـاسى. إلى تجريد مصر من بعض الحاصلات الصنـاعية التى تساعـدها ظروف كثيرة على انتـاجها كالغـزل والأنسجة القطنية والكتـانية والصوفيـة الخ. فإن وفرة المواد الأولية ورخص أجـور العمال يجعلان مصر من أكثر البلاد صلوحا لإنتاج هذه المصنوعات. ولايسع الذين تحملهم بعض البواعث على استحسان أفكار سمو الوالى وابتكاراته من جهة الصناعة إلا أن ينصحـوا له بترك إدارة تلك المعـامل زمنـا مـا لذوى الخبرة والاخصـاء من الأوروبيين . فإن من البديهى، إذا كانت إدارة المعامل قد كلفت الكلف الفادحة ولن تأت من الثمرات بما يعوض بعض ما أنفق فى سبيلها من الأموال الباهظة والكلف الفادحة، أن يكون السبب فى ذلك عدم حسبـان الحكومة مايتأتى عن اخلائها - فى غير الأوان المناسب - سبيل المديرين والمعلمين الأوروبيين الذين عهدت إلى كفاءتهم إدارة تلك المصانع وتعليم صناعها، لمجرد انصراف رغبتها إلى تعيين غيرهم من الأتراك والمصريين فى وظائفهم، قبل أن يحصل هؤلاء على الخبرة والدربـة الضروريتين فى عملهم. ومع أنهم لايزالون خلـوا من الكفاءة وصفرا من العلـوم التى تؤذن لهم بتتبع أثر الصنـاعة الأوروبية فى تقـدمها المطرد وانسياقها المستمر إلى الأمام.

ومما يجىء بالفوائد الجزيلة إجازة أصحاب المشاريع الخاصة باستغلال تلك الصناعـات. شيئاً فشيئا، حتى تصير فى معزل عن الحكـومة، وفى بعض تلك المعامـل - إذا لم يكن فيها كلهـا - من المزايـا النافعـة والخواص الثمينة مايغرى المضاربين من أصحاب المشاريع بالإقبال على استثمارها. وأعتقد أن الحكومة المصرية باتباعها هـذا الأسلوب الجديد وسيرها على هذا الدرب، لابد واصلة فى النهاية إلى خير النتـائج وأجداها نفعا. وهى إذا فعلت ذلك ستشجع الصناعـة تشجيعا نافعـا بوضعها تحت تأثير المصـالح الشخصية، دع أنها بذلك تستـدرج إلى مصر كثيرا من رؤوس الأموال الأوروبيـة التى لانظن أنها تجد موطنا لاستثمارها أوفق من البلاد المصرية.

(٢)

الصناعات الصغرى والفنون والمهن

الطوائف الصناعية. الفنون الغذائية: تجهيز القمح ــ الفرانون- الجزارون- معامل الدجاج- تحضير الفول- الخل- الاستقطار- صحن البن- صنع الفطير ــ الفنون الخاصة بالكسوة: الغزل- اللبد والحرير وتبييض الغزل والقماش والصبغ والتلميع والتطريز والمخيشات- الدباغة- صناع الأحذية والسروج- الخياطون- صناع الكراكى - الفنون الخاصة بالسكنى: البناؤون- الحدادون- نجارو العمارات والنجارون الدقيون- صناع المزاليج من الخشب- الخراطون- صناع الفخار- صناع الزجاج- الجوهريون والصياغ - صناع السلاح- الحصرية - صناعات مختلفة: الشبكجية- المزينون- التجار.

٣٧- الطوائف الصناعية

يمتاز نظام الصناعات الصغرى فى مصر بعلامات يفيد القراء الوقوف عليها. فإن كل حرفة يدوية يتألف منها طائفة يرأسها شيخ يتولى النظر فى شئونها، ولمشائخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء، يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها وإما السلطة العليا. وكلما رأت الحكومة ضرورة إلى النظر فى نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الفرض خاطبت فى ذلك مشائخها. فيتولون توزيع الفرض المطلوبة مثلا على كبار الصناع التابعين لطائفتهم.

وليس تأليف الطوائف قاصرا على الصناعات النافعة. بل يتناول المهن الدنيئة كمهن الجعيدية والآلاتية والشعراء الذين يروون القصص والحواةوالرقاصين والعوالم والمومسات فلكل طائفة من هذه الطوائف شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى الحكومة ويتولى شئونها ويدافع عنها عند الحاجة.

وكان للصوص قبل محمد على رؤساء معترف بهم، يأخذون على أنفسهم استرجاع الأشياء المسروقة فى مقابل مكافأة تعطى لهم، وهى التى يسمونها

بالحلاوة. وهو مايؤخذ منه أن هذه العادة التى كانت شائعة عند قدماء المصريين قد استمرت خلال القرون الطويلة إلى العهد الحاضر.

ولكل صناعةمدة يتدرب العمال خلالها على العمل فيها:

فإذا أراد الصبى المتعلم أن يصير معلما أو «أوسطى» بعد حذقه الصناعة التى اختارها تحت مباشرة عامل ذى حيثية وصفة ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوبا بمعلمه. ومتى اجتمع به سلم عليه وقال له: «لنقرأ الفاتحة» فيقرأ الشيخ هذه السورة مع الصبى والحاضرين جميعا، وبعد القراءة يسأله الشيخ عن سبب زيارته له مع معلمه ، فيقول المعلم إن صبيه قد تعلم الصنعة وأحكمها وأنه يرغب أن يصير معلما وأن يمارسها فى مصنع خاص، فيدنى الشيخ الصبى منه ويحزمه بحزام خاص عنده وينادى به عضوا من أعضاء الطائفة وعلى أثر هذه الأجرياء = الإجراءات = يدعو المعلم الجديد شيخه وكبار رجال الطائفة، إلى وليمة فى بيته إشعارا بامتنانه منه وشكره له، فيجيب المدعو. هذه الدعوة أما المعلم الجديد فلا يطالب بدفع شىء ما من المال إلى الشيخ فى مقابل تكريسه إياه معلما على الوجه السابق.

وإذا ترك الصبى معلمه، فإنه لايستطيع الدخول فى معمل ما الا إذا زار الشيخ ليبسط له الأسباب التى حملته على مغادرة معلمه الأول، فإذا ثبت له من بيانه أن الانفصال حصل لوقوع مشاجرة بين الاثنين تداخل الشيخ فى الخلاف. وكثيرا ما يؤدى تدخله إلى إزالة الخلاف ووقوع الصلح بين الصبى ومعلمه. أما إذا ثبت له أن السبب مصلحة مالية فلا أسهل من أن يدخل العامل . بموافقة الشيخ وواسطته، فى خدمة معلم آخر.

وفى القاهرة المهن والصناعات كافة على اختلافها، لكل مهنة مثل هذا النظام الغريب وأهم المهن ما كان عدد الصناع فيها أعظم منه فى غيرها كمهن الطحانين والخبازين وصناع معاصر الزيت والخل والنساجين والدباغين والخياطين وصانعى الفخار والحدادين والنجارين والخراطين والطرزية والعقادين. وفيما عدا هذه الصناعات والحرف مهن كثيرة يزاولها جم غفير من الناس، منها مهنة تجهيز الفول المدمس وتحضير الجير والجبس والطوب والفحم.

ومن المحتمل أن تكون الأساليب المتبعة فى مزاولة هذه الصناعات الآن مطابقة لها فى عهد قدماء المصريين، وأن ماتعطيه من النتائج والثمرات تماثل ماكان يجتنى منها فى أيامهم بفارق بسيط يستدعيه تأثير طول الزمن بتعاقب الأجيال. لاسيما وأن المصريين امتازوا، على توالى العصور، بالاحترام التام الثابت للعادات والتقاليد القديمة والتمسك بها، كما عرفوا بالحرمان من عبقرية الاختراع إلا أنهم يتفوقون فى مقابل ذلك، بالحذق فى التقاليد بمعنى أنه إذا أعطى أحدهم نموذجا ما أحكموا تقليده وذهبوا فى إتقانه إلى الغاية القصوى.

ويجلس الصناع القرفصاء أو متربعين أثناء اشتغالهم عملا بتقاليدهم المألوفة. ويؤدون وهم فى هذا الوضع، أعمالا يعجز صناعنا عن أدائها. وقد أعجب السياح برشاقتهم ومهارتهم فى استخدام أرجلهم.

ولكن أتى على وصف الحرف الأصلية التى تتألف منها الصناعة الصغرى وصفا سريعا ، لا أظننى قادرا على تقسيمها تقسيما يوافق المنطق والصواب كتقسيم العلامة (جومار) لها فى الجزء المخصص لوصف القاهرة من مذكرته الجميلة المدرجة فى المجلد الثامن عشر من كتاب «تخطيط مصر» وفيه بيان شاف للصناعة والمهن الميكانيكية. فاقتداء به سنقسم الفنون والمهن المصرية الصغرى إلى أربع رتب: الأولى للمهن التى يرتبط بها غذاء الإنسان، والثانية للمهن التى يتعلق بها لباسه، والثالثة والرابعة للمهن الخاصة بالمساكن وتأثيثها وزخرفتها، وبالجملة كل مايتعلق باحتياجاته البيتية.

٣٨- المهن الغذائية: تحضير القمح والخبازون

يستعمل المصريون لطحن القمح طاحونا بسيطا مؤلفا من حجرين تحركهما عدة يعلق بها عادة حصان أو بغل.

. وهم يخبزون الخبز فى أفران بسيطة، مرتين كل يوم. والخباز يدخل الخبز الذى يرد إليه فى الفرن لإنضاجه ثم يخرجه منه بعد أن يلبث فيه بضع الدقائق الكافية لنضجه.

٣٩- الجزارون

الجزارون قليلو العـدد فى القطر المصرى تبعـا لقلة استنفـاد اللحوم فيـه بسبب عدم إقبال طبقة الشعب عليها.

٤٠- معامل الدجاج

لمعامل الـدجاج ـ أى أفـرانه شـهرة متصلـة من قديم الـزمان، ويستطيع المصريـون بـواسطـة هـذه المعـامل تفـريخ الـدجـاج بمقـاديـر عظيمـة، ويستعيضـون بتأثير حـرارتها عن التفريخ الطبيعى. ولا خـلاف أن الـذين ابتكروا هذه الطريقة هم قـدماء المصريين، دعاهم إلى ذلك أن الدجاج المصرى لايميل، إلى احتضان البيض.

والأمكنـة التى يعالـج المصريون فيهـا عمليـة التفريخ المتقـدمـة تسمى «معـامل الفروج» ويحتـوى الـواحد منهـا عادة من أربعـة إلى ثـلاثين فرنـا مصفـوفة على خطين متـوازيين، يفصلهما عن بعضـهما ممـر ضيق، والمعمل عبارة عن خليـة صغيرة إرتفاعها ثلاثـة أمتار وطولها كذلك وعـرضـها متران ونصف متر. وتنقسم فى منتصف الارتفـاع إلى طبقتين بـواسطـة سقيفـة من الآجر ذات فتحـة تسمح بمرور الإنسان من بيت إلى بيت ـــ أى من طبقة إلى طبقة. ولكل من البيتين بـاب ينفتح على الدهليز ـ أى الممـر الضيق المتوسط بين الصفين، وأبـواب مثله فى الحواجـز الجانبيـة التى بين كل خلية والخليـة التاليـة لها، بحيث تتصل جميع الخليـات الموجودة على صف واحـد بعضـها ببعض. وتخصص البيـوت السفلى لوضـع البيض المراد تفـريخ الدجـاج منه والعليا لوضـع النار، وهى ذات شكل خاص يلائم الغرض المطلوب منها.

والعادة أن يوضـع فى كـل فرن من الأفران برسم التفريـخ من ثلاثة آلاف بيضـة إلى أربعـة تبسط على سطح البيـت الأسفل من المعمل فـوق حصيرة، طبقات يفصلهـا بعضـها عن بعض شىء من الأبسطة أو التبن. وبعـد ترتيب البيض على هذا المثال تضرم النار فى ثلث عدد الأفران تقريبا بحيث تكاد تكون المسافات بينها متساوية ، وبعد أربعة أيام أو خمسة تضرم النار فى أفران غير الأولى، وعقب مضـى أيام مثلها، تضرم فى الأفران الباقية. وكلما أوقدت الأفران اللاحقة عنى بإطفاء الأفران السـابقة. وتجدد النار ثلاث مرات أو أربعا فى كل يوم، وتـذكى قبيل الليل لدفع طـراوة الجو فيه. ويكلف أحـد العمال بغشيان

البيوت السفلى جملة مرار فى اليوم لتقليب البيض وإبعاده عن الأماكن التى تزيد درجة الحرارة فيها عنها فى الأخرى. وفى اليوم الخامس يتفقد كله على ضوء المصباح ليعزل مالا يكون منه قد أخصبه الديكة.

والحرارة الضرورية لنجاح عملية التفريخ هى ٣٢ من ميزان (ريومور). والمصريون المزاولون لهذه الصناعة يجهلون موازين الحرارة (الترمومتر). ولكن العادة أكسبتهم شعورا لايخطىء فى تقدير درجة الحرارة الضرورية. وهذا الشعور سر صناعتهم وقوامها. وهم لايكسبونه إلا بعد المران الطويل المتواصل على العمل سنوات عديدة . وإذا كانوا لايطلعون أحداً على سر هذه الصناعة إلا إذا كان من أبنائهم أو أقاربهم فلا عجب إذا تأصل هذا الشعور فيهم وصار فطرة يتوارثها الأبناء عن الآباء.

ويتم تفريخ البيض بعد عشرين يوما إلى خمسة وعشرين من وضعه فى الأفران ويبلغ متوسط البيض الذى لايفرخ الخمس تقريبا. وبمجرد فتح المعمل. فى فبراير أو مارس يتسابق أهل القرية ومعهم البيض الذى يرومون تفريخه. والمألوف أن يرد صاحب المعمل إليهم منه ٥٠ فرخا عن كل مائة بيضةوما يتبقى هو ربحه، وبعد انتهاء مدة الاحتضان فى معمل واحد نقف عن بضع عشرات الألوف من الكتاكيت. وقد قدر عدد الكتاكيت التى تخرج سنويا من معامل الفروج فى مصر ، وعددها مائتا معمل ، بـ ٢٤٠٠٠٠٠٠ فرخ - أى كتكوت.

٤١ - تحضير الفول

يرد الفول على القاهرة بمقادير جسيمة، ويباع فى طرقاتها بعد تجهيزه تجهيزا ينحصر فى نقعه يومين، فى الماء حتى ينبت ثم يطبخ على طريقة معلومة عند الأهلين.

٤٢- الخل

بالقطر المصرى عدد عظيم من المعامل المخصصة لعمل الخل. والخل المتخذ من البلح أكثر شيوعا من غيره. ويستخرج الخل أيضا من الزبيب.

٤٣- الاستقطار

بالقاهرة جم غفير من الناس يمارسون مهنة الاستقطار. فهم يستقطرون

العرقى من البلح والزبيب ليشربه المسيحيون ومما يستقطر فيها أيضا ماء الورد.

٤٤- البن

يحمص البن ثم يصحن فى هاون من (الجرانيت) محفور على شكل مخروط مقلوب، ويقوم بصحنه ثلاثة من الدقاقين أو إثنان بمدقات يحملونها بأيديهم، ويدق كل منهم دقة بحيث تتتابع الدقات. وزنة المدق تختلف من خمسة كيلو جرامات إلى ستة، ويقرن الدقاقون حركاتهم أثناء رفع المدق وإنزاله بنشيد مقفى بينما يدلى طفل صغير يده إلى قاع الهاون ليحرك البن، مهتديا فى ذلك بقوافى النشيد، فهو فى غنى عن متابعة حركات الدقاقين بنظره لكى يقى يده خطر سقوط المدقات عليها.وكثير من الأوربيين الذين يشهدون هذه العملية يخشون على يد الطفل الصغير أن تحطمها المدقات. إذا لم يفطن اتقاءها بنظره. ولكن الشعور بموازين الشعر خصية راسخة فيهم ينطبعون عليها منذ نعومة الأظفار، بحيث لايخشى وقوعهم فى الخطأ أثناء عملية صحن البن.

ولعل أصل هذه الخصية أن المعلم فى مدارس الأطفال يدرب تلاميذه على حركة تمرينية يبدو ـ أول وهلة ـ أنها تستدعى الازدراء والسخرية ولكنها تستر تحت مظهر الغرابة فائدة مؤكدة جليلة النفع فى جملة من الحرف الصناعية التى يزاولها المصريون. وبيان ذلك التمرين أن المعلم يضرب بمقرعته المنضدة التى أمامه، ثم يطلب من الغلام أن يضع يد على النقطة التى لستها المقرعة وأن يسحبها على الفور ويكرر هذه العملية مسرعا شيئا فشيئا فيتابعها الغلام فى كل حركة من حركاتها بوضع يده على تلك النقطة. وقد يعتاد هذه المتابعة حتى يبلغ الأمر به إلى القدرة على اجتناب الضربات وتوقيها.

٤٥ الفطاطرية

قلنا إن المصريين شديدو الشره إلى الفطير. وللفطاطرية عدد عظيم من الحوانيت بحى السكرية فى القاهرة والشرهون الى فطيرهم من أفراد الطبقة الدنيا يقصدون إلى هذه الحوانيت لتناوله فيها.

٤٦- الفنون المتعلقة بالملابس: الغزل

قبل أن ينشىء محمد على فاوريقات الغزل الكبرى. كان القطن والكتان والصوف يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية، ثم يلفونه بطريقة بسيطة حول «الطيار» ومفهوم أن هذه الصناعة القاصرة على الاحتياجات البيتية لم يبق لها اليوم شأن يذكر.وقبل أن تحتكر المواد الأولية ذات الأهمية برسم المعامل الكبرى، كان المصريون ينسجون غزلهم بأجهزة بسيطة جداً ويتخذون منه الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية.

٤٧- اللبد والحرير وتبييض الخيط والقماش والصبغ والتلميع والتطريز

كان ينسج بمصر أيضا بعض الأقمشة من الحرير. كما كان عدد وافر من الصناع يشتغلون بالطرابيش اللبدية أو اللبد. وكانت صباغة الأقمشة صناعة شائعة إلا أنها كانت غير متقنة. وكان بالقاهرة معامل عديدة لتلميع الأقمشة وتبييضها.

أما المطرزون الذين كان لهم عدد عظيم من المحال يزاولون فيها هذه الصناعة فكانوا يمتازون بدقة عملهم وأنيق رسومهم واتساق نقوشهم . وكان أبرعهم فى صناعة التطريز أولئك الذين كانوا يطرزون أنواع الجلود بأسلاك الذهب والفضة.

٤٨- العقادون

العقادون المصريون بارعون جداً فى صناعتهم. وهم يصنعون «القيطان» (الكردون) من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة كما يصنعون أيضا «الشراريب» من الحرير وأسلاك الفضة والذهب أيضا.

٤٩- الدباغة

الدباغة بالقطر المصرى صناعة واسعة النطاق. والمصريون يتبعون فيها أساليب خاصة بهم يستعينون بها على دبغ جلود البقرات والجواميس والأغنام والماعز. الخ. وهم بارعون جداً فى تحضير الجلد السختيان الذى هو جلد الماعز مصبوغا باللون الأحمر أو الأصفر أو غيرهما من الألوان بعد العناية بدبغه.

٥٠- الصرماتية والسروجية

يصنع بالقاهرة كل مايلزم للبلاد من الأحذية (المزد والمركوب والبابوج). وفى حى البرادعية بها جم غفير من الصنـاع يصنعون سروج الخيل وبـرادع. البغال والحمير.. الخ. أما اللبب وهو مايشد من سيور السرج فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل، والزمام - أى المقود، والقيد ، فتصنع فى حى السكرية . وهذه المصنوعات تزخرف غالبا بنقوش جميلة تشغل باليد على الجلد.

٥١-الخياطون

الخياطـون المصريون كثيرو العـدد بالقاهـرة. ويقومـون بخياطـة ثياب الأهالى من أبنـاء البلد، وقد يتصـدرون أحيانـا إلى خياطة مـلابس السيدات. وبها أيضا خياطون من اليونان والأرمن يهيئون ملابس أفراد الطبقة العليا، ولاسيما العثمانية منهم. وهم بارعون فى صناعتهم ولهم دراية تامة فى تكليف الثياب بـالقيطان الحريرى أو الـذهبى ينمقون به أشكـالا تطريزيـة جميلة ورسوما فى غاية الحسن. ومعتقدى أن قليـلا من الخياطين بأوروبا يتفوقون عليهم فى هذا النوع من أعمال الخياطة.

٥٢- الفراؤون

عامة الفرائين بمصر من اليونان والأرمن. وعددهم قليل جداً . لأنه لايلبس الفراء فى الأمة المصرية سوى أفراد طبقتى العظماء والعلماء.

٥٣– الفنون المتعلقة بالمبانى: البناؤون

المواد المستعملة عادة لتشييد المنازل هى: الآجر (الطوب الأحمر) والطوب النيىء وأحيانا أحجار النحت والمصيص والجير.

أمـا الطوب الـذى مادتـه الأولى طمى النيل مخلوطـا، على نسبة قليلـة أو كثيرة، بالطين الأبليـز، وأحيانا بالـرمل فيجفف فى الشمس أو يحرق فى أفران خاصة به.

أمـا أحجـار النحت فتأتى من مقـالـع جبل المقطم أو من أطـلال المبـانى القديمة.

ويحرق البناؤون الحجر الخاص بعمل الجير بطريقـة تقرب من الطريقة

المتبعة فى أوروبا لهذا الغرض. ويطفئونه بكيفية مماثلة لكيفية إطفائه عندنا. غير أن النقص يظهر باديا فى كيفية تحضير المونة، فإنهم، بدلا من أن يخلطوها بالرمل الموجود في متناول أيديهم من أجود الأصناف وأصلحها للبناء. يخلطونه بالتراب المضاف إليه رماد الأفران.

أما المصيص فيؤتى به من حلوان وغيرها ويقوم على استعماله عمال مخصوصون ، لطلاء داخل المنازل به وقد ذكرنا قبلا أن الجبس الأبيض غير موجود عندهم وأنهم يستعملون الجير أحيانا فيما نستعمل نحن المصيص فيه.

والمبانى التى يشيدها المصريون المحدثون لا تتوافر فيها مزايا المتانة والإتقان التى امتازت بها الأبنية الفخمة والآثار الضخمة فى عهد أجدادهم. فإنهم يتخذون لأبنيتهم المواد الرديئة النوع والدبش الصغير. ويدخلون فى أسماك الجدران عوارض من الخشب لتمكينها، مع أنها تمنع أجزاء الجدار من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة لاتشوبها شائبة.

وآلات البنائين المصريين وأدواتهم ناقصة كثيرة العيوب وهى تنحصر فى مملسة صغيرة (محارة) من الحديد ضيقة أما المسطرة والمثلث وخيط الرصاص والمقاييس فلا تستعمل إلا فى أحوال نادرة جداً. وهذا هو السر فى أن جدرانهم لاتطابق فى الغالب الاتجاه العمودى، وتبقى لهذا السبب معرضة لخطر السقوط بأدنى طارىء. ومن النادر جدا أن تكون الأبواب والنوافذ مستطيلة الشكل أو غير منحرفة الجانبين. ومما ينقصهم فى صناعة البناء أيضا الضبط ورعاية المضاهاة (السيمتريا) وبعد هذا وذاك فإن المبانى تقام غالبا من غير أن يوضع لها تصميم سابق أو تخطيط بل يبلغ من الأمر أنهم يضيفون غرفة إلى غرفة أخرى من غير تدبر ولاحساب ولا يفكرون فيما هنالك من ضرورة إيصال الضوء إلى الغرف المبنية والتوصيل بينها بالأبواب إلابعد البناء.

٥٤- نحاتو الأحجار

المنازل المبنية بحجر النحت قليلة العدد، لأن المسلمين لايرمون إلى بقاء المبانى فكأنما هم يبنون للحال لا للمستقبل ولايهتمون أقل أهتمام بنماذج الهندسة العربية الجميلة التى هى فى مطرح أنظارهم أثناء تنقلهم جيئة

وذهابا فى كل مكان. وهذا هو علة عدم انتشار فن نحت الأحجار وتنسيقها فى مصر وارتقائه. والآلات التى يتخذها النحاتون المصريون غليظة جداً، وإذا كانوا لايعملون بها إلا فى صنوف الأحجار اللينة فإنهم لايكادون يشعرون بمشقة ما فى مزاولة عملهم. ومع هذا فلا يزال يوجد نحاتون بارعون فى صناعة نحت الصَّوان أى الجرانيت ومجيدون فى تكييفه بالصور والرسوم المطلوبة

ويوجد، غير نحاتي الأحجار فريق من الصناع متفرغين لقطع البلاط ووضعه فى أماكنه ويسمون بالمبلطين، أما سقوف المنازل فيعهد عملها إلى رجال لايمارسون غير هذه الصناعة. وطريقتهم فى ذلك أنهم يربطون بعروق السقف الخشبية البوص منضما بعضه إلى بعض ثم يطرحون عليه حصيرا ينشرون فوقه طبقة من المونة هى التى تعلوها غالبا طبقة البلاط.

٥٥- الحدادون

آلات الحدادين وأدواتهم غليظة جداً وأتاتين = أفران = النار عندهم تذكى نارها المنافيخ المزدوجة. والسواد الأعظم من الحدادين بالقاهرة يسكنون الحى المعروف بالنحاسين.

٥٦- النجارون

أجود الأخشاب الشائعة الاستعمال فى النجارة هى أخشاب اللبخ والسنط والنبق والجمين، وفيما خلفه لنا قدماء المصريين من المصنوعات الخشبية الدلالة الواضحة على أنهم لم يستعملوا من الأخشاب الا ماذكرنا. أما الآن فيستورد المصريون ألواح الخشب بمقادير وافرة من (تريستة) و(البندقية) و(ليفورنه) و(الشام) و(كرمانيا).

والنجارون المصريون فى غاية الحذق والبراعة ولايتخذون المناضد (البنوكة) للاشتغال عليها، لأنهم يشتغلون قاعدين أو جاثين على ركبهم. والفارة التى يستعملونها شبيهة بالمستعملة عندنا وهكذا الشأن فيما يتعلق بالمنشار. والأداة الأصلية التى يستعملونها فى جميع الأعمال كالبرى والشق والدق والخلع هى القدوم.

وفن النجارة بمصر أقل تقدما فيها من جميع الفنون، إذ من النادر أن

ترى المصريين يضمون أجزاء الخشب بعضها إلى بعض عاشقا ومعشوقا. بل يبرونها من الأطراف فى زوايا حادة ثم يثبتونها بعضها ببعض بالمسامير. وقلما يستعملون الخوابير لهذا الغرض، وهذا هو السبب الذى يعرض أشغالهم الى سرعة التلف ويجعلها قبيحة الصناعة. على أنه قد كان من نتائج انتشار الترسانات والمصانع التى أنشأها محمد على إتقان هذا الفن اليدوى بتخريج عمال على يد بعض الأسطوات الأوربيين، أحرزوا شيئا من الحذق والبراعة فى صناعتهم.

٥٧- صانعو الضبب أو المزاليج

صانعو الضبب ـــ أى المزاليج فريق كبير من النجارين.. والسبب فى ذلك أن أغلب الأبواب لاتغلق إلا بمزاليج من الخشب. وكل مزلاج يتألف من ثلاث قطع.

٥٨- الخراطون

الخراطون يقطنون بالقاهرة حى الشعراوى. وهم كثيرو العدد جداً لأنه ما من قطعة من قطع الأخشاب التى تتألف منها النوافذ والمشربيات وغيرهما إلا وهى مخروطة بيدهم. والخراطون أحذق صناع القطر المصرى بلا ريب، وصناعتهم من أكثر صناعاتها تقدما وإرتقاء. وآلات الخرط عندهم ليست مثبتة ، كما فى أوروبا ـ على البنوكة فتضطرهم الى الاشتغال واقفين. بل إنها عبارة عن جهاز واطىء يشتغلون أمامه جالسين وهو مؤلف من عروستين إحداهما ثابتة والأخرى متحركة ـــ فالمتحركة تبتعد أو تقترب لتضغط الأشياء المراد خرطها بين نقطتين. وبالرغم من أن آلات الخراطين بسيطة وناقصة، إلا أن الخراطين بلغوا من الحذق والرشاقة وخفة اليد وضبط حركاتها فى صناعتهم مبلغا يمكن معه القيام بأدق الأعمال التى تعهد إلى كفاءتهم. وهناك عمال آخرون يحذقون مهنة الخراطة إلى حد أنهم يخرطون أشياء كثيرة غير الخشب كالكهرمان والعاج لعمل أنابيب الشبكات منها.

٥٩- صناعة الفخار

صناعة الفخار معروفة فى القطر المصرى منذ قديم الزمان، وتصنع بالقاهرة والصعيد أصنافا مختلفة من الأوانى.

ولقد سبق لنا الكلام على أهم المصنوعات الفخارية وأشهرها كالقلال التى تصنع فى جهات عديدة من القطر المصرى وخصوصا فى قنا . ولا شك أن الأسباب التى تجعل الناس يفضلون القلال المصنوعة فى قنا على غيرها، نعومة الطين الذى تصنع به وجمال الأشكال التى تعطى لها أثناء صنعها والروائح العطرية التى يخلطها الصناع بها والخصية التى توافرت فيها من تبريدها الماء وجعلها إياه المذاق سائغا للشاربين.

ويصنع فى تلك المدينة أيضا نوع من الجرار (الأزيار) تصدر منه مقادير وافرة إلى القاهرة. ونقلها إلى هذه المدينة يحصل بطريقة غريبة فإنهم ينكسون تلك الأزيار فى الماء ويربطونها بعضها إلى بعض بحيث يتألف منها ما يشبه طوفا كبير ا يدفعه تيار النيل إلى الجهة المراد تصديرها إليها.

وفى أغلب مدائن القطر المصرى العليا معامل للفخار تختلف عن بعضها فى جودة الصناعة أو رداءتها. ففى ملوى ومنفلوط تصنع أوعية العجن الجسيمة (المواجير) والجرار الكبيرة (الدنان) التى تستعمل فى المصانع والمدابغ.

وفى بلد (البلاص) يصنعون البلاليص. وصانعوها يجيدون حرقها بحيث تكون غير قابلة تقريبا لنفوذ الماء من مسامها.

ويستعمل سكان الأرياف البلاليص لادخار مايلزمهم فى بيوتهم من ماء النيل. فترى جماعات النساء رائحات غاديات بين منازلهن والنهر يحملن البلاليص على رؤوسهن فى وضع يلفت النظر ويقع الموقع الحسن من القلب.

وأنواع الفخار العادية تصنع فى الوجه القبلى. وفى القاهرة وبعض قرى الصعيد مصانع لعمل أحجار الشبكات، وفى هذه العاصمة معامل لصناعة الفناجين مدهونة بالطلاء اللامع الملون.

ومفهوم أن المصنوعات المصرية من الفخار لاتطلى عادة بهذا الطلاء، ولذلك تحفظ لونها الطبيعى. فالقلال مثلا ترى فى بعض الأحيان رمادية اللون. ولكن القسم الأكبر منها لونه أحمر. إلا أن الفناجين التى تصنع بالقاهرة على المثال المتقدم غليظة الشكل.

أما التى يستعملها الأغنياء فواردة، كغيرها من أصناف الفخار الدقيقة

الصنع ، من البلاد الألمانية والإيطالية.

٦٠- الزجاج

صناعة الزجاج فى مصر ناقصة وغير متقنة. ومصنوعاته من القنانى وغيرها رديئة الصنف واطئة النوع. ولقد أنشأ محمد على بالإسكندرية مصنعاً للزجاج تشبه مصنوعاته مثيلها فى أوربا. وفيه صنعت جميع ألواح الزجاج التى استعملت فى السنوات الأخيرة بأنحاء القطر المصرى كافة.

ولقد أنشىء حديثا معمل آخر للزجاج بالقرب من ضفة المحمودية على مسافة أربعة فراسخ من الإسكندرية.

ولما كان الوقود من الوسائل الحيوية التى ينبغى الاحتياط لها حرصا على حياة المصانع التى أنشئت بالقطر المصرى وبقائها. فقد اتجهت النيات السامية إلى غرس غابة كبيرة من شجر الصفصاف وغيره من أصناف الأشجار الأخرى التى تصلح أرض مصر لنموها بالقرب من ذلك المعمل.

٦١- الجوهرية والصياغ

للصياغ بالقاهرة حى خاص بهم والبارعون منهم فى هذه الصناعة مقرهم خان أبى طاقية، وهم جميعا من اليهود والأقباط ولم تبلغ الصياغة بمصر من الإتقان المبلغ الذى أدى إليه عندنا التفنن فى البهرج والبذخ. أما الجوهرية الذين فى القاهرة فأكثرهم عددا الأرمن والمنتسبون إلى الآستانة. ولهم معرفة عجيبة بتركيب الأحجار الكريمة التى يكلفهم بتركيبها العظماء والوجهاء من الأتراك. وفى حى مرجوش يشتغل الصناع بالمرجان والكهرمان ويتخذون منهما العقود والمسابح .. االخ.

٦٢- صانعو السلاح

مقر صانعى السلاح بالقاهرة الحى المعروف بسوق السلاح وهم أخصائيون فى صناعتهم فلا يشتغل بعضهم إلا بالأسلحة النارية ولا البعض الآخر إلا بالأسلحة البيضاء. وهم لايظهرون فى ممارستهم هذه الصناعة شيئا من الخصائص الجديرة بالذكر، فإن أجمل الأسلحة التى يقتنيها الأغنياء مستوردة من أوروبا. وإذا كان لصانعى السلاح بالقاهرة عمل فيها فإنما هو الترميم والإصلاح ليس إلا.

٦٣- صناعة الحصير

استعمال الحصير فى مصر بالغ من الانتشار حدا يسهل معه إدراك جسامة عدد العمال الذين يزاولون هذه الصناعة. وتصنع الحصر بالقاهرة والفيوم وأحسنها مايصنع من أعشاب السمار وأجود السمار ما يؤخذ من الجهات القريبة من بحيرات النطرون وتصبغ هذه الأعشاب بالألوان المختلفة وتجدل بحيث تكون أشكالا ظريفة فى الغالب على الشكل المعين.

٦٤- الصناعات المختلفة: الشبكجية

لا جرم أن يكون صانعو أنابيب الشبكات كثيرى العدد فى قطر أعتاد أهله جميعا بوجه التقريب تدخين التبغ. وتتخذ هذه الأنابيب عادة إما من البوص أو خشب الكراز أو الياسمين أو الزئبق.. ويثقب هذا الخشب بمثقب يحركه وتر قوس تمسك به يد الصانع.

٦٥- الحلاقون

يمتاز الحلاقون المصريون بالحذق والرشاقة فى مهنتهم والطريقة التى يتوخونها فى الحلاقة غريبة فى ذاتها وجديرة بأن يطلع القراء عليها ولست بمحدثهم فى شأنها بشىء من عندياتى وإنما اقتصر فى تكوين فكرة لهم عنها بإيراد ماذكره الدكتور (براير) فى مؤلفه النفيس الموسوم «تسع سنوات فى القسطنطينية» عن تلك الطريقة. فإن أساليب الحلاقين المصريين مطابقة لأساليب زملائهم فى الآستانة. فقد قال ذلك المصنف مايأتى:

« لا يكاد الإنسان يستوى على العرش الخشبى المنصوب بداخل حانوت الحلاق حتى يقدم إليه المعلم صاحب الحانوت شبكا، ثم يأخذ بتحضير فنجان من القهوة برسمه. ولا تنقضى دقيقتان إلا وهو يقدم له هذا الفنجان تتصاعد من سطحه أبخرة القهوة.

«ولما كان أهل القسطنطينية لا يكترث أحدهم بالسرعة ولايهمه إنجاز الأعمال فى مواعيدها، فقد اعتاد الراغب فى الحلاقة الانتظار بسكون زمنا طويلا ريثما ينتهى المعلم الحلاق أو القلفة الأول (الصبى الأول) من حلاقة زبون، سابق عليه. ومتى جاءت نوبته على هذا المثال فقد وجب عليه أن يحل محل هذا الزبون الراحل وعندئذ يجد فوق رأسه ساقا معدنية مثبتة من

طرفها فى الحائط أو السقف وحاملة فى الطرف الآخر المقوس آنية معدن بشكل القمع مثقوبة ثقبا ضيقا. فبينما يحمل بيديه تحت ذقنه صحنا للحية من المعدن مستديرا، ينسكب من الآنية المعلقة على رأسه سلسول ماء فاتر يستعمله الحلاق لغسل رأسه ووجهه ورقبته بالصابون. فإذا كان بالرأس شعر غسله واستغرق زمنا طويلا فى حكه متخذا أظافره كأسنان المشط ثم يجفف رطوبة الماء بمنديل ويلف رأسه بمنديل آخر.

«وبعد ذلك يتفرغ للحلاقة فيرطب اللحية بالماء ترطيبا جيدا، ويتناول موسى حقيرة الشكل مصنوع النصل فى ألمانيا لايتجاوز ثمن الدستة الواحدة منها فرنكين. غير أن الحلاقين يستعينون بحجر المسن وقطعة من الجلد على شحذ تلك الأسلحة. بحيث تصير أتم مايكون صلوحا للاستعمال. ويرتكز الحلاق بقدمه اليسرى على العرش الخشبى، ثم يسند رأس الزبون إلى ركبته بعد تغطيته إياها بمنديل ويشرع فى إزالة الشعر مبتدئا من أعلى الخد اليسرى إلى أسفلها، ثم ينتقل إلى الخد اليمنى مكررا هذه العملية فمتى انتهى منها وقف تجاهه وأنشأ يسوى شعر اللحية والشاربين ويزيل مايعثر عليه فى الوجه من الشعرات الشاذة.

«وإذا أحببت ترجيج الحاجبين فإنه يسويهما بالحلاقة على شكل يجعلهما بمقتصاه تامى التقوس. ولما كان أهل البلد يعتبرون الشعر من القذر، فإنه يعمد بمقراضيه الى فتحتى الأنف فيقص بهما ما فيهما من الشعر، ثم الأذنين فيضع فيهما ماء فاترا ويكرر ذلك لإزالة مايكون بهما من الصملاخ، فإذا لان استخرجه بأداة صغيرة عنده. ويقص بعد ذلك مايجده من شعر فى مدخل الصماخ. أما إذا رأى سنطة صغيرة بالوجه عمد إلى إزالتها بالموس، غير أنه لايقدم على هذه العملية عادة إلا بعد الاستئذان. وكل هذه العمليات تتم بالبطء والتوانى، لأن الأحاديث والمحاورات تتخللها حتما، على أن تمامها لايكون بمواصلة العمل، بل على دفعات متكررة. إذ قد يحدث أن يدخل زبون، أثناء تفرغه لشأن الزبون الأول، فسرعان مايتركه بلا احتشام ولا كلفه كى يقدم الى القادم الجديد شبك التبغ ويجهز له فنجان القهوة. وفى تلك الأثناء يتناول الزبون الأول الذى لم يتم حلاقته سوى النصف أو أكثر أو أقل الشبك الذى كان قد تخلى عنه لأمد، ليستأنف التدخين به ريثما يعود الحلاق

إليه بعد فراغه من المهمة التى لأجلها تركه.

وعقب الانتهاء من الحلاقة يقدم القلفة الصغير (الصبى الصغير) إلى الزبون مرآة لينظر فيها نفسه، ويمعن النظر فى حلاقته ليحكم بما إذا جاءت وفق المراد. فإذا لم يكن فيها ما يوجب الانتقاد، اندرع الحلاق يعرك بين أصابعه خصلة الشعر التى اعتاد الشرقيون تركها بأعلى جمجمتهم ويمشطها بالمشقاة ثم يغطيها بالطربوش أو العمة أو الكلبك. وهذه تستغرق عادة من عشر دقائق إلى نصف ساعة».

٦٦- السقاؤون

لما كان ماء الآبار فى القاهرة آسنا غير صالح للشرب فإن السقائين، وعددهم فيها جسيم جداً، يحملون ماء النيل إلى السكان، ومنهم من ينقلونه فى قرب كبيرة من الجلد على الجمال أو الحمير أو على ظهورهم فى قرب صغيرة. وينادى السقاؤون على الماء بقولهم «العوض على الله.. عليه العوض». ونادرا ما يتقاضون أكثر من عشرة سنتيمات (أربعة مليمات) ثمنا لقربة ماء واحدة ينقلها من مسافة كليو متر ونصف.

ويبيع بعض السقائين الماء على السابلة، وهناك فريق غيرهم كثير العدد يبيعونهم فى الطريق أشربة مختلفة من نوع ما ذكرناه أثناء الكلام على أصناف المشروبات المرطبة فى أول هذا المجلد.

وفى مصر مهن أخرى خاصة بها غير التى تقدم ذكرها ..منها مهنة المكارية ـ أى الحمارين ومهنة الجمالين ومهنة النوتية فى النيل. وسأتكلم على هذه المهن بالتفصيل الوافى فى أحد الفصول الآتية:

٦٧- التجار

سبق لنا الكلام على شكل حوانيت التجارة بالقاهرة، وسمينا الأحياء المختلفة التى يصح اعتبارها مركزا للمتاجر الكبرى فيها. ونقول الآن إن أصحاب الحرفة الواحدة يجتمعون عادة فى ناحية واحدة من العاصمة المصرية. ولهذا ترى أن شوارع برمتها أو أقساما من هذه الشوارع مخصصة لصنف واحد من التجارة.

والتجار المصريون يجلسون متربعين فى حوانيتهم ، كأن على رؤوسهم

الطير دعة وسكونا. وفى كل حانوت ديوان أو «دكة» تحف به على ضيقه، هى التى يستوون عليها بذلك الوصف. وغنى عن البيان أن المقارنة بينهم والتجار بأوربا، من حيث اليقظة والحركة والتوافر على العمل، مستحيلة إذ شتان بين أولئك فى تكاسلهم وتواكلهم وجهلهم بأساليب استمالة الناس إلى الشراء وتركهم زمام رواج تجارتهم بيد القضاء والقدر وقلة تحفزهم لاقتناص قنيصة الربح، وهؤلاء فى نشاطهم ولطف أساليبهم فى اجتذاب الناس إلى اشتراء بضائعهم.

وبالقاهرة تجار من المسيحيين واليهود والعرب والترك. والفريق الأول من هؤلاء يطالبون دائما بالأسعار العالية أثمانا لبضائعهم، ولكنهم يضطرون بعد المساومة والمماكسة إلى الرضى بالثمن المعتدل الذى تساويه بضاعتهم. أما الأتراك فيحددون للمشترى الثمن الذى يريدون أن يبيعوا به بضاعتهم ويتمسكون به ولا يتنازلون عنه مهما بلغ من مماكسة المشترى. ومن عاداتهم أنهم لايبغون التمسك بالمشترى ولايبذلون جهدا ما فى سبيل الاحتفاظ به، لاعتقادهم أن الأرزاق مقدرة وأنهم لايصيبون منها إلا ما قسمه الله لهم.

(٤)
التجـــارة

الأهمية التجارية لمصر - الأصناف التى تتألف منها التجارة المصرية - الواردات والصادرات - تجارة القوافل - المحال التجارية الأوربية - خواطر وأفكار

٦٨ - الأهمية التجارية لمصر

ليس بين المواقع الجغرافية ما يشبه موقع مصر فى صلوحه للتجارة إلا القليل. وإذا اكتفينا فى النظر إلى هذا الامتياز بالاعتبارات التجارية فقط، فإننا لانرى قطرا كمصر جديرا بأن تكون له حكومة خاضعة ذات إدارة مستقلة. فإن مصر تتلقى بواسطة الإسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط جميع أصناف التجارة الواردة من الشمال والغرب، كما تقبض بيدها على

مفتاح تجارة القسم الشرقى من أفريقية. وفوق هذا وذاك فإنها الملتقى الطبيعى لشطر كبير جداً من القارة الأفريقية وصاحبة الشأن فى التماس المسالك إلى المحيط الهندى بواسطة البحر الأحمر الممتد على سواحلها . وهى التى ينبغى أن يؤول إليها الامتياز على البلدان الأخرى بنقل البضائع الجسيمة المصدرة برسم أوربا من جنوب آسيا، بعد أن كان مصدروها يلتمسون فى إيصالها إليها أبعد ما يكون من الطرقات ، ألا وهو طريق رأس الرجاء الصالح.

ولايسع أحد أن يتصدى للكلام على مصر التجارية من غير أن ينصرف خاطره إلى المستقبل، وأنه سيجعل لها شأنا رفيعا باعتبار كونها الطريق الوحيد إلى الهند، ولاسيما لأن المشروعات المتعلقة بحفر ترعة بين النيل والسويس أو إيجاد وسيلة للاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر قد جعلها الحكام المصريون، فى ظروف عديدة، نصب أعينهم واتخذوها المثل الأعلى الذى طالما بذلوا فى تحقيقه أقصى مجهودهم.

ولقد ظلت مصر إلى القرن الخامس عشر الوسيط فى المبادلات التجارية بين مصر وأوربا. وهى وظيفة ترجع بطبيعة الحال إليها وتختص بها دون غيرها، حتى أن البرتغاليين لما فتحوا طريق المحيط الأطلانطيقى، أراد أحد الذين تكاتفوا منهم على توطيد شوكة البرتغال فى آسيا ألا وهو المقدام (لبوكرك) أن يكفل لأمته على طول المدى ماأحرزه برسمها من المزايا والفوائد، فقرر احتفاظا بتلك الطريق أن يحول مجرى النيل إلى البحر الأحمر كى تنصب مياهه فيه، ويغتصب بهذا الفعل من مصر طريق البلاد الهندية.

وليس فى هذا الأمر ما يستغرب ، فما من أحد من كبار الرجال العارفين بحقائق الأحوال وتصاريفها ، إلا وقد أدرك أهمية موقع مصر وقدره حق قدره. فالإسكندر الأكبر إستشعر بهذه الأهمية، وبسببها خطط على سواحل مصر ثغرا أراد به أن يخلف ثغر (صور) فى عظمته التجارية. وما دفع بنابليون إلى ضفاف النيل سوى التجارة، ولاسبب غيرها. فقد كان هذا الرجل العظيم يريد أن يبذر للتجارة الفرنسية فى مصر بذورا ويقيم لها بها صروحا، ويتخذ هذا القطر مظهرا لنشاط التجار الفرنسيين. اعتقادا منه بأنهم سيدخلون البحر الأحمر فى نطاق أعمالهم التجارية مع البحر الأبيض

ويقبضون بيدهم على زمام احتكار التجارة الهندية البريطانية.

والذى أراه بعد هذه المقدمة أنه لاينبغى أن يعهد أمر مصر، وهى على ماتقدم ذكره من أهمية الموقع، إلا إلى دولة مستقلة حريصة على حيادها، يدعو إلى ذلك ويلتمسه بلوغ أهمية هذا القطر، من الوجهة التجارية، إلى الدرجة القصوى وانصراف الأطماع إليها من قديم الزمان. دع أن التجارة يتطلب نموها واتساع نطاقها أن تعيش فى ظلال القوة الحامية لها والحياد الذى لايعرضها للمجازفات والأخطار.

٦٩-أصناف التجارة المصرية

وصف نابليون «التجارة المصرية» فى مذكراته وصفا سطحيا مابرح منطبقا عليها إلا فى بعض الشئون الصغيرة. ولست أظننى قادرا على أن أزجى إلى ذهن القارىء صورة ممثلة لحقيقة هذه التجارة كالتى رسمها هو بوضوح فيما يأتى قال:

«تنتج مصر المحصول الوفير من القمح والأرز والخضر. وقد كانت لهذا السبب المخزن الذى تستورد منه رومية مؤونتها، وما برحت حتى اليوم خزائن الخير الوفير لمدينة القسطنطينية. وهى تنتج ، فيما عدا ماتقدم، السكر والنيلة والسنا والنطرون والكتان والقنب، إلا أنها محرومة من الأخشاب والفحم والزيت. فإن هذه الأشياء تنقصها كالتبغ الذى تستورده من بلاد الشام والبن الذى تجلبه من بلاد العرب، وفيها القطعان الكثيرة من الأغنام والماشية. وهى غير ما يوجد منها فى الصحراء كما أن فيها أنواع الأطيار المختلفة، والفروج يفرخ بها فى أفران = حضانات = خاصة فيكون عدده لهذا السبب عظيما جداً.

«ومصر واسطة بين أفريقية وآسيا. وتصل القوافل إلى القاهرة كما تصل السفن إلى الساحل - أى فى الوقت الذى لم يكن وصولها منتظرا فيه لورودها من الأصقاع النائية ولتعذر الوقوف على أخبارها قبل وصولها إلى الجيزة. وهى تدخل إلى القطر من ناحية الأهرام، وهناك يعين لها المكان الذى تعبر منه النيل فا لمكان الذى تحط فيه رحالها من ضاحية القاهرة. ومن الجيزة أيضا ترد الأنباء بوصول قوافل الحجاج أو التجار الآتية من مراكش وفاس وتونس

والجزائر وطرابلس، قاصدة إلى الأقطار الحجازية ومعها صنوف البضائع التى تقايض عليها فى القاهرة، وتتألف هذه القوافل عادة من بضع مئات من الجمال وأحيانا من، الألوف، يحرسها رجال مسلحون. وتتوارد القوافل أيضا من الحبشة وباطن أفريقية (وتنجوست) وما يتصل بهذه الأصقاع من الأقطار المفضية إلى رأس الرجاء الصالح من جهة وبلاد سنغال من جهة أخرى. وهى تحمل إلى مصر الأرقاء من العبيد والجوارى والصمغ والتبر وسن الفيل، وسائر حاصلات تلك الأقطار للمبادلة عليها ببضائع أوروبا والشرق الأدنى.

وهناك قوافل أخرى تصل من أنحاء بلاد العرب والشام كافة حاملة الفحم والحطب والفواكه والزيت والبن والتبغ، وعلى العموم كل ما ينتج داخل البلاد الهندية من مختلف الأرزاق.

إن التجارة الحالية لمصر، وإن تكن فى حاجة ماسة إلى استتباب السلم ليتسع نطاقها وتزداد منافعها، ما برحت - بالرغم من الحرب - رفيعة الشأن عظيمة الأهمية. وهى مبنية على استيراد الأنسجة وخشب البناء والحديد والآنية والورق والعقاقير وحاصلات المستعمرات وغيرها من أوروبا، وتصدير الأرز والقطن والحبوب والنيلة والأفيون .. الخ من مصر.

وفى الملخص الآتى عن واردات مصر وصادراتها فى سنة ١٨٢٦، مقدرة بطريق التقريب، ما يشير إلى درجة أهمية ذلك التبادل التجارى.

الواردات

الصنف	القيمة	
أنسجة قطنية	١٦٠٠٠٠٠٠	فرنك
أجواخ	٣٥٠٠٠٠٠	فرنك
طرابيش	١٨٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة صوفية	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة حريرية	٢٣٠٠٠٠٠	فرنك
خشب للعمارات	٩٠٠٠٠٠٠	فرنك
حديد قضبان وأسلاك حديدية	٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
آنية من الحديد والنحاس وسكاكين	٢٥٠٠٠٠٠	فرنك
ورق	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
عقاقير وأصناف عطارة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
فحم حجر وحطب	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
قرمز	١٣٠٠٠٠٠	فرنك
سكر	٦٦٦٠٠٠	فرنك
زجاج ومرايا	٦٤٠٠٠٠	فرنك
زيوت	٧٧٠٠٠٠	فرنك
أنبذة ومشروبات روحية	٧١٠٠٠٠	فرنك
بضائع أخرى	٢٠٠٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٥٠٧٨٦٠٠٠	فرنك

الصادرات

الصنف	القيمة	
قطن	٢٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
أرز	٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
صمغ	٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
أنسجة كتانية	١٦٤١٠٠٠	فرنك
حبوب	١٦٢٥٠٠٠	فرنك
صودا	١٥٨٠٠٠٠	فرنك
بلح	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
خضر جافة	١:٠٠٠٠٠٠	فرنك
أفيون	٩٠٠٠٠٠	فرنك
حناء	٦٠٠٠٠٠	فرنك
بضاعات أخرى	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٤٠٥٤٦٠٠٠	فرنك

لم نذكر فى الجدول السابق إلا ما يتعلق بالتجارة بين مصر وأوروبا. أما الجدول الثانى فقد ذكرنا فيه بيان الحركة التجارية العامة فى الإسكندرية مشتملة على حركة التجارة مع البلاد العثمانية.

جهات الورود والتصدير	الواردات	الصادرات	مجموع التجارة
النمسا	٤٣٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠٠	٥٨٣٠٠٠٠٠
تركيا	١٢٧٠٠٠٠٠	١٢١٠٠٠٠٠	٢٤٨٠٠٠٠٠
إنجلترا	١٥١٦٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠	٢٠٥٦٠٠٠٠
فرنسا	٥٨٠٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠٠٠	١٦٦٠٠٠٠٠
توسكانا	١٠٢٦٠٠٠٠	٥١٣٠٠٠٠	١٥٣٩٠٠٠٠
الشام	٢٨٠٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠٠
بلاد الغرب	٤٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
اليونان	١٣٦٠٠٠٠	٨٢٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠
بلجيكا وهولاندا	٥٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠
السويد	١١٧٠٠٠	ـــ	١١٧٠٠٠
ممالك أخرى	١٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
المجاميع	٩٧١٩٧٠٠٠	٥٦٩٠٠٠٠٠	١٥٤٠٩٧٠٠٠

فى سنة ١٨٣٦لزم لتجارة الإسكندرية الواردة ١٢٣٥ سفينة محمولها بالطن ١٥٣١٤٨ والصادرة ١١٤٧ محمولها بالطن ١٣٤٠٠٠.

٧٠- تجارة القوافل

تقدر تجارة مصر كلها، بواسطة البحر الأحمر والقوافل بنحو عشرة ملايين من الفرنكات. وفى كل سنة تصل إلى القاهرة من بلاد الحبشة قافلة. تجلب معها العبيد والجوارى وسن الفيل وريش النعام والإبريز والصمغ الخ.

وتتألف فى مراكش قافلة أخرى برسم الحج إلى مكة. فتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأخذ معها الحجاج من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس الخ، وتصل إلى صحراء الإسكندرية فى أربعة آلاف جمل، ثم تقصد منها إلى القاهرة حيث تنضم إلى القافلة المصرية، وتتجه القافلتان بعد ذلك إلى البلاد الحجازية.

وتجبى حكومة القاهرة رسوما للمرور عن البضائع والحجاج. وتصل من دمشق بين حين وآخر قوافل صغيرة تحمل معها الأقمشة الحريرية والقطنية والزيت والنقل.

٧١- المحلات التجارية الأوروبية

يبلغ عدد محلات التجارة الأوروبية بالإسكندرية الآن أربعة وأربعين محلا، وكانت فى سنة ١٨٢٢ لا تتجاوز ستة عشر محلا . ومن المحال الموجودة الآن ثلاثة عشر محلا فرنسيا وسبعة محال إنجليزية وتسعة نمساوية وثمانية توسكانية واثنان سردينيان وواحد دانمركى وواحد هولندى وواحد بروسى وواحد تابع لحكومة اليونان الجديدة.

وهناك فيما عدا ما ذكر ، ستة محال لتجار من المسلمين وأربعة لتجار من أساكل الشرق وهم يونان جميعا على المذهب الكاثوليكى.

والتجار المشتغلون لحساب أنفسهم بالقاهرة قليلو العدد وإنما الموجودون بها وكلاء عن بيوت الإسكندرية، ففيها محل إنجليزى وتسعة محال نمساوية وأربعة توسكانية اثنان سردينيان وإثنان يونانيان وعشرة للرعايا العثمانيين من أساكل الشرق وثلاثة وستون لتجارة صغار من الأتراك والمغاربة والمصريين.

٧٢- أفكار وخواطر

لم تكن، مصر على عهد المماليك بحيث تنتج من المحصولات ماتنتجه الآن ، وهذه الحقيقة يسهل فهمها بمجرد التفكير فيما صرفه محمد على على وسائل العناية بالزراعة فلقد أدخل إلى مصر زراعات وافرة المحصول طيبة الثمرات كزراعة القطن التى يصح اعتبارها اليوم الفرع الأصلى من فروع تجارة التصدير.

هذا وقد زادت الواردات أيضا كما زادت الصادرات لسبب يرجع — بلا ريب — إلى ما تشعر مصر به أثناء انسياقها فى طريق النجاح والرقى من الاحتياجات المختلفة، إذ غير خاف ماهناك من ضرورة تموين الترسانات والفاوريقات والمدارس والمصالح، وعلى الخصوص الجيش الكبير المضطر بظروف الأحوال إلى البقاء تحت السلاح، باللوازم والمعدات.

وما ينقص مصر لكى تبلغ إلى الغاية القصوى من الثروة التجارية هو المعيشة فى ظلال السلم. فلو أن عقدة الإشكال التركى المصرى حُلت نهائيا وحُسم الخلاف المشتجر بين الحكومتين العثمانية والمصرية، بعناية من الدول الأوروبية لاتسع نطاق الزراعة بما ينضم إليها من ألوف العاملين الذين تثقل عواهنهم الآن أعباء السلاح، وارتفع عن الميزانية الشطر الأعظم من باب المصروفات، وغنى عنى البيان ما تجنيه مصر أولاً ثم الدول الأوروبية التى ترتبط مصلحتها التجارية بمصلحة مصر، من الفوائد الجزيلة والمنافع العميمة إذا تحققت تلك الأمانى.

الباب العاشر

التعليم العام والمدارس فى مصر

العلوم فى الأزمان القديمة وفى عهد العرب– عصر الخلفاء– عصر المماليك– نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على– البعثة المصرية فى باريس– تاسيس المدارس– تنظيم المعارف العمومية.

١– العلوم فى الأزمان القديمة وفى عهد العرب

كانت مصر مهد العلم ومبعث أنوار العرفان. فظلت إلى مابعد الفتح الفارسى، رافعة لواءهما وطارحة فى جميع الأرجاء ضياءهما. ومما لايحتاج إلى عناء التفكير أن أغلب فطاحل علماء اليونان (كفيثاغورس) و (هيرودتس) و (أفلاطون) و(أرسطو) وفدوا على مصر فى تلك الأزمان. فتلقى بعضهم عنها أصول الفلسفة وقواعد الدين، والبعض الآخر حقائق العلوم والفنون وما هو متبع فى استقصائها عن الأنماط والأساليب. ولماانطفأ سراج المدارس اليونانية وخبا نورها وغشيت بعده ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض، سما لمدرسة الإسكندرية كوكب تكبد السماء. فلم تلبث أن صارت للعلم والعرفان مشكاة تبهر الأبصار بسنائها الساطع. ولقد نبغ فيها علماء بثوا فى الخافقين شهرتها منذ عهد البطالسة إلى أوائل القرن السادس من الميلاد، ومنهم المهندس (أرخميدس) والفلكى (بطليموس الفالوذى) والفيلسوفان (جمبليكس) و(بلوطانس) والأطباء (هيروفيلس) و(إيروز ستراتس) و(جالينوس) وغيرهم.

٢- عصر الخلفاء

جاء العهد الأول من عصر الدولة العربية مبددا لما غشى النفوس من سحب المخاوف والهلع من تعصب الفاتحين المسلمين. فلقد كان عصر الخلفاء غرة فى جبين الدهر ومن أعلى وأغلى ما تزدان به تواريخ العلوم والآداب والفنون. ولا عجب فقد كانت أسماء هارون الرشيد والمأمون والمنصور لاتزال من العناوين الخالدة على الملوك والأمراء الذين أحاطوا العلوم والمعارف بسياج حمايتهم وأمدوها بمتواصل رعايتهم. فإنهم عهدوا الى لفيف من أعيان المسيحيين واليهود الواقفين على أبوابهم والمتصلين بحكومتهم فى نقل أهم المصنفات العلمية الى اللغة العربية. ومع أن المغالين فى التحبيذ قد تجاوزوا حد المعقول فى برقشة الحضارة العربية بألوان المديح، فلا يسعنا إلا الاعتراف به على الملأ بأننا مدينون لها، فيما عدا الآثار الفخمة والمصنفات الأدبية الجليلة - بالاستكشافات الأولى فى الكيمياء ومبادىء علم الجبر ، وبما أحرزه من التقدم على يدهم علم الحيل (الميكانيكا) ثم بالمزاول الشمسية والساعات والأراغن الموسيقية وغيرها.

٣- عصر المماليك

اندثرت باندثار الأنظمة العلمية التى خفقت عليها رايات مجدهم وأظلها رواق شوكتهم. لأن الأسر المملوكية التى خلفتهم فى ولاية الأمر كانت على الدوام مزعزعة الأركان ضعيفة القواعد، فلم تعن بالشئون العلمية التى أخذت تضمحل وتذوى كما تذوى أوراق الشجر. فإن السلاطين المماليك الذين ألقوا أساس الحكم الاستبدادى الذى أقاموا عليه صرح شوكتهم قد تركوا بعد انقراضهم من الآثار الهندسية الفنية، فلما حل المماليك محلهم ولم تكن لهم دراية بشىء غير العلم بأساليب القتال، ولا عمل عندهم أشرف من رياضة الأجسام، دفعوا بمصر الى الأمام، وإنما فى طريق الهمجية والجهل. ففى عهدهم لم يرتفع شأن لعلم سوى دراسة القرآن. أما العلوم والفنون الأخرى، فقد ألقيت فى زوايا النسيان، واطرحت حتى صار علم الطب دجلا وشعوذة فظيعة وساءت الأحوال الى أن فقد المصريون كل ذكرى تتعلق بماضى بلادهم. وفى عهد الحملة الفرنسية أخذ بعض مواطنينا يقصدون إلى الأهرام لمشاهدتها، فكان الأهلون يقولون أن تلك الأهرام شادها أقوام

الفرنسيون من سلالتهم. وكانوا قبل ذلك يعتقدون أنها أثر من آثار الطبيعة وعمل لادخل ليد الإنسان فيه.

وكانت نتف العلوم التى تتحلى مصر بها فى ذلك الأوان احتكاراً للعلماء ووقفا عليهم .إذ كان هؤلاء يتلقون فى الجامع الأزهر بعض الشىء من فلسفة (أرسطو) واللغة العربية والكتابة والحساب وتفسير القرآن وتاريخ الخلفاء، لينقلوه فيما بعد إلى غيرهم ولم يكونوا حاصلين من مبادىء علم الهيئة وتخطيط البلدان إلا على مبادىء وأصول مبنية على الأغلاط والأباطيل.

ولم تكن الثلاث سنوات التى قضاها رجال الحملة الفرنسية فى مصر وعادت على العلم بأجزل الفوائد وأوفر الثمار بكافية لنمو نبت التعليم وترعرعه وإزهاره بين المصريين الوطنيين.

٤- نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على

كان من نصيب محمد على أن يتولى نشر راية العلوم والمعارف فى قطر قطعت فيه الدور الأول من أدوار نموها وازدهارها، وجاءت بباكورة طيبة من الثمرات الشهية الجميلة. فلقد وجه هذا الوالى منذ البدء لفتة من لفتاته الصائبة الحكيمة إلى التعليم، وقدر ماله من جليل المزايا فلم يمض على استلامه مقاليد الأمور زمن يسير حتى أنشأ جملة من المدارس لم تبلغ من الأهمية المبلغ الذى كان يتمناه لها. ثم أدرك فيما بعد أن لا مناص له من الاعتماد على أوربا فى الاسترشاد بها إلى طريق التقدم العلمى، فوجه إلى إيطاليا وفرنسا طائفتين من الشبان المسلمين لتنشئتهم فيهما على تلقى العلوم والتحلى بحلية الآداب والفنون. فنبغ من بينهم فى مقدمة من نبغوا عثمان أفندى نور الدين الذى بعد أن قضى سنوات فى بلادنا عهدت إليه إدارة مدرسة القصر العينى الكبرى، وأسس مدرسة أركان الحرب بالخانقاه فى سنة ١٨٢١.

٥- البعثة المصرية

لما عاد السلم إلى نصابه فى سنة ١٨١٥ خاطب العلامة (جومار) — أحد مهندسى الجيش الفرنسى بالشرق سابقا ـ ومرخص الحكومة المندوب منها عامئذ لمباشرة نشر استكشافات المعهد العلمى المصرى، قنصل فرنسا

بالإسكندرية ليستأذنه فى استئناف المباحث العلمية والتاريخية التى بدىء بها أيام الحملة الفرنسية. وقد حزر منذ هذا الحين كل ما كان ينتظر أن محمد على سيبذله من الجهود لاستنبات الغراس الذى غرسته تلك الحملة على ضفاف النيل.

وكان من الأغراض التى يرمى إليها توثيق الصلة بين مصر وفرنسا بأواخى الشكر وقيود الامتنان لما ستقدمه الثانية إلى الأولى من وسائل الرقى العلمى وتمهده لها من طرق النقد الفنى والأدبى. وكان تعليم الأهالى الوطنيين من أقوى عوامل الإصلاح والحضارة فى مصر. وكانت الحكومة المصرية ميالة بالبداهة الى التذرع به لإنهاض البلاد من كبوتها ورفعها إلى المستوى الجدير بها أن تظهر فيه.

وأثناء وجود عثمان أفندى نور الدين بفرنسا كاشفه العلامة (جومار) بمشروع ابتكره لتحقيق ذلك الغرض، وهو إرسال بعثات مصرية إلى أوربا لطلب العلم فيها فتلقاه عثمان أفندى بالاستحسان وأطلع عليه سمو الوالى الذى لم يلبث أن أمر بتنفيذه، وقد نفذ فعلا منذ سنة ١٨٢٦ إذ عهد سموه إلى المسيو جومار إرسال أول بعثة مصرية فى فرنسا وكانت مؤلفة من أربعة وأربعين شابا من الأتراك والمصريين.

ولست أقصد هنا إثبات تاريخ هذه البعثة الفريدة فى بابها. بل أقتصر على القول بأن مديرها حصل بعد مضى سنة أو سنتين من تأليفها على نتائج جليلة ومزايا نافعة بتهيئته أحد عشر طالبا من أولئك الشبان لدرس أساليب الإدارة العسكرية والمدنية والسياسية، وثمانية لتعلم فن البحر والهندسة العسكرية والمدفعية، وإثنين لاستقصاء علوم الطب والجراحة وخمسة لدرس الزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعى، وأربعة لتحصيل العلوم الكيميائية، وأربعة لممارسة فن الأيدروليك وصب المعادن، وثلاثة لمباشرة الحفر فى المعادن والطباعة، وواحد لإتقان فن الترجمة، وآخر لإجادة فن العمارة وقد اضطر خمسة من أعضاء البعثة إلى العودة لأسباب بعضها صحى والبعض الآخر يتعلق بعدم الكفاءة وقلة الأهلية.

وأخذ الطلاب يتواردون بعد ذلك إلى فرنسا فى كل عام وينضمون إلى طلاب البعثة الأولى، فبلغ عدد الذين قدموا إليها فى طلب العلم من سنة ١٨٢٧

إلى سنة ١٨٣٣ نحو ستين طالبا. سوادهم الأعظم من أبناء الفلاحين، وقد تخصص أربعون منهم لدراسة العلوم الآلية (الميكانيكية) وإثنا عشر لدراسة الطب والأقرباذين = صناعة الدواء =، وكنت أنا الذى جاء بهم إلى باريس. وإذا ضممنا إلى هؤلاء الطلاب سبعة من الحبشان وثلاثة من أبناء الذوات فإن مجموع طلاب البعثة حتى تلك السنة يبلغ مائة وأربعة عشر طالبا.

فماذا كانت نتائج هذه البعثات ؟ لست أزعم أن هؤلاء الطلاب جنوا من الثمرات ما كان مرجوا لهم أن يفوزوا به منها. ولكنى أستطيع التأكيد بأن نسبة الناجحين منهم تجاوزت الحد المعتاد وأن نجاحهم فى الامتحانات العامة التى لاسبيل فيها إلى المحاباة كان باهرا جداً، إذ أحرز بعضهم قصب السبق بإمتياز عظيم فى امتحانات مدارسنا الكبرى فتخرجوا منها مزودين بأجازة الليسانس أو الدكتورية فى العلوم أو بشهادة النبوغ فى علوم الطب والصيدلة.

ولايسعنى فى هذا المقام إلا أن أورد أسماء بعض النابغين على طريق التدليل والاستشهاد. وإذا كنت آثرتهم على غيرهم بإيراد أسمائهم فما ذلك إلا رجاء أن يكون هذا الإيثار منشطا للأخرين وحاثا على الجد فى تحصيل العلوم وأن يكونوا أهلا للتنويه بهم. أما أولئك الذين آثرتهم على غيرهم فأذكر فى مقدمتهم عبدى بك ومختار بك وقد تولى أحدهما رئاسة مجلس الحكومة والآخر إدارة المعارف العامة، وحسن بك الذى عهدت إليه نظارة البحرية، وأرتين بك وخسرو أفندى ويشغل أحدهما الآن المنصب الأول لكتابة السر والترجمة لسمو الوالى والآخر المنصب الثانى لها، وأمين بك مدير فاوريقة ملح البارود، واسطفان أفندى عضو مجلس الحكومة والشيخ رفاعة رافع أستاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة، ومظهر ومصطفى المهندسان، ومحمد بيومى أستاذ الرياضيات، وحسن الوردانى ومحمد مراد ومحمد إسماعيل المعلمون فى النقش والزخرفة والرسم، وأحمد يوسف مدير دار الضرب (الضربخانة)، وهو الذى كلف بالذهاب إلى فازوغلى للبحث عن الإبريز فى رمالها أو زار مناجم الذهب فى (مكسيكا) ، ومحمد نافع وأحمد الرشيدى وعشرة غيرهما من الأطباء الأساتذة بمدرسة قصر العين، وحسين الرشيدى مدير معمل الصيدلة وغير هؤلاء كثيرون منهم، المدفعيون ومنهم الموظفون فى الفاوريقات ومنهم المزارعون وغيرهم ممن امتازوا بالبراعة

وفاقوا الفوق العظيم فى العلوم والفنون التى تفرغوا لدراستها وتوفروا على استقصاء غايتها. وهم يبلغون النصف من عدد الطلاب الذين آثروا البقاء فى مصر ولا يزالون يقومون به يوميا من جليل الخدمة وجزيل الإفادة فذلك غنى عن البيان وأشهر من نار على علم. وإنما نخص بالذكر ثمرة من الثمار الغضة فازت فرنسا باجتنائها من وراء البعثة المصرية ألا وهى نشر اللغة الفرنسية والنفوذ الفرنسى فى مصر. وبحصول فرنسا على هذه الثمرة لن يأسف سمو الوالى محمد على ما كلفت البعثة المصرية من الجهود المتواصلة والكلف الباهظة إذ تكون فرنسا قد حصلت على ماتطمح إليه من حسن الجزاء تلقاء ما بذلته من العناية فى تعليم الشبيبة المصرية وتبريزها. شكرا من مصر لها علىإكرامها مثوى أولئك الشبان، واعترافا بحسن صنيعها وجنوحا إليها بباعث الحب الصادق والولاء الخالص. أما العلامة (جومار) الذى يرجع إليه الفضل فى ظهور تلك النتائج الجليلة بما بذله فى سبيل ذلك من الهمة والغيرة والعناية والإخلاص فلن توفى مصر وفرنسا والعلوم ما هو جدير به وأهل له [1].

٦- تأسيس المدارس

فى سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة أبى زعبل الطبية التى سنخصها ببعض البيانات عند الكلام على الطب. وقد أنشئت المدارس تباعا بعد ذلك، ولم يكن النظام فيها كلها متشابها. وكانت، تابعة لنظارات الحكومة على اختلافها، ولكن انحلال الرابطة بينها بعدم وجود نظام شامل لها أفادها فى بادىء الأمر فائدة لاتنكر، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زج ببعضها فى طريق التقدم فقطعت منه أشواطا طويلة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل . على أن المصريين لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين بل قاوموا التعليم وأقاموا فى طريقه العقبات وألقوا المعاثر كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد وحشد العمال لمزاولة الصنائع. وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم

(١) انى اغتنم هذه الفرصة لكى أؤدى إلى المسيو جومار ماهو حقيق به من المدح من جهة تستدعى مزيد الشرف له فلقد أرادت الحكومة المصرية أن تكافئه على متاعبه وأعماله الجليلة . فلم يكن من هذا العالم الجليل إلا أن رفض هذه التقدمة بعزة نفس وحسن قصد . بالرغم من أهمية المرتب الذى الح عليه بقبوله.

بترا للأصابع وسملا للعيون. منعا لقبولهم بالمدارس فى حين أن التلاميذ يعاملون بها معاملة مملوءة بالعطف والرعاية إذ تنفق الحكومة على شئونهم كافة من مسكن وغذاء ولباس بدون أن تتقاضى منهم درهما. بل هى فوق ماتقدم، تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات وتعتبر المدة التى يقضونها بالمدارس من أدوار الانتقال المفضية بهم إلى المراتب الرفيعة المفضلة ، بلا ريب - على البيئات التى منها توافدت وفودهم. ولقد أدرك الآباء فيما بعد مايترتب على التعليم من المزايا المادية والمنافع الدنيوية. فكفوا عن المعارضة فى إرسال أبنائهم إلى المدارس التى شادتها الحكومة لهم بالمال الكثير.

٧- تنظيم التعليم العام

لما أتت المدارس التى تم تنظيمها وأحكم ترتيبها نهائيا بثمرتها الأولى، أدرك الناس أهميتها . فعهدت الحكومة بإدارتها إلى ناظر خاص، كان أول ما مارسه من أعمالها أن قسم التعليم ثلاث درجات شملت الدرجة الأولى المدارس الإبتدائية والثانية المدارس التجهيزية والثالثة الخصوصية.

وأنشئت مدارس ابتدائية فى الأقاليم وأطراف القطر فبلغ عددها بالوجه البحرى أربعين مدرسة وبالوجه القبلى ستا وعشرين، وفى كل مدرسة مائة تلميذ. تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة. والمدة المقررة للدراسة فيها ثلاث سنوات، يتجدد ثلث عدد التلاميذ فى كل سنة ويتعلمون المبادىء الأولية من اللغة العربية والحساب وغيرهما.

ومن المدارس الابتدائية تستمد المدارس التجهيزية تلاميذها، ومن هذه المدارس واحدة كبيرة جداً بأبى زعبل. وكانت قبلا بقصر العينى ثم نقلت منه لما خصص هذا القصر بالمستشفى العسكرى العام والمدرسة الطبية. أما المدرسة التجهيزية الثانية فبالإسكندرية. وفى المدرستين يتناول التعليم علوما أكثر مما يتناوله التعليم الابتدائى، إذ تعلم فيها اللغة التركية ومبادىء الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم وغيرها، والتلاميذ يقضون بها أربع سنوات ويتجدد عددهم فيها بنسبة الربع سنويا.

أما المدارس الخصوصية فهى: مدرسة الهندسة ومدرسة الطوبجية ومدرسة الخيالة ومدرسة البيادة ومدرسة الطب ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة اللغات والألسن ومدرسة الموسيقى ومدرسة

الفنون والصنايع.

وبالقطر المصرى تسعة آلاف تلميذ تنفق الحكومة على سكناهم وغذائهم ولباسهم، وتدفع لهم المرتبات الشهرية. وهم ينامون على أسرة حديد مفروشة بمرتبة من القش وأخرى من القطن ويصرف لهم فى كل عام طربوش وأربعة أقمصة وأربعة سراويل وأربع تكك وأربعة مناديل للجيب ومنديلان (فوطتان) لتجفيف الجسم من ماء الاستحمام وثلاثة مراكيب وصدريتان الخ.

والغذاء الذى يقدم إليهم صحى جيد وهم يتناولونه فى وجبتين الأولى قبل الظهر بساعة والثانية بعد غروب الشمس بساعة ودروسهم مقسمة حصصا بحسب الساعات ، ويتقاضون فى آخر الشهر مرتبا، فتلاميذ التعليم الإبتدائى يتقاضون فى السنة الأولى خمسة قروش شهريا، وفى السنة الثانية عشرة وفى الثالثة خمسة عشر قرشا. أما الذين يتلقون التعليم التجهيزى فيتقاضون فى السنة الأولى عشرين قرشا شهريا وفى الثانية خمسة وعشرين، وفى الثالثة ثلاثين وفى الرابعة خمسة وثلاثين ويقبض تلاميذ المدارس الخصوصية أربعين قرشا شهريا فى السنة الأولى، وخمسين فى الثانية، وستين فى الثالثة وسبعين فى الرابعة.

ولكل مدرسة ناظر توكل إليه إدارتها من الوجهة المادية وعالم لإرشاد تلاميذها.

الباب الحادى عشر

صحة المصريين وأمراضهم وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية

(١)

تربية المصريين – طريقة معيشتهم – إمساكهم عن المشروبات – استعمال القهوة والأفيون والحشيش – الحمامات – نصائح الأجانب المقيمين بمصر.

١– تربية المصريين

إذا تأملت المصرى أثناء تقلبه فى طوار الحياة ، فإنك تجده منذ مبارحته لحضن أمه، عارى الجسم أو مستترا بخرق من القماش الغليظ، ومعرضا لاختلافات الطقس وتقلبات الفصول، فيصير منذ ولادته سلبيا من الشعور بالفواعل الخارجية التى تؤثر قليلا أو كثيرا فى النظام العضوى لجميع الكائنات. وتراه ينموا سريعا، ويترعرع بدون أن تصيبه أمراض الخنازير ولين العظام وغيرها. حقا تظهر عليه أحيانا، وهو فى سن الطفولة أعراض مرضية فى ناحية البطن يدل على وجودها مايعترى هذا العضو من الضخامة إلا أن هذا الاستعداد المرضى ينسب إلى قلة العناية بالأطفال وإغفال أغلب شئونهم فى السنوات الأولى من حياتهم . كما يعزى أيضا إلى الطريقة المتبعة فى تغذيتهم ونوع اللبن الذى تسد به حلوقهم آناء الليل وأطراف النهار فيصابون بسوء الهضم وينتهى الأمر بهم – على توالى الأيام – إلى تضخم أحشائهم وأمعائهم كما قلنا. وهذه الاستعدادات المهيئة للمرض لم تكن عامة، وإذا توافرت فسرعان ماتزول. لأن الغلام لايكاد يبلغ الشهر السادس أو الثامن من عمره حتى يدب ويدرج، فإذا بلغ من سنيه السابعة أو الثامنة، وقد نمت قوى بدنه وعقله نموها المبكر، تراه وقد أصبح قادرا على كفاية نفسه. ومنذ هذا الوقت تبتدىء حياته فى ميدان الجد والعمل، فتراه بالقاهرة

والإسكندرية وسائر المدن مغرما بالربح، يقدم إليك حماره لتقطع به المسافات الطويلة المحفوفة بالأخطار، ومن ذا الذى جاء للسياحة بمصر ولم يحمل عليه جماعة الحمارين (المكارية) حملاتهم العنيفة ؟ بل من منهم لم يعجب بخفتهم ونشاطهم وسرعة حركتهم مع عدم احتياجهم لشىء ما أثناء قطعهم الأشواط الطويلة والشقق البعيدة ركضا على الأقدام بلا حذاء وجريا على أرض تلظى بحرارة قيظ لايطاق؟

وإذا تقدم فى السن قليلا بعد ذلك، ورأى رفيقه فى أوصاب الحياة ومتاعبها غير كاف لقضاء حاجته وسد عوزه فسرعان مايطلب الانتظام فى سلك السواس(السياس) الذين ذكرنا عنهم أنهم يعتادون الركض منذ الصغر ويدربون أنفسهم عليه بحيث يستطيعون مجاراة الخيول فى سرعة ركضها زمنا طويلا. وهذه الرياضة - التى لا يشك أحد فى عنفها ومتاعبها التى لايحتملها غير المصريين - لاتصيبهم بما تصيب به غيرهم ممن يحاولون معالجتها من الضرر، إذ قصارى ماينجم عنها بالنسبة للمصرى أن أعضاء التنفس والعضلات فيه تنمو وتكتسب حجما كبيرا.

٢- طريقة معيشتهم

من أسباب قوة بنية المصريين ومتانة عضلاتهم ووثوق أساطينهم التزامهم جانب القناعة والاعتدال فى المآكل والمشرب وطريقتهم فى توزيع وجبات الطعام. فالفلاح فى الأرياف كالعربى فى الصحراء يعلم علم اليقين أن الغذاء الوفير الذى يدخل فى تركيبة الكثير من المواد الحيوانية والدسمة لايتفق وطقس القطر المصرى وحرارة الشمس الشديدة فيه. ويعلم أيضا بدافع من فطرته وتجاربه أنه إذا لم تحتو المعدة من الغذاء السهل الهضم سوى النزر اليسير، أدت أعضاء الجسم جميعا وظائفها بسهولة وانتظام، فضلا عن أن التنفس لاتعترضه العوائق وعن أن المفاصل تبقى لينة، فيحتمل الإنسان فى هذه الحالة بسهولة تامة لقطع أجواز الفلاة، لا يأخذ معه ذخيرة ليومه سوى كيس صغير يحتوى بعض الدقيق وقربة ماء صغيرة، فيعجن من الدقيق فى رؤبة (قصعة) صغيرة هى التتمة لما يحمله معه من المتاع مايلزم لعمل خمسة أو ستة أقراص من الخبز لاتتجاوز القطعة التى يصنع منها القرص حجم الجوزة، ثم يجفف الأقراص فى الشمس أو ينضجها على النار، وقد

يقترن هذا الغذاء بشىء من التمر الجاف فيكفى ذلك لإشباعه طول النهار.

وإذا كان الفلاحون المصريون لايبالغون فى التقشف مبالغة عربان الصحراء فيه بل إذا كان سكان المدن يتحرون فى طعامهم الأصناف اللذيذة التى يجهلها أولئك العربان، فلا ينهض هذا دليلا على أنهم ليسوا على جانب كبير من القناعة والاعتدال، إذ إنهم لايتناولون أبداً من الطعام إلا مايقوم بأودهم ولايلجأون إلى الأغذية المحرضة والتوابل المشهية التى يكثر الأوروبيون من أكلها لتحريك الشهية.

٣- الإمساك عن المشروبات

إمساك المسلمين عن تعاطى النبيذ والمشروبات الكحولية سبب آخر من الأسباب التى تقيهم شر الأمراض والآفات التى تتحيف سكان الأقاليم الحارة حتما إذا أقبلوا عليه.. وسواد المصريين لايعرفون من ضروب الشراب سوى الماء القراح ، أما المسيحيون واليّهود فيتعاطون الأنبذة بوجه عام،، والشراب المعروف بالعرقى بوجه خاص.

٤- قهوة البن والأفيون

قهوة البن من المنبهات التى ألف المصريون تعاطيها وتأثيرها فى النظام العضوى أخف وطأة بلا ريب من تأثير المشروبات المحرضة فيها، إلا أننى أعتقد أن اعتياد المسلمين شربها لايخلو من أثر ضار بصحتهم. وضررها هذا مؤكد بذوى المزاج السريع الانفعال والتهيج العصبى. ولايبعد عن الظن أن يكون هذا الشراب من بواعث العنة التى يشكو منها الكثيرون من الشرقيين غير أن لهذه العاهة - فيما نعلم - سببا أقوى من إدمان القهوة. الا وهو استعمال الأفيون على وجه أصبح منتشرا معه بين المسلمين، ولا سيما الأتراك منهم. ويحدث الأفيون بفعله المحرض ضعفا فى الجهاز العصبى وخمودا فى أعضاء الجسم وأنه لمن حسن الحظ أن يكون الأفيون غير ماهو شائع الاستعمال بين المصريين ولكن من أقوى بواعث الأسف ماهو مشاهد من إقبالهم العظيم على الحشيش، وهو تلك المادة التى سبق لنا الكلام عليها والتى لايقل ضررها بالجسم عن ضرر الأفيون.

٥- الحمامات والدلك

سبق لى أن أفضت فى الكلام على الحمامات البخارية وعملية دلك الجسم وما ينجم عنها من جزيل الفوائد باعتبار أنها من وسائل الصحة أو طرائق العلاج من الأمراض ولست بمكرر فى هذا المقام ماسبق لى إيراده فى هذا الموضوع بل اقتصر على تحويل القارىء إلى ماأوردته من التفاصيل السابقة.

إن المصرى مدين بقوة بنيته واعتدال مزاجه إلى تمسكه بما ذكرته الآن من عاداته المختلفة كالقناعة والتقشف والأساليب المتبعة فى حياته ، والظروف الخاصة بالطقس والمحيطة بالمكان. فإلى هذه الأسباب بلا ريب يرجع انحصار الأمراض بمصر فى دائرة ضيقة جداً حتى أنهم لايعدون من الموتى فى مدينة القاهرة التى يتجاوز عددها ثلاثمائة ألف نسمة أكثر من ثمانية عشر إلى عشرين كل يوم.

ويسير المصريون الآن سيرا حثيثا فى سبيل الحياة الصحيحة. فإنه لايندر أن تجد بينهم أناسا تجاوزت أعمارهم المائة. وشهدت بنفسى شيخاً من هذا القبيل فى الثلاثين من عمره بعد المائة ولم يكن مصابا بعاهة أو مرض سوى الماء الساقط فى إحدى عينيه. وفى بلدة (كفر نجم) من إقليم الشرقية لايزال على قيد الحياة رجل فى الثالثة والعشرين بعد المائة من عمره حائزا تمام الصحة، وله جملة أبناء أكبرهم سنا فى الثمانين من عمره ، والثانى فى الرابعة والسبعين، والثالث فى السنة الثالثة والأخير لايتجاوز عمره بضعة أشهر. وزوجة هذا الشيخ من طهارة الذيل بما يدفع كل شك فى أن المولود الأخير الأخير من صلبه. واتفقت لذلك الشيخ الفانى حادثة فى غاية الغرابة وهى أنه لما بلغ الثانية والثمانين من عمره نبتت له ست أسنان جديدة اضطر بعد ذلك إلى خلعها لما كان يشعر به من الضيق والحيرة بوجودها.

٦- نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر

ماذكرته الآن من حسن تأثير قناعة المصريين فى صحتهم والحرص على أداء بعض الإجرياء = الإجراءات = الصحية يدعونى فى هذا المقام الى توجيه بعض النصائح إلى الأوربيين من ساكنى مصر والسياح الذين يجوبون أرجاءها. أذكر فى طليعتها التحاشى عن التغذى بما يدخل فى تركيبه الكثير من

الأصول الحيوانية لما هو معروف ومقرر فى العلم من أنها تفيض عن حاجة الجسم إلى تعويض ما فقده، وتتجاوز القدر المناسب من التنبيه والتحريض، ثم الإمساك عن النبيذ الصرف والمشروبات الكحولية.

وتأثير المشروبات الكحولية بالبلاد الحارة فى صحة متعاطيها ردىء للدرجة القصوى ولعل فى التجارب الكثيرة التى قام الباحثون بها فى هذا الموضوع مقنعا للناس كافة بهذا الضرر، إذ غير خاف عليهم ما لوحظ من أزدياد عدد الوفيات بمصر بنسبة مزعجة بين الأجانب الذين ألفوا تعاطى تلك المشروبات. ومما هو غنى عن البيان وإقامة الدليل عليه لبداهته أن الإنجليز النازلين فى هذا القطر يهلكون بنسبة فاحشة جداً بالقياس على نسبة الوفيات فى الجاليات الإفرنجية الأخرى. وما ذلك إلا لأن الإنجليز احتفظوا فى مصر بعادة إدمان المسكرات. وهى عادة لاتتفق وطقس البلاد التى جاءوا ليتخذوها مقاما لهم.

وهناك أمر آخر ينبغى أن يلاحظه الناس كافة ويعملوا به أثناء إقامتهم فى القطر المصرى، نريد به التوقى من تأثير الرطوبة واختلافات الطقس المتواترة الوقوع فى هذا القطر. والسبيل الى هذه الوقاية إنما هو بالحرص على لبس الثياب المدفئة والإحجام عن النوم فى المخادع والغرف المفتوحة النوافذ، أثناء النوم ، والاحتراز من الرقاد فى ظل الأشجار كما يفعل الفلاحون غالبا فإن إهمال الاحتياطات يفضى فى كثير من الحالات الى ضعف الجسم وانحلال قواه، ويسبب الأمراض الروماتزمية والإصابات الرمدية وغيرها من أنواع الأمراض التى تهيىء حالة الجسم واستعداده إلى الإصابة بها.

ومن عادة الأهلين بمصر إذا أحسوا ببوادر أعراض مايلحقهم من مرض أو انحراف فى الصحة أن يعللوا ما اعتراهم من ذلك - وهو ماننذهب إلى أنه الصواب بعينه - نسداد المسام وقلة افرازات الجلد. وسرعان مايلجأون فى إزالة هذه الأعراض إلى وسيلة لاريب فى حسن أثرها وصدق فعلها، ألا وهى التوجه إلى الحمامات البخارية لاستثارة إفراز العرق الغزير من أبدانهم وهذا وحده يكفى لتبديد ماظهر من تلك الأعراض عادة. وأنى لأنصح بالاعتماد على الحمامات إلى من يشعرون بما وصفته من مرض أو انحراف، واعتقد يقينا انها تفيد غالبا فى إيقاف أمراض جمة لولاها لسرت فى الأجسام وأنهكتها.

والاستحمام فى حمامات البخار مع ما يتخلله من دلك البدن كله بالكيس لمن أفضل الوسائل التى ينبغى للأجانب المقيمين بمصر أن يعتمدوا عليها لتحصين صحتهم من الأمراض الداهمة. ولقد سبق لنا الكلام على المزايا التى تنجم عنها من جميع الوجوه فلا حاجة إلى التكرار.

الأمراض المصرية

الطاعون . أمراض أعضاء الهضم: الدوسنتاريا- التهاب الكبد- البواسير.. الخ- الفتق- الأمراض الجلدية: الجذام - حب النيل- البرص- الحصبة.. الخ- الفرتيت. أمراض العيون: الرمد الصديدى- الشترای انقلاب العين للداخل- الشعرة.. الخ. أمراض أعضاء التناسل ومجارى البول: الحصاة المثانية- الايدروسيل- المبارك أو الزهرى- الأمراض السرطانية- الأمراض الصديدية- الأمراض المخية- الأمراض العقلية- الأمراض العصبية- الروماتزم أو وجع المفاصل - النقطة- التيتانوس- الكلب.

أشرنا فيما سبق إلى أن المصريين ، بما هو معروف من مزاجهم وقوة بنيتهم وطريقة معيشتهم ، ليسوا عرضة إلا لليسير من الأمراض . ولكنهم إذن فى أمان من شرور الأمراض الجمة التى تدهم الأوروبيين والشعوب المتمدينة كانوا عرضة لأدواء = جمع داء = كثيرة غيرها، بعضها خاص بالمواطن التى يستقرون فيها والبعض الآخر مشترك بينهم وشعوب الأرض المختلف، وسنتكلم عليها فيما يلى:

٧- الطاعون

إذا لم يكن الطاعون أكثر الأدواء انتشارا فى مصر فهو على الأقل من الآفات الفتاكة أكثر من غيرها بالأرواح. بل هو من الأوبئة الكامنة فى بلاد الشرق، وعلى الخصوص فى أرض الفراعنة القديمة.

يجوز إذن القول بأن مصر مهد للطاعون، وأنها كانت - سواء فى أيام عزها القديم أو فيما تلاها من القرون - ميدانا لانتشار ذلك الوباء فيها وفتكه بأهلها أذرع فتك. فليس سقوط الحضارة المصرية من علوة مجدها القديم ولا إغفال القواعد الصحية التى كان المصريون أشد الناس حرصا على

اتباعها هما اللذان أولدا ذلك المصاب المخيف والطامة الكبرى، كلا بل إن أسباب انتشاره مابرحت فى أيامنا هذه كما كانت فى تلك العصور الغابرة سرا من الأسرار الغامضة. وهى كغيرها من أسباب أمراض وأوبئة شتى لاتزال مستعصية على المتصدين لمعالجتها بالبحث والتمحيص والاستقصاء.

ولم يكن الطاعون وباء كامنا فى مصر فقط، بل فى سائر البلدان الممتدة على السواحل الشرقية والجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. ومع تفاوت درجات انتشاره فيها شدة وخطورة، فإنه لاتكاد تمر سنة حتى ينزل بكلكله على الشرق فى ميعاد واحد. والعادة أنه. إذا فشا بين الناس بادىء ذى بدء لايكون شديدا. فإذا انتشر بشكل وبائى. وهو مايحدث مرة فى كل ست سنوات أو ثمان أو عشر، فإنه يحصد الأرواح حصدا ، ويكون شأنه فى ذلك شأن الكوليرا إذا انتشرت وأحلت بهم بأسها فجعلتهم غرضا لسهامها وجزرا لسيوفها.

وليس الطاعون من الأوبئة المعدية الوبيئة. وسواد الأطباء الذين فحصوه فى السنوات الأخيرة ودرسوه درسا دقيقا يشاطروننا هذا الرأى. وقد كان هذا الاعتقاد ولايزال اعتقاد المسلمين لايحيدون عنه. لذلك تراهم لايوقون أنفسهم شر ملامسة المصابين بالطاعون والاتصال بهم. ومما يبعد عن الظن أن تكون أراؤهم فى هذا الموضوع مستمدة من الاتكال على القضاء والتسليم بما يأتى به القدر .. فإنه مما لايصح التسليم به أن يتعرض شعب بمحض اختياره للإصابة بداء يعرف أنه من الأدواء المعدية، إذا كان فى استطاعته أن يدرأه بلا معاناة إذ يكفيه مجانبة الموبوئين به.

أمراض أعضاء الهضم

٨- الدوسنتاريا

الدوسنتاريا من الأمراض الملازمة لمصر، وهى بعد الطاعون من أشدها فتكا بالمصابين بها، ويعرفها المصريون باسم الدوسنتاريا وعنصل البطن والسهلة، والإصابة بها فى الوجه البحرى أكثر تواترا منها فى مصر الوسطى والصعيد، والغالب عليها أن تكون فى أيام الحر حيث يأخذ انتشارها فى بعض

الأحيان شكلا وبائيا فتصيب العدد العظيم من الناس.

ذلك المرض الذى يكافحه الأهالى الوطنيون بالشعوذة وطب الركة ودجل الدجالين. فتكون عاقبته وخيمة عليهم ، ويعالجه الأطباء الأوربيون بالطرق النافعة الناجعة وأخصها مضادات الالتهاب والحمية. والحمية شرط لابد منه فى نيل الشفاء التام.

أما الأمراض الأخرى لأعضاء الهضم فنادرة الوجود فى القطر المصرى.

٩- التهاب الكبد

يشاهد هذا المرض فى أحيان نادرة ، فهو أقل انتشارا مما يتبادر إلى الذهن، والسبب فى ذلك شدة حرارة الطقس، وأكثر الناس تعرضا للإصابة به الأجانب بوجه عام والأوروبيون منهم بوجه خاص.

١٠- امتلاء المساريقا

أما الامتلاء المعروف باسم امتلاء المساريقا أو انسدادها أو احتقانها فقليل الشيوع أيضا. إذ لايشاهد إلا فى عدد قليل من الأطفال.

١١- الاستسقاء

ومما تتهيأ الفرصة كثيرا لمشاهدته أحوال الإصابة بالاستسقاء أو ترشيح البطن. غير أن هذا المرض فى مصر لاينشأ عن الإلتهاب المزمن فى البريتون. وشأنه فى ذلك بمصر كشأنه فيه بالبلدان الأخرى. وتزداد خطورته عادة بتأثير أحوال عديدة كاحتقان الكبد أو حدوث الأعراض التى تعوق الدورة الدموية.

١٢- البواسير

أما البواسير فكثيرة الانتشار فى مصر، بعكس الأمراض المتقدمة، وعلة انتشارها على ما يظهر تفشى داء الدوسنتاريا فى هذا القطر. والأهالى الوطنيون يعالجون البواسير بوسائل تبعث كلها على العجب والدهشة. فإنهم متى شعروا ببروزها وتضخمها ، يستدعون الحلاق فيقطعها لهم بالموس.

١٣- الآفات الديدانية

وهناك أمراض أخرى كثيرة الشيوع والتفشى فى مصر يجمعها اسم

الآفات الديدانية. فإن أهالى القطر، من جميع الأسنان والأمزجة، معرضون للإصابة بها. وكثيرا ما تنتشر الديدان الباطنية فى جسم المصاب بها بحيث لايحصى عددها ولايحصر.

١٤- الفتق

الإصابات بالفتق شائعة فى مصر. وقد عزوا حدوثها إلى ماء النيل باعتبار كونه شرابا يشربه المصرى وينتفع به فى مرافقه كما عزوا إليه ما لاحصر له من الامراض ولاسيما داء الفتق الذى ينسبونه إلى استعمال الحمامات الساخنة الشائعة فى الشرق، ولكن يبدو لنا أن لاسبب من الأسباب المومأ إليها بصحيح، وأن لانصيب لهذا التعليل من الصواب. والذى نرتئيه أنه إذا كان لمياه النيل بعض التأثير فى ازدياد المرض، فإن هناك أسبابا أقوى من التى تقدم ذكرها، منها: بنية الأشخاص الذين نسيجهم الخلوى الشحمى رقيق جداً لايسد التجاويف التى تهبط الأحشاء منها سدا محكما، ومنها ارتخاء المجموع العضلى فى أجسامهم. وهذا الارتخاء يتسبب عن طبيعة مزاجهم وحرارة الوسط الذى يقيمون فيه، ومنها إدمان ركوب الخيل وهو ما لاغنى لسواد المصريين عنه.

وزعم بعضهم أنه لولا إحتياط الفلاحين بضغط بطونهم بالأحزمة العريضة الجلدية لبلغ عدد الإصابات بالفتق فى مصر مبلغا فاحشا. وهذا الزعم ظاهر البطلان. لأن القائلين به لم يلتفتوا إلى أن الضغط بمثل تلك الأحزمة على الحرقفتين والجزء الأعلى من البطن من شأنه أن لايرفع الأحشاء إلى فوق. فهو لن يأتى بالفائدة التى تعزى إليه. بل من شأنه أن يدفع الأحشاء التى يضغط عليها نحو النقط التى يحدث الفتق عادة فيها، إذا ثقلت عليها الأحشاء. وعليه فاستعمال الحزام كوسيلة لمنع الفتق لمن أقوى البواعث على حصوله وتفاقم خطره.

١٥- الأمراض الجلدية

الأمراض الجلدية شائعة فى مصر، وتبدو للناظر على أشكال مختلفة، وأكثرها شيوعا مرض الجذام الذى يصيب الأعضاء ومواضع التناسل وحب النيل والبرص والقوبة والحصبة والجرب وغيرها.

١٦- الجذام

يعرف هـذا المرض فى أوربا بأسماء مختلفة منهـا الفتق اللحمى (بروسير ألبان) ومرض جزائر (البرباد) وسرطان الخصية المصرى، وقد سماه العلامة (الار) بمـرض المجموع اللنفـاوى، وهو شـائع فى مصر وإن لم يكن خاصـا بإقليمها، ومـا سمى فى اللغة الافـرنجية باسم (اليفـانتيازيس) اشتقـاقا من اسم الفيل، إلا للشكل الذى تتشكل بـه الأجزاء المصابـة. من حيث إنه يجعل العضو المصـاب بهذا الداء شبيهـا برجل الفيل. وهـذه التسمية التى تليق إلى حـد ما بـالمرض إذا أصـاب السـاقين، لا محل لها إذا أطلقت عليـه فى حالـة إصابتـه أجزاء أخـرى من الجسم كالخصيتين مثـلا، ثم أن تسميته بأسماء الفتق اللحمى وسرطـان الخصية والقيلـة المائيـة لا تنطبق أيضا على حقيقـة الـواقع، كما سيتبين للقارئ عنـد ذكـر طبيعة المرض وشرح أعـراضه. أمـا تسميتـه بمـرض المجمـوع اللنفـاوى فغير صحيحـة كـذلك. لأن المجمـوع اللنفاوى لم يكن مركزا من مراكز الاضطرابات الباطنية.

إن الجذام الـذى اقترح بعضهم بحق تسميتـــه بـالارتشـاح أو الانتفـاخ الارتشاحى، إنما هو مـن الأمراض التى مركزها النسيـج الخلوى الذى تحت الجلد، فإن هـذا النسيج إذا وقع تحت تأثير ظروف مختلفة يـرجع أغلبها إلى أسبـاب التهيج، ينفذ إليـه مقدار يختلف قلـة وكثرة من المواد المصليـة التى تزداد تراكما بـازدياد نمو الأجزاء الصلبة. فمن هذين الظـرفين يتولد الجذام ويكون فى آن واحد نتيجـة الرشح وفرط النمو فى النسيج الخلـوى. يؤيد ذلك استئصال الغدد والعجر النـاجمة بالقطع عن هذين السببين ، فإن هذا القطع يفضى إلى إنسياب مقدار كبير من المواد الصلبة فيقل حجمها قلة محسوسة. ويؤيده أيضا تشريح الأجزاء الصلبة فإن هذا التشريح يجلى عن مثل النتيجة المتقدمة.

وتجرى الأحوال على هذا المثال. سواء اتسـع نطاق الداء بالأطراف السفلى للجسم، أو اتخذ غـلاف الخصيتين مقرا لـه. وفى الحالـة الأخيرة على الأخص يبلغ الجذام فى الضخامـة وفرط النمـو أقصى مبلغ له. فلقـد رأيت أوراما من هذا القبيل تجاوز وزنها مـائة رطل. وأستأصلت بنفسى أورامـا مثلها بلغت من ضخامة الحجم مبلغا وصل معه قطرها الرأسى إلى أسفل الساق.

أما أسباب الجذام والظروف التى يتولد فيها، فهو ما لم يحققه المحققون حتى الآن، وغاية ما فى الأمر أن من الأسباب المختلفة التى يعزى إليها فرط نموه وتضخمه سببا ربما كان صحيحا وهو تأثير البرودة الرطبة والحمامات الباردة وكثرة الاغتسال إلى غير ذلك من الأسباب المختلفة التى من شأنها أن ترد العرق إلى مصادره . ولكن هذه الظروف لاتكفى وحدها لتوليد الداء. إذ لو كانت هى الموجدة له، لكان من أكثر الأدواء الباطنة شيوعا فى العالم خصوصا وأن العرق كثيرا ما تتعطل بمصر وظيفته بدون أن يترتب على توقفه ظهور ذلك الداء.

ولكى يأتى علاج الجذام بفائدة قاطعة ونتيجة حاسمة، تحسن المبادرة بعلاجه لمجرد ظهور علاماته. لأنه مادام فى دوره الأول يكون الأمل فى الشفاء منه، باتخاذ الوسائل الطبية الأصولية، أوثق وأدنى إلى التحقق. وعليه فمن الميسور الحصول على نتائج حسنة باستعمال مضادات الالتهاب والفصد واللبخات الملينة، وبحمل الأحزمة بعد وضعها فى المكان اللازم وضعا لائقا. أو إذا كان ثم ما يدعو إلى الاشتباه فى أصل المرض، وأن له ارتباطا بإصابة زهرية مثلا فتستعمل الأدوية الزئبقية. أما إذا مضى بعض الزمن على الإصابة فيعتمد فيها على قطع الجذام كذريعة يلتمس منها تخفيف الألم لا الشفاء التام من المرض. وأما إذا بلغ الداء الى الدرجة التى أشرنا إليها. أى إذا دهم الخصيتين وأحدث فيهما ذلك الانتفاخ البالغ ، فالوسيلة الفعالة فى الخلاص منه هى الاستئصال التام.

١٧- حب النيل

يطلق المصريون هذا الاسم على مرض خاص ببلادهم لايعدوها إلى غيرها، وقد أجمعت الآراء على أن سببه استعمال ماء النيل شربا.

ولم يكن حب النيل مرضا جلديا كما ذهب إليه العلامة (بونييه) وإنما هو بثور تخالف بطبيعتها وشكلها أنواع البثور الأخرى، إذ تشبه دمامل صغيرة ملتهبة مختلفة الأحجام تكون منضمة تارة وطورا متفرقة، وتحدث أكلانا يزعج المصاب بها. وقد تستحيل إلى دمامل كبيرة تنتشر على ظاهر الجسم كله وتتفشى فى الأجانب أكثر منها فى الوطنيين. ويتفق أوان ظهورها مع أوان فيضان النيل. ولا خلاف فى أن مياه النهر هى السبب فى حدوثها بدليل أنها

تزول بانتهاء الفيضان وانخفاض الماء.

وحب النيل أكثر شيوعا فى الوجه البحرى منه فى مصر الوسطى. فشأنه من هذه الجهة شأن الجذام. أما الوجه القبلى فالإصابة به نادرة جداً، ولم يستطع أحد حتى الآن تعليل هذه الخصية.

١٨- البرص

البرص أحد أمراض الشرق التى فقدت كثيرا من قوتها بتعاقب الأجيال ومضى الأحقاب. ومع هذا فإن بلاد الهند وبعض شطوط أفريقية والشام ومصر وعلى الخصوص جزيرة كريد مابرحت ملوثة بتلك الآفة. وكثيرا ما تشابه الأمر على الناس فخلطوا بين الجذام والبرص مع بون ما بين المرضين، والبرص يظهر فى شكلين أصليين دعيا إلى تسميتهما. الأول بالبرص الدرنى العربى، والثانى بالبرص الآكال اليونانى.

أما البرص الدرنى المشاهد فى مصر بوجه خاص فيظهر بشكل أجسام درنية صلبة صغيرة الحجم تنتشر فى النسيج الخلوى فتحدث نتوءا فى الجلد وتكسبه لونا ضاربا إلى الحمرة ويبتدىء المرض بالوجه والأعضاء ولايصيب الجذع إلا فى أحوال نادرة جداً. ويتبع فى سيره سير الأمراض الخنازيرية، مفضيا إلى أعراض واضطرابات تشبه ماتحدثه هذه الأمراض منها .. فمن ذلك أن الدرن يلتهب ويتقيح ويحدث جروحا تلتحم عن ندب بشعة المنظر. بل ربما أحدث تشويها فى الأعضاء أو أدى إلى فقدها وسقوطها إذا وصل الدرن إلى المفاصل.

أما البرص اليونانى الذى يقرب بطبيعته من الأمراض القوبية، فنادر الحدوث فى مصر. وهو ببلاد اليونان ألصق منه بأى بلد آخر ويحدث كالسابق اختلالا واضطرابا مختلفى الضعف والشدة فى النظام العضوى.

وكثير من الأطباء يعتبرون البرص مرضا معديا، ولكنه غير ما زعموه من ذلك. فإن الأبحاث التى قمت بها فى هذه الموضوع والمرضى الذين فحصت إصاباتهم فى مستشفياتنا وفى جزيرة كريد أقنعتنى وزملائى المصريين بأن المرض غير معد. وهذا الاقتناع يطابق الرأى السائد منذ زمان طويل بين شعوب الشرق.

١٩- الأمراض القوبية والخنازيرية

الأمراض القوبية موجودة بمصر ، ولكن الإصابة بها نادرة وإذا وقعت كان وقوعها فى جهات متفرقة ومتباعدة وهذا الوصف ينطبق على الأمراض الخنازيرية لسبب لا خلاف فى وجاهته، وهو المزاج الخاص بالمصريين وطبيعة الوسط الذى يعيشون فيه. وبما أنه ليس لهذه الأمراض من الصفات الخاصة مايميزها بعضها عن بعض، فقد اكتفينا بالكلمات السابقة عن الاسترسال فى وصفها والتوسع فى بيانها.

٢٠- الجدرى

الجدرى من الأمراض الجلدية الأكثر شيوعا فى مصر وفتكا بأهلها. على أنه فقد منذ بضع سنوات كثيرا من قوة انتشاره وشيوعه ، بفضل ما اتخذته الحكومة من الوسائل لإجراء عملية التلقيح على الأطفال. والمأمول أن ينتهى الأمر بانقطاع ضرر هذا الداء عن مصر كما انقطع عن الديار الأوروبية.

٢١- الجرب

الإصابة بالجرب من أكثر الإصابات شيوعا بين المصريين، وخصوصا فى صفوف الجيش. والأسباب المحدثة له فى مصر هى عينها فى كل قطر آخر.. وإذا كان هذا المرض أكثر شيوعا فى القطر المصرى منه فى غيرها، فإنما يرجع السبب إلى عدم احتفاظ الناس بالنظافة وإهمالهم وسائل الوقاية.

لمحة عن «كلوت بك»

نعم .. مصر لاتنسى أبناءها.. ولا تنكر ولا تتنكر لغيرهم من الذين عاشوا على أرضها من غير فساد أو إفساد أسمائهم وحفظت لهم إسهاماتهم..

ومن هؤلاء العالم الفرنسي الشهير «كلوت بك» الذى وفد إلى مصر سنة ١٨٢٥ ميلادية، ولسيرته مزايا منها أنه رتب الاسبتالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن ترتيب. وبذل جهده فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.. وفى سنة ١٨٣٢ ميلادية ذهب إلى باريس وبصحبته اثنا عشر تلميذا من المصريين منتخبون من مدرسة «أبى زعبل»..

وهذه نبذة عن «كلوت بك» وعصره بقلم «عبده محمد لبيب» أحد تلامذة مدرسة «الألسن» بتكليف من سعادة الدكتور «محمد بك الدرى» وهذا الجزء متمم للكتاب «لمحة عامة إلى مصر» وتعريف بصاحبه الذى قدر له، معايشة المصريين وأحوالهم فى فترة تاريخية مليئة بالأحداث والمواقف.

أحمدك يــامن جعلت الأمم الغــابــرة مــوعظــة واعتبــارا لــلأمم الحاضرة وخصصت بعض أفراد النوع الإنسانى بمزايــا حسب ما لديه من الاستعداد، وأوضحت له بجليل آياتك خفايا طريق الغى من طريق الرشاد وأصلى وأسلم على نور الوجود وواسطة الفضل والجود، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام.

وبعد فيقــول العبد الفقير المضطر إلى رحمة مــولاه الملتجىء إليه دون من عداه عبده محمد لبيب أحد تلامذة مدرسة الألسن التى طار صيتها فى الآفاق: بينما كنت عاكفــا على تحصيل المعارف والتظلل بظلهــا الوارف، وإذا بشمس الحكماء وقدوة الفضلاء الحائز قصب السبق فى مضمار العلوم الطبية لقمان عصره وبقــراط مصره. العلم الشهير الغنى عن البيان الــذى يعجز عن تعــداد فضــائلــه اللســان ، ويكل عن الإحــاطة بوصف جليل معــارفه فكــرى. سعادة الدكتور البارع المتفنن محمد بك الدرى أمرنى بترجمة كتاب محتو على سيرة كلوت بك من اللغــة الفرنساوية إلى اللغة العــربية فأجبته إلى مطلوبــه وبذلت الجهد فى إنجــاز مرغوبــه. كيف لا ولصاحب هذه السيرة مــزايا تجل عن أن يحصرها الفكــر منها أنــه رتب الاسبتاليــة العظمى والمدرسة الطبيــة أحسن تــرتيب. وبذل جهــده فى ترجمة الكتــب الطبية من اللغــة الأجنبية إلى اللغــات العربية حتى استمد أبناء أوطاننا من معــارفه الجليلة أشهر العلوم خصوصا الأعمال الجراحيــة واستدعى لها جميع مــا يلــزم مقدمــا الأهم فــالاهم حتى تكــاملت فيهــا الآلات الطبيــة والجراحيــة والمادة الطبيــة والتــاريخ الطبيعى وغيرهــا مما تحتــاج إليــه من زوال فن الطب ومتعلقــاته. كــالقطع المرضيــة التشريحيــة الصنــاعيــة المزين بها الآن كل من قــاعـــة الاكلينيك الجراحى والقاعات التشريحية المنسوبة إلى الدكتور (تيبير Thibert) حتى بلغت غاية الكمال، وطبع فيها عدة كتب طبية بعــد أن ترجمت من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية فتقدمت هذه المدرسة إلى الدرجة العليا وأصبحت كعبة معارف تتوارد إليها التلاميذ من ســائر القرى والبلدان فى ظل العائلة المحمديــة العلوية وما زالت كذلك حتى زاد تقدمهــا فى زمن الخديوى المفخم مليك مصر الجالب لها ثروتها والمعيــد لها نخوتها تــوفيقنا الأول الــذى نشر ألويــة المعارف فى هــذا القطر بعــد أن درست معالمها . جعله اللــه دوحة مجد وإجلال وحفظ أنجــاله الكرام ووزراءه الفخام.

مقدمة مؤلف هذه النبذة التاريخية

اعلم أن التـاريخ هو أجل العلـوم نفعـا وأعظمها فـائدة فهو محط أنظـار العقلاء وبغيـة الفضـلاء. إذ هـو المرشد الأمين الـذى يوقفنـا على أحوال الأمم الماضية ويبين أعمالهم الحسنة والقبيحة كى يتحلى الناظر فيه بالخطة الأولى ويتخلى عن الثانية فهو أعظم مرب وأجل مرشد لمن نظر فيه بعين الاعتبار.

ومن وعى التاريخ فى صدره   أضاف أعمارا إلى عمره

غير أنه قد وقعت فى بعض كتبه أغلاط أوجبها الخروج عن جادة الإنصاف من حب التقـرب لأرباب العظمـة وعدم معرفـة طبائع العمـران وغير ذلك من الأسباب التى يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها ومن ثم عزمت على أن أتبع سبيل الصدق فى ذكـر سيرة هذا الرجل الـذى حاز المقـام الأسمى حتى أنه نجح فى جميع مشروعـاتـه وأحـدث فى البـلاد إدارات نجمـت عنهـا فـوائد شتى من المصالح العمومية ، حتى أصبحت تشابه البلاد الأوروبية - مع كونه لم يكن من رجـال الإدارة . وإنما أسس كل ذلك بثـاقب فكـره وسامى إدراكـه فهـو الجدير بأن يقوم له المصريون بأنواع الشكر جزاء على ما له من جليل الأعمال كغيره من عظماء هـذه الأمة السـاهريـن على منافعهـا ، ولم يكن هذا العـالم الشهير من المبعـوثين المسيحيين .مع أنـه كـان مـن أجل العـالمين بـالـدين المسيحى الساعين فى نشر المعارف، ولا من قبيل بعض الذين يتخذون العلوم سلما للغنى ووسيلـة للتعيش ليس إلا، وكـان من سجـايـاه الانكبـاب على المطالعـة فى العلوم والانهماك فى تحصيل المعـارف حتى تحصل منهـا على ما يتعلق بجميع المنـافع البشرية بسبب تفننـه فى العلوم الطبيـة، ولنتعرض إلى سرد ما كان من هذا الرجل منـذ سمحت الظروف ببروزه إلى عالم الوجود إلى أن اغتالتـه أيدى المنون مبينين ذلك فى مطلبين الأول يشتمل على بيان حـالته منذ حاز صفة الوجود وزوال العلـوم إلى أن نبغ فيها وعرف غثها من ثمينها والثـانى على مـا كان منـه من جليل الأعمال بعـد ذلك إلى أن انتقل من الـدار الفانية إلى الدار الباقية ولنشرع فى ذلك فنقول:

المطلب الأول

ولد (الدكتور أنطون برتيلمي كلوت بك Le Doctor Antoin) (Barth'elmy Clot) فى جرينوبل (Grenobel) لسبع خلت من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٣ مسيحية، وكان من عائلة فقيرة جداً، وبهذه الواسطة لم يتحصل إلا على تعليمات ابتدائية وكان والده ضابطا بالجيش الطليانى. وأضطر إلى أن يعود إلى عائلته بعد واقعة (مارانجو Marango) لأجل الاستراحة مما عاناه من مشاق الحرب والمرض الذى ألم به منها، وتوجه إلى بلدة تسمى (برينيول Brignoles) لأجل أن يعالجه هناك الدكتور (سابيه Sapay) الشهير الذى عرفه فى الجيش أيام الحرب المذكورة، وكان الدكتور المومأ إاليه مديرا لمستشفى البلدة المذكور المسمى (باسبتالية الصدقة L'hotel- Dien) ثم مات والده فى سنة ١٨١١ تاركا زوجته ونجله يتكبدان آلام الفقر وكان لهذا النجل (كلوت بك Clot--bey) رغبة شديدة فى تعلم فن الحكمة والجراحة حتى أنهه كان فى مدة طفولته يزاول تشريح مايعثر عليه من الحشرات فى مزارع (دوفينه Daufin'e) مع غاية من الحذاقة وشدة الرغبة ومازالت تنمو فيه هذه الرغبة كلما نما سنه حتى أن الدكتور (سابيه Sapay) الذى كان محبا لوالده ألحقه بوظيفة مساعد له فى الأعمال الجراحية وبعد مدة قليلة نبغ فى هذا الفن وظهرت نجابته حتى أصبح يجارى الدكتور المذكور فى صغار العمليات.

وفى هذه المدة كان منكبا على مطالعة الفنون الطبية فى كتبخانة هذا الدكتور، واستمر على هذه الحالة باذلا جده واجتهاده حتى أنه حفظ كتاب الجراحة المنسوب إلى (لافيه Lafaie) وبعد بقائه على هذه الحالة بضع سنين علم أنه لايجد فى هذه البلدة (برينيول Brignoles) وسائل التبحر فى هذه العلوم. فعزم على أن يتوجه إلى (مرسيليا Marseille) لكى يلحق با لمستشفى الذى بها فعارضته والدته وأقاربه وأحبابه بأنه مخطىء فى هذا الرأى فلم يصغ لقولهم، وتوجه إليها منكسر الخاطر من أسف والدته وأقاربه وأحبابه على فراقه وتقبيحهم له هذا الرأى، وكان عمره وقتئذ يناهز تسع عشرة عاما ولم يكن معه سوى ثلاثين فرنكا ومنديله وفيه بعض لوازمه، وبعد مدة من

وصوله إليها نفد ما كان معه فعزم على أن يسافر فى سفينة يقال لها (هازار hasard) أى الصدفة بصفة جراح ولكن لم يحصل ذلك لأن قبطانها عين ابن أخيه لهذه الوظيفة وسافرت هذه السفينة ولم يعلم إلى أى جهة توجهت غير أن الأخبار أفادت أنها غرقت..

فاشتغل (كلوت بك Clot Bey) بأشغال لاتفيد، ثم اضطره احتياج المعيشة إلى أن يقيم عند حلاق له إلمام ببعض المسائل الجراحية الصغيرة فكان يشتغل بالفصد والعمليات الأولية ثم عاد جناب هذا الدكتور إلى حالة التلمذة، ورجع ثانيا إلى محله واشتغل بتحصيل العلوم بجد واجتهاد ثم حضر إلى المستشفى وطلب الانتظام فى سلك التلامذة فما تيسر له أن يقبل تلميذا خارجيا، ولكن لم يضعف هذا الأمر رغبته فى تحصيل العلوم بل زاده رغبة فى تحصيلها، وبعد ذلك حضر مرة ثانية وطلب الطلب الأول فحاز القبول، ولم يكن له فى ذلك الوقت معرفة بالعلوم الأدبية ولكن تحصل منها بعالى همته على درجة عظمى وقبل تلميذا داخليا، وحينما كان بالاسبتالية أدخل بمصلحتها بعض التحسينات الإدارية وتقدم فى العلوم تقدما ما أنبأ عن علو همته، ومع ذلك فكان فى العيش لايجد للرفاهية سبيلا ففى ذات يوم شديد البرد قابله أحد أصدقائه فوجده لابسا بنطلونا من القطن ويرتعد من ألم البرد فقال له بنوع مزاح . كيف تقابل البرد الشديد بهذا الملبس الخفيف فأجابه بتأسف بأنه آلمه والجليد أضر به فأعطاه جانبا من النقود كى يستعين بها على التخلص من هذه الآلام.

وفى أثناء هذه الأيام حصل امتحان فى المستشفى حاز فيه الدكتور المذكور قصب السبق، وشهد الحاضرون بقوة مدركته وعظمة استحضار ذاكرته حتى أن الحكماء الحاضرين قالوا له إنا نؤمل أن نراك دكتورا فى زمن قريب فكان هذا القول داعيا لزيادة رغبته فى تحصيل العلوم وقوة أمله فى الوصول إلى هذه الدرجة بعد أن كانت آماله متعلقة بما هو منحط عنها وعين حكيما صحيا فى سنة ١٨١٧ بعد أن تحصل فى المستشفى على علوم لم تتحصل عليها أقرانه، ولم يزل منكبا على الاشتغال بالعلوم ورافق أحد العلماء الروحانيين، وتعلم منه اللغة اللاتينية حتى تأهل للحصول على (شهادة العلوم الأدبية Diplome de bachelie 'es - lettre) ووقتئذ عين رئيسا

للأعمال التشريحية فى المدرسة الثانوية ثم عين جراح باشى داخلى بالمستشفى. فازداد جده فى مزاولة العلوم والاشتغال بهاوحضر إلى مدرسة الطب الخصوصية (بمونبلييه Montpellier) سنة ١٨٣٠ مسيحية لأجل أن يمتحن امتحان الدكتورية وكان يكفى تلامذة مدرسة الطب فى هذه الأوقات أن يكتبوا أسماءهم فى دفتر الحضور إلى المدرسة المذكورة كل ثلاثة أشهر ولم يكونوا ملزمين بالإقامة فى تلك البلد.ة بل كانوا يسافرون كل ثلاثة أشهر إلى أماكنهم أو حيث شاءوا على سبيل الإجازة والاستراحة متكبدين فى هذا السفر بعض المشقات وقد أعطيت رخصة (لكلوت بك Clot Bey)مقدارها ثلاثة أيام ولكن لم يعط له ما يعينه على ذلك فقطع راجلا مسافة ستين فرسخا حتى أجهده المشى فجلس على جانبى الطريق ليستريح فمرت عليه عربة يجرها جوادان من الخيل فهم باغتنام ركوب هذه العربة زاعما أن لا أحد بها فلم يشعر إلا وضربه قائدها بالسوط ضربة قوية جعلته طريحا على الأرض وعندما كان يقص هذا الفاضل هذه القصة المتقدمة كان يعد نفسه بكونه يمنع القائد من هذه الأعمال الوحشية متى نال مطالبه وساعده القدر وأصبح ذا بطش وثروة ولديه عربة - وقد عمل بهذا الوعد - ولما انتصب للامتحان بادر بعض مختبريه باكثار الاعتراضات عليه نظرا لما قاله فى مسألة النخاع الشوكى المسطرة ضمن أفكار (بروسيه Braussais) التى وضعها حديثا لأن أفكاره فى تلك المسألة كانت مباينة لأفكار أحد مختبريه الذى هو من علماء المدرسة المذكورة ولكن كان بين هؤلاء المختبرين رجل له القدم الثابت فى هذه العلوم ويدعى بالدكتور (للمنض Lallemand) له دراية تامة بعلم (الفسيلوجيا physiologie) أى علم وظائف أعضاء الإنسان فى حالة الصحة فمال إلى تعضيده فى دعواه وتأكدت بينهما المحبة من ذلك الوقت.

ولما رجع (كلوت بك Clot Bey) الى مرسيليا عين حكيما ثانيا بمستشفى (شاريتيه charit'e) الصدقة، وحكيما للجراحة بمستشفى الأيتام.

وأصبح من ذلك الوقت ذا شرف عال وشهرة عظيمة، ومعلوم أن الحسد يتبع الشرف تبع الظل للشمس كما قاله (بلوتارك plutarque) فنشأ من هذا ومن حسن سيرته ومحبة الكثير له إثارة حنق بعض الاشخاص عليه فتحير بين الصمت والكلام، ولكن التزم الأول لعلمه بضرر الثانى، وكان بين هؤلاء الأشخاص الفقراء القليلى العدد رجل طويل الباع فى الخديعة والاحتيال

فظفروا بواسطة النميمة التى هى سلاح السفلة والمارقين عن حوزة الشرف بعزلة من إدارة هذين المستشفيين، ولم يعتره لذلك غضب وحنق حتى يحاول الانتقام منهم. بل عوضا عن ذلك بذل جهده فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى الاحترام ونيل الشرف والرفعة. فدون فى مدة عشرين يوما مسألته المتعلقة باستعمال آلات الولادة فى الأحوال الخطرة حتى صار دكتورا فى فن الجراحة ومن هذه الحادثة يتضح أن مثل السيئة فى الهيئة الاجتماعية كمثل النبات الردىء الذى يوجد مع النبات الحسن.فإنه وإن كان يعوقه عن وصوله إلى الدرجة الحسنة لايؤثر فيه إذا كان مثمرا فالنجاح فى الخير كان ذريعة لارتداع من لهم فى الشر رغبة، وبعد مدة قليلة رأى أن، شهرته نمت بين العام والخاص وانعكس ما كان يحاوله الحساد من إخفاء صيته وشهرته.

وفى سنة ١٨٢٥ تيسر لهذا الدكتور بسعد طالعه التوجه إلى الديار المصرية التى أخذت وقتئذ تخرج من حضيض البربرية والتوحش إلى أوج التمدن والانتظام بهمة صاحب المعارف العالية والمدارك السامية رجل السياسة الوحيدة، وواسطة عقد العمران وزيادة الثروة والتمدن صاحب السيادة على تلك الأقطار المرحوم محمد على باشا . الذى سعى فى أن يجلب إليها التمدن والمعارف والصنائع الأوروباوية فإنه لما رأى عظم ثمرة الإرسالية الفرنساوية فى هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا ورأى أن من المصلحة المهمة المحافظة على صحة جيشه. فأرسل من قبله إلى البلاد الفرنساوية أحد التجار الفرنساويين المدعو (تورنو Tourneau) لأجل أن يأتى بحكماء للجيش المذكور فقابل هذا الرجل الدكتور كلوت بك وعرض عليه التوجه إلى تلك الأقطار بوظيفة جراح باشى فلبى هذا الطلب بصدر منشرح رغما عن حسن تعيشه بمرسيليا واشتهاره الزائد لعلمه بأن هذه الوظيفة تخلد له المآثر الجليلة وتجعل له تاريخا حسنا نظرا لما يقوم به من جليل المنافع الصحية وغرس نبات العلوم فى أرض مصر غير مراع مصلحته الذاتية كغيره من أغنياء باريس وكتب معه شروطا تقضى بحريته فى العمل وأن يتبع ديانته المسيحية وعدم إجباره على السير مع الجيش خلاف ما كانت عليه قوانين اليونان أيام حدوث الحرب بينهم وبين الدولة العليا، ولنشرح الآن ما كان بعد ذلك من أعمال هذا الرجل فى المطلب الثانى على وجه الاختصار المفيد فنقول:

المطلب الثانى

قبل الشروع فى سيرة كلوت بك نقول : إن المرحوم محمد على باشا ماتقلد إدارة مصر إلا بقوة سيفه واتساع مداركه، وما كان يمكنه تثبيت سلطته عليها إلا بتلك القوة ومساعدة جيشه الجرار وقلعته الحصينة وعدد رجال هذا الجيش لم يكن أقل من مائتى ألف مرتبين بضباط أوروباوية وكان الجيش البحرى يزيد عدده عن عشرين ألف شخص ومع ذلك فلم يكن لكل من هذين الجيشين انتظام زائد، بل إن الأمة المصرية بتمامها كانت محرومة من فوائد العلوم الطبية والوسائل الصحية.

فلما شاهد هذا الأمر كلوت بك شرع فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى التخلص من هذه الحالة السيئة، ولكن لما تحقق أن نجاحه فى ماربه منوط بمساعدة المقربين إلى الوالى المرحوم محمد على باشا أشار عليهم بتشكيل ديوان للصحة لعظم فائدته، فنجح جناب هذا الدكتور فى ذلك كما نجح فى غيره من الأعمال، واتخذ فى هذا المشروع الترتيبات الفرنساوية نموذجا وأحدث أشياء ضرورية مثل الحكمة وممارسة الفنون الجراحية على الطراز الذى كان اخترع حديثا فى فرنسا وأنشئت فى هذه الأوقات المستشفيات العسكرية لضرورة الاحتياج فى إتمام النظام العسكرى إليها، ووضعت أيضا مصلحة الصحة البحرية وكان لجناب هذا البيك الاعتبار الزائد والاحترام الفائق بقطع النظر عن هذه الأعمال الجليلة، ولم تكن أهالى مصر وقتئذ متأهلة للقيام بما يلزم لهذه التنظيمات، ولذلك بعد أن عين لكل واحد من أنواع المستخدمين مثل التمورجية وغيرهم الأعمال التى يزاولونها شرع فى تعليم كل واحد منهم أشغال وظيفته ونظم الصحتين الشخصية والإدارية، وكان يعامل المستخدمين بهمة عليا مع زيادة نشاطه وحسن قيامه بما يعهد إليه من الأعمال، وسعى فى إزالة الامتياز الذى كان بين ضباط الجيش وحكمائه وطلب احترام العمال الذين بصحبته نظرا لكونه كان لايستخدم إلا أرباب الصدق، وأشهر المستشفيات العسكرية التى أنشئت حسب ما طلب البيك المذكور مستشفى أبى زعبل (وهى بلدة صغيرة على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة) بقرب ميدان الخانكة. لأن جانبا عظيما من العساكر يبلغ عدده نحو

مائة ألف تقريبا كان بالجهة المذكورة، وقد اشتغل هذا الرجل العظيم بترتيب المستخدمين ووضع الاسبتاليـة والأدوات والبناء المحكم واعتنى اعتناء زائداً بإنشاء بستان للنبـات فى الساحة الداخليـة، وسعى فى إيجاد المدرسة الطبية التى أسسها سنة ١٢٤٣ هجرية والممارسة فى المستشفى المصرى.

وفى الحقيقـة أن ذلك ممـا تقضى المصلحة بـوجـوبه لأجـل اجتناء أبنـاء الأوطان ثمـرات العلوم الطبيـة ففاز بنجاحـه فى هذا الأمـر وأنشئت المدرسة المذكـورة غير أنه مـن سوء الحظ لم ينجم عن ذلك إلا فـائدة قليلـة رغما عن ضرورة وجود أطباء مصريين للجيش وسائر جهـات القطر حتى لا يحتاج إلى الاستمـداد من أوروبا المستلـزم للخضوع الأدبى لها الـذى هو أمـر صعب الاحتمال وقد بذلت نقود جمة لأجل الوصول إلى تلك الفائدة القليلة ولم يكتف كلوت بك بترتيب الجيش على غـاية النظام بل عمد إلى بث هـذه الفنون الطبية فى عقـول أبناء الأمـة المصريـة لما رأى فيهم من الاستعـداد الذى يـوجب لهم التضلع من المعـارف وتحسين مستقبل البـلاد كيف لا وهم سـلالة قـدمـاء المصريين الذين آمـدنوا أهل الكـرة فى الأزمنة السالفـة وبثوا العلـوم فى الأمة اليونـانية وحازوا تالـد المجد وعظيم الثروة فى مـدة الخلفاء العظماء ولما رأى الحساد نجـاح أعماله شرعـوا فى تحويل الوالى عن هـذا المقصد مـدعين عدم الوصول إليه لعدم وجود معلمين ماهرين. غير أن المرحوم محمد على باشا لم يوجـه لهذه الأقوال أذنـا واعية لعلمـه بمنشئها وانتصر كلـوت بك على هؤلاء الأعداء بما ظهر من تقـدم التلامذة فى الامتحان العمومى الـذى جعله فى آخر كل سنة مكتبيـة، وبذل فيه المصـاريف من مالـه الخاص وكان يحضر ذلك الوالى المعظـم ووزراؤه الفخام وقناصـل الدول واستعـان بثاقب فكـرته على إزالـة صعـوبـة التعليم بـإيجاد مترجمين يتلقـون الـدروس مع التـلامـذة ويترجمونها لهم من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربيـة وقرر الامتحان للتلامذة فى آخـر كل شهـر، وتـرجمت وقتئذ الكتب المشهـورة فى الحكمـة والطبيعـة والجراحة وغير ذلك بمجلس مؤلف من العلماء المشهورين وأنشـىء تعلم علم الفنون والصنائع وتـرجم قاموس (نيستن Nysten) الطبى ولما كانـت فائدة علم الحكمة والطب متعلقـة زيادة تعلق بعلم التشريح الذى كـانت تعوق عن نشره فى هذا القطر العوائق بـذل جهده فى التحصل على الإذن بالتشريح حتى

تحصل على إذن قاض بإباحة ذلك فى حالة السر - على شرط أن يزاوله بغاية التفطن للاحتياج إليه وشرعوا فى التعود على تشريح الأجسام البشرية وأخذ نفور التلامذة من هذا الأمر ينقص شيئا فشيئا لتعقلهم ضرورته تدريجيا، ولم تحصل فى مدة مزاولة دروس علم التشريح حادثة تكدر الخاطر سوى أن أحد التلامذة أتى إلى الدكتور كلوت بك فى وقت الدرس وقدم له عريضة فبينما هو يتأمل فى معانيها وإذا بالتلميذ طعنه بخنجر فى جمجمته فلم يصبه فضربه ثانية بجوار قلبه ولإشراق طالع هذا الدكتور لم تصبه أيضا هذه الضربة لكونه ثنى ذراعه وعند ذلك أسرع التلامذة مبادرين إلى إيقاف هذا الخائن وحالوا بينه وبين مايريده ومع ما للدكتور كلوت بك من حسن الدراية والاجتهاد فى نشر العلوم لم يتمكن من إنشاء مدرسة طبية تشابه مدارس أوروبا لنفرة الأهالى من انتظام أولادهم فى سلكها. لولا أن قهروا على ذلك والتزمت الحكومة بمصاريف من ينتظمون فيها وجلب المهمات اللازمة لهم وإيجاد مايحتاج إليه التعليم العلمى من نحو الأماكن مثل (انفتياترو amphitheatre) محل معد لتدريس التشريح وقاعات الطبيعة والتاريخ الطبيعى والمعامل الكيماوية وغير ذلك من الأشياء ذوات الفائدة.

وفى سنة ١٨٣٢ ذهب هذا الدكتور إلى باريس وبصحبته اثنا عشر تلميذا مصريون منتخبون من متقدمى تلامذة المدرسة.

وعند وصولهم إلى المدينة المذكورة طلب اختبارهم فى الجمعية العلمية الطبية وبحضور عظماء العلماء الأوروباويين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلامذة وعلو همة أستاذهم فى التعليم ، وكانت إجاباتهم عن الأسئلة التى وجهت إليهم باللغة الفرنساوية لأنهم كانوا يتعلمونها فى المدرسة المصرية وقد أثبتت هذه المجمعية أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى درجة تلامذة البلاد الفرنساوية.

وهاهو محضر الامتحان الذى صار إجراؤه فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية للاثنى عشر تلميذا المتخرجين من مدرسة أبى زعبل بالمجلس العلمى الطبى الملوكانى بباريس.

لما قدم كلوت بك إلى باريس وصحبته التلامذة المصريون الاثنا عشر الذين صدر أمر حضرة والى مصر محمد على باشا بتوجههم إلى فرنسا بحث فى

نصبهم على الوجه الأسنى والطريقة الحسنى بجـادة الدراسة إلا أنه لما كانت رغبـة الباشـا المشار إليـه امتحان هـؤلاء التلامـذة فى أول الأمر حتى تظهـر ثمرات العلوم الطبية التى تحصلـوا عليها بمصر، وتبين حقيقة درجة المدرسة التى نشأوا فيها تداول صـاحب السعادة (كلوت بك Clot Bey) مع المسيو (جومار Jomard) أحـد أعضـاء جمعيـة المعــارف ومع المسيـو (بـرشيت Breshet) رئيس المجلس العلمى الملـوكـانى والمسيـو (بـاريـزيت Pariset) السكـرتير المستديم لهذا المجلس، وشرح لهم رغبـة ومقـاصد صـاحب مصر محمد على بـاشا، فكانت نتيجة مـا قرروه تشكيل لجنة مـركبة من حضرات المسيو (ديجينت Desgenetes) والمسيو (لارى Larrey) والمسيو (ديبويترن Duputrea) والمسيو (برشت Breshet) والمسيو (أورفيلا Orfila) والمسيو (روستـان Rostan) والمسيـو (بيجـان B'egin) والمسيــــو (روش Roche) والمسيو (كلـوكيه J.Cloquet) والمسيــو (مـاجنـدى Magendie) والمسيو (سنسون Sanson) والمسيو (باريزيت Pariset) للامتحان فى العلوم الطبيـة ومن حضرة المسيو (جـوبير Jaubert) والمسيو (جـومار Jomard) للامتحـان فى اللغات الشرقية وقـد تقرر إرسـال خطابات إلى هـؤلاء الأعضاء متضمنة سؤالهم قبول هذا الطلب، وتحدد يـوم الامتحان فى الساعة الواحدة من يوم ١٨ نـوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحيـة بقاعـة جلسات الجمعيـة العلمية الطبية الملوكـانية وفى اليوم والساعة والمكـان المعينة اجتمع حضرات أعضاء اللجنـة ومعهم حضرة كلوت بك وبصحبتـه الاثنا عشر تلميـذا وكان قـد ذاع وشـاع خبر هذا الامتحـان وتكلمت به ألسنـة الجرائد بكل مكان فكنت تـرى الناس يتقاطرون من كل فج لحضور هذا الاحتفال الجليل. وقد وفد إليه كثير من أعيان أطباء عـاصمة فرنسا وجم غفير من رجال الجمعيـة العلمية وأمراء وأكابر باريس وفى مقـدمته حضرة البارون (ديبوا Le baron du bois) والدكتور (مارك Marck) الطبيب الخصـوصى لجلالة الملك، وقـد حصرت الأسئلة التى امتحنت فيها التلامذة فى المواد الآتية:

أولا : الكـلام على المخ والأذن الباطنـة والعين وخصـوصـا على البلوريـة والكاتراكتة والعملية اللازمة لها.

ثانيا : الكلام على الملتحمة وأمراضـها.

ثالثا: الكلام على القناة الأوربية وعلى تكوين الفتق الأوربى والعملية اللازمة له.

رابعا: الكلام على العجان وعنق المثانة وشرح أسباب وأعراض الحصاة وعمليتها على طريقة المسيو كلوت بك.

خامسا: شرح المفاصل الكتفية العضدية وخلع العضد ورده .

سادسا : الكلام على الجروح الناشئة عن الأسلحة النارية التى تستدعى عملية البتر وشرح هذه العملية.

سابعا: الكلام على تشريح الكبد وشرح تاريخ الالتهاب الكبدى.

وبعد أن تقررت الأسئلة انتخب المسيو (أورفيلا Orfila)لرئاسة اللجنة وصحبته حضرة البارون (ديبوترنDupuytren) والمسيو(باريزيت Pariset) كاتبا لها هنالك قام حضرة الدكتور كلوت بك بشرح أفكار والى مصر بخصوص هذا الامتحان، وأبان أنها مطابقة لأفكاره هو أيضا ثم قدم للهيئة قائمة بها الأسماء الآتية:

١- أحمد الرشيدى

٢- حسن الرشيدى

٣- محمد منصور

٤- إبراهيم النبراوى

٥- حسين الهيهاوى

٦- عيسوى النحراوى

٧- مصطفى السبكى

٨- محمد الشباسى

٩- محمد السكرى

١٠- محمد الشافعى

١١- أحمد بخيت

١٢- محمد على البقلى

وأول من دعى إلى الامتحان من هؤلاء التلامذة الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لإنقاذ المريض منها فأجاب وأجاد وسلب قلوب الحاضرين ببراعة أجوبته. فإنها كانت فى غاية السداد وصفق له الحاضرون استحسانا وكان كل يثنى عليه قلبا ولسانا.

ثم دعى حسين الهيهاوى فسئل فى شرح العجان وعنق المثانة وعن الأعراض التى تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التى كان يستعملها المسيو كلوت بك ولله دره فإنه سحر الألباب بقوة جوابه وشرح صدور الحاضرين بحسن إعرابه، ثم قام النبراوى فسئل فى تركيب المفاصل الكتفية العضدية وفى خلع الذراع وكيفية رده فأجاب بما أظهر قوته وأبان للناظرين ذكاءه وفطنته.

فلما شوهد من إجابة التلامذة مايدل على نجابتهم أراد حضرة البارون (ديبوترن) أن يتخذ أسلوبا غير الذى كانوا يتبعونه فى هذه الأسئلة. ودعا بالشيخ منصور مرة أخرى وسأله عما إذا كان من اللازم إجراء الشد المقابل أو التثبيت فى حالة رد خلع العضد أثناء حصول الشد الذى يستدعى مجهودات غير متساوية ومتنوعة وسأله أيضا عما إذا لم يكن من الضرورى تثبيت الشد المقابل وجعله غير متغير فأجاب الشيخ منصور بالإيجاب وشرح أسباب ذلك بالشرح الكافى وأيد أقواله بالدليل الوافى.

ثم دعا بحسين الهيهاوى وسأله عن وظيفة البلورية فى الإبصار وعن الطريقة التى يستغنى بها عن هذا العضو بعد عملية الكتراكته فأجاب ببديهة حاضرة وقريحة نيرة.

ثم سأل إبراهيم النبراوى عما إذا كان يلزم فى عملية الحصاة أن يكون الشق مناسبا لحجمها وعما يلزم إذا كان جرم الحصاة عظيما جداً.

فأجاب هذا التلميذ بقوله أن القثاطير = القسطرة = تدل على وجود الحصاة وتبين مقدار حجمها فإذا كانت الحصاة عظيمة لزم أن يكون الشق متسعا وإلا فإذا كانت كبيرة جداً وخارقة للعادة فى جسامتها لزم استعمال عملية الحصاة فوق العانة.

وعند ذلك سأله البارون المشار إليه عن مقدار المدة التى أقامها فى الدراسة وعما إذا كانت الحصاة من الأمراض العمومية بمصر، وسأله أيضا عما شاهده من أنواعها وعن الأسباب التى توجب حصولها.

فأجابه بقوله: إن لى خمس سنين فى الدراسة وأثناء ذلك شاهدت كثيرا من الحصوات التى تكاد أن تكون مرضا عاما بمصر وينسبونها إلى تكوين مواد رملية تدخل مع الأغذية والمشروبات وتمر بالكيلوس ثم تمتزج بالدم وتدور معه فى العروق ثم تدخل فى المثانة وهناك تكون نواة تكون أصلا للحصاة ثم قال: وعلى كل لانعتبر هذا الرأى حيث إنا للآن لا نعلم حقيقة أصل هذا الداء.

ثم قام كثير من هؤلاء التلامذة وتكلموا على هذه المسألة بما يدل على أنه يوجد بمصر أناس يزاولون فيها عملية الحصاة الصغيرة بواسطة توسيع قناة مجرى البول واستخراجها بطريقة المص (الجذب) وإذ ذاك تم الامتحان وكانت تلوح على جميع الحاضرين أمارات الفرح وعلامات الابتهاج حتى أنهم صفقوا أكثر من مرة دلالة على سرورهم وانشراح صدورهم وقد اختتم هذا المحفل العظيم حضرة البارون المومأ إليه بخطابة بليغة وهاك تعريبها.

أيها التلامذة بنو مدرسة أبى زعبل

إنا نعد أنفسنا سعداء حيث دعينا إلى مشاهدة ما اكتسبتموه بهذه المدرسة من المعارف ومانلتموه من النجاح فى ظلها الوارف. وناهيكم بها مدرسة فإنها حفظت بمصر آثار أزهار القواعد الطبية بعد ما أصابها الذبول وأعادت ذكر اسمها بعد أن اعتراه الخمول، ولا غرو فإن ما غرس فيها من أصول اللطائف الطبية عادت على مصر ثمرته ورجعت إليها فائدته. كيف لا وقد ألقت العناية الإلهية بمصر بين يدى حضرة المليك الأعظم والداورى الأفخم أفندينا محمد على باشا الذى أخذ بزمامها وبحث فى مهامها فأقام ما اندرس من فخار بنيها ونشر ما طوى من رفاهية أهلها، وشيد بها ما قوضته أيدى الزمان من معالم الحضارة والعمران وأنشأ بها مدرسة الطب الذى هو قطب دائرة حياة الحيوان، وقد انتخب لهذا المشروع الجليل والمقصد الجميل النبيل حضرة العلامة الأوحد والفهامة الشهير المفرد صاحب المزايا الجليلة ليعيد بهجة الطب كما كانت فى الأيام التى ازدهت فيها مدرسة الاسكندرية الشهيرة. الا وهو جناب المسيو كلوت بك الذى يرجع إليه ما نلتموه من النجاح، وينسب

له فخار ما رفع لكم من أعلام الفلاح، فلحضرته منا الشكر الجميل والثناء الجزى. هذا ونحن نشكركم معاشر الشبان المصريين فإنا رأينا من تقدمكم ما يدل على زيادة فضلكم فإنكم أصبتم الصواب ونطقتم بفصل الخطاب. مع انكم استعملتم لغة غير لغتكم بما دل على أن ماتعلمتموه هو على أساس متين ونبأ قوى حصين وأيضا فإن إجابتكم اليوم جعلت لنا أملا وطيدا فى انكم ستنهجون إن شاء الله منهج أجدادكم من أعاظم الحكماء وكبار الأطباء كابن سينا والرازى وأبى القاسم وإنكم ستسيرون بحوله تعالى على أثرهم حتى يقال نعم السلف وياحبذا الخلف وأظن أنه غير خاف عنكم أن هذا الطريق هو لكم محجة تقدم وكمال وتعظيم وإجلال، وبه تسمو صناعتكم إلى منتهى الشرف ويرتفع وطنكم إلى ذروة الترف وكأنى بكم وعما قريب تدعون إلى تشخيص ومعالجة الأدواء التى كأنها تعترض مصر حقدا لها على ثروة أهلها وخصوبة أرضها، ولكن لاتقصر همتكم على ذلك فقط بل يلزم أن يكون جدكم واجتهادكم فى توسيع نطاق العلوم التى تنتظر ذلك من مواظبتكم على العمل ومثابرتكم على هذه الصناعة ونطلب منكم البحث بهمة شديدة عن أسباب وطبيعة ومعالجة الأمراض الخاصة بدياركم وأهل وطنكم فاجيبوا سؤالها ولا تضيعوا فيكم آمالها.

إن هذه الجمعية العلمية التى انشرح خاطرها لقدومكم متشوقة لرؤية نتائج هذه الملحوظات التى أوردتها الآن على جيد فطنتكم ونير ذاكرتكم والله يهديكم سواء السبيل.

وكان كلوت بك يبادر إلى فعل ما تستلزمه المصلحة من التنظيم والإصلاح كلما سنحت له الفرص، ووقتئذ زاد الأمل فى اقتراب وجود معلمين وطنيين ذوى أفكار ثاقبة وقد وصلت هذه الإصلاحات إلى الدرجة العليا ثم أمر بنقل المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة سنة ١٢٥٢ هجرية ثم افتتحت مدرسة للقابلات كى يتعلمن فن الولادة لزيادة أهميته، وقال المعلم (للمنض Lallemand) إن عادات المصريين كغيرهم من الأمم الشرقية لاتسمح بتولى الرجال ولادة النساء، ومن ثم كان يرى الحكماء فى الكشف عليهم موانع شديدة وحرمن وقتئذ من فوائد هذا الفن الجليل فشرع الدكتور كلوت بك بإنشاء مدرسة بالمحروسة لتعلم فن الولادة بعد أن لاقى صعوبات ظفر بهذا

الأمر واتضح جليل فائدته، ثم أضيف إلى المدرسة مستشفى للنساء ومدرسة للقابلات، وكانت التلميذات وقتئذ تعدن = تَزُرْن = المرضى فى نفس الأوقات التى يتلقى فيها الدروس وأصبحت النساء اللاتى تعلمن هذا الفن تعالجن النساء الأخريات، ولاريب فى أن هذا الأمر عظيم الفوائد يخلد للدكتور كلوت بك جميل الذكر وكان تعلم القابلات لا يسمح لهن بممارسة الحكمة زيادة عن وظيفتهن ولما وصلت المدرسة إلى درجة عليا واستعدت تلميذاتها لمباشرة هذا الأمر شرع الدكتور كلوت بك فيما يلزم المصلحة الإدارية من الترتيب والتنظيم فأتى بالقوانين الفرنساوية وعمل منها بمقتضى ما رآه موافقا للحكومة المحلية وأسست أماكن للاستشارة الطبية بالمحروسة والإسكندرية وأنشئت مستشفيات عظيمة جداً وجعل لكل قسم أجزاجية وأطباء وبنيت أيضا مستشفيات صغيرة فى جميع البلاد المشهورة من القطر المصرى كل واحد منها يشتمل على خمسة وعشرين سريرا، واستعمل التطعيم الجدرى (الدق) فى القطر المصرى للأطفال والغلمان وتكلف حلاقو القطر المصرى بمباشرته فى البلاد وبهذه الواسطة انقطع الوباء من الجيش والقرى وأخذت الحالة الصحية تتقدم يوما فيوما وقل عدد الموتى فإنه كان يموت قبل ذلك كل سنة ستون ألفا من الأطفال بمرض الجدرى، وغير حالة الإدارة ومراعاة وسائل الصحة تغييرا عظيما فى زمن قليل حتى تضاعف عدد سكان مصر فى مدة خمسة وعشرين عاما ولا ريب فى أن هذا العمل يبيض صفحات التاريخ ويبقى غرة فى جبين الدهر وقد ساعده وساعد الأقطار المصرية أيضا فى أيام الوباء العلاقات والارتباطات الودية التى كانت بينه وبين باريس.

ولنتكلم الآن على حالة المسيو (جومار Jomard) الذى جبل على حب الديار المصرية وبث العلوم والمعارف فى أنحائها فنقول: إن جنابه حضر إلى هذه القطر أيام أن احتلته الجيوش الفرنساوية بصفة كونه عضوا من جمعية علماء باريس، وكان هذا الرجل شبيها بالدكتور كلوت بك من حيث الشغف ببث العلوم والحب فى اتساع دائرة المعارف وفى سنة ١٨٢٦ استرضى المسيو (جومار Jomard) المذكور الوالى بمساعدة المسيو (دروفتى Drovetti) قنصل عموم فرنسا هنا فأرسل نجباء من فتيان المصريين إلى باريس كى يتضلعوا من العلوم والمعارف وينشروها فى قطرهم . فقورن سعيه بالنجاح

وأرسلت مائة شخص من الشبان ووكلت ملاحظتهم له، وهذا هو مبدأ تأسيس الإرسالية المصرية فى البلاد الفرنساوية ولم يزل ناظرا على هذه الإرسالية حتى مات فى سنة ١٨٦٢ مسيحية وخرج من تحت إدارته أبطال نجباء فى العلوم والمعارف كسعادة على باشا مبارك وزير المعارف الحالى والمرحوم شريف باشا الذى كان وزيرا للخديوى السابق إسماعيل باشا والمرحوم مظهر باشا والمرحوم الدكتور محمد على بك ناظر المدرسة الطبية سابقا والمرحوم شافعى بك ولاينسى فضل المرحوم رفاعة بك الذى أسس مدرسة الألسن والمرحوم السيد أحمد أفندى الرشيدى والمرحوم السيد حسين أفندى الهيهاوى الذى كان ذا قوة حافظة عجيبة حتى أنه فى مدة دراسته بباريس كان يحفظ الدرس من أول مرة والتلامذة الفرنساويون تصحح وتكمل مانقص منهم عليه، وكان يخبرهم حرفيا بما قيل ولذلك اشتهر صيته فى الديار المصرية وبالخصوص فى المدرسة الطبية البحرية بإسكندرية فاستحصل على أمر من جنة مكان المرحوم محمد على باشا بأن لا يدخل أحد من الأوروبيين الخدمة إلا بعد بحثه بنفسه مع جمعية من رجال المعارف العظماء وبذلك ظهرت ثمرة أعمال ساكن الجنان محمد على باشا ظهور الشمس فى رابعة النهار ولنصرف عنان القلم إلى ذكر بعض ماكان من الدكتور كلوت بك فى الديار المصرية زيادة على ماسبق فنقول:

قد طرأت فى سنة ١٨٣٠ على مصر (الكوليره chol'era) فكان يموت بها من المحروسة فقط ٢٠٠٠ كل يوم ، وإذ ذاك أبدى الدكتور المذكور من جليل الأعمال مايدل على إخلاصه وحسن اعتنائه.فإنه كان سببا للإنقاذ من مخالب هذا الوباء الشديد الوطأة فكان يمضى الليل والنهار فى معالجة المرضى واتخاذ الوسائل الواقية ووزع تلامذته فى أنحاء البلدة بعد أن مرنهم على العمل وشجعهم عليه بواسطة إقدامه على المضى وعدم خشية العدوى إلى أن تقشعت سحائب هذا الداء وخلت منه البلدة فسر ساكن الجنان محمد على باشا من حسن أعماله وشدة إخلاصه وأنعم عليه برتبة بك التى لم يعطها قبله لمثله، وأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية فى هذا الزمن برتبة (ليجيون دنور L'egion d'honneur) ولما توجه إلى باريس بعد الاحتلال الفرنساوى أخذ معه الاثنى عشر تلميذا سابقى الذكر من مدرسة أبى زعبل

انتظموا فى أعضاء الجمعية العلميـة فى ١٣ خلت من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحيـة، وفى سنـة ١٨٣٥ انتشر الطـاعـون (لبست La peste) بمصر القـاهـرة ففـر بعض الأطبـاء وبعضهم ضرب على نفســه الحجـر الصحى (كرنتينة Quaranttaine) ماعدا الـدكتور كلوت بك وثلاثة من أقـرانه وقد كتب فى ذلك الوقت إلى قنصل فرنسا المسيو (ميموتM.Mimaut) وقت أن كان بالإسكندرية يقول له: نحن أربعة رجال لانفتر عن مزاولة العمل ونرجوا أن يعيش منـا واحـد لأجل أن يبين بعض الملحـوظـات وكـان عمـوم النـاس يعتقدون عدوى هـذا الوباء ولكن الدكتور كلوت بك أظهـر خطأ هذا الاعتقاد الذى ربما يترتب عليـه الضرر باقترابه من المرضى حال المعـالجة، وقد طعم نفســه- أى لقح مـن دم الخراج (والمادة الفحميـــة La mati'ere du Charbon) بحضـور تـلامـذته الـذين جعلهم حكماء لقلـة الأطبـاء وقتئـذ والباعث على ذلك تشجيعهم على العلاج وإزالة الخوف من قلوبهم.

وكان يصوب سهام اللوم والتنديـد من يعتقد العدوى. ففى ذات يوم كان يعالج مريضا نصرانيا قـابضا على يده، وإذا بقسيس تليانى = إيطالى = أتى ليطعمه القربان الأخير فوجد هذا القسيس مغطى من رأسه إلى قدميه بقماش مشمع ماعدا عينيـه اللتين كان موجودا أمامهما ثقبـان فوضع عليهما نظارة من زجـاج ولما اقترب من المريض ارتجفت أعضـاؤه رغما عن شـدة تحفظـه فلامه الدكتور كلوت بك على هذه الحالة فقال كل أمرىء ورأيه.

ومكث على هذه الحالة باذلا جهده فى معالجة المرضى ستة أشهر. فأرسل إليه ساكن الجنان محمد على باشــا الكبير هذا الكلام (لقد كسوت نفسك أيها العــاقـل مـــلابس الفخــر بهذا العمـل الجليل ولـــذلك جعلتـك (جنــرالا G'en'erale) ولما علمت الدولـة الفرنساويـة بما له من الفـوائد أنعمت عليه بـرتبـة (أوفيسيـه دى لاليجـون دنـور Officier de La l'egion d'honneur) وأرسلت له جميع الـدول التى إهتم بعلاج رجـالها نياشين وفى سنة ١٨٤٠ ســافر كلوت بك إلى فرنســا وأظهر هنـاك الكتـابين اللذين ألفهما أولهما يشتمل على التأسيســات والترتيبـات التى أسسها فى مصر، وثــانيهما متعلق بالحوادث الوبائية، وكان هذا الكتاب مقدمة للإصلاحات التى اتخذت فى الحجـر الصحى بعـد نشره وفى هذه المدة تـزوج ببنت أحـد معتبرى تجار

مرسيليا. وفضلا عن تأدية وظيفته المنوط بها كان يعالج أعضاء العائلة الخديوية وعظماء رجال الحكومة السنية فكان مشهورا بالاخلاص فى المعالجة لايبتغى عليها جعلا، ومن ثم كانت الأغنياء والفقراء على حد سواء فى الورود عليه لأجل المداواة، وقد أرسل فى مأمورية بمعية المرحوم إبراهيم باشا فى مدة حرب الشام وكانت تتوارد إليه المرضى من أقطار تلك البلاد وشاهد وقتئذ دمشق وديار بكر ثم انتقل إلى بيروت وصيدا وعكا وحيفا وجبل الكرمل ثم ذهب إلى الناصرة التى كان الطاعون فيها وزار نابلس واسبتالية الجرحى الذين فيها ثم توجه إلى بيت المقدس وغزة ولم يخل فى هذه التنقلات من مداواة المرضى وكان هذا الدكتور شديد الإخلاص إلى المرحوم محمد على باشا وعالجه فى المدة الأخيرة حين استيلاء المرض عليه علاجا ينبىء عن حسن الصدق فى الخدمة ولازمه مدة مرضه وفى سنة ١٨٤٩ مسيحية توفى المرحوم إبراهيم باشا قبل أبيه ببضعة شهور وكانت آماله متعلقة بتتميم ماشرع فيه والده من جليل الأعمال المفيدة فقام بأعباء الخديوية بعده المرحوم عباس باش، ا وطلب منه الدكتور كلوت وقتئذ الرخصة بالتوجه إلى فرنسا فأعطاه إياها فتوجه إلى مرسيليا وأفكاره متعلقة بمصر متأسفا على ما أنشأه من التأسيسات الجميلة والترتيبات الجليلة ولما توفى المرحوم عباس باشا سنة ١٨٥٤ مسيحية وخلفه المرحوم سعيد باشا نجل المرحوم محمد على باشا عاد الدكتور كلوت بك ثانية إلى الديار المصرية لينظم إدارة الطب كما كانت أيام والده جنة مكان محمد على باشا فوصل إليها فى ١٧ يناير سنة ١٨٥٦ وكان عمر كلوت بك فى هذا الوقت ٦٣ سنة، وأخبر الوالى المرحوم بأن (كلوتشى بك Colucci Bey) و (فجرى بك Figuri Bey) و(بريجير بك Burguieres Bey) و(شافعى بك Chafey Bey) و(محمد على بك Mohamed Aly Bey) هم الذين يصلحون للقيام بما يلزم لما أنشأه من الترتيبات، وصار كل منهم يتبادل رئاسة الطب والمدرسة الطبية ولما ارتقى الخديوى السابق اسماعيل باشا إلى سدة الخديوية قام بإجلال ذوى الفضل الذين نبغوا فى العلوم الطبية.

ولما سافر الدكتور كلوت بك إلى باريس سنة ١٨٥١ وجد بها جمعية دولية صحية مشكلة لأجل تنظيم الحجر الصحى بالأمصار فنشر نبذة تتعلق

بهذا الموضوع ولمح فيها للأعمال الضرورية فأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية برتبة (كومندورد ولاليجون دنور Commandeur de la L'egion d'honneur) ثم سعى فى أن يكون عضوا مراسلا فى هذه الجمعية ولكنه لم يوجه إلى ذلك ركاب الطلب حينما بلغه أن المعلم (للمنض Lallemand) طلبه. لأنه كان معلمه وظهيرا له ففضله على نفسه وأعرض عن طلب هذه الوظيفة.

وكان الدكتور كلوت بك لين العريكة لمن تحت رئاسته فخورا بوطنه محافظا على وسائل احترامه معظما للديانة المسيحية.فكانت رجال فرنسا الذين بمصر له عضدا قويا وقد تشكر له رئيس الكاثوليك على ما أبداه من الهمة فى جانب الديانة المسيحية وأنعم عليه (البابا جرجورا Papa Gr'egoire السادس عشر بجملة نياشين ولقبه البابا التاسع عشر (بكونت رومين Comte Romain) وهو ثابت لنجله اليوم وان لم يستعمله الدكتور كلوت بك وهذا اللقب عظيم الامتياز لدلالته على أن الملقب به لم يأخذ الرشوة البتة وتوجه فى سنة ١٨٦٠ مسيحية إلى مرسيليا ومكث فيها معظما بين أقرانه مألوفا لكل من عرفه وبعد زمن اغتالت أيدى المنون زوجته فأسف عليها وتوالت عليه عقب ذلك الأمراض حتى أنهكت جسمه وهدت قواه وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ فارق الدنيا وهو يشير بسبابته ويلوك لسانه قائلا.. الشغل.. الإنسانية اللذين قصر عليهما حياته. فليعتبر الناظر من هذه السيرة ويتيقن من أن العمل الجليل يخلد لصاحبه الذكر الجميل.

(جواب من كلوت بك Clot Bey إلى المسيو رانزى Ranzi بالقاهرة)

حضرة زميلى المحترم

طالما دعتنى رغباتى فى إنشاء العلوم الطبيـة بالديار المصرية أن أقف وأنا إذ ذاك بمعزل عـن الأعمال على كل ما يلم بـا لمصالح الصحية المختلفـة التى أحكمت نظامها وأدرت سياجها وكثيرا ما نادتنى أميالى الغريزية إلى رواج تلك العلوم أن أراقب سيرها وألاحظ بوارق فلاحها وعوامل كسادها.

وبينما أنا مضطرب البال كثير البلبال إذ اتصل فى بداية الأمر خبر مساعى أمير تلك البلاد فى استـدعائك وتصميمه على أن يعهـد إليك بريـاسـة المدرسة الطبية لتمـدها من وسيع علمك وترشـدها بغزيـر فضلك قطرت لذلك فـرحا وانشراحا وابتهجت مسرة وارتياحا، وأيقنت بالفوز المبين ووطنت نفسى على أن المولى جل شأنه سيكلل آمالـك بالنجاح الباهر ويجعلهـا غرة فى جبين هذا العصر الـزاهر ويلحقهـا بأعمالك السلف الجليلـة وأن وطنيك = مـواطنك = الدكتور (راجى Raggi) ليكون معوانا لك على نـوال هذه الغاية التى تسعى إليها وتدأب فى الحصول عليها.

وقد علمت بعد ذلك بقليل أنك لبيت أنت والـدكتور راجى ما عرض عليكما وإنكما قـد بلغتما مصر ولم يكن إذ ذاك قـد تنـوسـى شىء من حسن نتـائج امتحـان التـلامذة الـذين اختبرهـم وشهـد بطـول بـاعهم الأستـاذ (للمنض Lallemand) الشهير. لأنـــه لم يمض كبير زمن بين انفصـــالى عن أعمالى وبين التحاقك بوظيفتك. ومع ذلك فقـد وفقك الله إلى أن تقدر تلك الأعمال حق قدرها وتسبر غـور ماتجشمته من المتاعب وذللتـه من المصاعب وتعلم مبلغ الهمة التى بذلتها والعناية التى صرفتها للوصول إلى إيجاد هذا النظام الجديد وتقريره على وجه سديد يعود على الطلبة بالخير الجزيل والفضل العميم.

وقد أخذت بحول الله فى العمل فحـذوت فى سيرك البروجرام الذى قرر لك لعلك تعثر على إصـلاح وتهدى إلى فلاح فانتهجت أقوم المسالك وظفرت بأنجع المناهج حتى إذا حانت ساعة الاحتفال بتحديد عهد هذا العمل الجليل ورفعت أعـلام البشـارة بنـوال الأمـانى أشركتنى معك فى ذلك اليـوم السعيـد وقمت

فشمرت عن ساعد الجد وطفقت تذكر للناس حسن صنيعي وتعرفهم بمنزلتي ومكانتي وتستلفت إلى زميل لم تكن رأته عيناك قوما بذلت النفس والنفيس حينا من الزمن فى سعادة وطنهم وخدمة بلادهم فأوجبت عليهم شكرى ودعوتهم إلى رفع ذكرى.

وإن الخلال الحميدة والمناقب الفريدة التى أبديتها فى زمان كثر حاسده وفشى فاسده لخليقة بأن أهدى إليها سويداء قلبى وأجعلها فرضى ونفلى وأنى أسألك أن تقبل وافر امتناني وعاطر ثنائي وتتيقن أنى لو قدمت إلى تلك البلاد وتشرفت بمقابلة الأمير كنت أول مطمح نظرى ومسرح فكرى لأصافحك يدا بيد وأبذل لك خالص الود.

وهذا جواب المسيو رانزى ردا على كتاب كلوت بك

كتبه إليه فى تاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤

حضرة زميلى الأجل الأكرم

إليك جزيل شكرى ووافر امتنانى على ما قلدتنيه فى كتابك من حلل مجدك إقبالك وماكاشفتنى به من عظيم عنايتك وجليل رعايتك التى برهنت على أكيد مودتك وصادق محبتك وبعد: فإنى ما نبهت القوم يوم الاحتفال إليك وما عطرت الأندية بذكراك إلا قياما بما يفرضه على التاريخ الذى قيد اسمك توأما للمدرسة الطبية وعلما على جميع المصالح الصحية وإظهارا لسمو مكانتك فى القلوب وخطر شأنك فى النفوس، ورغبة فى تعريف التلاميذ الذين هم غرس يديك ونسيجك وحدك بما لك عليهم من الأيادى البيضاء والمنن الغراء كيما يقوموا ببعض الواجب فيوفوك حقك من الثناء الجليل والاعتراف بالجميل ولعمرى لقد كان ذكر اسمك جزية لا أرى بدا من تأديتها إليك وليس من العدل جحودها والتغاضى عنها.

ولقد علمت مقدار الحمل الثقيل الذى أخذته عى عاتقى وألقيت مسئوليته على نفسى يوم قبضت على زمام تلك المدرسة التى استوفيت أنت علاجها وأوضحت منهاجها. فأعملت فكرتى وأجهدت طاقتى وبذلت ما فى وسعى وصرفت جل اهتمامى عسى ربك أن يهدينى إلى طريقة تمكننى من إعادة ذلك المجد الذى فقدته بعد بعدك عنها ورد السمعة التى استلبها الدهر منها وكن

على يقين أنى سأواصل الليل بالنهـار لالتماس هذه الضـالة، وحاشـا لله أن أدنس شريف عملك أو أقصر فى المحـافظـة على تلك النعمـة المقـدسـة التى غرستها فى هذه البلاد وأنرت مشكاتها للعباد.

على أنه إذا أراد الله سبحانه فغير الأحوال وبـدل الأشكال وأعاد للمدرسة الطبية المصرية تاجها القديم وزينها بعقدها النظيم فهنالك يزداد الأمل وثوقا بالنجـاح، وتبرق ثانية بـوارق الفلاح ولتعلمن أنـه لو تم هذا الأمـر ولو قبل مضى زمان عقـد الاتفاق فلا يسعنى سوى أن أقـابله بغاية الفـرح والقبول فإنه يكون غاية المأمول ونهاية المسئول لما يترتب على ذلك من إهداء الحقوق إلى ذويها وإعطـاء القـوس بـاريها ولاتحسبن أنى أصير إذ ذاك خلـوا من الأعمال فإن لى مقامـا محفوظا بمدينـة (فلورانسا Florence) لدى حضرة (الغراندوق Grand Due)

وإنى لمقيم على ولائك صـادق فى إخـائك متهـالك فى محبتك، وليس هـذا بالعجب العجـاب فإن الأبرار من النـاس قد عرفـوا بخلوص النيـة وامتازوا بصفاء الطويـة ومهما كان مآل هذا الحال فحسبى منـه مانالنى من الشرف وعمنى من الفرح بسبب هذا التعارف ومبادلة مانحن عليه من التآلف على أنه وإن كـان هذا الأمـر قد ينشأ عنـه انحـلال فى عرى المودة وفتـور فى روابط الاتحاد عند قوم لم تهذب نفوسهم، ولم تطهـر من الدخل قلوبهم فإنا بفضل الله قد أصبحنا فى نعمة وحسن مآب.

زميلك المخلص فى مودتك

(رانزى)

خطاب للحضرة الخديوية السعيدية فى إعادة فتح المدرسة

سيدى الأعظم

مما جبر خاطرى وأعلا قدرى وشرح فى هذا القطر صدرى أن سدتكم العلية لما جلست على تخت الحكومة المصرى تفضلت على بإعادة افتتاح المدرسة الطبية التى كنت أبستها فى الأيام الأولية وسلكت فيها بالطرق المستحسنة مدة خمسة وعشرين سنة فأرى من واجب الشكر على تلك النعمة أن أظهر لأعتابكم ما أديته من يوم فتحها من الخدمة مما رقته جداول الامتحان العام عما اكتسبه التلامذة فى هذا العام.

هذا. وكم لأعتابكم من المقاصد الجليلة الحائزة لكل فضيلة المقرونة بالانعام والمنن العائدة على هذا الوطن كمساعدة التجارة وتلطيفها ورفع الأثقال عن الرعية وتخفيفها وتسهيل السكك الحديدية لتقريب كل بعيد وتسهيل طرق السفر فى البر والبحر وتعديل الأحوال فى فتح القنال وفعل ما يجب ذكره وتفرض على سائر الدول شكره. سيما وبحسن الالتفات بعين العناية والنظر إلى المصلحة الطبية بكل رعاية يجب أن تلقب أيها الملك الكريم بلقب الفتو، وأن تعد سندا للإنسانية والمروءة.

خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا

أيها السادة الكرام

لايخفاكم ما اعترانى من الهيام وأنا فى هذا المحفل محاط بالذوات الكرام والعلماء الأعلام. فأحيطكم علما أنى أمضيت ثلاثين سنة تحت رعاية الشهم الفضيل والباشا الأعظم النبيل المضمز على نشر العلم وثمرته بين أهل مصر رعيته وبأمره أنشأت مدرسة الطب وحليت ثغرها وأعليت بين بقية المدارس قدرها وأرى الآن رجال تلامذتها الأول حولى باذلين غاية جهدهم فى مساعدتى على تجديدها وتقويتها وتعضيدها بما عندهم من الهمة الدالة على ما اكتسبوه المفصحة عن ثمرة العلم الذى طلبوه مما يظهر الفرق بين المدرسة السابقة وبين هذه المدرسة اللاحقة.

ولايخفاكم أيها السادة تلك الطرق المتبعة فى التعلم والتفنن الجارية عند أهالى الدول الساعين فى التقدم والتمدن. وهى منفعة اللغات الأجنبية وإدخالها فى هذه الديار المصرية فإنا نعلم علم اليقين أن شرطها جازم وفعلها متعدد ولازم. إذ بها يتوصل إلى ثمرات كثير من العقول ومعرفة حركاتها فى كل معقول ومنقول. فمن ثم أنشأت المدرسة الطبية، و جعلت فيها فرقة تجهيزية وقيدت ضمن دروسها اللغات الأجنبية انتظارا لنتيجة المدرسة التجهيزية الكبرى التى كان والى مصر الأعظم قد أمر بإنشائها لتدريب الشبان على الدخول فى المدارس الخصوصية الأخرى.

وتلك أعظم طريقة للقطر فى إحياء مهجته وإظهار رونقه وبهجته وإعادة ما كان على ما كان وتجديد ما سلف فى غابر الأزمان ولكن ماالعمل فى بعض العقول التى لاتتفكر ولا تطلع على ما قالته أهل الفراسة وأهل التاريخ فنتذكر ألم يلتفتوا إلى المدحة فى تلك العقول المصرية ولا يزالون مصممين لهم على عدم القابلية حتى يتركوهم على حالتهم مستغرقين فى فترتهم وجهالتهم

وينسون أنهم كانوا أول أمة أخـرجت للناس، وأشرف من رفعوا قواعد العلم على خير أسـاس ، وأن رجـال اليـوم هم ذريـة الأقـدمين ونتـاج الأوائل من المصريين الذين كانوا تاجا للأمم المتقدمة وإماما للدول المتعلمة (مصر) وكان قدماء اليـونان يرسلون طلبتهـم إليها ، ويرتكنون فى اكتسـاب العلوم عليها، وكم تمتع أهلهـا فى أزمان الخلفـاء على أعظم حظوة وتخلصـوا فى مدتهم على درجـة جسيمـة مـن العلم والثـروة، ثم لما استـولت عليهـم الغـز وتملكتهم وأثقلتهم بأحمال الجور وأهلكتهم خبـت أنـوار مصـابحهـم وخمدت جـذوة قرائحهم لكن بجودة الحكومة وحسن التفاتها ونشرها التعليم فى البلد وسائر جهـاتها لابد من تيقظ تلك القـرايح الخامدة وتليين هـاتيك الطباع الجامـدة ورجوع الفرع لأصلـه فى العلو وازدياده عنه فى الكبر والنمو ألا تـرى ما ظهر منهم فى زمن المغفـور له الحاج محمـد على باشـا كـالعساكـر التى اقتحمت الأخطار وانتشرت للحروب فى بعيـد الأقطار، وشهدت لهم الدول بـالحماسة ولضباطهم بحسن السياسة والرياسة؟ أليسوا هم الفلاحون الذين تسلطت عليهم الغز وأهلكتهم وأتلفت طبـائعهم وتملكتهم حتى صاروا يـرتعبون من أدنى القواصة ويتذللون لأنذل البصاصة؟ وكذلك أصول التلامذة المخرجين من المدارس المصريـة المرسلين إلى البلاد الأوروبيـة مركـز الفنون والعلـوم ومعدن المنثور والمنظوم فإن رجال أوروبا عـرفوا قدرهم وحرروا الشهادات الفائقـة لهم فلا وجـه حينئذ للأقـوال المبطلة والآراء المعطلـة التى تدعى بما لاتعى من أن العقول المصرية غبية. كـلا فإن المصرى لاعيب فيه إلا من تركه وإهماله وعدم تشغيلـه بالعلم واستعماله وبحسن إدارته وتـدريبه وتنقيحه وتهذيبه تزول عنه العيوب وتنكشف لـه الغيوب وتعود الخلقة لمادتها الزكية وفترتها الأصلية.

وعلى المعلمين الازديـاد فى الاجتهـاد وإرشاد الطلبـة إلى سبل الـرشـاد إذ بحسن الإدارة وجميل النصائح تـزكو العقـول وتجلى القرايح وتـرفع أعلام الطب على حصـون المدارس وتقام شعـائر الإنسانيـة فى المحافل والمجـالس وأسـألكم أيها السـادة الأعضاء عما طولت فيما إليـه فى تلك المادة عولت فانكم إن نظـرتم إلى السبب الباعث إلى التطـويل وعلمتم الداعى إلى هـذا التأويل من ذكر ما أثبته وحققته ومـا صرفت عليه من نفسى وأنفقته تحقق لديكم عذرى

ووجب لكم شكرى.

وحيث إن مصلحة الطب لصحة العموم نافعة، وإنها للمروءة من الأمراض شافعة وإنكم ولاة أمرها وخزائن سرها وجهرها فلنا الأمل الزائد فى أن يتحصل القطر منها على جزيل الفوائد وإذا نظرنا إلى أهمية تلك المأمورية وما أحيل عليكم فيها من المسئولية رأينا أن اجتهادكم فرض لازم وفعل أمر واقع بعد جازم. لنكون قد أدينا التشكر لولى أمرنا الذى يسره الله لنا . فإنه أعزه الله وأكرم مثواه يحب العلم لرعيته والتمدن لأمته ويود أن أنواره تسرى على سائر بلاد هذا القطر المصرى.

خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور كلوت بك

فى الساعة التاسعة من صبيحة اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٤ هجرية الموافق ٦ أبريل سنة ١٨٥٨ مسيحية احتفل بامتحان تلامذة المدرسة الطبية احتفالا شائقا حضره صاحب السعادة وزير الداخلية مندوبا من لدن جناب الأمير وجملة من الوزراء وكبار الموظفين والعلماء الأعلام ولفيف من مشاهير الأطباء الأجنبيين فافتتح حضرة الدكتور كلوت بك الحفلة با لمقال الآتى:

سادتى: إنى أرانى سعيد الطالع لوقوفى هذا الموقف مرة أخرى أبرهن على ما حصلتم عليه من النجاح العظيم والفوز المبين فى هذه المدرسة التى كنت أول من تقلد زمامها وأحكم نظامها وأنى لآمل أن تكونوا فى خلال هذه المدة التى مضت عليها منذ تجديد عهدها وافتتاح أبوابها قد أحسنتم القيام بما كلفكم به حضرات الأساتذة الماهرين الذين أخذوا على أنفسهم تثقيفكم وإعلاء شأنكم وقاموا ببث روح العلم فيكم فإنى أعتبر فلاحكم غنيمة يحسن وقعها وتحلو عادة ذكرها وتطيب النفس بها ولاسيما فى هذا الوقت الذى أصبحت الراحة لى فيه من ألزم اللوازم لذهابى فى الشيخوخة وانحطاط قوتى.

ولست أرى من حاجة لتعريفكم بما يجب عليكم لمعلمكم من حسن الطاعة والامتثال وما ينبغى أن تتخلقوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الخلال

وإياكم أنتم معشر التلامذة الذين أتممتم دروسكم وستبدأون بحول الله فى مزاولة صناعتكم أن تفرطوا فيما تلقيتموه عن أساتذتكم وتطرحوه وراءكم ظهريا. فإنهم جزاهم الله لم يقرروا ما قرروه إلا بعد أن سبروه بمعيار الحكمة وعرضوه على ميزان الاختبار. وحاذروا أن تقبلوا ما يتناقله البعض من الخرافات المعبر عنها عندهم بعلوم السحر والطلسمات التى لاتزال قائمة فى الشرق محترمة فيه حتى الآن، وقد يأباها العقل السليم ويمقتها الدين القويم ولا تألوا جهدا فى تتبع المتجددات الزمانية واقتباس الاكتشافات العلمية فلقد قال أبو الفنون الطبية: « العلم عسير والعمر قصير» فعليكم والحالة هذه أن تصرفوا عنان السعى وتبذلوا قصارى الهمة حتى تبلغوا شأن آبائكم الأولين وتعيدوا للمدرسة المصرية مجدها القديم، واعلموا أنكم مادمتم محافظين على دواعى ارتقائها مجدين فى مراعاة أسباب أعتلائها فقد أمنتم شر الانقلاب، وتجاوزتم العطب بعون الملك الوهاب فإن هذا التقدم الباهر الذى أحرزتموه ليس سببه فقط تضلع الأساتذة وتسابق التلامذة وإنما هو على الأخص ثمرة النظام ونتيجة الإتقان والإحكام.ولقد أسفت على عدم إمكان الوصول الى تأييد مستقبل هذه المدرسة وتثبيته على وجه يضمن بقاءها ويعمل على توسيع نطاقها وإعلاء شأن العلم فيها، ولكنا لانيأس من روح الله فإن لنا أملا وطيدا بأن حضرة الأمير الأبر سيقتفى سنن والده الخالد الأثر فيساعدنا على نوال هذه النعم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولقد أثنى أحد مشاهير الرجال على ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الأكبر حين قام بإنشاء هذه المدرسة فقال : «قد يجهل الإنسان أسماء الملوك الذين شيدوا الأهرام ولكنه لا ينسى أبداً أولئك الذين يطوقون الأعناق بهذه المنن الجسام».

■■■■